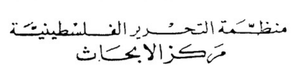
سلسلة "كتب فلسطينية" - ١٣

إسرائيل الكبرى

دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني

الدكتور
أسعد رزوق





إسرائيل الكبرى

دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني

Dr. Ass'ad Razzouk,

GREATER ISRAEL:

A Study in Zionist Expansionist Thought,

Palestine Books No. 13,

Palestine Research Center,

606 Sadat St., Beirut, Lebanon.

سلسلة "كتب فلسطينية" _ ١٣

إسرائيل الكبرى

دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني

الدكتور
أسعد رزوق

مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية
٦٠٦ شارع السادات - شقة رقم ٢٢ - بيروت - لبنان
تموز (يوليو) ١٩٦٨

محتويات الكتاب

صفحة

القسم الثاني

من هرتزل الى بلفور

القسم الثالث

من بلفور الى بن غوريون

صفحة

القسم الرابع

عصر بن غوريون

صفحة

تمهيد

رافقت فكرة « اسرائيل الكبرى » الحركة الصهيونية منذ مولدها ، ومنذ أن بدأت الحركة تعمل (وخاصة من خلال المنظمة الصهيونية العالمية واجهزتها المختلفة) لاقتطاع فلسطين ، او جزء منها ، او هي وبعض الاراضي المجاورة ، من الوطن العربي وتحويلها ، بالقوة والعنف والدس والدهاء والاغراء والارهاب والتآمر ، الى وطن قومي لليهود ــ حتى كاد الحديث عن « اسرائيل الكبرى » يكون هو نفسه الحديث عن « اسرائيل » ، وهو نفسه ، الحديث عن « الحدود » التي ارادها الصهيونيون لكيانهم المغتصب في فلسطين . والادب الصهيوني السياسي غني بالحديث عن « اسرائيل الكبرى » ، وعن التطورات والخطط والبرامج والمساعي لها . وفي المكتبات المختصة بالقضية الفلسطينية الكثير من الوثائق في الموضوع . لذلك كان من الضروري جدا لمركز فكري كمركز الابحاث ، يحرص ان يرصد الافكار والمشاريع الصهيونية ويسجلها ويدرسها من مصادرها الاصلية ويبيّن في النهاية اخطارها على الاماني والحقوق العربية ، ان يتعهد دراسة مفصلة في فكرة اسرائيل الكبرى وتطورها التاريخي ، عبر السنوات من العهود التاريخية والاحزاب العقائدية والمنظمات والمفكرين ، منذ ان نشأت كفكرة عدوانية الى ان سارت ، كما هو الحال الان ، شوطا بعيدا في طور التنفيذ ، بعد ان ابتلع الصهيونيون فلسطين كلها وجزءا من الجمهوريتين العربيتين المجاورتين ، المتحدة والسورية ، والى ان اصبحت ايضا شعارا علنيا صريحا ترفعه المنظمات والحركات المختلفة في فلسطين المحتلة بلا تحفظ ولا تردد .

لقد عهد مركز الابحاث الى الدكتور اسعد رزّوق ان يقوم بهذه الدراسة الطويلة وامّن له تفرغا كاملا لاكثر من ستة اشهر ، واضعا بين يديه المئات من المصادر والوثائق ذات العلاقة بالموضوع ، من كتب ومقالات وملفات صدرت عن العشرات من الهيئات الصهيونية وعن العشرات من كبار

رجالات الحركة والاحزاب الصهيونية ، في مدة تقارب المئة سنة . وقد جند المركز جميع امكاناته وكامل جهازه التحريري والمرجعي لتزويد المؤلف بكل ما له علاقة مباشرة بالموضوع . وان كان مركز الابحاث يقوم عادة بتزويد مؤلفيه وباحثيه بالعديد من المصادر والتوجيهات اللازمة لهم في اعداد ابحاثهم ، ولا يقتصر دوره على مجرد اخذ الابحاث جاهزة ونشرها وتوزيعها، فان هذا الكتاب خير دليل على اهمية واثر الجهد المشترك الذي يبذله باحث متفرغ وجهاز مركز الابحاث التحريري والمرجعي، معا ، في اصدار دراسة ما .

انيس صايغ

المدير العام لمركز الابحاث

مقدمة

تهدف هذه الرسالة بشكل عام الى محاولة القيام بعرض تاريخي لفكرة « اسرائيل الكبرى » ورصد التطورات او التعديلات التي طرأت عليها ، منذ بروز تلك الفكرة الى حيّز النصوص المكتوبة حتى اقدام « دولة اسرائيل الصغرى » على احتلال القسم المتبقي من فلسطين ، بالاضافة الى مواقع ومناطق من اراضي الدول العربية المجاورة بعد الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . لذلك يقودنا البحث في طبيعة تلك الفكرة ودلالتها الى الرجوع نحو مصادرها وتفحّص اصلها ومنشأها قبل المضي في متابعة رحلتها المتقطعة عبر القسم الاعظم من اطوار التاريخ . ويؤدي بنا ايضا الى الفترات والمراحل المتصلة من حياة تلك الفكرة ، حتى نصل الى قيام الحركة الصهيونية المنظمة على صعيد عالمي ولبسط شتى المساعي التي بذلتها في سبيل وضع الفكرة موضع التنفيذ . كما انه لا يفوتنا التوقف عند تلك الحركات والتيارات والافكار التي انطلقت من مصادر غير يهودية لتعلن صهيونيتها قبل تلفت اليهود صوب الدعوة الصهيونية الحديثة بعشرات لا بل مئات من السنين . وقد آثرنا استخدام عبارة « الصهيونية الاممية » (Gentile Zionism)* للدلالة عليها ، وبغية اظهار الدور الذي لعبته ، اما بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في تشجيع قيام الصهيونية وفي بلورة فكرة « اسرائيل الكبرى » بنوع خاص . ولا شك ان موضوع « الصهيونية الاممية » هذه وارتباطها بالعديد من المشروعات الرامية الى ترسيخ اقدام الاستعمار اليهودي بفلسطين ، يتطلب دراسة على حدة . فالجذور الدينية لفكرة « اسرائيل الكبرى » ، والمعتقدات اليهودية التي غذتها ، بالاضافة الى الحركات الدينية المسيحية المتصهينة ومشروعاتها الداعية الى ارجاع اليهود واسترجاع فلسطين — تحتاج كلها الى بحث مستقل يتناولها

* انظر : Christopher Sykes, «Two Studies in Virtue», London, 1953, p. 149.

بالتفصيل والتحليل . لذا فقد جاءت الاشارة اليها وفقا لمقتضيات النواحي التي عالجتها فصول هذه الدراسة . وجرى اغفال النشاطات الصهيونية والمتصهينة خلال القرن التاسع عشر ، وفي الفترة الممتدة من حملة نابوليون بونابرت (١٧٩٨) مرورا بفتح ابراهيم باشا المصري لسوريه وفلسطين وسائر مشروعات « التهدئة » و « الاستعمار » (١٨٤٠) حتى ظهور الدعوة للقومية اليهودية الحديثة على يد موزس هس في كتابه « رومه والقدس » (١٨٦٢) ، بنوع خاص . كما تركت النشأة الدينية للفكرة والاحياء الذي شهدته منذ القرن السادس عشر على يد الصهيونية الاممية خارج نطاق هذه الدراسة ، مع العلم بأهمية الدور الذي لعبته « الصليبية الجديدة » في تشجيع الحركة الصهيونية وايقاظ اليهود على قوميتهم من زاوية تسخيرها للاغراض والمطامع الاستعمارية وتوسلها لتحقيق بعض المعتقدات الدينية المغلوطة .

بيد ان هـذه الدراسة تشكل في الواقع مجموعـة من الابحاث والدراسات التي يجمع بينها قاسم مشترك : فهي تدور كلها حول الصهيونية كفكرة ودعوة وحركة توسعية . وتحاول التوقف عند شتى مظاهرها ، لكي يتسنى لها ابراز القسط الذي ساهم به كل مظهر من تلك المظاهر المتعددة في تغذية فكرة « اسرائيل الكبرى » وتوجيهها على الصعيد العملي .

ولا بد من الاشارة ها هنا الى الزاوية التي تنطلق منها معالجة الموضوع والتي يجوز بالتالي اعتبارها احدى المرتكزات الرئيسية في الحركة الصهيونية والطابع العام الذي تتسم به فكرة استرجاع فلسطين واحتلال يهود العالم لأرضها من جديد . فالسياسة الصهيونية وبرنامجها يقومان على مبدأ الاريدنتية الدينية (Religious Irredentism) . ولفظة الاريدنتية هذه ايطالية المنشأ ، يرجع تاريخ استعمالها للمرة الاولى، على ما يبدو، الى عام ١٨٨٣ في اللغة الانكليزية (انظر Shorter Oxford English Dictionary) . وقد شاعت في السياسة الايطالية لفظة الاريدنتي (Irredentista) منـذ ١٨٧٨ لوصف انصار الحزب الذي كان ينادي آنذاك باسترجاع جميع المناطق الناطقة بالايطالية والخاضعة لبلدان اجنبية وضمها الى الوطن الايطالي الأم تحت شعار «Italia irredenta» ، اي ايطاليه التي ما زالت تنتظر الخلاص والافتداء والتحرير والاسترجاع . ولو شئنا استطلاع المدلول الحديث والملازم لمعنى اللفظة المذكورة لافادنا معجم « **المورد** » بما يلي : الاريدنتية يقابلها في العربية عبارة « التحريرية الوحدوية » ، وتعني « المبدأ السياسي الذي ينادي بتحرير القاطعات المتصلة تاريخيا او عرقيا

بوحدة سياسية ما (والخاضعة حاليا لوحدة اخرى) وجمعها في نطاق هذه الوحدة الطبيعية » . بينما الاريدنتا (Irredenta) او الجزء المسلوخ ، هي تلك المقاطعة المتصلة تاريخيا او عرقيا بوحدة سياسية ما ولكنها خاضعة حاليا لوحدة اخرى » .

مما لا شك فيه أن المرتكز الاريدنتي المذكور هو بمثابة سيف ذي حدين ، امضى بيد العرب منه بيد الصهيونيين ! ومما يزيده مضاء عربيا تجريده عن الصبغة الدينية اللازمة له بيد الصهيونية . والواقع ان الاريدنتية الصهيونية تمثل الطابع العدواني والتوسعي للمبدأ المذكور على اكمل وجه . فهي لا تمتّ الى « التحريرية الوحدوية » بصلة تذكر ، الا متى اقدمت على تحوير النصوص الدينية وتسخيرها لاهداف وغايات دنيوية بعيدة كل البعد عن المضمون الروحي للديانة اليهودية . وليس قيام « اسرائيل » منذ ما يقارب العشرين عاما سوى احد المظاهر البارزة والصارخة لمبدأ الاغتصاب والاحتلال الصهيوني . كما ان الاحتماء خلف اقنعة « حرب الاستقلال » و « حرب التحرير » ــ اذ تصف « اسرائيل » على مسرح العالم ملابسات قيامها ومبرراته بالعبارتين المذكورتين ــ لا يغيّر شيئا من عقدة التوسع الصهيوني ، بل يزيدها حدة وامعانا في العدوان والاغتصاب . وهو بالتالي خير شاهد على طبيعة الاريدنتية الدينية التي تمثّل ابرز البواعث المحرّكة لفكرة اسرائيل الكبرى . الا ان ذلك لا يعني تجاهل المطامع اللادينية الاخرى وهي التي تلتقي مع الاستعمار ونوايا الاستيلاء على مقدرات الغير على صعيد واحد . حتى ان اللجوء الى نصوص الدين يغدو بمثابة ذريعة تستخدم في تبرير البواعث المادية والعينية للمطامع التوسعية الصهيونية .

ولسوف تطالعنا امثلة لا حصر لها على هذا الطراز الاخير من التفكير الذي يتراوح بين واقع اسرائيل العيني و « التاريخي » من جهة وبين المثال الاعلى او « اليوتوبيا » التي تصبو الصهيونية الى تحقيقها تحت ستار « الميثاق » الذي يقول سفر التكوين ان ابراهيم عقده مع اله اسرائيل . على اننا لن نتوقف عند الصيغ التوراتية المتعددة ، او ما دعي بالتصورات الخمسة لارض اسرائيل كما نجدها في الكتاب المقدس ، لنرى كيفية تطابقها مع تغييرات الوضع التاريخي الذي لازمته . ثم نبين الهوة الشاسعة التي تفصل بين ما يعرف عادة بـ « ارض الميعاد » (Land of Promise) و « ارض الملك » او « الامتلاك » (Land of Possession) ، بل نكتفي بعرض الصور المختلفة التي ترسمها الصهيونية لخريطة « اسرائيل

الكبرى » والحدود التي تدّعيها بحجة شتى المبررات لأرض اسرائيل « التاريخية » .

اما المنهج الذي تتبعه الدراسات التالية في محاولتها تقصّي جذور فكرة « اسرائيل الكبرى » ورسم معالمها البارزة بالاضافة الى تبيان العوامل المتفرقة في تكوين تلك الفكرة ، فيمكن تلخيصه على الشكل التالي :

اولا : اعتماد النصوص الاصلية ، من دينية وعلمانية ، ومن يهودية وغير يهودية، لاستخراج جذور الفكرة واظهار الاطار العام الذي تدور فيه .

ثانيا : العودة الى وقائع التاريخ وحقائقه التي توصّل العلم الى التحقق منها واقرارها ، بغية الاستناد عليها في توضيح الملابسات اللاحقة التي تحيط بنشأة التصور الصهيوني لقيام « اسرائيل كبرى » .

ثالثا : الاستعانة بمعطيات الجغرافية العامة ، والجغرافية التاريخية لفلسطين بنوع خاص ، لاظهار مدى ارتباطها — وطبيعة ذلك الارتباط — بالتطورات والتحركات السياسية عبر التاريخ عموما ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بصورة خاصة .

رابعا : « الرجوع باستمرار الى « الخريطة السياسية » والى خرائط الصهيونية التوسعية في محاولة لاستخلاص المفهوم الصهيوني لفلسطين كوحدة جغرافية تتأرجح بين حدين متباعدين : الحد الادنى والحد الاقصى لاسرائيل الكبرى .

خامسا : ابراز دور النفوذ الاجنبي وسياسة المصالح الاستعمارية في رسم خريطة لفلسطين حتى تأتي ملائمة للمخططات الصهيونية ، والتوكيد بأن « رسم الخرائط في الشرق الاوسط لم يكن ليتم ابدا بمعزل كلي عن السياسة » وملابساتها المختلفة .

سادسا : تقييم حركة « الصهيونية الاممية » وتعيين المساهمة التي قدمتها ، بصورة غير مباشرة او مباشرة ، نحو تكوين فكرة « اسرائيل الكبرى » و بلورة مفهوم « ارض الميعاد » . والتمييز بين شقيها : الاكليريكي (Ecclesiastical) والعلماني (Secular) مع ما يستتبع ذلك من دوافع سياسية وامبريالية واستراتيجية، في محاولة لاظهار الصلات القائمة بينها والنقاط التي التقت عندها .

سابعا : متابعة المصير الذي آلت اليه فكرة « اسرائيل الكبرى » خلال فترة الخمسين عاما التي تفصل بين صدور وعد بلفور (١٩١٧) وامتداد العدوان الصهيوني بعد الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

أ ـ دراسة المطامع التوسعية الصهيونية والمواقف السياسية للحركة الصهيونية منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) وتقديم مذكرة المطالب الى مؤتمر الصلح في فرساي (١٩١٩) واقرار صك الانتداب في عصبة الامم (١٩٢٢) وبروز الحركة التحريفية (١٩٢٥) والمنظمة الصهيونية الجديدة تحت زعامة جابوتنسكي (١٩٣٥) حتى قيام دولة اسرائيل (١٩٤٨) .

ب : استعراض التطورات والتعديلات المؤقتة التي طرات على الفكرة منذ قيام اسرائيل (١٩٤٨) ووضعها المخططات التوسعية موضع التنفيذ على صعيد الاستراتيجية العسكرية وتحت ستار « الحرب الوقائية » التي كشف عنها العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وجاء عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ ليؤكد على دخول الفكرة التوسعية في مرحلة جديدة تسعى لفرض الامر الواقع بحجة تعذر الوصول الى سلام دائم وعقد معاهدة صلح مع العرب .

ثامنا : تحليل التصريحات التي اخذ زعماء اسرائيل يطلقونها ويجاهرون بها منذ العدوان الاخير ، والتوقف عند المزايدات السياسية والتوسعية التي تبنتها المنظمة الجديدة لـ « حركة ارض اسرائيل الكبرى » . ثم محاولة تفهم التحول السريع و « المفاجىء » والذي انعكست آثاره على صفحات الجرائد الاسرائيلية فاظهر المراحل التالية داخل عقلية التوسع الاقليمي الصهيوني :

فقد اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي ، موشيه دايان ، قبل ظهر نهار الاثنين الواقع في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من محطة اذاعة اسرائيل ، بأنه « ليست لدينا اية مطامع توسعية غازية » . واستعرضت مجلة «نيوزويك» الاميركية في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ حصيلة التطورات الدعائية التي ادت الى خروج ليفي اشكول ، رئيس الوزارة الاسرائيلية ، عن مناوراته وتحفظاته بصدد مشروع

« اسرائيل الكبرى » على الصورة التي يمكن ايجازها بما يلي :
« اخذت صحافة اسرائيل في فورة النصر الاولى تسمّي المكاسب الاقليمية بـ « المناطق التي تم الاستيلاء عليها ». وسرعان ما تبدلت تلك العبارة فاصبحت « المناطق المحتلة » . وافسحت العبارة الاخيرة المجال بدورها امام عبارة اخرى « المناطق المحررة » . وكانت آخر التسميات ـ ونهاية المطاف ـ ما خرج به ليفي اشكول مؤخرا ، اذ اخذ (منذ اواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، بعد ان سبقه الى ذلك كل من موشيه دايان وكبار الحاخامين وزعماء الاحزاب الاسرائيلية ويغال آلون) يتحدث صراحة عن «اسرائيل الكبرى» ومتطلبات الامن والحدود الجديدة .

تاسعا : الربط بين التطورات الاخيرة وملابساتها من جهة والمخطط التوسعي الصهيوني من جهة ثانية ، والتوكيد على وجود فكرة « اسرائيل الكبرى » ضمن مقومات البرنامج الصهيوني المستترة، ثم محاولة اظهارها كهدف اسمى يعتبر من صلب حركة الاريدنتية الدينية الصهيونية .

عاشرا : خاتمة الابحاث والدراسات ، واستحضار وقائع التاريخ ومصائره لالقاء ضوء على مصير فكرة « اسرائيل الكبرى » والخطر الذي يتهدد الكيان العربي في بروزها الى حيز التنفيذ وفي تجسيدها لآخر انواع الاريدنتية الدينية التوسعية واشدها تطرفا وعنصرية. ولا حاجة بنا هنا الى تذكير القارىء العربي بأن مصير الصليبية الجديدة لا بد له من مشاطرة سلفها في القرون الوسطى واللحاق بها من حيث اتت .

القسم الاول

عصر هرتزل

رواية الاصطفاء

تلتقي في شخصية مؤسس الصهيونية الحديثة ، ثيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) ، وفي حياته ونشاطاته وافكاره ، جميع تلك الروافد المختلفة التي تصب في مجرى الحركة الصهيونية منذ ظهورها الى حيز الوجود وانتقالها الى طور العمل السياسي المنظم على صعيد مؤسسات واجهزة تمتد في نفوذها الى سائر انحاء العالم . فالصهيونية باعتبارها فكرة ودعوة وحركة تستمد مقوماتها من مصادر شتى ، يهودية وغير يهودية . وتجمع بين البواعث الدينية والخلاصية ، التي ترسبت في عقيدتي انتظار مجيء المسيح المخلص (Messianism) ، واليوتوبية من الجهة الواحدة ، والمطامع الارضية والتوسعية و « الصليبية المستترة » من الجهة الاخرى . كما انها لا تتردد ، بل تسعى عن سابق تصور وتصميم لربط تلك المطامع والاهداف بعجلة الاستعمار مهما كان طابعه ومصدره . وتحاول تكييف مطالبها وفقا للمصالح الاستعمارية وانسجاما مع طبيعة المناطق التي يمتد اليها النفوذ الاستعماري ومبادىء السياسة التي تعتمدها الدول الكبرى في توجيه تحركاتها وتسيير شؤونها . ولا غرو فالصهيونية من ابرز الحركات النكوصية في تاريخ العالم الحديث ومنذ العقد الاخير للقرن التاسع عشر . اذ يتكشف مضمونها الاخير عن تصميم دقيق على دفع عجلة التاريخ مئات السنين وعشرات القرون الى الوراء . حتى لكأنها تريد بالتاريخ ان يعود القهقرى الى ازمنة واماكن قطعها وتخطاها في رحلته الطويلة ، بدلا من التصالح مع التاريخ على صعيد التطلع نحو المستقبل والانفتاح على مجالاته الرحبة والزاخرة بكل جديد .

وقد ألقى هرتزل قبل وفاته بنصف عام مزيدا من الضوء على تكوينه الفكري الصهيوني. فتحدث الى الكاتب العبراني ـ اليديشي، رويفن برainen

Reuven Brainin خلال مقابلة خاصة واخبره بانه : « قرأ في الثانية عشرة من عمره تقريبا في كتـاب الماني عن المسيح الملك الذي ما زال كثير من اليهود بانتظار مجيئه راكبا على حمار . فاجتمعت في ذهن الصبي قصة الخروج واسطورة التحرر على يد المسيح ــ الملك .... بعد ذلك بفترة قصيرة ، رأى هرتزل الحلم التالي في نومه :

« ظهر لي المسيح ــ الملك ، على صورة رجل مسن في عظمته وجلاله ، فطوقني بذراعيه وحملني بعيدا على اجنحة الريح ... والتقينا على احدى تلك الغيوم القزحية بصورة موسى ... فالتفت المسيح الى موسى مخاطبا اياه : « من اجل هذا الصبي كنت اصلي » . الا انه قال لي : « اذهب واعلن لليهود بأنني سوف آتي عما قريب لاجترح المعجزات الكبيرة واسدي الاعمال العظيمة لشعبي وللعالم باسره » (١) .

فما هي تلك الاعمال العظيمة التي اصطفاه مسيحه المنتظر للتبشير بها والانذار باقتراب موعد حلولها ؟ وكيف انعكس ذلك كله على صفحة حياته العملية والتأملية ؟

لا شك ان الصهيونية التي يبشر بها هرتزل جمعت الصوفية الدينية المتطرفة الى نوع من اليوتوبية او الرؤيوية العلمية . وما على الباحث الا العودةليوميات هرتزل التيتملأ اربعة مجلدات، لكي تطالعه امثلةوشواهد عديدة على التأثيرات التي خضع لها مؤسس الصهيونية في هذا المجال . بل يكفي هنا ان نشير الى كاتب نمساوي اشتغل في حقل الصحافة الاقتصادية ونادى بمبدأ التجارة الحرة : ثيودور هرتزكا Th. Hertzka) . ١٨٤٥ ــ ١٩٢٤) . فقد نشر شبيه هرتزلبالاسم رواية بالالمانية (١٨٩٠) اطلق عليها تسمية فراي لاند (Freiland) ــ اي « الارض الحرة » ــ وجعل مسرحها في بلاد افريقية متخيلة . كما انه وصف فيها مجتمعا يقوم نظامه الاقتصادي على ملكية عامة للاراضي ، بينما تبقى سائر انواع الملكيات فردية . وسبق هرتزل الى الاشتغال في حقل الصحافة ، فعمل رئيسا لتحرير القسم الاقتصادي في صحيفة Neue Freie Presse (١٨٧٢ ــ ١٨٧٩) ، قبل ان يؤسس صحيفة يومية (١٨٧٩) (Wiener Allgemeine Zeitung) ويرأس تحريرها حتى عام ١٨٨٦ . ثم

---

١ ــ انظر Alex Bein - **Theodor Herzl** (Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1945), pp. 13 - 14.

الحق روايتــه الاولــى بروايــة ثانيــة : « رحلــة الى فراي لانــد » (Eine Reise nach Freiland) . وبذل محاولات في سبيل تحقيق كومنولثه المثالي على ارض افريقية (٢) ، لكنها باءت بالفشل .

وفي القسم الاول من يوميات هرتزل نجد مؤسس الصهيونية يعترف في رسالة بعث بها الى الحاخام الاكبر للطائفة اليهودية في فيينه ، موريتز غودمان (Güdemann) ، (٢١ آب (اغسطس) ١٨٩٥) بانه سبق له السماع برواية هرتزكا الاولى ، لكنه لم يعرف ما اذا كانت تدور حول اليهود . وحين استطاع الحصول على الكتاب الثاني في احدى مكتبات ميونيخ تزود بمقدار كاف من المعلومات واعتبر الرواية بمثابة خيال عبقري ، « بعيد عن الحياة بعد ذلك الجبل الاستوائي الذي تقع عليه فراي لاند » . كما انه القى على مسامع الحاخام بالمقارنة التالية ، محاولا ابعاد تهمة اليوتوبية عن مشروعه الخاص لانشاء الكومنولث اليهودي او الدولة اليهودية (وكرر الكلام نفسه في مقدمة كراس « الدولة اليهودية » فيما بعد) :

« فراي لاند كناية عن جهاز آلي معقد ، يعج بالاسنان والدواليب ، لكنني لا اجد فيها اي برهان على قابلية تحريكها وتسييرها . وعلى العكس منها ، يتطلب مشروعي استخدام قوة دافعة وموجودة بالفعل .

ما هي هذه القوة ؟ ــ انها محنة اليهود !

من الذي يتجرأ على انكار وجود هذه القوة ؟

....

غير ان قوتنا تنمو مع ازدياد الضغط الذي نتعرض له .

واظن ان هناك ما يكفي من العقلاء لفهم هذه الحقيقة البسيطة »(٣) .

---

٢ ــ يبدو ان العرض الذي تقدم به وزير المستعمرات البريطاني ، تشمبرلن ، من المنظمة الصهيونية لفتح افريقيه الشرقية (مشروع يوغنده) امام الاستعمار الصهيوني لم يكن وليد ساعته . فالمحاولات التي قام بها هرتزكا قبل بروز هرتزل والصهيونية الحديثة تشير الى اختياره لتلك المنطقة نفسها . وقد زود فشله بعض الصهيونيين بمبررات الرفض .

٣ ــ **The Complete Diaries of Theodor Herzl,** Vol. 1. (Herzl Press & Thomas Yoseloff, N. Y. 1960), pp. 237 - 8.

حين دوّن هرتزل سطور الرسالة المذكورة اعلاه كان قد انقضى اكثر من شهر ونصف الشهر على اتصالاته بماكس نوردو وتلاقي آرائهما عند القول بأن « معاداة السامية هي وحدها التي جعلت منا يهودا » . وفي الصفحة الاولى من يومياته ، التي لم تنشر بكاملها الا عام ١٩٦٠ (٤) ، نجده يتحدث عن « الارض الموعودة » كعنوان لرواية عقد العزم على كتابتها ، او كذلك الحلم الذي رآه منذ سنوات فقرر الان ترجمته الى الواقع العملي . ولم يفته تذكيرنا بشغله الشاغل آنذاك (منتصف عام ١٨٩٥ ، حوالي عيد العنصرة (حول الانتقال من « فكرة كتابة رواية) الى « برنامج عملي » . مع العلم بانه يستطيب وصف ذلك الانتقال بالسر الغامض ويؤكد لنا فجأة انه غاص في لجّة عقله الباطن ! فلنستمع الى مؤسس الصهيونية الحديثة يقول :

« شغلت لمدة خلت بعمل لا حد لعظمته . ولا اعرف الان ما اذا كنت سأمضي به حتى النهاية . يتراءى لي كحلم جبار . لكنه استحوذ عليّ اياما واسابيع الى ما وراء حدود الوعي ، يرافقني انى توجهت ويرفرف فوق حديثي اليومي ، ثم يتطلع من خلف ظهري الى عملي الصحفي التافه لدرجة السخرية ، يزعجني ويسكرني . من السابق لاوانه الظن بما سيؤول اليه امره . لكن تجاربي قد علمتني انه حتى ولو كان حلما ، فهو بمثابة شيء بارز ، ومن واجبي تدوينه على الورق — ان لم يكن كمذكر للانسانية، فعلىالاقل كوسيلة لابتهاجي وتأملاتي في آخر سنوات العمر . وربما كشيء يقبع بين هذينالمجالين — اي كعمل «ادبي». واذا لم يقدّر لتصوري هذا ان يترجم واقعا ، فان نشاطي يكون قد اثمر رواية على الاقل .

العنوان : « الارض الموعودة » .

الحق اقول ، لست متأكدا الان بأن الرواية لم تكن بالفعل هي اول ما دار في ذهني — انما ليس كقطعة ادبية في حد ذاتها ، بل بمثابة عمل يؤدي الى خدمة غرض معين » (٥) .

وسرعان ما ينجلي لقارىء اليوميات ما الذي يدور في ذهن ثيودور

---

٤ — صدرت الطبعة الالمانية (برلين ١٩٢٢) وقد حذفت منها مئاتالمقاطع والصفحات لاعتبارات سياسية او شخصية ! .

٥ — يوميات هرتزل ، ج ١ ، ص ٣ .

هرتزل بالفعل . انها الافكار المتعلقة بالمسألة اليهودية والتي قام بتنسيقها وتنظيمها لكي يصل الى عرضها على شاكلة مشروع حل امام كبار المتمولين اليهود ، امثال البارون دي هيرش ومجلس اسرة روتشيلد . فالعمل اصبح مسعى لانشاء جمعية اليهود والغرض المعين تحوّل الى « خروج الى الارض الموعودة » . وما لبث ذلك كله حتى خرج الى حيز الوجود ، بعد مرور عامين كاملين ، على صورة الحركة الصهيونية الحديثة . فتبلورت الافكار الهرتزلية في كراس اطلق عليه مؤلفه اسم « الدولة اليهودية » او « دولة اليهود»(Der Judenstaat)، ١٨٩٦، ووصفه بأنه «محاولةلايجاد حلعصري للمسألة اليهودية » . وتحددت عقيدة الصهيونية في برنامج بازل (Basel Programm) فجرى الاعلان عن غايتها في « خلق وطن للشعب اليهودي «Heimstätte» في فلسطين يضمنه القانون العام » . وتعينت الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الغاية بعد ان ارتأى المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) اتخاذ الخطوات التالية :

١ ـ العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق اسس مناسبة .

٢ ـ تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد .

٣ ـ تقوية وتغذية المشاعر اليهودية والوعي القومي اليهودي .

٤ ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية .

وانطلقت الحركة الصهيونية من برنامج بازل المذكور تحت زعامة ثيودور هرتزل ، لتعزيز نشاطاتها في المسالك الثلاثة : التنظيم والاستعمار والدبلوماسية . وللتدليل على الاهمية الكبرى التي كان هرتزل يعلقها على كل ذلك والدور الذي اختاره لنفسه ، تحضرنا العبارة التي دونها في يومياته آنذاك ، حيث قال :

« لو اردت ان اختصر مؤتمر بازل في كلمة واحدة ـ وهذا ما لن اجاهر به صراحة ـ لقلت : في بازل اسست الدولةالصهيونية. ولو قلت ذلك اليوم لقابلني العالم بالسخرية والضحك . ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال ، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد ، سيرى هذه الدولة جميع الناس »(٦) .

وارفق عبارته الشهيرة بتوكيده على ما استمده من تعاليم جان جاك روسو واقراره بان الدولة تقوم على ارادة الشعب لها ، وحتى على ارادة شخص قوي بمفرده ، متذكرا قول لويس الرابع عشر « الدولـة انـا » (L'Etat c'est moi) . ولـم ينس الاعـلان بان « الارض » (Territory) لا تشكل سوى الاساس المادي .

« فالدولة هي دوما الشيء المجرد، حتى عندما تمتلك ارضا معينة(٧) . فلنطرح السؤال عن تلك الارض التي سعت « دولة هرتزل » لامتلاكهـا وتحويلها الى اساس مادي لكيانها المجرد . ولنبدأ دراسة الفكر التوسعي الصهيوني من منابعه لدى هرتزل ، متسائلين عن هوية تلك « الارض الموعودة » التي طالعتنا في فاتحة يومياته .

---

٦ ــ اليوميات ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .
٧ ــ المصدر نفسه

الرؤيا والواقع الارضي

يحدثنا هرتزل عن تصورين مختلفين للمسألة اليهودية وحلها تكونا لديه في السنوات التي سبقت اعتناقه للصهيونية وظهور كراس «الدولة اليهودية» . فالاول كان يقضي بالاتفاق مع الكنيسة الكاثوليكية ـ في النمسه على الاقل ، وعلى امل الوصول الى قداسة البابا فيما بعد ـ على ان يتزعم هرتزل حركة بين اليهود تدعوهم الى اعتناق ديانة الاكثرية ، شريطة ان يبقى الزعماء اليهود على يهوديتهم . والتصور الثاني ينطوي على تقييم جديد لظاهرة العداء للسامية . فقد اعتبر هرتزل آنذاك حركة اللاسامية « نافعة للخلق اليهودي » . وراح يتحدث عن رواسبها القوية في عقل الجماهير الاوروبية الباطن وكيف انها لا تلحق الاذى باليهود . بل تقوم بتربيتهم وصقل مواهبهم عن طريق الصدمات لكي تمكنهم في النهاية من تكييف انفسهم . ثم نراه يستنجد ببعض نظريات داروين عن التنكر البيئي (Mimicry) ويشبّه اليهود بحيوان بحري اسمه الفقمة (Seal) (١) لكي يتسنى له القول بان « هذه الحيوانات تتبنى عادات الاسماك في الظاهر ، معالعلم بانها ليست من السمك . وما ان تعود الى اليابسة من جديد ويسمح لها بالبقاء هناك لاجيال قليلة حتى تقوم بتحويل زعانفها الى اقدام مرة ثانية » (٢) .

وفي الرسالة الثالثة التي بعث بها الى المتمول البارون دي هيرش (٣ حزيران ، يونيو ، ١٨٩٥) نجده يخاطب ذلك المتبرع وصاحب المشروعات الخيرية بقوله :

« ماذا ! الا تفهم اللاموزون ؟ وما هو الدين ؟ اعتبر ، لو شئت ، ما قاساه اليهود في سبيل هذه الرؤيا خلال فترة الفي سنة .

---

١ ـ الفقمة ، عجل البحر : حيوان من لواحم البحر شبيه بالسمك ظاهرا ولكنه في الواقع لبون ومن ذوات الرئتين (انظر معجم « المورد ») .

٢ ـ اليوميات ـ ج ١ ، ص ٧ و ١٠ .

نعم ، الرؤى وحدها هي التي تستحوذ على عقول الرجال . . . .
بيد ان رؤيا شعب ما لا بد لها من اساس متين تقوم عليه . . . .
ان الخروج الى الارض الموعودة يشكل على الصعيد العملي مهمة ضخمة في النقل (Transportation) ، لا مثيل لها في العالم الحديث . هل قلت « النقل » ؟ انها عملية معقدة تضم جميع انواع النشاطات الانسانية التي سوف يتم التنسيق فيما بينها على غرار تعشيق المسننات (Cog - wheels) (٣) .

فما هي الرؤيا التي استحوذت على عقل هرتزل وتفكيره ؟ وكيف تصور تلك الارض الموعودة التي تحدث عنها ؟

يحرص هرتزل في ذلك القسم(٤) من يومياته على احاطة مسألة الارض او الرقعة التي يسميها « الارض الموعودة » بهالة من الغموض والتورية . فحين ينتقل الى تعداد الخطوات الاولية تجده يذكر بندا يتعلق بـ « اختيار الارض وتعيين حدودها ومواقع المدن الرئيسية » . ثم يتحدث عن التدريب والجيش والجنود وعن تأليف « مارسيلياز » لليهود — على غرار النشيد الوطني الفرنسي . ويعترف بانه يدير شؤون اليهود دون ان ينتدبوه لذلك . فينتقد قول روسو بوجود شيء اسمه « العقد الاجتماعي » ، ليؤكد على مسألة « الادارة بالتفويض او الوكالة » Negotorium gestio كما عرفها الرومان في معاملاتهم . وعلى هذا الاساس يجد تبريرا لقيامه بادارة شؤون اليهود . ثم يلمح الى تصوره للاخرين مصرا على تخييرهم بين « الصداقة » و « العداوة » ، اذ لا يمكن قيام موقف وسط بين الطرفين . ويتحدث باهتمام عن حمايته الشخصية التي ستكون في عهدة بوليس سري حسن التنظيم . وعن حاجته الى ادخال المبارزة بالسيوف والمسدسات لخلق ضباط كفؤين يمكن الاعتماد عليهم في المهمات الخطيرة التي تتطلبها الدولة . ويتوقع تنظيم فرق العمال وفقا للاساليب العسكرية . فيبدي اهتمامه الدائم بصحة الاقتصاد ليؤكد ان رؤياه لن تتحول الى فضيحة بانامه ثانية . بل ستكون سويس اخرى . والمعروف ان هرتزل كان من اشد المعجبين بالمهندس فرديناند دي ليسبس الذي اشرف على شق قناة السويس ، حتى انه اتخذ منه مثالا وقدوة في خواطره الرؤيوية .

---

٣ — المصدر نفسه ، ص ٢٨

٤ — المصدر نفسه ، انظر ص ٢٩ .

ولا ينسى هرتزل ، في هذه المرحلة بالذات ، المبادرة الى تطمين المتسائلين عن طبيعة ذلك الخروج الجماعي الذي سبقت الاشارة اليه . فيسارع الى الاعلان : « لن يشعر احد بالاقتلاع العنيف ، لان التربة باكملها سوف تذهب بمعية الخارجين » (٥) كما انه يتحدث بصوت اضفت عليه الاحداث اللاحقة والمعاصرة طابع التنبؤ ، اذ يقول : « سوف يصبح اعداء السامية افضل اصدقائنا المقربين والبلدان المعادية للسامية من حلفائنا »(٦) .

نعود الى صورة الارض الموعودة وموقعها واتساع رقعتها ، فنجد هرتزل يتابع محاولات التعمية والتضليل بقوله :

« لم يخطر لاحد مطلقا ان يبحث عن الارض الموعودة حيث توجد بالفعل ـ وهي التي تقبع قريبا جدا . هنا تقوم تلك الارض : في داخل نفوسنا . ... الارض الموعودة هي التي حيث نحملها »(٧) .

ويخاطب بسمارك في رسالة بقيت دون جواب ، عارضا مشروعه عليه وحافظا لخط الرجعة بقوله ان اليوتوبيا تثير الاهتمام وتبعث على التسلية كلما ازدادت ابتعادا عن العالم العقلاني . كما لا يفوته وضع نفسه فى مصاف اولئك اليوتوبيين الحالمين من توماس مور الى ادوارد بيلامي (Bellamy) ، مؤلف الرواية الاشتراكية المثالية « النظر الى الوراء » (Looking Backward) (١٨٨٨) .

وفي منتصف حزيران (يونيو) ١٨٩٥ (اي في ١٣ و ١٤ و ١٥ منه على التوالي) كان هرتزل يعكف على وضع صيغة رسالة موجهة الى مجلس اسرة روتشيلد . وقد اعاد كتابتها ثلاث مرات متوالية . غير ان ما يتعلق بالارض الموعودة وموقعها هو ما يسترعي انتباهنا ويكشف لنا الاسلوب الكتماني الذي اعتمده هرتزل لكي يمعن في التورية والغموض والتضليل . فهو يبسط خطته او مشروعه على الشكل التالي :

« حالما تتألف جمعية اليهود سوف ندعو لمؤتمر يضم عددا من الجغرافيين اليهود لكي تقرر ، بمساعدة اولئك العلماء المخلصين

---

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٨
٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٤
٧ ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٥

لنا بصفة كونهم يهوداً ، الى اين نهاجر . لانني سوف اخبركم الان بكل شيء عن الارض الموعودة ، الا موقعها . فتلك مسألة علمية بحتة . اذ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار شتى انواع العوامل الطبيعية ، الجيولوجية منها والمناخية ، للاحاطة بها كليا وبالنظر الى احدث البحوث »(٨) .

ويتابع كلامه مشيرا الى الاتفاق حول القارة والبلاد ثم البدء باتخاذ الخطوات الدبلوماسية . فيأخذ الارجنتين كمثل لكي « لا اتعاطى في تصورات غامضة كليا » (٩) . ويعترف انه فكر بفلسطين قبل ذلك، مؤكدا ان فلسطين

« تستقطب الوقائع لصالحها بصفة كونها المهد القديم لشعبنا الذي ما نسيها ، وان مجرد اسمها يؤلف برنامجا ، بالاضافة الى انها تجتذب جماهير الطبقات الدنيا اليها بقوة » (١٠) .

لكنه يستدرك ما صدر عنه ليعلن ان معظم يهود زمانه لم يعودوا شرقيين واصبحوا معتادين على العيش في مناطق شديدة الاختلاف . كما انه يجد صعوبة في تنفيذ « نظامي في النقل » الذي سيتبع في وقت لاحق . والاقامة في فلسطين تعني كذلك بقاء الارض الموعودة شديدة القرب من اوروبه ، بينما هرتزل يريد تصور اول ربع قرن من « وجودنا » بمنأى عن اوروبه وراحة بال من ورطاتها العسكرية والاجتماعية ــ لكي تتمكن دولته من الازدهار .

فيخلص الى القول بانه ليس ضد فلسطين ولا الارجنتين بصورة مبدئية . بل جل ما يتطلبه : توفر مناخ متنوع يفي بحاجات اليهود الذين اعتادوا المناطق الاكثر برودة او حرارة . ويبدو من تلك الكتابات ان هرتزل يتملص تارة من تعيين البلاد التي ينوى احتلالها والاستيلاء عليها ، ويفترض تارة اخرى بان الارجنتين هي البلد الذي سيتوجه اليه اليهود. لكنه سرعان ما يعود الى الحديث عن الحاخامين ودورهم كنواة في الجماعات المحلية . فيعلق عليهم الآمال الكبيرة باعتبارهم اول المتفهمين لدعوته وطليعة الذاهبين الى الارض الموعودة(١١) . ويطلق احدى عباراته

---

٨ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٣

٩ ــ المصدر نفسه .

١٠ ــ المصدر نفسه .

١١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٥

المغرية اذ يعلن : « سوف نترك لكل امرىء هناك ان يجد خلاصه بالطريقة التي يرتأيها » . ويتمادى في التمويه حين يتخيل ذلك الحماس الذي يرافق التفوه «بشعارنا القديم»: «السنة القادمة في الارض الموعودة»! (١٢). ثم يعد بادخال الدعاية في صلب الخدمة الدينية مؤكدا صوابية هذه الخطوة . ولا يجد مفرا من الاعتراف :

« باننا ندرك هويتنا التاريخية فقط من خلال ايمان آبائنا واجدادنا . ولاننا استوعبنا منذ زمن طويل ، ودون خمود تلك الهوية ، لغات امم وجنسيات متعددة »(١٣) .

وقد قرر هرتزل آنذاك بأن « الالمانية سوف تكون لغتنا الرئيسية ». غير اننا لا نريد الخوض في افكاره حول الدستور الموعود وشكل الحكم الذي لن يكون ملكيا ولا ديموقراطيا ، بل اشبه بتلك الجمهورية الارستقراطية (aristocratic republic) التي تحدث عنها مونتسكيو . فالسياسة حسب مفهوم هرتزل يجب ان تعمل من اعلى الى اسفل وليس العكس . بل تكتفي بتسجيل قوله الشهير الذي عاد ورردده في كراس « الدولة اليهودية » كتذكير الى كل من اسرته الرؤيا واستحوذت عليه فأعمته بالتالي عن رؤية الواقع الذي تجسده تلك الدولة التي كان هرتزل من « مؤسسيها » :

« سوف لا نسمح بقيام ميول تيوقراطية لدى رجال كهنوتنا . وسوف نعرف كيف نبقيهم في معابدهم ، كما سنلزم جنودنا المحترفين بالبقاء في ثكناتهم »(١٤) .

وخلال اجتماعاته المتوالية بماكس نوردو نلحظ بعض التحول على تيودور هرتزل . فهو يتحدث عن الشعور القومي بالانتماء الى عنصر واحد (One race) . ثم يعلق بأن الانتماء المذكور لا علاقة له البتة بالدين . ونجده لا يخالف نوردو الا في النتيجة التي يستخلصها كل منهما من دور العداء للسامية في تعزيز وعي اليهود ليهوديتهم . فبينما يعتبر نوردو بأن اللاسامية سوف ترغم اليهود على تحطيم فكرة الوطن بين جميع الشعوب،

١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥١
١٣ ــ المصدر نفسه
١٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٧١

نجد هرتزل يسر الى نفسه بقوله « او ترغمهم على ايجاد وطن خاص بهم »(١٥) .

★★★

وتمضي اليوميات للتحدث عن ضرورة استخدام جميع الوسائل العصرية والاستعانة بها في اكتشاف « الارض اليهودية الجديدة » واستغلالها . ولا ينفك هرتزل عن التوكيد بان مسألة اختيار موقع الارض منوطة بالجغرافيين الذين يدينون بالولاء لحركته ودعوته . فهو يتأرجح بين الميل لعقد صفقة شراء وابرام عقودعلى الصعيدين العالمي والخاص والتصميم على ارسال سفينة محملة بالموظفين الاداريين والتقنيين من كل الانواع بالاضافة الى مندوبين عن الجماعات اليهودية المحلية في سائر انحاء اوروبه لكي يتم الاستيلاء على الارض وتسلمها . ويعدد المهمات الموضوعة على عاتق هؤلاء الفزاة ــ الرواد باعتبارها تتوزع على الحقول التالية :(١٦)

١ ــ القيام باستقصاء علمي دقيق لجميع خصائص الارض الطبيعية.
٢ ــ انشاء ادارة مركزية محكمة .
٣ ــ توزيع الارض على المنقولين بحيث يؤخذ بعين الاعتبار المناخالذي اعتادوه في اوطانهم ومحلات اقامتهم القديمة .

ويكرر على مسامعنا من جديد ان المسألة الوحيدة التي بقيت دون توضيح هي تلك المتعلقة بـ « كيفية احتلال الارض من قبل الجماعات المحلية » التي سيجري استقدامها . فهو يعرف ، مثلا ، أن المواقع لن تباع بالمزاد لقاء مبالغ مالية ، بل سيجري مزادها على اساس المنجزات والتحقيق . وحين يلمح المبحرون تلك الارض الجديدة وتلوح لناظرهم صورة اليابسة ، سوف نبادر الى رفع علمنا الجديد على سارية السفينة. اما الراية التي اختارها هرتزل آنذاك فكانت تتألف من قماشة بيضاء تحمل سبعة نجوم مذهبة . فاللون الابيض هو بمثابة الرمز الى حياة اليهود الجديدة النظيفة ، بينما يرمز عدد النجوم الى « رغبتنا في بدء هذه الحياة الجديدة تحت راية العمل » . ولا ينسى تطمين القارىء بان عامة الناس من اليهود لا تزال تعيش على الامل القديم بالارض الموعودة وتحنو عليه في دواخل نفسها : « انها حقيقة قائمة : ليست قصة خيالية او سرابا خداعا » .

---

١٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .
١٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ و ١٨١

ملك يبحث عن مملكة

« تعالوا نعطي الشعب الذي لا ارض له
ارضا لا شعب فيها » !

(زانغويل)

غادر هرتزل باريس في ٢٧ تموز (يوليو) ١٨٩٥ بعد ان توصل الى الاعتقاد بان « الدولة اليهودية ضرورة عالمية » . وفي مذكراته راح يتحدث عن صفحة انطوت من حياته ، لكي يبدأ صفحة جديدة . بل ذهب الى حد استخلاص النتيجة التالية : « اعتقد ان الحياة قد انتهت بالنسبة لي وبدأ تاريخ العالم » . وحين اجتمع في منتصف آب (اغسطس) بكل من داعية الاستعمار الفلسطيني ، البرليني هاينريخ مايركوهن ، والحاخام موريتز غودمان توصل الثلاثة الى اتفاق يقضي بنشر المشروع الذي كان هرتزل ينوي توجيهه في رسالة الى اسرة روتشيلد على صورة رواية (Novel) وخلال احدى الامسيات وقف الحاخام مشدوها امام هرتزل ليتمتم على مسمعه بتلك الكلمات : « كأنني ارى موسى بلحمه وعظمه ... استمر في كونك ما انت عليه . ربما كنت ذاك الذي اصطفاه الله » . ولم ينس تقبيله ! (١) .

وبعد اخذ ورد مع مرؤوسيه في الصحيفة واصدقائه في فيينه وباريس استقر الراي على ان تكون المحاولة الاولى : ايجاد « لجنة درس » (Study Commission) في باريس او لندن . وهكذا انتقل هرتزل الى العاصمة البريطانية في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٥ ليجتمع باسرائيل زانغويل ويعرض مشروعه على مائدة نادي المكابيين

---

١ ــ انظر Alex Bein, Theodor Herzl. A Biography, trans. from German by Maurice Samuel (Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1940) p. 150.

(The Maccabaeans) (٢) . فقد سمع ، قبل سفره بشهرين ، بكل من ليون بنسكر ((Pinsker) ١٨٢١ ــ ١٨٩١) الــذي نشر كراسا بعنــوان « التحرر الذاتي » Auto-Emancipation وتزعّم حركة « احباء صهيون » في اوديسه ، والكولونيل البرت غولد سميد (١٨٤٦ ــ ١٩٠٤) ، ذلك الصهيوني البريطاني المتحمس الذي كان ينوي استئجار عدد من السفن للقيام بغزو فلسطين من جديد . وقيل له انــه سوف يجد الكثير مــن المؤيدين لدعوته بين يهود روسيه . وخلال زيارته الى لندن نجد هرتزل يدوّن في يومياته للمرة الاولى نتفا من الافكار المتعلقة ب « فلسطين الكبرى » (Greater Palestine) . فقد اجتمع الى السير صموئيل مونتاغــو (٣) ،

---

٢ ــ جمعية اصدقاء تأسست في لندن عام ١٨٩١ لتضم عددا من المثقفين والفنانين والكتّاب واصحاب المهن اليهود . عقــدت اجتماعاتهــا بصورة منتظمة لكي تثير الاهتمام بالثقافة اليهودية . وكان رئيسها عام ١٨٩٥ الرسام سولومون ج. سولومون . وفي عام ١٨٩٧ قام هربرت بنتويش بتنظيم الرحلة المكابية الى فلسطين . فاشترك فيها ٢١ شخصا ، بينهم اسرائيل زانغويل ، وتمت عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل . وهناك من يعتبر الرحلة بمثابــة دلالة على الاهتمام المتزايد لدى يهود انجلتره بفلسطين ، بالاضافة الى وقعها الادبي في النفوس . (انظر سوكولوف : **تاريخ الصهيونية** ، ج ١ ، ص ٢٤٧) .

٣ ــ Samuel Montague (١٨٣٢ ــ ١٩١١) متموّل ورجــل مصارف يهودي انجليزي . صاحب مؤسسة من اهم المؤسسات المصرفيــة الخاصة في لنــدن (Samuel Montague & Co.) تزعّم اليهــود الارثوذكسيين وانشأ اتحاد الكنيس في لندن (١٨٨٧) . انضم الى حركة احباء صهيون واصبح من زعمائها في بريطانيه . طلبت اليه السلطات الروسية مغادرة موسكو خلال ٢٤ ساعة عام ١٨٨٦ بتهمة القيام بنشاط معاد . وتقدم عام ١٨٩٣ بالنيابة عن حركة احبــاء صهيون بالتماس الى السلطان عبد الحميد الثاني يطلب السمــاح باستعمار شرقي الاردن ، بعد ان اصدرت السلطات العثمانية اوامرها بمنع احباء صهيون من ابتياع الاراضي في فلسطين او الاقامة هناك بصورة دائمة . اصبح اللورد سويثلنغ Swaythling عام ١٩٠٧ . ويقال انه اعلن معارضته لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمــار J. C. T. فيما بعد .

النائب في مجلس العموم عن حزب الاحرار (٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، ١٨٩٥) وباح له ذلك المتموّل اليهودي المحافظ بسره : اذ كان يشعر بكونه اسرائيليا اكثر منه انجليزيا . واعرب عن رغبته في الاستيطان بفلسطين مع سائر افراد عائلته . ودوّن هرتزل انطباعاته عن الرجل بقوله : « انه يفكر بفلسطين كبرى بدل القديمة . ولا يريد سماع شيء عن الارجنتين . وقد ابدى استعداده للانضمام الى لجنتنا حالما تبادر احدى الدول الكبرى الى اخذ المسألة بجدية . وطلب مني ارسال الكراس اليه قبل دفعه الى المطبعة » (٤) .

وفي اليوم التالي كان لقاء هرتزل مـع الكولونيل غولد سميد في كارديف ، حيث بادره الكولونيل بقوله : « سوف نعمل في سبيل تحرير اسرائيل. هذه هي الفكرة التي تدور عليها حياتي » . لكن الكولونيل تنبّه الى الطابع السياسي للمشروع وتذكر الخطر المتعلق بقيـام العسكريين بنشاط سياسي . وابدى رغبته في ترك الخدمة البريطانية والدخول في السلك اليهودي حالما تنطلق الحركة . غير انه لم يشأ الا الاعـراب عـن تفضيله لتسمية « الاسرائيليين » بدلا من اليهود ، لان « اسرائيل تشمل الاسباط كلها » . وهنا سارع غولد سميد الى اطلاع هرتزل على راية احباء صهيون التي تضم رموز الاسباط الاثني عشر ، بينما راح هرتزل ينشر علمه الابيض بنجومه السبع (٥) .

وبعد تلك المقدمات اخذ الكولونيل يحكي قصة حياته (٦) ، زاعما

---

٤ ــ اليوميات ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .
٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .
٦ ــ مولود في الهند (بونا) (١٨٤٦ ــ ١٩٠٤) وسليل اسرة انجلو ــ يهودية عريقة ، اصرت على اعتبار نفسها متحدرة من نسل المكابيين القدامى . دخل الكلية العسكرية الملكية واتخذ من الجندية مهنة . نقل مع فرقته الى الهند . واكتشف بعـد وفاة والـده ان الدم اليهودي يجري في عروقه . فما كان منه ، وهو الذي تربى على المسيحية ، الا ان اعتنق الديانة اليهودية بصورة علنية في الرابعة والعشرين من عمره . زار فلسطين عـام ١٨٨٣ برفقـة لورانس اوليفانت . ورقي الى رتبة نائب لمساعد القائـد في مقر قيـادة الجيش البريطاني (١٨٨٩) . اشرف على ادارة المستعمرات اليهودية

(التتمة على الصفحة التالية)

انه دانيال ديروندا ! فأسدى الى هرتزل نصيحته بان « فلسطين وحدها تستحق اهتمامنا » . وطمأنه بشأن المساعدة المتوقعة من اوساط المسيحيين المتدينين في انجلتره ، لان هؤلاء « ينتظرون مجيء المسيح بعد عودة اليهود الى الوطن » . كما انه اعرب له عن رغبته في اعادة « القبر المقدس الى المسيحيين ، حجرا حجرا : قسما من نصيب موسكو والآخر من نصيب رومه » (٧) . وهنا سجل هرتزل ذلك التوارد في الخواطر بين مونتاغو والكولونيل غولد سميد بقوله : « انه يفكر بفلسطين كبرى ، على غرار مونتاغو » . ولم ينس التعبير عن استحسانه لاحدى الافكار المستمدة من المفكر الاقتصادي الاميركي هنري جورج (٨) والقائلة بضرب ملاكي الاراضي عن طريق فرض الضريبة التصاعدية . كما انه شعر لدى وداع الكولونيل بانه فتح له قلبه باعتباره اخا .

***

في الارجنتين (١٨٩٢ ـ ١٨٩٣) ، وتراس جمعية احباء صهيون، فلم يعترف بزعامة اللجنة التنفيذية الصهيونية بمدينة فيينه الا بعد آذار (مارس) ١٨٩٨ ، مما ادى الى تكوين الاتحاد الصهيوني البريطاني . لكنه عاد الى الاجتماع بمعارضي هرتزل في باريس لكي يعيد تنظيم الحركة تحت لواء زعامته . ولم يتعاون مع هرتزل بشكل فعال الا بعد كسب اسرة روتشيلد في لندن لصالح الدعوة الصهيونية . ثم اشترك في البعثة التي قامت بدرس اوضاع منطقة العريش فكان سكرتيرها . والمعروف ان الصهيونيين آنذاك سعوا للحصول على اذن من مصر باستخدام مياه النيل للري ! فقد حضر غولد سميد المؤتمر الصهيوني السادس وكانت وفاته بعد ذلك بقليل ـ اي في العام نفسه من وفاة هرتزل ! وهناك صلات وثيقة بين اسرتي دافيغدور وغولد سميد على صعيدي الزواج والمصالح الاعمالية المشتركة .

٧ ـ انظر : **اليوميات** ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

٨ ـ Henry George (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) : مؤلف كتاب «التقدم والفقر» (Progress and Poverty) (١٨٧٩) وداعية احداث «الضريبة الوحيدة» على الاراضي . يقال انه القى محاضرة عن « موسى » في غلاسكو عام ١٨٨٤ وقد اعيد طبعها عدة مرات .

في حب صهيون

حين قدّم صموئيل مونتاغو الالتماس المرفوع الى السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٨٩٣ بواسطة الايرل اوف روزبيري (Earl of Rosebery) كانت الوثيقة المذكورة تحمل تواقيع المسؤولين في اللجنة التنفيذية وامناء السر في كل خيمة (Tent) من خيام « احباء صهيون » . والحديث عن « الخيام » ينقلنا الى عرض سريع لتلك الحركة التي قامت في روسيه عام ١٨٨٢ وعرفت فيما بعد بـ « حب صهيون » . مع العلم بأن التسمية الروسية للحركة هي « حب فلسطين » (Palestino philstvo) والشعار الذي رفعته : « الى فلسطين » .

ففي مطلع الثمانينات دبّ الحماس في نفوس بعض المتعصبين والطلاب من اليهود الروس واخذوا يدعون للهجرة الى فلسطين ، بدوافع شتى جعلوا في طليعتها حب صهيون والغيرة عليها (١) . وتذرّع قسم

---

١ ـ للحصول على مزيد من المعلومات المتعلقة بتاريخ حركة « احباء صهيون » يمكن الرجوع الى المصادر التالية :

أ ـ Jewish Encyclopedia, Vol. IV : «Chovevei Zion» pp. 46-47.
والمقالة بقلم جاكوب دي هاس .

ب ـ The Standard Jewish Encyclopedia Ed. Cecil Roth, new, rev. ed. (Lodon, 1966).

ج ـ S. M. Dubnow — History of the Jews in Russia and Poland (From the Earliest Times until the present day), 3 vols., (Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1916).

د ـ Richard J. H. Gottheil — Zionism, (Movements in Judaism), Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1914), pp. 17-82.

هذا وقد اشار الذين ارّخوا لهذه الفترة الباكرة من تاريخ الصهيونية الحديثة الى كون معظم الطلاب الجامعيين المتحمسين لصهيون من الفاشلين في دراستهم الجامعية . وربما قادهم الفشل الى التفتيش

(التتمة على الصفحة التالية)

منهم بالمضايقات والاضطهادات التي لقيها اليهود على ايدي السلطات القيصرية . فكان كراس بنسكر الآنف الذكر بمثابة كتابهم المقدس الذي أمدهم بالوحي . وسرعان ما انتشرت الدعوة لتأليف الجمعيات وجمع الاموال بقصد شراء الاراضي في فلسطين وتوطين اعضاء الحركة هناك . فقامت جماعات على غرار جمعية .(Zerubbabel) التي أسسها بنسكر وليلينبلوم في مدينة اوديسه عام ١٨٨٣ . وانتشرت الفروع في كل من روسيه وبولونيه ورومانيه وانجلتره . غير ان الزعماء الدينيين فضلوا التفرج في البداية . فعارضتها الفئات الارثوذكسية اليهودية باعتبارها حركة سياسية ترمي الى انتزاع زمام المبادرة من الفكرة التقليدية عن مجيء المسيح المنتظر . كما عارضتها العناصر المندمجة بين يهود روسيه وفي غربي اوروبه .

وقد تنبّهت السلطات العثمانية في زمن مبكّر فقامت بفرض منع على الاستيطان اليهودي بفلسطين يرجع تاريخه الى نيسان (ابريل) ١٨٨٢ .

غير ان جماعة حب صهيون لم تعبأ كثيرا لقرار المنع وسرعان ما وجدت سبلا ملتوية لتدشين نشاطها العملي والبدء في اقامة المستعمرات. وتمكنت جمعيات احباء صهيون في مؤتمر كاتوفيتز (١٨٨٤) من الاجتماع ضمن اتحاد فدرالي اطلقت عليه تسمية «مذكرة موسى» (Mazkeret Mosheh). فهي لم تعرف باسم احباء صهيون Horeve Zion الا بعد المؤتمر العام الثاني في دروسكينيكي (١٨٨٧) (Droskiniki) . وقد نجحت حتى ذلك التاريخ في اضعاف المعارضة التي اشتدت في صفوف المتدينين ، عن طريق كسب كبار الحاخامين لصالح الحركة . وعلى راس هؤلاء كان امثال الحاخام صموئيل موهيليفر (Mohilever) الذي ساهم الى حد كبير في اسكات المعارضين . لكن شقة الخلاف ما لبثت ان اتسعت بين زعامة الحركة العلمانية ومعارضتها الدينية (١٨٨٨ ــ ١٨٨٩) حول مسألة حراثة الارض بفلسطين خلال السنة السبتية. وفي المؤتمر الثالث (فيلنا ، ١٨٨٩) جرى توسيع التمثيل والنفوذ الدينيين في داخل الحركة ، مما حدا بعدد من الزعماء العلمانيين للبحث عن تعبير ثقافي وروحي آخر لصهيونيتهم . فأسس هؤلاء تحت زعامة احد هاعام «جمعية بني موسى» (Bene Mosheh Order) عام ١٨٨٩ ، على غرار المحافل الماسونية . وقد

عن هدف بديل يسعون اليه ويسخرّونه بالتالي كمبرر لاحق للحماس الذي دبّ في نفوسهم . (انظر مقالة الصهيوني نفيل ماندل التي سوف يرد ذكرها في الفصول التالية) .

جرى حلها عام ١٨٩٧ .

وانبعث حماس الجماعات من جديد عندما اقدمت السلطات العثمانية ١٨٩٠ على رفع الحظر عن الاستيطان اليهودي بفلسطين ، ورخصت الحكومة الروسية لحركة احباء صهيون بصورة رسمية. فانعقد المؤتمر الرابع في اوديسه ١٨٩٠ ، وجرى تأليف لجنة مركزية تحت رئاسة بنسكر ، بالاضافة الى افتتاح مكتب للاشراف على عمليات الشراء والهجرة والاستيطان في مدينة يافا . وما ان تشجع العديد من احباء صهيون على المجيء حتى انطلقت عمليات المضاربة باسعار الاراضي واقدمت سلطات الاستانة ، بعد احتجاجات عرب فلسطين المتكررة ، على حظر الهجرة اليهودية من جديد . فجرى اغلاق المكتب التنفيذي في يافا (١٨٩١) وتكبد المغامرون خسائر مالية فادحة . واصبح النشاط العملي بعد ذلك محصورا بتقديم المساعدات للمستعمرات والمدارس العبرية .

وتوزعت الحركة بين تيارات ثلاثة اخذت تتجاذبها . فالتيار الرئيسي بقي مصرا على الاتجاه العملي تحت زعامة ليلينبلوم وجدد الدعوة لانشاء مستعمرات فلسطينية بشتى الوسائل . بينما اصر دعاة الاتجاه الفكري ـ الروحي في « ابناء موسى » وبقيادة احدهاعام على اسبقية العمل الثقافي بين اليهود في العالم . وبقي الصهيونيون الدينيون على حبهم لصهيون ! ومن الطريف ان دستور حركة الاستعمار الفلسطيني كما وافقت عليه السلطات الروسية ينص على الاسم التالي للجمعية : « جمعية تقديم المساعدات للمستعمرين والصناع اليهود في سوريه وفلسطين » (٢) . فقد اتخذت الجمعية المذكورة من اوديسه مقرها الرئيسي وكان ليون بنسكر اول رئيس لها ، اذ بقي في منصبه حتى وفاته نهاية عام ١٨٩١ .

اما نشاط احباء صهيون في اوروبه الغربية فقد تمثل على صيغة « اللجنة المركزية » التي اسسها في باريس كل من هفكين ومايرسون عام

---

٢ ـ لم تكن جمعية اوديسه هذه اول من شمل سوريه وفلسطين داخل نطاق النشاط الاستعماري اليهودي . فقد سبقتها جمعية اخرى على الاقل عام ١٨٧٦ (في لندن وباريس وفرانكفورت) اطلقت على نفسها « جمعية الاستعمار في سوريه وفلسطين » A Syrian and Palestinian Colonization Society

١٨٩٠ ، وتراسها المهندس اليم هنري دافيغدور عـام ١٨٩٤ (٣) . وفي بريطانيه قام الكولونيل غولد سميد بطبع الحركة بطابعه العسكري الخاص. فقد زار فلسطين عام ١٨٨٣ بصحبة لورانس اوليفانت ، صاحب مشروع الاستعمار اليهودي في شرقي الاردن . وسبق له ان بعث برسالة الى رئيس تحرير الجويش كرونيكل من بلفاست (١٨٨٢) ـ وقبل ظهـور كراس بنسكر بعدة شهور ـ طالب فيها بوضع المستعمرات الاولى تحت سيطرة اليهود الغربيين واقترح انشاء منظمة شبه عسكرية تعمـل على ضمان « امن المستعمرات » وتسهر على سلامتها . ولم ينس التصريح بأنها « مهمة لن اتردد في قبولها فيما لو عرضت علي . . . » (٤) .

وحين عاد غولد سميد من زيارته الاستكشافية اخذ يلح في تشكيل « لجنة فلسطين » لتعزيز الهجرة اليهودية عن طريق المساعدات المنظمة. فانصرف الكولونيل الى العمل على توحيد جمعيات احـاء صهيون في

---

٣ ـ Elim Henry d'Avigdor (١٨٤١ ـ ١٨٩٥) : مهنـدس مدني ، اشرف على مد الخطوط الحديدية في سوريه ورومانيه واقامـة المنشآت المائية في مدينة فيينه . كتب عددا من قصص الصيـد باسم مستعار (Wanderer) ووجد متنفسا لميوله الادبية في العمل الصحفي . اعلن معارضته لهجرة اليهود الى اميركه لانهـم كلمـا اتجهوا صوب الغرب، ازدادت المسافة التي تفصلهم عن «صهيون». وتمنى عليهم الذهاب الى بلاد كانت موطن اسرائيل فيما مضى . (انظر سوكولوف : تاريخ الصهيونية . ج ١ ، ص ٢٣٩) .
دعا الى اتباع خطة تنظيم وعمل مدروسة بعناية فائقة وسعى لشراء مساحات من الارض في منطقة حوران بغية جعلها احدى قواعـد الاستيطان والاستعمار الصهيوني . كما انه لعـب دورا بارزا في حمل صموئيل مونتاغو على تقديم التماس « جمعية احباء صهيون» البريطانية الى اللورد روزبيري ، رئيس الوزراء ، لكـي يجـري تسليمها الى السلطان العثماني . فكان من المطالبين بفتـح شرقي الاردن امام الاستعمار الاستيطاني والزراعي وتأمين شتى التسهيلات اللازمة ، بالاضافة الى الاعفاء من دفع الضرائب خلال ما جـرت تسميته بـ « السنوات الانتقالية » .
٤ ـ انظر مقالة فرانكل عن « الكولونيل البرت غولد سميد وثيودور هرتزل » في **« كتاب هرتزل السنوي »** ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

بريطانيه ووضعها تحت سلطة واحدة . وجرى انتخاب دافيغدور ١٨٩١ رئيسا لجمعية « احباء صهيون في بريطانيه العظمى وايرلنده » . فبقي على رأس المنظمة الى حين عودة غولد سميد من الارجنتين (١٨٩٣) ، حيث قبل منصب مدير عام لتنظيم المستعمرات الزراعية اليهودية هناك.

ما ان تم انتخاب غولد سميد بالاجماع لزعامة الحركة حتى انصرف الى وضع قوانينها وتنظيمها وفقا للقواعد العسكرية . فدعا اللجنة التنفيذية ب «مقر القيادة» واستبدل منصب «الرئيس» برتبة «الزعيم» . بينما جعل « القائد » (Commander) يحل محل « رئيس الجلسة » (Chairman) . واستبدل لفظة « جمعية » (Society) ب « خيمة » (Tent) فاصبحت المنظمة تتألف من «خيام» تحت امرة قادة عسكريين يتبعون لزعامته . وقام بتصميم خريطة عبرانية لفلسطين . غير انه تخيّل نفسه على صورة بطل رواية جورج اليوت «دانيال ديروندا» (١٨٧٤–١٨٧٦) . ووصفته احدى الصحف قبل سفره الى الارجنتين بقولها : « يشوع الخروج الجديد » . فما كان منه الا ان ادلى بتصريح قال فيه بان المستعمرات اليهودية في الارجنتين ليست سوى «دار حضانة لفلسطين». ولم ينس التأكيد بان المسألة اليهودية لن يتم حلها الا بقيام دولة يهودية تضمنها الدول الكبرى في ارض اسرائيل (٥) . وقد استحصل على مأذونية عام من الخدمة من وزارة الحرب البريطانية آنذاك . مع العلم بانه كان على استعداد لترك الجيش البريطاني وتكريس مواهبه العسكرية لتحقيق حلمه بفلسطين كبرى ويهودية . فقد اعتقد آنذاك بان بريطانيه سوف تساعد الصهيونيين . لكنه مضى في حلمه ورؤياه ليشبّه اليهود بأميرة تستغرق في النوم بينما تكون حركة احباء صهيون تحت زعامته بمثابة « الامير الذي يوقظ الاميرة النائمة بقبلة منه » .

وقد انعكس حبه لصهيون في البرنامج الذي وضعه للحركة وحدد فيه اهدافها على الشكل التالي :

١ – تنشئة « الفكرة القومية » في اسرائيل .

٢ – تشجيع استعمار اليهود لفلسطين والاراضي المجاورة (Palestine and neighbouring territories) عن طريق اقامة

---

٥ – انظر مقالة جوزيف فرانكل في « كتاب هرتزل السنوي » ، ج ١ (Herzl Year Book), « Colonel Albert E. W. Goldsmid and Theodor Herzl» (Herzl Press, New York, 1958), pp. 146 - 149.

مستعمرات جديدة او مساعدة المستعمرات القائمة .

٣ ــ نشر معرفة اللغة العبرانية باعتبارها لغة حية .

٤ ــ تحسين الوضع الادبي والفكري والمادي لاسرائيل .

٥ ــ يتعهد اعضاء المنظمة باطاعة قوانين البلاد التي يعيشون في ظلها عن طيبة خاطر ، وبالعمل كمواطنين صالحين لخير تلك البلاد قدر استطاعتهم (٦) .

فهو اذن يتحدث عن « اسرائيل » التي سوف تضم الاسباط كلها وتقوم باستعمار فلسطين كبرى جديدة ، هي غير فلسطين القديمة . وقد اشار الى ذلك بوضوح في العبارة التي اضافها لفلسطين عن « الاراضي او البلدان المجاورة » . سيما وان هذه العبارة سوف تطالعنا لدى عدد كبير من مفكري الصهيونية ودعاتها خلال الفترة التي نعالجها منذ ظهور هرتزل حتى قيام الانتداب البريطاني وانشاء امارة شرقي الاردن .

وقد سبقت الاشارة الى تلك الخريطة العبرانية التي قام بتصميمها لفلسطين الكبرى وتوزيعها على انصاره ومؤيديه . انها الخريطة نفسها التي سوف تطالعنا فيما بعد خلال ذلك اللقاء « التاريخي » في اوائل آذار (مارس) ١٨٩٦ بين ثيودور هرتزل والقس المتصهين وليام هشلر **(Hechler)** وهو لقاء سوف نتناوله ببعض التفصيل باعتباره صورة امينة لتلاقي تلك الصهيونية الامية او الشعوبية **(Gentile Zionism)** (٧) والتي يرجع تاريخها الى ما قبل هرتزل والحركة الصهيونية بسنوات عديدة ، لا بل قرون من السنين ــ مع الصهيونية الهرتزلية ــ التوسعية وسياستها العليا **(Hochpolitik)** على صعيد واحد في العقد الاخير من القرن التاسع عشر .

---

٦ ــ انظر مقالة **«Chovevei Zion»** في الموسوعة اليهودية ، المجلد الرابع ، ص ٤٦ ــ ٤٧ . **Jewish Encyclopedia, Vol. IV, 1905.**

٧ ــ استعرنا التسمية المذكورة من كتاب كريستوفر سايكس : «دراستان في الفضيلة » ــ **Christopher Sykes - Two Studies in Virtue, (Collins, London, 1953), p. 149.**

اكتشاف فلسطين

يرجع الفضل الاكبر في اتاحة مجال التفكير لدى احباء صهيون البريطانيين بفلسطين الكبرى ، دون شك ، الى الجهود التي بذلها « صندوق اكتشاف فلسطين » (Palestine Exploration Fund) منذ انشائه عام ١٨٦٥ . وقد عكف الاوروبيون بشكل عام ، والبريطانيون بصورة خاصة (١) ، منذ عدة قرون على ابراز اهتمام عجيب بفلسطين او الارض المقدسة (Terra Santa) كما عرفوها في القرون الوسطى . وليس هنا مجال استعراض تاريخ تلك النشاطات التي اخذت في التزايد والاتساع منذ حملة نابوليون بونابرت ووجدت تعبيرها في الرحلات والبعثات ، الى جانب « جمعيات فلسطين » والكتاب المقدس ، بالاضافة الى نوع من « الغزو التبشيري » عن طريق الارساليات لا يمكن وصفه الا بمظهر من مظاهر « الصليبية المستترة » (٢) .

فلو اعتبرنا الناحية التي تهمنا في ذلك الاقبال المنقطع النظير على اكتشاف جغرافية الارض المقدسة وجمع المعلومات المتعلقة بأهلها ومناخها وتاريخها ، لجاز لنا القاء نظرة سريعة على نشاط « صندوق اكتشاف فلسطين » المار ذكره ، في محاولة لتعيين مساهمته ، بصورة مباشرة ام غير مباشرة ، في اذكاء شعلة حب صهيون ، وتزويد « الاحباء » بصورة مفصلة عن « فلسطين الكبرى » .

كما اننا لا نريد سرد قصة الصندوق المذكور والمراحل المختلفة لنشاطاته واعماله الاستكشافية . بل نكتفي بالاشارة الى احدى الوقائع

---

١ ـ انظر Barbara W. Tuchman - Bible and Sword : England and Palestine from the Bronze Age to Balfour, (Alvin Redman Ltd., London, 1957).

٢ ـ راجع الدراسة المستفيضة التالية : A. L. Tibawi - British Interests in Palestine : 1800 - 1901, A Study of Religious and Educational Enterprise, (Oxford Univ. Press, 1961).

ذات المغزى في تاريخ « اكتشاف فلسطين » من جهة العلاقة الوثيقة بين مطامع السياسة البريطانية والكسب الذي جناه الصهيونيون من جراء ذلك التوارد العجيب بين نواياهم ومطامع بريطانيه . فالذين قاموا بالتنقيبات والاكتشافات كانوا من العسكريين ، ومن سلاح الهندسة الملكي بالضبط (Royal Engineers) . وقد تنقل معظمهم بين قبرص وسوريه وفلسطين ومصر والسودان . وعملوا في حقول للنشاط تتعدى مسألة اعتماد المبادىء العلمية في استكشاف معالم الارض المقدسة . فالكابتن كوندر ، مثلا ، جاء الى فلسطين في خريف ١٨٧٣ وشرع يبحث عن مسرح المعارك التي دارت بين الفلسطينيين (Philistines) والاسرائيليين. وحين قامت ثورة عرابي في مصر وقع عليه اختيار دائرة الانتلجانس لمرافقة الحملة البريطانية التي ارسلت لقمع الثورة الوطنية، باعتباره ممن يتقنون العربية ويمكن بالتالي الاستفادة من اطلاعه على احوال الامم الشرقية (٣) . والملازم كتشنر ـ الذي اصبح فيما بعد ايرل كتشنر اوف خرطوم ـ انضم الى فرق الاستكشاف في خريف ١٨٧٤ ـ كان في مصر عام ١٨٨٣ . وقد سبق له ان قام بعمليات المسح (Survey) في شرقي فلسطين (شرقي الاردن) ، بينما كانت المنطقة الغربية من حصة كوندر. وكتشنر من الذين ساهموا في قياس ومسح منطقة وادي العربة بين الطرف الجنوبي للبحر الميت وخليج العقبة (٤) . بينما تم استدعاء لورانس (Lawrence of Arabia) في اواخر عام ١٩١٣ ، اذ كان حتى ذلك الحين يعمل في استكشاف معالم مدينة قرقميش الحثية على الفرات ، لكي يشارك في مسح منطقة النقب والمثلث الارضي في صحراء سيناء حتى خط لجنة الحدود المصرية ـ التركية الممتد من رفح الى خليج العقبة . وقد سبقه الكابتن نيوكومب الى مسح المنطقة الواقعة بين قناة السويس والحدود المصرية التركية .

والحق ان النشاطات التي قام بها « صندوق اكتشاف فلسطين » تكفي وحدها للقيام بدراسة واسعة النطاق . على اننا نحيل القارىء الى

---

٣ ـ انظر **Col. Sir C. M. Watson : Fifty Years' Work in the Holy Land. A Record and a Summary : 1865 - 1915; (Published by the Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1915), p. 86.**

٤ ـ في ربيع ١٩١٥ نجد الفيلد مارشال اللورد كتشنر على راس وزارة الحرب في بريطانيه !

كتاب الدكتور عبد اللطيف الطيباوي عن «المصالح البريطانية في فلسطين» خلال القرن التاسع عشر ، والى الكتابين اللذين صدرا عن الصندوق المذكور بمثابة سجل وتلخيص لنشاطاته بعد عشرين عاما وخمسين عاما على التوالي (١٨٨٥ و ١٩١٥) من تاريخ تأسيسه (١٨٦٥) وممارسته عمله في الاراضي المقدسة .

غير ان ما يهمنا في هذا المجال بالذات يكاد ينحصر في تلك « الخدمات » التي اسداها الصندوق الى الحركة الصهيونية ، عن قصد او من قبيل الصدفة . ولا شك ان معظم العاملين في حقول نشاطه جمعوا في شخصهم على الدوام « طابعا مزدوجا من الحنين الى الكتاب المقدس والانطلاقة الامبريالية » (٥) ، فقدموا بذلك اصدق مثال وخير شاهد على التعاون الوثيق بين « الكتاب » و « السيف » . ولنختصر قصة ذلك الجمع العجيب لدى كل من الكابتن وارين (الجنرال السير تشالز وارين فيما بعد) والكابتن ويلسون (الميجور جنرال السير تشالز ويلسون فيما بعد) والكابتن كوندر (الكولونيل كلود كوندر) على الشكل التالي :

فالكابتن وارين جاء الى فلسطين عام ١٨٦٧ بصحبة فريق من سلاح الهندسة وبعد استئذان وزارة الحرب البريطانية والحصول على رسالة توصية (بواسطة السفير البريطاني في الاستانة) من الحكومة العثمانية الى متصرف القدس . وقد نشر عام ١٨٧٥ كتابا دعاه « ارض الموعد » **(The Land of Promise)** (٦) ونادى فيه بضرورة تطوير فلسطين على يد « شركة الهند الشرقية » **(East India Company)** . اما القصد الذي رمى اليه من وراء دعوة التطوير فكان يعني ادخال اليهود الى البلاد لاحتلالها وحكمها . ولم يفته التنبيه الى ان الحكومة الجيدة تعمل على زيادة حجم التبادل التجاري ، مما يؤدي بدوره الى مضاعفة عدد سكان البلاد عشرات المرات . كما انه اكد على وجود متسع من الارض يكفي لتوطين ١٥ مليونا من الناس ، اذ ان انتاجية الارض سوف تزداد بنسبة ارتفاع معدل العمل في التربة والزراعة (٧) .

---

٥ ــ برباره توخمان ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

٦ ــ Cf. Sokolov - **History of Zionism, Vol. II, Appendix LXXIII, pp. 269 - 272. The Land of Promise; or, Turkey's Guarantee, (George Bell & Sons, London 1875).**

٧ ــ من الفقرات التي لا بد ان تستوقف القارىء لتلك المقتطفات من

(التتمة على الصفحة التالية)

والسير تشالز ويلسون كان من اوائل الذين تطوعوا استجابة لطلب وزارة الحرب (١٨٦٤) للبدء بعملية مسح للقدس وضواحيها . وقد كان التقرير الذي رفعه مع رسائله بمثابة اولى منشورات صندوق اكتشاف فلسطين (١٨٦٦) . فرجع مرة ثانية للقيام بمسح منطقتي بيروت والخليل. واشترك فيما بعد بقيادة الحملة العسكرية التي ارسلت لانقاذ الجنرال غوردون في السودان . كما انه عاد الى فلسطين عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٣ لكي يساهم في تعيين المواقع المتنازع عليها لكل من الجلجثة والقيامة .

اما الكولونيل كوندر فقد انصرف الى وضع خرائط مفصلة للمنطقة الواقعة غربي الاردن (فلسطين الغربية) محاولا تعيين مواقع الاسماء التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس ورسم حدود اسباط بني اسرائيل[1] الاثني عشر . كما أنه قام باقتفاء آثار الجيوش الغازية والهجرات القديمة ، بالاضافة الى قراءة النقوش الباقية وفك رموزها . وقد اخذ « مكتب مصلحة المساحة » البريطاني (Ordonance Survey Office) على عاتقه

كتاب « ارض الموعد » وتثير حفيظته ودهشته في آن واحد ننقل الفقرة التالية حرفيا :

« من المرجح ان يتبادر الى الاذهان في الحال : « ماذا يحدث لعرب فلسطين ؟ » واجيب متسائلا : « من هم العرب ؟ » — انهم ليسوا اتراكا على وجه التأكيد ، ومعظمهم ليس من عرب الجزيرة العربية، او من الصحراء . من هم اذن ؟ لقد اصبح معروفا منذ زمن طويل، ولم يلق اي انسان من الضوء على الموضوع مثلما فعل المسيو (كليرمونت) غانو (Ganneou —عالم الساميات والآثار الفرنسي)، بان سكان فلسطين ينتمون الى عرق خليط : بعضهم يتحدر من الكنعانيين ، والبعض من اليهود ، والبعض الآخر من الجزيرة العربية . ومن الواضح ان كثيرا منهم قد اعتنق الاسلام على سبيل الراحة ... لذلك لا يمكننا اعتبار اهل فلسطين بمثابة مسلمين صارمين من عرق واحد ، بل يجب ان ننظر اليهم كمتحدرين من الكنعانيين والاسرائيليين والاغريق والرومان والعرب والصليبيين ، وقد يعتنقون الآن الديانة الاسلامية او المسيحية، حسب الظروف، لكنهم يحافظون قبل كل شيء على التقاليد القديمة — نعم ! وفي بعض الحالات ، لا يساورني ادنى شك بانهم يحافظون على ديانتهم القديمة الحقة » .

(انظر سوكولوف : **تاريخ الصهيونية** ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

مسألة طبع خرائط الصندوق عن فلسطين . فكانت تلك الخرائط فيما بعد خير عون للجنرال اللنبي ابان الحملة على فلسطين (١٩١٨) . وحين قام الامير جورج (الملك جورج الخامس) برحلته الى الاراضي المقدسة عام ١٨٨٢ ، وقع الاختيار على كوندر ليكون دليله — على غرار ما فعل اللاهوتي آرثر ستانلي (Dean Stanley) (٨) عندما رافق البرنس اوف ويلز (الملك ادوارد الثاني) في الجولة التي قام بها عام ١٨٦٢ . فكان البرنس اول ولي عهد بريطاني تطأ قدماه ارض فلسطين منذ تلك الحملة الصليبية التي سار فيها ادوارد الاول عام ١٢٧٠ ؛ (٩) .

وتحوي كتابات كوندر بشكل خاص اوفر مقدار من المعلومات والتنقيبات التي نشط في نبشها من بطون التاريخ . انما لا يستوقفنا منها في هذا المجال سوى العناوين التي اطلقها على البعض منها . فقد نشر عام ١٨٧٩ كتابه عن « يهوذا المكابي وحرب الاستقلال اليهودي »الذي اعيد طبعه على ما يبدو عام ١٨٩٤ . وخلال الثمانينات اصدر « حيث وموآب » ، ١٨٨٣ (Heth and Moab) و « مدخل الى جغرافية الكتاب المقدس » ، بالاضافة الى كتاب عن « معرفة احجار سورية » ، ١٨٨٦ (Syrian Stone Lore) وآخر عن « الهيروغليفيات والنقوش الحثية القديمة » . وقام بترجمة رسائل تل العمارنة (١٨٩٣) الى جانب كتب اخرى عن « الكنعانيين » وفلسطين (١٨٩١) ، و « الكتاب المقدس في الشرق » (١٨٩٦) و « الحثيون ولغتهم » (١٨٩٨) ، و « المأساة العبرانية » (١٩٠٠) ، ثم كتابا عن « مدينة القدس» اصدره عام١٩٠٩ ، قبل وفاته بسنة واحدة .

---

٨ — Arthur Penrhyn Stanley - Sinai and Palestine: In connection with their history (London, John Murray, 1910).

وقد سبق لستانلي ان قضى عامين في التجوال في فلسطين خلال الخمسينات . وصدر كتابه في اول طبعاته عام ١٨٥٦ . كما انه كتب « تاريخ الكنيسة اليهودية » (١٨٦٥) محاولا استكشاف وابراز الجذور اليهودية للديانة المسيحية . وحين تحدث عن « جغرافية فلسطين المقدسة » وعلاقتها بالتاريخ المقدس كان يعني فلسطين «من خليج ايسوس الىالصحراء العربية» (المصدر نفسه، ص ٨٨ — ١٢٤) .

٩ — توخمان — المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

وطسون — المصدر السابق ، ص ١٣ — ١٥ .

وقد يكون محض صدفة ان يصدر كتابه عن «مملكة القدس اللاتينية» (The Latin Kingdom of Jerusalem) في العام نفسه من انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل (١٨٩٧) واعلان الصهيونية بانها تسعى لانشاء وطن لليهود في فلسطين . غير ان الكولونيل كوندر كان بالفعل سبّاقا الى اعتناق الصهيونية والتبشير بها . ففي محاضرة القاها عام ١٨٩٢ بعنوان « فلسطين الشرقية » على مسمع جمهور ينتمي الى الخيمة الغربية (Western Tent) في منظمة احباء صهيون ، التي سارعت الى نشرها تطالعنا عينة من افكار الرجل الذي وصفه سوكولوف بانه « اعظم ثقة عن فلسطين في جيلنا » . ويمكن استخلاص الآراء التالية منها (١٠) :

اولا : ان يهود اوروبه الشرقية هم عنصر المستقبل بالنسبة للاستعمار المزدهر .

ثانيا : لن يكون اليهود اقل عزيمة في ظل السيطرة العثمانية ، لان هذه الاخيرة لا تشكل سوى مظهر آخر من مظاهر الاستبداد الشرقي الذي يعانونه تحت الطغيان الروسي .

ثالثا ــ ان اقتراح توطين العمال الزراعيين وجعلهم ملاّكين يحرثون ارضهم يتفق مع الاتجاه العام للحكم المتنوّر في عصرنا الحالي.

رابعا : ان استغلال فلسطين بأسرها والى الشرق من نهر الاردن سوف يكون بمثابة عودة الى ذلك الرخاء والازدهار القديم الذي عرفته هذه البلاد ايام الرومان . ولا شك ان التسهيلات التي يقدمها العلم الحديث تعني زيادة في الرخاء والازدهار .

خامسا : نصيحة احباء صهيون بشراء كل ما يمكنهم الحصول عليه من الاراضي في بيسان وجلعاد الشمالية بأسعار معتدلة وفي اقرب فرصة ، خوفا من ارتفاع الاسعار . وتنبيههم الى مسألة تشجيع مد خط حديدي يقرّب هذه المنطقة من المدنية .

سادسا : ان حركة الاستعمار اليهودي ليست مصطنعة ، ولا هي مجرد حصيلة للشعور الديني او اعمال الخير الرائية . بل هي حركة « طبيعية » و « صحية » في آن واحد ، ومن الواجب تشجيعها عن طريق التبرعات وتأييد المنظمة التي تسعى في

---

١٠ ــ انظر سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** ــ ج ٢ ، ملحق LXXIII رقم ٣ ، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٦ .

ذلك السبيل .

سابعا : الثقة بانه لن تمضي سنوات قليلة حتى يزداد الرخاء في فلسطين و « تمتلىء الاراضي الخاوية بسكان مجتهدين » . والفضل يعود في ذلك كله الى ذلك المحسن الكريم البارون روتشيلد والى منظمة احباء صهيون .

يمكننا القول اذن ، واستنادا الى الشهادات المار ذكرها ، بان نشاطات الصندوق وكتابات العاملين في حقل اكتشافاته قد ساهمت الى حد بعيد في تشجيع دعاة الصهيونية على المضي في مشروعاتهم وفي اعطاء صورة موسّعة لفلسطين . فلولا المعلومات والوقائع والدراسات التي توافرت تحت اشراف الصندوق لكانت الارض المقدسة (Terra Santa) قد بقيت بمثابة ارض مجهولة (Terra in Cognita) بالنسبة الى الكثيرين من الذين جرى ايقاعهم في حب صهيون . ولا يخفى ان اليهود الموسرين رفضوا التفكير بفلسطين على اعتبارها غير صالحة للاستعمار والزراعة على نطاق واسع . فالصورة الشائعة لفلسطين في اذهان العامة والخاصة على السواء كانت اقرب الى ارض خربة ومهجورة منها الى اي شيء آخر . وقد عرف الصهيونيون فيما بعد كيف يستغلون هذه المسألة لصالحهم متى وجدوا ذلك مناسبا . وجاء صندوق اكتشاف فلسطين ليضع تحت تصرفهم طبعة جديدة (١٨٩٠) لخريطة فلسطين تضمنت جميع المعلومات الحاصلة من اعمال المساحة والتنقيب وامتدت من « بعلبك شمالا الى قادش برنيع جنوبا » . كما اصدر طبعتين للخريطة نفسها : فوضع الاسماء الحديثة فقط على احداها ، بينما اضاف الى الثانية « اسماء العهدين ، القديم والجديد ، واسماء الاماكن المذكورة في الابوكريفا (وهي الاسفار التي تنسب الى العهد القديم ويشك بصحتها) ، مع ما اورده المؤرخ اليهودي الروماني يوسيفوس من الاسماء التي أمكن التعرف على هويتها » (١١) . ومما تجدر ملاحظته ان خريطة فلسطين بكاملها شملت ضفتي الاردن ، او ما تعارف العاملون في صندوق الاكتشاف على تسميته ب « فلسطين الغربية » و « فلسطين الشرقية » . فالقسم الغربي كانت خرائطه جاهزة منذ ١٨٨١ وجرى في العام التالي اصدار طبعات مختلفة، منها بأسماء العهد القديم ، ومنها بأسماء العهد الجديد ، ومنها لتبيين

---

١١ ــ انظر وطسون ــ « خمسون سنة من العمل في الارض المقدسة » ــ المصدر السابق ، ص ٨٨ .

منابع الماء واحواضها في فلسطين . بينما خريطة المساحة لفلسطين الشرقية صدرت عام ١٨٨٩ . وعكف الاخصائيون في صندوق الاكتشاف على صنع خريطة مجسمة تظهر التضاريس الطبيعية للارض المقدسة . فتمكن جورج آرمسترونغ ، بعد سبع سنوات من العمل المتواصل ، من اتمام خريطة مجسمة بالجفصين عام ١٨٩٤ بلغ طولها ٧ اقدام وست بوصات وعرضها ٤ اقدام . وفي عام ١٩١٥ كان قد بيع من تلك الخريطة ما لا يقل عن ١١٥ نسخة للمكتبات الجامعية والمؤسسات العامة (١٢) .

وحين قامت بربارة توخمان بعرض الصلات التاريخية بين بريطانيه وفلسطين ، « من العصر البرونزي الى وعد بلفور » وعلى صعيد اللقاء بين « الكتاب المقدس والسيف » ، انتهت الى تقييم نشاطات صندوق اكتشاف فلسطين بقولها :

« قبل البدء في نشر اعمال صندوق اكتشاف فلسطين كان هناك قلة من الرجال العمليين على اعتقاد بان تلك الارض يمكن احياؤها اطلاقا . والمساهمة الكبرى التي اداها صندوق اكتشاف فلسطين (الى جانب مكتشفاته التاريخية) كانت في اظهاره ان فلسطين اهلت بعدد اكبر كثيرا من السكان في الماضي وتمتعت بحضارة ارقى مما سمح لها به الافتراض الشائع . لذلك يمكنها استعادة امجادها » (١٣) .

وقد سبقها الى ذلك مؤرخ الحركة الصهيونية ، ناحوم سوكولوف ، حين عقد فصلا حول استعمار فلسطين في الثمانينات في كتابه عن « تاريخ الصهيونية » ولم يشأ الا الاعتراف بالخدمات التي اسداها « صندوق اكتشاف فلسطين » والعاملون فيه لكل من حركة الاستعمار والتوسع الصهيوني بشكل عام ومنظمة « احباء صهيون » في بريطانيه بصورة خاصة . فكتب يقول :

« ولقد جرى بالطبع طرح اسئلة حول اوضاع تربة فلسطين ومجالات التوسع . كما طرحت اسئلة بصورة متكررة : عما اذا كان اليهود قادرين على العمل الريادي الصعب في حقل الزراعة . واجابت على هذه الاسئلة سلسلة من الكراريس والمقالات بقلم ثقاة امثال الكولونيل كلود رينييه كوندر والجنرال السير تشارلز وارين وغيرهما . وبيّن هؤلاء ان فلسطين يمكنها اعالة امة كاليهود . اذ جعلوا لسنوات عديدة

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٩ .
١٣ ـ انظر بربارة توخمان ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

الاكتشاف العلمي لفلسطين بمثابة هدفهم الاوحد ، ولا يسع المرء الا الاعتراف بحكمهم الجازم في الموضوع . وجاءت الشهادة التي ادلوا بها بمثابة توكيد على الحقيقة القائلة بان تلك الارض « يمكن تحويلها الى جنة واحدة شاسعة الاطراف ، ليس بمجرد اعادة بناء القناطر العظيمة التي لا تزال آثارها باقية والتي قامت بايصال الماء الى المدن الكبرى فحسب ، بل بواسطة نهر الاردن بالذات . ولقد اكد هؤلاء ايضا بان الوقت قد حان اخيرا لترميم خرابات صهيون واعادة بناء الاماكن الضائعة في ارض اسرائيل ... ان هذه الشهادات التي ادلى بها الثقاة الانجليز عن فلسطين شجعت« احبّاء صهيون » في انجلتره على المضي في عملهم الخيري ، وكذلك على اتخاذ خطوات سياسية معينة » (١٤) .

وبهذا ننتقل الى استعراض ذلك اللقاء التاريخي بين الصهيونيتين : الشعوبية او الاممية (Gentile) والهرتزلية او السياسية ، كما تجسد على صعيد العلاقات بين القس وليام هشلر (Hechler) والملك الباحث عن مملكة : ثيودور هرتزل . ثم نفرد فصلا خاصا للنشاط الصهيوني في اوروبه الغربية خلال السنوات التي سبقت انعقاد اول مؤتمر صهيوني (١٨٩٧) وتاليف المنظمة الصهيونية العالمية ووضع الصيغة الرسمية العلنية لاهداف الحركة الصهيونية في برنامج بازل .

---

١٤ ــ سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص٢٣٠ ــ ٢٣١ .

اللقــاء المنتظر

لم يكد يمضي شهر على صدور كراس هرتزل « الدولة اليهودية » : « محاولة ايجاد حل عصري للمسألة اليهودية » ، (١٤ شباط (فبراير) ١٨٩٦) ، حتى كـان القس التابع للسفارة البريطانية في فيينه ، وليام هشلر (Rev. William Hechler) يقرع بابه ليعرب له عن سروره بالحل الهرتزلي ويؤكد له انه توقع حدوثه منذ عامين . فقد سبق له ان اجرى حسابات خاصة وفقا للنبوءة التي ارجع المبشرون تاريخها الى العام ٦٣٧ ـ ٦٣٨ م من خلافة عمر بن الخطاب ، وانتهى به القول الى اعلان الموعد المنتظر لتحقيق النبوءة وعودة اليهود الى فلسطين بعد مضي ٤٢ شهرا مما اطلقوا عليه تسمية « الاشهر النبوية » ، اي بعد ١٢٦٠ عاما من خلافة عمر . لذلك تكون السنة العجائبية المتوقعة اما ١٨٩٧ او ١٨٩٨ !

اما القس هشلر ، الذي استخوذت على عقله نبوءة حزقيال في العهد القديم من الكتاب المقدس ، فقد سارع توا لدى فروغه من قراءة الكراس الهرتزلي الى مقابلة السفير البريطاني ، ادوار مونصون ، وتبشيره بالنبأ السار : « لقد ظهرت الحركة المنتظرة » ! واعترف هشلر بان الفضل في سماعه بثيودور هرتزل وكراسه المذكور يعود الى الصحافي شاوول رفائيل لاندو (١) (١٨٧٠ ـ ١٩٤٣) الذي حاول الجمع بين حب صهيون والنظرة

---

١ ـ Dr. Saul Raphael Landau ـ درس المحاماة ، وحاضر في معهد اللاهوت اليهودي بمدينة فيينه عن تاريخ اليهود في بولونيه . تسلم رئاسة تحرير الصحيفة الاسبوعية « دي فيلت » عام ١٨٩٧ ، حين جرى تأسيسها لتكون ناطقة رسمية بلسان الحركة الصهيونية . لكنه ما لبث ان انقلب على هرتزل وانضم الى نحمن سيركين في تأليف اولى الجماعات الصهيونية العمالية التي نادت بـ « الصهيونية الاشتراكية » . كما انه ارتفع الى مكانة مرموقة داخل حزب الشعب اليهودي في النمسه (Jüdische Volkspartei) . اصدر عددا من

(التتمة على الصفحة التالية)

الاشتراكية وادّعى لنفسه اولوية تلقين هرتزل بالمبادىء الاساسية للفكرة الصهيونية . بيد انه صرف قسما كبيرا من حياته ، بعد سيامته قسيسا ، في دراسة العصر الالفي (Millennium) وسائر العلامات والعجائب والدلائل المتصلة به ، والتي كانت معروفة في أوساط الالفيين منذ عدة قرون من الزمن باسم « اشارات العصر » (Signs of the Times) . وفيما هو ينتظر تحقيق المعجزة طرق اذنيه اسم ثيودور هرتزل فتذكر مسألة اقتراب قدوم المسيح المنتظر . وشاهد الكراس معروضا في واجهة احدى المكتبات ، فابتاعه بسرعة وامتلأت نفسه حماسا للفكرة . هكذا وجد نفسه يسرع الخطو الى لقاء هرتزل فيقتحم عليه غرفة مكتبه ليعلن بصوت متهدج : « ها أنذا » ! .

اما هرتزل فلم يشأ اخفاء دهشته لظهور ذلك الفضولي المتطفل . وسرعان ما زالت الدهشة بعد ان تأكدت له هوية هشلر من خلال العبارات التي تفوه بها والحركات الغريبة التي رافقتها . فقد طمأنه الزائر المفاجىء بقوله : « انا اول من جلب الانباء العظيمة الى مسمع دوق بادن الاكبر ولقنه اياها ، واريد مساعدتك الان » . ومن هنا وجد هرتزل سبيله الى تفهم مغزى العبارات التي حياه بها حين قال : « انت هو الذي كنت انتظره . انت المسيح المنتظر » . وبعد ان قام هرتزل بردّ الزيارة ظهر يوم احد (١٥ آذار (مارس) ١٨٩٦) ، جلس الى مكتبه ليدوّن انطباعاته في اليوميات ويصف صديقه الجديد بالعبارة التالية : « انه اعجب شخصية التقيتها في الحركة بعد الكولونيل غولدسميد » (٢) .

المؤلفات اشهرها : Sturm und Drang in Zionismus : Rückblicke eines Zionisten Vor,. mit und um - Theodor Herzl (1937).

وتناول فيه علاقته بتاريخ الصهيونية ، قبل ظهور هرتزل وخلال تعاونهمعه بالاضافة الى انطباعاته وآرائه حولالرجل. كما انه انشأ فيما بعد مجلة صهيونية شهرية دعاها بـ « العامل اليهودي » (Der Jüdische Arbeiter) .

٢ ـ اليوميات ، ج ١ ، (انظر ايضا طبعة اليوميات التي حررها وترجمها مع مقدمة Marvin Lowenthal (Dial Press, N. Y., 1956), p. 105. وقد انعكست احدى انطباعات هرتزل في التلاعب الذي

(التتمة على الصفحة التالية)

***

لا مندوحة لنا اذن من التعرف على تلك « الشخصية العجيبة » التي نريد اعتبارها رمزا مصغرا لذلك اللقاء الذي تم بين الصهيونية الشعوبية او الاممية ، من جهة ، والصهيونية اليهودية الهرتزلية ، من جهة ثانية (٣) . كما اننا سوف نلتقي بالقس هشلر كمثال على الصهيونية

ادخله على اسم Hechler وتندّر به في مجالسه الخاصة ، واصفا اياه بالالمانية «Heuchler» : منافق او مرائي . هذا مع العلم بأن مؤسس الصهيونية ادرك منذ البداية اهمية الكسب الذي يمكنه تحقيقه من وراء الاتصالات الملوكية التي وعده الصديق بوضعها تحت تصرف المساعي المبذولة للاعتراف بدعوته والعثور على متبنين لها . وقام هرتزل بتخليد ذكرى الصديق وخدماته ، بينما كان لا يزال على قيد الحياة ، في روايته « الارض القديمة الجديدة » (Altneuland) اذ خلق احدى الشخصيات الروائية واسماها « القس وليام هوبكنز » (Rev. William Hopkins) . انظر :
Israel Cohen - A Jewish Pilgrimage. Autobiography : London, 1956, p. 170.

٣ — لم يكن القس وليام هشلر نسيجا وحده في حب صهيون املا بكسب اليهود وارجاعهم الى الحظيرة المسيحية وطمعا بتحقيق شتى النبوءات. فهناك الاب اغناطيوس من الرهبنة البندكتينية ١٨٣٧ — ١٩٠٨ . اسمه الاصلي Joseph Leycester Lyne . دخل الرهبنة واتخذ لنفسه اسم الاب اغناطيوس (١٨٦٢) . ثم اشترى ارضا في مقاطعة ويلز الجنوبية وبنى عليها ديرا لكي يعمل من خلاله على احياء الرهبانية في انجلتره . قام برحلة تبشيرية الى كل من الولايات المتحدة وكنده (١٨٩٠ — ١٨٩١) . تحمس للصهيونية دون نية في رد اليهود الى المسيحية . والقى عام ١٨٩٦ محاضرة بعنوان « بماذا يدين العالم لليهود » . تردد على الاجتماعات الصهيونية في لندن ثم اصبح من اشد خطبائها حماسة . فكان يتحدث عن « بعث مملكة يهوذا » . ووصف هرتزل والصهيونية عام ١٨٩٨ بقوله : « الصهيونية هي تحقيق لكلمات حزقيال النبي » ، وهرتزل « هو يشوعكم الجديد » الذي جاء لتحقيق النبوءة . ومن اقواله في احدى خطبه النارية : « اليهودية هي الصهيونية . والصهيونية هي يهودية الله » . (انظر الكس باين : « **سيرة حياة هرتزل** » ص ٢٨٢) .

التوسعية حين نجده في احدى مقصورات « قطار الشرق السريع » يقوم بتلقين ثيودور هرتزل درساً في الحدود الجغرافية لفلسطين «اليهودية» ، راسما امامه تلك الصورة العجيبة لخريطة « اسرائيل الكبرى » والتي انبأته جداوله وحساباته عن وشوك موعد تحقيقها .

من هو القس وليام هشلر ؟

مولود في جنوب افريقيه من ابوين المانيين ، بينما اصر هو على القول : « انا خليط من الغابة السوداء النقية وبريطانيه العظمى » (٤) . اكمل دراساته الاعدادية للدخول في سلك القساوسة . ولا تفيدنا المصادر التي امكن الرجوع اليها شيئا عن حياته ونشاطاته قبل ان يصبح واعظا وقسيسا . غير اننا نعرف عن عضويته في « جمعية لندن التبشيرية » التي يرجع تاريخ تأسيسها الى عام ١٧٩٥ ، والتي اصبحت تدعى بـ « جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود » (London Society for Promoting Christianity amongst the Jews) منذ عام ١٨٠٩ (٥) . ونعرف ان والده كان مبشرا بروتستانتيا ، وان الابن اصبح قسيسا في سن مبكرة . ثم تعيّن ، بناء على توصية من البلاط الانجليزي ، معلما خاصا للامير لودفيغ ، ابن دوق بادن الاكبر ، والذي كان في الثامنة من عمره . واتاحت له اقامته في قصر الدوق فردريك الاول (١٨٢٦ ـ ١٩٠٧) فرصة للتعرف على ابناء عمومته من الامراء الشباب، وعلى راسهم امبراطور المانيه في المستقبل : غليوم الثاني (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) الذي تسلم العرش عام ١٨٨٨ ، وامير بروسيه هاينريخ . غير ان هشلر انتقل بعد وفاة تلميذه المبكرة الى لندن ليحتل احد منابر الوعظ هناك .

وفي مطلع الثمانينات نجده يبدي اهتماما واسعا بيهود اوروبه الشرقية ويقوم بجمع الاموال لمساعدتهم على الاستيطان بفلسطين في ظل

---

٤ ـ انظر الوثائق المنشورة في **كتاب هرتزل السنوي** ـ الجزء الرابع (١٩٦٢) تحت العنوان التالي : « هرتزل ، هشلر ، دوق بادن الاكبر وامبراطور المانيه » ، ص ٢٠٧ ـ ٢٧٠ .

٥ ـ انظر طيباوي ، المصدر السابق ، ص ٥ ، حيث يذكر المؤلف ان الاسم الشائع للجمعية المذكورة هو « جمعية لندن لليهود » (London Jews Society) التي يرمز اليها بالاحرف الاولى التالية L. J. S. . وقد استقينا المعلومات المتعلقة بنشاطات الجمعية في فلسطين من الكتاب نفسه .

الحماية القنصلية البريطانية . كما انه سافر الى روسيه وزار اوديسه وموهيليف وكيشينيف وغيرها من الاماكن التي يقطنها اليهود بغية تنفيذ مشاريع خيرية معينة وتقديم المساعدات لتمكينهم من الهجرة الى فلسطين. فلا عجب اذن من وصف المؤلفات الصهيونية له بـ « حبيب صهيون المسيحي » . ألم يبشر بأن اسرائيل ، حسب تفسيره لما ورد في بعض نصوص الكتاب المقدس ، سوف توجد في فلسطين قبل العودة الثانية للكها المجيد ، « مخلصنا » ، الذي سوف يتربع على عرش القدس ويحكم من هناك ، ملكا للملوك ، طيلة الف سنة ؟!

وفي عام ١٨٨٢ جرى تكليفه بحمل رسالة خاصة من الملكة فكتوريا الى السلطان عبد الحميد الثاني (٦) . كما اصدر في العام التالي (١٨٨٣) كتابا عنوانه «مطرانية القدس» (The Jerusalem Bishopric) ضمنه العديد من الوثائق المتعلقة بانشاء المطرانية الانجليكانية فيالقدس (١٨٤١ ــ ١٨٤٢) واختيار احد مبشري جمعية لندن المار ذكرهـا ، ميخائيل سولومون الكسندر (٧) ليكون اول مطران انجليكاني في القدس دون وجود ابرشية

---

٦ ــ انظر كريستوفر سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ . وربما كان مضمون تلك الرسالة يتعلق بالاحتلال البريطاني لمصر والمخاوف التي اخذت تعتري النفوذ البريطاني من جراء اتجاه السلطان عبد الحميد صوب المانيه والنمسه على امل عقد تحالف معهما . فقد ازدادت شكوك العثمانيين على الصعيدين الرسمي والشعبي بصدد النوايا الاوروبية . وانعكس ذلك كله على موقف الرعايا العثمانيين في فلسطين من نشاط المؤسسات والجمعيات التبشيرية ، اذ قابلوها بالعداء . حتى ان نائب القنصل البريطاني في يافا نقل الى حكومته ما مؤداه ان « الراي الاسلامي العام في جنوب فلسطين ليس مؤيدا لبريطانيه بسبب حربها مع عرابي باشا » (انظر : طيباوي ــ المصدر السابق ، ص ٢٣١) .

٧ ــ اسمه الاصلي جوزف ولف . الماني المولد ويهودي المذهب . جاء الى انجلتره عام ١٨٢٠ في الواحدة والعشرين من عمره وعمل في تدريس التلمود ، ثم اصبح حاخاما في بليموث . واعتنق المسيحية عام ١٨٢٥ . كما سبق له ان قام بجولات تبشيرية في شرقيالمتوسط بعد انتقاله الى لندن .

او طائفة انجليكانية في فلسطين (٨) ! وخلال اقامته في لندن قام باصدار كراس عنوانه « ارجاع اليهود الى فلسطين حسبما ورد في اسفار الانبياء » (١٨٨٤ ؟) **(The Restoration of the Jews to Palestine according to the Prophets)** وافرغ فيه عصارة الآراء الالفية وشتى المعادلات التنبؤية بصدد اقتراب موعد العودة واصطفاء اليهود للقيام ببناء هيكل حزقيال الجديد .

ثم تعيّن قسيسا لدى السفارة البريطانية في فيينه وبقي في ذلك المنصب من ١٨٨٥ ـ ١٩١٠ . وهي الفترة التي تستأثر باهتمامنا لكون النصف الثاني منها يتعلق بالخدمات التي اسداها لهرتزل والحركة الصهيونية وبالصورة التي رسمها لاسرائيل الكبرى من خلال حماسه الشديد لظهور « الملك هرتزل » ، وسعيه لتأمين الاتصالات الاولية الهامة بين الصهيونية اليهودية وانصار العصر الالفي .

ما ان تم اللقاء والتعارف بين هشلر وهرتزل حتى كان الاول يعكف على كتابة رسالة طويلة الى دوق بادن الاكبر ، فردريك الاول ، بغية لفت انتباهه الى « كتاب بارز صدر مؤخرا في فيينه ويعالج موضوعا طالما تشرفت بالتحدث اليك عنه . واعني بذلك عودة اليهود الى فلسطين كما تنبأ بها الانبياء العبرانيون » (٩) ويبدو من الرسالة ان الدوق فردريك كان خاضعا لتأثير النظريات الالفية التي اعتنقها نفر من البروتستانت المتصهينين . فهو يسارع الى تطمين تلميذه بان الدكتور هرتزل لا يعرف

---

٨ ـ حين سمع هشلر بالاتصالات التي يفكر هرتزل باجرائها مع رومه عن طريق القاصد الرسولي في فيينه انطونيو آغلياردي الذي اصبح كاردينالا عام ١٨٩٦ ، حذره من مغبة ذلك وعواقبه السيئة وحاول ان يثنيه عن عزمه . وكان تعليق هرتزل ، كما اضافه الى يومياته : « دعهم يستشرون حسدا من بعضهم بعضا ـ الانجليز والروس ، البروتستانت والكاثوليك ، دعهم يقتتلون عليّ ـ هكذا يمضي مشروعنا قدما » . (انظر **اليوميات** ، ج ١ ، ص ١١٦).

٩ ـ انظر النص الكامل للرسالة المؤرخة في ٢٦ آذار (مارس) ١٨٩٦ : **كتاب هرتزل السنوي** ، ج ٤ (نيويورك ١٩٦٢) ، ص ٢١٠ ـ ٢١٣. وقد اعتمدنا الرسالة المذكورة لاستقاء المعلومات المتعلقة بتفكير هشلر الصهيوني وحساباته التنبؤية العجيبة .

شيئا عن النبوءات الحاصلة حول هذا الموضوع ، كما انه لا يحاول تحقيق النبوءة ـ على اعتبار المسألة خاضعة لمشيئة الله وليس من عمل بني البشر . ثم يلخص له كراس « الدولة اليهودية » بعبارة هرتزل : « الدولة اليهودية ضرورة عالمية » . ويؤكد حق اليهود بفلسطين وشوقهم للعودة الى ارض الموعد التي اعطاها الرب لابراهيم ونسله . فيتراءى له ان العودة الاخيرة الى فلسطين قد بدأت بالفعل . ثم ينتقل الى الاستشهاد ببعض ما ورد في العهد الجديد مفسرا اياه على هوى النظريات الالفية . فيعتبر النصف الاول من نبوءة يسوع المسيح قد تحققت منذ قديم الزمان في دول انجيل لوقا (٢٢ : ٢٤) : « ملوك الامم يسودونهم والمتسلطون عليهم يدعون محسنين » و (٢١ : ٢٤) : « ويقعون بفم السيف ويسبون الى جميع الامم . وتكوناورشليم مدوسة من الامم حتى تكمّل ازمنة الامم ».

اما الشق الثاني من النبوءة فيعتمد على حديث الملاك الى القديس يوحنا اللاهوتي (رؤيا يوحنا : ١١ : ٢) « ... وسيدوسون (الامم) المدينة المقدسة اثنين واربعين شهرا » . وفي عبارة « الاثنين واربعين شهرا » يعثر هشلر على ضالته المنشودة ويستنجد بالجداول والبيانات التاريخية التي قام باعدادها من « آدم الى ١٨٩٦ » وسبق « لسموه الملكي ان اطلع عليها » في مناسبة ماضية . فقد اجرى هشلر حسابات « الاثنين واربعين شهرا » على النمط التالي :

وقع اختياره اولا على العام ٦٣٧ ـ ٦٣٨ ب.م. عند فتح القدس على يد عمر بن الخطاب واستيلاء المسلمين عليها ، فاعتبر ذلك التاريخ نقطة بداية لما جاء في الكتابات المقدسة ـ مع العلم بان الكتابات اسبق من ذلك الحدث التاريخي بزمن طويل ! واذا كان تلامذة اللاهوت يعتبرون ان الشهر النبوي يساوي ثلاثين يوما نبويا ، وان اليوم النبوي بدوره يساوي سنة من سنواتنا العلمانية المألوفة (١٢ شهرا) ، فما علينا الا ان نضرب ٤٢ × ٣٠ لنحصل على ١٢٦٠ يوما نبويا او سنة علمانية . فلو اضفنا هذا الرقم الاخير الى العـام ٦٣٧ ـ ٦٣٨ لأمكن الحصول على السنة العجائبية ١٨٩٧ و ١٨٩٨ ! وفي هذه السنة الآتية سوف تكون ارض الموعد ملكا للشعب الذي نالها من الرب حوالي ١٨٩٥ سنة قبل المسيح ـ اي تاريخ مولد اسحق وفقا للكتاب المقدس، و «اسحق ابن الوعد»(١٠).

ولا يخفي هشلر مشاعره وتمنياته على كل من المانيه وبريطانيه

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

لوضع هذه الحركة (الصهيونية) والدولة الجديدة تحت حمايتهما واعلان فلسطين دولة وبلادا محايدة . كما ان السنة العجائبية التي استنبطها من عملياته الحسابية (١٨٩٨) قد جاءت مطابقة بصورة عجيبة ومدهشة لحدثين دينيين في مدينة القدس قبل نهاية القرن التاسع عشر : ففي ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ قام مطران ساليزبوري بتكريس كنيسة القديس جورج المجمعية التي بناهـا مطران الطائفة الانجيلكانية لتمثل كنيسة انجلتره ككل . وخلال زيارة امبراطور المانيه للمدينة المقدسة جرى افتتاح كنيسة المخلص الالمانية الجديدة وتدشينها بصورة رسمية في ١ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه (١١) .

ولا يفوتنا الاستشهاد بعبارة هشلر في رسالته الى الدوق الاكبر اد يحاول الاعراب عن تواضعه وطلبه لعلم النبوءة : « انا لست نبيا ، ولا ابن نبي ، بل مجرد تلميذ متواضع للنبوءة ، انتظر « اشارات العصر وعلاماته » ، كما طلب الينا الكتاب المقدس بصورة اكيدة » (١٢) . كما انه سبق له والقى محاضرة عن مصر القديمة في جامعة فيينه عام ١٨٩١ ونشرها بالانجليزية تحت عنوان : « اقدم تاريخ للانسان في ضوء البحوث الحديثة » . ومن العبارات العجيبة التي وردت على لسانه : « طرح علي احدهم السؤال التالي : هل عاش الآباء (Patriarchs) حقا تلك المدة الطويلة من العمر ؟ والان يمكنني الاجابة على هذا السؤال بالايجاب . وفي سبيل اخضاع المسألة لتحقيق علمي شامل، حاولت صنع تقويم لعام الطوفان »(١٣). وحين زاره ثيودور هرتزل لم يشأ الا اطلاعه على احدى القرميدات التي يحتفظ بها ــ وربما حملها معه خلال زيارته لفلسطين (١٤) ! ــ زاعما انها قرميدة بابلية قديمة « جلبوها لي من « تلوا بالقرب من أور الكلدانيين ، حيث عاش ابراهيم » ، يرجع تاريخها الى ايام ابراهيم الخليل !

***

١١ ــ انظر طيباوي ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ .
١٢ ــ انظر **كتاب هرتزل السنوي** ، ج ٤ ، ص ٢١١ .
١٣ ــ انظر كريستوفر سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
١٤ ــ مما يسترعي الانتباه تلك العبارة التي اخذ هشلر يكررها على مسامع هرتزل قائلا : «لقد مهدنا السبيل لك» (انظر ــ اليوميات ، ج ١ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦) .

كان من جملة البشائر التي زفتها القس هشلر الى صديقه هرتزل ، بعد ان توسم فيه دلائل النبوة ، ابلاغ مؤسس الصهيونية انه سوف يطلب الى الدوق الاكبر مرافقة الامبراطور الالماني الى القدس في السنة القادمة (١٨٩٧) لحضور تدشين الكنيسة الالمانية هناك . غير ان ما يسترعي انتباهنا ، الى جانب جداول هشلر التاريخية المقارنة ، هو تلك الخريطة الضخمة لفلسطين والتي كانت في حوزته . فقد وصفها هرتزل بأنها « خريطة عسكرية هائلة » في اربعة اقسام ، كبيرة لدرجة جعلتها تغطي ارض الغرفة . وأفشى له هشلر بسر الجيبة الداخلية ، حيث ينوي اخفاء تلك الخريطة « عندما نذهب الى فلسطين سوية ونمتطي صهوة جوادينا في طول الارض المقدسة وعرضها » . وفي الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) ١٨٩٦ لحق هشلر بثيودور هرتزل المسافر على قطار الشرق بين ميونيخ وفيينه ، بعد المقابلة الاولى لدوق بادن الاكبر ، ونشر خرائط فلسطين داخل المقصورة ، ثم راح يلقي على مسمع مؤسس الصهيونية درسا نموذجيا في جغرافية الصهيونية التوسعية :

« يجب ان تكون حدودنا الشمالية تلك الجبال المواجهة لـ قبادوكيا (Cappadocia) (١٥) ، والجنوبية عند قناة السويس . وسوف يكون شعارنا : « فلسطين داوود وسليمان (١٦) !.

لا شك ان هرتزل قد حفظ الدرس على طريقته الخاصة . ففي رسالته الى دوق بادن (٢٦ نيسان (ابريل)) نجده يتحدث عن « مشيئة الله في عودتنا الى وطننا التاريخي » ويعرب عن رغبة الصهيونيين في العودة بمثابة « ممثلين للمدنية الغربية » ، حاملين « النظافة والترتيب وتقاليد الغرب وعاداته المصفاة الراقية الى تلك الزاوية المنكوبة بالطاعون والآفات من الشرق » . وبعد تطمين سعادته بأن فكرة الهجرة الكلية لا تخطر على بال الصهيونيين ، يجد هرتزل من المناسب «لفت نظر سعادتكم» الى مسألتين بارزتين لا بد من حصولهما : فالهجرة اليهودية تؤدي الى

---

١٥ ـ اسم البلاد الواقعة في شرقي آسيه الصغرى . امتدت رقعتها في الاصل من كيليكيه الى البحر الاسود Euxine Sea . والجبال المواجهة لها هي جبال طوروس. ومع ان التسمية يونانية الاصل فقد استعملت ايام هرتزل على ما يبدو للدلالة على ذلك القسم من تركيه الذي كان يعرف سابقا بهذا الاسم . (انظر يوميات هرتزل ، ج ٥ ، ص ١٦٨٢ ـ ١٦٨٣) .

١٦ ـ اليوميات ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

اضعاف الاحزاب الثورية التي بدأت تقلق الدوق والامبراطور ، كما انها تعمل على كسر شوكة القوى المالية العالمية ودور اليهود في السيطرة عليها.

وهنا نترك هرتزل وهشلر في لقائهما التاريخي لكي نستعرض النشاطات الصهيونية في المانيه والنمسه بصورة خاصة خلال السنوات القليلة التي سبقت انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول . فنتعرف بذلك على احدى النواحي البارزة في الفكر التوسعي الصهيوني ونشهد عن كثب عملية التمويه التي تبنتها الحركة الصهيونية المنظمة تحت ستار الدعوة الى الصهيونية السياسية » ، التي اقترن اسمها ومضمونها بشخص ثيودور هرتزل والانصار الذين التفوا حوله معلنين ولاءهم له .

غير انه لا بد لنا قبل الانتقال الى الصهيونية الالمانية في مخططاتها التوسعية ودعوتها الاستعمارية المركزة والحافلة بالدراسات والتنظيم البعيد المدى ، لا بد لنا من التوقف عند نفر من « المغامرين الصهيونيين » برزوا الى مسرح الاحداث خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر فجاءت الحركة الصهيونية المنظمة لتتخذ من فشلهم ذريعة للعمل على أسس جديدة وتوسيع نطاق النشاط المنظم ليشمل يهود العالم اجمع . على ان نعود الى تناول الدعوات الالمانية في الفصل الذي يليه .

الى ارض جلعاد

درج مؤرخو الصهيونية على اعتبار العام ١٨٨٢ بمثابة نقطة التحول في سير الحركة ما قبل هرتزل . فقد حفل ذلك العام بسلسلة من الاحداث التي تركت وقعها الهام على تطور الحركة الصهيونية اللاحق (١). وعلى صعيد الحياة في روسيه ، حيث يقطن القسم الاكبر من اليهود ، اخذ الوضع الاقتصادي في التحسن والصعود ، من جراء الطابع الليبرالي الذي تميز به حكم القيصر الكسندر الثاني ومحاولة تحرير الفلاحين من ربقة الاسياد . وادى ذلك الى تعزيز حركة التنوير ودفع عجلة التحرر بين اليهود . كما ان تحرير الفلاحين واعتاقهم من عبودية الملاكين كان من نتائجه تدفق الجماهير صوب المدن ، حيث ازدادت البطالة في بلاد تفتقر الى الصناعة مثل روسيه القيصرية آنذاك . ولم يجد العاطلون عن العمل امامهم سوى التطلع الى تلك المهن التي كانت وقفا على اليهود او كادوا يحتكرونها لانفسهم ــ كالحرف اليدوية ، مثلا . وقد ولد التنافس الذي اعتبره اليهود تطفلا من جانب غير اليهود ، شعورا بالعداء ما لبث ان استحكم واخذ يهدد بالانفجار . فهناك طبقة عليا ضئيلة العدد بين اليهود ساهمت الى حد كبير في تقدم روسيه الاقتصادي . وبرز منها التجار الكبار ورجال المصارف ، مما اغلق المجال بوجه الجيل الروسي الصاعد وحال دون اكتساب ابنائه للخبرات والكفاءات اللازمة . وربما كانوا اقل كفاءة من مواطنيهم اليهود في تلك المهن المحددة . اما في القرى والمدن ، حيث كان التجار والمسلفون من اليهود ، فقد قوي شعور العداء لدرجة جعلت عامة الناس تتهم اغنياء اليهود بانهم « يستعبدون الشعب ويستغلونه » . وجاءت افكار الحركة السلافية الشاملة (Panslavism)

---

١ ــ انظر Adolf Böhm — Die Zionistische Bewegung, I. Teil : Die Bewegung bis zum Tode Theodor Herzls (Welt - Verlag Berlin 1920), p. 64 ff. وقد اعتمدنا ، مع بعض التحفظ ، على تحليلات المؤلف المذكور فيما يتعلق بيهود روسيه خلال الثمانينات .

واتجاهاتها القومية لتعزز الدعوة الارثوذكسية الدينية وتفتح المجال امام النظر لليهود باعتبارهم جسما غريبا في جسد روسيه المقدسة . كما ان اشتراك اليهود على نطاق واسع في الحركات الثورية مهد السبيل امام الرجعيين الروس لتحريض الجماهير المؤمنة والتي تكن احتراما للقيصر ضد اليهود .

وحين اقدم العدميون على اغتيال القيصر المحبوب من الشعب في آذار (مارس) ١٨٨١ ، كان بينهم بعض اليهود (٢) . مما ادى الى اندلاع شرارة اول الاضطهادات الواسعة النطاق في روسيه ، والتي امتدت من منتصف نيسان (ابريل) ١٨٨١ واستمرت على فترات متقطعة حتى ١٨٨٣ . ومن هنا نشأت تلك القيود التي جرى فرضها على يهود روسيه : حصر اقامتهم في قطاع معين من البلاد ومنعهم من شراء الاراضي والعقارات ، بالاضافة الى تحديد النسبة التي يسمح لها منهم بدخول الجامعات .

هكذا وجد بعض دعاة التحرر والتنوير بين اليهود ذريعة لمحاربة الاندماج ، والدعوة الى المهاجرة . واخذ هؤلاء ينادون بضرورة ايجاد حل آخر للمسألة اليهودية ، كرد فعل لاعلان فشل الاندماج والانصهار . وبدأت انظار البعض تتجه صوب فلسطين بقصد تهجير اليهود اليها وتوطينهم في ارضها . ثم راح موشيه لايب ليلينبوم (١٨٤٣ — ١٩١٠) يسعى لنشر الفكرة الصهيونية ، فأصدر عام ١٨٨٣ كراسا بعنوان « بعث الشعب اليهودي في ارض اجداده المقدسة » . وكان بنسكر (١٨٢١ — ١٨٩١) قد سبقه في دعوة «التحرر الذاتي» دون الاصرار على «فلسطين» (١٨٨٢) في البداية . وسرعان ما قامت جمعيات « احباء صهيون » تحت شعار « الى فلسطين » وتحمس الطلاب الجامعيون اليهود فقرروا ترك دراستهم وتأليف حركة رواد البيلو (Bilu) للمباشرة في استعمار فلسطين على يد عمال رائدين . وقد ضمت الحركة المذكورة حوالي ٢٥ طالبا من جامعة خاركوف كرّسوا انفسهم لنشر الدعوة في صفوف الطلاب وبين العامة من اليهود الروس . ثم انصرف الدعاة الى الاعداد والتنظيم وتجميع المهاجرين في مراكز الحدود .

---

٢ — تتعمّد المراجع الصهيونية تحاشي الاتيان على ذكر هذه الواقعة التاريخية ، امعانا منها في تبسيط قضية المفتري والمفترى عليه .

اما على الصعيد المتعلق بما جرت تسميته « المسألة الشرقية » ، فان عام١٨٨٢ لا يقل اهمية ومغزى من هذه الناحية. وقد سبق للحكومة البريطانية برئاسة دزرائيلي ان ابتاعت حصص الخديوي اسماعيل في شركة قناةالسويس (تشرين‌الثاني ، نوفمبر، ١٨٧٥) وتمثلت منذشباط (فبراير) ١٨٧٦ بثلاثة اعضاء في مجلس ادارة الشركة . وفي غمرة البحث‌عن قاعدة بريطانية يمكن‌الاشراف‌منها على حماية المصالح‌البريطانية والدفاع عن آسيه الصغرى‌وارمينية ضد اي هجوم روسي في المستقبل، كان دزرائيلي سبّاقا الى اقتراح جزيرة قبرص . فما كان من بريطانيه الا ان سارعت الى احتلال الجزيرة واملت على الباب العالي مسودة اتفاق لتكريس ذلك الاحتلال ، بعد ان طلبت الى السلطان عبد الحميد التوقيع خلال مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة . هذا مع العلم بان خبراء التحصينات البريطانيين اعربوا عن شكوكهم بفعالية قبرص كمركز للدفاع عن تركيه الآسيوية ! وهكذا تم توقيع اتفاقية قبرص في الرابع من حزيران (يونيو) ١٨٧٨ .

وفي منتصف عام ١٨٨٢ كانت بريطانيه تنزل ضربتها بالحركة الوطنية التي تزعّمها عرابي . ويستتب الامر لاستعمارها وسيطرتها بعد انتصارها على‌الجيش المصري في‌معركة التل الكبير (١٣ ايلول ، سبتمبر)، على الرغم من شتى المناورات والتمويهات التي درجت على اعلان موعد الانسحاب « في اقرب وقت ممكن » . غير ان شكوك السلطان بالنوايا الاوروبية كانت‌آخذة في‌التزايد والنمو، حتى انها انعكست على‌الصعيدين الرسمي والشعبي . وحدت بالباب العالي الى التطلع صوب المانيه الصاعدة ، الى ان استقبل السلطان بعثة عسكرية المانية عام ١٨٨٣ . وبدأت العلاقات التركية ـ الالمانية تتوطد شيئا فشيئا ، حتى اصبح مشروع الخط الحديدي من برلين الى بغداد في العقد الاخير من القرن بمثابة رمز للنفوذ الالماني المتزايد ، وذريعة للتحركات البريطانية في‌منطقة الخليج العربي المسمى آنذاك بالفارسي بحجة اقامة سد من المصالح والمعاهدات بوجه امتداد النشاط الالماني الى بلاد ما بين النهرين والخليج العربي .

★★★

ولقد سعى النفوذ البريطاني ، منذ حملة نابوليون في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر وخلال وجود ابراهيم باشا في سوريه الى

توطيد دعائم سيطرته بحجة الحفاظ على تماسك الامبراطورية العثمانية وللحؤول دون ارتفاع اسهم كل من روسيه وفرنسه الطامعتين في اقتسام تركة « رجل اوروبه المريض » . وفيما يتعلق باليهود ، تمثلت المصالح البريطانية في سوريه وفلسطين منذ ١٨٣١ (احتلال ابراهيم باشا) بالمحاولات التي بذلها مختلف الفرقاء لانشاء قنصلية سياسية بريطانية في القدس . واستطاع السفير البريطاني في الاستانة ان يحصل على فرمان من السلطان في تموز (يوليو) ١٨٣٨ لضمان المضي في تحقيق المشروع . غير ان التعليمات التي اعطيت لوليم يونغ ، اول نائب قنصل يشغل المنصب الجديد في القدس ، ما لبثت ان تعدّلت تحت ضغط المداخلات التي قام بها انصار « جمعية لندن لليهود » لدى بالمرستون وبشخص اللورد آشلي (ايرل اوف شافتسبوري). فبعد ان كانت مهمته تنحصر في « تنمية مشاعر الصداقة نحو بريطانيه العظمى لدى اهالي البلاد » وبذل افضل المساعي « لترغيب الناس بالسلع البريطانية وتوسيع العلاقات التجارية بين البلدين » ، بالاضافة الى اعتماد اللطف والاعتدال في المعاملات مع الاهالي والاجانب ، نجد الحكومة البريطانية في الشهر الاول من عام ١٨٣٩ تصدر تعليمات جديدة وتضمنها توسيع صلاحيات القنصل في القدس : لقد اصبح من واجبه الآن منح حماية لليهود بشكل عام . وطلب اليه رفع تقرير في اقرب فرصة ممكنة عن الوضع الحاضر لليهود المقيمين بفلسطين (٣) . فالى هذه الفترة بالذات يمكن ارجاع الاهتمام البريطاني الرسمي بالمسألة اليهودية من زاوية فلسطين . والفضل في ذلك كله يعود بالدرجة الاولى الى شافتسبوري واهتماماته المتعددة الجوانب .

كان شافتسبوري من اشد المتحمسين لحب صهيون ، انما من خلال غيرته في « التدليل على صدق الكتاب المقدس وصحة ما ورد فيه». وعقد آماله الكبيرة على « التنقيب عن آثار فلسطين ونبشها » ، لكي يتم له الحصول على البراهين والدلائل اللازمة . فجاء « صندوق إكتشاف فلسطين » ليضع احلامه موضع التنفيذ بعد مضي حوالي الثلاثين عاماً على تدوين تلك الخواطر في مفكرته .

ولا يتسع هذا المجال لاستعراض النشاطات والمحاولات في الفترة

---

٣ ــ للاطلاع على المزيد من المعلومات والملابسات المتعلقة بهذه البادرة البريطانية ، انظر : طيباوي ، المصدر السابق ، ص ٣١ ــ ٣٧ .

الممتدة من احتلال ابراهيم باشا (١٨٣١) الى استيلاء بريطانيه على مصر (١٨٨٢) . مع العلم بانها توازي نصف قرن حافل بالمشروعات والمخططات الرامية الى توطين اليهود في سوريه وفلسطين وتمكين الاستعمار اليهودي من اقامة دولةشاسعة الاطراف، تكونخير سند وعون للمصالحالبريطانية شرقي قناة السويس و « عامل تهدئة » في هذه الرقعة التي تسودها القلاقل والاضطرابات وتتجه اليها انظار الطامعين والغزاة .

بل نكتفي باشارةعابرة لمشروع لورانس اوليفانت الذي تعود جذوره المباشرة الى مؤتمر برلين (١٨٧٨) . فقد دعا اوليفانت الى استعمار « سوريه الجنوبية » وطالب باستصلاح تلك الاراضي الفنية على اطراف الصحراء معالتأكيد على سهولة الوصول اليها من شواطىء البحر الابيض المتوسط . كما انه شدد على خلوها من السكان تقريبا (٤) . ثم دوّن نتائج رحلته الاستكشافية في كتابه « ارض جلعاد » ، ١٨٨٠ (The Land of Gilead) « مع نزهات في جبال لبنان » ، ولم ينس استعراض النواحيالسياسية لمشروعهالاستعماري في خاتمة الكتاب(٥). والاقرار بالتأييد الذي منحه اياه كل من اللورد ساليزبوري (وزير الخارجية آنذاك) ودزرائيلي ، بعد نيله موافقتهما على المشروع .

مما لا شك فيه ان اوليفانت من اغرب الشخصيات واعجبها . فقد كان غريب الاطوار لدرجة الشذوذ الديني (Eccentric) . وتمدّنا دراسة برباره توخمان بالمعلومات التالية عن الرجل المغامر (٦) : فهو مولود (١٨٢٩) من ابوين انجيليين غيورين على الدين . دخل السلك الدبلوماسي وخدم في وظائف عديدة امتدت من كنده الى اليابان . كما انه سافر في الهند والامبراطورية العثمانية واوروبه والولايات المتحدة الاميركية. وعمل مراسلا لصحيفة التايمز اللندنية خلال حرب القرم (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦) . ثم قام بمساعدة غاريبالدي وكافور اثناء الكفاح لتوحيد ايطاليه . واصبح عضوا في البرلمان منذ عام ١٨٦٥ . غير انه استقال من النيابة بصورة مفاجئة واختفى عن المسرح السياسي . ومن البادي انه قرر اعتزال

---

٤ ــ انظر مراجعة كتاب اوليفانت في صحيفة التايمز اللندنية :
Times, 7 Dec. 1880.

٥ ــ Laurence Oliphant — The Land of Gilead — With Excursions in the Lebanon (William Blackwood & Sons, Edinburgh — London, 1880), pp. 502 - 524.

٦ ــ راجع توخمان ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ــ ١٧٤ .

العالم وعيش حياة المسيحيين الاول في زهدها وتقشفها وبساطتها . لكن تلك الحياة لم تلائم مزاجه فرجع الى العالم مبشرا وكرس نفسه «لتجديد شباب الانسانية » .

وتتحدث توخمان عن زوجة اوليفانت الثانية فتقول انها كانت عرضة لمشاهدة الرؤى وسماع الاصوات الغريبة . فقد وصفت احدى الرؤى التي شاهدت فيها يهوديا يمتطي صهوة جواد ابيض . وفسّرت الحصان بانه يرمز الى القوة ، بينما اللون الابيض يعني القوة الصالحة . واعتبرت تلك الرؤيا بمثابة علامة لارجاع سلطان اسرائيل في فلسطين وخلاص اليهود على يد يسوع المسيح .

وظهر اوليفانت في رومانيه بعد انعقاد مؤتمر برلين بعام واحد (١٨٧٩) لحضور احد اجتماعات « احباء صهيون » في مدينة جاسي Jassy واثارة اهتمام اليهود بمشروعه ، محاولا اقناع المتمولين منهم بالمساهمة فيه ، وكسب عامتهم للانضمام اليه . ثم اسرع الى الاستانة لحمل السلطان على منح اولئك اليهود مساحات من الاراضي في شرقي الاردن (سوريه الجنوبية) (٧) بموجب براءة تخولهم تنفيذ الاستعمار والاستيطان هناك . وانتقل الى فلسطين للقيام بعملية استكشاف ومسح للاراضي التي ينوي المطالبة بها . وقد جعل شعاره العلني : « تجديد شباب تركيه بواسطة اليهود وتحت اشراف بريطانيه » . وتحدث بلهجة العاملين في « صندوق اكتشاف فلسطين » من امثال الكولونيل كوندر ، عن « حسنات التحالف مع العنصر اليهودي » (٨) معددا المنافع والمكاسب التي يمكن لتلك الدولة التي تناصر قضية اليهود ان تجنيها من وراء ذلك . فأتى على ذكر النواحي المالية والسياسية والتجارية وتمنى على « حكومة صاحب الجلالة » ان تتزعم تلك السياسة الرامية الى ارجاع اليهود لأرض اجدادهم :

---

٧ ــ بدات رحلة اوليفانت الجلعادية في بيروت وانطلقت منها الى لبنان الجنوبي ثم مدينة القنيطرة ومنطقة الجولان واللتجا ، ومنها الى ارض جلعاد التي تشمل شرقي الاردن . ثم انتقل الى الضفة الغربية فزار مدنها وعاد الى بيروت بطريق عكا ــ صور ــ صيدا . والخريطة التي ضمها كتابه لفلسطين تمتد من جبيل الى غزه على طول الساحل ومن بعلبك مرورا بدمشق ومناطق الجولان وحوران حتى تصل الى طريق قوافل الحجاج المتجهة صوب مكة والحجاز .

٨ ــ انظر **ارض جلعاد** ، ص ٥٠٣ .

« فالامة التي تنصر قضية اليهود وعودتهم الى فلسطين ، يمكنها الاعتماد على تأييدهم في عمليات مالية على اوسع نطاق ، وعلى النفوذ القوي الذي يتمتعون به في صحافة العديد من البلدان ، كما يمكنها الاعتماد على تعاونهم السياسي في تلك البلدان نفسها ــ مما يؤدي بالضرورة الى شل النشاطات الدبلوماسية والاعمال العدائية من جانب تلك الدول الكبرى المعادية للدولة التي تحالفوا معها » (٩) .

وينعكس موقف اوليفانت من العرب اثناء حديثه عن خصب جلعاد وسكانها . فهو يصف المجال المفتوح امام استيطان « دون الحاق الاذى بالعرب » ، لكنه سرعان ما يقفز الى التأكيد بان « العرب لا يحق لهم التمتع بعطفنا. فقد جعلوا هذه البلاد قاعا صفصفا وخرّبوا قراها ونهبوا اهاليها ، حتى انخفضت الى مستوى وضعها الحالي » (١٠) . ويتمنى ارجاعهم الى الصحارى التي جاؤوا منها ، حيث تتوفر المراعي في واحاتها لابلهم ومواشيهم !

وتمكن اوليفانت بعد اتصالاته المتكررة من كسب حليف بارز بشخص المتمول البريطاني فيكتور كازاليت (V. Cazalit) الذي امتدت مصالحه الى تطوير الخط الحديدي عبر وادي الفرات، ليكون بمثابة بديل للاعتماد على قناة السويس وكذلك لقطع الطريق على الاطماع الفرنسية او الالمانية فيما بعد . ثم تقدم الرجلان من السلطان بمشروع يدعو الى منح اليهود رقعة ارضية عرضها ميلين عن كل جهة من جهتي الخط الحديدي المزمع انشاؤه . لكن المشروع لم يكتب له النجاح . فقد تسلم الليبراليون الحكم في بريطانيه بعد دزرائيلي ولم يكتم السلطان عبد الحميد مخاوفه من تحول فلسطين الى جبل لبنان ثان . كما ان وفاة الجنرال غوردون في السودان لم تكن مشجعة بالنسبة لبريطانيه .

وتنبّه الباب العالي الى المرامي البعيدة وراء تلك المخططات . فلجأ السلطان عبد الحميد الى فصل سنجق القدس عن ولاية سورية عام ١٨٨٧ واخضعه بصورة مباشرة للباب العالي . كما سبق للسلطات العثمانية ان اعلنت عدم سماحها بانشاء المستعمرات اليهودية الصهيونية واعربت عن عزمها الاكيد على تطبيق القوانين بحق الاجانب الذين تملكوا بطرق غير مشروعة ودخلوا البلاد متذرّعين بالزيارة والحج فأقاموا فيها

---

٩ ــ المصدر نفسه .

١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

وراحوا يسعون للتملك . وقد توفي اوليفانت الذي استوطن في حيفا (١٨٨٨) بعد ان ألف كتابا عن « حيفا ، او الحياة في فلسطين الحديثة » . واستطاع احباء صهيون ان يتسربوا الى فلسطين خلال الثمانينات بشتى الوسائل والحيل وبفضل انتشار الفساد والرشوة حتى كاد ممثلو السلطة العثمانية في عقر دارها وخارجه يشكلون « حزب البخشيش » الذي تكثر المصادر الصهيونية من حديثها عن انصاره ولا يترك هرتزل في يومياته فرصة تمر دون الاشادة بالمفعول العجيب والمدهش لكلمة السر في « افتح يا سمسم » !



مغامرة ارض مدين

لم يكن مشروع اوليفانت ومحاولاته المتكررة لوضعه موضع التنفيذ فريدا في بابه ونوعه . كما ان صفحته لم تنطو بوفاة صاحبه . اذ سرعان ما ظهر مغامرون من طراز مشابه وراحوا يقتفون خطواته . فقام المتمول اليهودي الالماني الاصل ، بول فريدمان (Paul Friedmann) ، في مطلع العقد الاخير من القرن الماضي بمحاولة مماثلة . الا انه اختار لها هذه المرة ارض مدين (Midian) بدل جلعاد . واقدم على تهيئة شتى الترتيبات العسكرية والدبلوماسية لكي يضمن نجاح مشروعه الاستعماري الجديد . فلا ضير هناك في متابعة قصة هذه المغامرة التي سبقت صهيونية ثيودور هرتزل بحوالي خمس سنوات تقريبا .

اما المصادر التي يمكن الاعتماد عليها والمتوافرة لدينا فهي لا تتعدى الدراسة المفصلة التي كتبها الصهيوني جوزيف فرانكل عن « مشروع بول فريدمان في مدين » (١) ومقالة ريتشارد غوتهايل ، مؤلف كتاب عن تاريخ الصهيونية باعتبارها احدى الحركات المعاصرة في اليهودية ، في الموسوعة اليهودية (٢) . هذا بالاضافة الى اشارات عابرة ومتفرقة في شتى كتب التاريخ الصهيونية ومذكرات زعماء الحركة في المانيه بصورة خاصة . لذلك لم نجد مفرا من الاعتماد الى حد بعيد على دراسة فرانكل المطوّلة في سرد قصة المغامر بول فريدمان ومشروعه الرامي الى استعمار مدين.

مولود عام ١٨٤٠ في مدينة كونيغسبرغ (المانيه) ومتحدر من عائلة يهودية قديمة . زعم ان احد اجداده كان يتزعم الطائفة اليهودية في

---

١ ــ انظر كتاب هرتزل السنوي Joseph Fraenkel: «Paul Friedmann's Midian Project». ج ٤ ، ص ٦٧ ــ ١١٧ .

٢ ــ انظر تحت « فريدمان » Jewish Encyclopedia, Vol. V, 1905.

برلين (٣) واعلن اعتناقه المذهب البروتستانتي ، غير ان يهوديته بقيت متأصلة في نفسه . كان عازبا ويملك دخلا مستقلا ، مما جعله ينصرف الى الرحلات والاسفار والمغامرات ويظهر بمظهر المتبرع والمحسن الغيور. تردد على العواصم الاوروبية ــ فيينه وباريس ولندن ــ بحجة القيام بابحاث تاريخية في مكتباتها . ونشر عام ١٨٨٤ كتابا عن « آن بولين » في جزئين بعد ان قام بجمع المعلومات من الوثائق التي اطلع عليها في المكتبات الاوروبية . ويبدو ان كتابه حظي ببعض الاهتمام في الاوساط المعنية .

اهتم بمصير اليهود الروس وقام بدراسة مشاكلهم عن كثب محاولا ايجاد حل لها . قرأ العديد من الكتب والتقارير عن الحفريات الاثرية في فلسطين ومنها كتب قريبه ، جورج ابرز (١٨٣٧ ــ ١٨٩٨) الذي قام برحلات استكشافية في مصر والف عددا من الروايات التاريخية جعل مسرح احداثها في فلسطين وشبه جزيرة سيناء . واستهوته مؤلفات السير ريتشارد بورتون (١٨٢١ ــ ١٨٩٠) الذي كان قنصلا لبريطانيه في دمشق (١٨٦٩ ــ ١٨٧١) ، فتأثر الى حد بعيد بكتابيه : « مناجم الذهب في مدين وخرائب المدن المدينيّة » (١٨٧٨) و « ارض مدين » (١٨٧٩) . (The Land of Midian) (٤) .

وسرعان ما بدأ يتطلع الى بلاد ضئيلة السكان لكي يجعلها مسرحا لعملية استعمار واستيطان يهوديين . فوقع نظره على «مَدين» (Midian) (على الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة العربية ، تمتد من العقبة في الشمال الى مرفأ الوجه الذي يبعد حوالي ٢٥٠ ميلا الى الجنوب) . وراح يجتمع الى الزعماء اليهود والحاخامين والشخصيات البارزة في كل من الاليانس الاسرائيلية العالمية في باريس ، والجمعية الانجلو ــ يهودية في لندن وجمعية الاليانس في فيينه . وتقرّب من جمعية « قديمه » التي اسسها ناثان بيرنباوم في مدينة فيينه بالذات ، وتابع اتصالاته على غرار ما فعل

---

٣ ــ تذكر مقالة « الموسوعة اليهودية » مولده في « منتصف القرن التاسع عشر » ، وترجع نسبه الى قرابة تربطه باسرة موزس مندلسون . كما تعتبره من مواليد مدينة برلين .

٤ ــ كلمة (Midian) تقابلها في العربية مدين (Madian) . لذلك آثرنا استعمال اللفظة العربية على التأرجح بين « مدين » (بكسر الميم) و « مدين » (بفتح الميم) .

رائد الاستعمار اليهودي في فلسطين لورانس اوليفانت (١٨٢٩ــ١٨٨٨) ومؤلف كتاب « ارض جلعاد » (١٨٨٠) ، فأخذ يعلل نفسه بتبني البارون دي هيرش لمشاريعه متى تم لها النجاح بجوار فلسطين .

قام بزيارة مصر لدراسة اوضاع ارض مدين واخذ موافقة الحكومة المصرية على مشروعه الاستعماري . وكان اقليم مدين آنذاك يخضع لاشراف حاكم مصري مركزه في السويس . واغواه الفنى والثروة المعدنية (مناجم الفيروز) فحمل معه ثمانية صناديق ملأى بالمرو والحجر الاخضر والبازلت (حجر قاس داكن بركاني الاصل) وغيرها من الاحجار لكي يقوم بتحليلها في مصر . ثم نشر كراسا في ١٨ صفحة بعنوان « ارض مدين » (Das Land Madian) في برلين (١٨٩١) . ووصف فيه احوال الارض واقتصادياتها وطبيعة سكانها ومناخها . ومن المعروف ان الرقعة التي اهتم بها قد بلغ تعداد سكانها الاصليين عام ١٨٩١ حوالي ٢٣ الفا . وكان غرضه من الكراس ان يرسله الى عدد من السياسيين ورجالات الدولة والزعماء اليهود في انجلتره والنمسه والمانيه وغيرها من البلدان .

حاول فريدمان في الكراس المذكور ان يقنع المهاجرين اليهود بان اهل البلاد قد يستقبلونهم بالترحاب . وزعم ان سكان العقبة يتحدرون من عشيرة بني سبت (سبتي) وقد احتفظوا ببعض العادات اليهودية . وانتهى الى القول بان « مدين » كانت في الماضي جزءا من الدولة اليهودية القديمة !

تعرّف على اللورد كرومر (١٨٤١ ــ ١٩١٧) في لندن حوالي عام ١٨٨٩ . وكان كرومر آنذاك يشغل منصبي وزير بلا حقيبة وزارية والمندوب السامي العام في القاهرة (١٨٨٣ ــ ١٩٠٧) . والمعروف ان كرومر تفاوض فيما بعد بخصوص الاستعمار اليهودي في العريش مع كل من ثيودور هرتزل وليوبولد غرينبرغ والكولونيل البرت غولد سميد (١٩٠٢ ــ ١٩٠٣) . وقد نشر قبل صدور وعد بلفور بخمسة عشر شهرا مقالة في احدى الصحف اللندنية الاسبوعية (The Spectator) ، عدد ١٢ آب (اغسطس) ، ١٩١٦) وصف فيها الصهيونية بالحل العملي وتنبأ بانه لن يمضي وقت طويل حتى يعترف السياسيون بحقيقة الصهيونية وواقعها العملي .

اكد له كرومر ان الحكومة البريطانية لن تقوم بعرقلة مشاريعه ونصحه ان يجتمع برياض باشا ، رئيس الوزارة المصرية آنذاك (١٨٨١ــ ١٨٩١ و ١٨٩٢ ــ ١٨٩٤) . وكرر عليه النصيحة نفسها حين زاره للمرة

الثانية في القاهرة حوالي اواخر العام ١٨٩٠ . ولم يكن رياض باشا ليجهل ان فريدمان قد جاءه مبعوثا من قبل كرومر . غير ان رياض باشا ابلغ فريدمان بمعارضته للاستعمار الاوروبي في بلاده من ناحية المبدأ . فراح فريدمان يحوّر كلامه ويقول ان رئيس الوزارة لم يعترض على الاستيطان اليهودي. فهو لم يشجع الفكرة ، لكنه ايضا لم يثنه عن عزمه !

وفي ايار (مايو) ١٨٩١ ذهب فريدمان الى لندن للاتصال بوزارة الخارجية البريطانية وتقديم كراسه للمسؤولين طالبا ان تمتنع الحكومتان البريطانية والمصرية عن وضع العراقيل في طريق مشروعه . وقدم ، عملا بنصيحة كرومر ، مذكرة الى رئيس الوزارة ، المركيز اوف ساليزبوري ، تضمنت تفاصيل المشروع الاستعماري . وقال فيها ان المسألة اليهودية تشغل عقول الروس وتهدد أمن اوروبه وسلامتها . لذلك عرض مخططه الرامي الى تمهيد السبيل عن طريق نقل ثمانين من اليهود الغاليسيين والهنغاريين لكي يتبعهم اليهود الروس والرومانيون بأعداد كبيرة . وجاء على ذكر قوة مسلحة قوامها ٣٠٠ رجل ! فاليهود المسلحون يفرضون الاحترام على البدو ويحافظون على الامن والنظام . وهكذا تقوم مستعمرة يهودية تتمتع بالاستقلال الذاتي . ثم تحدث عن « حلم المستقبل » في بناء خط حديدي يختصر المسافة الى الهند بأربعة او خمسة ايام . ومن البادي ان فريدمان كان يسعى لاقامة دولة يهودية في ارض مدين .

تابع اتصالاته في العواصم الاوروبية . فاتصل بمساعد ناظر شؤون الهند والقائد العام للجيش البريطاني في مصر ، السير فرنسيس غرينفيل، وغيرهما من السياسيين محاولا كسب عطفهم على مشروعه . وخطرت له فكرة زيارة الاستانة لشرح مخططه امام الحكومة التركية واكتساب تأييدها . لكنه عمد الى تأجيل الفكرة . وراح يجمع المتطوعين والمجندين. ومن بين هؤلاء : ضابط الماني واثنان برتبة صف ضابط. ووجد استعدادا لدى الدبلوماسيين الالمان في القاهرة لمساعدته . كذلك حصل على موافقة النمساويين هناك . ولم يشأ الاصرار على اضفاء الطابع الرسمي على الموافقة الضمنية ، لكنه حصل على وعد بالاعتراف الرسمي حالما يتحقق المشروع الذي ينوي تنفيذه . فالوعود الخاصة تبقى مأمونة الجانب في حال الفشل .

يبدو ان فريدمان قد اعد لمشروعه ونظم جماعة من الرواد اليهود الذين تدربوا تدريبا عسكريا في غاليسيه وهنغاريه . واهتمامه بالناحية

العسكرية يؤكد مراميه البعيدة في « القفز » من مدين الى فلسطين وتحويل هجرة اليهود الى المستعمرة الجديدة بدلا من اميركه . لذلك سافر الى كراكوف (Cracow) في ايلول (سبتمبر) ١٨٩١ برفقة ملازم بروسي ، لوثار فون سيباخ (Lothar von Seebach) لتجنيد اليهود في الفرقة العسكرية التي ستصبح نواة الجيش الغازي . واختار الصناع الاقوياء فعقد مع كل منهم اتفاقا مدته عامين (من اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩١ الى اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٣) واشترط فيه القيام بالعمل الريادي والخدمة العسكرية واطاعة جميع الاوامر التي تصدر عنه وعن الملازم البروسي . ثم اشترى كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر في النمسه ولم ينس وسائل اغراء البدو والسكان الاصليين . وابتاع يختا بخاريا من مدينة غلاسكو ، فاطلق عليه اسم « اسرائيل » وابحر من مرفأ سوث هامبتون تحت العلم النمساوي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه . واستقدم على ظهر السفينة الغازية احد اليهود الانجليز للقيام بطقوس الذبائح التلمودية (Ritual Slaughterer) بالاضافة الى طبيب نمساوي وعدد من اليهود الذي يتكلمون العربية في الاسكندرية . وبلغ تعداد الجيش الذي رافقه حوالي خمسين شخصا بالاضافة الى بحارة السفينة التسعة . ومن المؤكد ان القسم الاكبر من جيشه جاء من بين صفوف اعضاء حركة « حب صهيون » .

وما ان وصل فريدمان وجيشه الى « ارض الميعاد » حتى بدأت المشاكل والازمات تتوالى . فظهرت معارضة شديدة في بعض الاوساط اليهودية تزعمها كل من شاوول رفائيل لاندو وناثان بيرنباوم . وجرى وصف الطابع المغامر لمشروع فريدمان . ثم تمرد بعض افراد القوة على النظام العسكري البروسي الصارم ولم يعجبهم الطعام، فرفضوا الانصياع للاوامر . فجرى طرد المتمردين من المعسكر ومنعهم من الدخول اليه . وقد ضل بعضهم طريقه في الصحراء ومات منهوكا من التعب . وحين وجد فريدمان ان معظم جنوده يرغبون في العودة من حيث اتوا ، اقدم على فسخ العقد وحلهم من التزاماتهم . انما لم يشأ الا اضفاء طابع الجلال والابهة الملوكية على مناسبة تسريحهم : فارتدى بزته العسكرية ووضع على راسه تاجا ذهبيا ثم زيّن صدره بالاوسمة والنياشين وارخى يسراه على سيفه بينما قبض على مسدس بيمناه . ومثل دور ملك اليهود في مدين على مرأى من اتباعه المتمردين .

وسرعان ما تسربت انباء العصيان الى الخارج عن طريق الرسائل

والتقارير . فراحت الصحف تقارن جماعة المستعمرين بالرقيق الابيض. وحاول فريدمان ان يدافع عن نفسه ضد مقتل احد اليهود الروس الذي نسبه كبار اليهود في اوروبه الشرقية الى الضابط البروسي . وقررت الحكومة الروسية مقاضاته امام محكمة قنصلية المانية في القاهرة بتهمة التسبب في وفاة احد رعاياها . لكنه استمر في غيه ومغامراته . ولم يبق تحت أمرته سوى تسعة من المستعمرين . فحاول تجنيد اليهود المصريين واغرى بعض الجنود السودانيين بالمال . وتدخلت الحكومة التركية لتضع حدا نهائيا للمغامرة الاستعمارية . فقد تنبه العثمانيون في الاستانة لنشاطات فريدمان وادركوا مراميه في اقامة الدولة اليهودية التي قد تجلب في اثرها التدخل الاجنبي وتؤدي الى عرقلة طريق مكة والمدينة . ولم يغب عن ذهن الاتراك ان احدى الدول الكبرى تقف وراء فريدمان ومشروعه . فمن غير المعقول ان يقدم فريدمان على مغامرته تلك دون دعم دولة كبرى وتأييدها . وحين وصلت الانباء الى مسامع السفارة النمساوية في الاستانة جرى ابلاغ فريدمان بقلق الحكومة التركية وتصميمها على القيام بعمل ما . لكن فريدمان كان يأمل بتدخل السلطات المصرية لحمايته . فقد وقع اختياره على ارض مدين لانها خارج دائرة النفوذ التركي . وحاول تحريض البدو ضد الحامية التركية التي جاءت لطرده . وخيل اليه ان العمل العسكري لدحر الاتراك سوف يرفع من سمعته واسهمه لدى سكان البلاد . لكن آماله خابت حين رفض الناس مهاجمة الاتراك ولم يتحمس البدو للقتال بجانبه . ولم تنجح المساعي التي بذلها كرومر والعسكريون البريطانيون في حمل الاتراك على الانسحاب وتقديم المساعدات . وبعد اخذ ورد بين الدول المعنية واصرار الاتراك على انهم وحدهم اصحاب الحق في منح الاذن للاستعمار اليهودي في مدين واكتشافهم امر السلاح على ظهر السفينة ، طلب الى فريدمان تعليق مشروعه الاستعماري ومغادرة البلاد . ويقال ان الترجمان اليهودي المصري الذي كان في خدمة فريدمان قد وشى به وطالب بطرده مع من تبقى معه من المغامرين . وهكذا وجدت مغامرة فريدمان الاستعمارية نهايتها بعد ان كلفته حوالي مئة الف غولدن (٥) لكن فريدمان بقي مصرا على « انقاذ الشرف اليهودي واعتقد ان بامكانه جمع الاموال اللازمة من جديد لتأمين استمرار عملية الاستعمار اليهودي . كما قرر مقاضاة الحكومة المصرية بمبلغ ٢٥ الفا من الجنيهات .

---

٥ ــ يقابلها ١٧٠ الف مارك الماني في مقالة الموسوعة اليهودية .

وقد رجع الى برلين ليقيم الدعوى (١٨٩٥) ضد من اتهمهم بالافتراء وتشويه السمعة وليطالب الصحف التي اساءت اليه بتقديم الاعتذار . ومن الذين عارضوه آنذاك : ناثان بيرنباوم وهيرش هيلد سهايمر (الزعيم اليهودي الارثوذكسي) وشاوول لاندو . وهؤلاء منحوا ثيودور هرتزل تأييدهم فيما بعد ، حين راح يدعو للقيام بمغامرة مماثلة . ولا يخفى ان هرتزل كان يعلم بمقاصد فريدمان الرامية الى انشاء دولة يهودية في مدين . فقد اصبح مراسل صحيفة Freie Neue Presse في باريس ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩١ . وكانت الجريدة تنشر المقالات عن « المستعمرات اليهودية في ميديان » الى جانب الرسائل التي كان يبعث بها مؤسس الصهيونية الحديثة من باريس . وقد نشر فريدمان رسائل مطوّلة في الصحيفة المذكورة عام ١٨٩٢ (٢/٢٤ ، ٢/٢٧ و ٣/٢) عن المستعمرة اليهودية التي ينوي اقامتها في مدين .

وحين اجتمع هرتزل (٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٢) بوزير المستعمرات البريطاني ، جوزيف تشمبرلن ، ليقترح عليه مشروع مستعمرة يهودية في العريش ، اجابه الوزير بان الحكومة البريطانية تود الاستئناس برأي اللورد كرومر حول الموضوع . وقد جاء هرتزل على ذكر مغامرة فريدمان في احدى رسائله التي وجهها بتاريخ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٢ الى المركيز اوف لانسدون (Lansdowne) ونوّه بان محادثات ليوبولد غرينبرغ مع اللورد كرومر وبطرس غالي باشا قد تناولت المسألة وشرحت ملابساتها والظروف التي ادت الى قيامها وفشلها . ثم ادرك انهمن الافضل عدم الخوض في تفاصيل القضية «لاسباب واضحة». الا انه لم يوضح الاسباب التي اعتبرها واضحة .

وقد بعثت وزارة الخارجية البريطانية بنسخة من رسالة هرتزل الى اللورد كرومر . فكان جوابه الى المركيز اوف لانسدون بان الحركة الصهيونية لا تحظى بعطف السلطان وان مغامرة فريدمان قد ولّدت كثيرا من القلق في الاستانة . لكنه انتقل الى المحاولة الجديدة وتحدث عن « اهتمامه المباشر » بالمشروع الرامي الى انشاء مستعمرة يهودية في شبه جزيرة سيناء . وقد سافرت البعثة الصهيونية لاستكشاف اوضاع العريش بعد ذلك ، وحصلت المفاوضات بين الصهيونيين من جهة واللورد كرومر وبطرس غالي باشا من جهة ثانية . واستغل الصهيونيون فشل مغامرة فريدمان لتبرير لجوئهم الى محاولة جديدة تختلف كليا في طابعها وتخطيطها عن مشروع فريدمان « الناقص الذي حبلت به مخيلة يهودي

مندمج وطامح ، فجاء سيء التخطيط والتنفيذ » (غرينبرغ) .

يعتقد الصهيونيون ان حملة فريدمان كانت سوف تكلل بالنجاح لو ان السفير الالماني قام بالتدخل لصالحها عام ١٨٩١ لدى الحكومة التركية، لان المانيه الامبراطورية كانت تتمتع بنفوذ يفوق النفوذ البريطاني لدى السلطان . ويذهبون الى حد القول بان النزاع لم يكن حاصلا عام ١٨٩٢ لو كانت تركيه موافقة على المشروع . فالخطأ الكبير الذي ارتكبه فريدمان في نظر الصهيونية المعاصرة يرجع الى اخضاع اتباعه للانضباط العسكري الالماني ووضعهم تحت امرة ضباط بروسيين . ثم يتمنّون واحدا من اليهود الشاعرين بقوميتهم اليهودية او من جماعة « احباء صهيون » على راس المحاولة الاستعمارية . بيد ان هذه التبريرات والتمنيات تصدر بقصد اظهار ثيودور هرتزل بمظهر آخر وابعاده بقدر الامكان عن المغامرة التي تأثر بها واقتفى اثرها . فهم يتهمون فريدمان « باليهودي المندمج » الذي دخل في المعمودية واعتبر نفسه ملكا وباشا يهوديا . ويتجاهلون اقتراب ثيودور هرتزل العجيب من معظم هذه الصفات وتبنّيه لها . لكن عنصريتهم تبدو في اجلى مظاهرها حين يصرّحون بما يلي : « كان على فريدمان ان يدرك بانه يتعذر على اليهودي الذي تعمد مسيحيا تزعّم اليهود ، حتى ولو كان ذلك في مستعمرة يهودية » . ولا يفوتهم امتداح نوايا فريدمان الطيبة ومثاليته المخلصة واغداق اعجابهم بمغامرته ، لانه جعل الصحافة العالمية تجذب انظار قرائها الى عبارة « الدولة اليهودية » ـ على حد تعبير فرانكل في الدراسة المار ذكرها . ولا ننسى ان ثيودور هرتزل بدأ كتابة كراسه عن « الدولة اليهودية » بينما كان فريدمان يقاضي الذين تحاملوا عليه من كبار الزعماء اليهود امام المحكمة في برلين (١٨٩٥) . ولا نكون قد ذهبنا بعيدا فيما لو عثرنا على الكثير من اوجه الشبه بين المحاولتين ، مع اختلاف الظروف والتباين في طبيعة التنظيم الصهيوني الذي جاء وليد الدعوة الهرتزلية في وقت لاحق .

« يا صهيونيي العالم ، اتحدوا »

لم ينحصر نشاط « احباء صهيون » خلال الثمانينات في مدن اوروبه الشرقية وحدها ، كما ان لورانس اوليفانت لم ينفرد وحده من بين مواطني بلاده في حب صهيون والتعلق باستعمار ارض جلعاد . فقد نشأت في كل من المانيه والنمسه دعوات مماثلة على مستويات مختلفة . وتحولت بعض الجامعات الكبرى الى مسرح للنشاط الطلابي اليهودي . فجاء الطلاب الجامعيون اليهود من اوروبه الشرقية عامة ، وروسيه بصورة خاصة ، لبلورة النشاط « القومي اليهودي » وتغذيته ، ثم ما لبثوا ان اصبحوا قاعدته الاساسية ونقطة انطلاقه الى داخل المنظمة الصهيونية العالمية .

لذلك تحتل مسألة تأسيس اول جمعية قومية يهودية للطلاب مكانة خاصة في تاريخ الحركة الصهيونية . فقد تنادى عام ١٨٨٢ كل من ناثان بيرنباوم (١٨٦٤ — ١٩٣٧) وبيريتز سمولنسكين (١٨٤٢ — ١٨٨٥) الى تأليف جمعية للطلاب اليهود في جامعة فيينه ، رائدها فكرة القومية اليهودية وانجيلها كراس بنسكر في« التحرر الذاتي » . وجرت تسميتها، بناء على اقتراح سمولنسكين ، جمعية « قديمه » (Kadimah) تيمنا بالدلالة المزدوجة لهذه اللفظة . فهي تعني في آن واحد « الى الامام » (Vorwärts) و « الى الشرق » (Ost-Wärts) . علما بان اللفظة السامية والعبرانية للشرق هي « القديم » ، واننا لا نزال في لغتنا العربية نقول « سار قدما » التي تفيد معنى « الى الامام » .

وتألف برنامج « قديمه » الاساسي من : «محاربة الاندماج ودعاته»، « بلورة الشعور القومي اليهودي وتقويته » ، و « استيطان فلسطين واستعمارها » . فانضم اليها في البداية نفر من الطلاب الروس ، ثم لحق بهم طلاب آخرون من غاليسيه ورومانيه ، كما اخذ بعض الطلاب اليهود الالمان في استنباط شتى الذرائع لانضمامهم . وفي تاريخ الصهيونية الحديثة تعتبر « قديمه » اول جماعة يهودية منظمة تمد يدها الى ثيودور

هرتزل مرحبة به وبدعوته . فمن اعضائها البارزين على مسرح النشاط الصهيوني في المرحلة الهرتزلية : رئيسها الاول موشيه شنير ر (Moshe Shnirer) (١٨٦٠ ـ ١٩٤٠) الذي كان يدرس الطب في فيينه (١٨٨٠)وروبين بيرر (Reuben Bierer) (١٨٤٥ ـ ١٩٣١) واوزر كوكيش (Oser Kokesch) (١٨٥٥ ـ ١٩٠٥) .

اما الداعية الذي اقترنت باسمه اكثر من سواه فهو ناثان بيرنباوم (Birnbaum) الذي كتب تحت اسم مستعار : « ماثياس آشر » ، واليه يعود الفضل في صك لفظة « صهيونية » (Zionism) بدلا من « القومية اليهودية » (National-Jüdisch) . اذ كان اول من استعملها في كراس صدر له عام ١٨٩٣ بعنوان « البعث القومي للشعب اليهودي في ارضه ، كوسيلة لحل المسألة اليهودية » (١) ، بعد ان انشأ في الواحدة والعشرين من عمره صحيفة دعاها « التحرر الذاتي » (Selbst - Emanzipation) (١٨٨٥) .

وفي عام ١٨٨٨ ـ وبينما كان اوسكار شتراوس ، اليهودي الاميركي وسفير الولايات المتحدة الاميركية لدى الباب العالي ، يؤكد للصدر الاعظم بان اليهود في العالم لا تحركهم فكرة اقامة دولة يهودية في فلسطين ـ تحولت جمعية « قديمه » من « رابطة مسالمة » الى « جمعية اخوية » للمبارزة بالسيف دفاعا عن الشرف اليهودي وعلى غرار الجمعيات الطلابية الالمانية التي اخذت على عاتقها الدفاع عن الشرف الالماني ، ولا تزال حتى يومنا هذا تكرس اهتمامها للمحافظة على التقاليد الجرمانية البائدة (٢) . ومما لا شك فيه ان بول فريدمان وغيره ممن سيمر معنا ذكرهم قد وقعوا تحت تأثير هذا التحول واكتسبوا منه الكثير .

وانطلقت دعوة « قديمه » من فيينه الى برلين وغيرها من الجامعات . فقد ساهم في نقلها الى برلين كل من مارتن بوبر ، الفيلسوف اليهودي المعروف ، وبرتولد فايفل (Feiwel) ، ١٨٧٥ ـ ١٩٣٧ ، الذي ترأس

---

١ ـ «Die National Wiedergeburt des Jüdischen Volkes in Seinem Lands, als Mittel zur Lösung der Judentrage».

٢ ـ يميز طلاب الجامعات في المانيه الى اليوم بين ما يدعونه بـ (Verein) اي جمعية طلابية لا تلجأ الى المبارزة بالسيف ، و (Verbindung) لوصف الجمعيات التي تجمع بين افرادها رابطة الدفاع عن الشرف بحد السيف !

تحرير صحيفة « دي فيلت » بمدينة فيينه فيما بعد ، واشترك في تأسيس « الجناح الديمقراطي » داخل المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٠١ . وسرعان ما اصبحت برلين مركزا حساسا من مراكز النشاط الصهيوني بفضل الطلاب اليهود الروس . فقد اقدم كل من ليو موتزكين وجوزيف لوريي على انشاء « جمعية علمية للطلاب الروس اليهود » (٣) عام ١٨٨٩ . وانضم اليها نفر من الذين تسلموا زعامة الحركة الصهيونية فيما بعد ، امثال فيكتور جاكوبسن وشماريا ليفين وحاييم وايزمان وغيرهم . وعلى الرغم من اعتبارها بمثابة الجمعية الاخت لـ (قديمه) فيينه، فان تفكيرها وقع تحت تأثير « سقراط اليهودية » احدها عام الى درجة كبيرة . كما اننا لا نعرف ما اذا كان ديفيز تريتش (Trietsch) داعية استعمار قبرص وصاحب مشروع « فلسطين الكبرى » قد اتصل بهذه النشاطات قبل هجرته الى اميركه عام ١٨٩٣ . بل نجد سوكولوف يؤكد لنا بان تريتش ، المولود في مدينة درسدن عام ١٨٧٠ ، لم يكن طالبا جامعيا . ثم يضيف بانه تعاون بصورة وثيقة مع جماعة برلين (٤) .

وحين صدر كراس بيرنباوم المار ذكره ، كان الدكتور هاينريخ لوفيه (Löwe) يتزعم جمعية جديدة اسماها « اسرائيل الفتاة (١٨٩٣) ويؤسس مجلة « صهيون » (Zion) الناطقة باسمها والتي ترأس تحريرها بيرنباوم منذ ١٨٩٦ حتى انتقاله من برلين الى امستردام وتوقفه عن النشاط الرسمي في الحركة الصهيونية (١٨٩٨) بعد خلافاته مع هرتزل. ففي صيف ١٨٩٣ نلتقي بصهيوني آخر جاء الى برلين من مدينة كولونيه لتقديم الامتحانات الرسمية في الحقوق. غير ان ماكس ايزيدور بودنهايمر (Bodenheimer) ، ١٨٦٥ — ١٩٤٠ ، كان قد سبق له ان اصدر كراسا عام ١٨٩١ بعنوان « اين نذهب باليهود الروس؟ » (٥) واجاب على السؤال بقوله : « الى فلسطين وسوريه » . وبسط في كراسه فكرة توطين اليهود في سوريه وفلسطين من ضمن نطاق المشروعات الرامية الى مد الخطوط الحديدية وتوسيع المرافىء . على ان تقوم شركة محدودة لتحقيق ذلك ، تدعمها لجان اغاثة تجمع الاموال اللازمة لشراء الاراضي بواسطة التبرعات. وفكر باقامة المستوطنات للمهاجرين اليهود العاملين في حقل الزراعة على

---

٣ — «Russisch - Jüdischer Wissenschaftlicher Verein»

٤ — سوكولوف — **تاريخ الصهيونية** ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

٥ — «Wohin mit den Rassischen Juden?»

جانبي الخط الحديدي في كل من سوريه وفلسطين (٦) .

وفي العام نفسه (٤ ايلول (سبتمبر) ١٨٩١) نجد بودنهايمر يوجه نداءه الى « اصدقاء صهيون » بعنوان « يا صهيونيي العالم ، اتحدوا » . ويدعو فيه الى تضافر الجهود وتوحيد الصفوف في كتلة كبيرة واحدة ومتراصة . كما يقترح ضرورة الانتقال من العمل الصامت الى الدعاية العلنية ويتمنى على جميع الهيئات والجمعيات الصهيونية القائمة ان تتوحد في « رابطة تضم امم الكرة الارضية باسرها » . فتكون بذلك قد لبت نداءه وتجندت في سبيل تحقيق الهدف الواحد (٧) .

غير ان ما يسترعي انتباه القارىء لمذكرات بودنهايمر هو دون شك تلك التفاصيل التي يدوّنها بصدد مشروعه لاستعمار سوريه وفلسطين . وحين يتحدث عن اعتناقه للفكرة الصهيونية تستهويه ذريعة الرؤيا التي نظمها قصيدة فيما بعد والتي « تجلت امامي حقيقة في تلك الساعات التاريخية من مطلع صيف ١٨٨٩ » ، اذ شرع ينظر الى فلسطين باعتبارها الوطن القديم للشعب اليهودي (٨) . ويؤكد لنا ان كراسه « اين نذهب باليهود الروس؟ » قد أثار اهتماما واسعا آنذاك وبلغت النسخ التي راجت منه في روسيه وبولونيه بصورة خاصة بضعة آلاف ! ولقد كان الكراس المذكور ، على ما يبدو ، سبيله الى التعرف على كل ناثان بيرنباوم فيما بعد واقامة اتصالات مع جمعيتي «قديمه» و «اسرائيل الفتاة» في برلين .

ولا يذكر لنا المزيد من تفاصيل المشروع الا بعد تعرّفه على المحامي بلوتكي (Plotke) (٩) في فرانكفورت . اذ يشير الى صلته الوثيقة بالبارون

---

٦ ـ انظر مذكرات بودنهايمر التي قامت ابنته بتحريرها واصدارها بعد وفاته بمدة من الزمن : Prelude to Israel (German Ed. « So Wurd Israel » — Frankfurt a.M. 1958) trans. by Israel Cohen (Thomas Yoseloff, N. Y. 1963), p. 73.

٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

٩ ـ الدكتور جوليوس بلوتكي (١٨٥٧ ـ ١٩٠٣) عمل لدى البارون دي هيرش في شؤون الهجرة اليهودية وعمليات ضبطها وتنظيمها . فتعاون مع الاليانس ومع جمعية الاستعمار اليهودي وجمعية المساعدة لليهود الالمان ، بالاضافة الى نشاطه بين يهود مدينة فرانكفورت .

دي هيرش وينسب اليه فضل اقناعه باعداد اقتراح عملي لمستعمرة يهودية في سوريه . لكنه سرعان ما يعكف على ذلك واضعا نصب عينيه المنطقتين التاليتين : (أ) « سهل البقاع الذي يقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية ويخترقه نهر الليطاني ، جاعلا منه منطقة بالغة الخصب وضئيلة السكان في آن واحد » . (ب) « وادي جزراعيل » (١٠) . وقد جعل اساس المستوطنين قائما على الخط الحديدي . ففي البقاع خطر له اقامة اتصال بالخط الحديدي الموجود بين بيروت ودمشق . وفي حال اختيار وادي جزراعيل ، لا بد من ربط حيفا بطبريه عن طريق خط حديدي ، والاهتمام بتوسيع مرفأ حيفا وتشييده . بيد ان مشروعه لا يختلف كثيرا عن مشروع لورانس اوليفانت للاستعمار في ارض جلعاد . وليست الاهمية التي يعلقها كل منهما على دور الخطوط الحديدية وسهولة الوصول الى البحر الابيض المتوسط سوى صدى استعماري لتلك المشروعات الضخمة وامتيازات مد الخطوط الحديدية عبر اراضي الامبراطورية العثمانية ، وبالتالي انعكاس لذلك التنافس بين الدول الكبرى في العقود الاخيرة من القرن الماضي . فقد ابدت بريطانيه اهتماما واسعا بشتى المشروعات الرامية الى اختصار المسافة بين البحر المتوسط ومصالحها في الهند . وحين ارتفعت اسهم النفوذ الفرنسي وبدأ الحديث الجدي عن شق قناة السويس لوصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ، كانت بريطانيه تسارع عام (١٨٥٧) الى اعداد الدراسات حول الطريق البرية بين الاسكندرون والبصرة . ثم بدأ التفكير بمد خط حديدي بين النقطتين . لكن المعارضة البريطانية لمشروع دي ليسبس استمرت حتى اصدار الباب العالي موافقته الرسمية عام ١٨٦٦ . وما ان تم تدشين القناة وافتتاحها حتى استأنفت بريطانيه مساعيها ، ونجح السير وليام اندرو عام ١٨٧٢ في حمل مجلس العموم على اختيار لجنة من اعضائه لدراسة ما اطلقت عليه تسمية «مشروع الخط الحديدي في وادي الفرات» . الا ان الثمانينات ، كما مر معنا ، شهدت اهتمام الالمان المتزايد في مشاريع الخطوط الحديدية عبر اراضي الامبراطورية العثمانية . وفي العقد الاخير من القرن اصبح مشروع الخط الحديدي بين برلين وبغداد رمزا لنمو النفوذ الالماني وامتداده صوب الشرق .

اما الصهيونيون الالمان فلا يمكن النظر اليهم الا من ضمن دائرة النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية . وقد بلغ التحالف بين الصهيونية

١٠ ــ انظر : بودنهايمر ، **المصدر السابق** ، ص ٧٦ .

الالمانية عبر المصالح الامبراطورية التي رفع لواءهـا غليـوم الثاني وبين الامبراطورية العثمانية ، ذروته في مطلع هذا القرن وخـلال السنوات التي تفصل بين ثورة تركيه الفتاة واندلاع الحرب العالمية الاولى. وانعكس التحالف المصلحي على تفكير الصهيونيين الالمان ومشروعات الاستعمـار والاستيطان اليهودي التي صدرت عنهم . حتى اننا نجد ديفيز تريتش يزعم على سبيل الدعاية المؤيدة للصهيونية في المانيه وفي كراس بعنوان «يهود تركيه» (ليبزيغ ١٩١٥) بان « اليهود يشكلون عنصرا شرق اوسطيا في المانيه ، وعنصرا المانيا في تركيه » . ويمضي الى تعـداد المجـالات المفتوحةامام محمية المانية تبسط جناحيها على كل من اليهود والاسلام(١١) .

نعود الى بودنهايمر ، فنجده يتعرف على دافيد ولفسون في شباط (فبراير) ١٨٩٢ ، لكي يسجل في مذكراته الانطباع التالي حول ذلك اللقاء : و « هكـذا كان ان ولدت الصهيونية الالمانية » (١٢) . كما يخبرنا ان احد انصار ثيودور هرتزكا ، ميخائيل فلورشايم ، حاول استدراجه في مطلع ١٨٩٢ للتعاون على اقامة مستعمرة في افريقيه الشرقية باسم حركة « فراي لاند » وفي تلك الاثناء جاء من يلفت انتباهه الى كتاب موزس هس « رومـه والقدس » (١٨٦٢) ، فوجـده « يبعث النشوة في النفس » واقتنع بصعوبة دحض النتائج التي توصل اليها مؤلفه . غير انه لم يشأ الا الاعراب عن شكوكه بصحة افتراض هس الذي اناط بفرنسه ، محررة الشعوب ، ذلك الدور التاريخي لانشاء الدولة اليهودية .

وفي عام ١٨٩٣ اشترك بودنهايمر مع دافيد ولفسون ، خليفة هرتزل في رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، في تأسيس جمعية لاحياء صهيون في مدينة كولونيه . وبعد عام من زيارته لبرلين نلتقيه على راس نادي « صهيون » القومي اليهودي في كولونيه ، والذي انبثق عن « جمعية التاريخ والادب اليهودي » . اما المبادىء التي قام عليها النادي المذكور فقد اوردها بودنهايمر في ملاحق المذكرات على الصورة التالية :

« يسعى النادي الى تعزيز الشعور بالتضامن والوحدة بين جميع اليهود على اساس الاصل المشترك ، والتاريخ ، والثقافة والمصالح

---

١١ ــ راجع دراسة ليونارد شتاين عن وعد بلفور : Leonard Stein:
The Balfour Declaration (Vallentine, London, 1961), p. 213.
Cf. Trietsch — «Die Juden der Turkei», (Leipzig, 1915).

١٢ ــ بودنهايمر ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

الاجتماعية والاقتصادية المشتركة » (١٣) .

ولتحقيق هذه الغاية يعمد النادي المذكور الى تشجيع المسائل التالية ورعايتها بعين العطف والتأييد :

أ – المعرفة بالتاريخ والادب اليهودي ،
ب – التخاطب باللغة العبرية واستعمالها ،
ج – تحسين الوضع القانوني والاجتماعي والاقتصادي لليهود في البلدان التي يتعرضون فيها الى الضغط على احدى تلك النواحي .
د – اقامة مستعمرات زراعية يهودية .

اما الوسائل التي يرتأي النادي اعتمادها ، فهي تتلخص بتنوير « ابناء قومنا » من اليهود ، خلال اجتماعات منتظمة ، حول جميع مشاكل انساعة الحيوية وتقويم الدعم والتأييد لجميع المنظمات والجمعيات التي تمارس نشاطها في اي حقل من هذه الحقول (١٤) .

وقد نستغرب ذلك الامتناع المتعمد عن تحديد هوية الرقعة الارضية التي يودون انشاء المستعمرات الزراعية ضمن نطاقها . لكن تضافر الجهود الصهيونية بين جماعة بيرنباوم واعضاء « اسرائيل الفتاة » في برلين كان قد شرع منذ ١٨٩٣ في التداول بشأن توجيه الدعوة الى عقد مؤتمر صهيوني عام . ومما قاله ناثان بيرنباوم في الكراس الذي استمدت منه الصهيونية اسمها عام ١٨٩٣ : « اذا كان للفرد اليهودي من وطن ، فان الشعب اليهودي لا وطن له » . و « ليس الهدف الذي نسعى اليه جمع شمل اليهود كلهم في وطن واحد ، بل ايجاد مركز واحد للشعب اليهودي » (١٥) .

غير ان البرنامج الموحد للاجتماع التمهيدي بين سائر الفرقاء في برلين (١٨٩٣) لم يكتف بالتشديد على ضرورة توجيه الدعوة لعقد مؤتمر صهيوني عام . بل علّل ذلك على اساس « القيام بصياغة واضحة للاهداف النهائية للصهيونية السياسية التي تشمل جميع اليهود (Panjudaistisch) (١٦) . هذا

---

١٣ – انظر بودنهايمر ، المصدر نفسه ، Appendices, pp. 401 - 402.
١٤ – المصدر السابق ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ .
١٥ – انظر ادولف بوهم – **تاريخ الصهيونية** ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .
١٦ – المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

بالاضافة الى فكرة انشاء منظمة موحدة وصندوق للحركة (Parteifonds) واحياء اللغةالعبرية مع القيام باعادة تنظيم للاستعمار اليهودي بفلسطين. ولربما جاء وصف الصهيونية السياسية هنا بأنها « التي تشمل جميع اليهود » (Pan Judaism) انعكاسا واضحا للنظرية الالمانية في القومية. لا بل هو يتحدر بصورة مباشرة من المصادر الالمانية لدعوة « القوميـة الالمانية الشاملة » (Pan Germanism) . ونحن نعرف ان النظرية الالمانية اعتبرت الشعب الذي يتحدر من اصل واحد او يتكلم لغة واحدة بمثابة دولة واحدة. كما انمؤرخ القومياتوكبير الثقاة في موضوع الفكرةالقومية الحديثة هانز كوهن قد وصف « حركة الجرمانية الشاملة » هذه بأنها :

« تقوم على الفكرة القائلة بان جميع الاشخاص المتحدرين من العرق الالماني ، او تربطهم قرابة الدم والاصل الالماني ، حيثما وجدوا والى اية دولة ينتمون ، يكنّون ولاءهم الاول لالمانيه ويجب ان يصبحوا مواطنين في الدولة الالمانية ، وطنهم الحقيقي . قد يكونوا نشأوا وترعرعوا ، هم وآباؤهم واجدادهم ، تحت سماوات « اجنبية » وفي بيئات « غريبة » ، لكن « حقيقتهم » الاساسية الصحيحة بقيت المانيّة » (١٧) .

ومما لا شك فيه ان ثيودور هرتزل ، ربيب البيئة النمساوية الالمانية، قد استوحى فكرته الصهيونية في القومية اليهودية من مصادر المانية (١٨) شبيهة الى ابعد حد بتلك المقومات التي اعتنقتها « الحركة الجرمانية الشاملة » واخذ عنها الصهيونيون الالمان كثيرا . ولنا في المبادىء التي نقلناها عن بودنهايمر اعلاه خير شاهد على الاقتباس والتبني ، مع العلم

---

١٧ ــ انظر مقالة هانز كوهن : «Zion and the Jewish National Idea» التي ظهرت في : The Menorah Journal (Autumn - Winter 1958, Vol. XLVI, Nr. 1 & 2). وقد اعاد طبعها النادي الثقافي العربي ونشرها من ضمن مجموعة مقالات ومحاضرات بعنوان : Palestine - Collected Papers, (Beirut, 1963). p. 32.

١٨ ــ مقالة كوهن ، المصدر نفسه . ونقلا عن مقـالة حنه آرندت Hannah Arendt « Zionism Reconsidered », The Menorah Journal (Autumn 1945, Vol. 33, N. 2), p. 188. حيث اكدت المؤلفة بأن « هرتزل فكر بمقولات القومية المستوحاة من مصادر المانية » .

بانعدام التكافؤ بين الحالتين والظرفين ! .

والاتجاه الذي مثله بودنهايمر في الحركة الصهيونية المنظمة ليس سوى امتداد لتلك الافكار والوسائل العملية التي طالعتنا في برنامج « نادي صهيون القومي اليهودي » او « الجمعية القومية اليهودية » تحت اسم « المبادىء الاساسية » . فحين تم انشاء « الصندوق القومي اليهودي » خلال المؤتمر الصهيوني الخامس (بازل ١٩٠١) تقرر اعتماد الاساس التالي :

« يجب ان يكون الصندوق القومي اليهودي ملكا ثابتا للشعب اليهودي، ولا يجوز استعمال امواله الا لشراء الاراضي في فلسطين وسوريه فقط » (١٩) .

وحين بدأ بودنهايمر اتصالاته بثيودور هرتزل ــ بعد ان خيب آماله الكولونيل غولد سميد وجماعة احباء صهيون في بريطانيه واحالوه على هرتزل في نهاية عام ١٨٩٥ ــ وابلغه هذا الاخير بان « جمعية اليهود » سوف تتأسس في لندن حوالي اواخر حزيران (يونيو) ١٨٩٦ ، تنادى الصهيونيون الالمان الى وضع صيغة « جديدة » لبرنامجهم القديم ، وخرجوا من تداولهم بتصريح قرروا اعلانه على الملأ واعتبروه بمثابة مفهومهم للصهيونية السياسية . ثم اطلق عليه بودنهايمر فيما بعد « قضايا كولونيه » (Cologne Theses) لتمييزه عن برنامج بازل اللاحق (Basle Program) ولا تختلف البنود او القضايا الثلاث في التصريح المذكور عن مبادىء «نادي صهيون القومي اليهودي » كثيرا من ناحية التأثيرات الالمانية المستوحاة والمستمدة من فكرة « الجرمانية الشاملة » . غير ان القضية الثانية تنطلق من اعتبار الشعب اليهودي ، الذي يؤلف متحدا قوميا (National Community) بفضل الاصل والتاريخ المشترك ، لم يؤمن مستقبله الاجتماعي والثقافي عن طريق نيل اليهود للمساواة المدنية . وتحكم على عدم كفاية التحرر والاندماج ، لكي تقرر بأن « الحل الحاسم للمسألة اليهودية لا يمكنه ان يتم الا عن طريق انشاء دولة ، حيث تكون هذه الدولة في وضع يسمح لها بتمثيل اليهود على اسس القانون الدولي واستقبال اولئك اليهود الذين لا يستطيعون ولا يرغبون في البقاء داخل اوطان مولدهم » (٢٠) .

---

١٩ ــ انظر بودنهايمر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٠ وما بعدها .
٢٠ ــ انظر بودنهايمر ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

وتمضي القضية الثالثة الى تعداد الوسائل التي اعتبرت كفيلة بتحقيق هذه الغاية ، فتذكر على راسها «الاستعمار فيسوريه وفلسطين» ثم تنتقل الى التحدث عن « العناية بالدراسات والعادات اليهودية ، وتنتهي الى القول « بتحسين الوضع الاجتماعي والثقافي لليهود » (٢١) .

وفي مطلع حزيران (يونيو) ١٨٩٧ ــ وقبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول ببضعة اسابيع ــ قرر الصهيونيون الالمان ، بناء على اقتراح هيرمان شابيرا ، استبدال لفظة «قوميهودي» بـ « صهيوني » . وصاروا يطلقون على انفسهم تسمية «الاتحاد الصهيوني لالمانيه» (Zionistische Vereinigung Für Deutschland) . فما كان من بودنهايمر الا ان سارع الى اعداد نقش صغير (Vignette) ليكون بمثابة شارة الاتحاد وشعاره . وجمع وسط الالوان الحمراء والزرقاء والذهبية نجمةداوود واسد يهوذا بداخلها ثم احاطهما باثنتي عشرة نجمة صغيرة كرمز لاسباط اسرائيل الاثني عشر . وحوّل النقش الى درع صهيوني حفر على اطرافه العبارة التالية : « انشاء الدولة اليهودية هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية ». وحين اطلع هرتزل على الدرع وافق على النجمة والاسد ، لكنه رفض النجوم . ثم حمل المؤتمر الصهيوني على تبني العلم الابيض بخطيه الازرقين وبينهما النجمة التي يتوسطها الاسد . وبينما اقدم المؤتمر الصهيوني على تغيير الراية المذكورة بعد وفاة هرتزل ، نجد بودنهايمر يلجأ الى اتخاذ درعه شعارا لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار ــ مما ادى الى اثارة نقاش عابر ــ على حد قوله (٢٢) .

يتبين لنا ، من خلال هذا العرض للنشاطات الصهيونية في المانيه والنمسه بين تأسيس جمعية « قديمه » في فيينه (١٨٨٢) وانشاء « الاتحاد الصهيوني في المانيه » (١٨٩٧) ، كيف قامت الصهيونية على فكرة التوسع ، وما هي المصادر التي استمدت منها والتعاليم التي استوحتها في المانيه . ونلتقي خلال فترة الخمسة عشر عاما هذه بنفر من « احباء صهيون » ، لم يتتلمذوا على ايدي الكولونيل غولد سميد ، لكنهم فسروا قضية المبارزة بالسيف دفاعا عن الشرف اليهودي على طريقتهم الخاصة . وانعكست التأثيرات التي جاءتهم عبر تلك الجمعيات والمنظمات على الافكار والدعوات التي جاهروا بها او حاولوا وضعها موضع التنفيذ ، مثلما فعل

---

٢١ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٩٦ ــ ٩٨ .

بول فريدمان في حملتـه العسكـرية المصغرة لاحتـلال ارض مدين واستعمارها ، ثم القفز منها الى فلسطين وما يجاورها .

ومن الامثلة التي تحفل بها كتابات الحركة الصهيونية وتاريخها نذكر ما يلي :

١ ــ الدكتور فيلهلم بوهلندورف ــ كان مزارعا ملاّكا وعالما كيماويا في برلين . والتقاه بودنهايمر صيف ١٨٩٣ فوجده شديد الحماس لفكرة الاستعمار عن طريق القوة . وقال عنه ما نصه : « لقد وضع خطة تقضي بتجميع عدد من الرفاق حوله والانتقال الى شرقي الاردن لتثبيت اقدامهم هناك والبدء بشن حرب عصابات على البدو ، فيما لو عارض هؤلاء فكرته باقامة دولة يهودية » (٢٣) .

٢ ــ آرون ماركوس (١٨٤٣ ــ ١٩١٦) ــ من مواليد هامبورغ (المانيه) . استهوته التعاليم الحاصدية فانتقل الى بولونيه بقصد الاقامة وسط الحاصدين هناك . وبدأ يراسل هرتزل منذ عام ١٨٩٥ . ثم بلغ به الحماس في العام التالي مبلغا جعله يعرض على هرتزل جيشا مؤلفا من ثلاثة ملايين حاصدي ، واغرق في الصوفية لدرجة جعلته يشبّه المؤتمر الصهيوني الاول بعمارة شاهقة يقف على سطحها الحارس هرتزل ليراقب من هناك « مستقبل شعبنا » . ثم نعلن بأن « المسيح المنتظر وحده يملك القدرة على فتح البوابة الى ارض اسرائيل » . ومن اقواله التنبؤية بعد قضاء ليلة بكاملها مع هرتزل اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول : « ان مسألة كيفية تسديد الفلسطينيين (Philistines) لديونهم البارزة، وكيف يمكنهم نقل نسائهم وابقارهم عبر البحر هي مسألة لا نكترث لها » .

٣ ــ جوزيف ماركو باروخ (١٨٧٢ ــ ١٨٩٩) ــ من مواليد الاستانة . اعتنق الفوضوية وانضم الى جمعية « قديمه » اثناء دراسته في فيينه . تجوّل في مصر والجزائر وتونس وازمير والبلقان . كما انه انضم الى « فرقة غاريبالدي » في حملتها العسكرية لتحرير جزيرة كريت من الحكم التركي ، ورقي الى رتبة عريف . أعد مشروعا ووضع الخطة لتنفيذه على الشكل التالي : « ان يقوم اليهود بشراء جزيرة صغيرة في البحر الابيض المتوسط ويعلنونها دولة يهودية مستقلة. ثم يقومون بتنظيم حملة عسكرية تنطلق منها لاحتلال فلسطين بقوة

٢٣ ــ انظر بودنهايمر ، المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

السلاح » . وجاء لحضور المؤتمر الصهيوني الثاني وتهديد هرتزل « بتنظيم جيش والاستيلاء على فلسطين بالقوة » . حتى ان هرتزل اعرب بطريقته الخاصة عن مخاوفه من اقدام هـذا الفوضوي على اغتياله او طعنه بسكين ! غير ان باروخ انتحر في فلورنسه بعد قصة غرامية فاشلة . ولا يتسع المجال هنا لسرد قصته وملاحقاته بكاملها.

٤ ـ مناحيم شاينكين (١٨٧١ ـ ١٩٢٤) ـ كـان تاجرا واقتصاديا وتحوّل الى معلم مدرسة . ثم اشترك فيما بعد بتأسيس كلية هرتزل الثانوية في تل ابيب (Herzlia Gymnasiun)، وقام بنشاط فعال في توسيع الهجرة . حضر المؤتمر الصهيوني الاول ليعلن باليديشية من على المنبر : « المرء لا يشتري ارضا ، بل يستولي عليها ويأخذها لنفسه » . ثم راح يشرح اهمية العمل العسكري في تحقيق اهداف الصهيونية ومثّل على ذلك بالدعوة الى اشراك فرقة يهودية في غزو فلسطين واحتلالها . وها هو بودنهايمر يتحدث في مذكراته عـن الناحية العسكرية في الفكر التوسعي الصهيوني آنذاك بقوله :

« وعلى الرغم من رفضي لفكرة شن حملة عسكرية في غياب الوضع الذي يستدعي ذلك ، فانني لم اكن استطيع الا ان آمل بأن يمهد توريط تركيه في الحرب السبيل امام الاستيلاء على الارض . ولقد اتضح بأن هـذه الفكرة قـد غرست جذورها في رؤوس بعض المتحمسين من خلال الموقف الذي اتخذه فيما بعد احـد الذين شاركوا في تأسيس مدينة تل ابيب ، شاينكين »(٢٤) . . .

كما ان يوميات هرتزل ، بعد تحالفه مع جمعية « قديمه » وقبـل سفره الاول الى الاستانة لمقابلة السلطان والمسؤولين لدى الباب العالي (حزيران، (يونيو) ١٨٩٦) لا تتردد في الحديث عن مخطط قيد التنفيذ في اوساط اعضاء « قديمه» يقضي بتجنيد فوج متطوعين يضم الفا او الفين من العساكر للقيام بمحاولة انزال على شاطىء يافا . لكنه يسارع الى القول بانه نصح القائمين بالمشروع ان يتريثوا في تنفيذ « هذه الفكرة الغاريبالدية الجميلة ». وذلك لانها سابقة لاوانها ، ما لم يجد هؤلاء سكانا قد اعدوا اعدادا قوميا في انتظارهم (٢٥) .

---

٢٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٢٥ ـ انظر **يوميات ثيودور هرتزل** ، الطبعة التي حررها وترجمها مارفن لوفنثال ، ١٩٥٦ ، ص ١٣٤ .

العيون والمعدة

يطالعنا هرتزل عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول ، ومن خلال يومياته ، بالمحاولات التي الفناها في الفصول السابقة للتمويه والتضليل . فقد رأيناه يترك لكل من صموئيل مونتاغو والكولونيل غولد سميد مسألة المطالبة بـ « فلسطين الكبرى » . ويستمع الى الدرس الذي ألقاه عليه القسيس هشلر حول خريطة فلسطين الموعودة وحدودها المترامية الاطراف، تحت شعار « فلسطين داوود وسليمان » ــ مع العلم الذي نأخذه من وقائع التاريخ وحقائقه بأن مملكة داوود وامبراطورية سليمان لم تمتد حدودها في اي وقت من الاوقات الى هذه الحدود التي يتنبأ بها هشلر !

ومن الطريف ان هرتزل استعان بنوع من الشيفرة في يومياته ومراسلاته . فقد قام اوسكار رابينوفتز في نهاية المجلد الخامس من اليوميات بمحاولة لفك رموز الشيفرة الهرتزلية . غير ان ما يعنينا من ذلك ينحصر بتلك الرموز التي استعملها لفلسطين وما اطلق عليه « ارض اسرائيل». وهي التالية : «الذبابة» (Fly) ، ايزالاند (Isaland) : ارض اسرائيل ، والمطبعة (Druckerei) و « سوق الفحم » (Kohlmarkt) و « بلاد فارس » (Persien) ، بالاضافة الى الرقم «١٦» (Sixteen) (١) ; كما انه يصف « البراءة » (Charter) التي سعى للحصول عليها من السلطان العثماني بالرموز التالية : الشغل (Business) ، المقالة الصحفية (Feuilleton) ، المربى (Jam) ، « الغرض » (Sache) « السجادة » (Teppich) ، والمنديل (Tuch) . ويحتفظ للسفير بلفظة « الفرع » (Filiale) بينما يقرن اسم « الله » (God) ببريطانيه وافريقيه الشرقية

---

١ ــ يبدو ان الرقم «١٦» له علاقة بالمعتقدات الصوفية اليهودية . وفي القبّالة (Kabbala) يرمز الى هيكل سليمان في القدس . كما ان التقليد اليهودي الشائع في الاوساط المتدينة يعتبر ان الهيكل قد جرى تخريبه في التاريخ القديم حوالي ١٦ مرة . وربما أخذ هرتزل الرقم المذكور رمزا للهيكل الذي وعده هشلر باعادة بنائه .

بـ « شمشون » وجزيرة قبرص بالرقم «١٢» .

وحين قدم الى الاستانة واجتمع بالصدر الاعظم (خليل رفعت باشا) وامين سره (خير الدين بك) طرح عليه السؤال التالي : « ان فلسطين كبيرة . فما هو ذلك القسم من البلاد الذي يفكر به » . وطلب هرتزل ان يكون جوابه : « يجب قياس ذلك لقاء المنافع التي نقدمها . كلما حصلنا على مزيد من الارض ، نكون على استعداد للقيام بتضحيات اكبر »(٢) . غير انه استأذن بعدم الدخول في التفاصيل ، عندما استفسره الصدر الاعظم عن الشروط . واصر على عدم الافضاء بالسر الى غير جلالة السلطان . ولا تخفي اليوميات قصةالشكوك التي ساورت عبد الحميد الثاني آنذاك ، اذ اعتبر المسألة بمثابة « صليبية متخفية ضد تركيه » .

ثم نجد هرتزل قد انتقل الى لندن ليقابل البارون دي روتشيلد ويلقي عليه درسا في التلاعب اللفظي والتمويه :

« (المستعمرة) هي دولة صغيرة والدولة هي (مستعمرة) كبيرة . انت ترغب في انشاء دولة صغيرة وانا اقترح اقامة مستعمرة كبيرة »(٣)

وفي جواب روتشيلد آنذاك – والذي نقله هرتزل مستهزئا ومستخفا معتبرا اياه قمة التفلسف لدى البارون – نجد انعكاسا صادقا لاحدى النواحي البارزة فيالتفكير التوسعي الصهيوني. فقد تفوه البارون بمثل او قول مأثور بالفرنسية ، مؤداه : « يجب على العيون الا تكون أوسع من المعدة » . غير ان هرتزل بقي على نهجه المتعمد مصرا على عدم الخوض في مقارنات من هذا القبيل . وحافظ على صمته وتريثه الى ما بعد قيام المنظمة الصهيونية العالمية وانعقاد المؤتمرات الصهيونية .

ثم جاء المؤتمر الصهيوني في آب (اغسطس) ١٨٩٧ وتم الاتفاق بين كبار المشتركين ، والحقوقيين منهم بصورة خاصة ، على صياغة برنامج بازل باللغة الدبلوماسية المعهودة ، والاحجام عن ذكر الدولة اليهودية من ضمن اهداف الصهيونية . وجرى الاكتفاء باستخدام لفظة غامضة بالنسبة الى غير الصهيونيين ، اذ تمكن ماكس نوردو من اقناع الذين كلفوا بوضع الصيغة النهائية للبرنامج باعتماد عبارة « وطن في فلسطين»

---

٢ – انظر **يوميات ثيودور هرتزل** ، تحرير لوفنشال ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ – ١٥١ .

٣ – المصدر نفسه ، ص ١٨٧

(Heimstätte) التي لا تفيد « الدولة » ولا تلزم بمسألة الحدود(٤) .

وسارع هشلر ، الذي جاء بصحبة هرتزل الى المؤتمر معتبرا نفسه سكرتير « المسيح المنتظر » ، الى الهتاف « يحيا الملك » . بينما ختم مقالته المنشورة في العدد الاول من صحيفة « دي فلت » فيما بعد بقوله:

« استفيقوا يا ابناء ابراهيم ! فالله ذاته ، الاب السماوي ، يدعوكم للرجوع الى وطنكم القديم ويريد ان يكون الهكم ، كما يدعو في قديم الزمان من خلال انبيائه »(٥) .

غير ان التعبير الكلاسيكي عن النواة التوسعية في التفكير الصهيوني يطالعنا على افضل وجه خلال المقابلة التي دبرها هشلر مع امبراطور المانيه في خريف ١٨٩٨ ــ اي بعد مضي ما ينيف على العام من انعقاد اول مؤتمر صهيوني . فقد شغل هرتزل آنذاك بفكرة المحمية الالمانية . وكان النفوذ الالماني لدى الباب العالي في صعود مستمر الى الاوج . ومع العلم بان مقابلة الامبراطور لم تتم في ذلك الحين ، فقد اجتمع هرتزل الى كل من المستشار الامبراطوري الالماني فون هوهنلوهه (Von Hohenlohe) بحضور وزير خارجية الرايخ الثاني ، فون بولو (Von Bülow) . وبعد استفسارات عن استعداد اليهود لترك بورصات الاسهم والسير وراء هرتزل الى فلسطين ، سأله المستشار عن حدود الرقعة التي يبغون الحصول عليها ، وهل تمتد شمالا حتى بيروت ام تتعداها الى ابعد من ذلك . وكان جواب هرتزل بمثابة اول اعتراف صريح يفضح النوايا التوسعية للحركة الصهيونية على الصعيد الذي ما زلنا نعهده منذ سبعين عاما ، على الرغم من تبدل الاطارات والصيغ والذرائع والمبررات :

« سوف نطالب بما نحتاج اليه ــ كلما ازداد عدد المهاجرين ، ازدادت (حاجتنا) للارض »(٦) .

---

٤ ــ يقول بودنهايمر في تعليقه على خطاب هرتزل اثناء المؤتمر الاول : « عرف كل واحد من مستمعيه بان هرتزل عنى فلسطين بـ « الوطن » الذي تحدث عنه » ــ (انظر المصدر السابق ، ص ١٠٤)

٥ ــ انظر **Barnet Litvinoff — «To The House of Their Fathers» A History of Zionism (Praeger, N.Y., 1965), p. 79.**

٦ ــ انظر اليوميات ، ج ٢ ، ص ٧٠٢
«Wir Verlangen, was wir brauchen — desto mehr Einwanderer, desto mehr Land».

وهنا سارع هرتزل الى تطمين مستمعيه قائلا : « بالطبع سوف يتم شراء الارض من مالكيها الحاليين وفقا للقانون المدني » . ثم استوضحه المستشار : « ومن هم هؤلاء ؟ » . فكان جوابه : « العرب واليونان ، وذلك الجمع الشرقي الخليط باكمله » ! وتابع استيضاحه للمسائل المتعلقة بنوايا اقامة دولة يهودية وموقف تركيه من كل ذلك ، بينما راح هرتزل يلجأ الى شتى الحيل والتمويهات لكي يتهرب من اعطاء جواب صريح .

واخيرا نجد هرتزل في الطريق الى الاستانة بصحبة ماكس بودنهايمر (١٥ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٨٩٨) بينما ينهمك الاثنان في بحث المطالب التي تريدها الصهيونية من الباب العالي وسلطانه . ثم يسجل في يومياته ما يلي :

« المساحة ! » من نهر مصر الى نهر الفرات . نريد فترة انتقالية في ظل مؤسساتنا الخاصة . وحاكما يهوديا خلال هذه الفترة . بعد ذلك تنشأ علاقة كالتي تقوم الان بين مصر والسلطان . وما ان يصبح السكان اليهود في منطقة ما ثلثي مجموع سكانها ، حتى تصبح الادارة اليهودية سارية المفعول على الصعيد السياسي ، بينما تعتمد الحكومة المحلية دائما (سلطات البلديات) على عدد الناخبين في المنطقة او المحلة »(٧) .

ولقد الفنا حتى الان التكتيك الذي يسير عليه هرتزل ، اذ يعاود الكرة هنا فينسب هذه الافكار الى بودنهايمر ويقره على روعة قسم منها. ثم يضيف بان « المرحلة الانتقالية فكرة حسنة » !

لذلك نتوقف عند هذا الحد ، متذكرين قول البارون دي روتشيلد عن العيون التي تحاول ان تكون اوسع من المعدة . كما اننا لا نجد مفرا من استعادة قول هرتزل قبل سبعين عاما تقريبا في ضوء الاوضاع الحاضرة وعلى مستوى الاحداث : فلسطين ١٩٤٨ (بعد نصف قرن) وفلسطين ١٩٦٨ (اي بعد عدوان الخامس من حزيران) . ماذا تكون يا ترى المرحلة الانتقالية الحالية ؟ وما الذي يقبع وراء نغمة المطالبة باسرائيل الكبرى ، بالاضافة الى كون الدعاية لها لم تتوقف بل سارت في خطى مؤسس الحركة الصهيونية وتبنت الاسلوب الذي انتهجه . ولا يغرب عن بالنا حديث « عودة المنفيين » و « تحرير ارض اسرائيل بكاملها » ، اذ نجد الصهيونية تستنبط « الحاجة » بشتى الوسائل قبل اقدامها على ترديد قول الملك

---

٧ ــ **اليوميات** ، ج ٢ ، ص ٧١١

هرتزل : بينها وبين نفسها ، من جهة ، وعلانية ، من جهة ثانية ، علـــى صعيد المطالبة بالحدود الامنة وضمان السلامة والامن :

« سوف نطالب بما نحتاج اليه ــ كلما ازداد عدد المهاجرين ، ازدادت (حاجتنا) للارض » .

وطن الآخرين

أ ـ الصديق والعدو

تمتد فترة النشاط الهرتزلي خلال السنوات العشر التي سبقت وفاة مؤسس الصهيونية الحديثة . ففي تشرين الثاني نوفمبر ١٨٩٤ اصدر ثيودور هرتزل مسرحيته التي اختار لها عنوان « الغيتو الجديد » (The New Ghetto) واعتبرها مؤرخو حياته بمثابة المنعطف الذي تمكن هرتزل عنده من اتمام « رجعته الداخلية والنفسية » الى الشعب اليهودي . فقد جاءت الرسالة التي تضمنتها بمثابة دعوة الى اليهود للخروج من وراء جدران الحي القديم ، حيث كانت طبقاتهم الدنيا والفقيرة تقيم منذ عشرات السنين ، غير عابئة بتلك التغيرات والانعتاقات التي اكتنفت عالم الحياة الاوسع والمحيط بها . وما هي الا بضعة شهور حتى اخذت تراوده فكرة « الارض الموعودة » التي ما لبثت ان وجدت تعبيرها في كراس « الدولة اليهودية » . كما انه ليس بمستبعد ان يكون هرتزل قد تأثر الى حد بعيد بتلك الشخصية الروائية التي اقتبسها بنجامين دزرائيلي في رواية تانكرد (Tancred) الصادرة قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول بخمسين عاما (١٨٤٧) (١) . وقد اخبرنا احد

---

١ ـ ان تانكرد دزرائيلي هو مثال للشخص الارستقراطي المولد الذي اضناه العالم واسأمته حياة المجتمع العصري ، فعصف به الحنين الى استرجاع الايمان الحق وعقد العزم على المجيء الى القدس لكي يسبر غور « السر الاسيوي » ويزور ارض النور والوحي . لكن المؤلف وبطله سرعان ما تخونهما الذاكرة ، فيتحول الاهتمام الى السؤال المتعلق بكيفية بسط السيطرة البريطانية على طريق الهند. وينشغل دزرائيلي بملابسات «الازمة السورية» (Syrian Crisis) التي شغلت اذهان الدول الكبرى منذ استيلاء ابراهيم باشا على

(التتمة على الصفحة التالية)

الذين كتبوا سيرة هرتزل بان لقبه ايام التلمذة واثناء عضويته في جمعية آلبيا (Albia) التي تبارزت بالسيف ، كان تانكرد ، او « تلك الشخصية البطولية التي لعب صاحبها دورا بارزا في الاستيلاء على القدس ايام الصليبيين » . وتانكرد آنذاك هو « امير الجليل ، وامير انطاكيه » (٢) .

وفي رواية «الارض القديمة ــ الارض الجديدة» (Altneuland) ، التي صدرت عام ١٩٠٢ لتنقل الرؤيا الهرتزلية للمجتمع اليهودي في ارض فلسطين التي اعيد بناؤها بعد عشرين عاما (١٩٢٣) ، نجد هرتزل يستمد شخصياته الروائية المتخيلة من ملامح زملائه في الحركة الصهيونية وسائر افراد اسرته . غير انه حين يصل الى وصف استعمار فلسطين على نطاق واسع وخلق الدولة اليهودية ، تغدو الخطوة الاولى في نظره تلك التي تقضي بارسال « علاء الدين » (Alladino) الى فلسطين للقيام بشراء كل ما يستطيعه من اراضيها . وقد وصف علاء الدين المذكور بقوله : « يهودي اسباني . يتقن العربية واليونانية ، رجل ذكي يمكن الوثوق به ، وهو متحدر من تلك الاسر التي تفاخر بنسبها وترجع به الى زمن الطرد من اسبانيه ... » (٣) .

المناطق الواقعة شرقي السويس (فيما بعد) . فلا يتردد في استذكار محاولة محمد علي لانشاء دولة عربية سيدة ، حتى انه يعتبر فرصة بريطانية السانحة عن طريق القومية العربية ، وليس من خلال الدعوة الى قومية يهودية . ويضع الكلمات التالية على لسان « فخر الدين ، امير لبنان » الطامح الى السلطة و «دينه الوحيد الحصول على الصولجان» : « دع ملكة الانجليز تجمع اسطولها ... وتنقل مقر امبراطوريتها من لندن الى دلهي ... وسوف اتوصل في تلك الاثناء الى اتفاق مع محمد علي . ستكون له بغداد وبلاد ما بين النهرين ... بينما احيط سوريه وآسيه الصغرى بعنايتي ... وسنعترف بامبراطورة الهند كسيدة علينا ونضمن لها الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط . ولو شاءت لحصلت على الاسكندرية مثلما تسيطر على جزيرة مالطة الان . يمكن ترتيب ذلك . ان ملكتكم شابة : والمستقبل ينتظرها ...» (انظر توخمان ، **المصدر السابق**، ص ١٤٣) .

٢ ــ انظر Joseph Fraenkel — **Theodor Herzl. A Biography** (Ararat Publishing Society Ltd., London, 1946), p. 31.

٣ ــ انظر **المصدر السابق** ، ص ١٤

اما الهدف المباشر الذي كان يرمي اليه هرتزل من وراء تلك الصورة النموذجية لفلسطين اليهودية بعد عشرين عاما فهو محاولة توجيه انظار العالم الى اليوتوبيّة الجديدة وكسب الرأي العام غير اليهودي لصالح الصهيونية ، في المقام الاول . وحين كان يعكف على كتابة الرواية في اواخر شتاء ١٩٠١ ، نجده منشغلا داخل لجنة العمل الصهيونية بالحديث عن « اكتشاف فلسطين » والبحث في مواردها الطبيعية من زاوية الاستثمار في حقول الصناعة . وتخطر له فكرة الدوران حول معارضة الحكومة العثمانية للاستعمار والهجرة عن طريق الدخول الى فلسطين تحت ستار الشركات الاجنبية المساهمة . على أن تكون تلك الشركات مغفلة يملك حصة الاسد فيها « بنك الائتمان اليهودي للاستعمار » ، وتعمل خلف واجهة الحماية الالمانية او النمساوية او الفرنسية . ثم يبدي اعجابه بالفكرة الرائعة التي وضع خطتها كوكيش لابتياع اسهم الخط الحديدي بين يافا والقدس بالاضافة الى كل ما يتبع عن ذلك . وفي منتصف ايار، مايو، (١٩٠١)، وبعد بلوغه الواحدة والاربعين من العمر، نجد هرتزل في الاستانة يسجل في يومياته ، تحت تأثير فلسفة شوبنهور ، بان « العالم لم يعد بالنسبة لي تمثلا (Vorstellung) ، بل ارادة (Wille) »(٤) . بينما كان يسعى لدى السلطان العثماني للحصول على ترخيص او براءة تتضمن الحقوق والواجبات والامتيازات المتعلقة بـ «شركة الاراضي اليهودية العثمانية للاستعمار والاستيطان في فلسطين وسوريه » (٥) . اما مسودة البراءة فقد نصت في بندها الثالث على منح اليهود حق ترحيل السكان الاصليين واجلائهم عن بلادهم . وقد جاء فشل هرتزل في الحصول على موافقة الحكومة العثمانية مقدمة لحمل « الصندوق القومي اليهودي » ــ الذي جرى انشاؤه في العام نفسه اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الخامس في بازل ــ على تضمين قوانينه ونظامه الاساسي تلك البنود والنصوص المتعلقة باعتبار الارض المشتراة ملكا ثابتا للشعب اليهودي وتخصيص الاموال فقط لشراء الاراضي في كل من سوريه وفلسطين .

ومع أن هرتزل يحاول في الرواية الانفة الذكر تصوير دولة اليهود في المستقبل كمجتمع جديد يختلف عن « الغيتو الجديد » ، ويرتع في

٤ ــ اليوميات ، ج ٣ ، ص ١١٠٥

٥ ــ «Jüdisch - Ottomanische Land-Companie zur Besiedlung von Palästina und Syrien».

نعيم النظرات الليبرالية السائدة عند مطلع هذا القرن (« انها تقوم على تلك الافكار التي تعتبر حصيلة مشتركة لجميع الامم المتمدنة ») ، فان ما سبق له وكتبه في « الدولة اليهودية » و « اليوميات » او قام به من اعمال وتحركات خلال سنواته العشر في زعامة الحركة الصهيونية لا يتفق ابدا مع الدعاية اليوتوبية في الرواية . لا بل يقف واياها على طرفي نقيض . وقد لخص هرتزل رؤياه للمجتمع المنفتح في الارض القديمة ـ الجديدة على النمط التالي :

« سوف يكون منافيا للاخلاق لو اقدمنا على استثناء او اقصاء اي انسان ، مهما يكن اصله او نسبه او دينه ، من الاشتراك في منجزاتنا . لاننا نقف على اكتاف الشعوب المتمدنة الاخرى ... وما نملكه ندين به للعمل التمهيدي الذي قامت به الشعوب الاخرى. لذلك يتوجب علينا الايفاء بالدين المترتب علينا . وهناك سبيل وحيد لتحقيق ذلك : التساهل الاقصى . لذلك وجب ان يكون شعارنا ، الان وابدا : ايها الانسان ، انت اخي »(٦) .

غير ان هذا الشعور بالتآخي الذي يغمر هرتزل وسط دعوته للاعتصام باقصى حدود التساهل ينعدم اثره في كتاب الصهيونية المقدس ، « الدولة اليهودية » وفي اعمال رسولها واقواله واحاديثه التي شاء تسجيلها للتاريخ ومن خلال كشفه عن مكنونات نفسه . فالشعار الذي يطالعنا هناك ليس من قبيل حمل شعلة المدنية لاهل فلسطين وسكانها الاصليين ، على الرغم من الارتباط الوثيق بين الاستعمار و«اداء الرسالة التمدينية » . والصورة التي رسمها للعرب السعداء في دولة المستقبل ليست سوى النسخة السلبية التمويهية لما نجده في «اليوميات» من خفايا ونوايا تنصب كلها على « تشجيع السكان المعدمين على عبور الحدود بعد ان تسد في وجوههم مجالات العمل والاستخدام »(٧) في بلادهم الأم وموطنهم الاصلي . وعملية التشجيع هذه يطلق عليها هرتزل تسمية « نزع الملكية طوعا » (Voluntary expropriation) . ثم يعهد الى عملائنا السريين « بوضعها موضع التنفيذ . بينما تترك مسألة القضاء على الافاعي السامة والحيوانات البرية للسكان الاصليين واهالي البلاد ،

---

٦ ـ انظر مقالة هانز كوهن التي سبقت الاشارة اليها . **المصدر السابق**، ص ٣٠ .

٧ ـ انظر **اليوميات** ، ج ١ ، ص ١٠٢

يكون استئصالها من نصيبهم ! واذا كان هرتزل يعتبر السماح بتجهيز جيش صهيوني للسهر على الامن والسلامة (Schutztruppen) احد التنازلات التي يتوقعها من جانب الدول والجهات التي تسانده ، فانه لا يخفي نواياه ابدا . بل يؤكد انه متى استتب الامر للصهيونية وتعززت قوتها ، سوف تعتمد على نفسها ولن تتردد مطلقا في مد يدها الى كل ما نحتاج اليه » والاستيلاء على كل ما يناسبها غير عابئة بشيء(٨) .

وفي خاتمة كراس « الدولة اليهودية » نجده يركز اهتمامه على اعطاء رد جاهز ضد كل اعتراض ينتصب امامه ليقول : « اليس من الافضل ازالة الحدود القديمة بدلا من اقامة حواجز جديدة ؟ »(٩) . لكن هرتزل يسارع الى تحديد مفهومه الخاص للتآخي من خلال نظرته الى طبيعة العلاقات الانسانية . والمنظور الذي يتبناه يعيد الى الاذهان حديثه الذي مر معنا في فصل سابق عن دور العداء للسامية في اذكاء شعور اليهودي بيهوديته وفضل اعداء السامية على قيام التضامن بين اليهود ، الى درجة اعتبار تلك العداوة بمثابة الحليف المخلص والساعد الايمن للصهيونية . فهو يقول :

« ان التآخي العام ليس حتى ولا حلما جميلا . فالعدو ضروري لارفع مجهودات الشخصية الانسانية »(١٠) .

وما علينا سوى ترجمة خلاصة هذه الفلسفة الى صعيد الواقع العملي لكي نجد انفسنا امام احدى الخصائص البارزة والراسخة للفكر التوسعي الصهيوني ولسياسة الدولة التي وضع ثيودور هرتزل اسسها

---

٨ ـ ينعكس اسلوب العمل الصهيوني من خلال العبارة الفرنسية التي يتردد ذكرها على صفحات اليوميات ، وكلما جاء ذكر المبالغ الضخمة التي جرى صرفها على سبيل الرشوة والبخشيش : (من يرغب في الوصول الى الغاية يسعى اليها بشتى الوسائل («Qui veut la fin, veut les moyens»).

٩ ـ انظر هرتزل : The Jewish State, (4th Ed. London 1946) p. 76.

١٠ ـ انظر الاصل الالماني لكراس « الدولة اليهودية » في :
Theodor Herzl — **Zionistische Schriften** (Jüdischer Verlag, Berlin, 1920), s. 85. حيث يقول هرتزل بالحرف الواحد :
«Die allgemeine Verbrüderung ist nicht einmal ein schöner Traum. Der Feind ist nötig für die höchsten Anstrengungen der Persönlichkeit».

في مؤتمر بازل . فقامت الحركة الصهيونية المنظمة على الصعيد العالمي لتمارس نشاطاتها باعتبارها « الدولة اليهودية في طور التكوين » . وحين حل العام الذي اختاره هرتزل كحد اقصى لتحقيق الرؤيا اليوتوبية في فلسطين ، كانت الصهيونية اكثر انسجاما وصدقا مع نفسها ومع فلسفة هرتزل حول التآخي العام . فدأبت بشتى الوسائل على التوكيد الصريح بان « الحلم الجميل » لا اساس له من الصحة اطلاقا. بل انها اقدمت على استبداله بكابوس مزعج .

ومما تجدر الاشارة اليه في معرض الحديث عن « ضرورة العدو » ان افكار هرتزل تقترب كثيرا ، فيما لو جرى تتبع جذورها ومصادرها ، من الفلسفة السياسية الالمانية التي حمل لواءها فيما بعد المفكر كارل شميت (Carl Schmitt) ابان انتشار الفاشية والنازية وعشية استلام النازيين للحكم في المانيه . فقد بسط شميت آراءه الفلسفية حول مفهومي « الدولة » و « السياسة » من جهة ، وما يقابل هذين المفهومين على الطرف المناقض لكل من « الحرب » و « العدو » ، من جهة ثانية. وجمع نظريته الشهيرة في كتيب عنوانه « مفهوم السياسة » (١٩٣٢) (Der Begriff des Politischen) ، بعد ان سبق له في العشرينات اصدار كتابه الواسع الانتشار في اوساط النازية والفاشية : « الرومنطيقية السياسية » (Politische Romantik) . اما خلاصة الراي الذي ينادي به فهي التالية : يمكن ارجاع الدوافع والنشاطات السياسية الى التمييز السياسي الخصوصي بين « الصديق » (Freund) و « العدو » (Feind) وتصبح بالتالي «علاقة الصديق والعدو» (Das Freund - Feind Verhältnis) محور العلاقات السياسية بين الدول والطابع الوجودي العيني للشعوب ازاء بعضها بعضا (١١) . ولا بد من التنبيه الى ان « العدو » في نظر شميت ليس « الغريم » او « المنافس » و « المناوىء » بالمعنى العام. ولا هو « العدو الشخصي » الذي تنصب عليه مشاعر الكراهية والنفور . بل العدو على صعيد الامكان الواقعي هو « المجموع المكافح او المحارب من الناس » الواقفين مقابل مجموع مشابه . اي ان العدو يصبح هنا « عدو الشعب » (Der öffentliche Feind) او العدو الرسمي . وبما ان اللغة الالمانية لا تميز ، مثل سائر اللغات الاخرى ــ على حد قول شميت ، بين

---

١١ — Carl Schmitt — **Der Begriff des Politischen, 1932, (Duncker & Humblot, Berlin, 1963), s. 26 - 37.**

« العدو الشخصي » و « العدو السياسي » ، فلا يمكن تفادي سوء الفهم والمغالطة الا بالرجوع الى اللغة اليونانية . اذ نجدها تميز بين (hostis) او « العدو الغريب » و (inimicus) « العدو الداخلي » بمعناها الاوسع. وحين نستشهد بعبارة الاناجيل الشهيرة « احبوا اعداءكم » يكون « العدو الداخلي » هو المقصود وليس « العدو السياسي » !

كما ان شميت يهتم بتصحيح عبارة كلاوزفيتز (Von Clausewitz) الشهيرة عن الحرب . فيخطىء القول الشائع المنسوب الى كارل فون كلاوزفيتز بان « النزاع العسكري هو استمرار للسياسة بوسائل اخرى». ثم يستشهد بالعبارة كما وردت في النص الاصلي (برلين ١٨٣٤) على الشكل التالي : « ليست الحرب سوى استمرار للعلاقة السياسية مع تدخل وسائل اخرى » . اي ان الحرب « مجرد اداة للسياسة » . ولا يعني معيار الفصل بين « العدو » و « الصديق » ، في نظر شميت ، حتمية بقاء شعب معيّن عدوا او صديقا لشعب آخر الى الابد . بل هناك مجال لفكرة الحياد كي تكتسب مغزى سياسيا .

وبما ان البحث قد يتسع ويخرج عن نطاق هذه الدراسة . فقد ارتأينا التوقف عند هذا الحد والتشديد على ان نظرية شميت تعتبر التمييز بين الصديق والعدو وحده اساس معرفتنا بالظاهرة السياسية والمقوّم الرئيسي الاوحد للعلاقات بين الشعوب والدول . وخلاصة القول:

« ان كل تضاد ديني واخلاقي واقتصادي واثني او غيره ، يتحول الى تضاد سياسي ، متى كان قويا لدرجة تكفي لتجميع الناس بصورة فعالة حول قطبي العدو والصديق. كما ان الطابع السياسي لا يوجد في النزال بحد ذاته ، اذ للنزال او الكفاح قوانينه التقنية والنفسية والعسكرية . بل هو (يوجد) ، كما سبق القول ، في احد التصرفات المنبثقة عن هذه الامكانية الحقيقية ، وفي المعرفة الواضحة للوضع الذاتي الذي تعيّنه الامكانية ، وفي مهمة التمييز الصحيح بين الصديق والعدو » (١٢) .

★★★

ومن يدرس هذه الناحية البارزة في تفكير هرتزل لا بد ان تطالعه تلك التيارات المناوئة للنظرة الليبرالية التي تنعكس على اجتهاداته وخواطره

---

١٢ ـ انظر كارل شميت ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

اليوتوبية وحدها ، دون ما عداها . كما انه لا يساورنا اي شك بان الحركة الصهيونية لم تأخذ في نهجها السياسي والعملي من الارث اليوتوبي الهرتزلي سوى الذريعة التي تحاول الاحتماء خلفها او اعتبارها بمثابة مسوّغ لشتى النشاطات الاستعمارية والاستيطانية التوسعية .

ولقد ادرك هرتزل والحركة الصهيونية منذ البداية مغزى المطالبة بوطن الآخرين . وكان احدهاعام سبّاقا في مطلع التسعينات الى قرع ناقوس الخطر واسماع صوت الحقيقة من فلسطين . فكتب اثر زيارته الاولى عام ١٨٩١ مقالته الشهيرة « الحقيقة من فلسطين » ، التي صدرت فيما بعد ضمن مجموعة مقالاته الاخرى بعنوان « على مفترق الطرق » (Al - Paraschat Drachim) ، عام ١٨٩٥ . غير ان الطبعة الالمانية الثانية (١٩٠٢) صدرت خلوا من تلك المقالة (١٣) . هذا مع العلم بانها تضمنت مقالاته الاخرى عن « ليس هذا هو الطريق » (١٨٨٩) و « الدكتور بنسكر وكراسه » (اوديسه ١٨٩٢) و « الحرية الخارجية والعبودية الداخلية» (١٨٩١) . ومن المفيد ان نستشهد بالمقطع التالي من مقالة « الحقيقة » لكونه يعكس حصيلة نشاط « احباء صهيون » في فلسطين بعد عشر سنوات من العمل الاستيطاني والتوسع الاستعماري ، وعلى صعيد العلاقات الانسانية بالذات :

« وماذا يفعل اخواننا في فلسطين ؟ العكس تماما ! كانوا عبيدا في بلدان الدياسبورا ، وفجأة وجدوا انفسهم وسط حرية بلا حدود ، وسط حرية لا رادع لها ولا يمكن العثور عليها الا في تركيه وحدها. ولقد ولّد هذا التحول المفاجيء في نفوسهم ميلا الى الاستبداد، كما تكون الحال « حين يصبح العبد المسود سيدا » . وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجّة ولا معقولة ، ثم يوجهون لهم الاهانات دون اي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الافعال فوق كل ذلك . وليس هناك بيننا من يقف بوجه هذا الميل الخسيس والخطير في آن واحد ؟ » (١٤) .

وقد تحدث احدهاعام في مقاله بلهجة المنذر والمنبّه ، محاولا

---

١٣ — انظر – Ahad Ha - am — Am Scheidewege. Ausgewählte Essays Jüdischer Verlag, Berlin, 1902. وقد قام بترجمة المقالات عن العبرية البروفسور اسرائيل فريدلاندر .

١٤ — انظر مقالة هانز كوهن ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

تصحيح الصورة المشوهة لعرب فلسطين في اذهان « احباء صهيون » . وشدد على الخطأ الفادح الذي ارتكبته الصهيونية عمدا فيما بعد : « نحن نفكر بان العرب كلهم من الوحوش الهمج الذين يعيشون كالحيوانات ولا يفقهون ما يدور حولهم ... » . كما انه اعتبر النقطةالرئيسية التيىعتمد عليها كل شيء : « ليس كمية ما نفعله ، بل الكيفية التي نفعله بها » . وجاءت كتابات هرتزل واعماله بالاضافة الى نواياه التي افصح عنها في « الدولة اليهودية » وفي « اليوميات » خير شاهد على فهمه لكيفيةالعمل الصهيوني بمستوياته المتعددة .

فهو حين يقطع الامل من استعداد العثمانيين للنزول عند رغباته ، يشرع بالتفكير في « اعطاء الحركة هدفا اقليميا اقرب ، مع الاحتفاظ بصهيون كهدف نهائي » (١٥) . ويخطر له ان يداور دون التنازل عن « جميع مطالبنا التاريخية » فيقرر اللجوء الى طلب قبرص من بريطانيه وابقاء ناظريه على جنوب افريقيه واميركه حتى تتم تجزئة تركيه وانحلال امبراطوريتها .. (١٦) وسوف نعالج قضية التوسع الصهيوني في جزيرة قبرص لدى استعراضنا لفكرة « فلسطين الكبرى » التي نادى بها ديفيز تريتش رسميا منذ المؤتمر الصهيوني الاول . وقد تحدثت عنها اليوميات بصورة مفصلة بين عامي ١٨٩٨ — ١٩٠٢ .

وخلال العامين الاخيرين من حياة هرتزل (١٩٠٢ — ١٩٠٤) نجد المشروعات التوسعية للاستعمار الصهيوني آخذة في التزايد والتلاحق . فهو يتحدث في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٠٢ عن عرض تقدم به السلطان ليمنحه بموجبه اقاليم مجانية للاستعمار في آسيه الصغرى والعراق ، باستثناء فلسطين . ويعزو الرفض من جانبه الى الصلاحيات التيمنحته اياها لجنةالعمل الكبرى، اذ لم يكن مخولا ارتجال سياسة من هذا النوع، وقد لا تتفق هذه الصفقة « مع برنامجنا » (١٧) . غير انه يعود الىالحديث عن استعمار العراق بعد مضي ستة اشهر . فنلقاه في الاستانة (٢٥ تموز (يوليو) ١٩٠٢) يحاول اتمام الصفقة لقاء الحصول على المزيد منالاراضي، وحمل السلطان على اضافة « منطقة حيفا وضواحيها في فلسطين » الى ارض العراق ، وتضمين ذلك كله في نص صريح يعلنه الامتياز او البراءة.

---

١٥ — اليوميات ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ (اول تموز (يوليو) ١٨٩٨) .
١٦ — المصدر نفسه .
١٧ — انظر اليوميات ، ج ٣ ، ص ١٢٤٤ .

ومع ان الصفقة كانت ستجري لقاء كفالة الديون العثمانية وتغطيتها ، فان هرتزل لم يشأ الا التوكيد على منافع الاستعمار اليهودي بالنسبة للامبراطورية العثمانية (١٨) . ثم يشعر بعد عامتقريبا (٤ حزيران (يونيو) ١٩٠٣) بان الوقت يمر سريعا ليقترب موعد انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس . وتقف الحركة الصهيونية امام امتحان عسير آنذاك – بعد مذابح كيشنيف في روسيه القيصرية التي حدثت اثر المقابلة بين هرتزل وتشمبرلن (في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٢) . فيكتب رسالة الى عزت باشا العابد ، الذي اصبح وزيرا نافذا عام ١٩٠٢ ، ليذكره بالمقترحات المتعلقة بمنح اليهود امتيازات للاستعمار « في العراق وفي سنجق عكا على السواء » (١٩) ويعرب له عن آخر امل بالوصول الى ابرام اتفاق مع حكومة صاحب الجلالة السلطان ، والا « وجدنا انفسنا مرغمين في العثور على بلاد اخرى . ولن يكون هناك ايانعدام للفرص والمجالات» .

وفي مطلع تموز (يوليو) ١٩٠٢ كان هرتزل يجتمع الى اللورد جيمس دي روتشيلد في لندن ليعرض على مسمعه : « اريد ان اطلب من الحكومة البريطانية براءة للاستعمار » . ويؤكد له الرغبة في انشاء مستعمرة يهودية داخل احد الممتلكات البريطانية . وحين اجابه روتشيلد الى طلبه قائلا « خذ يوغنده » ، تناول هرتزل قصاصة ورق ، بعد ان رفض يوغنده ، ليدوّن عليها : « شبه جزيرة سيناء ، فلسطين المصرية وقبرص » . وزعم في يومياته انه فعل ذلك بسبب وجود آخرين في الغرفة . كما انه ابلغ روتشيلد بان السلطان « عرض علي العراق » لكنه رفضها ! (٢٠) .

---

١٨ – المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣١٤ – ١٣١٦ .

١٩ – المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٠٣ . والمعروف ان سنجق عكا آنذاك كان تابعا لولاية بيروت وقد اشتمل على مناطق حيفا وعكا والناصرة وصفد وطبريه (الجليل بأكمله) وامتد على طول الشريط الساحلي بين جبيل ويافا على وجه التقريب . بينما كان سنجق نابلس (متصرفية نابلس) والتابع لولاية بيروت ايضا ، يضم نابلس وقلقيلية وطولكرم وجنين وغور الفارعة . اما متصرفية القدس ، التي كانت تتبع للاستانة مباشرة – بعد ان اصبحت سنجقا مستقلا عام ١٨٨٧ فقد ضمت غزه ويافا وبئر السبع واللد والرملة ومدينة القدس ورام الله وبيت لحم والخليل والمجدل .

٢٠ – انظر **اليوميات** ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٩٤ .

وسرعان ما ابرز هرتزل خطته المتعلقة بـ « شركة يهـودية لسيناء وفلسطين المصرية وقبرص » . ثم غيّر الاسم في المسودة المالية التي قام بارسالها الى روتشيلد (بينما جرى اعداد مسودة سياسية لكي يصار الى تقديمها لتشمبرلن) (٢١) ، فجعله : « الشركة (الشرقية) اليهوديةليمتد» (The Jewish (Eastern) Company, Limited) ، مما يعيد الى الاذهان تاريخ « شركة الهند الشرقية » (١٦٠١) التي انبثقت عن شركة الليفانت الانجليزية (١١ ايلول (سبتمبر) ١٥٨١) واستمرت تعمل حتى جرى حلها بمرسوم برلماني عام ١٨٢٥ . اما الشق السياسي من الخطة ، التي يصفهـا هرتزل في رسالته الى اللورد روتشيلد (١٢ تمـوز (يوليو) ١٩٠٢) (٢٢) ، فمن السهل معرفته حين يتحدث عن « الدافعالسياسي » وراء مشروعه ، بالاضافة الى باعثه الانساني ، بقوله :

« ان المستوطن اليهوديالكبير في شرقي المتوسط سوف يقوي آمالنا بالحصول على فلسطين . وسوف يكـون اليهود في المستعمـرة البريطانية التابعة للشركة الشرقية اليهودية على درجـة مـن الولاء الصهيـوني الـذي يوازي ولاء مستعمري (البارون دي هيرش) البعيدين في الارجنتين » (٢٣) .

كما ان هرتزل يتحدث في الرسالة نفسها عن مشروعه السريالثاني والذي يمكن القيام بتنفيذه مع المشروع الاول في آن واحد ، او بصـورة منفصلة . وهو يعني بالطبع استعمار العراق . لكنـه لا يخفـي تفضيله للمشروع الاول ، لان الضمانات السياسية للمستقبل في العراق اقلمنها في المشروع الذي ينعم بالحماية البريطانية ويحظى بعطفها وضماناتها . وفي اواخر تشرين الاول (٢٢ اكتوبر ١٩٠٢) نجد هرتزل مجتمعـا الى تشمبرلن ليعرض عليه مطالبه بصدد قبرص والعريش وشبه جزيـرة سيناء . غير ان تشمبرلن يبادره القول بان قبرص وحدها ضمن نطـاق صلاحياته ، بينما المناطق الباقية مـن اختصاص وزارة الخارجية . ثم يؤكد له ان قبرص وطن الآخرين من يونانيين ومسلمين ولا يمكـن حشر

---

٢١ ــ تعتبر اليوميات نص هذه المسودة مفقودا (انظر ، المصدر نفسه ، ص ١٣٠١) .

٢٢ ــ « الخطوط العريضة لمشروع توطين اليهود المعدمين في شبهجزيرة سيناء ، وفي فلسطين المصرية وجزيرة قبرص » . انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٠٢ .

٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٠٢ .

هؤلاء بغية استقدام مهاجرين جدد . لا بل يعرب له عن واجبه في الوقوف الى جانب سكان الجزيرة . بينما راح هرتزل يبحث عن مكان او رقعة في الممتلكات البريطانية ، حيث لا يوجد اناس بيض بعد . ولم يجد ما يجيب به تشمبرلن حين ابدى هذا الاخير مخاوفه من القيام بأعمال تتعارض مع ارادة السكان الاصليين (« في بلادنا يحصل كل شيء على المكشوف ») سوى القول التالي : « لا يمكن الكشف عن كل شيء في السياسة ليطلع عليه الجمهور ــ بل النتائج وحدها ، او ما قد تدعو الحاجة اليه اثناء النقاش فقط » (٢٤) . وحين ابرز تشمبرلن اطلسا من بين كتبه ودل باصبعه على مصر لكي يكرر الصعوبات نفسها على مسامع هرتزل ، وجد هذا الاخير فرصته لافهام محدثه بوضوح تام : « رغبتي في الحصول على نقطة تجمّع للشعب اليهودي تقع في جوار فلسطين » ! (٢٥) .

ولا حاجة بنا الآن لمتابعة مشروع الاستعمار اليهودي في العريش وسيناء بصورة مفصلة . ففي اواخر عام ١٩٠٢ ومطلع العام التالي نجد هرتزل منهمكا بالتفكير في امكانية ري الصحراء بواسطة مياه النيل وفي ضخ المياه فوق قناة السويس او تحتها على عمق كبير ... وتشييد القناطر ، بالاضافة الى استخراج الوحول وتحميلها في سفن تنقلها الى العريش بدل رميها في البحر . وحين يجد شرقي المتوسط وغربيه على عتبة احداث سياسية وتغيّرات مفاجئة : (فتح المسألة المقدونية من جديد في الربيع القادم ، تقسيم مراكش عما قريب ، وتصميم ايطاليه على ضم طرابلس الغرب) ، حين يستعرض ذلك في ذهنه ، يدرك الاهمية القصوى

---

٢٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٦١ .

٢٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٦٢ . والمعروف ان تشمبرلن احال هرتزل على وزارة الخارجية بعد ان طلب اليه اعطاء تأكيدات امام اللورد لانسدون ، وزير الخارجية آنذاك ، « بأنكم لا تنوون شن هجوم ، على غرار هجوم جيمسون ، من العريش على فلسطين » . و «غارة جيمسون » (Jameson Raid) يرجع تاريخها الى عام ١٨٩٥ ، عندما قام السير لياندر جيمسون بتنظيم وقيادة غارة هجومية على مدينة جوهانسبرغ في دولة البوير (٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٥) . غير ان الحكومة البريطانية استنكفت عمله واعادته الى بريطانيه لمحاكمته والحكم عليه بالسجن ١٥ شهرا . وقد عاد الى جنوب افريقيه فيما بعد ليخلف سيسيل رودس في رئاسة الحزب التقدمي ويصبح رئيس وزراء مستعمرة الكاب (١٩٠٢ــ١٩٠٨) .

للتحادث مع لانسدرن وروتشيلد على السواء بهذا الخصوص (٢٦) .

وهكذا تم تأليف البعثة الصهيونية للخبراء في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٠٣ برئاسة المهندس ليوبولد كسلر (Kessler) . فقد قدم هذا من جنوب افريقيه بعد اشتغاله هناك بعمليات المناجم وبعد رئاسته للجمعية الصهيونية في الترانسفال (١٨٩٩ ــ ١٩٠٠) ، وانتقاله منها الى نيابة رئاسة الاتحاد الصهيوني في جنوب افريقيه (١٩٠٠) . وضمت بعثة دراسة احوال منطقة العريش وسيناء في عداد اعضائها الكولونيل غولد سميد ، الذي عهد اليه هرتزل بمهمة كسب اليهود المصريين والحصول على تعاونهم وتأييدهم . كما تلقى كسلر تعليمات بصدد رغبة هرتزل في الحصول على قبرص « وحيفا مع الاراضي التابعة لها في الداخل » (Hinterland) . وجرى الاعتماد على الكولونيل غولد سميد ايضا في مسألة استقدام خرائط جيدة من وزارة الحربية البريطانية ؛ كما اعطيت التعليمات المفصلة لكل من غرينبرغ وكسلر بالذهاب جنوبا في عملية الاكتشاف « حتى خليج العقبة » (٢٧) .

لا بد اذن من التساؤل عن وجود نوع من الانسجام المسبق بين المخططات السياسية والاستعمارية البريطانية والمطامع الصهيونية ، والذي بلغ ذروته في صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ . ما هي طبيعة ذلك « الانسجام » وكيف انعكس ظله على تفكير الصهيونية وتحركاتها في السنوات الاخيرة من حياة هرتزل ، وفي العقود الاخيرة من القرن الماضي؟

---

٢٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٨٤ .

٢٧ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٠٤ . ومما دوّنه هرتزل في اليوميات آنذاك : « هناك ثلاث مجموعات من الخرائط قيد الاعداد ، واحدة لتبقى مع البعثة والثانية يحملها غرينبرغ معه الى القاهرة ، بينما تكون الثالثة في حوزتي » . و « تمكن غولد سميد من استنباط طريقة فذة لتربيع الخريطة او تقسيمها الى مربعات بواسطة ورقة شفافة رسمت عليها المربعات ! » . كما ان هرتزل يفطن الى « الفونوغرافات التي سوف يستخدمونها للترفيه عن البدو في الصحراء » . ويكتب في اواخر كانون الثاني (يناير) ما يلي : « انوي شراء الهدايا للبدو في فيينه غدا » (انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٠٢) .

ب ـ الانسجام المسبق

مما لا شك فيه ان سياسة بريطانيه قبل احتلال مصر (١) بعقود من السنين ، وبعد ان استتب الامر للاستعمار البريطاني في مصر وتمكن من السيطرة الفعلية على قناة السويس ، كانت تسعى بشتى الوسائل والحيل لبسط تلك السيطرة على المناطق الواقعة شرقي السويس ، بحجة حماية الطريق التي تسلكها مصالحها الى الهند . فبالاضافة الى قصة التنافس القديم مع فرنسه والخوف الجديد من روسيه ، نجد « الاندفاع الالماني صوب الشرق » قد اتخذ صورة التوسع الاقتصادي في اواخر القرن الماضي ، بعد ان سبقته البعثات العسكرية والمدربون الالمان . ومع ازدياد النفوذ الاقتصادي الالماني في الامبراطورية العثمانية ، منذ العقد الاخير للقرن التاسع عشر ، اخذت تخوفات بريطانيه تزداد من جراء امتداده المحتمل الى مناطق العراق والخليج العربي . واصرت على اعتبار ذلك التوسع المرتقب تهديدا لمصالحها في الهند ، لكي تمضي في عملية استوحاء سياستها من قاعدة انطلاق المطمع النابوليوني الرامي الى قطع طريق الهند والقضاء على مناطق النفوذ البريطاني .

ثم راحت السياسة الاستعمارية البريطانية تبذل شتى المساعي وتنفذ مختلف عمليات التطويق لكي يتسنى لها منع النشاط والنفوذ الالمانيين عن الاقتراب الذي توقعته تلك السياسة من دائرة المصالح البريطانية . واتخذ التكالب على النفوذ والتنافس للحصول على مناطقه شكل التسابق في الحصول على امتيازات لخطوط السكة الحديدية . فبالاضافة الى تلك المشروعات التي ورد معنا ذكرها في فصل سابق ،

---

١ ـ اقدمت بريطانيه بشخص دزرائيلي على شراء اسهم الخديوي اسماعيل في شركة قناة السويس عام ١٨٧٦ ، وضم جزيرة قبرص الى مستعمرات التاج البريطاني (١٨٧٨) . و « توجت » تحركاتها خلال تلك الفترة بالاحتلال العسكري لمصر بعد ضرب الثورة الوطنية بقيادة احمد عرابي (١٨٨٢) .

بدات المطامع البريطانية منـذ الثمانينـات تنصب على مشروع للخط الحديدي يربط بين حيفا (٢) وبغداد . وهو المشروع الذي عرف بمشروع ويلكوكس (Willcocks) ، نسبة الى صاحبه المهندس السير وليام ويلكوكس الذي قام بتخطيط مشروعات واسعة النطاق للري في العراق ، واجتمع فيما بعد (١٩٠٣) الى ثيودور هرتزل في القاهرة للتباحث معـه بشأن مشروعات الانماء الصهيونية لشبه جزيرة سيناء .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٩٩ تمكنت بريطانيه ، بشخص اللورد كورزون ، من ابرام اتفاق مع شيخ الكويت ، يوافق الشيخ بموجبه على عدم التخلي عن اي جزء من اراضيه او استقبال اي ممثل لدولة اجنبية دون الحصول على موافقة المقيم البريطاني في قصره (٣) . وحين اقـدم

---

٢ ـ من هنا يمكننا معرفة الاسباب الكامنة وراء اصرار هرتزل فيما بعد، وخلال مفاوضاته مع الباب العالي ، على المطالبة بسنجق عكـا او « حيفا مع الاراضي التابعة لها في الداخل (Hinterland) . اذ لا يمكن للتلاقي الذي يطالعنا بين نوايا الصهيونية ومطامع بريطانيه ان يكون مجرد توارد افكار وخواطر !

٣ ـ ليست الاتفاقية المذكورة هي الوحيدة من نوعها ، بل هناك عشرات من طرازها خلال القرن التاسع عشر بالذات ، بالاضافة الى شتى الامتيازات التي استحصلت عليها شركة الهند الشرقية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ولا ضير هناك في ايراد بعض الامثلة:

١ ـ اتفاق شركة الهند الشرقية مع امام مسقط لاقصاء الفرنسيين عن اراضيه . (١٧٩٨/١٠/١٢) .

٢ ـ الحلف الدفاعي بـين بريطانيه والامبراطورية العثمانيـة (١٧٩٩/١/٥) .

٣ ـ معاهدة عامة لمنع القرصنة وتجارة الرقيق : بريطانيه والقبائل العربية في الخليج العربي (١٨٢٠/١/٨) .

٤ ـ فرمان عثماني يسمح للسفن البخارية البريطانية بالملاحة في نهر الفرات (١٨٣٤/١٢/٢٩) .

٥ ـ معاهدة صداقة بين بريطانيه وسلطان لحج (١٨٤٣/٢/١١).

٦ ـ اتفاقية هدنة بحرية دائمة ابرمها شيوخ الشاطىء العماني (١٨٥٣/٥/٤) .

٧ ـ سلطان مسقط يتخلى عن جزر كوريا موريا للتاج البريطاني

(التتمة على الصفحة التالية)

الباب العالي في آذار (مارس) ١٩٠٣ على منح امتيـاز جديـد للخط الحديدي حتى الخليج العربي ، وحاولت الشركة صاحبة الامتياز اشراك الرأسمال البريطاني في تنفيذ المشروع ، لقيت الفكرة ترحيبا وتجاوبا من بلفور ، رئيس الوزارة آنذاك ، ووزير خارجيته اللورد لانسدون . بينما وقف وزير المستعمرات ، جوزيف تشمبرلن ، ليعلن معارضته الشديدة لكل مشاركة بريطانية في بناء الخط الحديدي المذكـور . ويؤكـد على شعوره المعادي لالمانيه .

اما مسألة الحدود بين مصر وفلسطين ، وهـي التي تطال مشروع الاستعمار الصهيوني في شبه جزيرة سيناء بصورة مباشرة ، فمن الممكن ايجازها على الشكل التالي :

تلتزم المصادر الصهيونية تسمية المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وخليجي العقبة والسويس بـ « فلسطين المصرية » ، وهي المعروفة في كتب التاريخ والجغرافية بشبه جزيرة سيناء . اما قصة الحدود فترجع الى زمن محمد علي وفتوحات ابراهيم باشا في المناطق التابعة للسلطنة العثمانية . وقد جرى تعيين حدود مملكة محمد علي في «اتفاقية لندن»، ١٨٤١ (Convention of London) . فبقيت شبه جزيرة سيناء وخليـج العقبة مع عدد من مدن الحاميات العسكرية على البحر الاحمر تابعة لمصر الخديوية . وتمكنت بذلك من حماية طريق الحجاج المصريين الى مكة . وهناك من يريد التأكيد بان النسختين اللتين جرى رسمهما لخريطة تعيين الحدود الدقيقة آنذاك قد اختفتا من الوجود عند نشوب «حادثة العقبة» (Aqaba incident) عام ١٩٠٦ بين بريطانيه والباب العالي . فالنسخـة الاولى التهمتها احدى الحرائق في مصر ، بينما اثيرت الشكوك حول وجود الثانية حين ادعى الاتراك عام ١٩٠٦ انها في حوزتهم ، مع العلم بان احدا من الطرف المصري البريطاني لم تسبق له رؤيتها (٤) .

غير ان « اتفاقية لندن لتهدئة الليفانت » والذي جرى ابرامها بين

. (١٨٥٤/٧/١٤)

٨ ــ اتفاق بين بريطانيه وشيخ البحرين (١٨٨٠/١٢/٢٢) .

٩ ــ اتفاق استثنائي بين شيخ البحرين وبريطانيه (١٨٩٢/٣/١٣).

١٠ ــ امتياز خط بغداد الحديدي (١٩٠٣/٣/٥) .

٤ ــ انظر H. F. Frischwasser - Ra'anan — The Frontiers of A Nation, the Batchworth Press, London 1955), p. 35.

كل من بريطانيه العظمى وبروسيه وروسيه ، والامبراطورية العثمانية في ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ ، تنص في بند منفصل على ان جلالةالسلطان العثماني يعد بمنح محمد علي وسلالته المباشرة من بعده ادارة بشالق مصر. ويضيف الى ذلك « لقب باشا عكا مدىالحياة» جاعلا قلعةالقديسة جان دارك تحت امرته . كما يمنحه لمدى الحياة ادارة القسم الجنوبي من سوريه . ثم يرسم الحدود على الشكل التالي :

« يبدأ الخط من رأس الناقورة على شاطىء البحر الابيض المتوسط ويمتد منهناك مباشرة حتى مصبنهر سيسبان عند الطرفالشمالي لبحيرة طبريه ، ثم يمر بمحاذاة الشاطىء الغربي للبحيرة سائرا على طول الضفة اليمنى لنهر الاردن والشاطىء الغربي للبحر الميت . ويمضي مستقيما من هناك الى البحر الاحمر فيتوقف عند النقطة الشمالية لخليج العقبة ، لكي يسير منها على الشاطىء الغربي لخليج العقبة والشاطىء الشرقي لخليج السويس حتى يبلغ مدينة السويس » (٥) .

وقد اعطي محمد علي آنذاك مهلة عشرة ايام للاعراب عن قبوله بالعرض المذكور . وفي الفرمان الذي اصدره السلطان الى محمد علي (١ حزيران (يونيو) ١٨٤١) وابلغه فيه نص الشروط التي سيحكم هو واسرته مصر بموجبها ، نجد العبارة التالية : « امنحك ولاية الحكم على مصر ضمن حدودها التاريخية ، وكما جرى تعيين تلك الحدود على الخريطةالتي يبعث اليكبها وزيري الاكبر (الصدر الاعظم) ممهورة بخاتمي السلطاني » (٦) . غير اننا لا نعرف بالضبط ما هي الحدود المرسومة على تلك الخريطة . فالخلاف الذي نشب عام ١٨٩٢ ، بين سلطات الاحتلال البريطاني في مصر من جهة والباب العالي من جهة ثانية ، قد دار حول ما اذا كانت الحدود التي تفصل بين الولايات التركية في فلسطين والاراضي المصرية في سيناء تمتد من العقبة الى رفح ، ام من العقبة الى العريش . (انظر الخريطة رقم ١ في ملاحق الكتاب) . ثم ادى فيما بعد (١٩٠٦) الى تقرير مستقبل الحدود الجنوبية الغربية لفلسطين . فما الذي حصل بالضبط ؟ وكيف جرى « تخفيض مساحة فلسطينالعثمانية

---

٥ ــ راجع النص المذكور في : **J. C. Hurewitz — Diplomacy in the Near and Middle East : A Documentary Record 1535 — 1914. Vol. 1, (Princeton, N.Y. 1956), p. 117.**

٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

ببضعة آلاف من الاميال المربعة ، فيما لو قورنت بمساحتها عام ١٨٩٢ وفي زمن الكتاب المقدس » ؟ (٧) .

ان موقع سيناء الجغرافي يجعلها بمثابة حلقة الوصل بين قارتي آسيه وافريقيه . وقد اكتسبت اهمية استراتيجية على مر العصور التاريخية ، حتى انها تعتبر بمثابة الارض الفاصلة او الحائلة (Buffer) بين كل من مصر وفلسطين . وخلال ما يقارب الالفين وخمسمئة سنة من تاريخ الشرق الادنى القديم كانت سيناء ممرا للجيوش الزاحفة الى الغزو والاقتتال من طرفيها المصري والفلسطيني . فاجتازها الصليبيون في حملتهم على القاهرة ، كما ان القيّمين على شؤون المملكة اللاتينية (دولة الصليبيين) ادركوا اهمية خليج العقبة فبنوا القلاع المحصنة في المرتفعات الداخلية القريبة لبسط سيطرتهم على التجارة بين مصر وسوريه (٨) . وحين قام صلاح الدين الايوبي لطردهم من البلاد ، سارع الى الاستيلاء على جزيرة فرعون وخليج العقبة عام ١١٧٠ م . كما انه نقل اجزاء مراكبه على ظهور الجمال عبر صحراء سيناء واعاد جمعها على شواطىء خليج العقبة . وفي عام ١١٨٢ م اختار صلاح الدين الطريق الاوسط في زحفه عبر سيناء ودخل شرقي الاردن عبر طريق العقبة . فكانت بداية حملته ضد مملكة الفرنجة التي لم تنته الا عند سقوط القدس (١١٨٧ م) وعكا (١١٩١ م) وابرام اتفاق صلح مع ملك انجلتره (١١٩٢) يسمح له الاحتفاظ بالمدن الساحلية بين عكا ويافا .

وحين قام الاتراك العثمانيون تحت لواء السلطان سليم بغزو مصر عام ١٥١٧ م عبروا شبه جزيرة سيناء على الطريق الساحلية . ثم جاء نابوليون (١٧٩٩) واقتفى خطوات السلف من الغزاة والفاتحين ، فانطلق من العريش الى غزه ، لكنه فشل في الاستيلاء على عكا نظرا للتعاون العسكري الوثيق بين الاتراك والاسطول البريطاني بقيادة السير سيدني سميث . فعاد ادراجه الى العريش على الطريق نفسها. ثم كان استسلام الجيش الفرنسي في ٣١ آب (اغسطس) ١٨٠١ .

وبعد ثلاثين عاما (١٨٣١) كان ابراهيم باشا المصري يتقدم على راس جيشه الزاحف عبر سيناء لينتصر على الجيش التركي في عكا وحمص

---

٧ — نقلا عن فريش فاسر — رعنان ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

٨ — انظر Major C.S. Jarvis — Yesterday and Today in Sinai, Edinburgh and London, 1931; revised 1941, rep. 1943), pp. 90 - 130.
والمؤلف شغل منصب حاكم سيناء فترة من الزمن .

وحلب ، ويتهدد الاستانة نفسها لولا مسارعة الدول الاوروبية للتدخل واحلال السلام . وخوفا من انهيار الامبراطورية العثمانية في زمن كثر فيه الطامعون بممتلكاتها . فأفلحت بريطانيه آنذاك في فرض سياسة على السلامة الاقليمية للامبراطورية . واصرت على تأجيل موعد اقتسام تركة « رجل اوروبهالمريض » الى وقتلاحق يأتي اكثر ملاءمة معمصالحها في هذه البقعة من العالم ، ويتناسب مع السعي الدائم لحماية الطريق الى الهند .

ومنذ حملة نابوليون اخذ الاهتمام الديني بفلسطين وسيناء يسعى الى التقرب منالمصالح السياسية والاقتصادية والثقافية. فكانت بريطانيه في طليعة المهتمين ببسط سيطرتهم على هذه الرقعة من العالم . ولجأت في ذلك الى مختلف الوسائل وتحت ستار القاعدتين المعروفتين في السياسة الخارجية البريطانية ازاء الامبراطورية العثمانية : « الخوف الجديد منروسيه » ، والتنافسالقديم مع فرنسه (والذي تركز بالدرجة الاولى على مصر) (٩) .

وكمثال ينعكس ظله الثقيل على فلسطين وسيناء نأخذ تلك العلاقة الوثيقة العرى بين السياسة الاستعمارية والتوسعية البريطانية من جهة، والنشاطات التي قام بها « صندوق اكتشاف فلسطين » ، من جهة ثانية. وقد برزت تلك العلاقة في اجلى مظاهرها قبل انشاء الصندوق المذكور بما ينيف على ربع قرن (١٨٣٨ـ١٨٤٠) . والواقع ان جمعيات فلسطين والكتاب المقدس ، على غرار « جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود » (١٨٠٩) ، ترجع بنشاطاتها الى مطلع القرن التاسع عشر وبعد حملة نابوليون بونابرت بشكل خاص . ففي عام ١٨٠٤ تأسست في لندن « جمعية فلسطين » (Palestine Association) وجعلت هدفها جمع المعلومات المتعلقة بجغرافية الاراضي المقدسة وشعبها ومناخها وتاريخها. لكي يصار الى نشرها . فأصدرت عام ١٨١٠ مجلدا يحوي ترجمة لكتاب الرحالة الالماني اولريخ سيتزن (Seetzen) الذي وصف فيه المناطق الملاصقة لبحيرة طبريه ونهر الاردن والبحر الميت (١٠) . لكن الظروف لم

٩ ـ انظر **Herbert Sidebotham — England and Palestine,** Chapt. VI pp. 110 - 122.

١٠ ـ انظر وطسون **Fifty Year's Work in the Holy Land** (P.E.F.), A record and a Summary 1865 - 1915, (London, 1915), p. 11 - 12.

تكن موآتية على ما يبدو ، مما حمل الجمعية المذكورة على التخلي عن اموالها واوراقها وكتبها لصالح « الجمعية الجغرافية الملكية » التي تأسست عام ١٨٣٠ . وبما ان الجمعية الاخيرة اعتبرت العالم كله مسرحا ومدى لنشاطها ، فلم تستطع المساهمة كثيرا في عملية اكتشاف فلسطين.

وفي شتاء ١٨٥٢ وربيع ١٨٥٣ كان آرثور ستانلي (عميد وستمنستر) يصطحب ثلاثة من اصدقائه في زيارة « الى المسارح المعروفة للتاريخ المقدس في مصر وسوريه والجزيرة العربية » ، ثم يصدر كتابه « سيناء وفلسطين » ، ١٨٥٦ (Sinai and Palestine) الذي اعيد طبعه اكثر من مرة . فقد زار فلسطين عام ١٨٦٢ من جديد كدليل وقسيس بصحبة البرنس ادوارد . فاعتبر مصر بمثابة « مقدمة ضرورية لكل من سيناء وفلسطين » . غير انه آثر الاستشهاد بقول الشيفاليه بونصن (Bunsen) (١١) : « ان مصر ، بالمعنى الصحيح ، لا تاريخ لها . اذ قد ولد التاريخ في تلك الليلة عندما قاد موسى شعبه للخروج من جوشن»، او ارض مصر كما سماها العبرانيون . والخريطة التي يضمها كتابه لكل من فلسطين وشبه جزيرة سيناء تمتد شمالا من مدينة صيدا على الشاطىء ودمشق في الداخل حتى تصل الى « رأس محمد » وخليج السويس . لكنها لا ترسم اي حدود فاصلة بين سيناء وفلسطين (١٢) .

لذلك لم يبدأ الاستكشاف المنظم لفلسطين الجنوبية والشرقية الا بعد انشاء الصندوق المذكور بفترة من الزمن . فقد انصرف العاملون بين عامي ١٨٧١ — ١٨٧٧ الى مسح الاراضي الواقعة بين « البحر الابيض المتوسط ونهر الاردن ، من صور وبانياس شمالا الى خط يسير بالقرب من غزه جنوبا ، ليعبر بئر السبع متجها الى البحر الميت » . معتبرين هذه الرقعة تضم المساحة المعروفة بالارض المقدسة (١٣) . كما ان سجل اعمال الصندوق يعترف بتعذر توسيع عملية المسح آنذاك لكي تشمل

---

١١ — البارون Bunsen كان المبعوث الذي عيّنه ملك بروسيه ، فردريك وليام ، ممثلا خاصا في بريطانيه لمساعدة شافتسبوري على تحقيق مشروع المطرانية في القدس .

١٢ — انظر **Arthur Penrhyn Stanley, D.D. — Sinai and Palestine. In connection with their History (John Murray, London, 1910), p. 1.**

١٣ — وطسون ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

منطقة النقب الواقعة بين بئر السبع وخط الحدود المصرية « من رفح على البحر الابيض المتوسط الى راس خليج العقبة » (١٤) .

غير ان الكابتن ويلسون سبق له ان قام بأعمال المساحة في شبه جزيرة سيناء تحت رعاية صندوق خاص جرى انشاؤه للغاية نفسها : « صندوق مسح سيناء » (Sinai Survey Fund) . فقد انطلق من السويس في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٨ على راس بعثة تضم الكابتن بالمر من سلاح الهندسة الملكي ، بالاضافة الى اربعة من ضباط الصف (سلاح الهندسة ايضا) وكل من القس ف. هولاند ، السكرتير الفخري لصندوق اكتشاف فلسطين ، والبروفسور بالمر (E. M. Palmer) المستشرق المعروف ، وعالم الطبيعة المستر ويات . وفرغ من العمل المذكور في نيسان (ابريل) ١٨٦٩ ، اي قبل افتتاح قناة السويس رسميا ببضعة شهور (١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٩) ! لكن عملية المسح آنذاك انحصرت في المنطقة المحيطة بجبل موسى ولم تشمل المناطق الواقعة الى الشمال الشرقي والمعروفة ب « صحراء التيه » . وقد لقي الماسحون والمستكشفون آنذاك شتى الصعوبات من البدو المقيمين او المرتحلين في سيناء والذين ساورتهم مختلف الشكوك بصدد الرحالة الاوروبيين الذين جاؤوا يقتحمون عليهم حياتهم الخاصة . لذلك قرر كل من البروفسور بالمر والمستر درايك تنظيم الحملة التالية دون اصطحاب ترجمان او خدم والاقلاع عن كل ما من شأنه اثارة العداء لدى القبائل العربية التي مروا بها . فانطلقت القافلة في ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٩ عبر وادي غرندل ، ثم اتجهت صوب خان نخل الواقع على طريق الحجاج بين السويس والعقبة ، ومن هناك الى وادي العريش ، ثم الى عين قادس او قديس التي اعتبروها « قادش برنيع » التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس . وعبروا وادي قادس الى النقب او البلاد الجنوبية ومنها الى العوجه في وادي حنين او وادي الجناين ، لكي يصلوا الى القدس، حيث قام بالمر بدراسة دقيقة لتاريخ مسجد الصخرة كما اوردته مصادر المؤرخين العرب (١٥) .

وعاد بالمر الى بلاده لينشر نتائج رحلته الاستكشافية في كتاب صدر في جزئين عام ١٨٧١ بعنوان « صحراء الخروج » (The Desert of the Exodus) لكنه ما لبث ان عاد الى المنطقة في

---

١٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .

١٥ ــ انظر وطسون ، المصدر نفسه ، ص ٥٣ ــ ٦٢ .

ظروف مختلفة جدا ـ على حد قول وطسون . ففي عام ١٨٨٢ كان البريطانيون على اهبة الاستعداد لارسال حملتهم العسكرية لقمع الثورة الوطنية في مصر بقيادة عرابي . وقرر الخبراء العسكريون ان تتقدم القوات صوب الدلتا من قناة السويس ، فاتجهت انظارهم الى القبائل العربية في سيناء للتأكد من موقفها والتزامها جانب الهدوء . وفي الواقع للحصول على مساعدتها والحؤول دون استفحال عدائها الذي قد يتهدد امن القناة وسلامتها . لذلك وقع اختيار الحكومة البريطانية على البرفسور بالمر بالذات وعهد اليه بمقابلة شيوخ القبائل واجراء الترتيبات اللازمة معهم . ومما يجدر ذكره ان سجل «صندوق اكتشاف فلسطين» وخلاصة اعماله يصف اختيار بالمر بقوله : « مهمة غير طبيعية جدا بالنسبة لاستاذ جامعة » ! (١٦) .

لكن بالمر رأى من الانسب دخول سيناء هذه المرة من الطرف الفلسطيني فانتقل من بور سعيد الى يافا بطريق البحر ، ثم انطلق في مهمته من غزه ، حيث سارع الى الاتصال باصدقائه القدامى من قبيلتي طرابين وتياهه . واستطاع رفع تقريره عن نجاح المهمة الى الادميرال السير وليام هويت (Hewitt) في مطلع شهر آب (اغسطس) . وما ان تم استيلاء البريطانيين على السويس حتى جرى تعيين بالمر بالذات في وظيفة رئيس التراجمة وألحق عدد كبير من المعاونين بمكتبه (١٧) . وسرعان ما لاقى المستشرق المذكور نهايته المحزنة . اذ تقرر ارساله على راس حملة جديدة الى صحراء سيناء برفقة ضابطين بريطانيين . واختفى الثلاثة بعد مغادرتهم « عيون موسى » في الثامن من آب (اغسطس) ١٨٨٢ . فانتشرت روايتان حول مقتلهم واختفائهم : اما ان يكون العرب قد اقدموا على قتلهم طمعا بالسلب والنهب ، او بناء على اوامر تلقوها من حزب الثورة العرابية في مصر . لكن السلطات البريطانية لم تترك القضية تمر دون اتخاذ اشد التدابير الانتقامية بحق العرب المقيمين في صحراء سيناء .

كما ان عملية مسح فلسطين الشرقية ، التي بداها الكولونيل كوندر في شهر آب (اغسطس) ١٨٨١ ، اصطدمت بمعارضة شديدة من

---

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٦٤ (انظر ايضا : طيباوي ـ **المصدر السابق** . الفصل الخاص بصندوق اكتشاف فلسطين) .

العرب (١٨) والسلطات العثمانية آنذاك . فقد رفض الحاكم العثماني في « السنّلط » السماح بمتابعة العملية وارغم القائمين بها على العـودة الى القدس ، بعد ان تمكنوا من مسح رقعة بلغت حوالي ٥٠٠ ميلا مربعا . ولم تفلح شتى المحاولات التي بذلت لدى الباب العالي لاستصدار فرمان جديد وفقا لشروط معينة (١٩) . فانضم الكولونيل كوندر ــ كما مر معنا في فصل سابق ــ الى دائـرة الاستخبارات في الجيش البريطاني ابان الحملة العسكرية لقمع ثورة عرابي واحتلال مصر .

وفي ١٨٨٣ ــ ١٨٨٤ قام الميجور كتشنر والبرفسور هل (Hull) بمسح وادي العربة في شرقي الاردن بمساعدة فريق من العسكريين وبعض علماء النبات والمتيرولوجيا . فعمدوا الى تثليث ومسح المنطقة المنخفضة التي تمتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت حتى الطرف الشمالي لخليج العقبة ، ثم ضموا النتائج الى ما سبق لهم واتموه من فلسطين (٢٠) .

غير ان جميع الاكتشافات والحملات المار ذكرها لم تفلح في توفير تلك المعلومات الوثيقة التي كان يتطلبها « صندوق اكتشاف فلسطين » ــ على حد قول سجل اعماله المذكور (انظر ص ١٤٨) . فما كان من وزارة الحربية البريطانية عام ١٩١٣ الا ان سمحت للكابتن نيوكومب من سلاح الهندسة الملكي بمتابعة العمل الذي بدأه كوندر وكتشنر . وقد سبق له ان عمل في مسح المنطقة الواقعة بين قناة السويس والحدود المصرية ــ التركية (١٩٠٦) واقام صداقات متينة مع القبائل البدوية . فانضم اليه آنذاك ت.أ. لورانس ، الشهير فيما بعد ، واستغرق العمل من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٣ الى نهاية شهر ايار (مايو) ١٩١٤ ــ اي قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بزمن قصير . فبلغت الرقعة التي تمت بها عمليـة المسح حوالي ٢٥٠٠ ميل مربع . وبقيت قطعة صغيرة بالقرب من رأس خليج العقبة دون مسح لان السلطات العثمانية حالت دون ذلك . فاستعاض

---

١٨ ــ لاحظ نائب القنصل البريطاني في يافا فيما بعد ان الرأي العام الاسلامي في جنوب فلسطين ليس مؤيدا لبريطانيه بسبب «حربها مع عرابي باشا » . (انظر طيباوي ، المصدر نفسه ، ص ٢٣١).

١٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٥ ــ ٨٦ .

٢٠ ــ نشر البروفسور (Hull) نتائج الحملة الاستكشافية بالاضافة الى خريطة جيولوجية في كتابين :

1) **Mount Seir, Sinai and Western Palestine (1885).**
2) **The Geology of Palestine and Arabia (1886).**

عنها الماسحون بالخرائط التي رسمها الميجور كتشنر لهذه المنطقة خلال حملة ١٨٨٣ . وما لبث المكتشفون ان عبروا الحدود التركية ـ المصرية الى بطاح القسيمة للتأكد من موقع قادش برنيع التي اعتبروها في وادي عين قادس، بعد اخذ شتى الاعتبارات الاستراتيجية والمائية بعين الاعتبار. بينما تقدم لورانس جنوبا الى وادي اللسان والكونتيلا ليلتف الى خليج العقبة ومنه الى وادي العربة وجبل حور ثم الخط الحديدي الحجازي في معان . ولم يمض وقت طويل حتى كان الجيش البريطاني يعهد الى « لورانس العرب » بمهمات تتعلق بسير الحرب العالمية الاولى في اماكن معروفة من العالم العربي .

ومما يجدر ذكره ان الكتاب الذي استقينا منه معظم المعلومات الواردة اعلاه ـ (صدر عام ١٩١٥) ـ يذكر مسألة انجاز خريطة مبنية على عمليات المسح التي قام بها الكابتن نيوكومب ، ويعلل الاسباب التي تحول دون ارسال نسخها الى المشتركين في منشورات الصندوق باعتبارها « اسبابا بديهية تتعلق بالحرب ، التي ارغمت تركيه على خوض غمارها الى جانب اعداء بريطانيه وضد مصالحها الخاصة بالذات » (٢١).

★★★

تبقى قصة تعيين الحدود المصرية التركية التي تمتد حوادثها بين عامي ١٨٩٢ و ١٩٠٦ ، اذ من الصعب معرفة جميع الملابسات المتعلقة بذلك الخلاف على اتم وجه وادقه . فهناك من يقول ان مجيء الخديوي عباس حلمي الى العرش ، في ظل الاحتلال العسكري البريطاني ، عام ١٨٩٢ كان سببا مباشرا في تحريك النزاع . لان فرمان تعيينه الصادر عن سيده الاسمي ، السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، قد جرت صياغة نصه بشكل يمنح الخديوي عباس حلمي سلطات قانونية على مصر وحدها . وبذلك جاء يؤكد ضمنيا عودة شبه جزيرة سيناء والقلاع الواقعة على البحر الاحمر الى حظيرة السيطرة التركية المباشرة (٢٢) . وهنا تحرك البريطانيون بشخص السير افلين بارينغ (اللورد كرومر فيما بعد) بغية الاحتفاظ بمنطقة حيوية من الوجهة الاستراتيجية . فأعلن الصدر الاعظم ، جواد باشا ، في برقية الى القاهرة رغبة تركيه في ترك « طور سيناء » تحت الحكم المصري ، مشترطا اعادة مدن الحاميات على طول طريق الحجاز . وسارع كرومر آنذاك الى التصريح بان سلطات

٢١ ـ انظر وطسون ، المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٤ .
٢٢ ـ انظر فريش فاسر ـ رعنان ، المصدر السابق ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

الاحتلال البريطاني تعتبر خط الحدود الجديدة بانه يتجه من نقطة شرقي العريش على البحر الابيض المتوسط الى راس خليج العقبة . فلم يصدر عن العثمانيين اي قبول او اعتراض .

وهناك رواية كرومر التي تربط بين مشروع فريدمان للاستعمار اليهودي في ارض مدين والنزاع على الحدود بين مصر وتركيه عام ١٨٩٢ بصورة مباشرة . اذ نجد اللورد كرومر ، عندما احيل اليه مشروع الاستعمار الصهيوني في العريش وشبه جزيرة سيناء (وقبرص) بصفته المرجع النهائي فيالقضايا المتعلقةبالشرق الادنى، تحضره محاولة فريدمان الفاشلة والملابسات التي احاطت بها . كما انه اعتبر مشروع فريدمان السبب المباشر لنشوب نزاع الحدود مع تركيه عام ١٨٩٢ (٢٣) .

كما ان اللورد كرومر اعتبر مسألة الحدود بين مصر والولايات التركية في فلسطين قضية معلقة . فلم يكن ليرغب في اثارة حفيظة الاتراك واهتمامهم بالموضوع عام ١٩٠٣ . لذلك اقترح في البداية عدم قيام اي مستوطن صهيوني فوق الاراضي المتنازع عليها والواقعة الى الشمال الغربيمن خط العريش_ السويس.ثم عاد الى الاخذ بالاعتبارات الاستراتيجية حين رفض مشروع استعمار العريش . وربما كانت المخططات البريطانية في ذلك الحين تتجه صوب ترك شبه جزيرة سيناء على حالها وقفلها بوجه الاستعمار والاستيطان الصهيونيين ، لكي تبقى بمثابة منطقة فاصلة توفر حماية افضل للمصالح البريطانية في السويس ومصر .

وحين شعر البريطانيون بان السلطات العثمانية تنوي بناء خط حديدي بين معان والعقبة ليتفرع عن خط الحجاز ، ايقنوا التهديد الذي يطال مصالحهم فيما لو تحقق ربط البحر الابيض المتوسط بخليج العقبة على صورة خطحديدي . وسارعوا الى افتعال حادثمشابه لذلكالحادث الذي ادى الى عقد الاتفاقية مع شيخ الكويت (١٨٩٩) . فامتداد خط برلين _ بغداد من البصرة الى الخليج قد غدا في نظرهم شبيها بمشروع الخط بين معان والعقبة وهو المتفرع عن خط الحجاز (٢٤) . واذا كانت بريطانيه آنذاك (١٨٩٩) قد سارعت الى ارسال احدى بوارجها الحربية

٢٣ _ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

٢٤ _ المصدر نفسه ، ص ٣٨ . حيث يذكر المؤلف ان بريطانيه ربما تخوفت من احتمال اقدام الاتراك او اصدقائهم الالمان على شق قناة بديلة للسويس بين العقبة وغزه .

لميناء الكويت ثم اعلنت عدم السماح بدخول الجيش العثماني اليها ، فانها توصلت الى الاتفاقية المذكورة غير عابئة باحتجاجات الباب العالي ومخالفتها لاحكام معاهدة برلين التي نصت على مبدأ احترام « السيادة الاقليمية العثمانية » .

ففي عام ١٩٠٦ جرى ارسال جنود بريطانيين لبناء ثكنات عسكرية بالقرب من العقبة . كما اقدم هؤلاء بقيادة براملي بيك على احتلال موقعي نقب العقبة والغتار (حيث يقوم مرفأ ايلات اليوم) محاولين التقدم صوب وادي العربة (٢٥) . ثم قام الجنود الاتراك باحتلال المنطقة المتنازع عليها . وبدأت المفاوضات في القاهرة لحل النزاع بالوسائل السلمية . فاقترح مختار باشا شطر شبه جزيرة سيناء الى شطرين بواسطة خط فاصل يمتد من العريش جنوبا حتى رأس محمد على البحر الاحمر . بينما عارض كرومر الاقتراح المذكور لانه يجعل من خليج العقبة — في نظره — « بحيرة مغلقة » يتحكم بها الاتراك ، ويشكل بالتالي تهديدا دائما لطريق التجارة الى الشرق الاقصى والهند .

وهكذا اعطيت الاستانة انذارا بسحب القوات التركية الى ما وراء خط يمتد من رفح على البحر الابيض المتوسط الى نقطة راس طابا غربي العقبة . وقد زعم فريش فاسر — رعنان في كتابه المشار اليه (ص ٤٠) بان معظم الخرائط المطبوعة قبل عام ١٨٩٢ تظهر الحدود عند العريش . بينما نقل عن اللورد كرومر قوله بان علامات الحدود كانت عند رفح لعدة سنوات . كما ان الحدود الفاصلة في القرون الوسطى كانت في رفح وليس قرب العريش . وقد اصبحت الحدود الرسمية بين فلسطين ومصر بموجب الاتفاقية المعقودة في اول تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦ بين خديوية مصر والحكومة العثمانية على الشكل التالي : « تمتد الحدود من تل الخرائب في رفح على ساحل البحر الابيض المتوسط وتنتهي في رأس طابا على خليج العقبة . وخط الحدود هذا يكاد يكون في امتداده مستقيما » (٢٦) . وبقيت الحدود — التي اعتبرها العثمانيون مجرد « حدود ادارية » تفصل بين خديوية مصر الخاضعة لسيادة الباب العالي الاسمية وبين ولاية سوريه ومتصرفية القدس — على الصورة المذكورة حتى العام ١٩٤٨ ، وقيام دولة اسرائيل على جزء من الاراضي العربية في فلسطين .

---

٢٥ — المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

٢٦ — انظر مصطفى مراد الدباغ ، **بلادنا فلسطين** ، جزء اول ، القسم الاول ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٠ .

ج ــ بيوت الغير (Casa di altri)

اصدر هرتزل تعليماته الى غرينبرغ آنذاك بعدم مغادرة القاهرة قبل الحصول على براءة استيطان واستعمار موقعة من الحكومة المصرية . وابرق له غرينبرغ آنذاك ما وصفه بمعلومات خاصة استحصل عليها من كرومر ، ومفادها ان « عامل السلطان » في مصر يفعل ما بوسعه لمعارضة المشروع . وهنا خطرت لهرتزل فكرة التغلب على معارضة « المبعوث التركي » بطريقة البخشيش ، وبعد ان اجرى حديثه مع عبد الله جودت بيك ، احد انصار حزب تركيه الفتاة و « صديق اليهود » ــ على حد قوله . وحين يحصل غرينبرغ على نوع من البراءة على شاكلة رسالة موجهة من بطرس غالي اليه بخصوص انشاء « شركة للاستيطان القومي اليهودي » (Jewish National Settlement Company) ، يعبّر هرتزل عن خيبة امله لانعدام اي ذكر لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار او لجنة العمل او لشخصه هو كأصحاب للامتياز (١) . ويتراءى له الوضع الناشىء على الصورة التالية :

« عليّ ان اميز بين الملكية والسلطة والحق : فالحكومة المصرية هي المالك ، والحكومة البريطانية لديها السلطة ، والحكومة التركية تملك الحق » (٢) .

فيقرر السفر الى القاهرة بنفسه ، لمقابلة بطرس غالي واللورد كرومر ، ليجد الثاني « اكره شخص انجليزي واجهته في حياتي » . كما ابلغه كرومر ان الرسالة التي اعطيت لغرينبرغ هي اقصى ما يمكن الحصول عليه ، اذ تمثل الاطار الذي يحول دون اعتراضات الحكومة التركية (٣) .

---

١ ــ انظر اليوميات ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢٨ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٣٢ .

٣ ــ خاطب هرتزل اللورد كرومر اثناء حفلة عشاء في المفوضية البريطانية بقوله : « هل تعرفانني لو شئت لاستطعت الحصول على فلسطين

(التتمة على الصفحة التالية)

ومن المحاضرات التي سمعها في القاهرة تلك التي القاهـا السير وليـام ويلكوكس عن « اقنية الري في كلدانيه » . فتذكر ارض العراق التـي عرضها عليه السلطان في السنة الفائتة . وخلال انتظاره بفارغ الصبر نجده يصغي الى الكولونيل غولد سميد يتلو على مسمعه التقارير. فيعرب عن رغبته في حذف العبارة التالية : « لا يمكن الاستيطان فيهـا تحـت الظروف الحاضرة ـ لكن لو توفرت الماء ، لامكن استيطانها » ، مؤكدا ان الدافع وراء ذلك هو نفسه الذي « يجعلنا نحجم عن ذكر اسباب رغبتنا في الحصول على الاراضي الممتدة حتى خط العرض ٢٩ درجة» (٤) فلو القينا نظرة على خريطة شبه جزيرة سيناء ، لتبيّن لنا ان الخط المذكور يقطعها عند القسم الاسفل فيشطر خليج السويس الى شطرين تقريبا ويمر بالقرب من النقطة المعروفة بـ « عين حضيرة » ليشمل خليج العقبة ويتقاطع مع خط الحجاز الحديدي ! وتطالعنا في يوميات هرتزل آنذاك شتى انواع التمويهات التي لجأ اليها الصهيونيون لتضليل اللورد كرومر والمسؤولين المصريين ، بخصوص المساحة التي يطمعون في الحصول عليهـا . فعلى الصعيد الرسمي نجدهم يحرصون على عدم التصريح بنواياهم الحقة ، لئلا تعترض الصعوبات سبيل الحصول على كميات المياه اللازمة . وهو يستشهد ، مثلا ، في معرض الحديث عن « براءة الاستعمار » ، بعبارة من الحديث الذي دار بين كل مـن تاليران ونابوليـون وسييس حول الدستور . اذ ما كاد سييس يقول « يجب ان يكون الدستور قصيرا ، حتى سارع تاليران الى اتمام الجملة : « وغامضا » (٥) .

ثم نجد هرتزل يعترف ، وهو على وشك مغادرة القاهرة ، بان العقبة الرئيسية كانت مسألة « حجم الاراضي التي كنا نطالب بها » . فالرغبة متوافرة لاعطائنا قطعا من الاراضي هنا وهناك ، اما الارض المتصلة التي نريدها ، فالحصول عليها مستحيل . ويعقد آماله على تشمبرلن مـن جديد ، باعتبار هذا الاخير لا يعرف قيمة تلك المساحة الكبيرة من الارض التي يطالب بها هرتزل والصهيونيون . وحين يخبره تشمبرلن بان نظره وقع خلال اسفاره على رقعة مناسبة (يوغنده) فراح يفكر بالدكتـور

بالغزو واراقة الدماء ، وانني لو استشرت نوازعي فقط ، لكنت افضل كثيرا اتمام العملية بتلك الطريقة » . (انظر : سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ١٦١) .

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٥٠ .

٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٥٤ .

هرتزل ، نجده يهز راسه بالموافقة على الاستدراك التالي : « لكنه بالطبع لا يريد الذهاب الا الى فلسطين او جوارها ». فلا يجد هرتزل بدا حينذاك من اعطاء التأكيد التالي :

« ان قاعدتنا يجب ان تكون في فلسطين او بالقرب منها . قد نستوطن في يوغنده فيما بعد ، لان لدينا جماهير من الناس على استعداد للمهاجرة . انما علينا تشييد البنيان على اساس قومي ، ولذلك لا بد من حصولنا على الجاذب السياسي المتمثل بمشروع العريش . لكنهم لا يفهمون هذا في مصر . ومن الصحيح انني لم اتمكن من الافصاح والايضاح هناك مثلما تسنى لي هنا » (٦) .

ومن العريش ينتقل الحديث الى آسيه الصغرى ، حيث تتضاءل المصالح البريطانية . بعكس مصر ، حيث يعترف تشمبرلن بان بريطانيه لا تنوي الخروج بعد تفاقم مصالحها هناك . ثم يسارع الى تطمين هرتزل بان « مصيركم ومصير مستوطنكم سوف يرتبط بمصير تلك السيطرة البريطانية » . ويفترض على سبيل المثال ان المستعمرة اليهودية بفلسطين قد تحققت ، فيتساءل عن مصيرها وموقفها فيما لو حصلت مجابهة في المستقبل بين فرنسه والمانيه وروسيه بصدد آسيه الصغرى . وهنا يجيبه هرتزل بقوله :

« اعتقد ان حظنا سيكون اوفر آنذاك . لانه سوف يجري استخدامنا كدولة فاصلة (Buffer) صغيرة . ولن نحصل عليها بفضل النية الطيبة لدى الدول الكبرى ، بل من جراء تحاسدها . وحالما تتوطد اقدامنا في العريش تحت راية بريطانية (Union Jack) ، سوف تسقط فلسطين ايضا داخل دائرة النفوذ البريطاني » (٧) .

وفي منتصف شهر ايار (مايو) ١٩٠٣ ترده الانباء من القاهرة بان اللورد كرومر ابلغ الكولونيل غولد سميد رفض الحكومة المصرية. فيتضاءل استعمال الشيفرة الخاصة في المراسلات واليوميات . وتخطر لهرتزل فكرة استعمار موزامبيق في معرض التفكير باقتراح تشمبرلن المتعلق بيوغنده . فيكشف عن مخططه الرامي الى اخذها من الحكومة البرتغالية لقاء سد عجزها المالي ودفع جزية مؤخرة . ويؤكد ان سعيه للحصول على موزامبيق يهدف فقط الى مقايضتها والمساومة عليها : « لكي احصل مقابلها من الحكومة البريطانية على شبه جزيرة سيناء باكملها ومياه النيل

---

٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٧٣ .
٧ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣٧٤ .

صيفا وشتاء ، وربما على قبرص معها ـ لقـاء لا شيء » (٨) . فيقـرر الالتفات صوب السفير البرتغالي في فيينه مباشرة، بدلا من تكليف نوردو في لشبونه بمتابعة مشروع موزامبيق . وذلك خوفا من معارضة نوردو وتشككه ، بالاضافة الى امل التفاوض مع احـد النبلاء الاكلليريكيين . ويستعين بصديقه القديم هشلر لترتيب موعد لمقابلة سفير البرتغال !

وفي منتصف تموز (يوليو) ١٩٠٣ يبعـث هرتزل برسالة سرية للغاية الى المتمول والمصرفي اليهودي البلجيكي فرانزفيليبسون (١٨٥١ـ ١٩٢٩) يعرب فيها عن مشروع آخر تفتقت عنه حيلته : مع الاحتفـاظ بالبرنامج الفلسطيني الذي يتعذر تطبيقه عمليا في الحال وعلى اساس قومي ، يجب علينا ايجاد « ملجأ او مأوى » يضمنه القانون العام . لذلك يرتأي دعوة صديقه المتمول للمشاركة في مشروع دولة الكونغو ! مؤكدا له ان الكونغو تملك مساحات شاسعة مـن الاراضي تكفي لمشاريعنـا الاستعمارية والاستيطانية . ثم يطلب اليه جس نبض الملك ليوبولد بهذا الشأن (٩) . غير ان فيليبسون ابلغه صراحة فيما بعد رفضه الاشتراك في المشروع ، لان الكونغو لا تلائم على الاطلاق .

★★★

اما الاحداث الاخيرة في حياة مؤسس الصهيونية الحديثة ، وبعد ان صار مشروع العريش الى الفشل ، فقد كانت فاتحتها ذهاب هرتزل لمقابلـة الكونت باراتي ، السفير البرتغالي في فيينه (٢٥ ايـار (مايو) ١٩٠٣) . اذ نجده يبدي اهتمامه بمعرفة احوال معينة تتعلق بـ « شركة الموزامبيق » : هل هي مستقلة ؟ وهل لديهـا قوات مسلحة للحماية ؟ ويفكر من جديد بالمقايضة فيما لو ترك له الخيار ، لكي يستولي على مياه النيل وقبرص !

ثم تأتي رحلته الى سانت بطرسبرغ في مطلـع آب (اغسطس) ١٩٠٣ ، حيث راح يسعى لحمل الحكومة الروسية القيصرية على التدخل الفعلي لدى السلطان العثماني من اجل الحصول على براءة لاستعمـار فلسطين ، باستثناء الاراضي المقدسة . وطالب الحكومة الروسية آنذاك بتوفير المساعدات المالية لهجرة اليهود ، بالاضافة الى منح التسهيلات امام

---

٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٨٧ .
٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥١١ ـ ١٥١٢ .

تنظيم الجمعيات الصهيونية في روسيه وفقا لبرنامج بازل . بينما كان المسؤولون الروس يفكرون جديا بالسعي الى هدف الاندماج عن طريق التعليم العالي والتحسين الاقتصادي ، شريطة اعراب جميع رعاياها عن شعورهم الوطني ازاء الدولة الروسية كواقع قائم (١٠) . كما ان هرتزل فطن الى الحساسيات الروسية الدينية آنذاك في كل ما يتعلق بالاماكن المقدسة ، فسارع الى طمأنة الوزير فيته (Witte) بان الصهيونيين ينوون انشاء مستوطنهم الى الشمال ، وبعيدا عن القدس !

وبعد عودة هرتزل من روسيه ، لا بل اثناء كونه في طريق العودة ، وصلته رسالة من السير كليمانت هيل (Clement Hill) في لندن تتضمن العرض الذي تقدم به تشمبرلن مجددا وبصورة رسمية . وهكذا يتلو ليوبولد غرينبرغ امام المؤتمر الصهيوني السادس في بازل (آب (اغسطس) ١٩٠٣) الرسالة المار ذكرها ويستفحل امر الخلاف داخل المنظمة الصهيونية العالمية بين « اليوغنديين » او الصهيونيين السياسيين من جهة و « الفلسطينيين » أو « صهيونيي صهيون » «العمليين» ، من جهة ثانية. وتشتد معارضة «العمليين» والصهيونيين الروس لسياسة هرتزل والنهج الذي يسير عليه . ثم يأتي المؤتمر السابع (بازل ١٩٠٥) ، وبعد وفاة هرتزل ، ليؤكد رفضه لمشروع يوغنده وتمسكه بفلسطين وطنا يسعى اليهود الى استعماره بشتى الوسائل الممكنة .

وفي مطلع عام ١٩٠٤ كانون الثاني (يناير) نجد ثيودور هرتزل في الطريق الى رومه ، حيث ذهب لمقابلة قداسة البابا وملك ايطاليه . لكنه يتوسط الكاردينال ميري دل فال (Merry del Val) لترتيب تلك المقابلة مؤكدا له غايته في كسب النوايا الطيبة من الكرسي الرسولي لصالح قضيته ، ومستعينا باسلوبه الدبلوماسي المعروف : « لا اريد ان اطلب اليه شيئا قد يتسبب في احراجه . بل سوف اطلب الممكن فقط . فليصرح في احدى المنشورات او البيانات البابوية بانه لا يعترض على الصهيونية البتة ، شريطة ان تبقى الاماكن المقدسة خارج اراضي الدولة» (Extraterritorialized) (١١) .

وحين تمت المقابلة مع البابا بيوس العاشر في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ راح هرتزل يصف مشروعه المتعلق بجعل الاماكن المقدسة

١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٢٠ ــ ١٥٤٠ .
١١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٩١ .

« خارج اراضي الدولة » التي يزمع انشاءها . بينما استمع اليه قداسة البابا ببرود ثم اجابه بما يلي :

« هناك احتمالان اثنان : اما ان يحتفظ اليهود بايمانهم القديم ويبقوا على انتظارهم لمجيء المسيح ، الذي جاء بالنسبة لنا ، فينكرون بذلك الوهية يسوع المسيح ، ولا يمكننا اذاك مساعدتهم . او انهم يرغبون في الذهاب الى فلسطين كشعب لا دين له على الاطلاق ، وفي تلك الحالة يكون تأييدنا لعملهم على درجة اقل ايضا » (١٢) .

واذا كان قداسةالبابا قد اكد لهرتزل بان الكرسي الرسولي لا يمكنه الموافقة على الحركة الصهيونية ، او منع اليهود من الذهاب الى القدس ، فانه شدد في الوقت ذاته على « اننا لن نستطيع الاقرار بذلك والتصديق عليه ابدا » . وخلال مقابلته للملك ايطاليه راح هرتزل يقص على مسمع محدثه قصة تحاشيه ، اثناء زيارته لفلسطين ، ركوب حمار او حصان ابيض كي « لا يحرجني احد ويحسبني المسيح المنتظر » ! ثم استمع الى الملك يعرض رايه بنابوليون بونابرت ومجلس السنهورين (١٨٠٦) مؤكدا ان الرجل لم يكن ينوي انشاء دولة لليهود ، بل جعل اليهود المنتشرين في سائر انحاء العالم بمثابة عملاء لهم . وقد وجد هرتزل توارد افكار بين الملك والمستر تشمبرلن . ثم انتقل الى الحديث عن مشروع استعمار طرابلس الغرب ، بعد ان استعرض مشروعه الاصلي المتعلق بسيناء ومشروع يوغنده . فوصفه على الشكل التالي :

« تحويل الفائض من الهجرة اليهودية الى طرابلس الغرب ، في ظل القوانين والمؤسسات الليبرالية الايطالية » .

بينما قاطعه الملك بقوله : « لكن هذه ايضا (طرابلس الغرب) وطن للآخرين » او « بيت الغير » (Ma è encora casa di altri) (١٣) . فما كان من هرتزل الا ان تجاهل ذلك عمدا وراح يؤكد لجلالة الملك بان تقسيم تركيه لا محالة آت في وقت قريب . بينما تساءل الملك « متى ؟ » . وانتهت المقابلة بعد ان كرر هرتزل على مسمعه : « ان ايطاليه تستطيع ان تفعل الكثير لاجلنا ، بما ان السلطان يخاف منها » .

كما ان الاشهر الاخيرة المعدودة من حياته اتاحت له السماع بحركة عربية تهدف الى جعل الخلافة الاسلامية وقفا على شخص يتحدر من

---

١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٠٣ .
١٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٠٠ .

الرسول العربي الكريم ، وتحويل مكة الى كرسي بابوي على غرار رومه . وربما كان يعني بذلك حركة « الجامعة الاسلامية » او الدعوة لاسترجاع الخلافة من ايدي الاتراك ، فخطر له ان يوحد بين هذه الحركة من جهة وحركة اليقظة العربية التي عبّر عنها نجيب عازوري من جهة ثانية .

ويمضي هرتزل في محاولة كسب الوعود من الدول الكبرى آنذاك. فنجده يتحدث في منتصف ايار (مايو) ١٩٠٤ عن وعد اعطاه اياه الكونت غولوشوفسكي ، وزير خارجية الامبراطورية النمسوية ـ المجرية (١٨٩٥ ـ ١٩٠٦) ، بتقديم المساعدات فيما لو كانت المسألة التي يعمل لاجلها كبيرة الى درجة تسمح للدول الكبرى ان تقوم بعمل مشترك . فقد تطلب هذه الدول الى تركيه التخلي عن ارض للاستيطان في فلسطين وجوارها، تكفي مساحتها لايواء ٥ ـ ٦ ملايين يهوديا (١٤) . بينما يصبح الحديث عن سنجق عكا في المسودة التي يعدها هرتزل آنذاك من جديد باعتبار تلك الرقعة الادارية وسط الامبراطورية العثمانية كناية عن « منطقة تشهد عمليات الاستعمار والاستيطان » بحيث تشكل فيما بعد نقطة انطلاق للتوسع والغزو . ولم يدر بخلد مؤسس الصهيونية الحديثة ان الارض التي جعلها محط اطماعه هي وطن للآخرين وبيت للغير . بل تجاهل كل ذلك في سبيل الدعوة والعمل لصالح « وطن اسرائيل » القائم على الاغتصاب والتوسع . واقتفت الحركة الصهيونية خطواته ، كما انها عمدت الى ادخال شتى التعديلات على وسائل هرتزل والنهج الذي اتبعه.

---

١٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٦٢٩ .

القسم الثاني

من هرتزل الى بلفور

نوردو ومحنة اليهـود

كان ماكس نوردو في طليعة المثقفين اليهود ومن الذين سارعوا الى اعتناق الدعوة الصهيونية في اوائل عهدها الهرتزلي . فحين تعرف اليه ثيودور هرتزل في باريس توسم كل منهما في الاخر تلك النواحي المكملة لشخصيته ، وعقدا العزم على التعاون في سبيل الدعوة . كما ان نوردو لم يكن مجهول الاسم في الاوساط الفكرية الاوروبية طيلة السنوات العشر التي سبقت لقاءه بهرتزل ، اذ بدا في نظر معاصريه كاتبا طليعيا وناقدا مجتمعيا . وهو المولود في بودابست (١٨٤٩) والمتربي في التقليد اليهودي منذ حداثة سنه [١] . لكنه ما لبث ان نشأ وترعرع في كنف الثقافة الالمانية ــ على غرار هرتزل ــ وانصرف الى الكتابة في سن مبكرة . فذهب الى فيينه (١٨٧٣) مراسلا لأشهر صحف بودابست الصادرة باللغة الالمانية ــ صحيفة بيستر لويد (Pester Lloyd) — وطلب اليه القيام بتغطية انباء المعرض العالمي في تلك المدينة . ثم قضى عامين مرتحلا ومتنقلا في سائر انحاء اوروبه ، فجاء كتابه « من الكرملين الى الحمراء » (١٨٧٩) ثمرة لتلك الاسفار والرحلات . وعاد الى فيينه لاتمام دراسة الطب والانتقال عام ١٨٨٠ من بودابست الى باريس بصحبة عائلته للاقامة في العاصمة الفرنسية بصورة دائمة .

---

١ ــ انظر سيرة حياته بقلم زوجته وابنته . — Anna and Maxa Nordau
MAX NORDAU. A Biography, trans. from French, (Published by the Nordau Committee, New York, 1943).

ومــن باريس اخذ يكتب المقالات في الصحف الالمانية ـ على غرار ما فعل ثيودور هرتزل بعده بعشر سنوات ـ بالاضافة الى تعاطيه مهنة الطب . ثم اعتنق افكار عصره حول الفلسفة الوضعية والنظر الى شتى المسائل بمنظار النقد العلمي والتحليل الوضعي ، فكان كتابه الفلسفي « الاكاذيب التقليدية في مدنيتنا » (١٨٨٣) . حيث قدم تحليــلا انتقاديــا شديد اللهجة للوضع الثقافي السائد آنذاك ولم يوفر الديــن مــن هجومه العنيف ، باسم العلـم والفلسفــة الوضعية . مما حدا بالكنيسة الكاثوليكية الــى وضع الكتاب المذكور على قائمة الكتب المحظورة وادّى بالتالي الى منعه في كل من النمسه وروسيه وانجلتره . وفي عام ١٨٨٥ الحقه بكتاب ثان اسماه « مفارقــات » (Paradoxes) ، تابع فيه النظر الوضعي بجملة من المفاهيــم التقليدية التي جرى قبولها على علاّتها . وحقق الكتاب انتشارا واسعا خلال السنة الاولى من صدوره . ثم انصرف الى كتابــة الروايات والمسرحيــات والقصص القصيرة . فكانت روايتاه « مرض العصر » (١٨٨٨) و « كوميديا المشاعر » (١٨٩١) بالاضافة الى مسرحية « حق الحب » ومجموعــة قصص قصيـرة بعنوان « تحليل نفوس » (١٨٩٢) . وجاء كتاب « انحلال » (Degeneration) عام ١٨٩٣ ليتمم الثلاثية الفلسفية والنقدية التــي بداها المؤلــف قبل عشر سنوات . فقد استعان باعمال كل من شاركــو (Charcot) حول التحليــل النفسي والتنويم المغناطيسي ، وسيزاري لومبروزو (Lombroso) حــول العلاقة بين العبقرية والجنون للقيام بعملية نقد من زاوية العلم الوضعي بعد محاولة فهم لتلك الحركات الادبية والفكرية السائدة في العقد الاخير من القرن الماضي . وتراءى له الرمزيون والانانيون بمثابة جماعة مــن المتصوفــة ، اذ تلوح عليهم دلائل الانحلال والانحطاط وتظهــر من خــلالهم وخــلال آثارهم عوارض المرض الخطير الــذي يشكّل خطــرا حقيقيــا على تطــور الادب السليم (٢) حتى ان هناك من يعتبره قد ارتاد تلك الآفاق التي اصبحت فيما بعد مسرحا لنشاط سيغموند فرويد ـ الذي تتلمذ على شاركو ـ في شتى الحقول التطبيقية لآراء التحليل النفساني وتفسيرات الظــواهر اللاسوية في السلوك البشري .

غير ان ما يهمنا الآن لدى ماكس نوردو هو ذلك الــدور البارز الــذي لعبه في تاريخ الحركة الصهيونية منذ تعرّفه على ثيودور هرتزل حتى وفاته في مطلع العام ١٩٢٣ . وتؤكد لنا سيرة حياته ، مثلا ، انه كان قد اتم ردّته

---

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٩

الصهيونية حين التقى بمؤسسها (٣) . اذ يرجع تحوّله صوب صهيون الى ما قبل قضية دريفوس واكتشاف توارد الخواطر والافكار بينه وبين ثيودور هرتزل . فقد مرّ بتجربة شخصية اثناء صيف ١٨٩٣ على ايدي بعض ممثلي الارستقراطية البروسيّة في جزيرة بوركوم (Borkum) ، احدى منتجعات بحر الشمال ، حيث دعاه بعض اصدقائه لتمضية عطلته السنوية . وشعر بالاهانة حين وجد رسالة مغفلة التوقيع تطلب اليه مغادرة المكان في الحال ، مما اضطره الى العودة بعد عشرة ايام . وساهم ، في نظر اللواتي اقتفين سيرة حياته ، في هز كيانه وانهيار افكاره الليبرالية والسامية حول التساهل والتسامح واعلاء شأن النزعة الانسانية .

كما يبدو انه تعرّف خلال الثمانينات على الدكتور لوفنثال (Loewenthal) ، الغاليسي المولد ، في برلين . وقد وضع هذا الاخير عام ١٨٩٠ خطة واسعة ومفصلة للاستعمار اليهودي وتقدم بها من البارون دي هيرش . فنالت استحسانه وقبوله . وتضمنت الخطة المذكورة مشروع هجرة جماعية الى الارجنتين ، على ان يتم استملاك مساحة مليونين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة هناك ثم يجري توطين نصف مليون من اليهود الروس عليها . وحين ذهب لوفنثال على رأس البعثة الاستكشافية وعاد مشبعا بالحماس للمشروع ، بعد ان نال وعدا بالحصول على تأييد كلّي من الحكومة الارجنتينية ، طلب الى نوردو الاّ يبخل عليه بالدعم والتأييد . ثم وضع صديقه في مأزق حرج عندما اصطحب عائلته الى هناك لتدشين المشروع ، وطلب من نوردو موافاته الى الارجنتين للعمل سوية على انجاح المشروع الضخم . لكن نوردو تردد في اتخاذ قرار الرحيل ولم يتكرم عليه سوى بالتأييد المعنوي وتجنيد قلمه للدفاع عن المشروع ضد منتقديه . وحين باءت خطط لوفنثال بالفشل وانقلب البارون دي هيرش ضده تحت تأثير الحملة الانتقادية التي شنها البعض عليه ، توفي الرجل المنهوك بداء القلب . مما حزّ في نفس ماكس نوردو وآلمه كثيرا ، حتى ان موت صديقه المبكر ومتابعته للمسرحية بكاملها مع نهايتها المحزنة قد تركت في نفسه منذ ذلك الحين اثرا دائما لم يشأ التخلي عنه فيما بعد . فجاءت تجربة الجزيرة المار ذكرها لتكون ــ على حد قول سيرة حياته ــ بمثابة « الصدمة الاخلاقية

---

٣ ــ المصدر نفسه ، انظر الفصل الثامن « مفترق طرق القدر » ، ص ٩٦ ــ ١٠١ .

المباشرة » (٤) التي عجّلت في تحوّله وايقاظ وجدانه اليهودي . كما انها مهّدت السبيل امام اعتناقه السريع للدعوة الصهيونية .

تكمن اهمية نوردو على صعيد التفكير النظري الصهيوني في العديد من النواحي والمجالات التي ساهم بقسط فعّال في ابرازها وطبعها بطابعه الخاص . فقد كان بمثابة الخطيب الدائم في المؤتمرات الصهيونية منذ المؤتمر الاول حتى العاشر . وجاءت خطبه بمثابة سجل للافكار والدعوات التي سادت الحركة الصهيونية خلال ربع القرن الاول من تأسيسها وقيامها . حتى انه يمكن اعتبار انضمامه للدعوة احدى العوامل التي ساعدت على اظهارها بمظهر الفكرة التقدمية واضفت طابع الاستحسان عليها . مما جعلها تجتذب نفرا من المثقفين اليهود الشباب لم تكن لتستهويهم دون ابراز صفة التقدمية والتظاهر بالتساهل ، والانفتاح على عالم الانسان : (امثال برنارد لازار واسرائيل زانغويل وغيرهما (٥)) . كما ان الخطب التي القاها والمقالات التي كتبها خلال العقد الاول من تاريخ الحركة الصهيونية (١٨٩٧–١٩٠٧) تتضمن عددا لا يستهان به من المفاهيم والتصورات الاساسية التي اصبحت فيما بعد من مقومات النشاط العملي الصهيوني ومرتكزات السياسة التوسعية الاستعمارية على حساب الغير (٦) . ولا يفوتنا في هذا المجال الاتيان على ذكر الدور الذي لعبه نوردو خلال انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول والمفاوضات والمداولات التي جرت آنذاك بخصوص البرنامج العلني للحركة الصهيونية (اي برنامج بازل) . فقد تألفت لجنة اعضاؤها نوردو وناثان بيرنباوم وسيغموند روزنبرغ ، والمحامي النمساوي الدكتور منتز ، وبالاضافة الى شاوول رفائيل لاندو وماكس بودنهايمر والبرفسور شابيرا لوضع مسودة

---

٤ – المصدر نفسه ، ص ١١٧

٥ – انظر Arthur Hertzberg (Ed.) : **The Zionist Idea. A Historical Analysis and Reader** (Doubleday & Co. and Herzl Press, N. York, 1959), P. 234

٦ – انظر « ماكس نوردو : الكتابات الصهيونية » ، بالالمانية ، نشرته « لجنة العمل الصهيونية » واصدرته « دار النشر اليهودية » ، كولونيا – ليبزيغ ، ١٩٠٩ .

Max Nordau's Zionistische Schriften, Hrsg. von Zionistischen Aktionskomitee (Jüdischer Verlag, G.M.B.H., Köln und Leipzig, 1909).

البرنامج . ويحدثنا بودنهايمر في مذكراته الآنفة الذكر موضحا بعض الملابسات التي احاطت بعملية الاتفاق على وضع الصيغة النهائية للبرنامج الصهيوني ، من حيث تحديد الغاية والوسائل ، فيقـول ان البروفسور شابـيرا تقدّم بمسودة « حيادية » تبنّت فكرة استعمار فلسطين والقضايـا الثـلاث في برنامج جمعية كولونيا الصهيونية . غير ان نوردو عمد الى استخراج صياغة محكمة النص على الشكل التالي : « ان غايـة الصهيونية هي خلـق وطـن (Heimstätte) للشعب اليهودي في فلسطين يعترف به القانون الدولي » . بينما عارض شابيرا النص المذكور بشدة وأصر على اعتماد نص مبطّن لا يثير الشكوك حول القصد من انشاء دولة يهودية في فلسطين . ويؤكد لنا بودنهايمر ان النص الذي جرى اعلانه آنذاك صدر بناء على اقتراح المحامين في اللجنة المذكورة ، « لكي يتسنى الحصول على اجماع في الاصوات » ، ولاجل اتاحة المجال امام القانونين الدستوري والـدولي علـى السـواء دون حاجـة الى التخصيص . وهكذا اصبح الهدف الذي شاؤوا الافصاح عنه رسميا وعلنيا : « خلـق وطن للشعـب اليهـودي في فلسطـين يضمنه القانـون العـام » (öffentlich - rechtlich) . اذ وجد هناك من أبدى اعتراضاته على لفظـة « القانون الدولي » (Völkerrechtlich) بحجة ان الحركات القومية لا تبرز الى حيز الوجود بطريقة متعمدة او مصطنعة (٧) ! هذا مع العلـم بان الذين اشتركوا في المؤتمر الاول كانوا على بيّنة تامة من امر «الوطن» (Heimstätte) وموقعه ومسألة انشاء « الدولة » في رقعة سبق لنا التعرّف على معالمها من خلال يوميات هرتزل .

ولا غرو فان ماكس نوردو بالذات صرح في مقالة نشرها عام ١٩٢٠ ، وقبل ان تأخذ بريطانيه على عاتقها مسؤوليات الدولة المنتدبة على فلسطين بصورة رسمية ، بان لفظة « الوطن » (Heimstätte) كانت من اختراعه (٨) . وان القصد مـن تبنّـي تلك اللفظة كان الاحتماء خلف اعتدالها وممارسـة الخداع والتضليل ، وليس التخلي او الرجوع عن المطلب الصهيوني بانشاء

---

٧ ـ راجع القصة الكاملة من زاوية بودنهايمر ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

٨ ـ ان لفظة (Heimstätte) الالمانية تعني البيت (Heim) او مكان الاقامة والسكن (Wohnplatz) كما ورد في معجم (Brockhaus) . بينما يضع معجم الذخيرة اللغوية الالمانية (Wehrle - Eggers) مقابلها المرادفات التالية : « الوطن » (Heimat) و « ارض الوطن » و « ارض الآباء »

دولة على ارض فلسطين . ولنا في الفقرة التالية من المقالة المذكورة خير شاهد على ما كان يضمره نوردو وزعماء الحركة منذ مطلع عهدها . وهي مأخوذة على الارجح من سلسلة المقالات العشر التي نشرها نوردو بين ١٧ ايلول (سبتمبر) و ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠ في صحيفة « الشعب اليهودي » (Le Peuple Juif) الاسبوعية ولسان حال الاتحاد الصهيوني الفرنسي . كما ان تلك المقالات التي تؤلف « شهادة نوردو السياسية » ووصيته في آن واحد معا قصد بها ان تكون بمثابة « تقييم لخطة الصهيونية

(Vaterland) ، ومحل الوطن (Heimatort) ، و «مسقط الرأس» (Heimatstadt) أو البلد و « مدينة الآباء » (Vaterstadt) . ولا تفيد أي من هذه المرادفات معنى الدولة كمظهر سياسي على الاطلاق . وربما اقتربت من « المستوطن » بمعنى (Siedlung) الالمانية . فيكون مقابلها اذاك في الفرنسية ، مثلا ، لفظة «Foyer» ، بينما نجد اللفظة الانجليزية الاقرب هي home-croft التي تدل على المسكن وسط حقل صغير مسوّر او مزرعة صغيرة . وفي الاستعمال الاميركي تطالعنا لفظة (Homestead) التي تعني « المسكن وما حوله من ارض » ، او منزل الإسرة ، و « بيت الآباء والاجداد » . وقد جرى استعمالها حوالي العام ١٧٠٠ بمعنى البيت والمباني والمكاتب التابعة له أو للمزرعة . ومنذ ١٨٦٢ صارت تعني في الولايات المتحدة الاميركية « المزرعة التي يشغلها المالك واسرته ، وعلى الاخص تلك التي تبلغ مساحتها ٦٤٠ الفا من الامتار المربعة (160 Acres) تقريبا ، والتي تمنح للمستوطن بموجب قانون الكونغرس (Homestead Act of Congress, 1862) . ويعرف مالكها عند ذاك ب « المزارع المستوطن » (Homesteader) . انظر : Shorter Oxford Dictionary . فلا يمكن القول البتة بان ايّا من هذه الالفاظ والمرادفات تفيد معنى « الوطن القومي » الذي اعتبره نوردو القصد الحقيقي لبرنامج الحركة الصهيونية منذ قيامها بالامس واليوم وغدا . كما ان هذه الجولة اللغوية في تاريخ اللفظة قد تساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن اسلوب الصهيونية الرسمية في استحضار الدلالات والمعاني البعيدة عن نواياها الحقيقية كل البعد . وهي تعكس بالتالي تلك المواربة والمداورة التي لم يجد ماكس نوردو وغيره مفرّا من الاعتراف بوجودها ، حين ضاق ذرعا بالصياغة الحذرة لنص وعد بلفور وطلع بتفسيره الاصلي لنوايا الصهيونية واهدافها .

وتعاليمها منذ البداية » حتى صدور وعد بلفور والسنوات الثلاث اللاحقة (١٨٩٧ ـ ١٩١٧ ـ ١٩٢٠) . كتب يقول عن ملابسات برنامج بازل :

« بذلت ما بوسعي لاقناع المطالبين بدولة يهودية في فلسطين انه يمكننا العثور على مواربة (circumlocution دوران حول المعنى) تعبّر عن كل ما نعنيه ، لكنها تقوله بطريقة تتحاشى تحريض الحكام الاتراك للارض المشتهاة . واقترحت لفظة Heimstätte (بيت ، دار ، ملاذ ، مأوى ، موطن ، منزل) كمرادف لكلمة « دولة » (State) ... هذا هو تاريخ اللفظة التي تعرّضت لتعليقات شتى . لقد كانت ملتبسة (ذا معنيين) ، لكننا جميعا فهمنا ما هو المقصود بها . ودلّت آنذاك بالنسبة لنا على دولة يهودية (Judenstaat) كما تدل عليها الآن ... ولا حاجة بنا الآن لاخفاء هدفنا الحقيقي تحت المظاهر الكاذبة (dissimulate) (٩) » .

هكذا نجد ثيودور هرتزل يقف من على منبر قاعة اجتماع مؤتمر بازل الاول ليعلن ما يلي : « في هذا المؤتمر نخلق للشعب اليهودي اداة لم يكن

---

٩ ـ نقلا عن حاشية في كتاب سايكس الوارد ذكره سابقا ، ص ١٦٠ . وقد استحصل سايكس على نسخة المقالة المذكورة من المستر جون كارتر . بينما تفيدنا « سيرة ماكس نوردو » التي الّفتها زوجته وابنته (انظر المصدر السابق ، ص ٢٩٣) بان موضوعات المقالات العشر كانت التالية : (١) الصهيونية السياسية ، (٢) احباء صهيون ، (٣) الصهيونية الثقافية ، (٤) اسلوب هرتزل ووسائله ، (٥) تطور الصهيونية ، (٦) الصهيونية العملية ، (٧) المهمة العاجلة ، (٨) الحرب الكبرى والصهيونية ، (٩) الحرب والمنظمة الصهيونية ، (١٠) الامس واليوم وغدا . اما الفقرات المتعلقة بمشروع نوردو الشهير للاسراع بعملية هجرة جماعية يهودية الى فلسطين ـ سوف يأتي الحديث عنه في حينه ـ فقد أعيد نشرها في صحيفة « الجويش ستاندرد » (The Jewish Standard) عدد ١٩٤٧/١٢/٢٦ ابان التصويت في الامم المتحدة على مشروع التقسيم بغية التحذير من احتمال اقدام الحركة الصهيونية على التخلي عن هدف « اقامة الدولة اليهودية داخل الحدود التاريخية » . والصحيفة المذكورة كانت الناطقة رسميا بلسان الحركة التحريفية الصهيونية التي استوحت تعاليم جابوتنسكي وتجسدت في العصابات الارهابية الصهيونية ثم

يملكها حتى الآن ، لكنه يحتاجها لحياته ، بصورة ماسة وملحة » . بينما يتنبّه الى اهمية كسب الجماعات المتدينة لصالح الحركة والحؤول دون خروجها من المنظمة ، فيسارع الى طمأنة المترددين بقوله : « الصهيونية هي العودة الى احضان اليهودية قبل الرجوع الى أرض اليهود » (المؤتمر الصهيوني الاول ، بازل ١٨٩٧ (١٠)) .

اما ماكس نوردو ، خطيب الحركة والمنظمة الصهيونية ، فقد راح يصف حالة اليهود في القرن التاسع عشر والضائقة الاجتماعية التي يعيشونها ويعانونها تحت عنوان « محنة اليهود » (Judennot) ، لكي ينحى باللائمة على دعاة التحرر والاندماج . ويزوّد مستمعيه بالصورة التالية لليهودي الذي تحرر من ظلال الماضي الثقيلة وعقد العزم على المشاركة الفعلية والمخلصة في حياة مجتمعه : « ان اليهودي المتمرد لا مرساة له ، غير واثق من نفسه في علاقاته بجيرانه ، يخاف من الاحتكاك بالغرباء ، ويشكك حتى في المشاعر التي يكنها له اصدقاؤه الخلّص » (١١) .

لذلك مضى يحلل « محنة اليهود » في القرن التاسع عشر من الزاوية التي تسد في وجوههم جميع السبل التي لا تؤدي بهم الى اعتناق الصهيونية . واضعا اياهم امام الإختيار العسير والمغري في آن واحد : « اما ان تكون اليهودية صهيونية ، او لا تكون » ، على غرار التعبير الشكسبيري المعروف في مأساة « هاملت » امير الدانمرك (١٢) . واعتبر المحنة تتخذ المظهرين التاليين : (١) المظهر الواقعي ـ (Sachlich) لدى يهود

تحولت بعد ١٩٤٨ الى حزب حيروت الذي يتزعمه مناحيم بيغين ، وزير الدولة في حكومة اشكول الحالية (منذ مطلع حزيران (يونيو) ١٩٦٧ : « وزارة التكتل الوطني ») . انظر ملفات مركز الإبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية :
«1920's Warning to 1947», by Max Nordau

١٠ـ انظر خطبة هرتزل الافتتاحية في المؤتمر الاول : — **Theodor Herzl**
Zionistische Schriften : «Eröffnungsrede zum ersten Kongress» ; Hrsg. von Leon Kellner (Jüdischer Verlag, Berlin 1920), S. 143, 140.

١١ـ نوردو **Zionistische Schriften** ، المصدر السابق ص ٥١

١٢ـ **«Das Judentum wird zionistisch sein, oder es wird nicht sein» (1898) Ibid, S. 214.**

اوروبه الشرقيه وافريقيه الشمالية وآسيه الغربية ، حيث تصارع الغالبية العظمى من يهود العالم (حوالي تسعة أعشار) في سبيل البقاء على قيد الحياة وكسب لقمة العيش اليومي . و(٢) المظهر الاخلاقي (Sittlich) الذي يتبدى بين يهود اوروبه الغربية على صعيد الاهانات اليومية المتكررة للشعور بالكرامة الانسانية والحفاظ على الشرف . ثم لجأ الى بعض المقولات الفرويدية في تفسيره لذلك « الكبت القاسي الذي يعاني منه نزوع اليهود وصبوتهم الى تحقيق الاكتفاء والرضا النفسيين » . وخلص الى القول بان اليهودي اكثر اجتهادا من الاوروبي العادي واقدر منه ، كي « لا نذكر الاسيوي والافريقي المثقل بسبات الخمول » ، لكن طريق استخدام قواه وكفاءاته بحرية مسدودة بوجهه . بينما يجده نوردو مستثنى من مجتمع ابناء وطنه ومحكوما عليه بالعزلة المؤسية . واذا كان يجد ويسعى في سبيل التفوق ، فذلك يرجع الى حرمانه من المساواة ! والمحنة التي يعاني منها اليهود الامرين تستصرخ المساعدة ، فتصبح المهمة الكبرى الموكولة الى المؤتمر الصهيوني هي مسألة العثور على تلك المساعدة وتوفيرها للمحتاجين .

فلنستعرض بعض النواحي البارزة في التفكير الصهيوني التوسعي من خلال التوقف عند بعض المفاهيم والتصورات التي ترد مرارا وتكرارا في كتابات نوردو الصهيونية :

ان الصهيونية ، في نظر نوردو ، تعمل لإيقاظ اليهودية على حياة جديدة . وتسعى لتحقيق اليقظة « أخلاقيا » بواسطة انعاش أماني الشعب اليهودي ومثله العليا ، وجسديا عن طريق تربية النشء تربية بدنية صالحة . والتربية المذكورة هي السبيل الى ايجاد يهودية العضلات او الفتوة (Muskeljudentum) التي ضاعت خلال ١٨ قرنا من النفي والتشرد ! هذه الفتوة تستوحي الامجاد والبطولات الماضية من ايام بار كوكبا (Bar Kochba) والاشمونيين . وتطلب الى اليهود على لسان نوردو الاقلاع عن ممارسة قهر الجسد وترهيل العضلات ، والتعلق بفضيلة الاعتناء بالجسد وتحقيق اللياقة والسلامة البدنية المرجوة . لذلك نجد نوردو في خطبه (١٨٩٨ و ١٩٠٠) يشجع الجمعيات الرياضية الصهيونية على اختيار اسمائها من بين الامجاد اليهودية الماضية ، والعمل على تنمية عضلاتها أسوة بذلك البطل « الذي رفض التعرف على الهزيمة ، وحين خانه النصر عرف كيف يموت » . انه بار كوكبا « آخر تجسيد على صعيد

التاريخ العالمي لتلك اليهودية في صلابة عودها المقاتل وحبها لقعقعة السلاح » (١٣) ويمضي في حديثه عن أهمية التمرينات الرياضية والعاب القوى والمبارزة ـ مما يذكرنا ببعض أفكار هرتزل المشابهة ـ للتوكيد على الوقع الذي تتركه في مجال الشعور بالذات لدى الانسان اليهودي . كما انه يعرف كيف تستطيع الصهيونية ان تستفيد من يهودية العضلات هذه والفتوة المنبثقة عنها .

وقد برع نوردو ـ كما اشرنا آنفا ـ في مسألة ابتكار التسميات المثيرة من خلال التلاعب بالالفاظ . وشن حملاته المستهزئة والشديدة على اولئك اليهود الذين احتجوا على الصهيونية ورفضوا اعتناق دعوتها. فاتهم العديدين منهم ، مثلا ، بالارتداد الخارجي عن اليهودية . كما اعتبر القسم الاكبر من اليهود يهودا بحكم العادة والارتياح والخمول الذهني ، وليس بفضل القوة الذاتية أو اشتداد الثقة بالنفس . فالصهيونية تدعو هؤلاء الكسالى والخاملين الى كسر قيود التقاليد المتوارثة والتخلي عن يهودية الظاهر (Scheinjuden) . وهنا يلجأ نوردو الى وصف عامة اليهود التي حافظت على يهوديتها بفعل الاستمرار والعادة بعبارة « نحن يهود ايضا » (Auch-Judentum) . لكي ينتهي الى اعتبار « يهودية العادة » هذه اشبه بيهودية البطن أو « الزحف على البطون » (Bauch-Judentum) ، ويضع اليهود امام اختياره الصهيوني الذي لم يعد اختيارا بالمعنى الصحيح. فل يقبل، مثلا ، بالتحدث عن « حزب صهيوني » داخل اليهودية . بل يقول : « نحن نستنكر هذه التسمية ونرفضها باستخفاف وازدراء . فالصهيونيون ليسوا حزبا ، بل هم اليهودية بحد ذاتها . وعددهم اليوم لا يقدم أو يؤخر في المسألة ... ويجوز لهم ان ينادوا : اسرائيل في معسكرنا ! بينما انتم ركام مبعثر » (١٤) .

وفي محاضرة القاها في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٨٩٨ بمدينة برلين وجعل عنوانها « الصهيونية ومعارضوها » يتناول نوردو عددا من الاعتراضات التي قامت بوجه الفكرة الصهيونية آنذاك . فيبدأ بملاحظة عن انعدام اية معارضة للصهيونية في العالم المسيحي « الذي يرغب في التخلص منا

---

١٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٨٠
١٤ ــ انظر خطاب نوردو في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ــ المصدر نفسه ، ص ٧٥ ــ ٧٦ .

بالطبع » . لكنه سرعان ما ينتقل الى حصر المعارضة في صفوف اليهـود وحدهم ، والى تقسيم اليهود الى معسكرين : فئة تريد البقاء يهودية ، والفئة الاخرى لا ترغب في ذلك . ولا يجد ما يقوله للفئة الثانية سوى : « لا يحق لكم ابدا التكلم في المسائل الصهيونية . والدعوة الصهيونية لا تتوجه اليكم ، انتم الذين لا ترغبون في البقاء يهودا ، بل بالاحرى الى اولئك الذين يرغبون في البقاء يهودا » (١٥) .

فيلخص اعتراضات الفئة الراغبة هذه بعبارات ثلاث :

أ ـ الصهيونية فكرة جنونية لا يمكن تحقيقها

ب ـ الصهيونية تشكل خطرا على اليهودية

ج ـ الصهيونية غير ضرورية ، وستبقى اليهودية بدونها ، مثلما استمرت طيلة ١٨ قرنا من الزمن !

ثم يضيف اليها اعتراضين آخرين يصفهما بالصوفيين (Die Mystischen)

د ـ الصهيونية تتدخل في تدبير العناية الإلهية ، بينما يتوجب على اليهود انتظار مجيء المسيح المخلص

هـ ـ الصهيونية تعيق اليهود عن اداء رسالتهم التي تتطلب اليهم ان يكونوا منارة للشعوب الاخرى ومعلما لها (١٦) .

ومما يسترعي الانتباه ان نوردو يصرف النظر كليا عن الاجابة على الاعتراضين الاخيرين بحجة انها تتكلم لغة لا يفهمها ولا يتكلمها ! وقد سبق للمؤرخ اليهودي الروسي سيمون دوبنوف (Dubnow) في « رسائله حول اليهودية القديمة والجديدة » (١٧) (١٨٩٧ ـ ١٩٠٧) أن تناول افكار نوردو بالنقد والتحليل وشدد على ضرورة توضيح نشأة الصهيونية

---

١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

١٧ ـ انظر الرسالة السادسة Simon Dubnow - «Reality and Fantasy in Zionism» : **Nationalism and History. Essays. Ed. by Koppel S. Pinson.**
(The Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1958), pp. 155 - 166.

والتمييز بين العوامل المؤقتة والثابتة فيها لكي يصل الى المقومات الراسخة والزائلة للفكرة اياها ، واشار الى الهوة الواسعة التي تفصل بين تشخيص نوردو الصحيح للداء ، مــن جهة ، و العلاج الذي اقترحه من جهة ثانية . ثم انتهى الى اعتبار الصهيونية السيــاسيـــة بمثابة نسيج من التخيلات ، منها ذلك الحلم بخلق دولة يهودية يضمنها القانون الدولي ، وحلم استعمار قسم كبير من الشعب اليهودي ، وحلم ايجاد الحل للمسألة اليهودية بهذه الطريقة . واختزل ما يتبقى مــن برنامج بازل على صعيــد العمل الـــى الفقرتين الثانية والثالثة فقط ، أي الى « تنظيم اليهود » و « تقوية الشعور القومي » . ثم وصف الصهيونية السيــاسية بقوله :

« ان الصهيونية السيــاسية هي مجرد صيغة مجددة لعقيـــدة انتظار المسيح المخلص ، جرى نقلها من العقول المتحمسة للقبّاليين الدينيين (Kabbalists) الى عقول الزعمــاء السياسيين للجماعات اليهودية . تغشّي فيها النشوة المرتبطة بفكــرة البعث العظيمــة الخطوط الفاصلة بين الواقع والخيال » (١٨) .

غير ان نوردو لا يعبأ باعتراضات مــن هذا القبيل . فيولي اهتمامه شطر الاعتراض القائل بان فلسطين لا يمكنها استيعاب اليهود كلهم . ثــم يشدد على ان فلسطين والاقاليم المجاورة لها (Palästina mit den angrenzenden Provinzen) توفر متسعا من المكان يستوعب ما بين ١٢ــ١٥ مليونا من السكان . دون ان يحدد لنا بالضبط ما هي تلك الإقاليم المجاورة التـــي يعنيها . كما لا يفوته التذكر والتذكير بان « فلسطــين ليست خلوا مــــن السكان ، ولن يدع أهاليها أحدا للقيام بطردهم منها » (١٩) لذلك يسارع الى التطمين بان الصهيونيين لايريدون الاقدام على طرد احد من فلسطـــين ، مؤكدا بان لديه البراهين على ان الستمائة الف عربي المقيمـــين حاليا في الاراضي المقدسة (hausen) سوف يحافظون على علاقات حسن الجوار مع الوافدين اليهــود .

ولا شك ان نوردو لم يكــن يجهل آنذاك موقف اهالي فلسطين مــن الذين طاب له رفع اعدادهم الى الملايين . ففي مطلع آذار (مارس) مــن العام ١٨٩٩ بعث يوسف ضياء الخالدي ، ممثل القدس في مجلس المبعوثين

---

١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .
١٩ ــ نوردو ــ المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(١٨٧٧) ورئيس بلديتها المنتخب لعدة سنوات ، بعث وهو في السبعين من عمره برسالة طويلة الى حاخام فرنسه الاكبر ، زادوك كاهن (Zadoc Kahn) الصديق المقرب من ثيودور هرتــزل وماكس نوردو . وصدرت الرسالــة ، التي جرت صياغتها بعناية فائقة وتضمنت حججا منطقية ، عن الاستانة ، اذ شعر كاتبها « بالواجب المقدس الذي يمليه عليه وجدانه » (٢٠) فراح يتساءل عن حقوق اليهود بفلسطين من الوجهة التاريخية . ويقول مانــدل في بحثه المشار اليه ادناه انه أقر بكون فلسطـــين تاريخيا « بلادكـــم » (Votre Pays) . لكن يوسف ضياء الخــالدي كان يهدف بالدرجة الاولى الى تنبيه اليهود الصهيونيين كي يأخذوا بعين الاعتبار قوة الواقع التـــي تطغى على كل حلم توسعي يساورهم . فعمد الى التذكير بان « فلسطـين جزء لا يتجزأ مـــن الامبراطورية العثمانية » و « يسكنها غير اليـــهود » . وتنبأ بقيام « حركة شعبية » ضد الصهيونيين فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه . كما لم يفته التأكيد بان الحكومة العثمانية ، حتى ولو كانت لها اطيب النوايا في العالم ، لن تتمكن من القضاء على تلك الحركة واسكاتها . لذلك جاءت نصيحته الى الصهيونيين بالتخلي عن « الصهيونية الجغرافية » (Geographic Zionism) وتوجيه الانظار صوب العثور على ارض او بلاد اخرى . كما انها تضمنت التمني عليهم بترك فلسطين وشأنها والاقلاع عن فكرة العبث بمقدراتها .

والمعــروف ان الحاخام الاكبر سارع الى اطــلاع ثيودور هرتزل على الرسالة التي وردته مـــن يوسف ضياء الخالدي . فما كان من هرتزل الا ان بعث برسالة جوابيـــة أعرب فيها عـــن امتنانه للمشاعر الودية وافاض في الحديث عن الصداقة المستمرة بين اليهود وتركيه مؤكدا « انها على استعداد لان تتحول الى افعال فتناصر المسلمين » . كما انكر على الفكرة الصهيونية ضمورها اية روح عدائية للحكومة العثمانية ، منتقلا الى تعداد المنافع التي تعود على رخاء البلاد مـــن جراء الاستيطان اليهودي . فاليهــود « عنصر مسالم للغاية يسعد كل السعادة اذا ما ترك وشأنه » ولا تشكل هجرتهم الى

---

٢٠ ــ راجــع مقالة نفيل ماندل Neville Mandel, «Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine» : 1882 - 1914 والتي ظهرت في : St. Antony's Papers, No. 17 Middle Eastern Affairs, Number Four. Ed. by A. Hourani (Oxford Univ. Press, 1965), PP. 77 - 108.

« البلاد العثمانية » اي خطر . كما ان هرتزل يطمئن الخالدي بان الصهيونية لا تفكر في ابعاد السكان غير اليهود عن فلسطين ، بل ستعمل على توفير اسباب الرفاهية والرخاء لهم . وسوف تؤدي هجرة اليهود الى ارتفاع خيالي في اسعار العقارات والاراضي : « هذا ما يجب ايضاحه للاهالي مع افهامهم انهم سيكسبون أخوة ممتازين ... في المنطقة التي هي وطنهم التاريخي » . والمنطق الذي يروج له هرتزل هو ان من كان صديقا لتركيه ، يصبح بلا شك صديق الصهيونية . ثم ينتقل الى التعليق على قول يوسف ضياء الخالدي الذي نصح فيه الصهيونين بالتطلع صوب مكان آخر غير فلسطين فسيعترف بشكل مفاجيء : « أجل قد يحدث ذلك اذا ما لمسنا ان تركيه ترفض التسليم بالفوائد الضخمة التي تنالها من حركتنا .... وصدقني سوف نهتدي الى مكان آخر وفقا لما نريده » . لكن هرتزل لا يترك الفرصة تمر دون التوكيد على الخدمات التي تحصل عليها تركيه في حقل تنظيمها المالي والنهوض باقتصادها فيما لو استجابت للمطالب الصهيونية . والا فسوف تفقد كل أمل في الوصول الى ذلك . فما عليها الا اغتنام هذه الفرصة قبل فوات الاوان (٢١) .

وفي العام ١٩٠٠ نجد ماكس نوردو يتحدث عن المصالح المالية التي تترتب لتركيه من وراء هجرة اليهود . فيزعم ان الاراضي المقدسة اليوم صحراء في اربعة اخماسها وان ثلاثة ارباع سكانها البالغ عددهم ستمائة الفا من البدو الرحل والفقراء الذين يستعطون . ولا تدر على الباب

---

٢١ ــ راجع النص الكامل للرسالة المذكورة في كتاب احمد الشقيري « محاضرات عن قضية فلسطين : منذ نشوء الحركة الصهيونية حتى سنة١٩١٩» (القيت في معهد الدراسات العربية العالية ، آذار (مارس)ــ نيسان(ابريل) ١٩٥٤، القاهرة) ص٣٤ــ٣٥.ولم يذكر الاستاذ الشقيري المصدر الذي استقى منه نص الرسالة . ومما يجدر ذكره ان اليوميات الكاملة لثيودور هرتزل لا تأتي على ذكر الرسالة ابدا في مجلداتها الخمسة . بل نجد هرتزل بعد زمن من استلامه الرسالة ينصرف الى كتابة روايته «الارض ــ القديمة ــ الارض الجديدة» . وفي السادس من آب (اغسطس) ١٨٩٩ يدون ثيودور هرتزل العبارة التالية في يومياته : « ان وصيتي الى الشعب اليهودي هي : ابنوا دولتكم بطريقة تجعل الغريب يشعر بالارتياح بين ظهرانيكم » (انظر الجزء الثالث ، ص ٨٥٦) .

العالي دخلا يستحق الذكر . فحين يتم للصهيونيين توطين بضع مئات الاف من اليهود ، واتباعهم على عجل ببضعة ملايين ، في فلسطين ، يمكن للزراعة والصناعات الكبيرة والصغيرة والتجارة ان تزدهر وتنتعش . كما ان الصهيونية تضمن للحكومة التركية دخلا سنويا يرتفع بمعدل ارتفاع عدد المستوطنين اليهود بفلسطين (٢٢) . وهكذا يطالعنا نوع من الاتفاق المسبق بين تفكير هرتزل ونوردو . ونذكر ان المصرف الصهيوني كان قد تأسس عام ١٨٩٩ تحت اسم « صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار » (Jewish Colonial Trust) براسمال مسجل قدره مليوني جنيه استرليني . ثم تبعه « الصندوق القومي اليهودي » عام ١٩٠١ ، وجاءت « شركة انجلو ـ فلسطين » (Anglo-Palestine Company) على صورة فرع لصندوق الائتمان في يافا (١٩٠٣) . (*)

ولا شك ان النشاط الذي قام به الاتحاد الصهيوني البريطاني خلال

---

٢٢ ـ انظر نوردو ـ المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(*) ـ تجدر الاشارة هنا الى ان العام نفسه شهد عشية عرض مشروع يوغنده على المؤتمر الصهيوني السادس ذلك النشاط المتزايد لدعاة التطرف الصهيوني في التمسك بفلسطين وحدها ودون ما عداها من البلدان كغاية للاستعمار والاستيطان الصهيونيين . فقد سافر مناحيم يوسشكين (Ussischkin) الى فلسطين ابان انعقاد المؤتمر المذكور لحمل اليهود المقيمين هناك على عقد مؤتمر مصغر لهم وشبيه بمؤتمر بازل . كما يبدو (انظر مقالة «الصهيونية» التي كتبها ريتشارد غوتهايل في **الموسوعة اليهودية** عام ١٩٠٥) ان يوسشكين تمكن من جمع سبعين مندوبا وستين معلما في مستعمرة زخرون يعقوب وانشاء منظمته الخاصة التي ضمت كل يهود فلسطين الذين يتعدون الثامنة عشر من العمر . وجرى تقسيم فلسطين الى ستة قطاعات . بينما يذكر الياهو غولومب في كتابه « تاريخ الدفاع اليهودي عن النفس بفلسطين » (١٨٧٨ ـ ١٩٢١) ان اليشوف (المستوطن اليهودي) في فلسطين آنذاك كانت تغلب اليوغندية على موقفه، لانعدام ايمان ابنائه بالصهيونية وفقدان الامل بامكانيات الاستمرار في العمل . حتى ان يهود زخرون يعقوب قرروا فيما بعد تغيير اسم الشارع الذي سمي تيمنا بيوسشكين لمعارضة هذا الاخير لمشروع يوغنده . (انظر كولومب ، المصدر السابق ، ص ٢٩) .

الانتخابات النيابية في بريطانيه عام ۱۹۰۰ يعكس على افضل وجه سعي الحركة الصهيونية لتوزيع تحركاتها على عدة جبهات ومستويات . اذ يخبرنا سوكولوف بان الاتحاد المذكور وجه رسالة الى جميع المرشحين طلب منهم فيها التعبير عن عطفهم على الصهيونية . وقد جاءه بين ۹۰ ـ ۱۰۰ جواب ، كان معظمها يلهج بالتأييد والتحبيذ (۲۳) . بينما نجد نوردو في المؤتمر الصهيوني الخامس (كانون الاول ، ديسمبر ۱۹۰۱) يرجع الى طريقته المعهودة في الحديث عن محنة اليهود ووصف الشعب اليهودي بمجموعة من « الناس الهوائيين» (Luftmenschen) او بالشعب الهوائي (Luftvolk) لانه لا يملك موطىء قدم من الارض التي تخصه ويبقى معلقا في الهواء ، دون ارض ثابتة يغرس فيها قدميه ويعيش عليها . وتتردد في خطابه صور الانسان الهوائي الذي يعيش ليومه غير مطمئن لغده ، بما يشبه الاعجوبة والصدف الاسطورية . وربما كانت النادرة التي يرويها بودنهايمر في مذكراته (٢٤) خير ما يعكس لنا احدى النواحي البارزة في التفكير الصهيوني عامة ولدى ماكس نوردو بشكل خاص . اذ اجتمع بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الخامس (۱۹۰۱) ، وفي

وحين عاد الاعضاء الروس في لجنة العمل الجديدة التي الفها يوسشكين الى بلادهم ، تنادوا الى عقد مؤتمر سري في خاركوف (Kharkof) ـ (تشرين الاول ، اكتوبر ۱۹۰۳) ـ ثم قرروا ارسال لجنة من قبلهم الى فيينه كي تطلب الى هرتزل توقيع تعهد خطي بالتخلي عن مشروع يوغنده قبل انعقاد المؤتمر السابع . وفي ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ۱۹۰۳ كان الطالب الروسي المتطرف حاييم سيليك لوباو يقوم بمحاولة لاغتيال ماكس نوردو في باريس اثناء احدى الحفلات الصهيونية الراقصة . والمعروف ان نوردو لم يشأ احراج هرتزل وهو ساعده الايمن وبكر اتباعه . فلجأ الى وصف استعمار يوغنده بانه من قبيل النزل الذي يقضي فيه المسافر ليلة قبل متابعة سفره الى حيث يقصد (Nachtasyl ملجأ ليلي) ! كما اكد هرتزل بان « افريقيه الشرقية ليست صهيون ولا يمكنها ان تكونها ابدا » .

والذي يمكن قوله بالتأكيد هو ان الصهيونيين الموالين لهرتزل وسياسته واولئك الذين دعوا لانتهاج مخطط عملي مباشر من بين اليهود الروس كانا يتنافسان على خطب ود اليهود المقيمين بفلسطين محاولين كسب تأييدهم واستقطابهم لصالح الجهة التي يمثلونها .

(٢٣) ـ انظر سوكولوف ـ تاريخ الصهيونية. المصدر السابق، ج١ ، ص٢٩٩
(٢٤) ـ راجع مذكرات بودنهايمر ـ المصدر السابق ، ص ١٣٠

الفندق الذي ينزله هرتزل ، كل من نوردو وماندلشتام وزانغويل وولفسون والاخوان مارموريك وتاشلينوف وبودنهايمر . ودار الحديث في تلك العشية عن المؤتمر الصهيوني القادم ، فاقترح بودنهايمر عقده في الولايات المتحدة الاميركية . بينما اضاف مارموريك بقوله ان الرحلة قد تكون اقل تكاليفا فيما لو تم استئجار سفينة خاصة للوفود الصهيونية . ولقي اقتراحه صدى حسنا فأردف احدهم بقوله : «عندئذ يكون المؤتمر باجمعه في عرض البحر» .

واستدرك زانغويل بقوله ان غرق السفينة يعني نهاية الصهيونية . بينما راح نوردو يؤكد للحاضرين ان كارثة ضخمة من هذا القبيل قد تثير ضجة تؤدي بدورها الى قيام زعماء جدد والتفاف آلاف الاتباع حول الراية الصهيونية . ونقل الكسندر مارموريك الحديث الى صعيد اخر مشابه حين قال بان هناك وسيلة اخرى يتمكن بها اعداؤنا من القضاء التام على الصهيونية . اذ ما عليهم الا قص لحية هرتزل الجميلة . فاجابه ولفسون بان لا جدوى في ذلك وستنمو اللحية من جديد خلال نصف سنة وتعود الصهيونية الى سابق عهدها بالحياة . ا هـ.

ولا غرو فان ما تندر به الزعماء الصهيونيون في مجالسهم الخاصة قد جاء خير شاهد مصداق لشتى الوسائل التي تفتق عنها ذهنهم واستنبطها ذكاؤهم في سبيل الوصول الى غاية الصهيونية وكسب مؤيدين لها بين يهود العالم .

***

بعد وفاة هرتزل

وحد الصهيونيون الروس صفوفهم في مؤتمر منسك(Minsk Congress) الذي انعقد في شهر ايلول (سبتمبر) عام ١٩٠٢ . وقد حضره حوالي ٥٠٠ مندوب يمثلون مختلف الفئات والتكتلات الصهيونية : من حزب الارثوذكسيين المتدينين مرورا بحزب الوسط او الجناح الديمقراطي(Democratic Fraction) الذي انتمى اليه امثال حاييم وايزمان آنذاك ، الى الاتحاد الاشتراكي للعمال اليهود في روسيه وبولونيه المعروف بالـ بوند (Bund) . وجرى في المؤتمر المذكور بحث مسألة التوفيق على صعيد صهيوني عام بين المتدينين والراديكاليين ، بالاضافة الى المسألة الثقافية وقضية الاستعمار اليهودي في فلسطين بنوع خاص . كما حاول المشرفون على المؤتمر ابداء رغبتهم في اقامة تعاون وثيق مع جمعيات الاستعمار اللاصهيونية بقصد المباشرة في ابتياع الاراضي الفلسطينية على نطاق واسع . مما يعكس بروز الاتجاه الداعي الى اعلان الخروج على برنامج بازل وفتح باب الاجتهاد في تفسير بنوده بتصرف ومرونة .

وقد اتخذ المؤتمر قرارات توجب استعمال الاموال التي في حوزة الصندوق القومي اليهودي لغاية وحيدة فقط : شراء الاراضي بفلسطين (١) . بينما نجد الحكومة القيصرية الروسية تبدي مخاوفها من اي تعاون مرتقب بين اليهود الاشتراكيين واليهود الصهيونيين ، لئلا يعمد الاشتراكيون الى استغلال البرنامج الصهيوني في سبيل نشر دعوتهم وافكارهم . فيسارع وزير الداخلية آنذاك ، فون بليفه (Von Plehve) الى اصدار تعليماته في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٠٣ لجميع الادارات والسلطات المحلية بمنع الاجتماعات الصهيونية وحظر جمع التبرعات للاغراض الصهيونية . كما انه امر بتحويل

---

١ ــ انظر مقالة «الصهيونية» في **الموسوعة اليهودية** ، المجلد XII ١٩٠٥ ، ص ٦٧٨

الاموال التابعة لصندوق الائتمان والصندوق القومي (*) لحساب جمعية اوديسه التي مر ذكرها كهيئة قامت لمساعدة العمال الزراعيين والصناع اليهود في كل من فلسطين وسوريه . ثم كانت زيارة هرتزل لروسيه في مطلع آب (أغسطس) ١٩٠٣ لمقابلة المسؤولين في الحكومة القيصرية والحصول على تعهداتهم بتأييد الحركة الصهيونية شريطة ان تحصر نشاطاتها بالعمل على خلق دولة مستقلة في فلسطين وتنظيم هجرة عدد من الرعايا اليهود الى هناك (٢) .

كما لا يفوتنا ان نذكر قيام حركة مزراحي على صورة تحالف بين العناصر اليهودية الارثوذكسية داخل المنظمة الصهيونية . فقد نشأت الدعوة اثناء انعقاد المؤتمر الخامس (١٩٠١) بمثابة رد فعل للاتجاهات الراديكالية التي تمثلت في اليسار الصهيوني وحركة عمال صهيون (Poale Zion) وتزعمها الحاخام ايزاك يعقوب راينس (Reines) الذي دعا لاجتماع سنوي عام في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٠٣ ، حين بلغت عضويتها حوالي ١١ الفا — على حد قول زعمائها . والمهم فيما يتعلق بموضوعنا ، هو ان حزب مزراحي درج منذ قيامه على التصويت الى جانب « الحكومة » ، أو تلك الفئة التي وقفت مع ثيودور هرتزل خلال سنواته السبع في رئاسة المنظمة والحركة وأيدت نشاطاته وأعماله وخطواته . وقد جاءت مقالة « الصهيونية » في الموسوعة اليهودية تؤكد لنا بما لا يقبل الشك ان الجناح الهرتزلي الذي تدعوه بـ « حزب الحكومة » — والكتل المؤيدة لهم امثال جماعة المزراحي — هو الذي « يرغب في انشاء وطن يضمنه القانون للشعب اليهودي في فلسطين

(*) — يروي بودنهايمر في مذكراته قصة « الصندوق القومي اليهودي » (Jewish National Fund) والملابسات التي رافقت وضع مسودة قانونه الاساسي على الصورة التالية : « لذلك كان لا بد من وضع كل كلمة في كفة ميزان الخبراء الانجليز . ومما سبب لنا الصداع في كثير من الاحيان مسألة تحديد شراء الاراضي وحصرها بفلسطين والمناطق المجاورة ، على الخصوص . فقد كان علينا ان نضع بوضوح ما الذي يجب فهمه من عبارة ، المناطق المجاورة ، او المتاخمة . وهكذا انتهينا اخيرا الى النتيجة التالية : اذ تعني المناطق المذكورة — سوريه وتركيه الآسيوية (التي شملت العراق آنذاك) وشبه جزيرة سيناء » . (انظر : **المصدر السابق** ، ص ٢٠٥)

٢ — المصدر نفسه .

والبلدان المجاورة » (٣) .

وبعد وفاة هرتزل انعقد المؤتمر الصهيوني السابع في مطلع آب (اغسطس) ١٩٠٥ ، واستفحل أمر النزاع الذي نشب بين « الصهيونيين الفلسطينيين » من جهة ، « والصهيونيين الاقليميين » (Territorialists) من جهة ثانية . وجرى تعديل قانون صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار ، بحيث اصبحت الفقرة المتعلقة بتفضيل فلسطين وسوريه كمسرح لتنفيذ المشروعات الاستعمارية تنص على ما يلي :

« في فلسطين ، وسوريه وأي قسم آخر من تركيه الآسيوية ، وفي شبه جزيرة سيناء وجزيرة قبرص » (٤) .

وانعكس ذلك كله على خطب ماكس نوردو وكتاباته بصورة واضحة . فهو يشدد في الخطاب الذي القاه اثناء المؤتمر السابع بان الصهيونية لا تحلم بالتآمر على سلخ فلسطين عن الامبراطورية العثمانية أو اعلان قيام مملكة أو جمهورية يهودية مستقلة . ولا يتورع عن وضع الحركة الصهيونية وجميع الامكانيات والطاقات اليهودية بتصرف الحكومة العثمانية واستعدادا للدفاع عن فلسطين ضد حركة اليقظة العربية التي يعترف بسعة انتشارها آنذاك ، اذ يقول :

« ان الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها ان تتخذ بسهولة وجهة سير تطال فلسطين ايضا . وهكذا تصبح أرض آبائنا من جديد ، وكما كانت غالبا عبر التاريخ ، محور اهتمام العالم السياسي ومحط انظاره . وقد تجد الحكومة التركية نفسها مضطرة للدفاع عن سيادتها وسيطرتها في كل من فلسطين وسوريه ضد رعاياها بالذات وبقوة السلاح » (٥) .

وفي وضع من هذا النوع ، يأمل نوردو ان تلتمع في ذهن الحكومة التركية بارقة الادراك التالي : هناك قيمة استثنائية بالنسبة للعثمانيين لو كان لهم في كل من سوريه وفلسطين ذلك السند والعون المتمثل بعناصر شعب وفيرة العدد ، تتمتع بالحيوية والقوة وحسن التنظيم . كما ان اليهود ، مع

---

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٨٤ .

٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٨٢ (للمزيد من التوسع في تفاصيل ذلك : راجع الفصل اللاحق عن مشروعات ديفيز تريتش) .

٥ ــ انظر نوردو Zionistische Schriften ــ المصدر السابق ، ص ١٧٢

احترامهم الكامل لحقوق السكان الاصليين ، ليسوا على استعداد للسماح بأي تهجم على سلطة الباب العالي او خرق لها . لا بل هم يجندون كل قواهم للدفاع عن السلطان .

وليس بمستبعد أبدا ان يكون نوردو آنذاك قد سبق له الاطلاع على افكار نجيب عازوري التي ضمنها كتابه « يقظة الامة العربية » (٦) . فالكتاب صدر في شهر شباط (فبراير) (١٩٠٥) ، وخطاب نوردو القي اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع في مطلع شهر آب (اغسطس) من العام نفسه . وقد قدم عازوري لكتابه المذكور بالعبارات التالية والتي جاءت مشحونة برؤيا ثاقبة لتاريخ المستقبل ، اذ قال :

« هنالك حادثان هامان من طبيعة واحدة ولكنهما متعارضان . وهما يقظة الامة العربية والجهد اليهودي الخفي لانشاء ملك اسرائيل القديم من جديد وعلى مقياس أوسع . ان مصير هاتين الحركتين هو الصراع المستمر الى ان تغلب احداهما الاخرى . ومصير العالم كله منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين » (٧) .

والمعروف ان نجيب عازوري عمل كمسؤول في الادارة العثمانية بمتصرفية القدس بين عامي ١٨٩٨ ــ ١٩٠٤ . وقد ترك وظيفته في العام نفسه من تعيين المتصرف الجديد ، أحمد رشيد بك ، الذي أيد الهجرة اليهودية علانية ولم يعبأ بتنفيذ القوانين التي أصدرها الباب العالي . الى ان جرى استبداله نزولا عند الضغوط العربية عام ١٩٠٦ بـ علي اكرم بك الذي قام بتنفيذ التعليمات الصادرة بحذافيرها ، وبقي في المنصب حتى قيام ثورة تركيه الفتاة (تموز (يوليو) ١٩٠٨) ، حين جرى نقله الى بيروت . وفي نهاية ١٩٠٤ أصدر نجيب عازوري بيانه التاريخي : « بلاد العرب للعرب » . (Les Pays arabes aux Arabes) . بينما يؤكد لنا ماندل بان الترجمة العربية للمنشور او البيان المذكور تحمل تاريخ الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥ ، وقد وصلت نسخ من البيان بالعربية والفرنسية الى فلسطين وانتشرت لدرجة حملت السلطات العثمانية على اعتقال بعض اعيان العرب في يافا وغيرها من المدن والقيام بتفتيش منازلهم وأوراقهم (٨) .

---

٦ ــ **Le Réveil de la nation arabe, Paris, 1905**

٧ ــ المصدر السابق ، ص ٧ .

٨ ــ انظر ماندل ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

ولا يسعنا النظر الى الآراء التي نادى بها ماكس نوردو في خطابه آنف الذكر الا من خلال اطار اليقظة العربية التي رفعت شعار « بلاد العـــرب للعرب » . كما ان نوردو لم يكتف بابراز الدور المرتقب للصهيونية من زاوية المصالح التي يطيب له ان ينسبها للامبراطورية العثمانية . بل يجد ضرورة في ايضاح المنافع التي تجنيها اوروبه من وراء « خدمات الشعب اليهودي » . ولا يسع الدول الاوروبية التي تقع في مأزق صعب كلمـــا تعرض النظـام العثماني في البلاد لهزة تهدده بالسقوط ، لا يسعها الا النظر بعين العطف :

« اذ يحول الشعب اليهودي عن طريق احتلالـــه المسالم ، بـــل الشديد ، لفلسطين دون احداث تغييرات بالقوة لأوضاع السيـادة التي يسري مفعولها هناك . ويجعل مـن تدخل الدول الكبـــرى مسألة لا لزوم لها ، مع العلم بان اخطار ذلك التدخـــل أصبحت معروفة تمـام المعرفة في اوساط الدبلوماسية » (٩) .

لذلك يترتب على الصهيونيين كسب ثقة العثمانيين والدول الاوروبية واقناع القيمين على شؤنهما بنواياهم الطيبة ومقدراتهـم . وفي لحظة غـير متوقعة قد يتيح تاريخ العالم فرصة لا بد من اغتنامها في الحال . وهكـــذا تقدمت لجنة العمل من المؤتمر الصهيوني السابع بمشروع القرار التالـــي ، مصرة على اعتباره نوعا من الحل الوسط بين الجبهات المتنازعة ، وبعد أن تم انتخاب نوردو رئيسا لحزب « صهيونيي صهيـون » (Ziyyone Zionists) الذي عقد اجتماعه التمهيدي في مدينة فرايبورغ (المانيه) وعلى مقربة مـن بازل السويسريـة :

« يعلن المؤتمر الصهيوني السابع ما يلي : تتمسك المنظمة الصهيونية دون تردد بالمبدأ الاساسي لبرنامج بازل ... وترفض ، سواء كـان ذلك غاية أم وسيـلة ، النشاطات الاستعمارية خارج **فلسطـين والاراضي المحاذية لها** . كما يقرر المؤتمر توجيه الشكر للحكومـة البريطانيـة على العرض الذي تقدمت بـــه في اقليم افـريقيـه

ملاحظة . كما انه ليس من السهل العثور على دلائل ثابتة تشير الى أصابـع الصهيونية وراء حملة الاعتقالات المذكورة ، وان يكن بطريـــق غـير مباشرة . هذا مع العلم بان التواطؤ الذي نشهده فيما بعد (١٩٠٨) قد تعود جذوره على الارجح الى زمن مبكر .

٩ ــ نوردو ــ **المصدر السابق** ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .

الشرقية البريطانية ... ويسجل شعوره بالرضا للاعتراف الـذي منحته الحكومة البريطانية للمنظمة الصهيونية في رغبتها لايجاد حل للمشكلة اليهودية ، ويعرب عن امله المخلص بالحصول على المساعي الحميـدة للحكومة البريطانية ، حيثما توافرت ، في كل مسألة قد يقوم بتنفيذها وفقا لبرنامج بازل » (١٠) .

فتكرس منذ ذلك الحين انقسام المنظمة الصهيونية العالمية على نفسها ، بعد ان ادى النزاع حول مشروع يوغنده الى خروج الذين تمنوا على المؤتمر السابع ان يقبل العرض الذي تقدمت به الحكومة البريطانية . وسرعان ما شكل هؤلاء تحت زعامة اسرائيل زانغويل « المنظمـة الصهيونية الاقليميـة العالمية » International Territorial Organization (والتي عرفت باسم « اتـو » I.T.O.) مؤكديـن بلسان رئيسهم ان اغلبية الاعضاء في المؤتمـر الصهيوني السادس كانت الى جانب الراي الاقليمي . بينما اصر صهيونيـو المنظمة على ان التصويت الذي تم آنذاك (٢٩٠ صوتا مؤيدا ، ١٧٨ معارضا و ٩٠ ممتنعا) لم يكن لصالح القبول بالعرض المقدم ، بل « مجرد تعبير على الروح الصحيحة التي يتطلبها استقبال التفافة كريمـة مـن هـذا النـوع وتفرضها الضرورات السيـاسية للساعة » (١١) .

وحين توفي هرتزل نشأت قضية خلافته في رئاسة المؤتمر ولجنة العمل وزعامة الحركة الصهيونية ومنظمتها العالمية . فجرى انتخاب لجنة اضافية الى لجنة العمل الصغرى تألفت من نوردو وولفسون وكاتزنيلسون وواربورغ وتشلينوف ويوسشكين والكسندر مارموريك وبودنهايمر وغرينبرغ ـ مع العلم بان دستور المنظمة لم يكن ليتضمـن نصا يخول تأليف لجنة اضافية من هذا القبيل (١٢) . واقترح البعض اسمـاء نوردو وولفسون وواربورغ لعضوية قيادة ثلاثية تخلف هرتزل وتحل محل اللجنة التنفيذية باعضائهـا الخمسة ، (Triumvirate) . غير ان نوردو اعتذر « لاسباب شخصية » . واستبعد اسم الحاخام موزس غاستر لترحيبه بفكرة المستوطن اليهودي في روديسيـه كما عرضها عليه سيسيل رودس ، مع العلم بانه عاد وعـارض

---

١٠ ــ انظر النص الكامل للقرار في مقاله « الصهيونية » ، **الموسوعة اليهودية**، ص ٦٨٠ ــ ٦٨١ .

١١ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٧٩ .

١٢ ــ انظر مقالة « الصهيونية » . **المصدر السابق** ، ص ٦٨٠ .

مشروع يوغنده بشدة . بينـــما تبنى الصهيونيون الروس ترشيح البروفسـور اوتو واربورغ عـــن المعارضة التي حملوا لواءها (١٢) . ونجح الصهيونيـــون الالمان ومؤيدوهم في ايصال دافيد ولفسون الى سدة الرئاسة بعـــد ان نال وعداً من سائر الفرقاء بمنحه تأييدهم تاما وغير منقوص . فشغل المنصب خلال الفترة الواقعة بيـــن ١٩٠٥ ــ ١٩١١ ، حين تمكن العمليون من ايصال مرشحهم واربورغ الى زعامة المنظمة التي بقي فيها حتى مجيء وايزمان في عام ١٩٢٠ .

وخلال رئاسة ولفسون اشتد ساعد العمليين وقويت دعوة المطـــالبة بالمباشرة في عمليـــات الاستعمار والإستيطان الفلسطيني على صعيـــد منظم ودون الإلتفات الى شتى الاعتراضات والعقبات . كما ان المنظمة الصهيونية توسمت كل خير في مجيء جماعة تركيه الفتاة الى الحكم في الاستانة (١٩٠٨) وعقدت شتى الآمال على تأييدهم ومؤازرتهم .

اما المؤتمر الصهيوني الثامن (لاهاي ١٩٠٧) فقد اتخذ القرار بمباشرة النشاط الاستعماري العملي في فلسطين على اوسع نطاق . وجـــــاء خطاب ماكس نوردو خير معبّر عن المناخ السائد داخل الحركة الصهيونية في تلك الفترة ، بالاضافة الى كونه استمرارا لخط التفكير الذي طالعنا حتى الان في كتابات الرجل وأقواله . ولا بد من استعراض الخطاب المذكور يقينا منا بان نوردو أصبح بعد وفاة هرتزل محط انظار الحركة على الصعيد العقيدي وشيخ الصهيونية الذي رافق مؤسسها وعايش تطورها خلال السنـــــوات العشر منذ قيامها .

يستهل نوردو خطابه في لاهاي (١٤ آب (اغسطس) ١٩٠٧) بعـــرض نشاطات الحركة ومنجزاتها في السنوات العشر الماضية ، لكي ينتقل ، جريا على عادته ، الى التصدي لمنتقدي الصهيونية والرد عليهم . فيؤكد ان عدم الفهم واساءته هـــي الـــتي حدت بالمنتقدين الـــى تشويه صورة الصهيونية باعتبارها كناية عـــن :

أ ــ ارتداد الى التعصب الديني

ب ــ ورفض للتقدم والمدنية والعلم في العصر الحديث ، لا بل رفض اوروبه وما تمثله مـــن حضارة ،

---

١٢ ــ راجع مذكرات بودنهايمر ، **المصدر السابق** ، ص ١٧١ ــ ١٧٤ .

ج ـ حنـــين الــى الآسـيوية (Sehnsucht nach Asiatentum) وحياة العزلة في الحي اليهودي المسور (Ghetto) (١٤) .

ثم يشدد في دفاعه بان الصهيونية متحررة من التعصب الديني الاعمى . وهي التي استطاعت ان تجمع على صعيدها ممثلي الاتجاه المحافظ في اليهودية الى جانب ممثلي الاتجاهات المتحررة . ويعلن بان تهمة « الاسيوية » « لا تخيفنا ، اذ نتعلم من مثال الشعب الياباني بان الجمع بين الآسيوي والتقدم الرفيع يمكنه ان يتم في آن واحد » (المصـــــدر نفســــه ، ص ١٧٥ ــ ١٧٦) . فالصهيونيـــة في نظره واثقة ومتمكنة مـــن اوروبيتها ، التي شبت وترعرعت في كنفها خلال الفي سنة ، لدرجة تجعله يهزأ من الـــــذين يهولون علـــى الصهيونيين زاعمين انهم سوف يتحولون الى آسيويين في فلسطين . وهـــو يطمئن المنتقدين والمتشككين بقوله ان الصهيونيين لـــن يتحولوا الى آسيويين بالمعنى الانثروبولوجي والحضاري لعقدة النقص ، كما لم يتحول الانجلـــو سكسون الى هنود حمر في اميركه الشمالية والى الهوتنتوت (Hottentoten) في جنوب افريقيه ، أو الى بوابيس (Papuas) في استراليه .

ويبلغ حماسه اشد مبلغ حين يصارحنا بقوله :

« سوف نبذل وسعنا لكي نعمل في الشرق الادنى ما عمله الانجليـــز في الهند ــ اعني بذلك : النشاط الثقـــافي وليس السيطـــرة (Herrschaft). نحن ننوي الذهاب الى فلسطين بمثابة الحملة المعتمديـــن للمدنية والتحضر ، ورسالتنـــا هي توسيـــع الحدود الاخلاقية (الادبية) لأوروبه **حتى تصـل الى الفرات** » (١٥) .

فلا حاجة بنا للتعليق على صراحة قوله أو التوقف عند المقارنة التـــي يطيب له ان يجريها بين الصهيونيين في فلسطين والانجليز في الهند من الزاوية الحضارية . بل يسترعي انتباهنا ذلك النمط الاستعماري المعروف مـــن التفكير التوسعي بحجة نشر الثقافة الاوروبية واداء رسالتها التمدينيـــة (La mission civilisante) حتى تصل حدودها الى الفرات !

ولا ينتهي نوردو من محاضرته قبل الاعلان عن النوايا الصهيونية مـــن زاوية العمران والرخاء والازدهار . فهو يؤكد ــ على غرار ما فعله سائـــر الصهيونيين عـــن سابق تصور وتصميم ــ بان فلسطين تحوي كثافة سكانية

---

١٤ ــ انظر نوردو **Zionistische Schriften** ، ص ١٧٥ .

١٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٦ . والتشديد على العبارة الاخيرة هو من عندنـــا .

ضئيلة ، مما يؤهلها لاستيعاب الملايين من المستوطنين المتحمسين للعمـل والذيـن « لا يمكنهم الانتعاش الا هناك دون سائر الامكنة » . لذلك نجـده يسرد القصة اليوتوبية من جديد على طريقته الخاصة ، فيقول :

« نريـد اعمال الحراث في تلك الارض المراحة (brach أو fallow) التي كانت يهودية في قديم الزمان ، واعطائها قيمة ، ثم جعلها معقلا للحضارة المزدهرة وتبادل السلع النشيط والنظام الامثل ، وذلك لخير الامبراطوريـة العثمانية والشعب اليهودي والانسانيـة جمعاء » (١٦) .

كما انه لا يستطيع تصور الدول والحكومات وهي تقف مكتوفة الايدي ، لا تستقبل هذه المساعي السامية بالتصفيق والتأييد . ولا يساوره الشـك ابدا بامكانية اقناع الحكومة العثمانية « بعظمة نوايانا وجدوى مشاريعنـا وفوائدها المثمرة . بل يذهب الى أبعد من ذلك ليتنبأ بدعوة مؤتمر دبلوماسي على نمـط مؤتمري لاهاي عام ١٨٩٩ و ١٩٠٧ (١٧) لايجاد حل عالمي للمسألة اليهودية . ويشترط في ذلك كله ان يستبق الصهيونيون هـذه التطورات العظمى ويجعلوا الشعب اليهودي على بينة مـن امره . وذلك بايقاظ الشعور لدى كل يهودي حول وضعه (محنة اليهود) والسعي لاقناعه ، اذا كان لا يرغب في زوال الشعب اليهودي ، بان استمراره على قيد الحياة لا تضمنه سوى سبيل واحدة لا غير : الصهيونية (١٨) (Die Zionistische Methode).

هكذا يحـاول ماكس نوردو استنباط حـل للخروج من مأزق المحنة التـي

---

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٦

١٧ ـ Hague Conferences : دعا القيصر نيقولا الثاني في آب (اغسطس) ١٨٩٨ الى عقد مؤتمر سلام عالمي لوقف سباق التسلح . واجتمـع المؤتمر في مدينة لاهاي من ايار (مايو) الى تموز (يوليو) ١٨٩٩ ، فحضره مندوبون عن ٢٦ دولة . لم يحقق المؤتمر المذكور شيئا يستحق الذكر في حقل نزع السلاح . الا انه تقرر فيه انشاء محكمة عدل دائمـة في لاهاي للفصل في « المنازعات التي لا تتناول قضايا الشرف او المصالح الحيوية » . وتم انشاء محكمة العدل الدولية عام ١٩٠١ . بينما انعقد مؤتمر لاهاي الثاني في حزيران (يونيو) ١٩٠٧ . وتمكن من الوصول الى سلسلة اتفاقيات تهدف الى الحد من ويلات الحروب . (انظـر : A.W. Palmer, A Dictionary of Modern History 1789 - 1945 (Penguin Reference Books, 1962) P. 147-8

١٨ ـ نوردو ـ **المصدر السابق** ، ص ١٧٨ .

يفتعلها على تلك الصورة .

وفي العام التالي (١٩٠٨) كان العمليون داخل المنظمة قد بداوا يشقون طريقهم نحو الاستعمار المنظم لفلسطين تحت الشعار الذي اطلقه البروفسور اوتو واربورغ في « سياسة التغلغل الاقتصادي » . وانطلق دعاة هذه السياسة من تصورهم القائل بانها تعتبر « امتدادا لسياسة اوروبه العامة في الخارج وتطبيقها على دائرة المصالح اليهودية » (١٩) . فتألفت اللجنة التي تقررت في المؤتمر السادس (١٩٠٣) واصبحت بعد ذلك الحين تعرف بـ « لجنة استقصاء احوال فلسطين » (Kommission zur Erforschung Palästinas) . وضمت في عداد اعضائها فرانز اوبنهايمر (٢٠) ، صاحب فكرة المستوطنات التعاونية (اذ اقترح عام ١٩٠٩ انشاء مستوطنات زراعية في فلسطين تقوم على المبادىء التعاونية التي عبر عنها في كتابه الصادر عام ١٨٩٦ (Siedlungsgenossenschaften) ، والمهندس الزراعي سوسكين ، بالإضافة الى عالم النبات ، أوتو واربورغ .

وسرعان ما اقترح واربورغ تكليف آرثور روبين بادارة مكتب فلسطين

---

١٩ ـ انظر Horace Meyer Kallen — **Zionism and World Politics** A study in History and Social Psychology (William Heinemann, London, 1921), P. 108

٢٠ ـ Franz Oppenheimer ١٨٦٤ ـ ١٩٤٣ : عالم اقتصادي يهودي الماني . درس الطب ومارسه ١٨٨٦ ـ ٩٦ ، ثم تركه الى دراسة الاقتصاد . واصبح استاذا في جامعة فرانكفورت عام ١٩١٩ . ثم استوطن في الولايات المتحدة بعد مجيء النازيين الى الحكم . تعرف بثيودور هرتزل وتقرب من الحركة الصهيونية فاستدعي لالقاء بحث امام المؤتمر الصهيوني السادس يعرض فيه أفكاره حول الاشتراكية الليبرالية . وحاول تمييز اشتراكيته عن الماركسية بالدعوة الى دمج الاصلاح الزراعي والفكرة التعاونية في حقل الزراعة . كما انه نادى بضرورة محاربة كبار الملاكين وقام بعدة تجارب لتطبيق نظرياته . وقد انشىء المستوطن التعاوني « مرحافيا » في فلسطين عام ١٩١١ بوحي من نظرياته ، لكن المشروع لم يلق النجاح الذي توقعه صاحبه الا بعد نهاية الحرب الكبرى . وجدير بالذكر ان اوبنهايمر كان استاذ مستشار المانيه الغربية الاسبق ، لودفيغ ايرهارد الذي يؤكد في شتى المناسبات اعترافه بالفضل وينسب العديد من أفكاره التي تحويها نظريته في (Soziale Marktwirtschaft) الى اوبنهايمر دونما تردد .

في يافا ، والذي جرى انشاؤه بمثابة وكالة تتبع اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية . وتأسست مع المكتب المذكور « شركة تطوير أراضي فلسطين » ، كما جرى افتتاح فرع لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار في الاستانة تحت اسم « الشركة المصرفية الانجلو ـ ليفانتينية » . وجرى ذلك كله وسط مظاهر الابتهاج بتدشين الدستور في تركيه !

وقد عبر البروفسور واربورغ ، ورئيس المنظمة منذ عام ١٩١١ ـ ١٩٢٠ ، عن السياسة الصهيونية بصدد فلسطين أصدق تعبير ، حين اطلق عبارته الشهيرة ضد الصهيونية السياسية التي أوشكت ان تجعل من الدعوة الصهيونية في نظره مجرد حركة خيرية تقوم على التبرعات والاحسان . فقال ما نصه بالحرف الواحد :

« ان الحق التاريخي الذي يستند على ملكيتنا لفلسطين قبل ألفي سنة لا مفعول له وحده وفي حد ذاته لدى الدول الكبرى . بل يتوجب علينا ايجاد صيغة عصرية لذلك الحق كي تضاف اليه . هذه الصيغة تقوم على تدليلنا ، ان لم يكن شرعيا أو حقوقيا (De jure) فبحكم الواقع الفعلي (De facto) ، بان فلسطين تخضع اقتصاديا لنفوذنا ، وان جميع ما احرزته تلك البلاد من تقدم كبير وملموس يرجع في الاصل الى مبادرتنا وقوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها ، ولم ينشأ الا بفضلها » (٢١) .

هكذا تتضح لنا مقومات سياسة التغلغل الاقتصادي التي أصبحت السياسة الرسمية والمعلن عنها للمنظمة الصهيونية بعد عام ١٩٠٨ .

---

٢١ ـ انظر Arno Ullmann, Hrsg. **Israels Weg zum Staat** : Von Zion zur Parlamentarischen Demokratie (dtv dekumente, München, 1964) S. 220

«Der Rechtstitel, dass wir vor 2000 Jahren Palästina besassen, ist bei den Mächten an sich und allein nicht wirksam genug, wir müssen uns dazu auch noch moderne Rechtstitel schaffen, und diese bestehen darin, dass wir den Beweis führen, dass wenn auch nicht de jure, so doch de facto Palästina wirtschaftlich unserem Einfluss untersteht und dass alle wesentlichen frösseren Fortschritte des Landes unserer Initiative und underen ökonomischen Machtmitteln ihren Ursprung verdanken. »

وما علينا سوى تذكر النوايا التي اعرب عنها ماكس نوردو حين صور الصهيونية بانها تريد التغلغل في فلسطين كحاملة معتمدة للمدنية الاوروبية ورسول توسيع حدودها الادبية أو الاخلاقية حتى تصل الى الفرات . وقد نشأ « مكتب فلسطين » آنف الذكر لوضع تلك السياسة موضع التنفيذ وبلورة ما أسماه واربورغ بالحق العصري الصحيح . كما ازدادت العلاقات وثوقا بين تقارب الصهيونيين من جماعة تركيه الفتاة وازدياد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية على اوسع نطاق واشمله . حتى كادت تبلغ ذروتها عند مطلع الحرب العالمية الاولى في سعي الصهيونيين الالمان وحلفائهم للحصول على « وعد بلفور » الماني يؤمن مصالح الاطراف المختصة ويضمن السيطرة الالمانية في البلاد العثمانية . وجاء ديفيز تريتش في كراسه الدعائي عام ١٩١٥ (« يهود تركيه ») ليعلن امكانات الوصول الى بسط الحماية الالمانية على اليهود والاسلام سواسية ، ويزعم في حججه بان اليهود يشكلون بمعنى من المعاني « عنصراً شرق ــ ادنوياً في المانيه ، وعنصراً المانياً في تركيه » (٢٢) .

لذلك ننتقل في الفصل التالي الى عرض الافكار التي نادى بها تريتش المذكور وعرفتها الاوساط الصهيونية منذ مطلع الحركة بدعوة « فلسطين الكبرى »(Das Grössere Palästina)، لنجد تريتش يحمل لواء الدعوة ، منذ اشتراكه في المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ، الى استعمار فلسطين والبلدان المجاورة لها : في سوريه وآسيه الصغرى وجزيرة قبرص والعريش.

---

٢٢ ــ انظر **The Balfour Declaration** — Leonard Stein المصد السابق ، ص ٢١٣ .

تريتش و « فلسطين الكبرى »

يرد ذكر اسم ديفيز تريتش (١) في معظم المصادر الصهيونية مقرونا على الدوام بالدعوة التي حمل لواءها منذ ١٨٩٥ الى الاستيطان والاستعمار اليهودي في كل من جزيرة قبرص وشبه جزيرة سيناء . كما ان نشاطه الصهيوني منذ ان حضر المؤتمر الصهيوني الاول قادما من اميركه يدور حول شتى المحاولات الرامية لحمل الحركة الصهيونية على تبني مفهومه الخاص عن « فلسطين الكبرى » والاقدام على توسيع برنامج بازل وتعديله بحيث يأتي منسجما في نصه وروحه مع الاسس التوسعية التي طالب تريتش باعتمادها . وحين لم يفلح في تحقيق ذلك خلال المؤتمرات الاولى ، استمر في بذل مساعيه مصرا على اللجوء الى وسائله الخاصة بغية تنفيذ السياسة التي دعا الى انتهاجها . حتى انه صرح فيما بعد ، اكثر من مرة ، بان في طليعة الاسباب التي حدت به على المجيء الى بازل كان ذلك الامل الذي راوده منذ ١٨٩٥ باستعمار قبرص مقرونا بتلك « الفكرة الطبيعية والجميلة عن الرجوع الى الارض القديمة » . وما ان طرق سمعه نبأ صدور « الدولة اليهودية » لهرتزل ، حتى قفزت الى مسرح ذهنه خاطرة الجمع بين مشروعه

---

١ ـ Davis Trietsch ١٨٧٠ ـ ١٩٣٥ . مولود في مدينة درسدن بالمانيه من اعمال مقاطعة سكسونيه . هاجر الى نيويورك في الثالثة والعشرين من عمره (١٨٩٣) واقام في الولايات المتحدة الاميركية حتى عام ١٨٩٩ ، فحصل على الجنسية الاميركية . ثم انتقل الى المانيه لمتابعة نشاطاته الصهيونية من برلين ، حيث عمل في حقل التأليف والنشر . وكتب في الموضوعات الاقتصادية والاستيطانية والاحصائية المتعلقة باستعمار فلسطين والبلدان المجاورة . وساهم الى ابعد حد في بث المعلومات عن جغرافية « فلسطين الكبرى » التي نادى بها ، من خلال المجلات والمحاضرات والنشرات والكتب التي قام باعدادها . فقد شارك منذ

من جهة وتلك الافكار التي عبر عنها كرّاس « الدولة اليهودية (٢) » ، من جهة ثانية . فهل كان ثمة توارد افكار وخواطر هناك بين تريتش وهرتزل ؟ لاسيما ونحن نعلم بان هرتزل نفسه فكر جدّيا بالحصول على قبرص وجعلها قاعدة للاستعمار اليهودي ، ثم مقايضتها مع تركيه لقاء فلسطين ومزيد من الدفعات المالية المغرية . اذ يتحدث في يومياته عن تلك الزيارة الاولى التي قام بها للاستانة (٢٠ حزيران ، يونيو ، ١٨٩٦) وكيف ان حاجب السلطان نصحه آنذاك باللجوء الى صفقة مقايضة . ثم يدوّن ، عقب سماعه

مطلع عام ١٩٠١ في تحرير المجلة الشهرية المصورة « الشرق والغرب » Ost und West التي كانت تعنى بشؤون اليهودية الحديثة . وحين تسلم مارتن بوبر رئاسة تحرير صحيفة « دي ڤلث » ، لسان حال المنظمة الصهيونية ، فتح امامه صفحات الجريدة المذكورة للتعبير عن آرائه ومشروعاته . كما انه اشترك مع بوبر بالذات وبرتولد فايفل وافرايم موشيه ليلين في تأسيس دار النشر الصهيونية بمدينة برلين ١٩٠٢ (Jüdischer Verlag) واسس في مطلع العام نفسه مع الفريد نوسيغ (Nossig) مجلة « فلسطين » (Palästina) الشهرية للاسهام في « استكشاف معالم فلسطين الإقتصادية والثقافية » (Monatsschrift für die wirtschaftliche und kulturelle Erscliess-ung Palästinas واعتبر تلك المجلة بأنها « الناطقة الرسمية بلسان حركة الاستعمار اليهودي في الشرق » (Zentralorgan der Jüdischen Kolonisationsbewegung im Orient) فأخذت تصدر منذ عام ١٩٠٤ تحت عنوان (Altneuland) عن اللجنة الصهيونية لفلسطين بصورة رسمية . زار فلسطين عدة مرات وهاجر اليها عام ١٩٣٢ . ثم توفي في تل ابيب .

٢ ـ نشر تريتش مقالة عام ١٩٢٢ بعنوان « لماذا ذهبنا الى المؤتمر الصهيوني الاول ؟ » و («Warum gingen wir zum ersten Zionistenkongress?» Berlin, 1922) تحدث فيها عن علاقته بهرتزل حول مسألةاستعمار قبرص،بالاضافة الىمقالته التيتناول فيها ذكرياته مع هرتزل(١٩٢٩). انظر : Oscar K. Rabinowicz — «Davis Trietsch's Colonization Scheme in Cyprus» في **كتاب هرتزل السنوي** ج٤ ، تحرير رافائيل

النصيحة ، الخاطرة التالية : « وفي الحال فكّرت بقبرص (٣) في اليوميات . غير انه على الرغم من محاولات مؤرخي الصهيونية الرامية الى نسبة فكرة قبرص لهرتزل ، فان تريتش هو صاحب الفكرة والمشروع المنبثق عنها ، باعتراف هرتزل نفسه . ولا داعي للتوقف عند مسألة تعيين الاسبقية في التفكير بقبرص ، فقد يصدق اعتبارها مجرد توارد في الخواطر بين الاثنين .

اما الثابت تاريخيا فهو ان تفكير اليهود بقبرص يرجع الى ما قبل ذلك الزمن بعدة سنوات . ويصلح بالتالي فهمه من خلال اطار التحركات السياسية والتوسعية البريطانية اثناء الربع الاخير من القرن الماضي . فقد جاء ريتشارد قلب الاسد على راس تلك الحملة الصليبية في ربيع ١١٩١ م – اي قبل تريتش وهرتزل باكثر من سبعمائة عام – ليحتل قبرص في الطريق الى الاراضي المقدسة التي ارغم على مغادرتها في خريف العام التالي (١١٩٢) ، وأقدم دزرائيلي فيما بعد باقتفاء خطوات ريتشارد تحت ستار المنطق الاستراتيجي للامبريالية البريطانية في ظل حكمه . فسارع الى الاستيلاء على قبرص بعد الحرب الروسية – التركية ١٨٧٧ – ١٨٧٨ . وتم توقيع المعاهدة التركية البريطانية في الرابع من حزيران (يونيو) ١٨٧٨ ، فوضعت ادارة قبرص بموجبها تحت الادارة البريطانية ، وابقيت للسلطان سيادة اسمية على الجزيرة (٤) .

بطاي ، نيويورك ١٩٦١ – ١٩٦٢ ص ١١٩ – ٢٠٩ . وقد صدر البحث المذكور في كتاب مستقل بعد ان جرى توسيعه :

A Jewish Cyprus Project, Davis Trietsch's Colonization Scheme (Theodor Herzl Foundation, Inc. Herzl Press, New York, 1962),

P. 8 وجرى الاعتماد على هذا الكتاب في كثير من المعلومات التي اوردناها عن مشروعات تريتش ونشاطاته الصهيونية ، الى جانب كتابات تريتش نفسه والتي امكن الحصول على بعضها او على مختارات منها .

٣ – **اليوميات الكاملة** ، ج ١ ، ص ٣٨٣ (اثناء المقابلة مع عزت بك العابد الدمشقي المولد) .

٤ – من الصعب التكهن بهوية كاتب المقال . فرئيس تحرير الصحيفة آنذاك لم يكن ابراهام بنيش Benisch (١٨١١ – ١٨٧٨) الذي توفي في ١٨٧٨/٧/٣١ . وهو المعروف بمشروعاته الرامية الى استعمار فلسطين

وفي التاسع من آب (اغسطس) من العام نفسه كانت صحيفة «الجويش كرونيكل » في لندن تعبّر عن الاصوات اليهودية المطالبة باستعمار قبرص بنشرها مقالا طويلا استعرض فيه كاتبه (٥) العلاقات التاريخية بين اليهود وقبرص . ومن جملة ما ورد فيه الفقرة التالية :

« كانت قبرص فيما مضى مقرّا لجالية يهودية مزدهرة . فما الذي يمنع من تكرار ذلك ؟ وهي تجتذب يهود سوريه (التي كانت تضم فلسطين آنذاك) بتلك المغريات التي قدمتها لليهود القدامى ، لا بل اعظم منها . وتبعد مسافة يوم في البحر عن اليابسة . لذلك قد تتاح الفرصة لاول مرة في تاريخ العالم امام يهود فلسطين كي يعيشوا في ظل تلك المؤسسات النافعة والصادرة عن اكثر المبادىء تنوّرا وليبرالية ، دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الهجرة الى مناخات نائية ويضطرون الى التخلي عن اسلوب حياتهم الشرقي (٦) » .

واقامة دولة يهودية هناك منذ ١٨٤١ في بريطانيه وطيلة رئاسته لتحرير الصحيفة المذكورة (١٨٥٤ ــ ١٨٦٩) و (١٨٧٥ ــ ١٨٧٨) . كما انه كان على صلات وثيقة ومكاتبات مع عدد من الشخصيات البارزة على مسرح الحياة البريطانية . فقد بعث له زعيم المعارضة آنذاك ، غلادستون ، ببطاقة مؤرخة في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٨٣٧ وبعد اعلان روسيه الحرب على تركيه بيوم واحد . ومما قاله فيها : « ان رسالتك طريفة للغاية . ولا يساورني شك بصحتها . لكن هل هي الحقيقة كلها ؟ اخشى ان يكون المسيحيون الشرقيون يضمرون مشاعر شديدة العداء ضد اليهود . ولكنهم على الرغم من ذلك اكثر تساهلا بكثير ، وعلى العموم ، من اللاتين » . (انظر صورة الرسالة الزنكوغرافية في :
The Jewish Chronicle : 1841 - 1941. A Century of Newspaper History (London, The Jewish Chronicle, 1949) P. 88 - 89

٥ ــ راجع برباره توخمان ، **المصدر السابق** ، ص ١٤٢ ، حيث تقول المؤلفة: « منذ زمن سحيق توقف ريتشارد قلب الاسد للاستيلاء على قبرص في طريقه الى الارض المقدسة . وحين استولى عليها دزرائيلي من جديد لبريطانيه عام ١٨٧٨ ، كان يعرف ان سوقيّات (Logistics) الامبراطورية سوف تؤدي الى التقدم التالي صوب فلسطين . وقد جعل ابتياعه للسويس تلك الخطوة محتومة » .

٦ ــ نقلا عن رابينوفتز ، **المصدر السابق** ، ص ٧ .

ولا شك ان المقصود من وراء الهجرة اليهودية الى قبرص لم يكن يهود سوريه وفلسطين ، على الرغم من اجتهادات رابينوفتز وتفسيراته ، بل هو جعل قبرص بمثابة قاعدة ينطلق منها الاستعمار اليهودي بعد تجميع قواه من اوروبه الشرقية لاقتحام فلسطين وتحقيق فكرة «اسرائيل الكبرى» في ظل الحماية البريطانية . فالحاصدي آرون ماركوس ، الذي مر معنا ذكره في فصل سابق، ورئيس تحرير صحيفة (Krakauer Jüdische Zeitung) في بولونيه ، راح ينشر الدعاية لفكرة استعمار قبرص بعد ان عرض على هرتزل انضمام ثلاثة ملايين حاصدي (Hassid) للحركة الصهيونية (٨ ايار ، مايو ، ١٨٩٦) ويدّعي « ان جزيرة قبرص حسب التلمود كانت جزءا من فلسطين (٧) » . بينما نجد هرتزل في جوابه عليه يقول : « ان كنت تقول ذلك كحاصدي ، فليس لديّ اعتراض . وانا ايضا اعتبر الحصول (على قبرص) عليها مكسبا هاما (٨) » . اما تريتش فقد نسب اهتمامه بقبرص الى ما قراه في الصحف البريطانية ، اثناء اقامته في اميركه ، عن النزاع الذي دار في بريطانيه عام ١٨٩٥ حول البقاء في الجزيرة او ضرورة الانسحاب كليا من هناك .

ويبدو انه لم يلقَ اذنا صاغية ابان انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول ووضع الصيغة الرسمية لبرنامج بازل . فرجع الى اميركه ليبعث برسالة الى هرتزل مرفقة بمذكرة حول مشروعه لاستعمار قبرص . وقد اجابه هرتزل آنذاك (٢٩ كانون الاول ، ديسمبر ، ١٨٩٧) طالبا اليه التريث لان « الوقت الحاضر غير مناسب للبحث في ذلك » . كما طمأنه الى « اننا نملك مجالات افضل من ذلك » . لكن هرتزل نفسه عاد في منتصف العام التالي (تموز ، يوليو ، ١٨٩٨) وعبّر عن فكرته « باعطاء الحركة هدفا اقليميا قريب المنال ، مع الاحتفاظ بصهيون كهدف نهائي (٩) » .

فجاء المؤتمر الثاني واقترح عدد من المندوبين على تريتش ان يبحث مشروعه مع المشرفين على « جمعية الاستعمار اليهودي » ، التي اسسها البارون دي هيرش ، في باريس ، حيث لم يستجب لدعوته احد . ثم تسنى له ان يعرض المشروع على صفحات « دي ڤلت » (١٨٩٩) واقامة اتصالات

---

٧ ــ في مقالة نشرها بصحيفة « دي فلت » عام ١٨٩٩ .
٨ ــ المصدر نفسه (نقلا عن رابينوفتز ، ص ١٤) .
٩ ــ انظر **اليوميات** ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

بصدده مع كبار الصهيونيين في فيينه . وحين انعقد المؤتمر الثالث وجد تريتش ضالته المنشودة في احدى فقرات القرار بانشاء صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار . وهي الفقرة التي تحدثت عن « سوريه وفلسطين » باعتبارهما الحقل الذي يمارس فيه الصندوق المذكور نشاطاته الاستعمارية . فقام يلقي خطابه الذي قوطع مرات عديدة حتى تسنى للاكثرية ان تصوّت ضد متابعته الكلام . ومما قاله :

« ان عبارة « سوريه وفلسطين » تبرهن على ادراكنا الغريزي . نحن نحتاج الى فلسطين كبرى واوسع . غير اننا رحنا نتطلع الى ذلك التوسع في الاتجاه الخاطيء . اليابسة تفرّق ، والبحار توحد . انتم تعرفون الان انني افكر بقبرص (١٠) » .

لكنه لم يقطع الامل كليّا ولم ينس عطف هرتزل على الفكرة . فاختار متابعة المشروع بالاعتماد على اتصالاته الخاصة . وأيده دافيد ولفسون («اول فكرة معقولة في الصهيونية») بالاضافة الى ماكس ماندلشتام والدكتور آفينوفتسكي . ثم انتقل الى برلين ، حيث الف لجنة من كبار الصهيونيين لترعى المشروع . فكان في عدادها اوتو واربورغ والدكتور هاينريخ ماير ـ كوهن والبروفسور لفين ، وليوبولد لاندور والبروفسور مارتن فيليبسون . وتم الاتفاق على ان يسافر واربورغ الى قبرص (تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٨٩٩) ، كي يلحق به تريتش بعد جولة في رومانيه لجمع المتطوعين للهجرة . وكتب تريتش الى هرتزل محاولا كسبه لاستبدال برنامج بازل ببرنامج فلسطين الكبرى ، قبل فوات الاوان ، لان من الصعب ـ على حد قوله ـ اكتساب يهود رومانيه لفكرة « فلسطين الصغرى » ، ما لم تصبح هذه في حوزة الصهيونيين . وبلغت به الصراحة مبلغ مطالبة هرتزل بان يتضمن برنامج بازل العبارة التالية « فلسطين الكبرى او فلسطين والبلدان المجاورة لها » . ولا معنى للبرنامج المذكور بدونها . اذ « كيف يمكنكم حشد عشرة ملايين يهودي في رقعة تبلغ مساحتها ٢٥ الف كلم مربع ؟ (١١) » .

بيد ان هرتزل ، كما دوّن في يومياته ، لم يشأ الاعلان عن عطفه على

---

١٠ ـ نقلها رابينوفتز (المصدر السابق ، ص ١٤) عن بروتوكول المؤتمر الصهيوني الثالث ، فيينه ١٨٩٩ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

١١ ـ راجع نص الرسالة في رابينوفتز ، ص ١٦ ـ ١٧ .

المشروع خوفا من اثارة جماعة احبّاء صهيون . حتى بات يمثل ازدواجية في الموقف ، لا بل اصبح عرضة للتنازع بين موقف رسمي يسارع الى اعلانه في المؤتمر وموقف خاص يعبّر عنه في اليوميات ، وبينه وبين نفسه . ولم يعبأ تريتش بكل ذلك ، بل مضى في التشديد على صحة تصوره « لفلسطين الكبرى » ، حيث يبدأ العمل من الاطراف متجها صوب نقطة الوسط . وراح يؤكد ان ما يدعو له هو الصهيونية الارضية الممكنة التحقيق ، وكل ما عداها مجرد نمط عصري من انماط الصلوات والابتهالات . حتى انه كتب يقول :

« ان مسألة قبرص لا تحتاج الى الصهيونية .

لكن الصهيونية تعتمد على قبرص (١٢) » .

وردّ على هرتزل في الرسالة نفسها مؤكدا ان « الصهيونية دون عمل » هي التجربة الخطرة وليس مشروعه هو لاستعمار قبرص .

وبينما كان واربورغ ينتقل من قبرص الى فلسطين قبل وصول تريتش للاقاته هناك ، اخذت معارضة ممثلي جمعية الاستعمار اليهودي في قبرص تشتد ضد كل تدخل في شؤون الجمعية . ووصل تريتش الى قبرص يتفحص الاوضاع ثم يرفع مذكرة بهذا الشأن الى المندوب السامي البريطاني في الجزيرة . كما انه عرض افكاره ومشاريعه ، وبرهن عن اطلاعه الواسع على احوال الجزيرة المعيشية وتقارير الحكومة السنوية ، بالاضافة الى عدد من المقترحات التي تقدم بها بغية اجتذاب رؤوس الاموال اليهودية . فهو يتحدث عن امتيازات للخطوط الحديدية وعن استخراج الملح بتأجير البحيرات المالحة لقاء رسم اسمي في السنوات الاولى . ويشرح حسنات زراعة التبغ ، بالاضافة الى تشييد مصحّة تجلب الاجانب الى الجزيرة وتساهم في تدفق الاموال عليها .

وبعد محادثات نهائية مع المسؤولين البريطانيين غادر قبرص في منتصف كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٩ متوجها راسا الى برلين كي يجتمع الى لجنة استعمار قبرص ويتباحث مع اعضائها في الخطوات الواجب اتخاذها . لكن واربورغ استطاع اقناع اللجنة باعتماد الحذر خوفا من الفشل الذريع وانسجاما مع موقف جمعية الاستعمار اليهودي السلبي . فحاولوا تخفيض عدد العمال الذي طالب به تريتش من خمسين الى ١٥

---

١٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٩ (رسالة الى هرتزل من مرفا ازمير) ١١ تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٨٩٩) .

عاملا . فسافر تريتش الى رومانيه من جديد . وسرعان ما تنبهت السلطات الحكومية الى احد الرعايا الاميركيين الذي راح يتدخل في شؤون هجــرة اليهود من رومانيه . فتمكن تريتش من مغادرة البلاد قبــل وصول القرار بطـرده .

وسافر الى لندن . ثم بعث برسالة ثانية الى المندوب السامي (شباط ، فبراير ، ١٩٠٠) ، بينما كان مدراء صندوق الائتمان اليهـودي للاستعمار يجتمعون في مدينة فيينه ، تتنازعهم مشاعر الولاء والتأييد او التريث بانتظار الدعم المادّي . ولم يكن تريتش هذه المرة ايضا بمنأى عن التهجمات الشديدة على شخصه ومحاولاته. غير ان صحيفة «دي فلت» اعتصمت بالصمت حتى عشية انتقال الجماعة الاولى من اليهود الرومانيين الى قبرص. وتألفت في برلين «لجنة عمال بورسيلاف» (Berlin Committee for the Boryslav Workers) بينما كان تريتش يشرف على ترتيبات السفـــر ويرافق المهاجرين الــى بور سعيد ومنها الى يافا .

وهنا تحضرنا اوجه الشبه العديدة بين مغامرة بول فريدمان لاستعمار ارض مدين قبل عقد من السنين تقريبا ومشروعات ديفيــز تريتش لتوطين اليهود الرومانيين في قبرص ، كخطوة اولى لتحقيـــق « فلسطين الكبرى » انطلاقا من الاطراف . غير ان تريتش بذل ما بوسعه للظهور بمظهر من لا صلة له بلجنة برلين الآنفة الذكر . مع العلم بانه مثّل اللجنة كطرف في الاتفـاق الذي طلب الى كل فرد توقيعه والتعهد بالسير وفقا لشروطـه ونصوصه . ووصلت جماعة من اليهود الرومانيين التابعين لجمعية اخرى دون اجـــراء الترتيبات اللازمة مع تريتش واللجنة . فسرعان ما بدات المشاكل تنهش في احلام تريتش ، حين رفض القادمون الشروع في العمل ظهر يوم الجمعـــة واصروا انهم ما تعودوا ذلك في بلادهم ، بل كرّسوا بعد الظهر لاستعدادات السبت ! وانهالت الشكاوى والتذمرات من المناخ والطعام والاجـــور . ثم رفض القادمون من مناطق مختلفة العمل سوية . مطالبين بالتمييز في المعاملة لتفوقهم . ولم يكن مصير نفر منهم ليختلف عن المصير الذي لاقاه جماعـــة فريدمان من قبل في ارض مدين .

فتجددت الحملات على تريتش في الصحف وانقسم الاعضاء داخـــل المنظمة الصهيونية بين مؤيد ومعارض . وحاول الدفاع عن نفسه علـــى صفحات « دي فلت » والتنصل من شتى التهم التي نسبت الى المغامرة . بينما كان ينتظر حوالي ٢٥٠ يهوديا رومانيا دورهم في مرفأ بيريوس ، وسط

التصريحات والنداءات بالاستغاثة . ونشرت الصحف اليهودية مقالات مطوّلة عن مغامرة قبرص فأصرت على اعتبار مجيء المهاجرين قد حصل « نتيجة للدعاية التي بثها تريتش » في اوساطهم . وحاول تريتش ان يدافع عن نفسه . غير ان المحاولة الاولى قد باءت بالفشل . بينما راح هرتزل يدوّن في يومياته بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الرابع (لندن ١٩٠٠) ما يلي :

« سوف نحتشد في قبرص وننطلق منها في يوم من الايام الى ارض اسرائيل لكي نستولي عليها عنوة ، كما اخذت منا في قديم الزمان .... ولو حصلت المانيه على قبرص ، فسوف تبقى امامي فيما بعد فرصة المحاولة لتسوية المسألة عن طريق اويلنبورغ والدوق الاكبر ... وسوف اتقدم بمشروع قبرصي من المؤتمر القادم . ربما تمكنت من الحصول على دعم المليونيرية الكبار له مسبقا .... كما انني سأعلن امام المؤتمر الخامس (١٩٠١) بان قبرص ليست سوى بعد خطوة على الطريق الى فلسطين ، وان استيلائنا عليها سوف يحمل تركيه على الاقتناع بجدية موقفنا (١٣) » .

وقد كتب الخواطر الواردة اعلاه اثر قراءته لمقالة تتحدث عن مقايضة ممكنة بين بريطانيه والمانيه : اذ ستتخلى بريطانيه عن جزيرة قبرص لقاء حصولها على افريقيه الشرقية الواقعة تحت النفوذ الالماني . وبذلك تتمكن من حماية القيمة الاستراتيجية والتجارية للخط الحديدي الذي يمتد بين القاهرة ومدينة الكاب . بينما يعتبر حصول المانيه على قبرص مكسبا بالغ الاهمية ، يفوق افريقيه الشرقية من شتى النواحي . فقد تصبح الجزيرة بمثابة قاعدة للمطامع الالمانية في الشرق الادنى ومحطة على الطريق المؤدية الى ممتلكات الامبراطورية الالمانية في الشرق الاقصى . وتغدو اهميتها بالتالي كقاعدة لانطلاق العمليات العسكرية ، في حال لجوء المانيه الى الدفاع عن مصالحها في آسيه الصغرى بقوة السلاح . على ان حماس هرتزل للفكرة يحمله على التفكير بالكتابة الى الكونت اوغست اويلنبورغ ظنا منه بان امبراطورية غليوم الثاني لا بد لها من الترحيب بالاستعمار اليهودي في قبرص (١٤) .

اما ديفيز تريتش فقد وجد نفسه في شبه عزلة سياسية بعد فشل المحاولة الاولى ، واتاح له تسلم صديقه المعارض لهرتزل ، مارتن بوبر ،

---

١٣ ــ انظر **اليوميات** ، ج ٣ ، ص ١٠٢٣ ــ ١٠٢٤ .
١٤ ــ راجع المصدر نفسه ، ص ١٠٢٣ .

لرئاسة تحرير « دي فلت » فرصة جديدة لعرض آرائه ومشاريعه . ثم انصرف في مطلع عام ١٩٠١ الى العمل في حقل الصحافة والنشر الصهيونيين ، حيث تابع دعوته من خلال الكتابة حول موضوع النشاط الصهيوني والسياسي في بلاد الدياسبورا (Gegenwartsprogramm) و (Gegenwartsarbeit) . بينما فتحت صحيفة « دي فلت » صدرها امام مقالات تدور حول « قطعة منسيّة من فلسطين » و « مستقبل الشرق » و « فلسطين المصرية » (١٥) .

ولقد ظهر بوضوح آنذاك اصرار الصهيونيين الالمان على عبارة «الاراضي المجاورة » ، بينما سارعت اشتراكية سيركين الى التشديد على « فلسطين والبلدان المجاورة » . وجاراهم الصهيونيون النمساويون في الدعوة الى توسيع رقعة النشاطات الصهيونية لتشمل البلدان الواقعة خارج نطاق فلسطين . فتبلورت في تلك الاثناء دعوة استعمار وادي العريش التابع للسلطة المصرية باعتباره « القسم الجنوبي الشرقي من فلسطين القديمة » والتي اطلقوا عليها تسمية « فلسطين المصرية » . كما ان تريتش ذهب الى المؤتمر الصهيوني الخامس كمندوب عن برلين لكي يطالب بتعديل برنامج بازل اثناء عرض القانون الاساسي الجديد للمنظمة الصهيونية على المندوبين لاخذ موافقتهم عليه ، فاقترح النص التالي :

« تسعى الصهيونية الى ايجاد وطن في فلسطين والبلدان المجاورة لها يضم اكثرية اليهود ، ويكون مضمونا من جميع النواحي (١٦) » .

ومما يجدر بنا ذكره هو ان تريتش لم يجد سوى خطاب ماكس نوردو حول « الصهيونية ومعارضيها » لكي يستشهد منه بتلك الفقرات المتعلقة بطاقة فلسطين وقدرتها لاستيعاب ١٢ ــ ١٥ مليونا من الناس ، مع العلم التام بان فلسطين تشمل البلدان المجاورة . وعلى الرغم من ظل مغامرة

---

١٥ ــ انظر رابينوفتز ، **المصدر السابق** ، ص ٤٧ .

١٦ ــ نقلا عن رابينوفتز ، المصدر نفسه ، ص ٥١ (بروتوكول المؤتمر الصهيوني الخامس) . وقد اتهم كل من تريتش ونوسيغ زعامة الحركة آنذاك بانها لم تلاحق مشروع العريش كما يجب . وصرح تريتش كذلك بان رفض العرض الذي تقدم به السلطان لاستعمار مناطق متفرقة في الامبراطورية العثمانية كان خطأ فادحا . (انظر (Böhm,Op. cit., P. 166

قبرص الذي خيّم على تريتش آنذاك ، فقد حقق انتصاره من خلال مناقشة نشاطات « صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار » التي جرت على اسس توسعية ــ كما سبق ومر معنا . وكتب رابينوفتز في دراسته محاولا تقييم تلك المرحلة بقوله :

« مع ان تريتش لم يحقق نتائج عينية ومحسوسة في المؤتمر الخامس ، فقد كان باستطاعته مغادرة بازل مصحوبا باحساس الاكتفاء والرضا : اذ بدات جذور افكاره تمتد وتكتسب الاعتراف بها ... (١٧) » .

وفي المرحلة التالية من نشاطه الصهيوني نجده ينصرف كليا الى مجلة « فلسطين » (Palästina) التي أسسها في مطلع عام ١٩٠٢ بالإشتراك مع الفريد نوسيغ (Nossig) لتكون اداة الكشف الثقافي والاقتصادي عن معالم البلاد . وقد جاءت الاهداف التي نص عليها العدد الاول تنص على معارضة صريحة للنهج الهرتزلي الذي اعتبر مسألة الحصول على براءة لاستعمار فلسطين بمثابة الخطوة الاولى في تحقيق برنامج الصهيونية السياسية . وتعكس تلك الاهداف اتجاه الصهيونية العملية في اجلى مظاهرها ، اذ تنادي بما يلي :

أ ــ الابتعاد كليا عن سياسة « انتظار الخلاص على يد البراءة » (Charter-messianism) والتي حالت دون ممارسة اي عمل ايجابي في فلسطين وأدت الى شل القوى الصهيونية في الحركة .

ب ــ الشروع بالعمل المباشر (Gegenwartsarbeit,) ، مع القيام بنشاطات تمهيدية تتناول اكتشاف معالم فلسطين وشراء الاراضي والاستعمار .

ج ــ توسيع النشاطات الاستعمارية الى البلدان المجاورة لفلسطين ، وخاصة تلك المناطق الخاضعة للحكم البريطاني ، كالعريش وقبرص (١٨) .

كما ان تريتش لم يتوقف عن الدعوة الى « فلسطين الكبرى » . فأخذ على عاتقه مسؤولية اقتراح انشاء « مكتب للهجرة » (Emigration office) يقوم بجمع المعلومات المتعلقة بالهجرة اليهودية والمناطق المتوفرة للاستيطان ، كمقدمة لبثها ونشرها . وفكّر بالحصول على تعاون في هذا الحقل من

---

١٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

١٨ ــ انظر رابينوفتز ، المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

جانب المؤسسات والمنظمات الصهيونية في العالم . حتى كانت اخر محاولاته في القيام بعمل مستقل، والتي تجسدت في اخذه زمام المبادرة لتأسيس «الشركة اليهودية لاستعمار الشرق (Die Jüdische Orient-Kolonisationsgesellschaft) وقد جرى تسجيلها في برلين : ٣٠ آذار (مارس) ١٩٠٣ . وكان فرانز اوبنهايمر (الذي كان يقول عن نفسه انها تتألف من ٩٩ ٪ من كانط وغوته وواحد بالمئة فقط من العهد القديم) في عداد القيمين على شؤونها ونشاطاتها .

ثم انتشرت انباء مشروع استعمار سيناء والعريش في غمرة استعداد تريتش ورفاقه لتدشين نشاطات جمعيتهم او شركتهم . فتحمس تريتش من جديد لحلمه القديم ، وادّعى لنفسه حقوق الاسبقية . ونشب نزاع بين اللجنة المركزية للاتحاد الصهيوني الالماني وجماعة تريتش من الصهيونيين البارزين . فراح تريتش يقتفي اثر خطواته الماضية ليوجه رسالة الى المندوب السامي البريطاني في قبرص (برلين في ٢٦ حزيران ، يونيو ، ١٩٠٣) يذكره فيها بالاهتمام الذي سبق له وابداه بشؤون قبرص من زاوية الاستعمار اليهودي ، ويتحدث عن دراسته بعنوان « مستقبل قبرص » على امل اظهار أهمية الاستعمار اليهودي في تطوير الجزيرة وانتعاشها . ثم استعرض له نشاطات الشركة واستعدادها لرعاية غرس أشجار الزيتون وغيرها لقاء حصولها على مساحات من الاراضي . وانتظر الجواب الذي تأخر وصوله . بيد ان اوبنهايمر استقال من الشركة ــ الجمعية في تموز (يوليو) ١٩٠٣ ، واقترب موعد انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس في آب (اغسطس ؛ ١٩٠٣ . فذهب الى بازل بصحبة شريكه في رئاسة تحرير مجلة « فلسطين » ليشهد انهيار الحلم الذي رعاه طيلة السنوات الماضية ويهاجم الذين سعوا في سبيل مشروع سيناء والعريش لانه اعتبر هذه المناطق جزءا من الوطن اليهودي . وابدى تعجبه من الدعوة التي وصفها « بالتخلي عن جزء من الوطن ، اي القطاع الجنوبي ــ الشرقي من فلسطين ، بسبب مجرد النقص في المياه » (٢٠) فكانت بداية الشقاق مع هرتزل والافتراق عنه .

وتابع ترتيش مراسلاته مع المسؤولين في الحكومة البريطانية محاولا الحصول على تأكيدات بفتح قبرص امام الهجرة اليهودية ، لأن « قبرص ليست البلد الذي قد يقصده المستوطنون البريطانيون ابدا » . وحين وافق المؤتمر الصهيوني السادس على مفاوضات هرتزل مع السلطات البريطانية

---

٢٠ ــ انظر رابينوفيتز ، **المصدر السابق** ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

بصدد ارسال بعثة الى افريقيه الشرقية واعلن تريتش معارضته لمشروع يوغنده، كانت دائرة افريقيه في وزارة الخارجية البريطانية هي التي انصرفت الى النظر في مشروع تريتش القبرصي تحت عنوان « المشروع المقترح لتوطين اليهود في قبرص ويوغنده » (٢١) ، مما جعل المشروعين وكأنهما قد صدرا عن تريتش وحده ــ على حد قول رابينوفتز . وبعد أخذ ورد خالطه استعلام عن شخص تريتش ودخله السنوي ، جاءه الجواب بان الحكومة البريطانية تأسف ، نظرا للمشاعر المحلية السائدة في قبرص ، لعدم استطاعتها حمل حكومة الجزيرة على منح المستوطنين اليهود اية شروط استثنائية . وتؤكد في الوقت نفسه على ضرورة اخضاع المستوطنين للقوانين العادية المتعلقة بشراء اراضي التاج البريطاني . ثم حصل تريتش على عرض لشراء بضع مئات من الأكر (Acres) لقاء ثلاثين دولارا للأكر الواحد . لكن المؤتمر السادس جاء بمثابة ضربة موجهة لتريتش ومشاريعه . مما كاد يحول دون النجاح في جمع المال اللازم أو العثور على المستوطنين الملائمين . وهكذا وجدت ثالثة المحاولات لاستعمار قبرص نهايتها وتلاشت تدريجيا .

حتى ان هرتزل لم يجد تعليقا يردده اثناء الجدال حول الصهيونية السياسية والصهيونية العملية سوى ما سبق له قوله : « ان المستر تريتش هو بارون دي هيرش آخر بدون مال . . . لأن هؤلاء الناس يرمون الى تحقيق ذلك الشي بدون مال ، وهو ما لم يستطع البارون دي هيرش تحقيقه بالمال » (٢٢) .

---

٢١ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٩١ (نقلا عن بروتوكول المؤتمر السادس) .

عقيدة البلدان المجاورة

قد لا تقوم أهمية ديفيز تريتش في تاريخ الحركة الصهيونية ومكانته في الفكر التوسعي الصهيوني على مشروع استعمار قبرص وحده ، بقدر ما تقوم على مساهمته الفعالة في التعريف بفلسطين الكبرى التي يريدها ، وذلك عن طريق نشر المعلومات والأبحاث المتعلقة بدعوته لاستعمار البلدان المجاورة لفلسطين . فبعد وفاة هرتزل واشتداد الخلاف داخل المنظمة والحركة يسارع تريتش الى كتابة عدد من المقالات في مجلة (Altneuland) ويستعرض فيها أفكاره من جديد ، على أمل التأثير في المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) واكتساب مزيد من المؤيدين لصالح دعوته (١) . ويمضي في حملته للتعريف بفلسطين الكبرى التي يطالب بها ، فيقرر اصدار « دليل سياحي » يضمّنه شتى المعلومات والنظريات . وقد ظهرت الطبعة الاولى بالعبرانية في القدس عام ١٩٠٦ ، وتبعتها الألمانية (برلين ، ١٩٠٧) والانجليزية (لندن ، ١٩٠٧) .

وفي تلك الاثناء كان تريتش يتعاون الى أقصى الحدود مع مختلف الهيئات والمؤسسات الصهيونية الرسمية ، ويساهم الى حد بعيد في جمع المعلومات المتعلقة بفلسطين الكبرى والبلدان المجاورة لها في مناطق شرقي المتوسط (٢) . فهو يذكر ، مثلا ، في مطلع دليل فلسطين « السياحي » بانه

---

١ ــ انظر ما قاله تريتش بالذات حول هذه النقطة ، حين أعاد نشر تلك المقالات في « دليل فلسطين » الذي اقترن باسمه ايضا : Davis Trietsch **(PALESTINA Handbuch)** 2. Aufl. revisedand enlarged (Orient Verlag, Berlin-Schmargendorf, 1910 P. 282). وقد اعتمدنا الطبعة الثانية ، المزيدة والمنقحة ، لعام ١٩١٠ .

٢ ــ من بين المنشورات الاخرى التي ألفها ترتيش وأصدرها :
1) «Fortschritte der landwirtschaftlichen Kolonisation in Palästina».

استمد الكثير من معلوماته ومواد كتابه عن طريق المنظمات التالية :
مكتب المعلومات العام لفلسطين (في يافا)
جمعية « عزرا » للاستعمار (برلين)
المكتب الألماني للشركة الانجلو ــ فلسطينية (لندن)
جمعية تمزرا للاستعمار (برلين)
اللجنة المركزية للصهيونيين الروس (فيلنه)
الاتحاد الصهيوني لعموم المانيه

كما يحاول اجراء بعض المقارنات بين الاستعمارين الألماني واليهودي في كل من سوريه وفلسطين ، بالاستناد الى ما كتبه غيره حول المعرفة بأحوال سوريه من حيث طبيعة أرضـها واقتصادها الزراعي (٣) فيستشهد بآراء

كراس مع خريطة واحصاءات للمستعمرات تحدث فيه عن منجزات الاستعمار الزراعي في فلسطين (Verlag des «Esra», Berlin, 1907)

2) «Probleme der Jüdischen Emigration und Kolonisation»
مشاكل الهجرة والاستعمار اليهوديين .
برنامج فلسطين الصهيونية «Das Zionistische Palästina Programm»
(Orient Verlag, Berlin, 1910)

3) Hrsg. Levante - Handuch دليل الليفانت
نظرة عامة في الاوضاع الاقتصادية لكل من تركيه بقسميها الآسيوي والاوروبي ودول البلقان المسيحية ومصر وطرابلس الغرب (Orient Verlag, Berlin 1909)

4) Hrsg. Handbuch Marokkos und Persien. Gea - Verlag, Berlin, 1910)
دليل مراكش وبلاد فارس بالاضافة الى الجزائر وتونس والمناطق الاسبانية في شمال افريقيه ، وافغانستان وبلوخستان . وهو بمثابة تتمة لدليل الليفانت، اذ يشمل كلاهما منطقة البلدان الاسلامية بكاملها.

5) Jüdische Emigration und Kolonisation (Berlin 1917)
الكتاب الذي استعرض فيه تاريخ الاستعمار اليهودي ووصف جهوده بالذات في صورة مفصلة ومطولة .

٣ ــ Hubert Auhagen : Beiträge zur Kenntnis der Landesnatur und der Landwirtschaft Syriens, 1907

هؤلاء حول أهمية الإستعمار الـكبرى في تطوير سوريه ، لـكي ينتقل الى الحديث عن دور العنصر البشري في حقل التنمية الاقتصادية . ثم يربط بين تنفيذ شتى المقترحات المتعلقة بتحسين الاقتصاد وتوفر العنصر البشري الذي يأخذ على عاتقه مسألة التحقيق وادخال التحسينات . فالألمان قدموا مساهمات قيمة في حقل الاكتشاف الحضاري للبلاد . وقد بينوا ، فضلا عن ذلك ، الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك . غير ان مسألة الاستعمار على نطاق واسع وشامل ، « كما تدعو حال سوريه الى ذلك » ، ليست من شأنهم بتاتا . ومن هذه الزاوية بالذات تبرز اهمية الحركة الصهيونية بالنسبة لهذه البلاد الخالية من الناس (menschenleere) . اذ يتوق الآف والآف من الفلاحين اليهود في روسيه ورومانيه للاستيطان في «ارض آبائهم واجدادهم». ويملك هؤلاء مقدرة انتاجية تفوق حد التصور . (ا هـ)

وما يسترعي انتباهنا في «دليل فلسطين» هذا، هو الفصل الذي عقده تريتش في مطلعه بعنوان «تعريف فلسطين» (Definition von Palästina) (٤). فقد بدأ بالاشارة الى ان تسمية فلسطين تعني منطقة جرى تحديدها في اوقات متفرقة ومن مصادر متعددة بصورة مختلفة . وجاء على ذكر ارض كنعان بتخومهـا التي يرد ذكرها في سفر العـدد (٣٤ : ١ ـ ١٢) وسفر التكوين (١٥ : ١٨ ـ ٢٠) ابان الكلام عـن الميثاق الذي قطعه الرب مع ابراهيم : « من نهر مصر الى النهر نهر الفرات » . وزعم تريتش ان اليهود الفلسطينيين « حتى ايامنا هذه » لا يعتبرون المسافر الى خارج البلاد ، الا من اجتاز حلب في الشمال والاسكندرية في الجنوب . (المصدر نفسه ، ص ١٤) .

كما انه يرى ضرورة التنبيه الى ان عبارة « ارض اسرائيل(Erez Israel) التي غالبا ما يجري اطلاقها على فلسطين ، لا تدل على فلسطين . بل على « أرض السبي أو الاسر (Das Land der Gefangenschaft) التي تعني تلك المقاطعات المعينة لسكنى اليهود في بابل . حتى انهم كانوا يتحدثون عن هذه وتلك بقولهم : « لقد ذهب من أرض اسرائيل الى فلسطين » . (٥) ويعترف بان الحدود زمن الحـكم الذاتي الاسرائيلي القديم كانت بصورة مستمرة

---

٤ ـ انظر « دليل فلسطين » (Palaestina Handbuch) ، المصدر السابق ، ص ١٣ ـ ١٥ .

٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤ .

عرضة لشتى التعديلات والتغييرات . ثم يؤكد في ضوء الواقع التاريخي بان التخوم الوارد ذكرها في اسفار العهد القديم لارض كنعان ، لم تكن ابدا مطابقة للحدود الواقعية الراهنة . لذلك ينصرف ترتيش الى البحث عما أسماه بتعريف معقول (**eine vernünftige Definition**) لما يجب علينا اعتباره بمثابة « فلسطين اليوم » . وعلى الرغم من اعترافه بان « الصورة التي نرسمها للتقسيم الاداري لـدائرة الارض الفلسطينية تبين لنـا بان **مفهوم فلسطين** لا يلعب اي دور في تقسيم الولايات العثمانية » (٦) ، فانه يجد نفسه ملزما بأخذ المسائل التالية في عين اعتباره لكي يتسنى له «تركيب حدود لفلسطين» (**eine Grenze zu kombinieren**) لذلك يسعى الـى اعتماد المصادر الاربعة التاليـة :

أ ـ التاريخ القديم

ب ـ التقسيم الاداري الحالي للولايات العثمانية

ج ـ الصلات والاوضاع الثقافية

د ـ العديد من التقاليد المتوارثة (٧)

ومع العلم بان ترتيش يعترف مرارا وتكرارا بكون « فلسطين » لا تشكل مفهوما جغرافيا عصريا ، بل جزءا من سوريه ، فانه ينتقل لانجاز تركيبته على الصورة التالية ، تتألف فلسطين العثمانية في نظره مما يلي : ـ

١ ـ ذلك القسم من ولاية بيروت الواقع الى الجنوب من متصرفية جبل لبنان المستقل .

٢ ـ ذلك القسم من ولاية دمشق الواقع الى جنوبي جبل حرمون .

٣ ـ متصرفية القدس الخاضعة لحكم الإستانة مباشرة .
يضاف الى ذلك « ضمن الحدود التقليدية الضيّقة » :

٤ ـ تلك الرقعة مـن الارض الخـاضعة لـلادارة المصرية ، التي تعتبرها الجغرافية العصريّة جزءا مـن شبه جزيرة سيناء المصريـة . فهي « تشكل مثلثا قاعدته الشمالية تمتد من تل رفح على الشاطىء الى وادي العريش (Bach Aegyptens) . وينطلق مـن هـذين الطرفين

---

٦ ـ المصدر نفسه .
٧ ـ المصدر نفسه .

خطان يلتقيان في نقطة تقع الى الغرب من خليج العقبة على البحر الأحمر (٨) . ان هذه الرقعة بمعناها الضيق هي « فلسطين المصرية » بنظر ترتيش .

لكنه يعرض امامنا نظرة اخرى تشمل شبه جزيرة سيناء باكملها ضمن نطاق فلسطين ، استنادا الى التفسير الصهيوني القائل بان التخوم التي يرد ذكرها في العهد القديم من الكتاب المقدّس ليست ساقية مصر (Bach) ، بل هي نهر مصر – اي النيل – كحد جنوبي لارض الميعاد ! ويبدو لنا ترتيش كمن يسارع الى التنصّل من هذا التوسيع الأخير مؤكدا :

« ان الصهيونيين اقدموا مؤخرا على تبنّي هذه الصيغة الأخيرة » . ممّا يثير اهتمامه الخاص ويدفع به الى الاعتراف بان صعوبات شتى قد تنجم عن ذلك ، لخضوع المنطقة المشتهاة للادارة المصرية – البريطانية . ومما قد يؤثّر بصورة ملموسة على النشاط الاستعماري والاستيطاني اليهودي داخل الاراضي الخاضعة دستوريًا للحكم العثماني . ولا تعني التحفظات التي يبديها ترتيش من خلال الصاقه تهمة التوسع بغيره من الصهيونيين في المنظمة ، بانه يعارض ذلك بصورة مبدئيّة . بل قد يكون حرصه آنذاك على عدم تعكير صفو العلاقات بين الصهيونيين وبعض الاوساط العثمانية هو الذي حدا به الى الظهور بمظهر من يحترم القوانين السارية المفعول ويؤثر تحاشي الصعوبات والتعديلات . وربمّا وجد الإعتدال والتساهل في هذه المسألة نوعا من المسايرة التي يتطلّبها «مبدأ البلدان المجاورة»(**Nachbarländerprinzip**) الذي حمل لواءه . ولا يفوتنا ان نذكر تكتيكه اللاحق في التقرّب من تركيه تحت شعار «اليهود كعنصر شرق – ادنوي في المانيه وعنصر الماني في تركيه».

نظرية الدوائر الثلاث

رأينا ان نختم بحثنا عن مفهوم « فلسطين الكبرى » لدى ديفيز ترتيش بايراد القسم الاكبر من مقالته التي عنوانها « البلدان المجاورة » (**Die Nach-barländer**) فقد سبق له نشرها في مجلة (**Altneuland**) عدد حزيران – تموز (يونيو – يوليو) ١٩٠٥ . ثم أعاد نشرها في « دليل فلسطين » (٩) ، حيث

---

٨ – لا شك ان ترتيش كتب ذلك بعد تعيين الحدود المصرية التركية عام ١٩٠٦ .

٩ – « دليل فلسطين » ، ص ٢٨٢ – ٢٩٠ .

اشار في الحاشية الى اختياره التوقيت الذي اختاره لها عشيّة انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع في مدينة بازل . وأضاف يقول : لكن مؤتمر الصهيونيين « الفلسطينيين » (Tziyyone Zionists) الذي انعقد في مدينة فرايبورغ بالمانيه قبل اجتماع المؤتمر السابع مباشرة اعلن قبوله لمبدأ « البلدان المجاورة » ، ممّا جعل مسألة اتخاذ خطوات اخرى داخل المؤتمر العام للصهيونيين غير ضروريّة (١٠) .

وسوف يلاحظ القارىء من خلال متابعته للمنطق الذي يعتمده تريتش (١١) في المقالة المذكورة ان معالجة مسألة « البلدان المجاورة » تتم على

---

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ ، وقد تحدث كورت بلومنفيلد في كتاب مذكراته « المسألة اليهودية كما عشتها : ربع قرن من الصهيونية الالمانية » عن لقائه بديفيز تريتش خلال انعقاد مؤتمر الصهيونيين المعارضين لمشروع يوغنده في فرايبورغ . فقال : التفت صوب تريتش الذي انتقدني على تصفيقي لخطاب اعتبره هو كلاما فارغا مخاطبا : « لقد تعلّمت من الاستاذ سيمل Simmel انه لا يجوز للمرء مطلقا ان يبدأ انتقائيّا (Eklektiker) . من يدرس الفلسفة بجدّية ، عليه استباق ذلك باعتناق الهيغليّة » . غير ان تريتش تطلّع اليه بدهشة وقال : « نحن نستعمر فلسطين . يبدو عليك انك ممن يعلقون الآمال الكبيرة على الفكر المجرّد ... انا انتمي الى الصهيونيين العمليين . وسوف نجعل المستحيل ممكنا بواسطة طرق واساليب غير مألوفة ...) . (انظر
Kurt Blumenfeld : **Erlebte Judenfrage**
Ein Vierteljahrhundert Deutscher Zionismus (Deutsche Verlags-anstalt, Stuttgart, 1962) S. 37-8

١١ـ يتحدّث غوتهايل في مقالته « الصهيونية » (**الموسوعة اليهودية** ، ١٩٠٥، ص ٦٨٦) عن الأحزاب داخل الحركة الصهيونيّة ، فيعتبر ان نوسيغ وتريتش يتزعمّان «الحزب السياسي العملي» (Real Politische Partei) وتلتقي مع افكارهما بعض الآراء التي ينادي بها البروفسور واربورغ وفرانز اوبنهايمر وغيرهما في لجنة فلسطين . ويؤكد ان حزب تريتش يعارض الاقليميين (Territorialists) والصهيونيين الفلسطينيين (Ziyyone Zionists) على السواء . كما ينسب للفئة المذكورة قولها بان التشديد على أهمية الحكم الذاتي في جمع الشمل اليهودي مبالغ فيه .

أساس نوع من التقسيم القائم على نظريّة الدوائر الثلاث المتداخلة . فهناك الدائرة الكبرى التي تتناول « الاطراف » وتضمّ آسيه الصغرى وارمينيه وكردستان وبلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربيّة وطرابلس الغرب ومصر . وهناك الدائرة الوسط التي تضمّ جزيرتي رودس وقبرص وولايات أضنه وحلب وسوريه (مع شرقي الاردن) وبيروت (مع الجليل) ، بالاضافة الى متصرفيّة القدس ومنطقة العريش ومتصرفيّة جبل لبنان . امّا الدائرة الثالثة أو « الصغرى » فهي التي تضمّ ما يتصوّره تريتش ضمن اطار مفهومه الخاص عن فلسطين الكبرى : اي فلسطين في حدّ ذاتها وكما قام هو نفسه بتركيبها من ولايات بيروت والقدس وسوريه . بالاضافة الى منطقة العريش (فلسطين المصريّة) والنصف الشرقي من جزيرة قبرص .

فلنتركه يتحدّث على لسان مقاله بالحرف الواحد :

« ان القصد من وراء التفصيلات والشروحات التالية هو تعيين مفهوم البلدان المجاورة بشكل أدّق ، اذ لا يخفى ان المفهوم المذكور ما زال يحتاج الى توضيح في أوساطنا العلنيّة . لذلك نسعى هاهنا الى تحديد البلدان المجاورة ككّل (überhaupt) وتلك البلدان التي تتعلّق بمساعينا وجهودنا في المقام الأول . ومن الضروري طرح جميع التعريفات التعسفيّة جانبا قبل الإقدام على محاولتنا هذه . كذلك يجب علينا ، ضمن الحدود الواسعة التي سوف نرسمها وفي هذه المرحلة العمليّة الأولى للبلدان المجاورة بالذّات ، ان نقوم بتعيين حقل العمل (Arbeitsfeld) للنشاط الاقرب الذي سوف نباشر به ونرسم حدوده بدقّة ووضوح » .

والسؤال التالي يتناول ما يلي : ما الذي يمكن اعتباره ، حتى بالمعنى الأوسع ، ومن زاوية مساعي التركيز اليهوديّة ، بمثابة منطقة مجاورة وما الذي لا يمكن اعتباره هكذا .

ان وجهات النظر التي يسري مفعولها على مسألة ضمّ مناطق مجاورة لحقل عمل النشاطات اليهوديّة في فلسطين هي التالية :

ومطالبتها باستعمار قانوني في فلسطين والبلدان المجاورة يقوم على التقدّم الاقتصادي المنظم في الشرق الادنى وشراء الاراضي في فلسطين وما حولها ، بالاضافة الى درس امكاناتها الزراعيّة والتجاريّة ، وانشاء المزارع التجريبيّة وغيرها من المراكز والمحطّات . وهي لا تعتمد بالتالي على اتخاذ الخطوات الدبلوماسيّة الا اذا امكن الوصول الى أهدافها وغاياتها . (ا هـ)

١ ـ يجب على المنطقة المذكورة ان تكون متاخمة لفلسطين بقدر الامكان، لان كل استعمار في الاراضي المجاورة لفلسطين عليه ان يتهيأ ، عاجلا أم آجلا حين تتم عملية الاستيطان اليهودي بفلسطين ، لكي يؤلف وحدة متراصة ومندمجة مع فلسطين .

٢ ـ وبناء عليه فالبلدان التي تفصلها عن وسط فلسطين مناطق مأهولة اخرى لا يمكن لها بحال من الاحوال ان تدخل ضمن نطاق مشاريعنا المدروسة الا بعد استنفاد جميع الامكانات المتمثلة في تلك الاراضي التي تتمتع بموقع أفضل من وجهة نظرنا .

٣ ـ البلدان او المناطق التي تصبح فيها الهجرة اليهودية اكثرية خلال وقت قريب ، أو على الاقل تلك التي يؤلف اليهود فيها قسما بارزا من مجموع السكان ـ هذه البلدان تتقدم على غيرها ، حيث تستغرق عملية « التهويد » زمنا اطول . اما البلدان التي يتحتم علينا البقاء فيها باقلية صائرة الى الزوال فلا يجوز اخذها بعين الاعتبار مطلقا في المستقبل القريب.

٤ ـ البلدان التي لا تبعد كثيرا عن المناطق التي تتم الهجرة منها (اي البلدان التي تقل فيها تكاليف الانتقال والاستيطان ولا تطول مدة السفر اليها) يجب ان تتقدم على المناطق الأبعد التي يصعب الوصول أو الدخول اليها .

٥ ـ لدى توزيع النشاط الاستعماري على فلسطين ذاتها والمناطق المجاورة لها ، يجدر بنا الا نلتفت الى المناطق المجاورة الا بمقدار ما يحققه نشاطنا في فلسطين او ما يحول دون تحقيقه ويعترضه من الصعوبات والعوائق الكبيرة . (اي انه حين يتسنى لنا ، مثلا ، ان نقوم بالعمل نفسه في فلسطين وسوريه ، أو ما يشبه ذلك ، فلا معنى ابدا في الظروف السوية لنقل هذا النشاط الى خارج فلسطين اذ نكون بذلك قد اضعفنا مركزنا الرئيسي) .

لذلك يجري استثناء المناطق التالية من القائمة الوارد ذكرها أعلاه وفقا لوجهات النظر هذه منذ البداية ، باعتبار هذه المناطق لا تدخل ضمن مشاريعنا في المستقبل القريب :

الدائرة الكبرى (Periphery)

١ ـ **آسيه الصغرى** ـ تبلغ مساحتها مساحة المانيه تقريبا وتضم ٩ ١/٢ مليونا من السكان . ولا يمكن لليهود ان يشاركوا في التطور المتوقع

لبلاد كبيرة كهذه الاّ بمقدار يسير نسبيا . كما ان عددهم بين السكان الحاليين وفي منبسطات البلاد الشاسعة لا يتعدّى اقلية ضئيلة سائرة الى الانقراض ، أو سوف تبقى على حالها . لذلك يجب الاقلاع في المستقبل القريب عن ضمّ هذه المنطقة الواسعة الى صلب مشروع المستوطن اليهودي المتراص . غير ان هذا لا يحول بالطبع دون الرجوع الى اقسام معيّنة في آسيه الصغرى تتمتع بموقع مناسب جداً ، وبصورة خاصة أقليم اضنه وجزيرة رودوس ــ كما سنفعل في سياق هذه الشروحات .

٢ ــ **ارمينيه وكردستان** ــ تزيد مساحة هذه الرقعة على ثلث مساحة المانيه ــ وهي بعيدة جداً عن فلسطين وشاسعة مما يجعل من الصعب ايجاد اكثرية يهودية متراصّة ومتماسكة هناك .

٣ ــ **ما بين النهرين (العراق)** هذه المنطقة الواقعة ما بين الصحراء العربية السورية في الجنوب الغربي ، وكردستان في الشمال وبلاد فارس شرقا لن تدخل في المستقبل القريب ضمن مشاريعنا ، بسبب امتدادها الشاسع والمشاركة اليهودية الضئيلة في نهضتها القادمة والمتوقعة . كذلك يؤخذ على بلاد ما بين النهرين المسافة التي لم تختصرها طرق المواصلات الحديثة بينها وبين فلسطين من جهة وبينها وبين بلدان الهجرة من جهة ثانية . فالمسافر من بيروت الى بغداد ، مثلا ، يحتاج اليوم الى حوالي اربعة اسابيع ، ولا يمكن لاي انسان اليوم التكهّن بموعد تسيير الخط الحديدي بين برلين وبغداد ليصل الى وسط بلاد ما بين النهرين . غير ان افضل ما يمكن عمله هناك في الوقت الحاضر قد يؤدي بنا الى انشاء مستعمرة صغيرة او كبيرة ، على حساب مناطق تفضلها ولا تستدعي التوغل الى هذه المسافة البعيدة ! فاستعمار من هذا النوع لا يخدم غرضا معينا حتى ولا في المستقبل القريب . وحين نقبل رقم خمسة ملايين يهودي الضخم ، وهو رقم الذين ينبغي توطينهم في الشرق اثناء فترة النشاط الطويلة ، فان هؤلاء يمكن توطينهم بصورة اكثر عمليّة وافضل داخل فلسطين والقطاع المتاخم لها وضمن مساحة تبلغ ٤٠٠ كلم تقريبا ، مما لا يبرر مطلقا تطلعنا الى مسافة تبعد ما بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠ كلم او اكثر .

٤ ــ **شبه الجزيرة العربية** ــ معظم هذه البلاد الكبيرة في الداخل صحراء غير مأهولة ، اي ان داخلها لا يشكل جزءا من الامبراطورية العثمانية .

بعكس القطاع الساحلي الى الغرب ، حيث تقوم في وسـطه الاماكن الاسلاميّة المقدّسة ، مكّة والمدينة ، ، وبعكس الشاطىء التركي على الخليج الفارسي . ان رغبة تأسيس استعمار يهودي في هذه المناطق لا يمكن التفكير بها طبعا ، لذلك لا يجوز التحدّث عن هذه البلاد مطلقا. بيد ان القسم الواقع الى اقصى الشمال من هذا القطاع الساحلي والذي يتاخم حدود فلسطين عند العقبة (das alte Ezion-Geber) — ونعني بذلك ارض ميديان القديمة — جدير ان يؤخذ بعين اعتبارنا . فهو يشكل منطقة مجاورة لفلسطين وقريبة منها ، تكاد تكون خالية من السكان في الوقت الحالي ، وارضها ليست مجدبة بل مخصبة على وجه التأكيد .

٥ — **طرابلس الغرب** — تستثنى هذه المنطقة بسبب بعـدها عن فلسطـين واتساع مساحتها . وعلى كل حال يمكننا النظـر في مسألـة انشـاء مستعمرة هنا ، على غرار ما حدث في التاريخ اليهودي القديـم ، وفي ولاية بنغازي الطرابلسية أو برقة القديمة . فهناك رقعة ساحلية صغيرة نسبيا يمكن الاستفـادة منها ومن وقوعها على البحر . وقد امتّت في الماضي ، اي قبل حوالي الفي سنة على ما يبدو ، تكوين اكثريـة يهودية . ومما يسترعـي الانتباه ان الانتفاضـات اليهودية الكبـرى ضـد الرومـان قامت هنـا في الوقـت نفسـه ابان انتفاضة البلـد الأم وغيرها مـن المناطق المأهولة باليهـود في شرقي البحـر الابيـض المتوسط ، مما يثبت الصلة القوية بين هذه المستعمرات والوطن الأم ، في عصر كانت تنقصه الكثير من وسائل النقل والمواصلات * .

٦ — **مصر** — هذا البلد الافريقي العظيم والمزدهر والبالغ تعداد سكانه ١٢ مليونا لا يتيح اي مجال امام اقامة مستوطـن يهودي باكثرية يهودية تكون على صلات بالمركز الفلسطيني الا فيما عدا قسمه الآسيوي — اي في شبه جزيرة سيناء ، والتي تشكل مع الطرف الشمـالي منطقـة العريش الادارية . وسوف نتحدث عنها فيما بعد بالتفصيل .

(*) **حاشية** : لقد نقلت هذه الفقرة حرفيا من المقالة التي ظهرت لي في منتصف عام ١٩٠٥ . ولا يتحدث مشروع زانغويل عام ١٩٠٩ الرامي الـى استعمار برقة بشكل مـن الاشكال ضد امكانية استعمار يهـودي واسع النطاق في هذه الرقعة الساحلية المثمرة والمخصبة .) — انظر ص . (٢٨٦) .

الـدائـرة الوسطى

بعد هذه الاسقاطات يتبقى لدينا مجموعة من الاراضي Lander - komplex والبلدان تشمل المناطق التالية (باستثناء فلسطين التي تعتبر بمثابة مركز الوسـط) :

	المساحة بالكيلو متر المربـع	عـدد السكان	عـدد اليـهود
متصرفيـة القدس	٩،١٠٠	٣٧٥،٠٠٠	٧٥،٠٠٠
ولاية بيروت (مع الجليل)	١٦،٠٠٠	٥٣٣،٥٠٠	٢٥،٠٠٠
ولاية سوريه (مع شرقي الاردن)	٩٥،٩٠٠	٧١٩،٥٠٠	١٠،٠٠٠
العريش (تابع لمصر)	٥٩،٠٠٠	٣٠،٠٠٠	—
قبرص (خاضعة للادارة البريطانية)	٩،٣٠١	٢٦٢،٠٠٠	٢٠٠
لبنـان (ولاية مستقلة)	٣،١٠٠	٢٠٠،٠٠٠	٢٠٠
ولاية حلب	٨٦،٦٠٠	٩٩٥،٨٠٠	١٨،٠٠٠
ولاية اضنـة	٣٩،٩٠٠	٤٢٢،٤٠٠	٢٠٠
رودوس (تابعة لولاية الجزر)	١،٤٢٤	٣٠،٠٠٠	٥،٠٠٠
المجمـوع	٣٢٠،٣٢٥	٣،٥٦٨،٢٠٠	١٣٣،٦٠٠

لا داعي لأخذ هذه المناطق كلها بشمولها التام وحدودها الاداريـة العرضيـة والنظر اليها مـن زاوية غرضنا . بل يمكن الوصول داخل المناطق اياها الى حصرها في نطاق معين والتركيز على اقسام محدودة أو تفضيـل مناطق معينة على غيرها .

فلا حاجة بنا الى ادخال شبه جزيرة سيناء المصرية باكملها في نطـاق اهتمامنا ، بل يمكننا استثناء القسم الجنوبي العديم الاهمية والوسط مـن دائرة نشاطنـا . واذا شئنا الا نقيد انفسنا بالمنطقة الفلسطينية البحـتة والواقعة داخل حدود نخل ـ مزراعيم ، وحصر انفسنا بالسهل المعروف بـ سهل العريش (Pelusinische) ، فباستطاعتنا استنضاب امكانات هذا الاقليم الذي تبلغ مساحته ضعف مساحة فلسطين الكبرى ، فيما لو اقتصرنا على الضفة الشرقية لقناة السويس بالاضافة الى قطاع ساحلي في الشمال بعرض حوالي ٢٥ كلم تقريبا . وهكذا يتسنى لنا ان نضم الى ذلك « منطقة نفوذ » (Interessensphäre) شرقية تتاخم لفلسطين مـن الجهة الجنوبيـة وتشمل البتراء القديمة والقطاع الساحلـي في شمالي شبـه الجـزيرة العربيـة ـ

ميديان ـ والواقع على خليج العقبة . (ان هاتين المنطقتين الاخيرتين تخضعان لتركيه) . والى الشرقمن اقليم سيناء يحظى مجرى وادي العريش باهتمامنا البالغ بسبب امكانية بناء السدود وحفر آبار المياه في الوادي وبالقرب منه .

ان العريش ، أو الشريط الساحلي الضيق على شاطىء البحر الابيض المتوسط والواقع في البلد المجاور لفلسطين من ناحية الجنوب الغربي ، هو أهم منطقة بالنسبة لنا . لذلك يمكننا ان نقصر جهودنا عليه في المقام الاول ولسنوات كثيرة قادمة . وفيما يتعلق بجزيرة قبرص ، لا داعي للتفكير مرة واحدة باستيطان الرقعة بكاملها . بل يجدر بنا اعتماد الاسلوب العملي خلال السنوات العديدة القادمة . وبذلك نركز اهتمامنا على النصف الشرقي من الجزيرة (جاعلين خليج فماغوستا بمثابة نقطة انطلاق لنشاطنا) . فالقسم الشرقي من جزيرة قبرص ، وعلى الاخص منطقة فماغوستا تتيح امام الاستعمار اليهودي مجالات لا يمكن العثور عليها في اي منطقة اخرى من الشرق باكمله . فهي من اخصب مناطق البلاد ومن اكثرها اهمالا حتى الآن . وهناك اقيمت حديثا منشآت المياه والمرفأ والسكك الحديدية التابعة للبريطانيين . كما ان انجلتره هناك ترتاح لنشاطنا الاستعماري اكثر من اية بقعة اخرى .

اما في سوريه ، وبالاضافة الى فلسطين ، فتحظى باهتمامنا في المستقبل القريب منطقة ساحلية فقط يبلغ عرضها حوالي ١٠٠ كلم ، وتتمتع بسهولة الوصول اليها مع مستوى ثقافي معين . لذلك فهي تشكل أهم قسم في البلاد بلا منازع . ففي هذا الشريط الساحلي « العريض » والتقريبي تقوم بالاضافة الى الموانىء المنتشرة على البحر مباشرة مدن امثال دمشق وحمص وحماه وحلب وانطاكيه وعينتاب .

ولا نحتاج من ولاية اضنه في آسية الصغرى سوى الى القطاع الساحلي المتاخم لشاطىء سوريه والبالغ طوله حوالي ٢٠٠ كلم وعرضه الخمسين كلم . فهذه المنطقة ، على غرار الشريط الساحلي السوري ، تتلاءم مع غرضنا بصورة أفضل من المناطق الداخلية (Hinterland) . وهي تضم مدن مرسين وطرسوس واضنه بالاضافة الى المصبات الخصبة لنهري جيحان وسيحون .

وحين نلتفت صوب جزيرة رودوس ، نجدها صغيرة جدا لكي نقوم بحصر مناطق فيها . فمساحتها تبلغ حوالي ١٤٠٠ كلم مربع ، ولا يزيد عدد سكانها على ٣٠ الف نسمة (بينما نجده في العصور القديمة والقرون

الوسطى قد بلغ ٢٠٠ الف) . ولوقوعها على الطريق البحري بين اوروبه الشرقية « ودائرة البلدان الفلسطينية » ، يمكن لرودوس ان تصبح مرحلة هامة (Etappe) بالنسبة لنا . ومن الممكن جدا ان تبدي تركيه استعدادا للتفاهم معنا بخصوص الجزيرة لاسباب محددة جدا . وفوق ذلك يقيم في رودوس الآن ما يتراوح بين ٤ الآف وخمسة الآف يهودي .

الدائرة الصغرى : « فلسطين الكبرى »

ان المنطقة المعروفة هنا بـ « فلسطين الكبرى » والمحددة بدقة متناهية تقع ضمن اقاليم تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي ٣٢٠ الف كلم مربع ويزيد سكانها على ٣١/٢ مليون نسمة . بيد اننا نوصي هنا بمنطقة تبلغ مساحتها حوالي ١٢٠ الف كلم مربع للتركيز عليها في المستقبل القريب . وليضع الواحد نصب عينيه ان هذه المنطقة « المصغرة » هي اربعة اضعاف مساحة فلسطين في حد ذاتها (والبالغة ٣٠ الف كلم مربع) . كما انها لا تشكل سوى جزء من خمسة عشر من مساحة تركيه الآسيوية كلها والبالغة ١،٧٦٠،٠٠٠ كلم مربع تقريبا .

ولكي نحصل على صورة حسية لهذه المنطقة الضخمة ولتعذّر التفكير بتفسير فلسطين الكبرى حتى تشمل تركيه الآسيوية باجمعها ، يمكننا فقط ان نشير بان المليون الاول من المهاجرين اليهود قد يؤمن لنا اكثرية مطلقة في المنطقة التي تضم فلسطين وتشمل لبنان حتى الشمال بالاضافة الى العريش وجزيرة قبرص . بينما هو لا يشكل سوى خمس مجموع السكان في الدائرة الاوسع . ولو جرى توزيعه على منطقة تركيه الآسيوية باكملها لما تعدى ١/١٧ من مجموع السكان ، او حوالي نصف يهودي في الكيلو متر المربع الواحد !

* * *

وبما انه لا معنى هناك ، على ضوء اغراض الحاضر العملية ، في التحدث عن امور تتعدى نطاق زماننا ووسائلنا وامكاناتنا الحاضرة ، لذلك يجدر بنا ان نضيق رقعة الارض الواسعة التي رسمنا حدودها اعلاه ، اذ قد يتطلب الاستيطان فيها نشاطا هائلا . ونركز اخيرا على الهدف القريب والمباشر لمجال

نشاطنا الممكن خلال السنوات العشر القادمة وضمن نطاق المليون الاول من المستوطنين . كما لا يخفى انه قد سبق ل « وجهة نظر فلسطين وحدها » «Nur-Palästina Standpunkt» ان برهنت عن صحتها ، اذ بينت ان النشاط الاستعماري المثمر لا يتحقق الا عن طريق اعلى درجات التركيز والتجمع . وبما ان حصر الدائرة الضيقة جدا بفلسطين وحدها يتهدد النشاطات الكبرى بالاقصاء لاجل غير مسمى ، فقد شاء المؤلف ان يركب « فلسطين كبرى » ، لا تكبر عن « فلسطين الاخرى والضيقة » الا بمقدار ما يتطلبه تحقيق تلك النشاطات والمشروعات التي تعجز فلسطين الصغرى عن استيعابها .

وبهذا المعنى ــ وعلى الاخص بالنظر الى الوضع الذي طرأ عليه تحسن كبير في المدة الاخيرة ، ــ يكون من الافضل كثيرا فيما لو اقتصرت نشاطاتنا الممكنة في تركيه وفي ظل الاوضاع التركية على فلسطين بالذات وبقدر الامكان . بينما نضع المناطق التركية الاخرى في الاطار الخلفي لمساعينا ، مع العلم باننا لن نتوانى منذ الان عن التقاط الفرص السانحة بشكل خاص داخل المنطقة التي رسمنا حدودها اعلاه .

لذلك نركز اهتمامنا في اضيق « برنامج للبلدان المجاورة » -Nachbar länderprogram على فلسطين وحدها الآن من بين المناطق التركية ، (وعلى الضفة الغربية من الاردن في فلسطين ، حيث يمكن ذلك ، للمحافظة على تماسك المستوطن ووحدته الكبرى) بينما نركز في الوقت نفسه على الاقسام الاكثر ملاءمة في العريش وجزيرة قبرص (المناطق غير التركية) .

تنتج عن كل ذلك منطقة تضم البلدان المذكورة في الجدول الصغير ادناه . ويمكننا في المستقبل القريب ان نتوقع هجرة يهودية تبلغ حد الثلاثة ملايين ، مما يجعل كثافة السكان حوالي ١٠٠ شخص في الكيلو متر المربع الواحد .

	المساحة بالكيلو متر المربع	عدد السكان حاليا
فلسطين في حد ذاتها داخل ولايات القدس وبيروت وسوريه	٢٧،٠٠٠	٧٠٠،٠٠٠
الطرف الشمالي للعريش بمقدار حوالي	٥،٠٠٠ تقريبا	١٥،٠٠٠ تقريبا
النصف الشرقي من جزيرة قبرص	٤،٥٠٠ تقريبا	١١٠،٠٠٠ تقريبا
	٣٦،٥٠٠	**٨٢٥،٠٠٠ تقريبا**

وبهذه الطريقة وحدها يتسنى لنا الربط بين جميع امكانات النشـــاط واكبر مقدار من التركيز . فنحن نضمن لانفسنا اكبر نجاح ممكن فقط عندما نفضل عدد اقل من البلدان التي تتطلب نصيبا اقل من المعرفة والدراسة . وبالتالي تواجهنا فيها صعوبات اقل مـــن ذلك العدد الاكبر مـــن المناطـــق المختلفـــة .

وختاما نفتح المجال في ضم المناطق غير التركية المجاورة لفلسطين امام الاوساط الكبيرة والهامة لاولئك الذين لا يؤيدون النشاط الاستعماري فوق الاراضي التركية حتى في ايامنا هذه وفي ظـــل الظروف الحاضرة ، لكـي ينضموا الينا ويساعدوننا . اهـ.

الصهيونية ناقص صهيون

لا بد لنا ، قبل الانتقال الى الحديث عن المدرسة البريطانية للصهيونية والدور الذي لعبته في استنباط مفهومها الجغرافي الخاص لفلسطين ، من التوقف قليلا عند النشاطات والمساعي التي قامت بها المنظمة الاقليمية اليهودية تحت زعامة اسرائيل زانغويل .

فقد ارسلت المنظمة المذكورة في العيد الثالث لميلادها (١٩٠٨) بعثة خاصة من الخبراء لدراسة أحوال برقة Cyrenaica طمعا باتخاذها مسرحا اقليميا للاستعمار اليهودي ومقرا « مؤقتا » لعمليات الاستيطان على نطاق واسع . وطلب الى تلك البعثة ان ترفع تقريرا عن المجالات التي يتيحها اقليم برقة امام التوسع اليهودي في ظل تبادل المنفعة بين الصهيونية والامبراطورية العثمانية . فجاء تقرير البعثة المذكورة ــ من خلال الانطباعات التي سجلها مؤلف سيرة اسرائيل زانغويل (١) غير مشجع على فكرة الاستيطان بسبب النقص في الموارد المائية ، مما لا يسمح باستقدام عدد كبير من المهاجرين اليهود . مع العلم بان بعض الذين اشتركوا في البعثة الاستكشافية آنذاك وانتقلوا الى خدمة الصهيونية بفلسطين فيما بعد عمدوا الى التأكيد على امكانية استنباط طريقة لتجميع المياه ، فيما لو كان الاقليميون يملكون بضعة ملايين بتصرفهم (٢) .

ولنا في مسودة الوثيقة الموجودة بدار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب (المملكة الليبية المتحدة) ــ والتي هي عبارة عن رسالة لا تحمل اسم المرسل ولا المرسل اليه ــ خير وسيلة للتعرف على خفايا المشروع الصهيوني

---

١ ــ Jeseph Leftwich — **ISRAEL ZANGWILL**, (London, 1957), P. 229

٢ ــ انظر الفصل المتعلق بالمنظمة الإقليمية اليهودية في : Joseph Leftwich — **Israel Zangwill** (London, 1957), P. 229.

لاستعمار برقة . كما انها تشكل دليلا صادقا على مدى التغلغل الذي وصل اليه النفوذ الصهيوني داخل الدولة العثمانية ، وكيف انعكس كل ذلك على نظام الحكم العثماني بولاية طرابلس الغرب آنذاك . وقد نشرتها صحيفة **الرائد** الليبية (٣) مؤخرا بعد ان جرت ترجمتها عن المسودة التركية والمكتوبة بخط مترجم الولاية اثناء العهد العثماني . واكد القيّم على شؤون الآثار بدار المحفوظات ان الوثيقة الاصلية لا وجود لها في الدار . بل من المحتمل ان تكون قد ارسلت الى الباب العالي او فقدت اثناء استيلاء ايطاليه الفاشية على البلاد . هذا وقد صرح السيد عبد العزيز جبريل لمندوب الصحيفة بقوله ان « موضوع الوثيقة ان احد اليهود قد شارك في مؤتمر واجتماع صهيوني كبير في لندن عام ١٩٠٨ ، وبمجرد ان انتهى المؤتمر سارع بارسال هذه الرسالة الى احد اعيان الطائفة اليهودية بطرابلس يبلغه فيها بوجود فكرة صهيونية لتحويل ليبيه الى وطن قومي لليهود ويطالبه باسم المؤتمر الصهيوني ونظرا لما له من نفوذ ان يعمل مع بقية اليهود في ليبيه على خلق اساس متين وقوي لفتح باب الهجرة امام اليهود ، وان يسرع في بسط نفوذه وتأسيس بنوك وشركات يهودية لشراء الاراضي والسيطرة على التجارة والتسرب الى اجهزة الحكم القائمة من اجل تحقيق الهدف الصهيوني بتحويل ليبيه الى مكان يتجمّع فيه اليهود ويشكلون دولة (٤) » .

كما انه يتضح لنا من قراءة الرسالة ـ الوثيقة بانها تتعلق بمحاولة المنظمة الإقليمية اليهودية (Jewish Territorial Organization) للحصول على منطقة الجبل الاخضر التي تشمل مدينة بنغازي في ولاية برقة (Cyrenaica) . وقد مرّ معنا ذكر تلك البعثة « الدراسية » والاستكشافية التي ارسلتها المنظمة عام ١٩٠٨ الى برقة . ومما يدعم هذا الرأي ويؤيده كون الرسالة ـ الوثيقة التي بين ايدينا تشير مرتين الى « الرئيس المسيو زانغويل (يعني رئيس المنظمة اسرائيل زانغويل Israel Zangwill) (٥) . ومن الصعب التكهن بمدى علاقة المنظمة الصهيونية العالمية آنذاك بالموضوع الذي تتحدث عنه الرسالة . غير انه سبق لهرتزل نفسه وخلال مقابلته للملك ايطاليه في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ وفاتح مستقبله « بمشروعي

---

٣ ـ انظر عدد ٣ آب (اغسطس) ١٩٦٧ .

٤ ـ المصدر نفسه .

٥ ـ اوردت صحيفة **الرائد** الاسم على الشكل التالي «المسيوز ـ انغويل» . وقد يكون ذلك مجرد خطأ مطبعي لا بد من تداركه وتصحيحه .

المتعلق بطرابلس الغرب ... وتحويل الفائض من الهجرة اليهودية الى هناك في ظل قوانين ايطاليه ومؤسساتها الليبرالية (٦) » . ويحضرنا كذلك جواب الملك آنذاك : « وهذه ايضا وطن للآخرين من الناس » («ma é encora casa di altri») . فهل تضافرت جهود الصهيونيين ومساعي اليهود الاقليميين للحصول على موطىء قدم في ليبيه والقفز من الجبل الاخضر الى جبل صهيون ؟ أم راحت كل من المنظمتين تبذل مساعيها لدى الباب العالي بصورة مستقلة عن الاخرى ؟

لا شك ان الموقف السلبي الذي اتخذته الحركة الصهيونية من المنظمة الاقليمية لم يقف حائلا دون التعاون بينهما . وبعد مضي اقل من سنة على المؤتمر السابع والانشقاق حول مشروع استعمار يوغنده ، نجد المنظمة الصهيونية تنضم الى الاقليميين لتوجيه نداء الى اليهود الاثرياء والموسرين في انجلتره واميركه تطلب فيه المساعدات . وقد وقع النداء المذكور كل من السير فرنسيس مونتيفيوري ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني آنذاك (حزيران (يونيو) ١٩٠٦) والسكرتير الفخري ليوبولد غرينبرغ ، بالاضافة الى رئيس المنظمة الاقليمية اسرائيل زانغويل وسكرتيرها الفخري كليمانت سالامان . كما ان دافيد ولفسون ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية انضم في تموز (يوليو) ١٩٠٦ الى كل من زانغويل وغرينبرغ وجوزيف كووين ولوسيان وولف وغيرهم بغية العمل على ايجاد خطة موحدة لمساعدة يهود روسيه على الاستيطان في مكان آخر غير فلسطين (٧) .

وربما كان للمكانة التي تمتع بها زانغويل في الحياة اليهودية آنذاك ابرز دور في اقدام الصهيونيين على مجاراته او مسايرته في الدعوة الى اعتماد الحلول الاقليمية . وقد نقل لنا غوتهايل في كتابه عن « الصهيونية » الاعلان التالي عن اهداف المنظمة الاقليمية اليهودية (Ito) :

١ ــ الحصول على اقليم يتمتع بالحكم الذاتي لتوطين اليهود الذين لا يستطيعون او لا يريدون البقاء في البلاد التي يقيمون فيها .

٢ ــ لاجل تحقيق هذه الغاية تقترح المنظمة ما يلي :

أ ــ توحيد جميع اليهود الذين يوافقون على هذه الغاية .

ب ــ اقامة صلات مع الحكومات والمؤسسات العامة والخاصة .

---

٦ ــ راجع **اليوميات** . جزء ٤ ، ص ١٦٠٠ .

٧ ــ انظر Joseph Leftwich ، المصدر السابق ، ص ١٩١ و ١٩٢ .

ج ـ ايجاد المؤسسات المالية ومكاتب العمل وغيرها من الوسائل التي تعتبر ضرورية (٨) .

وعلى الرغم من ميل غوتهايل في كتابه المذكور الى تشبيه المذهب الاقليمي (Itoism) بمسرحية انتزع منها الشخص الرئيسي واعتباره بمثابة « الصهيونية ناقص صهيون («Zionism minus Zion») (٩) ، فان العديد من كبار الصهيونيين لم يترددوا في التعاون مع منظمة زانغويل . وهناك رسالة بعث بها ماكس نوردو بالذات الى اسرائيل زانغويل عام ١٩٠٦ تناول فيها العلاقة بين الصهيونية والاقليمية مؤكدا جواز الجمع بين الاثنين في آن واحد : « فالاقليمية تهدف الى الاغاثة العاجلة ، بينما تسعى الصهيونية نحو الحل للمشكلة اليهودية ، وهو الذي لا يمكن العثور عليه ، حسبما اعتقد ، الا بفلسطين (١٠) » . وقد حذا عدد من الصهيونيين حذو نوردو وتعاونوا مع الاقليميين . فمن هؤلاء نذكر اليعازر بن يهوذا ، الذي ابدى استعداده للذهاب الى يوغنده ، ونحمن سيركين (Syrkin) زعيم حركة عمال صهيون ، والحاخام راينس (Reines) مؤسس حركة مزراحي . وحظيت دعوة زانغويل بتأييد لا يستهان به من جانب الصهيونيين السياسيين في بريطانيه ، اذا اصر هؤلاء على وفائهم لذكرى ثيودور هرتزل واستمروا على السير وفقا للنهج الذي اعتمده . كما لا يخفى بان العقد الذي تلى وفاة هرتزل ظل اسير النزاع المستحكم بين « السياسيين » و « العمليين » ، على الرغم من مجيء واربورغ الى سدّة الرئاسة (١٩١١) تحت شعار «الصهيونية التوفيقية» (Synthetic Zionism) .

وفيما يتعلق بالرسالة ـ الوثيقة لا بد من التنبيه الى انها على صلة وثيقة بالمشروع الذي بحثته منظمة زانغويل عام ١٩٠٨ بخصوص استعمار برقة . وقد ذكر سايكس بان مساعي الاقليميين كادت تكلّل بالنجاح عام ١٩٠٩ في الحصول على براءة استعمار من الامبراطورية العثمانية (١١) . وفي منتصف العام ١٩١٢ عمد الاقليميون الى احياء مشروع هرتزل بالتفاوض مع

---

٨ ـ راجع Richard J.H. Gottheil — **Zionism** (Movements in Zionism) (The Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1914), P. 137.

٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤١ .

١٠ـ انظر Leftwich ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

١١ـ راجع سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

الامبراطورية البرتغالية . وكان البرتغاليون آنذاك راغبين في زيادة سكان المستعمرات باية وسيلة ممكنة . فاقتنعوا بفكرة توطين اليهود القادمين من روسيه واوروبه الشرقية في مستعمرة انغولا (Angola) . وصدّق المجلس البرتغالي (Cortes) بالاجماع على قانون يخوّل المهاجرين اليهود حق استعمار انغولا . غير ان المسؤولين في لشبونه اشترطوا عدم القيام باستعمار جماعي واصروا على السماح لليهود بالاستيطان كأفراد وليس كشعب . ولم يشأوا التخلي عن ادارة انغولا التي ارادوها ان تبقى من اختصاص الحكومة البرتغالية وحدها . واستمر الاخذ والرد بين الطرفين . فارسلت المنظمة بعثة لدراسة احوال انغولا برئاسة البروفسور غريغوري عام ١٩١٣ . وكان من المقرر رفع تقريره الى مؤتمر المنظمة الذي تقرر عقده بمدينة زوريخ في آب (اغسطس) ١٩١٤ . لكن اندلاع الحرب الكبرى حال دون ذلك . ويبدو ان زانغويل تخوّف من التنافس القوي في افريقيه بين المانيه وبريطانيه ، حيث كانت مستعمرة انغولا متاخمة لافريقيه الغربية التي تخضع للسيطرة الالمانية . فحاول التنقل من قبول العرض المذكور ، بعد ان أبرقت المنظمة الاقليمية للحكومة البرتغالية لتصف البادرة بانها جاءت « لتخفف آلام ذكريات طرد اليهود تحت حكم الملك مانويل في القرن الخامس عشر (١٢) » وتكفّر عن تلك الفعلة السيئة . ومضت تتحدث عن عدم استقرار الاوضاع في انغولا ، مما يجعلها تتردد في اصدار توصياتها لليهود بقبول العرض البرتغالي قبل حصولها على ضمانات كافية تتعلق بالحماية ومقدار اكبر من الحكم الذاتي . وهكذا استاء المجلس البرتغالي (الكورتيز) من جواب الاقليميين الناكر للمعروف وطويت المسألة دون اتخاذ قرار نهائي من جانب الطرفين .

فلنعد الى الوثيقة المتعلقة باستعمار ليبيه ، ناقلين الرسالة كما اوردتها صحيفة « **الرائد** » في عددها المشار اليه :

« رجعت امس من لندن ، ان الجهود التي بذلتها هناك والتدابير التي اتخذتها تفوق كل تصور وقد كانت نتيجتها لا يمكن الحصول عليها بالمراسلات . شرحت لرئيس واعضاء المجلس عطف صاحب الدولة حضرة المشير باشا ــ والي قائد عام ولاية طرابلس ــ على اليهود وحبه المخلص لهم كما بيّنت للمجلس ان مكتوبجي الولاية ــ الكاتب العام ــ حضرة بكير بك رجل بعثه الله منقذا لليهود من حياة الذل التي يعانون آلامها اليوم . ومع هذا فانه ذو ثقافة عالية ومطلع ويقدّر الفوائد التي تعود على الطرفين . ولذلك

١٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

فانه لا يتردد في مساعدتنا لدى الدولة العلية للوصول الى اتفاق في المشروع.

وبهذه المناسبة فقد قدّمتك ووصفتك بانك رجل ذو دراية كوالدك تعمل لخير اليهود وتقدّر مصالح الدولة العثمانية . لقد كان لكلامي هذا اثر كبير في قلوبهم حتى ان رئيس واعضاء المجلس تفضلوا فكلفوني بابلاغ شكرهم وتقديرهم الكامل . لك ان تطلع السادة المحترمين بطرفكم على ما في هذه الرسالة .

قرات جميع الرسائل التي بعثتهم بها عليهم ، وسروا جميعا بمحتوياتها وشرعوا في بحث الشروط الواردة فيها فورا واتخذوا القرار الآتي :

اولا : تأسيس بنك يهودي لشراء اراضي شاسعة .

ثانيا : حسب رغبتكم ــ ان اليهود المضطهدين يقبلون بوصفهم لاجئين عثمانيين وسوف يتحصلون على الجنسية العثمانية : ويسمح لهم بتشكيل هيئة دينية . وان الرسوم والضرائب التي تستحقها الدولة العثمانية من هؤلاء المهاجرين لا تكون فردية بل جماعية بمبلغ مقطوع يحدد فيما بعد .

ثالثا : تؤسس الجمعية في موقع من تلك السواحل ميناء وسكة حديد وشركة للملاحة ويرفع العلم العثماني على جميع الدوائر والمؤسسات كما تعمل الشركات والمؤسسات للرفع من شأن الدولة العثمانية وزيادة ثروتها .

رابعا : ان التدابير التي ستتخذها الجمعية في اقرار او فسخ هذه القرارات ستكون سرية وان اربعة من اعضاء المجلس والرئيس موسيوز انغويل (Zangwill) سيباشرون اعمال الاطلاع * وذلك باشاعة خبر قيامهم في الظاهر بجولة سياحية في البحر الابيض المتوسط لبحث بعض الشؤون في الدولة الاوروبية .

خامسا : عندما نحل بصقلية ــ اي قطانيا او سيراكوزة ــ نعلمك بتاريخ وصولنا لمالطه لتحضر هناك في الحال وتزودنا بالمعلومات وكل التفصيلات اللازمة ، لاننا قبل البحث معك لا يمكننا القيام بأي عمل في هذا الصدد .

---

* Exploratory Expedition

سادسا : بعد التفاهم معكم سيتوجه اربعة من افراد الهيئة (١٣) من بينهم اختصاصي في فن الزراعة الى بنغازي متنكرين ويقومون بجولة في درنة بحجة تأسيس مدارس يهودية هناك واذا اوجستم خيفة من امرنا فاننا ننزل خلسة في موقع خال ليس فيه احد مرتدين الزيّ الوطني . ولكي لا تعترضنا بعض المصاعب يجب ان تكون الحكومة والقائمقامين على علم من ذلك . وباذن الله سوف ننهي مهمتنا في ظرف عشرة ايام . ان اول ما نطلبه اعطاءنا رخصة في الزراعة واعمال الاراضي ، لانه اذا لم يسمح لنا بالرخصة الزراعية فان الهيئة ستدخل في مفاوضات مع كنده واستراليه في هذا الشأن .

لذلك ارجو ان تشرح هذه المسألة لحضرة صاحب الدولة المشير باشا وصاحب السعادة بكير بك وتبيّن لهم الجهود التي صرفتها منذ ستة اشهر سعيا لتحقيق المشروع وعن رغبتي الاكيدة في جلب السعادة والبركة لتلك البقاع . وان قصدي ادخال واستثمار رؤوس الاموال اليهودية في الممالك العثمانية . اننا واثقون من نجاحنا نرجو ان لا يبد باية مصاعب اني اقنعت الهيئة فاذا كانت الحكومة المحلية لا ترفض مشروعنا الزراعي اعلمني تلغرافيا . اننا متأهبون لمباشرة العمل حينما تتصل ببرقيتكم .

سابعا : حين رجوع السادة المذكورين من زيارتهم لبنغازي الى صقلية ، فان المسيوز زانغويل بعد الاطلاع على تعليماتكم سيتوجه حالا الى استانبول للمفاوضة هناك حول الامتيازات وتأسيس البنك والمصالح الاخرى بكل اطمئنان .

١٣ــ كانت بعثة الاطلاع برئاسة البروفسور غريغوري (Gregory) الذي عرف عنه الاهتمام بجيولوجية فلسطين . وفي عدادها ابن عمة زانغويل، دافيد مونتاغو ادر (David Montagu Eder ١٨٦٦ ــ ١٩٣٦) . وهو من اتباع فرويد الاوائل في بريطانيه وأحد مؤسسي « جمعية التحليل النفساني البريطانية » . انضم الى المنظمة الاقليمية عام ١٩٠٥ . ثم سارع الى تأييد الصهيونية بعد صدور وعد بلفور واوفده زانغويل ليمثل المنظمة الاقليمية في البعثة الصهيونية الى فلسطين . كان عضوا في اللجنة التنفيذية الصهيونية (لندن والقدس) بين عامي ١٩٢١ــ١٩٢٣ و ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ .

ثامنا : اعرضوا على سيادة الباشا بان الهيئة في هذه المسألة قررت باتفاق الآراء رغبتها في خير وسعادة البلاد العثمانية . واني استرحمه ان يدرس المشروع المقدّس الذي سوف يخلّص اليهود المساكين من العذاب والمشاق التي يلاقونها .

تاسعا : ارجو بذل مساعيكم لنجاح آمالنا التي شرحتها لكم في رسالتي وان تبعثوا لنا عاجلا بالبرقية المنتظرة » .

« الالمان العثمانيون »

قلنا فيما سبق ان الصهيونية العملية اخذت تجمع قواها بقصد الاستيلاء على مقدرات الحركة والمنظمة العالمية التي تمثلها . وقد تميزت الفترة المتدة بين مجيء جماعة تركيه الفتاة واندلاع نيران الحرب العالمية الاولى (١٩٠٨ – ١٩١٤) بتصاعد النشاط الصهيوني في عاصمة الامبراطورية العثمانية وفي الولايات العربية التابعة لها . فعلى صعيد التغلغل المالي والاقتصادي جرى عام ١٩٠٣ افتتاح فرع للمصرف الصهيوني المعروف بصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار تحت اسم «شركة انجلو – فلسطين» Anglo-Palestine Company . وما لبثت هذه حتى صارت تعرف بـ « مصرف انجلو – فلسطين » (١) ، الذي اصبح بدوره المصرف المركزي لليهود بفلسطين . وسرعان ما تحولت الشركة – المصرف الى الاداة المالية بيد المنظمة الصهيونية . فوقع الاختيار على مدينة يافا لتكون مقر المكتب الرئيسي . وافتتحت الفروع في كل من القدس وحيفا والخليل وصفد وبيروت . فتعيّن الصهيوني الروسي المولد والالماني الثقافة فكتور جاكوبسن (Victor Jacobsen) (١٨٦٩ – ١٩٣٤) مديرا لفرع بيروت . وبقي في المنصب من ١٩٠٦ – ١٩٠٨ ، حين جرى نقله الى الاستانة بعد انقلاب تركيه الفتاة ليعهد اليه بادارة الوكالة الصهيونية في عاصمة الامبراطورية . فكان بمثابة الممثل السياسي للمنظمة الصهيونية العالمية هناك بين عامي ١٩٠٨ – ١٩١٤ . وقد تحدث وايزمان في مذكراته (**التجربة والخطأ** : عن زيارته الاولى لفلسطين عام ١٩٠٧ واجتماعه بمدير مصرف انجلو – فلسطين في بيروت بقوله : « ومنه سمعت للمرة الاولى بشيء عن حركة القومية العربية

---

١ – تغيّر الاسم فيما بعد الى « بنك ليئومي لاسرائيل » (Bank Leumi Le-Israel Ltd.) (١٩٣١ – ١٩٥١) وكان المصرف المعتمد لدى الحكومة الاسرائيلية بين عامي ١٩٤٨ – ١٩٥٤ .

الناشئة (٢) » . كما لخص حصيلة النشاط الصهيوني بين عامي ١٩٠٦ – ١٩١٤ بقوله : « لقد جمعنا رصيدا من الخبرة ، وتوقعنا المشاكل التي تواجهنا في المستقبل وأرسينا حجارة الاساس لمؤسساتنا (٣) » .

ولا بد لنا من الاشارة الى ذلك الدور البارز الذي لعبه فكتور جاكوبسن طيلة اقامته في بيروت والاستانة ، خلال العقد الذي سبق اشتعال الحرب العالمية الاولى . فالذين عرفوا الرجل عن كثب (٤) يؤكدون انه كان مثال المثقف الروسي اليهودي المتطلع صوب الغرب . ويصفون التأثيرات الثقافية التي كوّنت شخصيته بانها تجمع بين الادبين والثقافتين الروسية والفرنسية . فقد استهوته النزعات الرومنطيقية والرخوة في الادب الفرنسي، بينما اسرته قوة اللغة الروسية ورنين الفاظها . ثم تعمّق في عالم المانيه العقلي والفكري ، وقادته خطاه الى التعرف على معالم الشرق العثماني آنذاك . وحين جاء الى بيروت راح يولي كل اهتمام للنزعات الاستقلالية والتحررية بين رعايا الامبراطورية العثمانية في الولايات العربية . فهو لم يساعد وايزمان عام ١٩٠٧ على اكتشاف سكان فلسطين العرب فحسب ، بل اخذ على عاتقه مسألة التعرف على كبار الزعماء وقادة الرأي في تلك الفترة (٥) . وكانت المنظمة الصهيونية خلال السنوات التي تلت تصفية مشروع يوغنده في المؤتمر السابع (١٩٠٥) قد قررت الشروع بممارسة النشاط العملي في فلسطين على نطاق اوسع (١٩٠٧) . فجاءت نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثاني على يد ثوار تركيه الفتاة لتفتح المجال الواسع امام النشاط الصهيوني المنظم على شتى المستويات . وتزعم واربورغ الجناح الصهيوني العملي داخل الحركة ، فحقق اولى انتصارات العمليين في المؤتمر الثامن (١٩٠٧) مع العلم بان اللجنة الادارية للمنظمة ضمت آنذاك ثلاثة ممثلين عن كل من « العمليين » و « السياسيين » . ونجحت مساعيه لحمل لجنة العمل الصهيونية في نهاية ١٩٠٧ على تعيين الخبير الاحصائي

---

٢ – Chaim Weizmann — **Trial and Error.** The autobiography of Ch. Weizmann (Harper & Bros. N.Y. 1949) P. 125

٣ – المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

٤ – انظر Arthur Ruppin — **The Agricultural Colonisation of the Zionist Organization in Palestine.** Trans. from German, by R.J. Feiwel (London 1926 (1925), P. 8.

٥ – راجع ما كتبه بلومنفيلد ، **المصدر السابق** .

وعالم الاجتماع اليهودي آرثور روبين (Arthur Ruppin) في منصب الممثل الفلسطيني للمنظمة الصهيونية ورئيس الدائرة التي عرفت فيما بعد بمكتب فلسطين . فاشترط روبين لقبوله ان يصار الى تأسيس شركة تتمتـــع بالحقوق القانونية ، الى جانب السلطة الادارية المتمثلة بمكتب فلسطين ، وتقوم بتصريف جميع الشؤون القانونية المتعلقة بالنشاط الصهيونـــي في البلاد (٦) . هكـــذا تأسست « شركـــة تطوير اراضـــي فلسطين »

---

٦ ــ للتعرف على الدور الذي لعبه جاكوبسن ومدير صحيفة « التركـــي الفتى » : سامي هوخبيرغ Sami Hochberg اثناء الاتصالات ببعـض اعضاء « حزب اللامركزية » من العـــرب ، انظـــر الدراسة التاليـــة : (المحاولات لاقامة تحالف عربي ــ صهيوني ١٩١٣ ــ ١٩١٤) . «Attempts at an Arab-Zionist Entente: 1913 - 1914» بقلم : Neville Mandel
وقد اعتمد المؤلف بصورة رئيسية على المواد التي تضمها دار المحفوظات الصهيونية المركزية في القدس . وتحدث عن اطلاع المثقفين العرب على اهداف الحركة الصهيونية ، فأفاض في ذكر المساعي التي بذلها جاكوبسن وهوخبيرغ، وكيف ادت الى مجيء ناحوم سوكولوف في مطلع نيسان(ابريل) عام ١٩١٤ ممثلا عن اللجنة التنفيذية ، والاستعداد لعقد اجتماع يضم مندوبين عن العرب والصهيونيين في بلدة برمانا اللبنانية (اول تموز(يوليو) ١٩١٤) . غير ان المؤلف المذكور يعتبر اندلاع الحرب الكبرى في الخامس من آب (اغسطس) بمثابة الحادث الذي وضع حدا لتلك المحاولات ،بعد ان تخوّف الصهيونيون من جدول الاعمال المقترح ولجأوا لشتى الوسائل بقصد تأجيل الاجتماع . (انظر مجلـة) : Middle Eastern Studies Vol. I, April 1965, No. 3, PP. 238 - 267)

* ومما يسترعي الانتباه ان الوثائق التي جرى ابرازها فيما بعد اثناء مثول الاحرار العرب امام الديوان العرفي في عاليه (١٩١٥) لكي يحاكموا بتهمة الخيانة وينفذ السفاح جمال باشا الحكم باعدامهم شنقا ، هذه الوثائق تضمنت سجلات للمحادثات التي اجراها جاكوبسن مع القادة العرب . كما لم ينفع الاحرار العرب وجود مذكرة بين الاوراق تؤكد انهم لم يعبأوا بعروض جاكوبسن . فهل كان وصول تلك الوثائق الى ايدي الاتراك ، وهي التي كانت بحوزة الصهيونيين ، من الاعمال التي قام بها جواسيس منظمة النيلي (Nili) تحت زعامة آرون آرونسون واخواته ؟ (انظر

(Palestine Land Development Company) نزولا عند رغبته وفي آن واحد مع مكتب فلسطين في يافا .

بينما رات المنظمة الصهيونية ان توسع نشاطاتها في الاستانة . فوقع اختيارها على جاكوبسن بالذات ليكون مسؤولا عن جميع النشاطات الصهيونية في تركيه . وجرى وضع خطط تطمح الى القيام بحملة توعية سياسية منظمة في الاستانة وتهدف بالتالي الى « صهينة » اليهود العثمانيين الذين لم يتأثروا بالاتجاهات الصهيونية وترددوا في اعتناق الدعوة . وقد تزعمت اللجنة المركزية لمنظمة الصهيونيين الروس حركة المطالبة بايجاد شبكة من الصحف ووسائل الاعلام لشن حملة دعائية صهيونية واسعة النطاق . فتم وضع ذلك كله موضع التنفيذ ابان رئاسة دافيد ولفسون في لجنة العمل الصغرى . وهكذا قامت المنظمة الصهيونية بتمويل صحيفة « التركي الفتى » Le Jeune Turc ، التي صدرت يوميا بالفرنسية بعد ان تغير اسمها من « كوريه دوريان » Courrier d'Orient وعمد الصهيونيون الى وضع رئاسة تحريرها بيد ناشر اسمي ، جلال نوري بك ، احد الوجهاء النافذين وابن وزير تركي .

وحين انضم فلاديمير جابوتنسكي الى مكتب الاستانة بناء على توصية من جاكوبسن ، كانت شبكة الصحف التي يسيطر عليها الصهيونيون في منتصف عام ١٩٠٩ تضم بالاضافة الى الصحيفة المار ذكرها ما يلي :

أ ـ مجلة اسبوعية بالفرنسية « الفجر » L'Aurore يرأس تحريرها لوسيان سيوتو .

ب ـ مجلة اسبوعية باللغةاليهودية الاسبانية (Ladino) El Judes-Ha-Hehudi يرأس تحريرها دافيد الكانون (El Kanon)

ج ـ مجلة اسبوعية بالعبرانية Ha-Mevasser (٧) .

ومع ارتفاع اسهم النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية اخذت اسهم الصهيونيين الالمان ترتفع في الاستانة . كما ان يهود الباطن (Crypto - Jews)

الاشارة الى هذه المسألة في كتاب ليونارد شتاين عن « وعد بلفور » ، **المصدر السابق** ، ص ٩٣ ـ ٤) .

٧ ـ انظر Joseph B. Schechtman — **Rebel and Statesman. The Vladimir Jabotinsky Story : The Early Years** (New York : Thomas Yoseloff Inc., 1956) P. 155.

الذين عرفوا بطائفة الدونمه (Dönmeh) ـ منذ ان فضل المسيح الدجال في القرن السابع عشر ، شبتاي زفي (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦) اعتناق الاسلام في الظاهر طمعا بالامتيازات وخوفا من عقوبة الموت ـ قد لعبوا ، على ما يبدو ، دورا بارزا في انقلاب تركيه الفتاة الذي جرى التخطيط له في عقر دارهم بمقاطعة سالونيكي . وانضم عدد منهم الى جميعة الاتحاد والترقي فكانوا من الاعضاء البارزين فيها . وتضافرت جهودهم مع الاتراك العثمانيين في اثارة الشكوك حول النوايا الروسية ، فكان من الطبيعي ان يؤيدوا الإتجاه الموالي لالمانيه (٨) . وتنبه اليهم الصهيونيون محاولين استمالتهم واستغلال موقفهم لصالح الحركة . فراحت الصحف التي اشرف عليها جاكوبسن تظهر نوعا من التعصّب لالمانيه وتبث دعاية المانيّة . حتى انها اقدمت على نشر مقالات لم تتودد فيها من بريطانيه واعتبرتها اوساط اللجنة التنفيذية في مدينة كولونيه مسيئة لسمعة الحركة . فحاول ولفسون تدارك الامر في رسالة بعث بها الى جاكوبسن في شباط (فبراير) ١٩١١ ، لفت نظره فيها الى « فضل بريطانيه على الصهيونيين والذي يفوق فضل الدول الكبرى الاخرى مجتمعة » . وربما ادرك البريطانيون آنذاك الخطر الكامن في تحوّل الصهيونية الى حركة تعمل بتوجيه اليهود الالمان وتخدم المصالح الالمانية . فحاولوا تلافي ذلك قبل ان يستفحل الامر . وهو ما تم لهم منذ اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، ليصل ذروته في صدور وعد بلفور (١٩١٧) وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين .

وبينما كان ماكس نوردو يقف امام المؤتمر الصهيوني التاسع (١٩٠٩) ليعلن وضع قضية البراءة على الرف بقوله : « وبكل احترام نودع فكرة البراءة في محفوظات الصهيونية السياسية الحديثة ونكف الحديث عنها بعد اليوم (٩) » ، راح ولفسون يدلي بتصريح مطوّل عن استعداد الصهيونيين دون تحفظ لقبول التزامات الولاء للدولة العثمانية والمؤسسات التابعة لها بحل ما يتضمنه ذلك من فروض الطاعة لقوانين البلاد . (راجع المصدر السابق ، ص ٦٤) . ولا تخلو التصريحات الصادرة عن زعماء الحركة الصهيونية في الفترة التي تفصل بين الانقلاب العثماني واندلاع الحرب من التشديد على صداقة الصهيونيين لتركيه ، محاولين ابراز استعمارهم

---

٨ ـ راجع Leonard Stein — **The Balfour Declaration** (Vallentine Mitchell, London, 1961), P. 35

٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

لفلسطين على صورة المساهمة الفعالة في رفعة الامبراطورية وتقدمها . كما ان ولفسون بالذات سارع الى التأكيد في خطابه امام المؤتمر الصهيوني العاشر (١٩١١) بان ما يريده الصهيونيون « ليس دولة يهودية بل وطنا » . وبلغت مسألة الولاء لتركيه ــ على حد تعبير شتاين (١٠) نوعا من أركان الايمان الصهيوني الذي سعى لتدعيم نفسه بالمجاهرة في اعتناق مبدأ الحياد وعدم الانحياز .

ففي ربيع ١٩٠٧ قام جاكوبوس كان (Jacobus Kann ــ ١٨٧٢ــ١٩٤٢) المصرفي والمتمول اليهودي الهولندي بزيارة لفلسطين(١١) . ونشر عام ١٩٠٩ كتابا سياسيا وسياحيا في آن واحد باللغة الالمانية دعاه بـ « ارض اسرائيل (Erez Israel) . ويبدو انه تحدث عن برنامجه الصهيوني وقانون ايمانه بمزيد من الصراحة فطالب الحكومة التركية بنقل سلطاتها الى الادارة اليهودية بفلسطين وتكليف هذه الادارة طيلة مدة الاتفاقية بجباية ضرائب يهودية من السكان بدلا من الضرائب العثمانية . كما اشترط ابرام اتفاق لمدة اقلها مئة عاما تؤجر بموجبه الدولة العثمانية الاراضي التي حددها لها من الشعب اليهودي . والحدود التي تصورها لفلسطين هي التالية : جبل لبنان شمالا والخط الحديدي بين دمشق والعقبة شرقا ، ومصر جنوبا ، والبحر الابيض المتوسط الى الغرب (١٢) . واعتبرت مطالبه آنذاك ، على الرغم من مطابقتها للتصور الهرتزلي للصهيونية ، متعارضة بشدة مع السياسة الرسمية للمنظمة . اذ كان التكتيك المتبع يقضي بازالة جميع الشكوك حول تجزئة الامبراطورية واقتطاع اطرافها ، وبالتوكيد على ان الصهيونية لا تطمح الى انشاء دولة يهودية بفلسطين . بل جل ما تبغيه رفع القيود عن الهجرة اليهودية الى فلسطين ومجرد الاستقلال الثقافي . كما ان مؤلف سيرة حياة جابوتنسكي ، الذي جرى تكليفه رسميا بتوضيح المسألة في الاستانة وتطمين الرأي العام ، يؤكد لنا اعتماد الدعاية الصهيونية بكاملها آنذاك على هذا النوع من التكتيك ونشاط التوعية بين اليهود وغير اليهود

١٠ــ راجع المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

١١ــ في طليعة مؤيدي هرتزل بهولنده . ساعد على تأسيس صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار والمنظمة الصهيونية الهولندية . وعضو لجنة العمل الصغرى بين ١٩٠٥ ــ ١٩١١ .

١٢ــ انظر Schechtman ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

على السواء (١٣) . وقد تمكن جابوتنسكي من كسب تعاون عدد من الشخصيات اليهودية التركية البارزة لصالح العمل الصهيوني . وعلى رأس هؤلاء عضوان نافذان في البرلمان العثماني : نسيم روسو (Nissim Russo) ونسيم مازلياح افندي (Nissim Matzliach Effendi) . وسبق لهما ان شاركا في تأسيس حركة تركيه الفتاة .

وحين نشر كان ترجمة فرنسية لكتابه المذكور بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني التاسع في هامبورغ ، وراح يبعث بنسخ منها الى رجال الدولة والسياسيين الاتراك والى الصحف ، تخوف المسؤولون عن الدعاية الصهيونية من ان يؤدي ذلك الى فضح « للمطالب المتطرفة » التي يتضمنها الكتاب ، باعتبارها تعبر عن الموقف الصهيوني الرسمي . فما كان من جاكوبسن الا ان سارع الى الطلب من ولفسون بحذف الفصل الذي يتحدث عن « الاماني الصهيونية » من الطبعة الفرنسية . غير ان ولفسون رفض الاقدام على ذلك واصر على عدم الرضوخ للمطلب الذي أصبح يحظى بتأييد اللجنة المركزية للمنظمة الصهيونية في روسيه . وانتهت المسألة باستقالة جابوتنسكي من عمله في المكتب الصهيوني .

وهناك النشاط الذي قام به الدكتور الفريد نوسيغ (١٤) ، شريك تريتش في عمله الصحفي . فقد سارع ذلك الصهيوني العملي بعد الانقلاب العثماني بالذهاب الى الاستانة حاملا معه مشروعات بعيدة المدى لتوطين اليهود بفلسطين وفي تركيه الآسيوية ، والعراق على الاخص ، تحت رعاية منظمة يهودية ــ المانية انشأها بنفسه لهذا الغرض وجعل مقرها في برلين : « المنظمة اليهودية العامة للاستعمار » (١٥) (Allgemeine Jüdische Kolonisation - Organisation).

١٣ــ المصدر نفسه ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

١٤ــ Alfred Nossig (١٨٦٤ ــ ١٩٤٢) . أسس جمعية الاحصاءات اليهودية ببرلين عام ١٩٠٢ ، ومنظمة لمساعدة الفن اليهودي (١٩٠٦) . عارض هرتزل وانضم الى معسكر الصهيونيين العمليين . انخرط بعد نهاية الحرب العالمية الاولى في سلك الدعوة لتحقيق السلام العالمي . وانشأ عام ١٩٣٨ فرعا يهرديا « لاتحاد الديانات من اجل السلام » . كتب مسرحيات بالبولونية وعبّر في منحوتاته عن موضوعات يهودية . اغتالته حركة المقاومة اليهودية في غيتو فرصوفيه بتهمة التعاون مع النازيين . (Standard Jewish Encyclopedia, P. 1434)

١٥ــ انظر ليونارد شتاين « وعد بلفور » ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وتخوف الصهيونيون من مقترحاته الصريحة وتحركاته الجريئة ، فعمدوا الى التنصل منه اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع ونبهوا الصهيونيين الآخرين الى ضرورة ابتعادهم عن نشاطات الرجل باعتبارها لا تصدر عن تفويض رسمي . وقد ابدت اوساط السفارة البريطانية في الاستانة آنذاك اهتماما متزايدا بمشروعات نوسيغ وعروضه المغرية بشأن تلميحاته الى التحالفات بين المانيه والدول الاوروبية الوسطى . ويرى ليونارد شتاين في ذلك كله نوعا من التفسير للمخاوف والشكوك التي ساورت بريطانيه حول علاقة السياسة الصهيونية بالسياسة الخارجية الالمانية في تلك الفترة . فظهرت من جديد بوادر الدعوة على صفحات التايمز اللندنية (١٩١٢) لمزيد من الاهتمام الجدي والواقعي بالحركة الصهيونية ، دون التفريط بمركز بريطانيه في العالم العربي (١٦) . وسارع ولفسون الى تفنيد التهم والرد عليها ، كما دعا نوردو الى الاستخفاف بذلك الهراء الذي يزعم ان الصهيونية تشكل مواقع امامية متقدمة للنفوذ الالماني التي يجري بناؤه على حساب بريطانيه .

غير ان الخلاف بين « السياسيين » و « العمليين » انفجر بحدة داخل المنظمة واثناء انعقاد المؤتمر الحادي عشر (بازل ١٩١١) ، فاستقال ولفسون من الرئاسة واحتفظ بادارة المصرف الصهيوني . بينما ترأس اوتو واربورغ لجنة العمل الصغرى التي ضمت جاكوبسن وهانتكه وشماريا ليفين ، بالاضافة الى ناحوم سوكولوف . ومنذ آب (اغسطس) ١٩١١ اصبح جاكوبسن عضوا في اللجنة التنفيذية الصهيونية . وبقي في المنصب حتى جرى تعيينه مديرا للمكتب الصهيوني في كوبنهاغن (١٩١٦) . وقد اظهر في تلك الفترة التي مارس نشاطه خلالها في الاستانة ميله وتأييده للسياسة الالمانية في الامبراطورية العثمانية . وتقرب من الدبلوماسيين الالمان في عاصمة الامبراطورية حتى حصل المكتب الصهيوني الذي كان يديره ، على اذن باستخدام الحقيبة الدبلوماسية الالمانية والشيفرة البرقية للتخابر مع المكتب التنفيذي ببرلين ومع فلسطين (منذ كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩١٤) . واستحصل جاكوبسن على وثائق سفر دبلوماسية قبل مغادرته الآستانة الى برلين في الخامس منحزيران (يونيو) ١٩١٥ . كما ان الزعماء الصهيونيين الالمان سارعوا الى اقامة صلات بوزارة الخارجية الالمانية واستعانوا بالنفوذ الالماني لانقاذ عدد من اليهود من السجن او الطرد من البلاد .

وقد مرّ معنا في الحديث عن تريتش ذكر الاسلوب الدعائي الذي

١٦ــ نقلا عن ليونارد شتاين ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

اعتمده الصهيونيون الالمان في السنوات الاولى للحرب الكبرى . اما الناحية البارزة في موضوع العلاقة بين الصهيونيين والسياسة الالمانية آنذاك فهي التي تتعلق بالامرين التاليين :

اولا : المساعي التي بذلها امثال بودنهايمر وأدولف فريدمان وفرانز اوبنهايمر لحمل المسؤولين الالمان على منح الصهيونين وعد بلفور الماني في مطلع الحرب .

ثانيا : الآراء التي عبّر عنها كورت بلومنفيلد في مقالة نشرها بمجلة (Preussische Jahrbücher) عدد آب ــ ايلول (اغسطس ــ سبتمبر) ١٩١٥ بعنوان « الصهيونية كقضية للسياسة الالمانية في الشرق » .

١ ــ تحدث بودنهايمر في مذكراته ، وفي الفصل الذي عقده حول نشاطاته الصهيونية ابان الحرب العالمية الاولى ، عن سياسته ومساعيه للتقارب من السياسة الخارجية الالمانية . وسبق له عام ١٨٩٨ ان تقدم بمذكرة الى وزارة الخارجية شدد فيها على اهمية اللغة اليديشية باعتبارها مجرد لهجة شعبية المانية والدور الذي يمكنها ان تلعبه في الامبراطورية الالمانية . لكن المسألة لم تلق أي اهتمام آنذاك . وحين اندلعت الحرب ادرك ان ما تسعى اليه المانيه هو القضاء على روسيه . فسارع الى تحويل تلك المذكرة لخطة شاملة وقدمها لوزارة الخارجية . اما المضمون فقد لخصه لنا على الشكل التالي : حين تنتصر المانيه يجب انشاء جامعة للدول الاوروبية الشرقية تمتد تقريبا بمحاذاة رقعة الاستيطاناليهودي (Pale of Settlement) وسوف يكون البولونيون أقوى امة في هذه الجامعة . لكن الاوكرانيين والروس البيض والليتوانيين والاستونيين واللتيين سوف يحافظون على التوازن . بينما ينضم اليهود الى الالمان لترجيح الكفة وقلب التوازن . يقوم دستور الدولة الجديدة على مبدأ الحكم الذاتي للقوميات التي تنتمي اليها الشعوب الغريبة داخل الامبراطورية الروسية . كما يجب بث الدعاية للمشروع بين اليهود البولونيين والروس . في حين يعتمد امل هذه الدعاية بالنجاح على مسارعة اليهود الى التطلع صوب الجيوش الالمانية الزاحفة باعتبارها جاءت لتخلصهم من النير الروسي . ولا شك ان خلق مثل هذه الدولة سوف يكون من المصالح العليا للامبراطورية الالمانية ، اذا يحررها من التعرض لخطر دائم يتمثل بالهجوم الروسي الذي يتهددها . وتوقع بودنهايمر ان تحصل انتفاضة قومية بين يهود روسيه ، مما يسهل اقامة الدولة اليهودية

بفلسطين (١٧) .

وحين اثارت المذكرة اهتمام وزارة الخارجية جرى استدعاء مؤلفها على عجل للتباحث بشأنها مع الخبراء السيـــاسيين في هيئة الاركان . وأسرع الزعمـــاء الصهيونيون في برلين الى تأليف « لجنة تحرير اليهود الروس » برئاسة فرانز اوبنهايمر ، وهـــي التي اخذت عـــلى عاتقها مهمة المضي في التفاوض مع وزارة الخارجية . كما ساهمت في اصدار مجلة مصورة عـــن الحرب (Kol Mevasser) ملأتها بالدعايات المعادية لروسيه وكتب سوكولوف مقالها الافتتاحي . وحين ترامى الى مسامع اللجنـــــة ان قيادة الاسطـــول الامبراطوري تنوي ارسال أحد الذين يوثق بهم الى الولايات المتحدة الإميركية بغية التأثير على اليهود هنـــــاك وكسبهـــــم لصالح الـــــدول المركزيـــــة (Central Powers) ، وجدت ذلك منسجما تمام الانسجام مع غاياتها واسرعت الـــى تقديم خدماتهـــا ، فتم ارســـال ايزاك شتراوس (١٨) في مطلع الحرب ليعمل الى جانب السفير الالمـــاني (١٩) كمستشار للشؤون اليهودية ، بعـــد ان وضعت ميزانية تبلغ ٢٠ الفا من الماركات الذهبية بتصرفه .

ويؤكد لنا بودنهايمر بان ولفسون كان على علم بكل ما يحـــدث . وقد شارك اللجنة رأيها في الترحيب بنصر الماني لكسر شوكة القياصرة ، ولم يجد اي تعارض بين المصالح الالمانية واليهودية فيما يتعلق بتسيير دفة الحرب(٢٠).

١٧ـ انظر ماكس بودنهايمر ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣٤ .

١٨ـ حاول شتراوس استمالة الصهيونيين الاميركيين ، فتقرب من القاضي برانديس وشماريا ليفين ، لكنه لم يفلح في تحويلهم عن تأييد الحلفاء . ثم أسس عام ١٩١٦ مجلـــة « ذي امـــيركان جويش كرونيكـــــل » (The American Jewish Chronicle) واستطاع اقناع ليفين بكتابـــــة المقالات المؤيدة لوجهة النظر الالمانية . والمعروف ان شماريا ليفين كان عضوا في اللجنة التنفيذية الصهيونية ولم يكن يحمل الجنسية الاميركية آنـــــذاك .

(انظر شتاين : **وعد بلفور** ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧)

١٩ـ الكونت يوهان هاينريخ برنستورف (١٨٦٢ ــ ١٩٣٩) Bernstorff خدم سفيرا لبلاده في واشنطون (١٩٠٨ ــ ١٩١٧) . وترأس المنظمة الالمانية لعصبة الامم عام ١٩٢٠ ثم مثل بلاده في المؤتمر العالمي لنـــــزع السلاح (١٩٢٦) . وهاجر منها عام ١٩٣٣ .

٢٠ـ راجع بودنهايمر ، **المصدر السابق** ، ص ٢٤٠ .

وامتنع بودنهايمر عن حضور اجتماع لجنة العمل الكبرى في كوبنهاغن للحؤول دون ظهور التواطؤ بين المنظمة الصهيونية واللجنة التي التفها الصهيونيون الالمان . فاكتفى بارسال مذكرة مطولة حول الموضوع . لكن لجنة العمل عارضت نشاطات الالمان وطالبت بانسحاب الصهيونيين منها ، كي لا يحصل التباس بينها وبين السياسة الصهيونية الرسمية التي شددت على حياد اللجنة التنفيذية . فلم يشأ بودنهايمر حل منظمته والامتناع عن القيام بأي نشاط لاجل فلسطين . بل ابدى استعداده للتخلي عن منصبه في رئاسة مجلس ادارة الصندوق القومي اليهودي . وتذرع آنذاك بالدعوة التي تسلمها في تلك الاثناء للاجتماع بالجنرال لودندورف (Ludendorff) .

وهكذا اصطحب فرانز اوبنهايمر الى الجبهة البولونية – الروسية ، حيث نجحت وساطات لودندورف لدى الماريشال فون هندنبورغ (Von Hindenburg) وحصل الإثنان على الرسالة التالية قبل عودتهما(٢١) .

« يسرني أن أعرب لكل من السيد المستشار القضائي الدكتور بودنهايمر والمدرس الخاص الدكتور اوبنهايمر ، بصفتهما الممثلان المنتدبان من قبل لجنة تحرير اليهود الروس ، عن الاهتمام الخيّر الذي اكنه لجهود لجنتهم ومساعيها ، وعن استعدادي لدعم اهدافها »

رادوم في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤

التوقيع : القائد الاعلى للجيش الشرقي

فون هندنبورغ

وفي تعليقه على التصريح المذكور يؤكد بودنهايمر ان الوثيقة فقدت قيمتها السياسية عند نهاية الحرب وقيام الدولة البولونية . كما انه لا يريد التقليل من شأنها ، مع العلم بان وعد بلفور صدر ليغني عنها بعد ما يزيد على الثلاثة اعوام من تاريخها ! ويجد فيها مناسبة لمقارنتها بالتصريحات التي تضمنتها مراسلات ماكماهون والشريف حسين من حيث تشابه الطابع بين الاثنين ! فلا يخفى ان ما يرمي اليه من وراء اجراء هذه المقارنة اللامتكافئة ليس الا اختزال مراسلات ماكماهون – حسين التي جاء وعد بلفور لينص صراحة على الاخلال بالتعهدات الواردة فيها ، وبالتالي التقليل من اهميتها ازاء وعد بلفور .

---

٢١ – المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

٢ ــ حين يستعرض بلومنفيلد ربع قرن مــن الصهيونية الالمانية كما عاش من خلالها المسألة اليهودية (٢٢) نجده يتحاشى الحديث عــن مضمون المقالة التي حاول فيها اظهار المسألة اليهودية داخل اطار السيــاسة الالمانية في الشرق . فهو يعترف ، مثلا ، بان الصهيونية الالمانية كانت موالية لالمانيه آنذاك وعقدت آمالها على انتصار دول المركز . ويذكر ان رئيس تحرير المجلة المذكورة (Preussische Jahrbücher) وناشرها طلبا اليه كتابة مقالة يرد بهــا على الرأي القائل بان الصهيونية لا تعدو كونهــا شهابا سياسيا يلمع ثــم ينطفيء . كما يهتم بنقل ما قاله له رئيس التحرير : « انت تريد الحصول على فلسطين مــن اولئك الذين يحتلونها بعد نهاية الحرب ، وما عليك الا ان تأخذ دوما بعين الاعتبار ، ان المانيه قد تخرج منتصرة (٢٣) . لكنه لا يأتي على ذكر ما كتبه في تلك المقالة ، ويحيل القارىء في خاتمة الفصل على كتاب ريتشارد ليختهايم (Lichtheim) الذي يتناول في جزئيه قصة النشاط الصهيوني لدى المعسكر التركي ــ الالماني اثناء الحرب العالمية الاولى .

وقد اورد ليونارد شتايــن في الفصل الذي عقده حول « التحركــات الصهيونية في برلين والاستانة (٢٤) » بعض ما تضمنه مقال بلومنفيلــــد ، والقضية التي راح يدافع عنها ، على الصورة التالية : « حسنا تفعل المانيه ، لا بل مــن مصلحتها التعاون مع الصهيونيين . فالصهيونية لا تسعى وراء اهداف سيــاسية انفصالية الطابع . ومسألة سلخ فلسطين عن جســـد الامبراطورية العثمانية غير واردة اطلاقا . بل على العكس ، سوف يجد الاتراك في اليهود عنصرا يمكــن الاعتماد عليه والركون اليــه حتى ابعد الحدود .

٢٢ــ يصف بلومنفيلد شعوره بعد زيارة قام بها لفلسطين في نيسان (ابريل ١٩١٤) حيث تذكر قول دزرائيلي « العرب من اليهود الراكبين » او المتطين الصهوات ! وادرك ان ما يدعوه « مشكلة العرب » تعتبــــر مشكلتنا الرئيسية سيــاسيــا وانسانيا ــ فيقول : « لو سألني أحدهم آنذاك هل تعتبر الصهيونية بالفعل حلا للمسألة اليهودية ، لكنت ارد عليه بقولي ان الصهيونية هي جواب جيلنا عــلى المسألة اليهوديـــة وليست الحل » . (انظر مذكرات بلومنفيلد ، **المصدر السابق** ، ص ١١٢) .

٢٣ــ بلومنفيلد ــ « المسألة اليهودية كمــا عشتها » ــ **المصــدر الســابق** ص ١١٧ .

٢٤ــ انظر شتاين ، **وعد بلفور** ، **المصدر السابق** ، ص ٢١٢ــ ٢١٣ .

ويمكن لهذا العنصر بالتالي ان يفعل الكثير في سبيل رفع مستوى حياتهم الثقافية والاقتصادية » . ثم ينتقل الى التكهن حول موقف بريطانيه فيقول :

« قد تدّعي الصحافة البريطانية اهتماما ودودا بالقومية اليهودية . غير ان السيطرة البريطانية على فلسطين ليست بالمسألة الجذابة من الزاوية الصهيونية . لان سياسة بريطانيه في الشرق الاوسط تتوقف على مصر (والبقاء في قناة السويس) . فلا يمكن لليهود اذن ان يعتمدوا عليها كي تضع بثقلها وراء امانيهم ومطامعهم بفلسطين » . وربما اراد تضمين كلامه ما يلي : « ان بريطانيه سوف تميل نحو العرب » . ويمضي في حديثه عن النشاط الصهيوني بفلسطين مؤكدا ان « انعاش الحياة اليهودية هناك سوف لا يعود بالنفع على المانيه عن طريق تقوية حليفتها وصديقتها تركيه فحسب ، بل ستجني منه المانيه حسنات مباشرة لنفسها » .

وهنا تخطر له مسألة اللغة اليديشية التي حاول بودنهايمر من قبله الاستعانة بها ، فيعلن بان معظم اليهود يتكلمون لغة أم تقترب جدا من الالمانية . لذلك فهو يلتقي مع ديفيز تريتش في كراسه الدعائي المار ذكره في فصل سابق ، ليؤكد بان اليهود هم الوسطاء الطبيعيون بين المانيه والشرق . وسوف يشكل اولئك اليهود الذين استوطنوا فلسطين معقلا من معاقل النفوذ الالماني في ذلك الجزء من العالم . كما انه يمكن الاعتماد عليهم ، فيما لو اتيح لهم المجال ، لنشر الثقافة الالمانية ودفع عجلة التغلغل الاقتصادي الالماني داخل الامبراطورية العثمانية » (٢٥) .

فلنتذكر ما قاله هرتزل قبل ذلك بحوالي عقدين من السنين خلال محادثاته مع دوق بادن الاكبر وفي تلك الرسائل التي بعث بها بسمارك وامبراطور المانيه غليوم الثاني . وقد سارع ليختهايم آنذاك الى تقديم نسخة من المقالة المذكورة قبل نشرها الى مستشار السفارة الالمانية في الاستانة ، فون نويراث (Von Neurath) . وكانت الغاية من كل ذلك حمل وزارة الخارجية الالمانية على استصدار تعليمات رسمية الى قناصلها في فلسطين والبلاد العربية بشأن اهتمام الحكومة الالمانية بالصهيونية وعطفها عليها . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ جرى ابلاغ اللجنة التنفيذية الصهيونية في برلين بنص الوثيقة التي اصدرتها وزارة الخارجية وحرصت فيها على عدم ذكر اسم فلسطين صراحة . فقد طلب الى القناصل اتخاذ موقف صديق من النشاطات اليهودية الرامية الى دفع عجلة التقدم الثقافي والاقتصادي ليهود

---

٢٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٢١٢ ــ ٣ .

تركيه والى تهجير وتوطين اليهود من بلدان اخرى . كما جرى تنبيه القناصل الالمان بصدد الحساسيات التركية . ويبدو أن الالمان وجدوا من مصلحتهم آنذاك التحالف مع الصهيونية ، حتى انهم رفعوا الوثيقة المذكورة الى المستشار الالماني ، بيتمان هوللفيغ (Bethmann - Hollweg) للمصادقة عليها . واكثر جاكوبسن وواربورغ من التردد على وزارة الخارجية الالمانية في اواخر العام ١٩١٥ للتعبير عن امتنان الصهيونيين والاستئذان بابلاغ الصهيونيين في سائر انحاء العالم بشرى البادرة الالمانية الصديقة . فكرر الالمان طلبهم باعتماد الحذر والحرص ، بينما راح واربورغ يفكر بوقع تلك الانباء على يهود الولايات المتحدة الاميركية عشية استعدادهم لتنظيم مؤتمر يهودي اميركي (American Jewish Congress) .

هذا وقد لعبت فترة التقارب بين الصهيونيين والالمان دورا بارزا ـ على ما يبدو ـ في ممارسة الضغط على وزارة الحربية البريطانية خريف عام ١٩١٧ للاسراع بالموافقة على وعد بلفور ، قبل ان يسبق الالمان الى اصدار وعد مؤيد للصهيونية من جانبهم .

وسوف يطالعنا في الفصل التالي نمط آخر من انماط الحياد الصهيوني المزعوم . ففي المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (فيينه ١٩١٣) نجد آرثور روبين يعلن «اننا قد تصالحنا مع الحقيقة القائلة بانه لا يتوجب علينا تحقيق هدفنا عن طريق البراءة بل من خلال النشاط العملي في فلسطين » . بينما يقف حاخام السفارديين في بريطانيه ، موزس غاستر ، ليؤكد ان الصهيونية ليست حركة المانية ويرد على التهم التي وجهتها الصحافة البريطانية حول خدمة الصهيونيين للمصالح الالمانية . ثم يدّعي ان مشاعر الصهيونيين لا تتجه صوب الالمان او البريطانيين او الفرنسيين او الروس ، بل هي تنفرد بكونها يهودية لا يستأثر بها الا كل ما هو يهودي فحسب .

التقليد الصهيوني البريطاني

حين عكف ناحوم سوكولوف ، بعد صدور وعد بلفور ، على كتابة تاريخ الصهيونية من ١٦٠٠ ـــ ١٩١٨ ، وجد نفسه يعقد الفصل تلو الآخر لاقتفاء آثار التقليد الصهيوني في السياسة البريطانية ، وفي الفكر والادب الانجليزي على السواء . ولو عمدنا الى استحضار المراحل والمحطات الرئيسية للتقليد المذكور لجاز لنا الاتيان على ذكر كرومويل في منتصف القرن السابع عشر وبالمرستون ـــ شافتسبري خلال الاربعينات وما تلاها من القرن الماضي ، بالاضافة الى امثال اللورد لانسدون وجوزيف تشمبرلن ابان السنوات الاخيرة من نشاط ثيودور هرتزل وسعي الحركة الصهيونية للحصول على براءة استعمار في ظل الحماية والسيطرة التي تبسطها الامبراطورية البريطانية على ممتلكاتها الشاسعة الاطراف .

وليس بمستغرب ان نجد هرتزل يخاطب الاجتماع التأسيسي للاتحاد الصهيوني البريطاني عام ١٨٩٨ بقوله : « منذ اللحظة الاولى اتجهت انظاري الى انجلتره (١) » . كما يصف انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن (١٩٠٠) بانه كناية عن « انتقال الصهيونية السياسية الى لندن ، لكي تقدم نفسها رسميا الى العالم الانجليزي وتطلب تأييده ... الادبي والسياسي فقط (٢) » . ولا شك ان هرتزل قد ادرك منذ اللحظة الاولى في تفكيره الصهيوني تلك الصورة الواضحة المعالم للتوازي ، لا بل التلاقي في المصالح بين الصهيونيين وبريطانيه. وقد عبّر عن ذلك خير تعبير واصرحه، حين وقف يعلن في احدى خطبه اللندنية (١٨٩٩) بان « الانجليز كانوا اول من ادرك ضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث . لذلك يرفرف علم بريطانيه

---

١ ـــ Oskar K. Rabinowicz — « HERZL AND ENGLAND » مقالة نشرت في المجلد الثالث من كتاب هرتزل السنوي ، بمناسبة العيد المئوي لولادة هرتزل (Herzl Press, New York, 1960), P. 38.

٢ ـــ المصدر نفسه .

العظمى فوق البحار . ولذا اعتقد بان الفكرة الصهيونيـة ، وهي فكـرة استعمارية ، يجب ان تحظى في انجلتره بفهم سريع وسهل (٣) » . وفي المؤتمر الصهيوني الرابع يعاود هرتزل الكرّة متحدثا عما اسماه بالمشكلة الآسيوية من حيث ازدياد خطورتها والحاحها ومن حيث اهميتها المتزايـدة بالنسبـة للامم المتمدنة . مما يطالب هذه الامم باقامة « محطة للمـدنية في خـدمـة الإنسانية » على الطريق الى آسيه ، والطريق الاقصر . لذلك تصبح فلسطين موقع هذه المحطة او المعقل الامامي وتبرز الصهيونية لتتيح امام المصـالح البريطانية فرصة ثمينة اذ تزوّدها بطريق سهل الى آسيـه . فيتصاعـد هرتزل حماسا ليعبّر عن مشاعره وعن تلك الآمال التي يعلقها على الدولة التي يصفها بقوله :

« انجلتره ، انجلتره العظيمة ، انجلتره الحرّة ، انجلتره سيّدة البحار، سوف تتفهم اهدافنا . ولنتأكد ان الفكرة الصهيونية سوف تنطلق في طيرانها من هنا محلقة الى اجواء اعلى وابعد (٤) » .

وحين اوشك التغني بعظمة بريطانيه ان يؤتي ثماره وجاءت الرسالـة التي بعث بها السير كليمانت هيل بخصوص استعمار يوغنده وجـد هرتزل نفسه امام انقسام خطير في صفوف المنظمة الصهيونية . وحضرته الوفاة في الرابع من تموز (يوليو) ١٩٠٤ ، قبل ان ينعقد المؤتمر الصهيوني الذي انتخب خليفة له وقرر رفض مشروع يوغنده .

وبعد وفاة مؤسس الصهيونية ببضعة اسابيع كان حاييم وايزمان قد عقد العزم على ترك الاقامة في جنيف مفضلا الانتقال الى انجلتره التي ظهرت له على استعداد اكثر من اية بلاد اخرى لاغداق عطفها الصحيح على الحركة الصهيونية . وقد وصف تلك الصفحة الجديـدة التي بـدأها في مدينـة مانشستر مؤكدا ان هجرته الى بريطانيه كانت في الواقع كناية عن « تراجع الى الوراء او تحفز ، استعدادا لاجادة القفـز (٥) » . وبعـد وصولـه الى

٣ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٣ ـ انظر ايضا مقالة رابينوفتز التي يضمها المجلد الاول من **كتاب هرتزل السنوي** (نيويورك ١٩٥٨) بعنوان « هرتزل ، مصمم وعد بلفور » Herzl, Architect of the Balfour Declaration, PP. 1 - 106

٥ ـ انظر وايزمان ـ **التجربة والخطأ** : « السيرة الذاتية لحاييم وايزمان » ، (نيويورك ، ١٩٤٩) ص ٩٣ («reculer pour mieux sauter»).

بريطانيه بخمسة شهور جرى انتخابه مندوبا الى مؤتمر الاتحـاد الصهيوني البريطاني . وتعرّف ، بواسطة صديقه جوزف ماسل (Massel) الذي كان محسوبا على اليوغنديين آنذاك ، على شارل دريفوس ، الذي عرف بمعارضته لمشروع يوغنده ، لكنه رضخ لضغط الزملاء مختارا الامتناع عن التصويـت اثناء مناقشة المشروع المذكور في المؤتمر الصهيوني السادس .

ودريفوس هذا من النافذين في اوسـاط مانشستر . فهو رئيس الجمعية الصهيونية في المدينة وعضو المجلس البلدي ، كما انه يشغل منصب مدير لاحدى معامل الاصباغ الكيماويـة (Clayton Aniline Works) ويرأس الفرع التابع لحزب المحافظين في المدينة نفسهـا . وقد حصل وايزمـان بواسطته فيما بعد على وظيفة عمل جزئية في قسم البحوث التابع للمعامل المذكورة . كما بدأ يلقي محاضراته في الكيمياء بجامعة مانشستر منذ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥ . غير ان الحدث الاهم بالنسبة لموضوعنا ، ومن خلال استمرار التقليد الصهيوني البريطاني ، هو دون شك ذلك اللقاء الذي رتّبه دريفوس بين آرثور جيمس بلفور وحاييم وايزمان ، وتم في مطلع العام التالي (١٩٠٦) ، بينما كان بلفور يخوض المعركة الإنتخابية كمرشح لحزب المحافظين عن دائرة كلايتون (Clayton) في مدينة مانشستر .

والمعروف ان بلفور كان رئيسا للوزارة البريطانية اثناء عرض مشروع استعمار يوغنده على الصهيونيين . فقـد جاء الى الحكم بعد استقالـة ساليزبوري في تموز (يوليو) ١٩٠٢ وارغمته الاحداث والتطورات السياسية الداخلية على تقديم استقالته في نهاية عام ١٩٠٥ . وفي الانتخابات العامـة التي احرز فيها الليبراليون نصرهم الساحق ، ترشح بلفور عن المحافظين في كلايتون ، او المنطقة الشمالية من مانشستر ، حيث تقوم المعامل التي يديرها دريفوس ، فكان هذا الاخير عامله السياسي (Political agent) والمشرف على حملة نشاطه الانتخابي في تلك الدائرة .

اما صلة بلفور بالصهيونية فلا تتضح معالمها ويسهل فهمها الا من خلال النظر اليها على الصعيدين التاليين : ١ ـ الصعيد الفكري ـ الديني الـذي يضعه في اطار « الصهيونية الشعوبية » او الاممية ـ التي مرّ ذكـرها في القسمين الاول والثاني من هذه الدراسة ـ ويعكس تشرّبه بعبرانية الكتاب المقدّس . فقد اهتم « بأهل الكتاب » ـ قبل ظهور الصهيونية الهرتزلية ، كما عني بالفلسفة اليهودية وبمشاكل اليهود في العالم المعاصر ، بالاضافة الى ما يدين به كل من الدين والحضارة المسيحيين لليهودية . حتى ان ابنة اخته ، المسز بلانش دوغديل ، تتحدث عن ذلك الاهتمام باليهود وتاريخهم في كتابها

عن سيرة حياته بقولها : « لقد كان اهتماما رافقه طيلة حياته ، تعود جذوره الى دراسة أمه للعهد القديم وتربيته الاسكوتلاندية (٦) » . واثناء دراسته في ترينيتي كولدج بجامعة كمبردج كان في عداد الطلاب الذين التقوا جورج اليوت خلال زيارتها بحثا عن مواد لكتابها عن دانيال ديروندا (١٨٧٤-١٨٧٦) والذي دعت فيه للفكرة القائلة بضرورة تسديد الدين الادبي والمعنوي المستحق لليهود في ذمة المسيحية والعالم المتمدن (٧) . كما انه كان يقرأ اصحاحات سفر اشعيا التي تتغنى بالتوق الدائم لفلسطين . ٢ - الصعيد السياسي القومي : اذ لم ير بلفور في اليهود مجرد اداة لتحقيق العصر الالفي المسيحي ، ولم يكن ليعتبرهم بمثابة وسطاء في صفقة المصالح الامبريالية البريطانية . بل اصر على اعتبارهم مجرد منفيين ، يعيشون بعيدا عن وطنهم . فخالجته الفكرة القائلة بوجوب اعادة وطنهم القديم اليهم ، كوفاء لذلك الدين الذي يتعذر قياسه او تقديره من جانب المسيحية (٨) .

وحين رفض الصهيونيون العرض الذي تقدمت به حكومة بلفور بواسطة وزير المستعمرات ، تشمبرلن ، آنذاك ، استيقظت في ذهن بلفور تلك المشاعر التي يكنها لليهود وثار فضوله . هكذا تبدأ على الاقل قصة اجتماعه بوايزمان ، حسب المصادر المتعددة . فقد دفعه الفضول الى رغبة في الاجتماع باحد الصهيونيين الذين عارضوا مشروع يوغنده . واعرب لدريفوس عن رغبته تلك بحجة استقصاء الاسباب الكامنة وراء الموقف الصهيوني من العرض المذكور . هذا مع العلم بان دريفوس نفسه لم يكن من مؤيدي المشروع ، لكنه لم يتردد لحظة واحدة في اخبار بلفور عن « احد القادة الشباب في الحركة الصهيونية : يهودي روسي اسمه حاييم وايزمان (٩) » . كما ان وايزمان نفسه يؤكد لنا في مذكراته : « ولا داعي للقول بانني كنت اتوق للاجتماع به (١٠) » . اما ما يذكره وايزمان عن اهتمام دريفوس باتاحة المجال امام بلفور لاقناعه (اي وايزمان) بخطأ موقفه ، فقد تتضاءل اهميته وصحته في ضوء الوقائع التي نعرفها . ويجدر بنا ان نتذكر

---

٦ - Blanche E.C. Dugdale — **Arthur James Balfour.** Vol. I 1848 - 1906 (Hutchinson, London 1936) P. 433

٧ - انظر توخمان ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ (الحاشية) .

٨ - توخمان ، المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

٩ - انظر دوغديل ، سيرة بلفور ، المصدر السابق ، ص ٤٣٣ - ٤ .

١٠- التجربة والخطأ ، ص ١٠٩ .

قرار المؤتمر الصهيوني السابع (٢٧ ـ ٣٠ آب ، اغسطس ، ١٩٠٥) الذي تقدم بخالص الشكر من حكومة بلفور وسجل بعين الرضا اعترافها بالمنظمة الصهيونية في سعيها لايجاد حل للمشكلة اليهودية ، كما انه اعرب عن امله المخلص بان تتابع تلك الحكومة توفير مساعيها الحميدة في كل ما يتعلق ببرنامج بازل .

فلا عجب اذن ان تسعى الصهيونية بشخص وايزمان للاقاة بلفور اثناء تلك المرحلة الحاسمة من حياته السياسية وفي صميم المعركة الانتخابية بالذات . وليس بمستغرب ان يرحب بلفور برؤية وايزمان في مقابلة استغرقت خمسة اضعاف ربع الساعة المقرر لها . انما المستبعد ان يكون هم بلفور آنذاك مجرد اقناع وايزمان بالخطأ الذي يكتنف موقف المعارضة لمشروع يوغنده . ولا شك ان الصهيونيين البريطانيين كانوا يعلقون شتى الآمال على فوز بلفور وحزبه في الانتخابات ، علهم يستفيدون من مساعيه الحميدة . كما ان صحيفة مانشستر الليبرالية (الغارديان) كانت تضم في عداد اسرة تحريرها المحامي الصهيوني هاري زاخر (Harry Sacher) ،صديق وايزمان منذ المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) ، واحد اركان الثالوث (زاخر ـ ماركس ـ سيف) الذي تحلّق حول وايزمان ودار في فلكه الصهيوني . فهل تكرر لقاء المصالح الذي كان يحلم به هرتزل وتغنّى به في

---

* يبدو ان وايزمان تعرّف على بلفور للمرة الاولى في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥ ، بينما كان هذا الاخير يزور دائرته الانتخابية في مانشستر ويخطب في اجتماع للمحافظين . وقد تم التعاون بواسطة شارل دريفوس بالذات (٢٧ كانون الثاني ، يناير) . وكتب وايزمان الى يوسشكين ، الذي تزعم الحملة المناوئة لمشروع يوغنده ، في التاسع والعشرين من الشهر نفسه يقول : « رأيت بلفور ، رئيس الوزراء ، اول امس ، في اجتماع شعبي . لم نستطع التحدث كثيرا ، لكنه دعاني لمقابلته في لندن . والزعيم المحلي للصهيونيين ، الدكتور دريفوس ، من اصدقاء بلفور المقربين ... » (انظر شتاين : **وعد بلفور** ، ص ١٤٧) وفي العام نفسه (١٩٠٥) ترأس الحاخام موزس غاستر « جمعية صهيونية فلسطينية » في لندن غايتها محاربة الدعوة الاقليمية . وكان وايزمان من اعضائها ! Oskar Rabinowicz **Fifty Years of Zionism : A Historical Analysis of Dr. Weizmann's «Trial and Error» (London, 1950), P. 60-61**

ساعات اليقظة ؟ ربما . لكن فشل المحافظين في تلك الانتخابات برهن للصهيونيين انهم راهنوا على الجواد الخاسر .

اما الحوار الطريف الذي دار خلال تلك المقابلة ، فقد نقله الينا وايزمان على الصورة التالية ـ بعد ان اكد لبلفور « اننا نحاول تصفية تركة يوغنده التي خلفها لنا زعيم الحركة قبل وفاته (١١) :

« ثم قلت له فجأة : يا مستر بلفور ، لنفترض انني اعرض عليك باريس بدلا من لندن ، فهل تقبل العرض ؟

فاستقام في جلسته وتطلع الي ، ثم اجاب :

ـ « لكن لندن في حوزتنا ، يا دكتور وايزمان » .

قلت : هذا صحيح . والقدس كانت لنا ، يوم لم تكن لندن سوى مستنقع .

وهنا استوى في مقعده واستمر يحدجني بنظراته ، ثم تفوه بأمرين ما زلت اذكرهما بصورة حية :

الامر الاول : هل هناك كثير من اليهود يفكرون مثلك ؟

فأجبته : « اعتقد انني اعبر عما يخالج ملايين اليهود الذين لن تراهم ابدا ولا هم يستطيعون التعبير بمفردهم ، لكنني استطيع ان ابلط بهم شوارع البلد الذي انا منه .

وعلق على ذلك بقوله : « اذا كان الامر كذلك ، فسوف تكونون قوة في يوم من الايام » .

وبينما كان وايزمان يهم بمغادرة المكان بعد المقابلة الطويلة ، ابدى بلفور له هذه الملاحظة البسيطة :

« عجيب ، فاليهود الذين القاهم يختلفون تماما عما تقول » .

وما كان من وايزمان الا ان اجابه بجراته المعهودة :

« انت تلقى النوع الخطأ من اليهود ، يا مستر بلفور » !

وهكذا انتهت المقابلة عند هذا الحد ، ولم ير الرجلان بعضهما للمرة الثانية الا بعد مضي ثماني سنوات ، اي في اواخر العام ١٩١٤ ! وقد تركت تلك المقابلة في نفس بلفور الانطباع التالي ، والذي طالما تحدث عنه الى ابنة اخته التي كتبت سيرة حياته :

« لقد ادركت من خلال ذلك الحديث مع وايزمان ان النمط اليهودي

---

١١ ـ وايزمان ، **التجربة والخطأ** ، ص ١١١ .

في حب الوطن كان فريدا من نوعه . اذ كان حبهم لوطنهم يرفض الاكتفاء بمشروع يوغنده . ان رفض وايزمان المطلق حتى مجرّد النظر في المشروع هو الذي ترك انطباعا قويا في نفسي (١٢) » .

* * *

وفي العام التالي ، ١٩٠٧ ، تمكن الصهيونيون من شراء صحيفة « الجويش كرونيكل » اللندنية . ولعب صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار دورا بارزا في الصفقة ، ممثلا بكل من ولفسون وليوبولد كسلر ، وجاكوبوس كانّ وجوزيف كووين والدكتور كاتز نيلسون ، بالاضافة الى ليوبولد غرينبرغ الذي اصبح مدير الادارة الجديد للصحيفة في حلّتها الصهيونية الرسمية . كما اعطي عقدا لمدى الحياة وراح يكتب المقالات الرئيسية المستوحاة من الاتجاه الصهيوني الرسمي ويدحض الاعتراضات التي سبق للصحيفة نفسها ان نشرتها وساقتها ضد الحركة الصهيونية .

ثم شهدت الفترة الممتدة بين ١٩٠٧ — ١٩١٧ في تطور الصهيونية البريطانية سلسلة من الاحداث والتحولات التي عملت لصالح الاتجاه العملي في الحركة . فاستفاد العمليّون من خروج الاقليميين وراء اسرائيل زانغويل وتمكنوا من استرجاع رئاسة الاتحاد الصهيوني البريطاني عام ١٩٠٩ بعد انتخاب الحاخام غاستر للمنصب . بينما فاز الصهيوني الهرتزلي غرينبرغ بنيابة الرئاسة ، متفوقا على خصمه العملي ، هربرت بنتويش ، باكثرية صوت واحد فقط (١٣) . وذهب الصهيونيون البريطانيون الى المؤتمر الصهيوني التاسع (هامبورغ ١٩٠٩) فريقين : فريق انتدبه الاتحاد الصهيوني البريطاني فاعلن مناصرته لرئاسة ولفسون ، والفريق الذي ارسلته جمعية المكابيين فانضم الى معارضي ولفسون من العمليين الروس والالمان والنمساويين . لكن اللجنة التنفيذية القديمة (ولفسون — كانّ — واربورغ) تمكنت من اعادة انتخابها . فبقيت السيطرة بأيدي « الالمان

---

١٢ — Dugdale ، ص ٤٣٥ .

١٣ — انظر Israel Cohen — A Jewish Pilgrimage. Autobiography (London, 1956) P. 76-7.

العثمانيين (١٤) » على النمط الذي شهدناه في فصل سابق .

وفي خريف ١٩١٠ اصدرت صحيفة « دي فلت » عددا خاصا عن « فلسطين » . ثم جرى جمع قسم من مقالات العدد في مجلد صدر في العام التالي (تموز ، يوليو ، ١٩١١) وترجم الى الانجليزية مع مقدمة بقلم ولفسون ، عام ١٩١٢ . وكان عنوانه « العمل الصهيوني في فلسطين » (Zionist Work in Palestine) ، باقلام لفيف من الثقاة في الموضوع . وكتب اسرائيل كوهين مقدمة للطبعة الاميركية (١٥) تحدث فيها عن ضرورة تعريف البلدان الناطقة بالانجليزية بنشاطات الحركة الصهيونية داخل فلسطين والمنجزات التي تتوقعها في المستقبل . كما تمنّى ان يساهم الكتاب في ازالة الجهل الذي تعاني منه الحركة المثالية وفي تصحيح التفسيرات المغلوطة التي تصدر عن « الراغبين في تخييبها وتفشيل جاذبيتها » . فأكد ان الاساطير الخيالية التي يروّجها الاعداء عن تخطيط الصهيونية لاقامة دولة مستقلة في فلسطين والنية في توطين جميع يهود العالم هناك ، لا اساس لها من الصحة . وانتهى الى القول بان الصهيونية « حركة مسالمة لشعب قديم يسعى لاحياء حياته وثقافته القومية في ارض اجداده » ، لكنها محرومة من ذلك النفوذ والثراء اللذين يتمتع بهما اقطاب المال اليهود في كل بلد !

وتحدث يوسشكين في مقالة عنوانها « فلسطين والبلدان الاخرى » مستعرضا السنوات السبع التي انقضت منذ ان تقدم هرتزل بمشروع يوغنده من المؤتمر السادس . فهاجم زعيم المشروع الجديد ، اسرائيل زانغويل ، و « العروض » التي « انهالت » على منظمته من يوغنده الى الكونغو وجنوب مراكش وبرقه والعراق والمكسيك واستراليه . ووصف

---

١٤ ـ في صيف ١٩٠٩ قام وفد برلماني عثماني بزيارة لندن لدراسة النظام البرلماني البريطاني واقامة الاتصالات مع السياسيين هناك . وقد ذكر اسرائيل كوهين في سيرة حياته ان طلعت باشا تراس الوفد الذي ضم اثنين من اليهود : صاصون هاسكل افندي ونسيم مازلياح افندي ، بالاضافة الى الفيلسوف التركي رضا توفيق بك ، الذي اكد لكوهين بان الحكومة التركية لن توافق ابدا على قيام كيان يهودي مستقل بفلسطين . (انظر كوهين ، **المصدر السابق** ، ص ٧٨) .

١٥ ـ **Zionist Work in Palestine, By Various Authorities, with a Foreword by David Wolffsohn, Ed. by Israel Cohen (Judaean Publishing Company, New York, 1912).**

اليهودية الاصلاحية في دعوتها لاستبدال التقليد المتوارث ، والقبول بأيـــة بقعة على سطح الكرة الارضية بدلا من « الارض الموعودة » بانها « موتـــا قوميا » . ثم اعلن ان الشعب اليهودي له ثالوثه ، كما يؤمن العالم المسيحي بالثالوث المقدس : التوراة (Torah) ارض اسرائيـــــل (Erez Israel) واللغة العبرانية (١٦) .

وجاءت مقالة الياس اورباخ (حيفا) عن « النظرة اليهودية في فلسطين » في خاتمة الكتاب لتضع النقاط على الحروف . فدعا كاتبها الى التسليـــم بالبديهتين التاليتين : اولا ، ان فلسطين ليست بلادا خالية ، وثانيا ، انها تتخذ طابعها من العنصر السائد والبالغ تعداده ٦٠٠ الف من غير اليهود . وتنبه الى ضرورة الاقلاع عن تلك النظرة التي درجت على اعتبار اهـــل فلسطـين « كميـــة مهملة او جديرة بالاهمـال »(quantité négligeable) ، مؤكدا ان التغيرات الثورية التي طرأت على الاوضاع السياسية في تركيه قد قضت على كل امل في ان تحبط الدول الاوروبية احتلالنــــا لفلسطين . فالعرب ينمون بسرعة ويزدادون قوة ، كما انهم اخـذوا باسباب الحضارة الاوروبية . لذلك يتوجب على الصهيونيين ان يسارعوا « قبل ان يستولي غيرهم على فلسطين (١٧) » . والغير الذي يتحدث عنه اورباخ ليس سوى اكثرية سكان البلاد من العرب !

ولكي تتحول فلسطين الى ارض يهودية يجب على اليهود ان يصبحوا العنصر الرئيسي بين سكانها ، كما يتحتم على القسم الاكبر من تربتها ان ينتقل الى الايدي اليهودية . ولا يتم ذلك الا عن طريقين لا بديل لهما :

١ ـ الهجرة اليهودية الضخمة .

٢ ـ شراء اليهود للاراضي على اوسع نطاق .

وحين ينتقل الى التحدث عن خطر «عثمنة» اليهود (Ottomanizing) لا يعترف بوجوده في فلسطين ، بل ربما في تركيه الاوروبية . اما الخطر الذي يتهدد اليهود في نظره فهو : « اذا كان ثمة شيء يخشى منه على اليهود ، فهو خطر الاندماج العربي . لكن الحكومة سوف تتنبه الى كل ما من شأنه ان يساهم في توسيع النفوذ العربي . فالروح القومية التي اخذت تستيقظ بين

---

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٤ .
١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

العرب تنجذب بالطبع صوب الجزيرة العربية ، التي تعيش في ثورة دائمة . لذلك من المرجح ان تقدم تركيه في المستقبل ، ومن مصلحتها ايضا ، على تأييد خلق ثقافة يهودية بدلا من اعاقتها ، لتعمل بمثابة الثقل الموازن للقومية العربية (١٨) » .

وقد عاد اورباخ الى تكرار الآراء نفسها في كرّاس اصدرته بالالمانية لجنة العمل في المنظمة الصهيونية بعنوان «فلسطين كأرض لليهود» (١٩١٢) . فأكد ان الحكومة العثمانية لا تقف من المستوطن اليهودي بفلسطين موقفا صديقا ولا عدائيا ، بل هي لا تعرف عنه حتى الان الا القليل . واستشهد على جهلها بالمناقشات التي دارت في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) حول الصهيونية وافتضاح امر الجهل المطبق بأحوال فلسطين لدى وزير الداخلية آنذاك . متمنيا على وزيري الداخلية والمالية تكليف انفسهما مشقة الاطلاع عن كثب بالقدوم شخصيا الى فلسطين (١٩) . ولا يخفى انه يتمنى ذلك نظرا للمعارضة الشديدة التي جابهت الحكومة في صفوف المبعوثين العرب خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٨ – ١٩١٤ . فوزير المالية عام ١٩١١ كان جاويد بك ، اليهودي الاصل ومن طائفة الدونمة . وقد حاربه النواب العرب في المجلس لانه « جمع حوله في الوزارة طائفة من المستغلين اليهود وسماسرة بيع الاراضي ، بما فيهم رئيس ديوانه » . كما حاربوا الحكومة لانها تركت المجال مفتوحا امام الهجرة اليهودية وشراء الاراضي والصفقات المالية المشبوهة . فنظارة المالية العثمانية كانت تضم ، مثلا ، عام ١٩١١ حوالي ١١١ تركيا و١٣ يهوديا و١٤ ارمنيا ويونانيا ، بينما لم يكن فيها اي عربي (٢٠) . وحين وقف النائب العربي روحي الخالدي ليفضح اهداف الجمعية الصهيونية ووسائلها ، هب النائب اليهودي نسيم مازلياح افندي للرد عليه . وقد تولى مازلياح منصبا وزاريا عام ١٩١٣ في الوزارة

---

١٨ – المصدر نفسه ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

١٩ – Elias Auerbach — **Palaestina als Judenland,** Hrsg. vom A.C. der Zionistischen Organisation (Berlin und Leipzig, 1916), S. 48-9.

٢٠ – انظر توفيق علي برو – **العرب والترك** في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ – ١٩١٤ (رسالة ماجستير في التاريخ العربي الحديث) ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨٢ و ٢٨٥ (راجع صحيفة **الاهرام** : ١٠٠٣٣ ، ١٥–٣–١٩١١ ، ١٠٠٧٩ ، ١٠–٥–١٩١١ ، ١٠٠٨٣ ، ١٥–٥–١٩١١) .

التي تألفت بعد سقوط حكومة الائتلافيين ولم تضم عربيا واحدا !

ويتابع اورباخ حديثه عن منافع الاستعمار اليهودي بفلسطين دون ان يساوره الشك ابدا بان رجل الدولة العثمانية الذي يعرف الاوضاع عن كثب لا بد له من ان يصبح صديقا للمستوطن اليهودي . اذ ليس لليهود من مصلحة سياسية غير تكريس قواهم لتدعيم الحكومة المركزية في الاستانة ! « ونحن لسنا بلهاء الى حد الرغبة في اقامة مملكة يهودية ... بل جلّ ما نريده ان يجد كل يهودي يعاني من يهوديته في سائر انحاء العالم مكانا له في فلسطين ، في ارض اسرائيل ، ووطنا حقيقيا (٢١) » .

وبين الثاني والتاسع من ايلول (سبتمبر) ١٩١٣ انعقد المؤتمر الصهيوني الحادي عشر في مدينة فيينه ، وحضره اكثر من ٥٠٠ مندوب . فبقي ولفسون في رئاسة المصرف الصهيوني والصندوق القومي اليهودي ، بالاضافة الى رئيس اللجنة الدائمة : حاييم وايزمان للمرة الاولى . وانتخب واربورغ لرئاسة لجنة العمل الصغرى والصهيوني الروسي تشلينوف نائبا له . واستعرضت لجنة العمل في تقريرها المرفوع الى المؤتمر آنذاك « النشاط السياسي » من زاوية الحركة الصهيونية . فأكدت ان المسائل السياسية التي تشغل المنظمة باستمرار تكتسب اهمية متزايدة ابّان الظروف الحافلة بالتقلّبات السياسية . وابدت كل اهتمام بالاحداث السياسية التي تؤثر في مستقبل الشرق ، فأورد التقرير ما يلي :

« اندلعت حرب طرابلس الغرب ، وتبعتها الاحداث الدامية في البلقان ، والتي كان من نتيجتها تحوّل جوهري في التجمعات السياسية العامة . وفقدت تركيه طرابلس الغرب والقسم الاعظم من ممتلكاتها الاوروبية ، مما جعل مسألة الوضع المستقبل لتركيه الآسيوية تقترب شيئا فشيئا من مجال نظر الدبلوماسية الاوروبية (٢٢) » .

ومضى التقرير المذكور ليعلن بان تحقيق البرنامج الصهيوني لا يعتمد على نجاح سياسي معيّن ، بل « على انفسنا في المقام الاول » . وينبّه الى ان السياسة الاستيطانية الصهيونية لا يمكنها ان تتم بمعزل عن الاوضاع السكانية السائدة في فلسطين . كما اعترف بان سكان فلسطين قد اكتسبوا في السنوات الاخيرة مكانة لها اهميتها في حل مشاكل الشرق السياسية

---

٢١ — انظر اورباخ ، **المصدر السابق** ، ص ٥٠ .

٢٢ — **Bericht des Actions — Comités der zionistischen Organisation an den XI. Zionisten - Kongress, Wien (Berlin, 1913), P. 7.**

المستقلة . وسجّل النجاح الذي احرزته الصهيونية في كسب الرعايـــا العثمانيين اليهود والتأثير عليهم وفي اسكات الاصوات المعاديـــة للحركة في بعض اوساط الصحافة اليهودية بالاستانة . فاصبح المجال مفتوحا امـام نشر الفكرة الصهيونية ، غير ان الحركة تريد الإبتعاد بقــــدر الامكان عن السياسة الحزبية الداخلية في تركيه ! وقد بدأ المراقبون المعنيون بالنشاط الصهيوني يفقهون مغزى العمل اليهودي بالنسبة لفلسطين ، وانه لا بــد للدولة التي تبسط سيطرتها على تلك البلاد من الاعراب عن ترحيبها بكل ذلك . « ان هذا المبدأ الاساسي هو نقطة الانطــــلاق لجميع توقعاتنـــا السياسية (٢٣) » . كما انه يكسبها ثباتا ورسوخا وسط جميع التحوّلات والتغيرات والتقلبات الداخلية والخارجية .

والمعروف ان حروب البلقان (١٩١٢ ــ ١٩١٣) ساهمت في تدعيـم النفوذ الالماني لدى الباب العالي وتقويته . كما ان « الاتراك الشباب » الذين استولوا على السلطة بعد انقلاب كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ كان معظمهم من مؤيدي المانيه ، امثال انور باشا وعزت باشا ، وزير الحربية . وفي ايـــار (مايو) ١٩١٣ طلبت الحكومة التركية من المانيه ارسال بعثة عسكرية لتساعد على اعادة تنظيم الجيش العثماني ، فجرى توقيع اتفاق بهـــذا الشأن في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه ، وتقرر تشكيل البعثة من اربعـين ضابطا بقيادة الجنرال ليمان فون ساندرز . فسارعت روسيه الى ابداء مخاوفها من سيطرة المانيه على مضائق البوسفور والدردنيل ، كما انهـــا اخذت تتقرّب اكثر فاكثر من بريطانيه وفرنسه .

وفي نهاية العام ١٩١٣ كان الفيلد مارشال كتشنر ، المفوض البريطاني العام في مصر منذ اواخر صيف ١٩١١ ، يصدر اوامره باتمام اعمال المساحة في فلسطين . وهي التي بدأها بالاشتراك مع الكولونيل كوندر خـــلال السبعينات ، وشاءت المصلحـة البريطانيـة الآن تمديدهـا حتى تصل الى العقبة ، فتشمل المنطقة الواقعة الى الجنوب من بئر السبع والممتدة حتى الحدود المصرية ــ التركية (من رفح الى رأس خليج العقبة) ــ اي النقب . وعهدت وزارة الحربية البريطانية الى ضباط من سلاح الهندسة الملكـي للقيام بذلك تحت ستار النشاطات التي يرعاها صندوق اكتشاف فلسطين ، وبقصد التغطية والتمويه . فوقع اختيارها على عالمين للآثار كي ينضما الى

---

٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٩ .

فرق المساحة : السير ليونارد وولي و ت.أ. لورنس (٢٤) . وجرى « نقل » الاثنين بعد دخول تركيه الحرب الى دائرة الاستخبارات البريطانية في القاهرة .

ثم اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى في صيف ١٩١٤ ، واصبحت الحركة الصهيونية مدعوة لتطبيق مبدأ الحياد الذي وافق عليه المؤتمر الحادي عشر بحرارة وحماس قبل عام من دخول تركيه الحرب . وعلى الرغم من وجود المكتب المركزي للمنظمة ومقر لجنتها التنفيذية في برلين ، فان قوتها العددية كانت تتمركز في روسيه والامبراطورية النمساوية المجرية . بينما وقع الاختيار منذ البداية على بريطانيه لتكون مركز الثقل المالي ومقر تلك المؤسسات الصهيونية التي قامت لترسيخ الاستعمار وارساء قواعده في فلسطين : « صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار » و « شركة انجلو ــ فلسطين » و « الصندوق القومي اليهودي » . وتسجلت هذه الصناديق والشركات بصورة رسمية في لندن .

---

٢٤ ــ بعث القنصل الاميركي في حلب بتقرير الى مرؤوسيه في السادس من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ وصف فيه زيارة لورانس والمستر ليونارد وولي من البعثة الاثرية البريطانية في كركميش . وقال في تقريره ان الزائرين ابلغاه عن الانباء الشائعة بان خديوي مصر وشريف مكة وعزت باشا (العابد) ، السكرتير السابق للسلطان عبد الحميد ، وعبد الرحمن ، امير الحج ، يعدون مؤامرة لقلب الحكم التركي في سوريه وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية . كما قالا له شيئا عن الحديث الدائر حول ارجاع الخلافة الى احد ابناء اسرة قريش في مكة وابعادها عن السياسة .

ويبدو أن زيارات الباحثين عن الآثار للقنصل قد تكررت ، فهو ينقل في تقرير ١٩١٢/١٢/١١ مزيدا من التفاصيل التي سمعها منهما عن حشود جماعات الفرسان الاكراد بالقرب من حلب واستعدادهم لمهاجمة المدينة بغية السلب والنهب وانتقاما لاغتيال الزعيم الكردي على ايدي رجالات الاتحاد والترقي عام ١٩٠٩ . كما ان قسما من الاكراد كان في طريق العودة من حرب البلقان دون الاستيلاء على اي مغنم (١٣ كانون الثاني ، يناير ، ١٩١٣) . (انظر الكتاب التالي) :
Laurence Evans — **United States Policy and the Partition of Turkey 1914-1924. (The Johns Hopkins Press, Baltimore, 1965),** P. 24-25 cf. note 7.

وبدات تظهر علائم الاتجاه الذي تزعّمه وايزمان وسعى فيه لربـــط الحركة بعجلة السياسة البريطانية والتقليد الصهيونـــي البريطاني . فقد طالب بعد نشوب الحرب بنقل مقر القيادة الصهيونية من الارض الالمانية وتعطيل اللجنة التنفيذية التي تألفت من المانيين : واربـــورغ و هانتكه ، وثلاثـة روس : يحييل تشلينوف وناحوم سوكولوف وفـكتور جاكوبسن ، وشماريا ليفين الروسي الاصل والذي اكتسب الجنسيـــة النمساوية ــ المجرية . وحين تألفت في الولايات المتحدة بعد نشوب الحرب مباشرة اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامـــة Provisional Executive Committee for General Zionist Affairs برئاســـــة لويس برانديس ، اقترح وايزمان ان يعهد اليها بتسيير دفة الشؤون الصهيونية للحؤول دون تضعضع المنظمة الصهيونية وانهيارها تحت وطأة الخلافات الداخلية . كما اعتبر ان تفويض اللجنة الاميركية المؤقتة ممارسة السلطات كافـة سوف ينعكس تأثيره على مستقبل الحركة الصهيونية : « ومن مصلحة الشعـوب التي تحارب في سبيل الامم الصغرى ان تضمن للأمة اليهودية حق الوجود . فالآن هو الوقت المناسب لكي تفهمنا شعوب بريطانيه وفرنسه واميركه . كما ان القوة المعنوية لمطالبنا سوف تغدو منيعة لا تقاوم ، وتصبح الاوضاع السياسية محبذة لتحقيق مثالنا الاعلى ....يجب ان نعمل على توحيـد ذلك المجموع الكبير من اليهود الواعين في بريطانيه واميركه وايطاليه وفرنسه . وسوف يتفهمنا اليهود الالمان والنمساويون فيما بعد ... (٢٥) » (مـــن رسالة الى شماريا ليفين الذي سافر في مهمة صهيونية صيف ١٩١٤ الى الولايات المتحدة وبقي هناك طيلة سنوات الحرب) .

وحين دخلت تركيه الحرب في تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩١٤ الى جانب الدول المركزية ، رفض المجلس الصهيوني العام في اجتماع عقــده بمطلع كانون الاول ، ديسمبر ، (لاهاي) الاخذ بمقترحات وايزمان . فابقى المكتب المركزي ببرلين تحت ادارة واربورغ وهانتكه ، وافتتح مكتب كوبنهاغن تحت اشراف ليو موتزكين ، وبغية اقامة التعاون الوثيق والمنسّق بـين المكتبين (١٥ شباط ، فبراير ، ١٩١٥) . بينما تقرر ارسال سوكولوف وتشلينوف بمهمة خاصة الى اميركه . لكن سوكولوف عرّج على بريطانيه في (٣١ كانون الاول ، ديسمبر) وبقي هناك طيلة الحرب ، بينما رجع رفيقه

---

٢٥ ــ انظر شتاين ، **وعد بلفور** ، ص ٩٩ (والرسالة مؤرخة في ١٨ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٤) .

من لندن الى روسيه ، حيث غادرها في خريف ١٩١٧ قاصدا بريطانيه ليتوفى بعد بضعة شهور . كما يبدو ان المجلس العام قد اتخذ في الاجتماع المذكور قرارا صريحا يقضي بمنع لجنة العمل الصغرى من الدخول في اية مفاوضات مع كل دولة اصبحت في حالة حرب مع تركيه (٢٦) . غير ان وايزمان كان يرى رأيا مغايرا في كل ذلك . فراح يبحث عن اصدقاء الصهيونية في اتجاه اخر . وقادته خطاه نحو بريطانيه بتقليدها الصهيوني العريق ، حيث اصبح لولب النشاط الرامي الى المراهنة على الجواد الرابح في سباق الحرب . فلم يعبأ بقرارات الاكثرية الصهيونية داخل المنظمة ، بل سار في طريق التحيّز للحلفاء . ومضت صهيونية مانشستر لتختط لنفسها نهجا خاصا اطلقت عليه تسمية « مدرسة مانشستر الصهيونية » .

وبرزت في المدرسة المذكورة ابعاد جديدة للتقليد الصهيوني البريطاني ، اذ قام الإتجاه الداعي لعقد تحالف مصلحة بين الصهيونية والامبراطورية البريطانية ، جنبا الى جنب مع الصهيونية الاممية او الشعوبية . ولا غرو فقد بقيت رواسب النظرة النابعة من تفسيرات معينة للنصوص الدينية ، وطفت على السطح بين الفينة والفينة لتؤكد من جديد على اعتناقها لفكرة اسرائيل في سبيل تحقيق النبوءة واثبات صحة الآيات التي وردت في بعض اسفار الكتاب المقدس .

واذا كان القس هشلر قد سارع في صيف ١٩١٣ الى التنبؤ بقرب اندلاع نيران الحرب العالمية في العام التالي — حيث تصل اسرة هوهنزوليرن (Hohenzollern) الحاكمة في المانيه الى ذروة سلطانها ومجدها (٢٧) ،

---

٢٦ — المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

٢٧ — يتحدث بودنهايمر في مذكراته عن ذلك بقوله : « نظرت الى تكهنات هشلر وتوقعاته التوراتية على انها من نسج الخيال المجنّح والمجرد ، غير ان هذه النبوءة تسترعي الانتباه بصورة بارزة ولا يمكن تجاهلها». (انظر ، **المصدر السابق** ، ص ١١٣) . ثم يذكر مقالا اخر على « موهبة الرجل التنبؤية » في القصة التالية : « كنت في لندن اثناء انعقاد الاجتماع السنوي عام ١٩٢٠ . وخرجت بصحبة فريدمان وهشلر للنزهة في حدائق كنزنغتون . وفجأة صرخ هشلر بوجهينا : « لديّ ما اخبركما به . رايت من خلال الكتاب المقدس خطرا فظيعا سوف يتهدد اليهود بفلسطين في المستقبل القريب . واعتقد ان العرب هم مصدره » . وقد علّق بودنهايمر على ذلك بقوله ان ثورة

ثم تأخذ بالتفكك والانهيار ، فيجري ارغام الامبراطور على الهرب طالبـــا اللجوء الى بلاد اخرى ــ فان الطوماسيين ، او اتباع الطائفة الدينية المعروفة بـ « اخوة المسيح » (Christadelphians) (٢٨) ، قد ساهموا من جهتهم وبلسان احدهم ــ فرانك جناواي ــ وقلمه ، في اظهار الحركة الصهيونية بمظهر البيّنة او العلامة على مجيء المسيح قريبا ليبسط حكمه وسلطانـه على العالم اجمع من مقرّه في القدس (٢٩) . ويكفي التوقف عند عنوان كتابه « فلسطين واليهود » او « الحركة الصهيونية : بيّنة لظهور المسيح عما قريب في القدس ليحكم العالم بأسره من هناك » . وقد قام المؤلف بزيارة فلسطين

عرب فلسطين على الصهيونيين وحماتهم قد نشبت بعد سماعـــه النبوءة على لسان هشلر بزمن قصير . والطريف ان هشلر كـــان يتردد على المكتب الصهيوني في لندن لقبض معاش التقاعد الـــذي قررت اللجنة التنفيذية للحركة منحه اياه (١٩١٩) اعترافا بالخدمات التي اسداها منذ لقائه الاول بثيودور هرتزل . (انظر اسرائيل كوهين **A Jewish Pilgrimage, P. 170).**

٢٨ ــ ورد في **دائرة المعارف البريطانية** (ج ٥ ، ١٩٦٤ ، ص ٦٨٧) بـــان الطائفة الدينية المذكورة تدعى احيانا بالطوماسيـــــين نسبة الى مؤسسها جون طوماس (١٨٠٥ ــ ١٨٧١) الذي درس الطب في لندن وهاجر الى بروكلين عام ١٨٤٤ ليؤسس شيعته حوالي ١٨٤٨ . تقوم دعوتهالتبشيرية بشكل رئيسي على تطبيق النبوءة العبـرانية وسفر الرؤيا على الاحداث الجارية والمستقبلة . وقد تبنت اسم « اخوة المسيح » ابّان الحرب الاهلية الاميركية ، حين لجأ الاتباع الى تنظيم انفسهم في هيئات محلية (ecclesia) رسمية لكي يبرروا معارضتهم للخدمة العسكرية . كما انها لا تميّز في صفوفها بين الاكليريكيـــين والعلمانيين . وتعتبر الكتاب المقدس بمثابة المصدر الوحيد للعقيدة . فترفض التثليث . وتقيم لاهوتها على اساس عقيدة العصر الالفـي التي تدور حول الامل بقيام ثيوقراطية مداها العالم بأسره ومركزها القدس . تصدر في مدينة برمنغهام (بريطانيه) مجلة ناطقة بلسانها « كريستادلفيان » (Christadelphian) .

٢٩ ــ **Frank Jannaway — Palestine and the Jews, or : The Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the whole world therefrom. (Birmingham, 1914).**

اربع مرات (١٩٠١ و ١٩٠٢ و ١٩١٢ و ١٩١٤) بصحبة رئيس تحرير مجلة « كريستادلفيان » . وأصدر كتابه الثاني بعد اندلاع الحـــرب مباشرة « فلسطين والدول الكبرى » (Palestine and the Powers) . ثم سارع بعد قيام الانتداب البريطاني الى تصدير كتابه الثالث « فلسطـــين والعالم » (Palestine and the World) عام ١٩٢٢ (؟) بصورة اول مندوب ســـام لفلسطين تحت ظل المحمية البريطانية ــ هربـــرت صموئيل . كما تبنّى الشعار التالي على غلاف الكتاب المذكـــور : « ارض اسرائيـــل لشعب اسرائيل » !

غير أنه صاغ لنا قانون ايمانه في الكتاب الاول مؤكدا جـــدية المسألة والتشديد على كون « هجرة اليهود الى ارض كنعان ، التي مضى على قيامها بضع سنوات ولا تزال مستمرة حتى الآن ، تمثل التحقيق المطلق لتلـــك النبوءات بخصوص اليهودي وارضه قبل رجوع المسيح المنتظر الى هـــذا العالم مباشرة .... » (٣٠) .

وقد لا تكون هذه الاتجاهات والنبوءات فعلت فعلها في نفوس القيمين على مقدرات السيـــاسة البريطانية آنذاك . لكنها تؤلف جزءا لا يتجزأ مـــن مضمـــون التقليـــد الصهيوني البريطاني . واستقـــرت رواسبها في نفوس الكثيريـــن مـــن رجال السيـــاسة والدولة ، عن وعي أو غير وعي . حتى انه كان بمقدورها آنذاك التطلع الى الوراء صوب تاريخ طويل يعود الى ثلاثـــة قرون مـــن الزمن تقريبا . ومن الانصاف في تقييم الدور الذي لعبه كل مـــن الصهيونيين الشعوبيين البارزين في الفترة الممتدة مـــن مطلع الحرب حتـــى صدور وعد بلفور ان يحرص الباحث على التمييز بين البواعث الصادرة عن عقيدة العصر الالفي مـــن جهة والدوافع الارضية والعملية والدنيوية مـــن جهة ثانية . وسوف يطالعنا لدى مدرسة مانشستر الصهيونية ، والـــذين تتلمذوا عليها أو التقوا واياها على صعيد واحد ، ذلك النوع الثاني مـــن الدوافع المصلحيـــة والامبريالية مع ما يخالطه مـــن رومنطيقيـــة وميـــل لمحاكاة التقليـــد الاغريقي الكلاسيكي واقتفاء خطواته ، وعلى الرغم من تلك المثالية التي فقدت مرساتها في الواقع العيني فلجأت الـــى اضفاء طابعها المزيف على الواقعية السيـــاسية البريطانية .

وهكذا صدر « وعد بلفور » بمثابة تتويج للتقليـــد الصهيوني البريطاني

---

٣٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

وتجسيد للمساعي التي بدأها ثيودور هرتزل واختط لها النهج الذي سارت فيـه بعد غيابه عـن المسرح الصهيوني ، وتحالفت الصهيونية مع الامبريالية البريطانيـة لتنفذ مـن خلالها الى استعمار فلسطين وارساء الدعائم لقيـام « الوطن القومي اليهودي » في بلاد رفضت الغالبية العظمى مـن سكانها كل ما يمثله ذلك التحالف وأصرت على حقها في تقرير مصيرها ، كما انها لم تفوض فريقا ثالثا لكي يأخذ على عاتقه مسؤولية منح ارضها ووطنها لفئات أخرى ـ بحجة العطف على مطامعها أو تحت ستار استحضار ما أسمـوه « بالروابط والحقوق التاريخيـة » في وطن الآخريـن .

مدرسة مانشستر الصهيونية

« لم تؤلف فلسطين ابدا ، وفيما عدا فترات قصيرة جدا ، كيانا سياسيا مستقلا ، ومن الصعب ان تتفق التعريفات لحدودها الجغرافية على التفاصيل » .

(سايدبوثام)

دخلت تركيه الحرب في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ بعد بقائها على الحياد حوالي ثلاثة اشهر منذ اندلاع نيران الحرب في اوروبه . وفي الخامس من الشهر نفسه اعلنت بريطانيه الحرب على الامبراطورية العثمانية ، فسارع رئيس وزرائها المستر آسكويث الى اعلان التخلي البريطاني عن السياسة التقليدية في الشرق جاعلا بين أهداف الحرب السعي نحو تجزئة الامبراطورية العثمانية وتقسيمها (٩ تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩١٤) . وهكذا سنحت تلك الفرصة التي كان ينتظرها فريق من زعماء الصهيونية بفارغ الصبر ، وبدأ وايزمان يلعب الدور الذي كان يبحث عنه بمساعدة اصدقائه ومعاونيه من الصهيونيين البريطانيين ومؤيديهم . فالمنظمة الصهيونية لم تصطفيه لزعامتها ، بل جرى التفكير جديا بالطلب الى ماكس نوردو ليخلف الالماني واربورغ في منصب الرئاسة . بينما فكر كبار الصهيونيين في الاتحاد الصهيوني البريطاني باختيار اسرائيل زانغويل على الرغم من تركه المنظمة وطمعا باسمه ومكانته المرموقة في أعين عامة الناس .

لكن وايزمان لم يعبأ كثيرا بالانتقادات التي وجهتها بعض الاوساط الصهيونية لنشاطاته وارتباطاته . وقد وصف الجماعة الصغيرة التي تحلقت حوله فيما بعد بقوله « عصبة قليلة العدد من العاملين ، غير رسمية أو معترف بها ، ولا صلات لها بيهود العالم » . وقد اعتبر انفراد

وايزمان بالعمل لحسابه الخاص « خرقا للنظام » ، اذ لم يفوضه احدسلطة التحدث باسم المنظمة الصهيونية . كما اعتبر خرقا لمبدأ الحياد الـذي قررت الحركة انتهاجه في سياستها ، بالاضافة الى كونه يشكل خطرا على اليهود المقيمين بفلسطين . فالمستوطن تحت رحمة الاتراك وانجلتره في حالة حرب معهم [1] . لذلك كان مجيء سوكولوف في نهاية العام بمثابـة دعم رسمي لجهوده عن طريق المكانة والسلطة التي يتمتع بها عضو اللجنة التنفيذيـة الصهيونية .

ففي السادس عشر مـن ايلول (سبتمبر) ــ وقبل دخول تركيـه الحرب ــ اجتمع حاييم وايزمان الى شارلز برستويش سكوت [2] ، رئيس تحرير صحيفة المانشستر غارديان . بينما كان ماكس نوردو يصل الـى منفاه السياسي في مدريد بعد ان رافقـه ضبـاط البوليس الفرنسـي حتى الحدود الاسبانية . واستطاع وايزمان اثارة اهتمام المستر سكوت بالافكار الصهيونية التي القاها على مسمعه ، فأعرب له الصحافي الواسع النفوذ عن استعداده « لمساعدتنا في اي مسعى نبذله لصالح اليهود » . كما اكد على استعداده لمقابلة السير ادوارد غراي ، وزير الخارجية ، حالما تتكون لدى الصهيونين مقترحات عملية يريدون رفعها الى الحكومة .

قد يكون لقاء وايزمان بالمستر سكوت محض صدفة في حفل خاص . لكـن الصهيونية التي بسطها أمامه وايزمان لم تكن جديدة كل تلك الجدة على مسمعه ــ كما يطيب لمؤلف **وعد بلفور** التصريح [3] . اذ ربما عهدها من قبل لدى هاري زاخر الذي اشتغل في أسرة تحرير صحيفته بين عامي ١٩٠٥ ــ ١٩٠٩ ، وكان يعرف وايزمان منذ انعقاد المؤتمر الصهيونـــي السادس (١٩٠٣) . وهناك مـن يؤكد لنا بان زاخر بالذات هو الـذي اكتسب المستر سكوت عام ١٩١٣ لصالح القضية الصهيونيـــة . بينما يتحدث اسرائيل كوهين في سيرته الذاتية عن صلاته بالمستر سكوت وعمله كمراسل للغارديان في المؤتمرات الصهيونية منذ ١٩٠٥ حتـــى ١٩٤٦ ، وباستثناء المؤتمر الثامـن عام ١٩٠٧ . ويذكـر زيارة قام بها لسكوت في بيته عام ١٩١٠ حيـث جرى الحديث عن الاوضاع الصهيونية : « لقـد اظهر بوضوح عطفه الحار على الاماني القومية اليهودية وكان تواقا لمعرفة تيارات الشعور في الاستانة بصورة خاصة . كما انني ذهبت لرؤية وايزمان

---

١ ــ انظر شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
٢ ــ Charles Prestwich Scott (١٨٤٦ ــ ١٩٣٢) .
٣ ــ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١٣١ .

في معمله الكيماوي بالجامعة » (٤) . فهل انتظر المستر سكوت تلك المصادفة في منتصف شهر ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ لكي يلقنه وايزمان المبادىء الصهيونية على طريقته ؟ ام ان الرأي الصواب القائل بأن تلقين وايزمان للصحافي العجوز والغارديان يشبه عملية « زرع بذور العشب في حقل معشوشب » ـ على حد قول جفريز (٥) .

مما لا شك فيه أن ميول المستر سكوت الصهيونية ترجع الى ما قبل لقائه بوايزمان . والمعروف انه ينتمي الى اسرة يونيتارية (Unitarian) في اعتناقها لمذهب الطائفة التي رفضت التثليت وقالت بالتوحيد . كما انه عقد النية في شبابه على الدخول في سلك الكهنوت ، لكنه ارتعب ، على حد قوله ، مما وصفه بثقل « السلطة الخارجية » المعارضة لعقيدة الطائفة (٦) . واعترته الشكوك بصحة المعتقد حتى ان الغموض اكتنف تقواه بصدد الآخرة . فكان اجلاله للسيد المسيح ينحصر في اعتباره « مثالا اخلاقيا أعلى » . واستهوته الديانة اليهودية بشعائرها في العرق والارض ومن خلال قراءته الدائمة للكتاب المقدس ، اكثر من « المسيحية المخففة والمثالية الحائرة » للعصر الذي عاش فيه (٧) . وهكذا نجده بعد مقابلة وايزمان يحث السير في خطى القس وليم هشلر على غير وعي منه . فيمهد السبيل امام حاييم وايزمان للوصول الى الرجالات والشخصيات البريطانية التي كان وثيق الصلة بها من خلال عمله الصحفي ، وبحكم قربه السياسي من لويد جورج وصداقته الشخصية له . حتى انه اعتبر من اصدقاء الرجل المقربين والمؤتمنين على مواقفه السياسية . وقد انضم مثله الى الجناح الراديكالي للحزب الليبرالي وأيد الجانب الذي لم يتمتع بالشعبية خلال حرب البوير . وانتقدت صحيفته دبلوماسية ادوارد غراي بشدة خلال السنوات التي سبقت ١٩١٤ . فتبنت النظرة القائلة بوجوب امتناع بريطانيه عن الدخول في الحرب وابتعادها عن مسرحها فيما لو اندلعت نيرانها في اوروبه الشرقية ، ولم تتخل عنها الا بعد اجتياح الالمان لبلجيكه (٨) .

---

٤ ـ انظر اسرائيل كوهين **A Jewish Pilgrimage** ، ص ٥٤ ، ٨٣ .

٥ ـ انظر **J.M.N. Jeffries — Palestine : The Reality** (London, 1939), P. 91.

٦ ـ راجع سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٠ .

٧ ـ المصدر نفسه

٨ ـ راجع شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٤ .

ويتحدث وايزمان في **التجربة والخطأ** عن تلك الفرصة التي كـــان ينتظرها ويعقد آماله عليها بعد توقعه ان تمتـــد الحـرب الـى الشرق الاوسط (٩) ، حيـث ستحدث « امـور على جانب عظيم مـن الإهميـة بالنسبة لنا » . فيؤكد انها جاءت في اقرب مما توقعه ، ويبدو ان ذلك كان بمجرد الصدفة . اذ « تعرفت على رجل قيمته لا تقدر بالنسبة للحركة الصهيونية .... ومن الممكـن جدا اننا لو لم نلتق على هذه الصورة ، لكنت ذهبت لرؤيته بنفسي ، لان عطفه على المثل العليا اليهودية كان ذائع الصيت ، ونفوذه الشخصي والعام كان هائلا (١٠) » . وبعـد ان وعده بان يجمعه الى كل مـن لويد جورج ، وزير الخزانة ، و « اليهودي الــذي يشغل منصب رئيس مجلس الحكومة المحلية » في الوزارة ، هربـــرت صموئيل ، انصرف سكوت « للتعمق بمشاكلنا » . وبدأ يطالع الكتب عن فلسطين ، فقمت بتزويده بخريطة للبلاد تبين مواقع مستوطناتنا » (١١) .

---

٩ ـ يمكننا التعرف على الخطوط العريضة لتفكير وايزمان خلال الفترة التي سبقت اعلان بريطانيه وفرنسه وروسيه الحرب على تركيه والمانيه من الرسالة التي بعث بها في العاشر مـن تشريـــن الاول (اكتوبر) ١٩١٤ الى اسرائيل زانغويل ، وقد استعمل فيها عبارة « بلجيكه الآسيوية » التي يرد ذكرها في رواية جورج اليـــوت **دانيال ديروندا** . وكتب وايزمان يقول :

« ترتكز خططي بالطبع على افتراض جوهري واحد : بان الحلفاء سوف يكسبون (الحرب) ويكسبونها جيدا ـ كما اتمنى وآمـل ذلك مخلصا .... ولا يساورني شك بان فلسطين سوف تقع ضمـن دائرة النفوذ البريطاني . وفلسطين هي الإمتداد الطبيعي لمصر والجدار الذي يفصل قناة السويس عن ... البحر الاسود وكل عمـل عدائي قد يصدر عن تلك الجهة .... سوف تصبح بلجيكه الآسيوية ، خصوصا متى جرى تطويرها على يد اليهود . ولـو اعطينا احوالا جيدة الى حد ما ، لاستطعنا بسهولة ان ننقل مليونا مـن اليهود الى فلسطين خلال الخمسين او الستين سنـة القادمة ، وبذلك تحصل انجلتره على جدار فعال ونحصل نحـن على وطن ... » انظر : شتاين، **المصدر السابق** ، ص ١٢٦ـ١٢٧ .

١٠ ـ **Trial and Error, P. 148-9**

١١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

وسرعان ما تبدل تفكير المستر سكوت ـ بعد دخول تركيه الحرب ـ فراح يربط بين المسألة الصهيونية ومستقبل فلسطين وعلاقة ذلك بالدفاع عن مصر وقناة السويس .

وبعد ان اعلنت بريطانيه الحرب على تركيه باسبوع واحد كان وايزمان قد اعد رسالة وبعث بها الى بلفور محاولا الاستعانة بصديق الاثنين الفيلسوف صموئيل الكسندر (١٢) ، استاذ الفلسفة في جامعة مانشستر آنذاك ، وزميل وايزمان منذ ان اصبح هذا الاخير معيدا في علم الكيمياء الحيوية عام ١٩١٣ . وقد ارتأى وايزمان توسيط صموئيل الكسندر للقيام بالمساعي الحميدة لدى بلفور لانه يعرفه جيدا وتمام المعرفة . فجاءه الجواب عن طريق الكسندر (١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩١٤) بان بلفور ما زال يختزن أطيب الذكريات الحية عن حديثه مع الدكتور وايزمان عام ١٩٠٦ وسوف يسر لسماعه منه الآن . وهكذا قابله

---

١٢ ـ Samuel Alexander (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) . استرالي المولد . أتم دراساته الجامعية في اكسفورد وتربى على التقليد الفلسفي المثالي السائد آنذاك . ثم ما لبث ان أصبح من اشهر الميتافيزيقيين الواقعيين في عصره . كان استاذا للفلسفة في جامعة مانشستر منذ ١٨٩٣ . ودعا الى تلك الواقعية الميتافيزيقية التي اعتبرت الميتافيزيقا بمثابة العلم الوصفي للواقع . نشر كتابه الرئيسي : « **المكان والزمان والالوهية** » عام ١٩٢٠ (Space, Time and Deity) ونظر الى المكان والزمان باعتبارهما العنصر الاساسي في الكون او مادته الاصلية المساوية للحركة المحض . فكل ما يحويه الكون يتطور عن تلك المادة الاساسية الاولية على مراحل متتالية بعملية من الانبثاق النشوئي الصاعد : تبدأ بالمادة عند أسفل السلم ومنها تنبثق الحياة والعقل . لكن احدا لا يستطيع التكهن بما سينبثق في المستقبل خلال العملية النشوئية . فالمرحلة التالية التي يسعى نحوها الكون هي مرحلة الالوهية ، والله في طور التكوين ، لا يوجد بالفعل ابدا .

اثرت فلسفته على نفر من الفلاسفة المحدثين امثال الفريد نورث هوايتهد . وقد ذكر هربرت صموئيل في **مذكراته** (ص ٢٥١) بانه كان من اتباع صموئيل الكسندر في الفلسفة الى درجة كبيرة .

في ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ليستعيد واياه الحديث الذي جرى بينهما قبل ثمانية أعوام ويؤكد له عطفه الشديد على القضية ، لدرجة جعلت « من السخيف تكرار عرضي للقضية اليهودية من الزاوية القومية » على مسمعه . كما طمأنه بلفور الى السرعة التي سوف تنجز بها الصهيونية اعمالها بعد الحرب . واتفق الاثنان على كون الالمان من اتباع المذهب الموسوي (أي اليهود) يشكلون ظاهرة غير مرغوب فيها ومفسدة للاخلاق ، لا بل مضعفة للمعنويات . ثم افترقا بعد ان أعرب وايزمان عن رغبته بالمجيء ثانية لمقابلته حين يهدأ قصف المدافع ... بينما كادت عينا بلفور تغرورقان بالدمع ، اذ راح يعبر عن الوقع العميق في نفسه والاهتمام الذي يكنه للمسألة : « انها ليست حلما . بل هي قضية كبرى وانا اتفهمها » . وربما توقع وايزمان وصديقه سكوت ان يتم توسيع الحكومة البريطانية بشكل يتيح ضم عدد من المحافظين اليها بصورة ائتلافية . وقد تم له ما اراد بعد بضعة شهور . فانضم بلفور الى حكومة آسكويث المؤتلفة في ايار (مايو) ١٩١٥ ، وحل بذلك محل ونستون تشرشل في منصب اللورد الاول للاميرالية ، واصبح لويد جورج على رأس وزارة الذخيرة . كما جرى تعيين وايزمان في منتصف ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ – وبعد عام من لقائه بالمستر سكوت – في وظيفة المستشار الفني لتجهيز مؤونة الاسيتون .

أما اللقاء الاهم ، عملا بنصيحة المستر سكوت ، فهو الذي تم بين وايزمان وهربرت صموئيل بحضور الحاخام موزس غاستر في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ . وقد سارع صموئيل ، بعد اجتماع الوزارة البريطانية وخطاب آسكويث الذي أعلن فيه تخلي بريطانيه عن سياستها التقليدية ازاء الامبراطورية العثمانية وسعيها لتجزئتها واقتطاعها ، الى تناول موضوع الصهيونية مع زملائه في الوزارة . فأعرب له لويد جورج عن اهتمامه باقامة دولة يهودية بفلسطين ، كما أشار وزير الخارجية ، السير ادوارد غراي الى الفرصة التي قد تتاح لتحقيق الامنية القديمة للشعب اليهودي واعادة امجاد الدولة اليهودية (١٣) . ويبدو بحكم المؤكد ان افكار هربرت صموئيل نفسه حول الصهيونية قد تبلورت قبل عام ١٩١٤ ولم يشأ البوح بسرها قبل ذلك الحين الا على مسمع الحاخام موزس غاستر وحده . فقد درس في اكسفورد (١٨٨٩ – ١٨٩٣)

---

١٣ – راجع شتاين – **وعد بلفور** ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ – ١٠٥ ايضا John Bowle ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٠ .

واصبح عضوا في مجلس العموم عام ١٩٠٢ . وربما تأثر بصهيونية عمه والاخ الاصغر لأبيه ، صموئيل مونتاغو (١٨٣٢ – ١٩١١) الذي قام بنشاط بارز في حركة احباء صهيون خلال التسعينات واشترك في رفع الالتماس الى السلطان عبد الحميد بصدد استعمار شرقي الاردن عام ١٨٩٣ . وقد ترشح عن دائرة هوايت شابل في الانتخابات العامة وفاز بمقعد بقي يشغله من ١٨٨٥ – ١٩٠٠ . ثم سبق لنا والتقيناه على صفحات هذه الدراسة اثناء زيارة هرتزل الاولى الى لندن حيث قابله في ٢٣–٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٥ وسمع منه حديثا حماسيا عن « فلسطين الكبرى » التي تختلف عن القديمة .

وعلى الرغم من ليبرالية عمه ، فان هربرت صموئيل يعكس في تفكيره آنذاك تأثير دزرائيلي اكثر من اي انسان آخر . وهو يتحدث في مذكراته عن ميل والدته نحو المحافظين اذ « علقت امي صورة كبيرة لدزرائيلي فوق فراشي في غرفة الحضانة (١٤) » . كما يأتي على ذكر نشأته اليهودية في كنف عائلة محافظة ومتمسكة بالتقاليد الدينية . وحماسه الشديد لايطاليه بالإضافة الى اعجابه بالبطل غاريبالدي اثناء صباه ، حيث علق صورته على رف الموقد طيلة ايام الدراسة . ويتحدث عن نشاطه في الانتخابات العامة ، تموز (يوليو) ١٨٩٢ لصالح اعادة انتخاب عمه عن الليبراليين .

والمهم ان هربرت صموئيل كان في طليعة المسؤولين البريطانيين الذين ادركوا في الحال بان « الحرب قد وضعت الصهيونية على الخريطة » . فسارعوا الى تحديد المعالم ورسم خطوط المستقبل بالنظر الى ما ستكون عليه فلسطين بعد نهاية الحرب . وتزعّم صموئيل الدعوة على اعلى المستويات ، وفي مسودة مذكرة وزارية بعث بها الى آسكويث ، الى ضم فلسطين وجعلها محمية بريطانية ضمن الامبراطورية . فكتب في الصيغة الاولى للمذكرة التي رفعها في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ يقول : « ان سير الاحداث يفتح المجال امام احداث تغيّرات في وضع فلسطين عند نهاية الحرب . وهناك نشاط يتحرك بين الاثنين عشر مليونا من اليهود المنتشرين في سائر انحاء العالم . فالشعور ينتشر بسرعة هائلة بان الوقت قد حان اخيرا والآن للقيام بخطوات ما ، وبطريقة ما ، نحو تحقيق الامل والرغبة ،

١٤– Viscount Samuel — **Memoirs** (The Cresset Press, London, 1945) P. 3.

اللذين جرى التمسك بهما بعناد طيلة ١٨٠٠ عام ، لارجـاع اليهود الى الارض التي تربطهم بها صلات قديمة قدم التاريخ نفسه (١٥) » .

ويمضي كاتب المذكرة في رسم الخطوط العريضة للاحتمالات المتعلقة باقامة مركز للثقافة اليهودية بفلسطين ، وليس دولة يهودية . لكي تصبح فلسطين « موطن المدنية المتألقة » ، وتتمكن بريطانيه ، عن طريـق بسط حمايتها ، من اداء دورها التاريخي في دائرة اخرى باعتبـارها « ممدنة (civiliser) البلدان المتأخرة » . ولم يفته التنويه بالحجج السياسيـــة والاستراتيجية . كما انه اختتم المذكرة بالعبارة التالية :

« ان الدماغ اليهودي نتاج فسيولوجي لا يجوز احتقاره . لقد انتج العرق (اليهودي) بفلسطين طيلة خمسة عشر قرنا القضاة والجنود. ولو اعطي من جديد جسدا تقيم فيه روحه ، لتسنى له اغناء العالم مرة اخرى . وكما قال ماكولي (١٦) في مجلس العمـوم : ما لم يجر منح الامور على نطاقها الاكمل دعونا لا نتجرأ على القول بان لا عبقرية هنالك لدى ابناء وطن اشعيا ، ولا بطولة بين سليلي المكابيين (١٧) » .

ومـن الطريف ان آسكويث وصف الصيغة الاولـى للمذكرة بان قراءتها تكاد توحي بطبعة جديدة لرواية تانكرد (Tancred) في اسلـوب عصري ! وذكر ان صموئيل يدعو الى زرع ثلاثة او اربعة ملايين يهودي في

١٥ـ انظر John Bowle — **Viscount Samuel. A Biography** (Victor Gollancz Ltd., London, 1957), P. 170

١٦ ـ **Lord Macauly** (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) طوماس بابنغتـون : دخـل مجلس العموم عام ١٨٣٠ والقى خطابه البكـــر دفاعا عن حقـوق اليهود . فصار الخطاب المذكور يعرف بعنوان « حول اللاأهليـات المدنية لليهود » (Civil Disabilities of the Jews) انظر :
Essay and Speech on Jewish Disabilities
Ed., with an Introduction and notes, by Israel Abrahams & the Reverend S. Levy, 2nd Ed. (Jewish Historical Society of England, Edinburgh, 1910), P. 61 وقد اعيد طبع المقالة والخطاب آنذاك بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة اللورد ماكولي ، والسماح لليهود بدخول البرلمان البريطاني ونيلهم كافة الحقوق السياسية والمدنية (١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) .

١٧ـ John Bowle ، **المصدر السابق** ، ص ١٧١ .

تلك البقعة المجدبة والتي لا تعد بمستقبل باهر . كما اعتبرها « تمثيلا عجيبا لقاعدة دزرائيلي المفضلة بان العرق هو كل شيء » (race is everything) . وأبدى دهشته لصدور مثل هذا الجيشان العاطفي الغنائي عن «عقل هربرت صموئيل المنهجي وحسن الترتيب(١٨) » . حتى انه درج على تشبيهها بالقصيدة المليئة بالحماسة والعواطف الجائشة (Dithyrambic Memorandum) . وقد اشار شتاين في حديثه عن العلاقة بين آسكويث وهربرت صموئيل ، بان ادوين مونتاغو ، ابن عم هربرت وابن صموئيل مونتاغو المار ذكره ، كان من اقرب الاصدقاء السياسيين والشخصيين لرئيس الوزراء في صفوف الليبراليين الشباب آنذاك (١٩) . وهو الذي عرف بمعارضته الشديدة لصدور وعد بلفور حين كان وزير دولة لشؤون الهند في حكومة لويد جورج (منتصف تموز يوليو ، ١٩١٧) ، وأبدى مخاوفه من العواقب التي سوف تترتب عن اطلاق العنان للمزاعم والنوايا الصهيونية بفلسطين ، وقد تؤدي الى انعكاسات على طموحه السياسي والاصلاحات التي ينوي تحقيقها في الهند . وقد نجح الصهيونيون في حمله على الابحار الى الهند قبل صدور الوعد الذي حاربه عن اقتناع معتبرا اياه غلطة سياسية فادحة .

وهكذا اجتمع وايزمان الى هربرت صموئيل واستمع اليه يشرح مشروعاته الطموحة بصدد فلسطين من بناء الخطوط الحديدية والموانىء الى الجامعة العبرية وشبكة المدارس اليهودية . وطمأنه صاحب المشروعات المتعلقة بمستقبل فلسطين الى « احتمال اعادة بناء الهيكل كرمز للوحدة اليهودية ، وبشكل عصري طبعا » . كما اخبره عن المذكرة التي يعدّها حول موضوع الدولة اليهودية العتيدة بفلسطين . واعتبر المطالب التي ينادي بها وايزمان « جد متواضعة » ، اذ وجده قنوعا بالحصول على « مكان صغير ... يشبه امارة موناكو ... مع فارق بسيط : الجامعة بدل كازينو القمار (٢٠) » ! كما فضل عدم الدخول في تفاصيل المشروعات

١٨ـ المصدر نفسه . انظر ايضا وايزمان ـ **التجربة والخطا** ، ص ١٥١ ، شتاين ـ ، **المصدر السابق** ، ص ١١٣ .

١٩ ـ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١١٣ و ٤٩٦ ـ ٥٠١ .

٢٠ـ عن التقرير الذي رفعه وايزمان في ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ الى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية واستعرض فيه نتائج المقابلات التي اجراها مع هربرت صموئيل بصحبة الحاخام غاستر ـ راجع شتاين ، المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

التي سوف يضمّنها المذكرة ، ولم يبح باسرارها الا على مسمع صديقه الحاخام غاستر آنذاك . واكتفى بتوجيه النصح الى وايزمان والصهيونيين للعمل في صمت وهدوء والاستعداد لحلول الساعة الحاسمة . وقد عبّر حاييم وايزمان آنذاك عن الدهشة التي اعترته لسماع هربرت صموئيل يحدثه عن اهتمامه بالافكار الصهيونية طيلة السنوات الاخيرة ومتابعته لنشاطات الصهيونيين ، ثم تفضيله عدم المجاهرة بآرائـــه علانية ، في الرسالة التي بعث بها الى زوجته فيرا (١٠ كانـــون الاول ، ديسمبر ، ١٩١٤) ليقول : « حقا ، نحن على ابواب عصر مجيء المسيح المنتظر (٢١) » .

وقد ارتأينا نقل مذكرة صموئيل عن « مستقبل فلسطين » بصيغتها الكاملة والمعدّلة ، كما جرى توزيعها على اعضاء الـــوزارة البريطانية في آذار (مارس) ١٩١٥ (٢٢) . ومما تجدر ملاحظته في هذه الصيغة المعدّلة للمذكرة تشديد مؤلفها على الحسنات او الاعتبارات الاستراتيجية المحضة التي تتضمنها مقترحاته بصدد ضم فلسطين للامبراطورية وجعلها محمية بريطانية لتأييد الاماني الصهيونية . كما ان الاسلوب الذي صيغت بـه روعي فيه الطابع الذي يؤهلها للنفاذ الى عقول سائر الزملاء في الوزارة . ولم تأت المذكرة على تحديد واضح وصريح للرقعة التي اهتم هربـــرت صموئيل بمستقبلها . غير ان الدلائل شبه مؤكدة على تفكـــيره بحدود تبدأ حيث تنتهي حدود متصرفية جبل لبنان المستقلة ، وتمتد جنوبـا حتى الحدود المصرية ـ التركية . كما انها تشمل شرقـــي الاردن حتى الخط الحديدي الحجازي !

---

٢١ ـ نقلا عن شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٧ .

٢٢ـ اورد النص الكامل للمذكرة مؤلف سيرة الفايكونت صموئيـــل John Bowle في الكتاب الذي اشرنا اليه آنفا . وقد جرت ترجمتها عن النص المذكور . انظر ص ١٧٢ ـ ١٧٧ .

((فلسطين))

((ماذا سيكون عليه مستقبل فلسطين ، فيما لو ادت نتائج الحرب الى تقطيع الامبراطورية التركية في آسيه ونهايتها ؟

أ ـ الضم الفرنسي هو من بين الاحتمالات الممكنة التي يجري البحث فيها اغلب الاحيان .

غير ان اقامة دولة اوروبية عظمى على هذا القرب من قناة السويس يشكل تهديدا مستمرا ومخيفا لخطوط المواصلات الجوهرية في الامبراطورية البريطانية . فالحزام الصحراوي الى الشرق من القناة برهن على فعاليته كحد استراتيجي ممتاز ضد الاتراك . لكنه لا يكفي للدفاع ضد حملة عسكرية تقوم بتنظيمها دولة غربية قوية ، ويدعمها مد الخط الحديدي من العريش . كما انه لا يمكننا المضي على اساس الافتراض القائل بان علاقاتنا الحالية الحسنة مع فرنسه سوف تستمر هكذا ابدا .

ان فرنسه لها مصالح بارزة في شمالي سوريه ، بينما مصالحها قليلة في فلسطين . فهناك شركة فرنسية تملك الخط الحديدي البالغ طوله ٥٤ ميلا بين يافا والقدس ، لكن رؤوس الاموال الموظفة فيه صغيرة . ولا يوجد ما يستحق الذكر فيما عدا ذلك . وتوجد مؤسسات رهبانية فرنسية ، انما عدد المقيمين الفرنسيين ضئيل .

يمكن للحماية القديمة التي مارستها فرنسه على المصالح الكاثوليكية في الشرق ان تستمر بفلسطين ، اذا كانت الحكومة (الفرنسية) الحاضرة تعلق اهمية عليها ، وحتى لو كان زمام السيطرة على البلاد بايدي غيرها . وقد ذكر التقرير الوارد حديثا من دائرة الانتليجانس في مصر (في برقية للمعتمد البريطاني بمصر بتاريخ ٧ كانون الثاني ، يناير) بان الضم الفرنسي لن يحظى بترحيب سكان البلاد . ان الممتلكات الفرنسية

الشاسعة في افريقيه ، وقد تضخمت حديثا بعد ضم مراكش ، والاستيلاء ، بعد هذه الحرب ، على القسم الاعظم من سوريه ، بما فيها بيروت ودمشق ، واعادة امتصاص الالزاس واللورين ــ كل هذا يكفي للاستئثار بطاقات الشعب الفرنسي ، على عدده الثابت ، لسنوات عديدة قادمة .

ب ــ الاحتمال الثاني ان تترك البلاد بيد تركيه .

لقد فسدت فلسطين تحت الاتراك وأصابتها الآفات . ولم تنتج لمئات من السنين رجالا او اشياء مفيدة للعالم . سكانها الاصليون غارقين في القذارة . الطرقات والموانىء ، الري والصحة العامة مهملة . والدلائل الوحيدة تقريبا على الحيوية الزراعية او الصناعية لا توجد الا في المستعمرات اليهودية ، وعلى نطاق اصغر في المستعمرات الالمانية . المسؤولون الاتراك هم غرباء على البلاد . ولا اثر للسكان الاتراك فيها . اما الحكام (الولاة) الذين يتبعون بعضهم بعضا بتلاحق سريع ، فلا هم لهم الا كمية الاموال التي يعتصرونها من البلاد لارسالها الى الاستانة ، فلو امكن الدول الغربية ان تنقذ فلسطين من الاتراك ، لكان من واجبهم القيام بذلك على غرار ما فعلت لانقاذ الولايات الاوروبية التابعة لتركيه . وفضلا عن ذلك ، اذا كانت سوريه الشمالية من نصيب فرنسه والعراق حصة انجلتره ، فلا سبب هناك لترك فلسطين ، مفردة ومعزولة ، ملكا للاتراك .

ج ــ الاحتمال الثالث هو التدويل .

الحكم المدوّل كان بصورة ثابتة مرحلة انتقالية لشيء اخر . واذا استمر ، يصبح مسرحا للدسائس والمؤامرات بين معتمدي الدول الحاكمة ، حيث يسعى كل معتمد للحصول على مطلب بالسيطرة النهائية لصالح بلده . وفي هذه الحالة قد يغدو التدويل بمثابة نقطة يتم القفز منها الى محمية المانية . كما ان المانيه تقوم بنشاط واسع في فلسطين . اذ انفقت مبالغ لا يستهان بها من المال هناك سعيا وراء زيادة نفوذها . فأسست مصرفا ومستعمرات زراعية ، ومدارس ومستشفيات . وبعد الحرب ، حين تغلق بوجهها الى حد بعيد السبل الى الشرق الاقصى ومناطق اخرى من الكرة الارضية ، ربما عمدت الى تركيز قسم من طاقاتها على فلسطين . وخلال عشرين عاما قد تصبح « جارة مصر » في

تدويلها الظاهري عرضة لتغلغل النفوذ الالماني الى درجة تستدعي معها بشدة بسط السيطرة الالمانية عليها ، وذلك حينما يحصل انهيار في شكل الحكم القائم ، او عندما يجري تعديل جديد لخريطة آسيه الغربية . ان احتمالا من هذا النوع يشكل خطرا لكل من فرنسه في سوريه الشمالية وانجلتره في مصر . كما ان ممارسة الحكم على البلاد بواسطة لجنة منتدبة تتألف من ممثلي عدة دول تكون كمن يضع البلاد تحت ايد مشلولة . فالخلافات المستمرة لا بد من وقوعها ، وسوف تكون نتيجتها الا يعمل شيء لتطور البلد وتقدم الشعب .

د ـ الاحتمال الاخر الذي يقترح غالبا هو انشاء دولة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في فلسطين .

مهما تكن حسنات ذلك الاقتراح او سيئاته ، فمن المؤكد ان الوقت لم يحن له بعد . ان الزيادة في السكان التي شهدتها فلسطين خلال السنوات الاخيرة يتألف معظمها من المهاجرين اليهود . ويبلغ تعداد المستعمرات الزراعية اليهودية حوالي ١٥ الف نسمة ، وفي القدس بالذات يتكوّن ثلثا السكان من اليهود . لكنهم لا يزيدون عددا في البلاد كلها عن سدس (١/٦) السكان .

ولو جرت محاولات لوضع المسلمين بن الجنس العربي ، والبالغ تعدادهم ٥٠٠ او ٦٠٠ الف ، تحت سلطة حكومة ترتكز على تأييد ٩٠ او ١٠٠ الف من السكان اليهود ، فلا تأكيدات هناك بان هذه الحكومة ، حتى ولو اقامتها سلطة الدول الكبرى ، سوف تتمكن من فرض الطاعة والولاء . وقد يتلاشى حلم الدولة اليهودية المزدهرة والتقدمية ، ومعقل المدنية المتألقة ، اثر سلسلة من النزاعات القذرة مع السكان العرب . وحتى لو تمكنت دولة بهذا التركيب من النجاح في تحاشي الاضطراب الداخلي او قمعه ، فمن المشكوك به ان تكون قوية لدرجة تكفيها لحماية نفسها من العدوان الخارجي تقوم به العناصر المشاغبة (الهائجة) المحيطة بها . ان القيام بمحاولة لتحقيق امنية الدولة اليهودية قبل ان يحين موعدها بقرن من الزمن قد يؤخر تحقيقها الفعلي لقرون عديدة اخرى . هذه الاعتبارات مدركة كليّا (تماما) لدى زعماء الحركة الصهيونية .

هـ ـ الاحتمال الاخير هو محمية بريطانيّة .

ان انشاء المحمية ضمان لسلامة مصر . صحيح ان فلسطين بيد

البريطانيين قد تكون عرضة للهجوم ، والاستيلاء عليها قد يجلب معه مسؤوليات عسكرية موسّعة . لكن الطبيعة الجبلية للبلاد قد تجعل احتلالها صعبا امام العدو ، وفيما يجري النزاع حول هذا الموقع الامامي ، نكتسب مزيدا من الوقت الذي يسمح لنا بزيادة حامية مصر وتعزيز الدفاع . والحدود المشتركة مع جارة اوروبية في لبنان هي مخاطرة اقل كثيرا بالمصالح الحيوية للامبراطورية البريطانية من الحدود المشتركة عند العريش .

ان مرفأي يافا وحيفا هزيلان ، لكنهما قابلان للتحسين فيما لو انفقت عليهما مبالغ غير ضخمة ، كما يمكن تحسين احدهما للاغراض التجارية . فقد كانت حيفا ، الواقعة على خليج عكا ، نقطة استراتيجية هامة في الماضي . والامر متروك للخبراء لمعرفة ما اذا يمكن تحويلها ، في ظل الاوضاع العصرية ، الى قاعدة بحرية جيدة . كما ان حيفا هي ابعد من الاسكندرون عن مضيق الدردنيل ، وتبعد الاسكندرون عن المضائق اكثر من الإسكندرية ، بنفس المسافة التي تبعدها مالطه تقريبا . فاذا كانت القاعدة على الشواطىء الشرقية للمتوسط امرا مرغوبا فيه على اسس عامة ، واذا كانت المصاعب السياسية تحول دون الاستيلاء على الاسكندرون ، يجدر بنا الالتفات الى حيفا علّها تفي بالمطلوب .

ولأجل استرضاء حساسيات الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية سوف يكون ضروريا دون شك ارفاق السيطرة البريطانية باقامة سلطة خارج اراضي الدولة (Extraterritorial regime) على الاماكن المقدسة المسيحية ووضع ملكيتها بيد لجنة دولية ، يكون فيها لكل من فرنسه (وربما للفاتيكان) نيابة عن الكنيسة الكاثوليكية ، وروسيه ، بالنيابة عن الكنيسة الارثوذكسية ، الاصوات القوية . ولا شك ان من المرغوب فيه ايضا اعلان حرمة الاماكن المقدسة الاسلامية ، وان تضم الحكومة المحلية ممثلا او اكثر عن المسلمين ، ليأتي وجودهم بمثابة ضمانة لسلامة المصالح الاسلامية والمحافظة عليها .

ان المحمية البريطانية ، حسب تقرير دائرة الاستخبارات في مصر المشار اليه آنفا ، سوف تلقى ترحيبا لدى نسبة كبيرة من السكان الحاليين . وهناك العديد من الدلائل السابقة على الشعور نفسه . كما ان الصهيونيين واللاصهيونيين يؤكدان لي بان ذلك يشكل حلا لمشكلة فلسطين يلقى اكثر الترحيب في اوساط اليهود بسائر انحاء العالم .

والمأمول ان يمنح الحكم البريطاني تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الاراضي واقامة المستعمرات وانشاء المؤسسات الدينية والتربوية ، والتعاون في التطور الاقتصادي للبلاد ، وان تعطى الهجرة اليهودية ، بعد ضبطها بعناية فائقة ، الافضلية ، حتى يتمكن السكان اليهود من مرور الوقت من ان يصبحوا اكثرية مستوطنة في البلاد ، وبذلك ينالون مقدارا من الحكم الذاتي وفقا لما تتيحه الظروف القائمة فيما بعد .

ان النمو التدريجي لمتحد يهودي كبير تحت السيادة البريطانية في فلسطين لن يحل بالواقع المشكلة اليهودية في اوروبه .

فالبلاد التي بحجم مقاطعة ويلز ، وتؤلف الجبال الجرداء قسما كبيرا منها ، كما تنعدم المياه في قسم اخر ، لا يمكنها استيعاب ٩ ملايين نسمة . لكنها قد تستوعب مع الوقت ٣ ملايين نسمة ، مما يؤدي الى تخفيف الضغط في روسيه واماكن غيرها . والأهم من ذلك بكثير هو الاثر الذي يتركه على طبيعة القسم الاكبر من العنصر اليهودي ، الذي يتحتم عليه البقاء في اختلاط مع الشعوب الاخرى ، وهل سيكون ذلك قوة او ضعفا بالنسبة للبلدان التي يقيمون فيها . فلينشأ مركز يهودي بفلسطين ، ولندعه يحقق ، كما قد يحقق بالفعل ، مقدارا من العظمة الروحية والفكرية ، وسوف يؤدي ذلك بصورة غافلة الى رفع معنويات الفرد اليهودي حيثما وجد . ان الترابطات الدنيئة التي لصقت بالإسم اليهودي قد تنسلخ عنه الى حد ما ، وتتعزز قيمة اليهود كعنصر فعّال في مدنية الشعوب الاوروبية .

ان السبيل الذي ندعو الى اتخاذه سوف يعود على انجلتره بعرفان الجميل بين اليهود في سائر انحاء العالم . ففي الولايات المتحدة ، حيث يبلغ تعدادهم حوالي مليوني نسمة ، وفي جميع البلدان الاخرى التي ينتشرون فيها ، قد يؤلفون كتلة للراي يعود تحيّزها حيث لا تدخل مصلحة البلد الذي كانوا مواطنين فيه ، لخير الامبراطورية البريطانية . وكما استطاعت سياسة انجلتره الحكيمة تجاه اليونان في القسم الاول من القرن التاسع عشر وحيال ايطاليه في منتصف القرن التاسع عشر ان تضمن لهذه البلاد النوايا الطيبة لكل من اليونانيين والايطاليين حيثما وجدوا ومنذ ذلك الحين ، فان المساعدة التي يجري تقديمها الان في سبيل تحقيق المنال الذي لم تتوقف اعداد كبيرة من اليهود ابدا على التعلق به خلال قرون عديدة من العذاب ، لن تفشل ، مستقبل بعيد

جدا ، في ضمان عرفان الجميل لدى عرق باكمله ، كما ان نواياه الطيبة لن تكون عديمة القيمة في الزمن الآتي .

ان الامبراطورية البريطانية ، باتساعها وازدهارها الحاضر ، ليس لديها بعد ما تضيفه الى عظمتها . لكن فلسطين ، على صغر مساحتها ، تنتفخ ضخمة في مخيلة العالم ، حتى ان كل امبراطوريــة ، مهما كانت عظيمة ، قد ترفع من مكانتها ومركزها بامتلاكها لها . ان ضم فلسطين الى الامبراطورية البريطانية سوف يزيد حتى في لمعان التاج البريطاني . ويشكل جاذبا شديد القوة لشعب المملكة المتحدة والممتلكات المستقلــة (Dominions) ، خصوصا اذا ظهر كوسيلة معلنة لمساعدة اليهود علــى احتلال البلاد من جديد . هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور في العالم البروتستانتي على فكرة ارجاع الشعب العبراني الى الارض التي اعطيت ميراثا له ، وهناك اهتمام شديد بتحقيق النبوّات التــي توقعت ذلك مسبقا . ان افتداء الاماكن المقدسة المسيحية ايضا وتخليصها من الابتذال التي تخضع له الان ، وفتح ابواب الاراضي المقدسة بسهولــة اكثر من السابق امام زيارات المسافرين المسيحيين سوف يزيد من اغراء هذه السياسة للشعوب البريطانية . وقد لا تكون هناك على الارجــح نتيجة اخرى للحرب تستطيع اعطاء مقدار اكبر من الرضا لقطاعات قوية من الراي البريطاني .

فالاهمية التي يعلقها الراي البريطاني على هذا الضم قد تساعـد على تسهيل الوصول الى حل حكيم لمشكلة اخرى من المشاكل التي سوف تنتج عن الحرب . ومع ان بريطانيه العظمى لم تدخل في النزاع سعيــا وراء اي غرض في التوسع الاقليمي ، فان خوضنا الحرب وقيامنــــا بتضحيات هائلة قد يولّد خيبة امل بعيدة الغور في البلاد فيما لو جاءت النتيجة تضمن فوائد عظيمة لحلفائنا ولا شيء لانفسنا . غير ان تجريد المانيه من مستعمراتها لصالح انجلتره قد يترك شعورا دائما بالمــرارة الشديدة لدى الشعب الالماني ، ويجعل بالتالي انتهاج سياسة من هذا النوع عملا اخرق وغير حكيم . علينا ان نعيش في عالم واحد مع سبعين مليونا من الالمان ، ويجب التنبه الى اعطاء اقل ما نستطيعه من المبرّرات كي لا نجر علينا خلال عشر سنوات ، او عشرين او ثلاثين سنة من تاريخه حربا ثأرية المانية . هناك قسم من المستعمرات الالمانية يجب الاحتفاظ به دون شك لاسباب استراتيجية او بفعل مصالح ممتلكاتنا المستقلة . غير

انه اذا استطاعت بريطانيه العظمى ان تحصل على التعويضات التي سوف يطالب بها الراي العام في كل من العراق وفلسطين ، وليس في المناطق الالمانية من افريقيه الشرقية والغربية ، فان هناك ارجحية اقوى للسلام الدائـم .

آذار ، مارس ، ١٩١٥

هـ. ص. »

سايدبوثام وفلسطين

ضمت الحلقــــة الصهيونية للاشخاص المقرّبين مــن وايزمان في مدينة مانشستر نفرا من تلامذته الشباب الذين تشرّبوا بافكاره وعملوا بتوجيهاته . فكان من اعضائها : ليون سيمون (السير فيما بعد) ، الذي شغل مناصب عليا في سلك الخدمة المدنية واعتبر من الثقاة البارزين في حقل الدراسات العبرانية ، بالاضافة الى الترجمات التي قام بها لمؤلفات احــد هاعام (١) وهاري زاخر الــذي درس التاريخ واشتغل بالمحامــاة والصحافة ، فانضم الى اسرة تحرير المانشستر غارديـــان (١٩٠٥ ــ ١٩٠٩) . ثم ترك عمله في لندن عند مطلع الحرب ليعود الى كتابة المقالات الرئيسية في الصحيفة نفسها بين عامي ١٩١٤ ــ ١٩١٩ ، بعد اشتغاله في صحيفة « الدايلي نيوز » (١٩٠٩ ــ ١٩١٥) . واليه يعود الفضل في كسب كل من سيمون ماركس واسرائيل سيف للحركة الصهيونية عامة ومدرسة مانشستر بالذات . وقد ارتبط الثلاثة زاخر ــ ماركس ــ سيف بروابط القربى والزواج ، بالاضافة الى سيطرتهم على امبراطورية تجارية واسعة النطاق، تجسدت في شبكة المخازن الكبرى (Marks & Spencer Ltd.)

---

١ ــ Leon Simon ١٨٨٥ ــ ١٩٦٥ . اصبح مدير البرق والهاتف في بريطانيه ، ١٩٣١ ، ومدير التوفير الوطني (١٩٣٥) . كان عضوا في البعثة الصهيونية الى فلسطين عام ١٩١٨ . وهاجر الى فلسطين ١٩٤٦ ــ ١٩٥٣ ، حيث اشتغل في ادارة الجامعة العبرية بالقدس وساهم في انشاء « مصرف التوفير البريدي » . قام بتحرير مجموعة من المقالات حول الادب والفكر اليهودي ونشرها في كتاب « مناحي العبقرية اليهودية Aspects of the Hebrew Genius, London, 1910. كما اصدر كتابــا اخر بعنوان « دراسات في القوميــة اليهودية » (لندن ١٩٢٠ Studies in Jewish Nationalism يبرز فيه تأثير الافكار التي نادى بها احد هاعام .

واستمد هؤلاء الكثير من تعاليم احد هاعام . كما استعانوا بمشورته واعتمدوا على تأييده المعنوي . وقد انضم اليهم امثال البرت هيامسون (١٨٧٥ ــ ١٩٥٤) الذي أهتم بتاريخ اليهود في بريطانيه واصبح مدير القسم اليهودي في وزارة الانباء البريطانية ١٩١٧ ــ ١٩١٨ . كما تعيّن في ادارة قسم الهجرة التابع لحكومة الانتداب بفلسطين (١٩٢١ ــ ١٩٣٤) ، ونشر العديد من الدراسات التاريخية . والمحامي نورمان بنتويش الذي تعيّن مفتشا للمحاكم في مصر وخدم في الجيش البريطاني برتبة ميجور اثناء الحملة البريطانية على فلسطين (٢) ثم شغل منصب النائب العام لدى حكومة الانتداب (١٩٢٠ ــ ١٩٣١) ، واستقال ليصبح استاذ العلاقات الدولية في الجامعة العبريّة (١٩٣٢ ــ ١٩٥١) . وهناك ايضا صموئيل لاندمان الذي اصبح فيما بعد سكرتير المنظمة الصهيونية العالمية.

غير انه مما لا شك فيه ان تنسيق التعاون بين افراد هذه الحلقة وصحيفة الغارديان التي يرأس تحريرها المستر سكوت قد تبدّى في أجلى مظاهره من خلال الكسب الذي تحقق بشخص هربرت سايدبوثام ١٨٧٢ ــ ١٩٤٠ (Herbert Sidebotham) : المعلق والناقد العسكري والاستراتيجي لصحيفة المانشستر غارديان . اذ تفقد بدونه مدرسة مانشستر الصهيونية احدى دعاماتها النظريّة الكبرى فيما يتعلق بصياغة كيان جغرافي واضح المعالم والحدود لفلسطين الصهيونية العتيدة . وفضلا عن ذلك ، فان سايدبوثام خير مثال على المدرسة الصهيونية التي ترتكز على الاعتبارات الاستراتيجية . وهو يذكرّنا الى حد بعيد بسلفه : الكولونيل غولر ولورانس أوليفانت ، بالاضافة الى الخواطر التي تضمّنتها احتمالات هربرت صموئيل حول مستقبل فلسطين . وقد وصف وايزمان اهتمام سايدبوثام « بافكارنا من وجهة نظر الاستراتيجية البريطانية » (٣) وتحدث عن دوره البارز في تكوين الرأي العام البريطاني واستقطابه لصالح

---

٢ ــ Norman Bentwich انظر كتابه « فلسطين اليهود : في ماضيها وحاضرها ومستقبلها » : (Palestine of the Jews, London 1919) مع ملحق عن « افتداء اليهوديّة » (The Redemption of Judaea) ومقالات غيرها حول الحملة العسكرية البريطانية عام ١٩١٧ . وهو ابن الصهيوني النشيط هربرت بنتويش (١٨٥٦ ــ ١٩٣٢ ــ) الذي تزّعم حركة احباء صهيون فيبريطانيه وانضم الى الحركة الصهيونية.

٣ ــ **التجربة و الخطأ** ، ص ١٦٢ .

الصهيونية ، مؤكدا انه كان في طليعة الصحافيين الانجليز البارزين . من حيث ادراكه لتلاقي المصلحة بين بريطانيه وفلسطين اليهودية . (٤)

وعلى الرغم من مزاعم سايدبوثام (٥) بان سكوت لم يسع ابدا لايصال ايمانه الصهيوني الى أي من اعضاء اسرة تحرير صحيفته ، فمن الصعب نجاهل قضية وجود نوع من « التنسيق المسبق » بين آراء رئيس التحرير والمعلق العسكري في صحيفته . كما انه يستحيل ان تكون مقالات سايدبوثام التي سيرد الحديث عنها ادناه بالتفصيل قد صدرت دون موافقة سكوت . ولا نعرف بالضبط ما هو الدور الذي لعبه هاري زاخر، سوى تلك الاشارة العابرة الى قيامه بدور الوسيط الذي سارع الى تعريف زميله سايدبوثام بوايزمان للاستفادة من خدماته وآرائه . فليس

---

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

٥ ـ راجع كتابه الاول **Herbert Sidebotham — England and Palestine** Essays Towards the Restoration of the Jewish State (London, 1918) حيث يصف نفسه بالإسم المستعار الذي وقع به المقالات في الغارديان آنذاك «Student of War» ، اي «تلميذ حرب» . وقد اهدى الكتاب المذكور الى ربيكا سيف وميريام ماركس ، بعد ان انتهى من كتابته في مطلع عام ١٩١٨ . اما كتابه الثاني :
Great Britain and Palestine (Macmillan, London, 1937)
فقد تضمن المزيد من التفصيلات عن علاقته بالحركة الصهيونية وحول ذلك المقال الافتتاحي « الدفاع عن مصر » الذي نشره في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ ، وما لبث ان حوله الى مذكرة في شباط (فبراير) ١٩١٦ لكي يقوم بتقديمها في ربيع العام نفسه الى السير رونالد غراهام . وذكر سايدبوثام في احدى حواشي الفصل الرابع من « لجنة فلسطين البريطانية » بان المقال الافتتاحي المذكور جعل رئيس التحرير (سكوت) مسؤولا عما ورد فيه . اذ من المفروض ان يعبّر المقال الافتتاحي عن راي الصحيفة بشخص رئيس تحريرها المسؤول (انظر ص ٣٢) . لكنه سبق له واشار في مطلع الفصل ذاته بان سكوت لم يسع ابدا لايصال ايمانه الصهيوني الى اي فرد من اعضاء اسرة تحرير المانشستر غارديان . (انظر ـ المصدر نفسه ، ص ٢٩) .

بمستبعد اذن ان يكون المستر سكوت هو الذي اوحى بطريقة ما الى معلق صحيفته العسكري وتلميذ الحرب لكي يبادر الى ابراز تلك « الشراكة في الاماني والمصالح بين الصهيونية والسياسة البريطانية » (٦) اثناء اتساع مسرح الحرب وامتدادها الى الشرق الادنى . كما ان صحيفته فتحت صدرها التقليدي لعدد من الكتّاب اليهود البريطانيين الذين سايروا الاتجاه الليبرالي . وتحولت اثناء الحرب الى ناطقة بلسان سياسة المصلحة المشتركة بين الصهيونية وبريطانيه . فكانت مقالاتها الى حد بعيد لسان حال المدرسة الصهيونية في مانشستر . وجاء سايدبوثام لينقل عقيدة تلك المدرسة الى صعيد الاستراتيجية البريطانية .

وقد اكد كريستوفر سايكس بان سايدبوثام كان على صلات وثيقة عام ١٩١٦ بالسير ادوارد غراي وتردّد عليه كثيرا في لندن . كما رجّح ان تكون صهيونية بلفور قد خضعت لتأثير المذكرة التي تقدم بها سايدبوثام في ربيع ١٩١٦ الى وزارة الخارجية البريطانية ، « لان احدى الحجج التي اوردتها هذه الوثيقة ، بان الشعب اليهودي الصغير والموهوب لا يحتاج الا لوطن اجداده كي يعطي العالم كنوزا كالتي أعطاها الاغريق القدماء من هيلاّس (Hellas) ، هذه الحجة غالبا ما استعان بها بلفور في احاديثه الخاصة حول الصهيونية » (٧) . كما اعتبره لويد جورج افضل ناقد عسكري في الصحافة البريطانية (٨) .

فما هي الافكار التي عبر عنها سايدبوثام في أواخر عام ١٩١٥ وتضمنها مقاله الافتتاحي بعنوان « الدفاع عن مصر » ، معتبرا اياها من الإفكار التي لم تكن جديدة ؟ وكيف استحوذت فكرته على عقول السّاسة والاستراتيجيين حتى راح يعلن فيما بعد « لقد كنّا جميعا خبراء استراتيجيين في تلك الايام » (٩) . ولا بد لنا من الوقوف على تحليلات سايدبوثام من الزاوية التي ترمي الى احياء ما أسماه بـ «فلسطين القديمة» في معرض دعوته لخلق « امّة جديدة من فلسطين القديمة » (ص ٢٣) .

---

٦ ــ سايدبوثام في مقدمة **انجلتره و فلسطين** ، ص X .

٧ ــ سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ١٩٢ . وقد زوده بتلك المعلومات السير هارولد نيكلسون الذي اجتمع كثيرا بالمستر بلفور آنذاك .

٨ ــ **Great Britain and Palestine** ، ص ٢٣ .

٩ ــ في حديثه مع المستر سكوت (١٠ آب (اغسطس) ١٩١٧) ــ انظر شتاين : **المصدر السابق** ، ص ١٤٥ .

وما هي علاقة ذلك كله باستنباط كيان جغرافي ادّى لفلسطين جديدة . فنحن نعرف الاخبار الكثيرة عن حماس أمثال لويد جورج وبلفور لظهور العهد القديم من جديد في السياسة العصرية . ويحضرنا قول لويد جورج : حين كان الدكتور وايزمان يتحدث عن فلسطين ، استمر على ذكر اسماء لامكنة كانت مألوفة لديه اكثر من اسماء المواقع على الجبهة الغربية . وكانت عبارة « من دان الى بئر السبع » تعني للرجل الانجليزي اكثر مما تعنيه Ypres و Passchendaele ! (١٠) غير ان وايزمان يؤكد في **مذكراته** ، مثلا ، بان الحدود الشرقية لفلسطين كانت تمتد حتى الخط الحجازي وتشمل شرقي الاردن (ص ١٨٠) . بينما نجد برباره توخمان تقول بان « فلسطين » كانت لفظة لم يتمكن الخبراء من استعمالها ، اذ عانت دائما من انعدام الدقة الجغرافية المشؤومة (١١) . فكيف اوجد سايدبوثام كيان فلسطينه الجغرافي في معرض تحليلاته للوضع الاستراتيجي آنذاك ؟

نشر سايدبوثام مقاله حول «الدفاع عن مصر» بمثابة رد على مقال ظهر في صحيفة «الطان» Le Temps الباريسية عالج فيه كاتبه كيفية استخدام القوات المتجمعة في مصر على افضل وجه وفي سبيل تحقيق انتصار الحلفاء بالحرب . وقد صدر المقال قبل ان يشن الاتراك هجومهم الثاني (في صيف ١٩١٦) على منطقة قناة السويس . والمعروف ان البريطانيين لم يتمكنوا من اختراق الخطوط التركية بين غزه وبئر السبع الا في خريف ١٩١٧ ، حين استحوذت الفكرة التالية على عقول القيمين على شؤون السياسة والاستراتيجية :

« لا يمكننا جعل الشريان الرئيسي للمواصلات مع الهند والشرق مسرحا للمعارك . ولا بد لنا من معقل للحماية (معقل وقائي) ، مما يستلزم الاستيلاء على غزه على الطريق الساحلي وعلى تلال اليهودية التي تتحكم بها . ان المنطق والجغرافية التي اثرت في مملكتي اسرائيل ويهوذا ابان كل حرب وقعت بين امبراطوريتي النيل وما بين النهرين ، هما اللذان يعملان الآن في الدفاع عن مصر ضد تركيه. لكن اذا كانت اليهودية لازمة ، او على الاقل من المرغوب فيها جدا بالنسبة للدفاع الكافي عن مصر ، فلماذا البقاء مقتنعين بالاستيلاء

١٠ـ انظر توخمان ، **المصدر السابق** ، ص ٢٠٦ . ايضا شتاين ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

١١ـ توخمان ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

على تلال اليهودية ؟ ان ما تؤمنه اليهودية ، قد يتأمن بصورة افضل على يد اسرائيل واليهودية مجتمعتين . وما الذي يمنع من احياء فلسطين القديمة ؟ لقد قيل ان تلال اليهودية جرداء مثل أرض الكنيسة ، واذا كانت ستصبح مجرّد مسرح للعمليات المسلحة ، فلا كسب يجنى من ورائها زمن السلم وهي تشكل عبئا ماليا في كل زمان . غير انه لو استطعنا ان نضم الى تلال اليهودية سهل السامرة الخصبة وجمال الجليل ، لتجمعت لدينا عظام بلاد جديدة لا تحتاج الا الى الشعب الصحيح لكي يكسوها باللحم ويجعل من فلسطين القديمة امّة جديدة . وفلسطين الجديدة هذه ، خصوصا في تحالفها مع الدولة التي تبسط سيطرتها على البحار ــ وهو ما لم يكن ابدا في خدمة فلسطين العهد القديم ــ قد لا تكون المعقل المثالي الذي يقي مصر فحسب ، بل امة تعيل نفسها بنفسها ، اقوى من فلسطين القديمة وحتى اكثر منها رخاء وازدهارا » (١٢) .

هذه خلاصة الفكرة التي عبرت عنها مقالات سايدبوثام في المانشستر غارديان منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ . وقد وصفها حين تحدث عنها فيما بعد (١٩٣٧) بانها كانت اولى المقالات حول اعادة بناء « سياستنا الشرقية » وتجديدها . مؤكدا ان الصحيفة قد أخذت على عاتقها منذ ذلك الحين مسألة الربط بين امنية الصهيونيين العالمية وانتصار الحلفاء في الحرب . ولم ينس التعبير عن اهتمامه بتلك الفكرة في وقت لاحق ، « اذ يبين ذلك كيف تستطيع فكرة معينة من توطيد نفسها في عالم السياسة بشكل طارىء وعرضي » (١٣) كما انه ينبه القارىء بعد عشرين عاما على صدور وعد بلفور بان ما جرى التفكير به آنذاك (١٩١٥ ــ ١٩١٦) لم يكن انشاء وطن قومي (National Home) ، بل دولة يهودية فعلية (An Actual Jewish State) (١٤) . فما هي المعطيات التي استمد منها سايدبوثام تفكيره ، وما هي طبيعة المرتكزات التي استند اليها في رسم معالم فلسطين الجديدة ؟

للاجابة على هذه الاسئلة يحسن بنا الرجوع الى مقالة صدّر بها كتابه الأول (**انجلتره و فلسطين** ، ١٩١٨) عنوانها : « الجغرافية العسكرية

١٢ــ انظر سايدبوثام ، **Great Britain and Palestine** ، ص ٢٣ .
١٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤ .
١٤ــ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

للدولة اليهودية القديمة » (١٥) وقد اشار في حاشية الفصل الى اعتماده على مؤلف السير جورج آدم سميث « الجغرافية التاريخية للارض المقدسة » في كثير من المعلومات التي أوردها . ولا يتردد في الاعراب عن قلقه وانزعاجه للقول الذي ورد على لسان ابرز الكتّاب المعاصرين حول جغرافية فلسطين ـ اي ، جورج آدم سميث بالذات ـ في معرض بحثه لطبيعة الارض الفلسطينية وهيئتها وطوبوغرافيتها (١٦) : ان فلسطين بتكوينها وهيئتها وبما يحيط بهــا هي أرض قبائل بشكل ملفت للنظر . والفكرة القائلة بانها قد تكون ملكا لامة واحدة بمفردها ، حتى ولو كانت هذه الامة من اليهود ، هي فكرة منافية للطبيعة والكتاب المقدس » (١٧) . ولو صحّ هذا القول ، لكان يعني بالنسبة لسايدبوثام ، اصدار حكم على اليهود بالفشل السياسي المحتوم « في بلادهم » ، مستقبلا وماضيا . فالانفصال الجغرافي لفلسطين لا مثيل لـه في سـائر انحاء العالم . لـكن سايدبوثام ينظر الـى البلاد مـن زاوية اخرى ليرى فلسطين في حدودها أسعد من معظم البلدان . فهي تتمتع بأفضل ما يمكن من الحدود الطبيعية: البحر غربا والصحراء (« بحر من اليابسة ») شرقا وجنوبا والجبال الى الشمال . أو هكذا يريدها سايدبوثام ان تكون . غير ان تاريخ دولة بني اسرائيل في الزمان الماضي يخذله من هذه الناحية . فيبدو له واقع تلك الدولة اليهودية التي لم تعمّر طويلا في تباين صارخ مع الصورة المثالية التي يرسمها لحدود الـدولة القديمة ـ الجديدة . ويكتشف ان الدولة اليهودية البائدة لم تكن في يوم من أيام حياتها على تلك الدرجة من القوة التي تؤهلها للوصول الى هذه الحدود الطبيعية مجتمعة وفي آن واحد ، او للاحتفاظ بها .

ويستعرض مؤلفنا مـا يـدعوه بـ « تاريـخ السياسة الخارجية لإسرائيل في ظـل حكم الملوك » ليجده بصورة رئيسية ضحية الاخفاقات الثلاثة التالية :

١٥ـ «The military geography of the ancient Jewish state» ص ١ ـ ٢٧ .

١٦ـ George Adam Smith — **The Historical Geography of the Holy Land, Especially in Relation to the History of Israel and of the Early Church.** lst Ed. 1894 (London, 1897 - 4th Ed.).

١٧ـ انظر المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

أ ـ الاخفاق في الوصول الى حدود البحر

ب ـ الاخفاق في العثور على حدود مرضية الى الشمال

ج ـ الاخفاق في ترسيخ نفسها على طرف الصحراء الى الشرق من نهر الاردن .

وقد ادى الاخفاق الأول ، ليس الى حرمان الدولة آنذاك من الثروة والنفوذ الناتجين عن القوة البحرية فحسب ، بل الى كشف المداخل الغربية لتلال اليهودية وفتح طريقا واسعة للاجتياح من الشمال والجنوب. بينما افقدها الاخفاق الثاني القبائل الشمالية واتاح المجال امام عدوها لكي يبادر الى اقتطاع راس البلاد باحتلاله لسهل عكا (مرج ابن عامر Esdraelon) وجاء الاخفاق الثالث ليفتح معابر الاردن ، التي لا تشكل بأي معنى من المعاني وعلى الرغم من العمق السحيق للوادي (الغور) الذي يجري فيه نهر الاردن ، خط حدود يمكن الدفاع عنه (١٨) .

لذلك يعمد سايدبوثام الى استحضار هذه الخصائص الجغرافية في ذهنه باستمرار من خلال محاولته للعثور على بعض المفاتيح الهامة لتاريخ فلسطين عبر القرون والعصور . ويشبّه وضع فلسطين وموقعها في آسيه بما هي عليه بلجيكه في اوروبه (١٩) . فيستعرض جغرافية فلسطين العسكرية من خلال التقسيمات الثلاثة التالية : اليهودية والسامرة والجليل . ثم يؤكد ان الجليل لعب دورا صغيرا في الفترة الكلاسيكية للتاريخ اليهودي العلماني ، وذلك بسبب اقتطاع سهل عكا عن باقي البلاد (ص ١٤) . غير ان اهمية الجليل في فلسطين تتجسد في كونه مركز تقاطع الطرق بين الشاطىء المتوسطي وبلاد ما بين النهرين . والاعتقاد الشائع يعتبر « طريق البحر » هو ذلك الطريق المنحدر من دمشق والملتف حول طرف جبل حرمون ليعبر الاردن الى الجليل عند جسر بنات يعقوب بين بحيرتي الحولة وطبريه (٢٠) . وحين ينتقل الى الحديث عن وادي الاردن يؤكد لنا بان الاسرائيليين القدماء لم يضيعوا اية مشاعر حيال نهر الاردن ، وذلك لاسباب معقولة . فهو ينساب مسرعا وقاتما ومنتفخا بين الضفاف الموحلة والطبقات الصخرية مخترقا الادغال المجلبة للامراض ومتجها صوب

١٨ـ سايدبوثام ـ **انجلتره و فلسطين** ، ص ٨ .
١٩ـ انظر المصدر نفسه ، ص ١٣ .
٢٠ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

البحر الميت ، بينما يخلف وراءه تربة مسمومة ! والى الشرق من نهر الاردن يستلفت نظره ذلك الحزام الخصب من الاراضي المرتفعة بين النهر والصحراء ، حيث يتراوح عرضه بين الثلاثين والثمانين ميلا . فيعتبر هذه المنطقة أهم مناطق فلسطين على الاطلاق من ناحية القيمة الاقتصادية والعسكرية . ويؤكد لنا ان الهدف الكبير للسياسة الخارجية اليهودية في ظل الملوك كان يقضي ببسط السيطرة على هذه المنطقة الى الشرق من نهر الاردن ، والتي لم تكن فلسطين بدونها لتضمن حدودا آمنة من جهة الصحراء (٢١) .

ويعترف سايدبوثام في حديثه عن الجغرافية السياسية لتلك البلاد البالغة الاهمية الى الشرق من نهر الاردن بانها لم تنعم بالاستقرار خلال تاريخ « العهد القديم » ، لكن « حدودها الطبيعية واضحة المعالم حسنة التخطيط » . فهو يعني دون شك « أرض جلعاد » وسهل حوران وبيسان، جاعلا اياها تمتد من اقدام تلال حرمون في الشمال الى اليرموك جنوبا ومن الاردن الى طرف الصحراء (٢٢) . كما لا يفوته التنبيه الى اهمية سهل حوران بتربته الحمراء الخصبة التي ترجع الى الحمم البركانية المنطفئة ، والتي تعتبر اغنى الاراضي المنتجة للحبوب في فلسطين بأكملها . وهو يفسر المعاهدات التجارية بين اسرائيل وصور زمن داوود في ضوء التنازع بين الطرفين على الاستئثار بغلال سهل حوران ، مؤكدا ان احد البواعث التي دفعت داوود لشن حملاته على حوران واقامة تحالف مع صور الفينيقية كانت الرغبة لدى مدن الساحل التجارية والصناعية في الحصول على غلال حوران . وينتهي الى القول بان العظمة الدنيوية لفلسطين غالبا ما اعتمدت على امتلاك هذه المناطق (٢٣) .

وبعد عشرين عاما من صدور هذه الاقوال عن سايدبوثام نجده يتحدث في كتابه الثاني (« بريطانيه العظمى وفلسطين » ، ١٩٣٧) عن سليمان ومعاهداته التي أبرمها مع الفينيقيين . فيؤكد ان سليمان علق اهمية كبرى على المعاهدات التجارية مع صور ، لدرجة جعلته يتخلى عن قسم من منطقة الجليل لقاء ذلك . وقد اعتبر سايدبوثام هذا التفضيل من سليمان لمصالحة في الجنوب على المنطقة الشمالية السبب الذي أحدث

٢١ــ المصدر نفسه ، ص ٢٥ .
٢٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
٢٣ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

الانقسام بين المملكتين الى « يهوذا » و « اسرائيل » .

ثم انتقل الى القول بان بيروت هي الخلف العصري لصور القديمة . وامتدح بادرة اللجنة التي اعطت الجليل للدولة اليهودية ، لأنها جعلتها بذلك « جارة لدولة لبنان الجديد » ، التي ستكون بمثابة الحليف المقرب ، وربما اصبحت في المستقبل **حقلا للتوسع اليهودي** (٢٤) ، (a field of Jewish expansion)

وفي الفصول التالية من كتاب « انجلتره وفلسطين » يتابع سايدبوثام استعراضه لتاريخ فلسطين في ظل الاغريق والرومان والاسلام ، لينتقل الى الحديث عن حملة نابوليون بونابرت في سوريه ، ومنها الى السياسة البريطانية التقليدية حيال تركيه . فيعتبر هذه الاخيرة مستوحاة من باعثين اثنين ، تعود جذورهما الى حروب نابوليون : أ ــ الخوف الجديد من روسيه ، ب ــ التنافس القديم مع فرنسه والذي تركز بالدرجة الاولى على مصر (٢٥) . ويعترف بان الدعوة للصهيونية وتشجيعها كجزء من « سياستنا الشرقية » اكتسبت ذلك الاصرار الشديد منذ ١٨٣٧ وفي ظل حكم بالمرستون . فلا حاجة بنا الآن لتكرار قصة تلك المحاولات الرامية الى استرجاع ملك بني اسرائيل ، كما حملت لواءها مختلف الهيئات والشخصيات والحركات الدينية البريطانية آنذاك . بل ان سايدبوثام بالذات يحيل القارىء على كتاب البرت هيامسون الذي نشرته « لجنة فلسطين البريطانية » عام ١٩١٧ بعنوان « المشروعات البريطانية لارجاع ملك اليهود » (٢٦) .

ثم يخصص فصلا للحديث عن المطامع الالمانية في الشرق . فينصرف الى اهتمام المانيه بالخطوط الحديدية العثمانية خلال الثمانينات ويحلل العلاقة الوثيقة بين السياسة ومد الخطوط الحديدية ، محاولا اكتشاف اسباب النجاح الالماني في الحصول على الامتيازات بهذا الشأن والاشارة الى المشروعات البريطانية المتعددة لوصل مرفأ الاسكندرون بالبصرة (٢٧) . ويعترف بان وزارة الخارجية البريطانية كانت تضمر التعصب والتحامل الشديدين ضد مصر وكل ما شأنه ان يزيد في قوتها حتى البدء بشق قناة

٢٤ــ المصدر المذكور اعلاه ، ص ٢٩٣ .

٢٥ــ سايدبوثام ، انجلتره وفلسطين ، ص ١١٠ .

٢٦ــ انظر : British Projects for the Restoration of the Jews

٢٧ــ راجع سايدبوثام ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٢ .

السويس . فيعلل التحامل المذكور على اساس النفوذ الذي تمتعت به فرنسه في مصر والحسد الذي اشتعل في صدر بريطانيه من روسيه فتحول الى ذلك العناد « في تبني مبدأ السلامة الاقليمية لتركيه خوفا من مغبة استيلاء روسيه على القسطنطينية » (٢٨) .

ومن القصص الطريفة التي يرويها عن اول قنصل بريطاني في مصر ابان الثورة الفرنسية – جورج بالدوين – انه تسلق الاهرام الاكبر في احدى المناسبات بصحبة نفر من اصدقائه ، لكي يسكب من على قمته الماء الذي تحويه ثلاث زجاجات : واحدة من التيمز واخرى من الكنج وثالثة من النيل . ثم يسارع الى شرب نخب وحدة الانهر الثلاثة وتوسيع التجارة البريطانية عن طريق مصر (٢٩) .

ويتابع استعراضه للمشروعات الاستعمارية اليهودية التي حمل لواءها بريطانيون من طراز شافتسبوري والكولونيل جورج غولر وهولنغوورث والكولونيل كوندر ولورانس اوليفانت . حتى يصل الى تعداد المرتكزات التي قامت عليها « سياستنا الشرقية الجديدة » في العقد الأخير للقرن التاسع عشر وابان ظهور الحركة الصهيونية . فيذكر من تلك المرتكزات :

أ – عقد تحالف مع فرنسه لضمان الموقف البريطاني في مصر وابعاده عن الاحراج الدبلوماسي الممكن .

ب – الوصول الى تفاهم مع روسيه او المانيه بقصد تأمين مركز بريطانيه العسكري في مصر والشرق .

٢٨– يتحدث المؤلف عن سعي المستر بلفور لوضع الخط الحديدي بين برلين وبغداد تحت سيطرة عالمية وذلك بعد اقتناع البريطانيين بان المشروع اصبح في طور التنفيذ الجدي ، سواء شاؤوا أم أبوا . وقد قامت مساعي بلفور آنذاك بحجة الحؤول دون احتمال التفضيل بالمعاملة لبضائع اية بلاد اخرى او رعاياها . غير انها اصرت على ضرورة ابقاء طرف الخط الحديدي المذكور بين بغداد والخليج تحت السيطرة البريطانية . وفقدت بريطانيه فرصتها الاخيرة للمشاركة في المشروع على اساس التساوي بين كل من المانيه وبريطانيه وفرنسه عام ١٩٠٣ . (انظر المصدر نفسه ، ص ١٤٧) .

٢٩– المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

ج ـ ابرام الاتفاقات حول مستقبل تركيه : بين بريطانيه وفرنسه من جهة ، وبينها وبين المانيه او روسيه من جهة ثانية .
د ـ بعث القوميات السامية في الشرق لكي تحل محل تركيه .
هـ ـ انشاء اتحاد بين دول البلقان لمنع المانيه من اقامة اتصال بري مع تركيه (٣٠) .

وقد تم ترسيخ هذه المرتكزات عن طريق معاهدات الصداقة الثنائية المتبادلة مع فرنسه وروسيه . واستمرت المحاولات لتدعيم المرتكزين الثالث والرابع الى ما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، بينما جاءت حرب البلقان الثانية لتحبط محاولة تحقيق المرتكز الخامس . ولو نجحت حملة الدردنيل اثناء الحرب ، لكان تنفيذه قد تم بصورة أكيدة .

وفي الفصول الأخيرة من كتابه يخلص سايدبوثام الى استعراض المصالح البريطانية في فلسطين ، ثم يتناول الاعتراضات التي تثار ـ وقد اثيرت بالفعل ـ ضد السياسة الرامية الى اقامة دولة يهودية صهيونية بفلسطين . وينتقل الى شرح المبادىء التي يقوم عليها ارجاع اليهود ضمن نطاق التسوية السياسية لمستقبل فلسطين ، وبسط التوقعات المأمولة من جراء قيام دولة يهودية داخل الممتلكات المستقلة للامبراطورية البريطانية او في ظل الضمانات الدولية . ويلحق بالكتاب نصوص المعاهدات «السرية» المتعلقة بتركيه كما نشرتها صحيفة ازفستيا السوفياتية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، وفي الترجمة الصادرة على صفحات المانشستر غارديان آنذاك ـ (٦ آذار (مارس) ١٩١٧ ؟) .

فهو حين يستعرض المصالح البريطانية في فلسطين يسارع الى تنبيه القارىء بان الفصل المذكور قد كتب قبل صدور وعد بلفور وتبنّي مبدأ الصهيونية بصورة رسمية . ويأتي على ذكر المصالح التجارية والسياسية والعسكرية للامبراطورية البريطانية في الممالك العثمانية . لكنه يركز على المصالح العسكرية التي يمليها بصورة رئيسية الدفاع عن مصر والهند . وعلى المصالح السياسية المرتبطة بها والرامية الى « تسوية مسائل البلدان المتاخمة لكل من مصر والهند بما يضمن مستقبلها ويخفف من اعبائنا العسكرية بقدر الامكان » (٣١) .

٣٠ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .
٣١ـ المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

اما البلدان المتاخمة التي يعنيها فهي فلسطين والعراق . ثم يسارع الى استحضار الصلة القديمة بين مصر وفلسطين والعراق كمقدمة لاحيائها على الاساس التالي :

« كانت بلاد ما بين النهرين مهد الشعب اليهودي ومنفاه اثناء السبي . ومن مصر جاء موسى ، مؤسس الدولة اليهودية . لذلك يكون دولاب القدر قد دار دورته الكاملة فيما لو ادى ، عند نهاية هذه الحرب ، زوال الامبراطورية العثمانية من العراق والحاجة الى ضمان حدود يسهل الدفاع عنها في مصر الى انشاء الدولة اليهودية من جديد بفلسطين » (٣٢) .

والسؤال المطروح بالنسبة الى سايدبوثام هو : « الى أي حد يتلاءم مثال الدولة اليهودية هذا مع مصالح الامبراطورية البريطانية ؟ » أو ما هي تلك المصالح البريطانية التي تنسجم مع خلق دولة يهودية بفلسطين ؟ وهذه الصيغة الاخيرة للسؤال هي الوسيلة التي تضمن له الابتعاد عن الخضوع لتأثير الاعتبارات العاطفية التي يرقى اليها الشك . لكنه يؤكد لنا بان أقسى انواع السياسة الواقعية (Real - Politik) واكثرها تطرفا لا يمكنها تجاهل تلك العواطف والإنفعالات والمثل العليا التي تعتبر من أزخم منابع الفعل الانساني . ولا بد لهذه الاخيرة بالتالي من احتلال مكانتها في حسابات السياسة البريطانية (٣٣) . لذلك يعمد الى تقسيم موضوعه على الشكل التالي :

أ ــ الدفاع عن مصر

٣٢ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ــ ١٧٤ .

٣٣ــ يقول سايدبوثام في معرض الحديث عن نفسه وفي الكتاب الثاني حول الموضوع (١٩٣٧) ، حيث يصف علاقته بصهيونية مانشستر ، ما يلي : « لم تكن لي اية صلات يهودية على الاطلاق ــ وقد قامت حجتي لارجاع اليهود الى فلسطين على الاسس المصلحية البريطانية بشكل بحت ، ورائدي تلك الفكرة الوحيدة لمساعدة الحلفاء على النصر في الحرب » . لكنه يعترف بان وايزمان لم تستهوه الحجة بقدر ما استهواه الدليل الذي قدمه سايدبوثام بشخصه على امكان قيام من لا صلة له باليهود على الاطلاق للمناداة بحجج من هذا النوع . (انظر (Great Britain and Palestine, 1937, P. 32

ب ــ تسوية مشاكل المنطقة الواقعة الى الشرق من نهر الاردن والدفاع عنها .

ج ــ الحدود العسكرية والتجارية لفلسطين صوب الشمال (٣٤) .

ويشدد على الاهمية القصوى لمصر باعتبارها تمثل « سيدة مصالحنا في الشرق » . لكن ذلك لا يختلف البتة عن قولنا « فلسطين هي سيدة مصالحنا ، لان فلسطين ، الآن وفي كل آن ، هي مفتاح مصر » . والعدو الذي سوف يهاجم قناة السويس على حين غرة وقبل ان يتسنى لنا تعزيز قواتنا ، سوف يهدف الى اجتياح الصحراء بكاملها من الحدود المصرية ــ التركية والقناة قبل ان نسترد وعينا من جراء ضربته الأولى . كما يؤكد سايدبوثام آنذاك بان لا حاجة بالعدو المهاجم الى عبور القناة تحقيقا لاهدافه ، بل يكتفي بتوطيد نفسه على ضفة واحدة للقناة لينطلق من هناك الى تخريب مواصلاتنا في مصر كلها (٣٥) .

وتحمل هذه التوقعات صاحبها على اقتراح تنظيم الدفاع عن شبه جزيرة سيناء كلها وتخزين السلاح والمعدات الحربية فوق ارضها . لكنه يستدرك التكاليف الباهظة التي يتطلبها هذا الحل الصعب . وتبقى مصر بمثابة عقب اخيل في امبراطورية بريطانيه البحرية . كما انه ليس بامكان الاستراتيجية البريطانية اعتماد المذهب الالماني القائل بان افضل انواع الدفاع هو الهجوم ــ على حد قول سايدبوثام . فما العمل ، اذن ؟

يجيب تلميذ الحرب والناقد العسكري بقوله : « الحل الهندي » ! («On the Indian Analogy») وهو يعني بذلك نقل التدابير والاجراءات التي اعتمدها البريطانيون في الهند الى الشرق الادنى ، وقياسا على ما حدث هناك . ويكتشف الحسنتين التاليتين في الامبراطورية الهندية ، باعتبارهما قد حالتا دون كونها عبئا عسكريا ضخما يتناسب مع حجمها : فهي تتمتع بحدود طبيعية لا مثيل لها ، وهناك نظام الدول الفاصلة او الحائلة (Buffer-states) الذي اقيم على الحدود الشمالية الغربية المعرضة للهجوم . ومثاله على ذلك الحزام الواقي هو افغانستان . ولو حاولنا تطبيق ذلك على دفاعنا عن مصر ــ يقول سايدبوثام ــ لامكن توسيع الحدود « المصرية » عن طريق الدولة الفاصلة او الحائلة هذه . « فالحدود الطبيعية الجيدة لا يمكن التوصل

٣٤ــ انظر ــ **انجلتره و فلسطين** ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

٣٥ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٦ ــ ١٧٧ .

اليها بالوسائل المصطنعة ، لكن السياسة البعيدة قد تعمد الى بناء دولة فاصلة مثلى امام مصر » (٣٦) . وهكذا تعلمنا التجربـــة الهندية بصدد الدفاع عن مصر اهمية تلك الدولة التي تلعب بالنسبة لحدودها الدور نفسه الذي لعبته الافغانستان بالنسبة لحدود الهند . ومن المرغوب فيه جدا ان تتــكرر اذن تجربتنا السعيدة في الهند عــلى نطاق هذه البقعة الجديدة الفاصلــة «The new cis-indian region» . علمــا بان نظــام الفواصــل والاحــزمــة الواقية المعمــول بــه في الهنــد قــد برهن على فعــاليته ونجــاحه ، رغــم النزاعــات والنكسات . فمــا الذي يمنعنــا مــن نقــل تلك التجربة الى سوريــه الجنوبية ، حيــث لا توجد في الوقت الحاضر ايــة دولة فاصلــة ، و « لا بد مــن خلقها بصورة مصطنعة ، ولن ينشأ اي شك حول وضعها الدولي لكونها صنيعتنا » (٣٧) . ويغلب على سايدبوثــام التفاؤل بمستقبل الصنيعة الجديدة ، اذ يتوقع انعدام اسباب الاضطراب والخلاف الذي نشب بين الحين والحين في الهند . ثم ينتقل الى اعتماد منظار آخر للمسألة ، اذ يجد بريطانيه تنفرد وحدها بين الامم الاوروبيــة في التمييز بــين السياســة الاستعمارية (Colonial) والامبريالية (Imeprial) . فالأولى تعني حصرا « حكم بلاد يقطنها اناس يرجعون الى الاصل نفسه كالشعب المقيم في مقر الحكومة المركزية » (٣٨) ، وتكاد تكون غير معروفة في أوروبه . وما تدعوه هذه الاخيرة بالمستعمرات (Colonies) لا يعــدو كونــه « زروع (Plantations) .أو معمرات زراعية استيطانية تابعة للمؤسسة المركزية كالفروع ، أو ممتلكات امبريالية كالهند! بينما يؤكد سايدبوثام :

« اننا وحدنا من بين الأمم قد عرفنا كيف نوفق بين الفكرة الافريقية للمستعمرة أو الدولة الابنة التي تــكون وليدة للعقلية السائدة في الدولة الأم تحت ظروف مختلفة ، وبــين المثال الرومــاني للوحدة الســياســية ... فالحــكم الامبراطــوري مقرونـــا بــالتحرير (Imperium cum libertate) يعتبر مفارقة في كل مــكان ، لكنه مــن الحقائق البديهية لدينا الى درجة تجعل من النادر ادراك جراة ذلك التصور واصالته » (٣٩) .

٣٦- المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

٣٧- المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

٣٨- المصدر نفسه .

٣٩- المصدر نفسه ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

والغاية التي يرمي اليها سايدبوثام من وراء هذه النظريات والمقارنات هي الوصول الى المطالبة بتوسيع رقعة الحكم البريطاني حتى تشمل سوريه الجنوبية . ولكي يتم التوسيع على أساس النمط الاستعماري الذي شرحه لنا أعلاه (Colonial pattern) ، يتفتق ذهنه الاستراتيجي الحاد على الحيلة التالية : « لا بد من اسكان شعب في الرقعة الجديدة يتمتع بالمرحلة نفسها من التطور السياسي الذي بلغناه » ، كما ان زيادة مساحة تلك الرقعة لن تشكل عبئا علينا ، بل هي كناية عن مصدر جديد من مصادر القوة ، يضاف الى قوتنا . ثم يؤكد بصورة جازمة انه حين تصبح فلسطين جزءا من الامبراطورية البريطانية ، فلن يجيء الى استعمارها اولئك الانجليز الذين عمروا كنده واوستراليه بالمعنى الحقيقي. بل يجد سايدبوثام بان « اليهود وحدهم يمكنهم استعمار فلسطين » ، وهم

« وحدهم يستطيعون بناء ممتلكة مستقلة (Dominion) جديدة على البحر الابيض المتوسط ترتبط بهذه البلاد منذ البداية في العمل الإمبريالي ، وتكون في آن واحد : وقاية ضد الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا ، ومدنية تتميز عن مدنيتنا لكنها متشربة بافكارنا السياسية ، تقف في المرحلة نفسها من التطور السياسي ، وتدشن حياتها الثانية كأمة تكن الوفاء وعرفان الجميل لهذه البلاد باعتبارها الاب الثاني لها » (٤٠) .

بعد استعراض الحجج الاستراتيجية العامة لتبرير قيام دولة فاصلة في سوريه الجنوبية والاستعانة بالتجربة الهندية لضمان نجاحها ، يعود سايدبوثام الى النظر لموضوعه من زاوية مختلفة تتناول هذا البحث بصورة مباشرة . فيوجه نظره الفاحص شطر جغرافية فلسطين وتاريخها ، عل ذلك يلقي مزيدا من الضوء الجديد على السياسة التي تتلاءم مع مصالح بريطانيه على افضل وجه . فاذا كانت الحجج التي ساقها حتى الان لخلق دولة فاصلة بفلسطين صادقة صائبة ، يترتب عليه اذ ذاك «تعيين المبادىء العامة التي يجب ان تملي عملية رسم الحدود الجديدة » (٤١) .

وهنا يستعين بالمعلومات والتقسيمات التي اوردها جورج آدم سميث في كتابه المشار اليه آنفا . فينطلق من تقسيمات فلسطين

---

٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .
٤١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

الطبيعيــة لجهة مصر : السهل الساحلي الفلسطيني ، وسهل شفالة الممتد مــن يافا حتى الحدود المصرية (Shephelah) ومرتفعات اليهوديــة . ويعتبر هذه السهول بمثابة الطريق الذي سارت فيه جميع الفتوحات الكبرى من آسيه الى مصر والعكس بالعكس . فيدرك الاهمية القصوى التي كانت مصر تعلقها دائما على امتلاك المعاقل الساحلية أو اقامة تحالف معها . ويخص مدينة غزة باعتبارها الموقع الذي لا غنــى عنه للجيش الزاحف مــن مصر أو صوبها . ثم يرى الخطأ الرئيسي الفادح ، والذي جرى ارتكابه في تعيين الحدود المصرية التركية الحاضرة ، في اعطاء غزة لفلسطين ، لكونها « تزود الاتراك بأشهر راس جسر في التاريـخ » (٤٢) . ويكتشف الطرف الاخر للجسر الاستراتيجي عند الجهة الشمالية لوادي مجلون ، حيث تبدأ تلال السامرة . ثم يعتبر بقاء الساحل الفلسطينـي بايدي الفلسطينيين في التاريخ القديم السبب الذي حال آنذاك دون وصول اليهـود الى البحـر .

لذلك يرى سايدبوثام ان تبدأ الدولة اليهودية الجديدة في ظــل امتيازيــن هائلين لم يمــن التاريخ بهما على الاوضاع القديمة : الوصول للبحر والصداقة المتينة مع مصر . وعلى الرغم من تأكيداته بان اهتمام مصر بفلسطين ينتهي عند تلال اليهودية من الوجهــة الإستراتيجيــة الدفاعية ، فهو لا يرى اي مستقبل للمستعمرة الجديدة طالما بقيت رقعتها محصورة النطاق في السهل الساحلي والشفالة واليهودية . ويجــد نفسه مضطرا ــ على حد قوله ــ لتخطي الفكرة المجردة في الدفاع المصري ، والالتفات الى الاعتبارات التي يمليها الامل بتشييد ملك عظيم لليهود في شرقي المتوسط . فالاكتفاء بتأمين سلامــة مصر العسكرية لا يعني مــن الزاوية اليهودية ــ الصهيونية سوى تكريس الاستمرار المؤلم في الفصل بين مملكتي يهوذا واسرائيل والابقاء على انقسامهمــا .

ولا يريد سايدبوثام لبريطانيه ان تظهر بمظهر من يستخدم الروح القومية اليهودية لغاياته الخاصة والانانية ، دون قيامها بالتعويض الكافي على اليهود لقاء خدماتهم في الدفاع عن مصر (٤٣) . بل يعتبر المشكلــة الكبرى التي تواجهه : كيف السبيل الى انشاء دولة تكون بمقام الشعب

---

٤٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .
٤٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

اليهودي وتستحقه ؟ لذلك يولي مسألة الحدود بالغ اهتمامه ، فينتقل الى الحديث عما يدعوه بالمأساة في تاريخ مملكة اسرائيل : اذ اخذت حدودها الشمالية تتقلص تدريجيا تحت ضغط سوريه المتزايد . والهدف الذي يرمي اليه ليس سوى تبرير ضم الجليل للدولة اليهودية والمستعمرة البريطانية المنشودة . باعتبار الجليل منطقة لا يمكن الاستغناء عنها . اما الحدود الطبيعية للجليل فهي سلسلة جبال لبنان . ومن جهة البحر ، يرى سايدبوثام ان تعيين القسم المتوجب ضمه من الساحل الفينيقي هو مسألة تتعلق بالتفاصيل اكثر منها بالمبادىء السياسية أو العسكرية(٤٤) . كما ان التوسع حتى دمشق له اهمية بالغة من الناحية التجارية ، ان لم يكن من الناحية السياسية . وامتلاك الجليل لدمشق قد يؤدي الى تحويل تجارتها عن طريق الخط الحديدي المتد من بيروت ، ويجعل من الجليل المهوّد الشريان الرئيسي للتجارة بين مناطق الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط . ولا يألوا سايدبوثام جهدا في استحضار تاريخ الدولة اليهودية القديمة من زاوية الفشل التجاري والسياسي الذي منيت به تلك الدولة ، لكي يعتبر معظم اسباب ذلك الفشل عائدة لكون الدولة المذكورة قد عجزت بصورة دائمة عن توطيد نفسها وترسيخ سيطرتها الى الشمال . كما انه ينظر الى مشروع الخط الحديدي بين حيفا والخليج العربي كبديل بريطاني لمشروع الخط الالماني بين برلين وبغداد . ولذلك يعتبر « فلسطين » التي يريدها تبدي اهتمامها العميق والشديد بدمشق . وينتقل الى تعيين الحدود الشرقية اذ لا تقل اهمية عن زميلتها الشمالية . فتحضره مسألة دخول العبرانيين الى ارض كنعان من الجهة الجنوبية الشرقية بعد ترحالهم وتجوالهم الطويل في صحراء التيه بسيناء . لكن فلسطين الجديدة لا يمكنها الاكتفاء بارض جلعاد وحدها ، بل تحددها الرغبة للاستيلاء على كل ما تستطيعه من البلاد الواقعة بين نهر الاردن والصحراء في سوريه الشرقية . وربما وجدت الدولة اليهودية العتيدة عزاءها ، لكون دمشق بعيدة عن متناولها ، في الحصول على منطقة حوران والحواضر التابعة لها . فقد شكلت هذه المنطقة ايام الرومان حزام امن وقائي ضد الاجتياح الخارجي . ولا يمكن المبالغة في اهمية شرقي الاردن لمستقبل الدولة اليهودية مهما جرى الامعان في التشديد على ذلك . اذ يعرف سايدبوثام ان الخط الحديدي بين دمشق والعقبة يمر عبرها وينقل

---

٤٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

الحجاج الى مكة . ومهمـا يحدث مـن تطورات في تلك المنطقة ، فلا بد مـن المحافظة على حرية التبادل التجاري بين فلسطين وعبر الصحراء نحـو بلاد ما بين النهرين (٤٥) . ولا يمكن تركها بالتالي تحت سيطـرة اجنبيـة !

ويصل في نهاية المطاف الى الطرف الجنوبي الاقصى عند خليـج العقبة ، فينبه الى خطر تحويل الخليج لقاعدة بحرية عـدوانية تعـج بالغواصات ، مما قد يؤدي الى تهديد السيطرة السيـاسية بفلسطـين ويستدعي بالضرورة ضمها الى فلسطين أو انشاء محطة بحرية امبريالية تفي بالمتطلبات وتؤمن السلامة .

هكذا يعرض هربرت سايدبوثام حججه لصالح اقامة دولة يهودية في ضوء الشروط التي يعتبرها كفيلة بانجاح المشروع . ويبين لنا ، كما بيّن لقرائه من القائمين على مقدرات السياسة البريطانية آنذاك ، في رسمه لحدود تلك الدولة كيفية تفادي الفشل السيـاسي والعسكري الذي منيت به الدولة اليهودية القديمة . فالحل الذي يدعو له المعلق العسكري في صحيفة المانشستر غارديان يقضي بانشاء دولة يهودية في ظل التـاج البريطاني .

---

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .

فلسطين والمستقبل اليهودي

استعرضنا فيما سبق افكار هربرت سايدبوثام حول الكيان الفلسطيني الذي يريده لليهود في ظل التاج البريطاني . وحين ترامت انباء المقال المار ذكره الى مسمع وايزمان عن طريق هاري زاخر ، تم التعرف الى كاتبه وطلب اليه بواسطة سيمون ماركس واسرائيل سيف ان يعمد الى توسيع حجةمقاله ويعيد صياغته علىصورة مذكرة «رسمية» ليصار تقديمها الى وزارة الخارجية (١) . وهكذا وجد سايدبوثام نفسه يعكف على اعداد المذكرة التي بلغ طولها ثمانية آلاف كلمة ، واصبح في طليعة المساهمين بمشروعات مانشستر الصهيونية لفلسطين . كما اعتبر نفسه بالاشتراك مع ثالوث ماركس ــ سيف ــ زاخر من اولئك الذين استبقوا الاحداث آنذاك فتقدموا على سيرها بحوالي ١٨ شهرا (٢) . وبلغ بهم الحماس للقضية حدا جعلهم يسارعون الى تأليف لجنة على غرار لجنة البلقان التي اجتذبت الانظار الى آرائها . فأطلقوا عليها تسمية « لجنة فلسطين البريطانية » (British Palestine Committee) ، وجعلوا مقرها بمدينة مانشستر . ثم عهدوا الى سايدبوثام بالذات لاعداد مسودة نداء يناشد فيه مشاهير الرجال البريطانيين اعتناق مبادىء اللجنة والانضمام الى دعوتها .

وحين جرى ارسال بضع مئات من النداء المذكور الى رجالات السياسة والعلم والادب ، لم تتسلم اللجنة اكثر من عشرة اجوبة ، جاء نصفها بمثابةالرد الشكليالذي انحصر فينطاقالعلم والخبر بالاستلام(٣) .

واعترف سايدبوثام بان ردين منالنصف الباقي اعربا عنمعارضتهما

---

١ ــ راجع القصة كما سردها سايدبوثام بعد ما يزيد على العشرين عاما في كتابه Great Britain and Palestine, (London, 1937), p. 32 - 33.

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

لنداء اللجنة . كما وصف خيبة الامل التي اعترت اعضاء اللجنة حين وصل جواب السير جورج آدم سميث باستنكار الفكرة الرامية الى «جعل فلسطين امة » وهي التي لم تكن امة ولن تكونها ابدا (٤) .

غير ان لجنة فلسطين رفضت تثبيط عزيمتها فقررت اللجوء الى اسلوب يختلف عن « الهجوم المباشر بطريق المجابهة». وعكفت على اصدار مجلة على غرار النشرة الدورية الاسبوعية تحت اسم « فلسطين » (Palestine) (٥) . فظهر العدد الاول منها في السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ . وترأس تحريرها خلال الفترة الاولى هاري زاخر . بينما اصبح سايدبوثام مسؤولا عن الناحية الدعائية لافكار المدرسة في معرض ابراز الصلات المرجوة بين المزاعم الصهيونية واحداث الحرب . والقيت على عاتقه مهمة تعزيز العلاقات بين المصالح البريطانية، بشقيها العسكري والسياسي ، والحركة الصهيونية الجديدة (٦) . كما ان الشعار الذي اختارته اللجنة ليتصدّر كل عدد من مجلتها ويلخص السياسة التي تنتهجها جرى تضمينه في النص التالي :

« في سبيل اعادة توطيد الامجاد القديمة للامة اليهودية تحت ظل الحرية السائدة في دومنيون بريطانيّة جديدة بفلسطين » (٧) .

---

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ . وقد ذكر فريش فاسر ـ رعنان في كتابه « حدود امة » بان السير جورج آدم سميث عاد وكتب مقالا بعد صدور وعد بلفور مباشرة « وبّخ فيه الحركة الصهيونية لكونها لم تعر مسألة الحدود الاهتمام الكافي » . (انظر ص ٨٥) . فهل يعني ذلك تحوله من معارض الى مؤيد للفكرة الصهيونية ؟

٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

٦ ـ سبق لحركة احباء صهيون البريطانية ان اصدرت مجلة تنطق بلسانها ، ودعتها « فلسطين » Organ of the (Palestine) Chovevi - Zion Association of England وقد استمرت هذه المجلة على الصدور بين عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٨ .

٧ ـ انظر : سايدبوثام ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ (A new British Dominion in Palestine) يستغرب سايدبوثام عدم اكتراث عالم الحرب آنذاك لمسألة التحالف بين الصهيونية وبريطانيه . لكنه لا يلبث ان يستمد التشجيع العظيم من تلك المثابرة التي تلازم الباعث على « فكرتنا في الشعور والسياسة البريطانية الماضية ». (انظر : المصدر نفسه ، ص ٤٣ ـ ٤٤) .

واقدمت اللجنة على ارسال ما يتراوح بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ نسخة من مجلتها بالبريد الى الساسة البريطانيين وكبار الموظفين الحكوميين والصحافيين بالاضافة الى اصدقاء الحركة الصهيونية المعروفين واعدائها البارزين. وعلى الرغم من كون جميع اعضاء اللجنة من اليهود والصهيونيين، باستثناء سايدبوثام وحده، فقد اقر هذا الاخير فيما بعد بانه كان انشط المساهمين بصورة منتظمة في اصدار مجلتها وتزويد مادتها اثناء فترة الحرب (٨) . ولا شك ان وايزمان ومعاونيه كانوا على معرفة تامة بالاسلوب الذي اتبعته اللجنة في معالجتها للمسألة من وجهة نظر بريطانية صرف . لذلك سعت اللجنة للتأثير على من بيدهم زمام الامر وحملهم على الاعتقاد بان مصلحة بريطانيه تقضي بتأييد مطالب الصهيونيين ودعمها . ولم تتمكن من تحقيق الهدف الذي وضعوه نصب عينيها : ان تكون مجرد نواة لمنظمة اوسع بعد ان تنجح في جعل غالبية اعضائها من غير اليهود . كما ان شتاين يريدنا ان نعتقد بان مجلة « فلسطين » لم تكن خاضعة لسيطرة الزعماء الصهيونيين واشرافهم المباشر . اذ تسبب الحماس العلني في احراج موقف كل من وايزمان وسوكولوف . مما حدا بالمسؤولين البريطانيين الى تحذير الزعيمين في مطلع عام ١٩١٧ من مغبة الافراط في الحماس للدعوة افراطا يضر بالغرض الذي قامت لاجله ويؤدي الى تصلب المعارضة الفرنسية . حتى ان السير مارك سايكس لم يجد بدا من ابلاغ اعتراضاته على « الحماقات الطائشة » التي ارتكبتها مقالة في المجلة من خلال معالجتها لحدود فلسطين في المستقبل (٩) .

وعلى الرغم من كون المقالات التي نشرتها المجلة دون تواقيع اصحابها، فان الاوساط المقرّبة كانت تعرف تمام المعرفة هوية المساهمين فيها بصورة منتظمة ـ امثال سايدبوثام وزاخر وهيامسون وغيرهم . وسرعان ما اكتشف القيّمون على المجلة بان مقالاتها تستأثر باهتمام من توسموا فيهم الخير وعقدوا الآمال على استجابتهم للدعوة . فهي وان لم تكن رائجة على الصعيد العام استطاعت ان تكون مقروءة لدى اولئك الذين وجهوا مقدرات السياسة او مارسوا نفوذهم عليها (١٠) . كما يؤكد لنا شتاين ما اكتشفه سايدبوثام بقوله ان وزارة الحربية البريطانية آنذاك اخذت

---

٨ ـ انظر : المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

٩ ـ راجع شتاين ، **To Balfour Declaration** ، ص ٣٠٣ .

١٠ ـ سايدبوثام ـ **المصدر السابق** ، ص ٤٣ .

مجلة « فلسطين » بعين الجد وعكفت على قراءتها بانتظام ، بالاضافة الى اهتمام مكاتب الصحف البريطانية وغيرها من الاوساط النافـذة (١١) . وقد ضمت اللجنة شخصيات بارزة فيما بعد مـن طراز اللورد روبرت سيسيل والميجور اورمسبي ـ غور ، بينما يؤكد الذين تيسر لهم الاطلاع على نشاطاتها من خلال مجلة « فلسطين » بان هذه الاخيرة اولت مسألة الحدود اهتمامها الوثيق في الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩٢١ . واشترك فيها عدد لا يستهان به من اعضاء مجلس العموم البريطاني ، بينما كان المساهم الرئيسي في تحرير مقالاتهـا ـ هربرت سايدبوثام بالذات ـ يتمتع بحظوة شخصية لدى لويد جورج ويلقى منه كل عطف وترحيب (١٢) .

واذا كانت الصهيونية قد استطاعت الوصول الى اوساط معينـة وقع عليها اختيارها ، فان ذلك لا يعني ان الرأي العام البريطاني لم يبق بمعزل عن تأثيرها . بل كان همها الاول ايقاع نخبة مختارة من صانعـي السياسة وموجهيها في شباكها وحبائلها ، نظرا للاهمية التي تعلق على دور هؤلاء الاصدقاء في المساعي المبذولة للحصول على الـزام بريطاني صريح بالعطف على مطالب الحركة وتبّني الاهداف التي تنشدها .

فلو اخذنا بالرأي القائل ان لجنة فلسطين البريطانية والمجلةالناطقة بلسانها لم تكن الممثل الرسمي للموقف الصهيوني او المعبّر عنه بصـورة مباشرة ومسؤولة ، لجاز لنا ، لا بل اصبح من واجبنا البحث عن ذلـك الموقف واستجلاء مقوماته ومحتوياته بالنسبة للمستقبل الذي كانـت الحركة الصهيونية تعده لفلسطين . كما انه لا مندوحة من الاشارة الى الاتفاقات والمعاهدات السرية التي ابرمها الحلفاء فيما بينهم بقصد اقتسام اجزاء الامبراطورية العثمانية . وقد ارتأينا اتباع الترتيب الزمني لتلـك المفاوضات والاتفاقات التي اذاع البلاشفة اسرارها بعد قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيه والقضاء على الحكم القيصري .

★★★

ولنبدأ بالمذكرة التي ابلغها سازونوف (Sasonow) وزير خارجيـة روسيه الى سفيري انجلتره وفرنسه في بطرسبرج بتاريخ الرابع من آذار

---

١١ ـ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٣٠٤ .
١٢ ـ انظر فريش فاسر ـ رعنان . **المصدر السابق** ، ص ٨٦ .

(مارس) ١٩١٥ . اذ اعرب فيها عن رغبة حكومتــه في ضم الاراضــي التالية الى ممتلكاتها :

« مدينة الاستانةـمع ضفاف البوسفور الغربية وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل ، وتراتيه الجنوبية حتى خط اينوز ــ ميديه ، وسواحل آسيه الصغرى ــ الواقعة بين البوسفور حتى نهر سقارية مع بعض المراكز على خليج ازمير ، وجزر بحر مرمره ، وجزيرتــي اميروس وتندروس الواقعتين قرب مدخل الدردنيل على ان لا يخل ذلك بمــا لفرنسه وانجلتره من حقوق على تلك الاراضي » (١٣) .

وجاء رد الحكومتين البريطانية والفرنسية بالموافقة على المذكــرة شريطة « انتهاء الحرب بالنجاح السريع » واعتــراف روسيه بحقــوق الدولتين ومصالحهما في آسيه. ولنتذكر ان هربرت صموئيل وزع مذكرته الآنفة الذكر على زملائه في الوزارة البريطانية ، بينما كانت المفاوضات المشار اليها تدور بين الحلفاء . فالتعليق الذي وصف به آسكويث مذكرة صموئيل حول مستقبل فلسطين في يومياته يحمل تاريخ ١٣ آذار (مارس) ١٩١٥ . ويستدل منه ان توزيع المذكرة ربما حصل قبل ذلك بأيام قليلة، حيث جرى التباحث بشأنها اثناء اجتماع وزاري (١٤) . وبعد اسبوعين من تقديم مذكرة سازونوف ، اخذ الروس علمــا باستعــداد الدولتين الحليفتين لتأييد وجهة نظرهم المتعلقة بقضيتي الاستانة والمضائق . ثم كان انضمام ايطاليه الى صفوفهم واشتراكها في الحرب ، مما اتاح لهــا المشاركة في المفاوضات الجارية والافصاح عن مطالبهــا بصدد مناطــق النفوذ التي تنشدها لنفسها . وهكذا تم توقيع معاهدة لندن السرية في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩١٥ بين بريطانيه وفرنسه وروسيه مــن جهــة وايطاليه من جهة ثانية . ونصت المعاهــدة على ضمــان شتى المكافآت الاقليمية التي ستكون من نصيب ايطاليه شريطة دخولها طرفا في الحرب

---

١٣ ــ اعتمدنا النص المترجم كما ورد في كتاب وجيه علم الدين : **العهود المتعلقة بالوطن العربي** ١٩٠٨ ــ ١٩٢٢ . (دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٥) ص ١٣ . ولا يختلف النص المذكور في هذا الكتاب عما هو عليه في الكتاب الذي سبق لجريدة « الايام » الدمشقية ان اصدرته بعنوان **« الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب»** (مطبعة الايام ، دمشق) ، ص ٥٥ .

١٤ ــ انظر شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١١١ .

الى جانب الحلفاء ضمن مدة شهر واحد . فوعدت ايطاليه متى تم عقد الصلح ، باتاحة المجال امام تحقيق مبدأ سياستها الاريدنتية الرامية الى ضم جميع المناطق التي تتكلم الايطالية باعتبارها جزءا من الوطن الايطالي الاوسع تحت شعار « ايطاليه التي تنتظر الخلاص والافتداء والتحرير والاسترجاع بقصد التوحيد » (Italia irredenta) . كما نالت التأكيدات حول المعاملة بالمثل فيما يتعلق باقتسام مناطق النفوذ الواقعة داخل اراضي السلطنة العثمانية . وسارع الحلفاء آنذاك الى الموافقة على المطالب الايطالية يقينا منهم بان التدخل الايطالي في الحرب سوف يعجّل في القضاء على النمسه ـ المجر ويفتح امامهم « باب المانيه الخلفي » .

اما فيما يتعلق بفلسطين ، فقد سارعت فرنسه منذ بداية الحرب الى المطالبة الصريحة والملحة بجعلها من نصيبها . ووافق القيصر في اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ اثناء اجتماعه بالسفير الفرنسي في سانت بطرسبرج على مطالب فرنسه بصورة مبدئية (١٥) . لكن الروس عادوا الى ابداء مخاوفهم من اطلاق يد فرنسه في الاماكن المقدسة . وسرعان ما تحولت المخاوف الى معارضة حليفة للمطامع الفرنسية . بينما توقع الفرنسيون ان يعمد الروس الى اعلان معارضتهم لجعل فلسطين «محمية بروتستانتية » في ظل السيطرة البريطانية . واكدوا ان اقصى ما يوافقون عليه ينحصر في تدويل منطقة القدس وبيت لحم . حتى ان وايزمان بالذات اقترح على ما يبدو تدويل هذه المنطقة المحددة في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ ، على امل قيام دولة يهودية في الرقعة المتبقية من فلسطين (١٦) . بينما سعى كتشنر لاقناع الحكومة البريطانية بالوصول الى اتفاق يضمن تحييد (Neutralization) فلسطين ، وذلك بان تجعل على الحياد المنطقة الواقعة الى الجنوب والغرب من خط يمتد من حيفا الى العقبة (١٧) . وكرر مساعيه لدى الوزارة بحجة الاهمية الجغرافية التي تتمتع بها فلسطين الجنوبية لكونها تشكل سدا دفاعيا عن قناة السويس وتؤمن الطريق البرية الى الشرق . وقد سبق لنا التعرف على الدور الذي لعبه كتشنر في عملية مسح شبه جزيرة سيناء التي قام بها الكولونيل نيوكومب ومساعدوه في سلاح الهندسة الملكي . فاتاح له دخوله الوزارة

---

١٥ ـ انظر فريش فاسر ـ رعنان ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ .

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

١٧ ـ **George Antonius — The Arab Awakening. The Story of the Arab National Movement. (Khayats, Beirut, pp. 246 - 247.**

بعد اندلاع الحرب فرصة لحمل المسؤولين البريطانيين على الاخذ برأيه وتبنّيه . مما حدا برئيس الوزارة الى تعيين لجنة خاصة للنظر في المطالب الروسية والفرنسية في ضوء المصالح البريطانية (ربيع ١٩١٥) .

وفي حزيران (يونيو) ١٩١٥ رفعت اللجنة الخاصةتقريرها واوصت الاعتراف بالمطالب الفرنسيةفي سوريه الشمالية وحدها ، على انتستثنى « فلسطين » (سوريه الجنوبية) من منطقة النفوذ الفرنسي وتحظى « بمعالجة خاصة » . حتى انه من المرجح – في نظر جورج انطونيوس – بان تكون التعليمات قد صدرت الى السير هنري مكماهون بناء على هذه التوصية لحصر المناطق الشمالية من سوريه فقط بالنفوذ الفرنسي واستثناء « فلسطين » منها (١٨) . كما ان الوثائق البريطانية التي اخذ عنها فريش فاسر – رعنان في كتابته عن « التقسيم الدبلوماسي : ١٩١٤ – ١٩١٦ » للامبراطوريةالعثمانية تشير الى اتصالات قام بها الامير عبدالله ابن الشريف حسين في شباط (فبراير) ١٩١٤ – قبل اندلاع الحرب بستة اشهر تقريبا – مع كتشنر وتقدم باقتراح حلف ثنائي انجلو – عربي ضد الاتراك (١٩) . وحين اصبح كتشنر وزيرا للحربية اصدر تعليماته

---

١٨ – المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ .

١٩ – انظر فريش فاسر – رعنان . **المصدر السابق** ، ص ٦٤ . وقد سرد جورج انطونيوس في الفصل السابع من كتابه «يقظةالعرب» قصة تلك الاتصالات التي بدأت في الاسبوع الاول من شباط (فبراير) ١٩١٤ بين الامير عبد الله والمعتمد البريطاني في مصر آنذاك ، كتشنر ، بصورة وافية ومفصلة . والمعروف ان كتشنر طلب الى رونالد ستورز ، السكرتير الشرقي لدى المعتمدية البريطانية في مصر ، بمتابعة تلك الاتصالات والوقوف بالتفصيل على ما يدور في ذهن الامير وعما يعرفه عن الحركة الاستقلالية العربية وشدة العداء الذي استحكم بين الاتراك والعرب . كما تمكن خلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة ، واثناء حملته العسكرية في السودان وخدمته كقائد اعلى في الهند ، من مراقبة الاحداث عن كثب . وهو الذي سبق له الاشتراك في اعمال المساحة التي تمت عن طريق «صندوق اكتشاف فلسطين» . واخذ يفكر بالوسائل الكفيلة باقامة سد انجلو – عربي بوجهامتداد

(التتمة على الصفحة التالية)

بمتابعة تلك الاتصالات في الاسبوع الاخير من ايلول (سبتمبر) ـ وقبل ان تعلن بريطانيه الحرب على تركيه بحوالي ستة اسابيع ـ للتأكد من تأييد العرب لبريطانيه ضد تركيه ، في حال انضمام الاتراك الى المعسكر الالماني ودخولهم الحرب ضد الحلفاء .

وليس هنا مجال الخوض في قصة الرأيين المتناقضين لدى الاخوين عبد الله وفيصل بصدد الطريق التي اصر كل منهما الى سلوكها عشية اضطرار تركيه لخوض غمار الحرب الى جانب الدول المركزية . بل نكتفي بالاشارة الى اقتناع (الامير) فيصل بن الحسين آنذاك بخطورة المطامع الفرنسية والبريطانية في الولايات العربية وخلو العرض الذي تقدم به كتشنر من اية ضمانات مطمئنة ازاء الخطرين . ونسجل اقدام (الامير) عبد الله في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ ، وبتوجيه من والده ، على ربط قضية موضوع الحجاز وتحرر الولايات العربية الاخرى بتحالف سري مع بريطانيه وبصورة صريحة قاطعة . وقد وصف جورج انطونيوس رسالة كتشنر من حيث صيغة عباراتها وما فهمه منها الشريف حسين بقوله :

« حقا ان عبارات هذه الرسالة جاءت عبارات عامة ـ عن قصد ودراسة ـ ولكنها في صورتها التي تلقاها عبد الله (٢٠) ورد فيها ذكر « الامة العربية » و « تحرير العرب » . ومهما يكن المعنى الذي قصد اليه كتشنر من هذه العبارات وهو مشغول البال بالموضوع ، فان الشريف فهم منها فهما قاطعا انها دعوة الى جميع العرب للقيام بالثورة . وبهذا الفهم قرأ الرسالة الموجهة الى ولده من كتشنر ... ولذلك بدأ الشريف منذ ذلك الوقت يوجه جهده الى تحقيق تلك الغاية » (٢١) .

النفوذ التركي ـ الالماني . فخطر له توسيع نطاق حزام النفوذ البريطاني بصورة متصلة تجعله يمتد من مصر الى الخليج العربي. وهكذا توصل الى مسألة التفكير جديا باقتطاع سوريه الجنوبية (من خليج حيفا وعكا الى خليج العقبة على البحر الاحمر) عن جسم الامبراطورية العثمانية ووضعها تحت الحماية البريطانية . (انظر ص ١٢٦ ـ ١٤٨) .

٢٠ ـ بعد ان قامت دار الاعتماد البريطاني في القاهرة بصياغة الترجمة.

٢١ ـ انظر **يقظة العرب** . تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسان عباس (دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦) ، ص ٢١٣ .

فالاهم من ذلك كله ، من زاوية هذا البحث ، هو دون شك موقف الاستقلاليين العرب من اعضاء جمعيتي « العربية الفتاة » ــ ومقرهــا دمشق آنذاك ــ وجمعية « العهد » التي انشأها عزيز علي المصري وضمت نخبة من الضباط العرب في الجيش العثماني .

فقد تنادى اعضاء هاتين الجمعيتين ، بعد ان اوفدوا رسولا عنهم في اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ الى الشريف حسين ليهمس في اذنه نبأ الخطة التي يعدونها للتخلص من حكم الاتراك ونيل الاستقلال ، الى وضع ميثاق ضمنوه الشروط التي يتمسكون بها وبتحقيقهــا لقــاء الوقوف الى جانب بريطانيه في الحرب . وعرف الميثاق منذ ذلك الحين بـ « ميثاق دمشق » ، بعد ان تم الاتفاق على مبادئه وبنوده اثناء مكوث فيصل في الاستانة بين الاسبوع الاخير من نيسان (ابريل) والاسبــوع الثالث من ايار (مايو) ١٩١٥ . وطالب بريطانيه ان تعترف باستقــلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

« **شمالا** ــ خط مرسين ــ اضنه الى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ، ثم على امتداد خط بيريجيك ــ اورفه ــ ماردين ــ مديات ــ جزيرة ابن عمرو ــ العمادية الى حدود ايران .
شرقا ــ على امتداد حدود ايران الى خليج العرب جنوبا .
جنوبا ــ المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو) .
غربا ــ على امتداد البحر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط الى مرسين » (٢٢) .

كما دعا الميثاق الى الغاء جميع الامتيازات الممنوحة للاجانب بموجب الامتيازات الاجنبية في الامبراطورية العثمانية ، والى عقد معاهدة دفاع بين بريطانيه والدولة العربية المستقلة واعطاء بريطانيه الافضلية في تنفيذ المشروعات الاقتصادية على سائر الدول .

وحين استانف الشريف حسين مفاوضاته مع بريطانيه في تمــوز (يوليو) ١٩١٥ اعتمد نصوص ميثاق دمشق ، الذي حمل اليه فيصل

---

٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ . وقد ذكر انطونيوس انه قام بترجمة النص العربي الاصلي الى الانجليزية ، بعد ان اعاره اياه الملــك فيصل بن الحسين .

نسخةعنه، ليقوم بعرض الشروط التي تضمّنها على الحكومة البريطانية، حتى اذا قبلت بها اصبحت اساس العمل المشترك . وضمّنها المذكرة التي بعث بها الى السير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر (نائب جلالة الملك) بتاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥ . بينما جاء رد مكماهون في مذكرته الجوابية (٣٠ آب ، اغسطس) ليعلن بان التفاوض بخصوص « مسألة الحدود والتخوم » سابق لأوانه ، والبحث فيتفاصيله الآن مضيعة للوقت ، بينما تدور رحى الحرب وحين لا تزال معظم تلك المناطق التي تطالب باستقلالها تحت سيطرة الاحتلال التركي . واعتبر الشريف حسين في مذكرته الثانية (٩ ايلول ، سبتمبر ، ١٩١٥) نقطة الحدود بمثابة « نقطتنا الاساسية » مؤكدا شعوره « بالغموض والتردد والبرودة » لدى مطالعته رد مكماهون فيما يتعلق بجعل نقطته الاساسية سابقة لأوانها . كما اعلن ان « العرب لم يطلبوا – في تلك الحدود – مناطق يقطنها شعب اجنبي » (٢٣) . وفي المذكرة الثانية التي رد بها مكماهون بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ نجده قد ادرك الاهمية المعلقة على مسألة الحدود « الهامة والحيوية والمستعجلة » ، فأسرع الى ابلاغ الحكومة البريطانية بذلك واستصدر عنها التصريح الذي يستثني مناطق نفوذ معينة (٢٤) من الحدود المطلوبة ، على امل « انكم تنزلونها

---

٢٣ – انظر ملاحق الترجمة العربية لكتاب انطونيوس – **يقظة العرب – المصدر السابق** ، ص ٥٥١ . وقد اعتمد المترجمان النصوص العربية لمراسلاتحسين – مكماهونكما وردت في كتاب « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » (١٩١٥ – ١٩٤٦) الذي اصدرته الامانة العامة لجامعة الدول العربية .

٢٤ – والمناطق التي استثنتها بريطانيه آنذاك في مذكرة مكماهون الثانية – وقبل ان يتقدم سايدبوثام بمذكرته الى وزارة الخارجية البريطانية في ربيع ١٩١٦ (كتب المقالة التي بنى عليها المذكرة في ٢٢ تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩١٥) – هي التالية : « ولايتي مرسين واسكندرونه » و « اجزاء من بلاد الشام الواقعة فيالجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب » . وبررت الاستثناء بقولها ان المناطق المذكورة « لا يمكن ان يقال انها عربية محضة » . والمعروف ان ميناء مرسين كان يتبع ولاية اضنه ، بينما يقع ميناء الاسكندرونه في ولاية حلب . وكانت مدن دمشق وحمص وحماه في ولاية سوريه (الشام) وعاصمتها دمشق !

منزلة الرضى والقبول » .

لكن الشريف حسين لم يكن على استعداد كلي للقبول بالعرض البريطاني ، ولم يشأ تخييب أمل « حكومة بريطانيه العظمى » . فأعرب في مذكرته الثالثة ، بتاريخ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥ ، عن استعداده ـ « تسهيلا للوفاق وخدمة للاسلامية فرارا مما يكلفها المشاق والاحن » ـ للتخلي عن الالحاح في ادخال « ولايتي » مرسين واضنه (يعني قضاء) في المملكة العربية . لكنه اصر على اعتبار ولايتي حلب وبيروت وسواحلها « ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فانهما ابناء جد واحد » (٢٥) .

وجاء رد مكماهون في المذكرة الجوابية الثالثة (١٣ كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩١٥) ليعرب عن سروره لقبول الشريف حسين باخراج « ولايتي » مرسين واضنه من حدود البلاد العربية ، ويبدي ارتياحه للتأكيدات المتعلقة بضمان « حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء » . كما ابلغه ما تخوف منه الامير فيصل على الدوام :

« اما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيه العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودوّنت ذلك عندها بعناية تامة — ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسه داخلة فيهما فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق ـ وسنخابركم بهذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب » (٢٦) .

وفي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ كان الشريف يؤكد لمعالي « الوزير الخطير الشهم الهمام » باستحالة « امكان اي تساهل يكسب **فرنسه او سواها** شبرا من اراضي تلك الجهات » ، ويذكّره بانه ما زال « على العزم » الذي عهده به رونالد ستورز منذ عامين .

ومما يسترعي الانتباه ان المذكرة الرابعة الى مكماهون (اول كانون الثاني ، يناير ، ١٩١٦) تتضمن استعداد الشريف حسين المشروط بان يلتزم اجتناب ما من شأنه المساس بالتحالف الفرنسي البريطاني واتفاق الدولتين « ابان هذه الحروب والنوازل » . لكنه يرى لزاما عليه اخطاء مكماهون بانه « عند اول فرصة تضع فيها اوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسه في بيروت وسواحلها » (٢٧) . ويأتيه

---

٢٥ ـ **يقظة العرب** ، الملاحق ، ص ٥٦٠ .
٢٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٦٤ .
٢٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٦٧ .

جواب مكماهون بعد شهر ليعرب عن سروره جدا «بابداء مثل هذه الرغبة».

وقد تبادل الاثنان بعد ذلك الحين مذكرتين كانت آخرهما صادرة عن مكماهون في ١٠ آذار (مارس) ١٩١٦ . ولم يـرد فيهما اي ذكـر للحدود والمناطق . وعلى الرغم من الحجج الواهية التي قدمها مكماهون في مراسلاته مع الشريف حسين وتذرّع بها لكي يتحاشى الدخـول في التفاصيل وايضاح طبيعة التعهدات التي صدرت عن كتشنر في السابق بشأن استقلال العرب واعتراف بريطانيه بالخلافة العربية ، على الرغم من ذلك كله ، فان المراوغة والمماطلة التي تطالعنا في مذكراتـه الى الشريف وتعمّد التهرب من اعطاء الرد الصريـح بالقبـول او الرفض ، وسط الاسراف في الثناء واغداق القاب التمجيد والتفخيم ، لم تتمكن من طمس معالم « الحق والواقع » فيما يتعلق بحدود المنطقة العربية الطامحة الى الاستقلال والحرية . والذي يعنينا في المقام الاول ان نصوص المراسلات التي تبادلها الرجلان لا تأتي على ذكر فلسطين مطلقـا ولا تشير الى مـا اصطلحت التنظيمات الادارية العثمانية على تسميته بسنجق القدس ، والذي اصبح فيما بعد جزءا من « فلسطين » كما حددهـا الانتـداب البريطاني . وقد لاحظنا في رسائل مكماهون ذلك الحرص على تسميـة المقاطعات التي يريد التحفظ بشأنها بأسمائها الادارية والمعروفة . فهي تعني تلك الاجزاء من بلاد الشام والمتاخمة للمناطق الساحلية من سوريه الشمالية فقط . والاستثناء الذي تعرضت له كان من قبيل الاعتراف بوقوعها ضمن دائرة المصالح الفرنسية ليس الا . فلم تكن فلسطين ابدا من ضمن المناطق التي جرى استثناؤها من رقعة الدولة العربية المستقلة. كما ان الاجتهاد الذي طلع به ونستون تشرشل عام ١٩٢٢ متذرعا بحجة « الاستثناء الضمني » لا يستطيع الصمود ، على الرغم من البهلوانيات اللغوية والتلاعب بالالفاظ ، امام الحقيقة الدامغة التي تطالعنا بها نصوص المراسلات . ويكفي ان نتذكر ما يسجله انطونيوس بان الالحاح المتكـرر على الحكومات البريطانية المتعاقبة كي تنشر « نسخة رسمية معتمـدة للنصوص الكاملة باللغة الانجليزية » قوبل دائما بالرفض ، وذلك « بحجة ان نشر هذه المراسلات يضر بالمصلحة العامة » (٢٨) . هذا مع العلم بان ما تضمنته تلك المراسلات كان معروفا في سائر انحاء العالم العربي، وقد اقدم الشريف حسين بنفسه على نشر اجزاء منها في مكة بصورة رسمية.

---

٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧١ .

واوردت الصحف العربية آنذاك عدداً من تلك المذكرات التي جرى تبادلها بالنص الحرفي الكامل . كما ان المؤرخ المدقق جورج انطونيوس تمكن من جمع النسخ المتوافرة وفحصها ومقارنتها لكي يقيم النص الكامل الصحيح ويضعه في متناول الراي العام . وقد اتضح له بصورة قاطعة ان تلك المراسلات لم تتضمن شيئاً من قبيل السر المبهم الذي تذرعت به الحكومة البريطانية . بل كانت معروفة على حقيقتها لدى الراي العام العربي . والسر الذي انكشف بنشرها هو ان « تفسير الحكومة البريطانية لمعنى مواثيقها وللغاية منها كان تفسير لا يتلاءم مع حرفية النصوص ولا مع روحها » (٢٩) .

★★★

وفي الرابع من آذار (مارس) ١٩١٦ توصل الحلفاء الثلاثة، روسيه ـ فرنسه ـ بريطانيه، الى توقيع معاهدة سرية جديدة في مدينة بطرسبرج استنادا الى المفاوضات الدائرة بينهم منذ عام . وتعهدت الدول الثلاث بالعمل « يدا واحدة في سبيل انقاذ البلاد العربية وحمايتها وتأليف حكومة اسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيه مراقبتها وادارتها » . كما اتفقوا على تقسيم البلاد العثمانية الى مناطق نفوذ فيما بينهم . واعتبرت منطقة النفوذ الفرنسي شاملة ما يلي :

أ ـ السواحل السورية ، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقوره مارة بصور وصيدا ، فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهي في الاسكندرونه .

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها الى فرنسه مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي .

ج ـ تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها ، والجزر الصغيرة القائمة على الساحل ...

د ـ تضم ولاية كيليكيه الى النفوذ الفرنسي » (٣٠) .

اما منطقة النفوذ البريطاني فقد تألفت مما يلي :

القطر العراقي ، السواحل الممتدة من الحدود المصرية الى حيفا

---

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

٣٠ ـ انظر : **العهود المتعلقة بالوطن العربي** ، ص ١٩ .

فعكا ، حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسه . والمنطقة الممتدة من خليج فارس الى آخر البحر الاحمر .

وقد تحدث الاتفاق المذكور عن تأليف حكومات عربية تتمتع بالسيادة والاستقلال في تلك المناطق التي يسكنها العرب . وذلك بأن « تتألف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الافرنسي والبريطاني دولة او حلف دول عربية مستقلة وفقا لاتفاق خاص بين فرنسه وانجلتره ، على ان تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق » (٣١) . كما اعلن تدويل ميناء اسكندرونه واعتبر « فلسطين واماكنها المقدسة » منطقة خارجة عن الاراضي التركية ، واعدا بوضعها تحت ادارة خاصة يجري الاتفاق بشأنها بين الدول الحليفة الثلاث ، كما يصار الى تحديد مناطق نفوذهم فيها ومصالحهم .

ومن الطريف ان نتذكر الرسالة الخامسة التي بعث بها السير هنري مكماهون الى الشريف حسين في ١٠ آذار (مارس) ١٩١٦ لنعرف كيف جرى اغداق الوعود من جهة ، بينما راحت الاتفاقيات السرية تمعن في تقسيم البلاد الى مناطق نفوذ بدقة متناهية ، من جهة ثانية . فالنقطة الاساسية التي تحدث عنها الشريف حسين في مذكرته الثانية (٩ ايلول، سبتمبر ، ١٩١٥) حين اكد بصراحة « ان كل الشعب ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم او رفضكم قضية الحدود» (٣٢) وراح مكماهون يماطل بشأنها : تارة باعتبارها سابقة لاوانها وطورا من خلال التذرع بان رحى الحرب ما زالت تدور ــ وجدت طريقها في غمرة الحرب ، وقبل اعلان الثورة العربية في الحجاز بأسابيع قليلة ، الى الاتفاقية السرية التي صارت تعرف باتفاقية سايكس ــ بيكو (Sykes — Picot Agreement) . وقد تم عقد هذه الاتفاقية على صورة مذكرات دبلوماسية تبادلتها الحكومتان الفرنسية والبريطانية في ٩ و ١٦ ايار (مايو) ١٩١٦ ــ اي قبل اندلاع ثورة الشريف حسين بشهر واحد تقريبا . وبذلك جرى تحديد حصة كل من الدولتين وتقسيم مناطق نفوذهما ومصالحهما. فاصبح مستقبل الاقطار العربية رهنا بنص الاتفاقية الشهيرة المعقودة في لندن بتاريخ ١٦ ايار (مايو) ١٩١٦ . وبات الحديث عن المناطق « الزرقاء » و « الحمراء » و « السمراء » عطفا على الالوان

---

٣١ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

٣٢ ــ انطونيوس . **المصدر السابق** ، ص ٥٥٢ .

التي صبغت بها خريطة الاقطار العربية لتمييز المناطق المعنية وتعيين حدودها .

والذي يهمنا من امر الاتفاقية المذكورة في هذا المجال هو تلك المادة الثالثة من نصوصها :

« تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارةروسيه وبالاتفاقمع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة» (٣٣) .

وتمتد المنطقة السمراء هذه من الناقوره حتى غزه على ساحل البحر المتوسط . ومن غزه الى الطرف الشمالي للبحر الميت ، حيث تسير حدودها بمحاذاة نهر الاردن لتلتقي مع الخط الممتد من الناقوره شرقا عند نقطة قريبة من منابع نهر الاردن . كما نصت المادة الرابعة على ان تنال انجلتره ميناء حيفا وعكا من المنطقة السمراء . واعلنت حيفا « ميناء حرا لتجارة فرنسه ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها » (٣٤) ، بينما اعطيت بريطانيه حق انشاء وادارة الخط الحديدي الذي يصل بين حيفا والعراق على انتكون المالكة الوحيدة له . وجاءت المادة الحاديةعشرة لتنص على استمرار « المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة او حلف الدول العربية » (٣٥) . (راجع الخريطة رقم ٢ التي تبيّن اتفاقية سايكس ــ بيكو في اواخر هذه الدراسة) .

٣٣ ــ انظر نص الاتفاقية في الملحق « ب » من انطونيوس ، ص ٥٨٠ . وايضا « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » (المجموعةالاولى ١٩١٥ ــ ١٩٤٦) ص ٨٤ .

٣٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٨٠ .

٣٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٨٢ .

١ ـ المطالب المتواضعة

ولنعد الآن الى الموقف الصهيوني الرسمي ، محاولين استطلاع معالم الصورة التي رسمتها الاوساط الصهيونية لمستقبل ما اطلقت عليه اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية تسمية « المنطقة السمراء » او « البنية اللون » لنطرح السؤال من جديد : عن كيفية عرض القضية الصهيونية على الرأي العام البريطاني ورجالات السياسة خلال الشهور التي سبقت صدور وعد بلفور .

ففي شباط (فبراير) ١٩١٦ اصدر فرع الاتحاد الصهيوني البريطاني في « وست لندن » مجموعة من المقالات في كتاب بعنوان : « الصهيونية : مشاكل وآراء » (١) . قدم له ماكس نوردو بمقال قصير عرض فيه قضية الصهيونية باختصار (This is the case for Zionism) واكد ان معتقدات الصهيونية لا يكتنفها اي غموض ولا يغشاها ضباب . فاليهود ليسوا مجرد طائفة دينية فحسب ، بل يشكلون امة . والغالبية العظمى منهم في اوروبه الشرقية ترغب بحماس في المحافظة على «هويتها القومية اليهودية » . كما ان الصهيونية لا تعني شيئا بالنسبة الى اولئك اليهود الذين يحبذون نظرية « الانصهار في بوتقة المجتمع » . بل هي المثال الاعلى لدى الذين يشعرون منهم بالانتماء الى امة يهودية . وقد رسم نوردو بأسلوبه المعهود صورة لأماني اليهود الصهيونيين في سعيهم لتنمية شخصيتهم وتحقيق افكارهم المتوارثة عن الاخلاق والعدالة والاخاء ، مؤكدا ان الخلاص من الشتات وجمع الشمل اليهودي لا يتم الا حين يستوطن اليهود بلدا خاصا بهم ويعيشون حياة طبيعية في حراثة الارض . واعتبر «فلسطين» بمثابة البلد الوحيد الذي يفي بهذا الغرض. فهي الوطن التاريخي لآبائهم وقد بقيت طيلة الفي سنة محط انظارهم

١ ــ **Paul Goodman & Arthur D. Lewis (ed) — Zionism : Problems and Views with an Introduction by Max Mordau, (London, 1916).**

وحنينهم (٢) . ولم يفته التنبيه بان الصهيونية لا تسعى الى ارجاع يهود الكرة الارضية بأسرها الى وطن الاجداد . بل سيتجه صوب الشرق اولئك اليهود فقط « الذين يشعرون بان الحياة هناك من دون ما عداها تخبىء لهم الاكتفاء المعنوي والمادي والسعادة » . ويبدو ان ماكس نوردو في منفاه الاسباني عكف على ترديد تلك الافكار التي سبق لنا التعرف عليها من خلال كتاباته بين عامي ١٨٩٧ ــ ١٩٠٨ . فهو يغتنم فرصة تقديم الكتاب المذكور عن مشاكل الصهيونية وآرائها ليطمئن القارىء بان « الصهيونية لا تطمح الى تأسيس دولة يهودية مستقلة ، سواء كانت الدولة مملكة ام جمهورية » . غير انه لا يلبث حتى يعلن بان جل ما ترغبه الصهيونية يكاد ينحصر في مسألة السماح لانصارها بالهجرة الى فلسطين دون قيود او شروط وشراء كل ما يستطيعونه من الاراضي لقاء اموالهم، بالاضافة الى التمتع بالاستقلال في الادارة المحلية لشؤونهم وعدم عرقلة مساعيهم الجادة لايجاد الحضارة والازدهار (٣) .

وانتهى نوردو الى القول بان من يتمنى للديانة اليهودية مستقبلا باهرا ويعتقد بها ، يتحتم عليه ان يدرك بان لا شيء يضمن ذلك المستقبل سوى الصهيونية . ثم جاء اللذان قاما بتحرير الكتاب ليعترفا بان المقالات التي يضمها تناشد مسألة تحقيق فكرة الكومنولث اليهودي بفلسطين . فقد يتيح التاريخ فرصة لذلك اما عن طريق العمل السياسي او بواسطة نمو المصالح الصهيونية ، لتصبح الفكرة حقيقة واقعة (٤) . ومما يسترعي الانتباه تلك الفقرة التي تتحدث عن الجاذبية التي تتحلى بها الصهيونية في نظر غير اليهود . فهي تسجل الترحيب الذي لقيته الصهيونية لدى رجال الدولة والناشرين من غير اليهود . وتخص بريطانيه بذلك العطف على الفكرة ، « حين لم يكن هناك اي مجال للمساعدة البريطانية في فلسطين » (٥) ، اذ تقدم باني الامبراطورية المستر تشمبرلن بعرض مشروع للاستعمار والاستيطان اليهودي في يوغنده (١٩٠٣) .

وقد ساهم في كتابة مقالات المجلد المذكور : ناحوم سوكولوف ، عضو اللجنة التنفيذية العالمية ، في تقييمه لنشاطات هرتزل وما اداه من

---

٢ ــ المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ٥ ــ ٦ .
٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٦ .
٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٩ .
٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١١ .

خدمات للحركة . فاعتبره بمثابة الاب للصهيونية الحديثة ، واعتـرف له بالفضل في « عمل كل شيء » : من البرنامج الى المؤتمـر والمؤسسات المالية والتبرعات ، « حتى اصبح العالم بأسره مسرحا لنشاطه » . ثم عدد البواعث التي أثرت في نفس ثيودور هرتـزل ، وانعكست في اعمـاق الصهيونية . فأتى على ذكر وعي الذات الجماعية لماضيها العظيم ، ونشوة الحرية التي تجد تعبيرها في الاحتجاج على الف سنة من الظلم ، فتتحول الى نشوة البطولة التي تتغلب على كل ما يعترض سبيلها من العقبات . وانتهى الى تلك النشوة الصوفية التي تولد الاخاء والحياة الاجتماعية ، « حيث يذوب الفرد في الجماعة ويصبح المجموع فردا واحـدا » (٦) . ويبدو ان سوكولوف استعاد وعيه بعد هذه الشطحات ليؤكد في لحظات الصحو بان هذه الصهيونية لم يكن ليبدعها سوى شاعر . وهرتزل كان شاعرا في نظره . حتى انه يذهب الى القول بان تلـك السطحية التـي تنعكس على عمل هرتزل الصحفي وكتاباته ليست الا « شعر الحياة » ، ويكاد يقول: « الصحافة الشعرية». وعلى الرغم من زعمه بانالصهيونيين ينفرون من ممارسة طقس عبادة الشخصية ايما نفور ، فهـو يستنبط مخرجا لتبرير قوله : « هرتزل هو السيد المطلق في قلوبنا » . وبذلـك يصبـح الطقس الصهيوني متجسدا في « روح الشعب » (Folksoul) التي عبّرت عنها افكار القومية الالمانية خـلال القرن التاسع عشر وفي كتابات اوزوالد اشبنغلر بلفظة (Volksgeist) الشهيرة . ويتحول هرتزل في نظر سوكولوف الى « قوة تجسد اللاشخصي ، واداة بيـد قـوة تستوعبنا كلنا وتبقى علينـا في قبضة سحرها الحازمة » (٧) . لكـن سوكولوف لا يلبث في خاتمة مقاله الشعري الخطابي من التصريـح بان الفكرة القومية هي تضمن الخلود لهرتزل في ماضيه وحاضره .

وضم الكتاب « خطبة تذكارية » عن دافيد ولفسون بقلم الحاخام الاكبر جوزيف هيرمان هرتز (٨) . وقصيدة للشاعر بياليك عنوانها « حقا

---

٦ ــ راجع المصدر نفسه ، ص ٢٦ و ٢٤ ــ ٢٦ .

٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

٨ ــ Joseph Herman HERTZ (١٨٧٢ــ١٩٤٦) : مولود في سلوفاكيه، درس في نيويورك وانتقل عام ١٨٩٨ الى جوهانسبورغ حاخامـا للطائفة اليهودية . طرد اثناء حرب البوير لموقفه المؤيد من بريطانيه (التتمة على الصفحة التالية)

الشعب عشب » . بينما تحدث احدهاعام عن « المركز الروحاني لقوميتنا في فلسطين » ، مشددا على ان هذا هو ما نستطيع تأسيسه هناك وما يجب علينا ان نؤسسه . وراح هربرت بنتويش يستعرض الصلات بين « انجلتره والحركة القومية اليهودية » ليعلن بان انجلتره هي موطن الصهيونية الصحيح ان لم تكن مهدها . كما اعيد نشر مقالة للقاضي لويس برانديس الاميركي عن « الصهيونية واليهود الاميركيين » (٩) . وكتب هاري فريدنفالد ، رئيس اتحاد الصهيونيين الاميركيين ، مقالا عن « وحدة اسرائيل » . بينما تحدث جوزيف كووين ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني وحاكم صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار ، عن ذكرياته حول هرتزل . واستعرض البرت هيامسون ، امين صندوق جمعية فلسطين ، شعوره وانطباعاته لدى زيارة « فلسطين الجديدة » . فأكد انالتهوّد هو القاعدة العامة في فلسطين ، بينما كل ما عداه شواذا. واستدرك بقوله انه لا يقصد حديث القاعدة والشواذ بالمعنى الحسابي ، لان سبع فلسطين فقط قد صار يهوديا . بل هو يعني « المناخ العام والشعور السائد » في البلاد . « فاليهود حياتها وتقدمها ... وقد استوطنوها عن وعي متيقظ بانهم اهل تلك الارض » (١٠) .

وراح حاخام كنيس لندن لليهود البريطانيين ، موريس جوزيف ، يحلل في مقاله « اسرائيل امة » ما تتضمنه لفظة « اسرائيل » . فوجد انها « لا تتضمن عرقا فحسب ، ولا مثالا روحيا اعلى فقط ، بل تتضمن الاثنين مجتمعين ــ عرقا يحركه المثال الروحي الاعلى » (١١) . واعتبر

وتعيّن عام ١٩١٣ الحاخام الاكبر للامبراطورية البريطانية. فاستقر في لندن لينصب نفسه الزعيمالروحي والديني على يهود بريطانيه. ولعب دورا بارزا في المفاوضات التي ادت الى صدور وعد بلفور . فهاجم بعنف اولئك القادة اليهود الذين عارضوا استصدار الوعد وسعى لاقناع المسؤولين البريطانيين بانه ينطق بلسان الغالبية العظمى من اليهود !

٩ ــ مأخوذة عن «The Jewish Problem : How to solve it» وقد شغل برانديس آنذاك منصب رئيس اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة في نيويورك .

١٠ ــ انظر **« الصهيونية : مشاكل وآراء »** ، ص ١٤٥ .

١١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

القومية لا تفترض وعيا سياسيا بالضرورة . اذ يمكن للامة ان توجد حتى ولو فقدت استقلالها وكل رغبة في استرجاعه . ثم استشهد بمقالة رئيسية نشرتها صحيفة التايمز اللندنية قبل خمسة اعوام . اعترف فيها كاتبها بان الامة غير قابلة للتعريف والتحديد ، لكن المرء يستطيع رؤيتها والتعرف عليها بفريزته . وقد اوحي له بكتابة مقاله اجتماع عقدته الجمعيةالتي تسعى لبعث الحماس فيصفوف سكان ويلز (The Welsh) لحضارتهم القديمة . اما كاتب المقال فلم يكن سوى المستر آرثور جيمس بلفور ! ويبدو ان بلفور عبّر عن استحسانه للحركة الرومنطيقية لانها تبعث في نفوس المشاركين بها « ذلك الاهتمام العاطفي العميق بالماضي.. وتولد لديهم اهتمامهم بالاغاني الشعبية والفولكلور ، وفي الادب القديم والقوانين القديمة» (١٢). ومما يسترعي انتباهالقارىء أن موريسجوزيف يتذرع « بوضوح الرؤيا الذي يميز رجل الدولة الحقيقي » لتبرير مسألة ازدواج القومية والحسنات التي تعود بها على الدولة . فالثقافة اليهودية واحياؤها تضيف ثمارها الى الكنوز البريطانية وتغني انجلتره . بينما يدلل اليهود على مقدرتهم في التحلي بأسمى المشاعر الوطنية . وبذلك يساهمون في حياة قومية ارفع واكمل .

وتحدث س. لاندمان ، رئيس التحرير المشارك لمجلة « الصهيوني » (The Zionist) عن المستعمرات اليهودية بفلسطين ، معلنا بداية تحول ارض الموعد الى ارض التحقيق . بينما انصرف الحاخام ليفي الى رأب الصدع بين الصهيونية واليهودية الليبرالية . فاعتبر الطبيعة البشرية مصدرا لنزعتين او ميلين : المحافظة والتحرر . وانتهى بعد استعراض لهاتين النزعتين على صعيد الديانة اليهودية الى القول بان « اليهودية الليبرالية تفعل حسنا وتجني كسبا كبيرا لو ربطت مصيرها بعجلة الصهيونية » . كما إنه من مصلحة الحركة العالمية نحو اليهودية الليبرالية وخدمة لقضيتها ان تعقد تحالفا مع حركة الصهيونية العالمية . فتخلق بذلك التحالف وسطا لتفاعل قوى المعسكرين في جو من الحرية ، مما يساعد فيالحفاظ على تلكاليهودية الاوسعالتي تحتضن قوىالاثنين(١٣).

واستعرض المحامي سيريل بيتشي اوتو « مفاهيم الدولة والمسألة اليهودية » من زاوية الاتجاه الذي سارت فيه الفلسفة السياسية خلال

---

١٢ — المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .
١٣ — المصدر نفسه ، ص ١٧٩ — ١٨٢ .

السنوات الاخيرة . فتحدث عن النظرية العضوية او الجماعية للدولة (Organic - collectivistic) وقارنها بنظريات النفعيين (Utilitarians) والفرديين . ثم اعتبر « الجماعية » بمثابة الاتجاه الواضح المعالم في الدول الحديثة ، ليجد القومية كناية عن التعبير السياسي لذلك الاتجاه. وانتقل الى تعيين مكانة اليهود من زاوية المستقبل . فتحدث عن المفارقة التي يرفضها المفكرون السياسيون لقيام دولة ضمن دولة (Imperium in imperio) . واعلن ان اليهودي الصهيوني يضع نصب عينيه مثالا سياسيا اعلى ومحددا . لذلك يجب ان يتصور نفسه عضوا بالقوة في دولة كامنة الوجود (١٤) . ثم حاول تصوير وضع الشعب اليهودي في دولة المستقبل على انه الخيار بين امرين : الامتصاص ام الاستثناء والافراد . واضاف بقوله ان مسألة الخيار لن تكون من النوع الواعي ، كما انه لن توجه دعوة واعية للاختيار . بل سوف تستغرق العملية وقتا طويلا وتأتي نتيجة لمؤثرات دقيقة غير محسوسة ، تصدر عن تصور للقومية اخذ في الظهور منذ زمن . والحركة القومية اليهودية في نظر كاتب المقال هي تعبير عن ذلك التصور . كما انه لا يسعنا ــ على حد زعمه ــ تجاهل ذلك المنطق الاخير لحركة التصور القومي في المستقبل . ويبدو ان مقاله لا يعدو كونه محاولة سطحية لوضع حفنة من مفاهيم الفلسفة الهيغلية الجديدة ــ كما تمثلت في تفكير الفيلسوف البريطاني ت.ه. غرين وغيره اثناء العقود الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي ــ في خدمة الصهيونية بشتى الوسائل .

وضم الكتاب بالاضافة الى ما تقدم مقالات عن « الصهيونية والارثوذكسية اليهودية في اميركه » (الحاخام دي سولا بول) ، وعن « الصهيونية ومستقبل الديانة اليهودية » (الحاخام م. سيغال) (١٥) ، بينما كتب ليون سيمون ، رئيس الجمعية الصهيونية في جامعة لندن ، عن « الادب العبراني الحديث » . وتحدث موريس سولومونز عن

---

١٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

١٥ ــ مما قاله : « ان مستقبل اليهودية يعتمد كليا على تحقيق الفكرة الصهيونية » . « واستيطان اليهود بفلسطين على اساس قومي هو وحده الكفيل بانقاذ اليهودية من الانحطاط والتفكك » و « العمل لخلق (وطن) لليهودية بفلسطين قد اصبح الآن مسألة بالغة الالحاح » . (انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٠٣) .

« الصهيونية والطلاب اليهود في انجلتره » من وجهة نظره كطالب. فتبعه عدد من زملائه في محاولة للتوفيق والجمع بين « الصهيونية واليهودية». وكتب ليونارد شتاين (مؤلف « **وعد بلفور** ») محاولا تقييم مستقبل الصهيونية من زاوية حاضرها . فسجل على الصهيونيين تقصيرهم في الحصول على تأييد قومي للبرنامج الصهيوني في الاوساط النافذة . واكد انه اذا كان اليهود بحاجة الى فلسطين ، فان فلسطين قد تكون بحاجة الى اليهود !!

ومن المقالات التي تناولت الصهيونية كقضية عملية مقالة المهندس الزراعي طولكوفسكي (Tolkowsky) التي بعث بها من يافا على ما يبدو * . فقد عالج فيها مسألة العدد الذي يمكن لفلسطين ان تستوعبه وتعيله . ورد على قول القائلين بعجز فلسطين عن اعالة ١٢ او ١٣ مليونا من اليهود

---

* يأتي وايزمان على ذكر نفر من الصهيونيين « الفلسطينيين » الذين انضموا الى حلقته آنذاك وصاروا في عداد اللجنة السياسية التي انبثقت عنها . ومن هؤلاء آرون ارونسون (Aronson) وطولكوفسكي والدكتور اوتنغر . فقد كان لمعرفتهم بأحوال فلسطين وامكانياتها الاقتصادية والزراعية ومشاكلها قيمة بالغة الاهمية (انظر : « **التجربة والخطأ** . ص ١٨٣) . وصموئيل طولكوفسكي من مواليد آنتورب (١٨٨٦) . درس الهندسة الزراعية في بلجيكه وهاجر الى فلسطين للعمل في حقل الاستعمار والاستيطان الصهيوني . فأقام بمدينة يافا. وكتب تاريخها فيما بعد بعنوان « بوابة فلسطين » (The Gateway of Palestine) الذي صدر في لندن ١٩٢٤ . اهتم بزراعة الحمضيات وما لبث ان ترأس مكتب الحمضيات في يافا ١٩٣٤ — ١٩٤٠ . ثم اصبح سكرتير « هيئة الاشراف على الحمضيات وتسويقها » في فلسطين (١٩٤٩ — ١٩٥٦) ، ورئيس « الرابطة البحرية الاسرائيلية». صدر له عام ١٩٦٤ كتاب بعنوان « مخروا عباب البحر » (They Took to the Sea) ، تحدث فيه عن اسرائيل من زاوية التاريخ البحري ووصفها بالامة العصرية التي ترود البحار ، كما اعتبر السفن التي استأجرتها الهاغانه (١٩٢٠—١٩٤٤) لتهريب اليهود الى فلسطين اثناء الانتداب البريطاني جزءا من تاريخ اسرائيل البحري. كان يقيم مؤخرا في مستعمرة رامات غان بضواحي تل ابيب . اما آرونسون فسنأتي على ذكره في فصل لاحق .

الموجودين في العالم . فأكد ان ما من احد يحلم بعودة جميع يهود العالم الى فلسطين . واستشهد على ذلك بالتساؤل عما اذا كان جميع البريطانيين يقيمون في بريطانيه او اليونانيين والايطاليين في اليونان وايطاليه على السواء . ثم مثّل على العلاقات الوثيقة القائمة بين الجاليات الالمانية في العالم والبلد الام (١٦) . لكن طولكوفسكي لا يميل الى ترك مسألة ثورة فلسطين الاستيعابية تمر دونما تمحيص . فهو يجد من الصعب ، مثلا ، اعطاء ارقام محدودة لما يمكن توطينه من السكان الجدد . « فالبلاد اليوم فقيرة والسكان قليلين ، لان الحقول عبر القرون الوسطى تحولت بصورة دورية الى قاع صفصف تحت اقدام الجيوش المتحاربة ، ومن جراء حملات النهب والسلب التي شنها البدو من حدود الصحرائين السورية والعربية ، ولان الابناء الحقيقيين للارض ، وهم الذين كانوا سيولونها عنايتهم واهتمامهم ، كانوا منفيين في بلاد بعيدة » (١٧) . والحجة الاخيرة التي يسوقها كاتب المقال على سبيل الربط التبريري بين غياب اليهود عن فلسطين وسوء الاحوال الزراعية والسكانية ، ليست بالحجة الغريبة على تفكير العاملين في « صندوق اكتشاف فلسطين » ـ كما سبق ومر معنا. فهو يتحدث بالاستناد الى شهادة الكولونيل كوندر ، بادئا بالقول ان خصائص الارض المتأصلة وميزاتها لم تتغير . لذلك يصلح الرجوع الى الماضي، واستنادا الى موارد البلاد الطبيعية ووضعها الاقتصادي، لتقدير الرقم الاستيعابي . واذا كانت فلسطين اليوم لا تضم سوى ٧٠٠ الفا من السكان*، فان الجغرافي الكبير ركلوس (Reclus) يقدر سكانها في العصور القديمة بستة او سبعة اضعاف ذلك ، بينما يزعم الكولونيل كوندر ان الرقم يبلغ عشرة اضعاف .

ثم ينتقل طولكوفسكي الى الحديث عن تربة فلسطين وثرواتها المعدنية : الزفت والفوسفات والفحم والبترول ، وعن غنى البحر الميت بالاملاح الكيماوية كالبوتاس والبرومين ، بالاضافة الى الانهار التي تختزن طاقات هائلة لانتاج الكهرباء . ويأتي على ذكر المحاولات التجارية فتحضره الاهمية الكبرى لفلسطين « كحلقة وصل بين القارات الثلاث (اوروبه وآسيه وافريقيه) ، وموقعها بين خط بغداد الحديدي وقناة السويس ،

---

١٦ ـ انظر المصدر نفسه، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ . «Zionism as a practical object».

١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٤١ .

وبين البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي » (١٨) . ويستنجد بالكتاب المقدس ليعلم ان الملك سليمان بنى قلاعه العظيمة على طول الطرق التي سلكتها القوافل الدولية من بلاد فارس وبابل الى مصر مرورا بفلسطين . كما انالقوافل التجارية اجبرتعلى دفع الرسوم لقاء حقالمرور بممتلكاته!

ويصف ، في ضوء « الوقائع العينية » التي يستمدها من التجربة الصهيونية في البلاد ، الحجج الرئيسية التي تساق ضد صلاحية المشروعات الصهيونية من الناحية العملية بانها من قبيل « الحججالكتبية» والنظرية التي يدحضها واقع التجربة العملية بفلسطين . ثم يصحح المعلومات الخاطئة لدى الذين « يتهموننا » بالسعي لايجاد دولة يهودية مستقلة ، بينما نحن نطالب بانشاء ادارة مستقيمة بفلسطين يكون هدفها الاوحد تطوير البلاد وتقدمها ، وخير مثال على « مطالبنا المتواضعة هذه » اننا

« لا نطالب بادارة يهودية ، بل بادارة مؤيدة لليهود ، ولا نطالببسياسة يهودية، بل بسياسة ميالة لليهود » (١٩).

ولو ترجم ما يعتبره طولكوفسكي من « المطالب المتواضعة جدا » الى الصعيد العملي ، لفهم منه المطالبة بفتح ابواب الهجرة الى البلاد على مصراعيها لكي يزداد العدد بصورة تخول الصهيونيين الحصول على مزيد من النفوذ والتحكم بمصائر البلاد . ولا غرو فالصلة بين الصهيونية والامبريالية لا تغرب عن بال المتتبع لتفكير طولكوفسكي في مقاله المذكور. وليس اصراره على نعت المطالب الصهيونية بالتواضع الشديد ونفي الاهداف الحقيقية للتستر وراء عبارات « الادارة المتحيزة لليهود » « وانتهاج السياسة المؤيدة للصهيونية » ، سوى نمط ذكي لابعاد الشبهة عن النوايا الصهيونية . كما ان القصد منه تمهيد السبيل امام الاحتماء خلف السلطة الامبريالية البريطانية وتحقيق المطالب المتواضعة في ظلها وبتأييد منها .

كما ان المقالة التالية تتناول موضوع « الصهيونية وبعث القومية في اوروبه » . بقلم أ. فينر ، محاضر التاريخ في جامعة لندن. فالقومية والديمقراطية هما بمثابة العاملين المسيطرين على تاريخ العالم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . و « القومية اليهودية » لم تمت بالفعل

---

١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ .
١٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

خلال تاريخ اليهود الطويل ، اذ « ما هي القومية ان لم تكن وعي الذات العرقية ، والسعي في سبيل المثل العليا للعرق ؟ واي شعب استطاع اكثر من اليهود ابراز هذا الوعي للذات ، وهذه المثالية الاجتماعية بصورة اكثر ثباتا والحاحا ومثابرة ؟ » (٢٠) فقد حافظ العرق اليهودي منذ فجر تاريخه ، على حد زعم الكاتب ، ومن زمن دعوة ابراهيم الاولى حتى آخر الذين استشهدوا في سبيل ايمان الآباء ، على العهد الذي قطعه الرب لشعبه . كما انه احتفظ بخصائصه العرقية المميزة والواضحة المعالم !

واجرى اسرائيل زانغويل في مقالته « حالمان من عالم الغيتو » مقارنة بين ثيودور هرتزل ، مؤلف « الدولة اليهودية » وثيودور هرتزكا مؤلف الرواية المستقبلية اليوتوبية « فراي لاند » (Freiland) . فأكد ان هرتزل ضيّق ما عناه هرتزكا ليشمل الانسانية وحصره بـ ملك يهوذا Judaea ، فتعثر بالواقع (٢١) وشدد على ضياع هرتزكا في الرؤى الكوزموبوليتية ، بينما التمع ذهن هرتزل على عصبية العرق اليهودي وعاطفته القديمة تجاه فلسطين . ثم انتهى الى القول بانه لم تعد بين الصهيونيين مسألة قائمة بخصوص الهجرة الجماعية (en masse) الى فلسطين او غيرها من سائر انحاء العالم . وختم مقاله بالاشارة الى ارادة الحياة اليهودية فحسب .

ولو شئنا النظر الى الكتاب ككل ، لجاز لنا اعتبار مقالتي الصهيونيين اللذين قاما بتحريره ونشره خير ما يمثل المشاكل والآراء التي تستعرضها بقية المقالات السابقة . ففي مقالة آرثور لويس ، السكرتير الفخري للجمعية الصهيونية في « وست لندن » ، يدور الحديث عن « اليهود كأمة » ومن زاوية العامل العرقي بالذات . كما انه يعتبر اليهودية من الديانات الجماعية (Collectivist) . فالاصل العرقي المشترك – على حد قوله – والغرائز المنقولة بالوراثة سوف تؤدي بالضرورة نحو قيام موقف يهودي خاص من العالم ، شئنا ام ابينا . اما الحاجة الى اصلاح الدين اليهودي واتاحة المجال امام التغير ، فلا بد لها ان تنبع من اليهودية وتستوحيها ! ولا يمكن للاصلاح ان يكون « معقولاً وسلبيا » ، بل بالاحرى « ايجابيا وخلاقا » . لذلك يقفز الى القول بان الفكرة الصهيونية هي وحدها تلك « الفكرة الخلاقة التي تستطيع توحيد اليهود » والجمع بين

٢٠ – المصدر نفسه، ص٢٤٩–٢٥٠. «Zionism and the Revival of Nationality in Europe».

٢١ – المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ «Two Dreamers of the Ghetto»

اليهودي الملحد والمتديّن ، اذ « ان اليهودية بدون الفكرة القومية ليست يهودية » (٢٢) وجوهر الدين اليهودي يقوم على الفكرة القائلة بان الله اختار اسرائيل لغرض عظيم ، وانه سوف يبعث في المستقبل بالملك العظيم « الذي يساعدنا على تنفيذ عملنا وتأديته للعالم » . كما ان اليهود لديهم رسالة يؤدونها للعالم ، ولن يتاح امامهم المجال الا عن طريق الصهيونية. اذ هي وحدها القادرة على خلاص اسرائيل . وعن علاقة رسالتنا بالسلام: « نحن لسنا من اولئك المسيحيين الذين يرفضون المقاومة : نؤمن بالعنف (Violence) كمصدر للخير ، وبالصدمات والخطر كمصدر للصحبة ... ولا بد من تحالف القوة مع الايمان بما هو حق ... » (٢٣) غير ان حديث الصهيوني عن « العدالة ضمن الدولة » و « الرخاء الذي يعم الارض » و « تحقيق الاخوة بين الناس » معناه « ارجاع اليهود كهيئة واحدة الى ارضهم » . ولا يستبعد الكاتب الخطر والارهاب والعنف ، اذ يعتبرها وسيلة لتعزيز الصحبة واستدرار البطولة والارتفاع فوق مستوى الروتين المألوف ! كما ان « يوم الرب هو يوم ارهاب » ، ولا بد للصدمة من استباق عصر الازدهار الكوني ! فاليهود يستطيعون تأدية رسالتهم الى العالم متى « تمكنوا من نيل استقلالهم السياسي واستوطنوا ارض آبائهم ، حيث يتم في حياتهم السياسية والاجتماعية تحقيق تلك المثل العليا في العدالة والمحبة التي يعلمها الدين اليهودي » (٢٤) .

وجاءت مقالة بول غودمان عن « روح الصهيونية » بمثابة تكرار لتلك الافكار التي طالعتنا لدى هرتزل وماكس نوردو بنوع خاص . فهو يتحدث عن الدعوة الى التحرر والانعتاق ونيل المساواة بانها لم تتناول الجماعة اليهودية ، بل كانت من نصيب اليهود كأفراد . بينما الصهيونية تشدد على العرق اليهودي ، وعطفا على قول هرتزل اثناء المؤتمر الصهيوني الاول بان «الصهيونية عودة الى احضان اليهودية قبل الرجوع الى ارض اليهود» يؤكد غودمان بان الشق الاول يعني « العودة الى الشعب اليهودي » . والصهيونية وحدها من بين سائر الحركات اليهودية في العصر الحديث « اعطيت الغرائز السياسية والغيرة التنبؤية والرؤيا » (٢٥) . كما ان

---

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦١

٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٥

٢٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ وقد نقل لويس هذه الافكار عن مقالة « اللاهوت » في **« الموسوعة اليهودية »** بقلم الدكتور لاوترباخ .

٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧١ «The Spirit of Zionism»

نوردو على منتهى الاصابة في قوله : « اما ان تصبح اليهودية صهيونية او تزول من الوجود » . لذلك يعمد الى اجراء مقارنة بين اليهود الفلسطينيين من الطراز القديم والذين استوطنوا البلاد بوحي من الصهيونية وعلى امل « تحقيق الاحياء القومي على التربة التاريخية لارض اسرائيل » . فقد رفع هذا الطراز الجديد من شأن الشعب اليهودي واعاد له كرامته وشرفه.

وحين يتحدث عن الاستعمار الصهيوني بفلسطين يخبرنا بان صفقات الاراضي في المستعمرات اليهودية لا تخضع الا لسلطان الحقوق الاخلاقية المحض . ولا محل للقرارات التي يتخذها المستعمرون انفسهم في القانون التركي . كما انهم لا يطلبون مساعدة السلطات التركية في خلافاتهم الداخلية ولا يستدعون البوليس التركي للمحافظة على الامن والنظام . ولا يوجد مجرمون من اليهود (٢٦) . فالعمل الذي يقومون به ليس عملا استعماريا من النوع العادي والمألوف . لان الصهيونية تشكل نظرة شاملة للحياة والكون والانسان (Weltanschauung) .

وهكذا يقدم لنا الكتاب المذكور بمجموع مقالاته صورة مستوفية للموقف الصهيوني كما ترسم معالمه اقلام كبار الصهيونيين في مطلع العام ١٩١٦ . ويبدو من خلال الحجج والنظريات التي تتوارد على صفحات الكتاب بان مسألة اكتساب اليهود البريطانيين والاميركيين وحملهم على السير صفا واحدا في ركاب الصهيونية تستأثر بالاهتمام البالغ . كما ان الحديث المتكرر عن « الامة اليهودية » من زاوية العرق اليهودي ، واظهار اليهودية الاصلاحية والليبرالية بمظهر الخارجة عن القطيع والعاملة على تهديم الدين اليهودي ، هذا الحديث ، لا يخلو من دوافع سياسية صهيونية . ولا ننسى ان عالما يهوديا بريطانيا بارزا من طراز لوسيان وولف كان من اشد معارضي الصهيونية . حتى انه رفع في مطلع ١٩١٦ مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية دلل فيها على اخطار القومية اليهودية (٢٧) . كما لا يجوز ان نستهين بالمعارضة الشديدة للصهيونية في صفوف الاندماجيين (Assimilationists) بين يهود بريطانيه ، وان لم يقدم هؤلاء على تنظيم انفسهم في هيئة متماسكة . مما حال دون ادراكهم لقوتهم الحقيقية ، على حد قول سايكس (٢٨) . وقد سعى الصهيونيون

---

٢٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ .

٢٧ ــ انظر كريستوفر سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٨ .

٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

بشخص وايزمان وسوكولوف منذ منتصف عام ١٩١٥ لاجراء مفاوضات ومحادثات مع زعماء اليهود البريطانيين عن طريـق « اللجنة الخارجيـة المشتركة » (Conjoint Foreign Committe) . وهي الهيئة الممثلة ، منذ ١٨٧٨ ، للمنظمتين الرئيسيتين لدى يهود بريطانيه : « الجمعية الانجلو ـ يهودية» (٢٩) و «هيئة النواب اليهود البريطانيين» (٣٠) . غير ان المحادثات انتهت الى الفشل آنذاك . ومن خلال هذه الزاوية يمكننـا النظـر الى المساعي التي تبذلها مقالات الكتاب الذي بين ايدينا لاقناع يهود بريطانيه بانتمائهم الى العرق اليهودي ووضعهم امام الخيار بين امرين لا ثالثلهما: اما اعتناق الصهيونية او الظهور بمظهر من يعمل على نسف اليهودية من الداخل وزعزعة اركانها الجماعية والعرقية = القومية . ولا يختلف ذلك عن اتهام الخارجين على التصور الصهيوني لليهودية بالهرطقة والتآمـر على سلامة الدين اليهودي . كما ان بعض المقالات التي مرت بنا حاولت تصوير الفكرة الصهيونية بأنهـا رحبـة الصدر ، تتسع للمؤمنـين الارثوذكسيين والهراطقة الملحدين . وخلاصة القول ، ان الكتاب المذكور لا يعدو كونه محاولة لترغيباليهود بالموقف الصهيوني وترهيب معارضيه بالعواقب التي تترتب على موقفهم واصرارهم على التمييز بين الصهيونية كحركة سياسية واليهودية كدين عالمي جامع .



٢٩ ـ Anglo-Jewish Association ـ تأسست عام ١٨٧١ لتكون بمثابة الصيغة البريطانية لجمعيةالاليانس الاسرائيلية العالمية فيباريس.

٣٠ ـ Board of Deputies of British Jews ـ هيئـة تضم ممثلين يجري انتخابهم عن الكنيس وغيره مـن المؤسسات اليهودية . تأسست ١٧٦٠ .

٢ ـ حدود المستقبل

اما الموقف الصهيوني الرسمي ، كما شاءه وايزمان ان يصل الى اسماع رجال السياسة في بريطانيه آنذاك ، بالاضافة الى « تنوير » القارىء العادي وتوجيه التحدي لليهود المناوئين للصهيونية (١) ، فقد جرى التعبير عنه في كتاب آخر بعنوان « الصهيونية والمستقبل اليهودي » (٢) . ويبدو انه صدر قبل تأليف « لجنة فلسطين البريطانية» وفي صيف ١٩١٦ بالضبط ، وبتحرير هاري زاخر .

وقد جرى تصميم الكتاب المذكور بمهارة فائقة ليكون بمثابة «تصريح جدي ورسمي حول القضية الصهيونية » (شتاين ، المصدر السابق ، ص ٢٩٩) . وصدّره زاخر بالملاحظة التمهيدية التالية :

« تم نشر هذا المجلد بناء على اقتراح زعماء الحركة الصهيونية ، مع العلم بان مسؤوليته تقع كليا على عاتق الناشر واولئك الذين تعاونوا

---

١ ـ انظر شتاين ـ **المصدر السابق** ، ص ٢٩٩ . وايضا سايكس ـ **المصدر السابق** ، ص ١٧٩ .

٢ ـ **Harry Sacher (Ed) — Zionism and The Jewish Future, By Various writers with 2 maps (John Murray, London, 1916).** ولا بد من الاشارة الى الخطأ الذي يقع فيه فريش فاسر ـ رعنان اذ يعتبر الكتاب صادرا عام ١٩١٧ في معرض حديثه عن المنشورات الصهيونية الهامة التي افسحت مجالا لمعالجة حدود فلسطين في المستقبل . فالنسخة التي بين ايدينا تحمل تاريخ صيف ١٩١٦ ، كما تؤيد ذلك معظم الكتب التي اتت على ذكر المجلد المذكور . وربما لم يتسن لمؤلف الاطروحة عن « حدود امة » الأطلاع على الطبعة الأولى للكتاب، فاعتبر الثانية قد صدرت للمرة الأولى عام ١٩١٧ . (انظر كتابه ، **المصدر السابق** ، ص ٨٥) .

معه في اصدار هذا الكتاب » (٣) .

اما الهدف من وراء مشروع الكتاب فهو « ان يضع امام القـراء الناطقين بالانجليزية معنى الصهيونية ويستعرض منجزاتها » . كمـا ان الدكتور وايزمان هو صاحب الفضل الاول في تحقيق المشروع . وقد ترك لنا في **التجربة والخطأ** وصفا للملابسات التي احاطت بفكرة اصدار الكتاب يجدر بنا نقله كما ورد بالحرف الواحد : قال

« في مطلع ربيع ١٩١٦ جمعت صهيونيي مانشستر في غرفة صغيرة بـ « تشيثام هيل » وعرضت الوضع امامهم . اخبرتهم عن احاديثي مع ادموند دي روتشيلد ، واحدهاعام وهربرت صموئيل ، وفي المقام الاول ، مع الساسة البريطانيين . وبتأييد من صهيونيي مانشستر ذهبت الى لندن ، وتحدثت هناك مع جوزيف كورين ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني . فقررنا ، كخطوة اولى ، اصدار كتاب صغير عن الصهيونية . لانه ، فيما عدا بضعة كراريس ، قديمة العهد في معظمها ، وبعض التقارير عن المؤتمرات (الصهيونية) ، لم يكن لدينا شيء يمكن تقديمه الى رجال الدولة البريطانيين » (٤) .

وهكذا تمكن وايزمان من تذليل العقبة الاولى التي اعترضت سبيل المشروع . فسافر الى باريس مستنجدا بالبارون ادموند دي روتشيلد ، وعاد يحمل مبلغ ٢٥٠ جنيها استرلينيا لتنفق على اخراج الكتاب ونشره. وسلّم الاموال الى ليون سيمون الذي اخذ على عاتقه عملية الاخـراج والنشر (٥) . ثم طبع الكتاب الصغير (حوالي ٢٥٠ صفحة من القطـع الصغير) وسرعان ما نفذت ٣ آلاف نسخة من الاسواق والمكتبات (٦) ، « وسط دهشتنا واستغرابنا » (٧) . فتقرر اعادة طبعه. ولم يكن مشتروه من اليهود وحدهم . غير ان بعض الدلائـل تشير الى لجوء الصهيونيين لتوزيع الكتاب على رجال السياسة البريطانيين ، وحمل البارزين منهـم على مراجعته في كبريات الصحف .

---

٣ ــ انظر ــ **الصهيونية والمستقبل اليهودي** ، ص ٧ . وقد خص زاخر بالذكر ليون سيمون والبرت هيامسون على تعاونهما في اعـداد الكتاب والاشراف على اخراجه .

٤ ــ انظر ــ **التجربة والخطأ** ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٢ ــ ١٨٣ .

٥ ــ وايزمان ــ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

٦ ــ شتاين ــ **المصدر السابق** ، ص ٣٠٠ .

٧ ــ وايزمان ــ **المصدر السابق** ، ص ١٨٣ .

فقد بعث الحاخام موزس غاستر رسالة الى السير مارك سايكس في تموز (يوليو) ١٩١٦ وارفقها بنسخة من الكتاب الذي صدر حديثا . غير ان مارك سايكس لم يتأثر بالكتاب مباشرة ، مع العلم بان « معظم السياسيين البريطانيين آنذاك حصلوا على افكارهم عن القومية اليهودية» (٨) من الكتاب نفسه . كما ان اللورد كرومر قام بمراجعة الكتاب في صحيفة سبكتيتور (Spectator) (١١ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٦) ، مما حدا بوايزمان الى نسبة الرواج الذي لاقاه الكتاب للمراجعة التي كتبها كرومر الى حد ما . ومما قاله كرومر ان الحركة الصهيونية اصبحت قوة يحسب لها كل حساب . فالمسألة اليهودية لا وجود لها في انجلتره ، لان مبدأ التساهل الديني يحول دون نشوئها ، كما ان عدد اليهود الصغير نسبيا في بريطانيه لم يسمح لهم بممارسة السيطرة النافذة على الحياة القومية (٩). ومما يسترعي الانتباه قوله ان التساهل قضى على تضامن اليهود الغربيين وعصبيتهم ، بينما ادى الاضطهاد في اوروبه الشرقية الى ترسيخ فكرة البعث القومي ، وجعل « اليهود الاشد حماسا وغيرة يفضلون الاضطهاد الذي يبقي جذوة القومية متقدة على التحرر الذي يعمل على اطفائها »(١٠). ومن هنا ظهرت له قوة الصهيونية المتزايدة والتحدي الذي تمثله بالنسبة لعامة البريطانيين . حتى ان وايزمان اختار العبارة التالية من مراجعة كرومر ليستشهد بها :

« سوف يهتم الجمهور البريطاني بهذا الموضوع اكثر بكثير مما يبدو الآن . . . ولن يمر وقت طويل قبل ان يجد الساسة انفسهم عاجزين عن طرح المسألة جانبا بحجة كونها الحلم الخيالي لنفر من المثاليين . . . » (١١) .

وفي حديثه عن كتاب « الصهيونية والمستقبل اليهودي » يجد شتاين ان وايزمان وغاستر في مقاليهما عن «الصهيونية والمسألة اليهودية» و « اليهودية كديانة قومية » بالتالي عبّرا على آرائهما بلغة لم يكن القصد منها تضييق شقة الخلاف بين الصهيونيين ومعارضيهم في الاوساط اليهودية البريطانية . فاعرب المعادون للصهيونية عن استيائهم البالغ

---

٨ ــ سايكس ــ **المصدر السابق** ، ص ١٧٩ .
٩ ــ شتاين ــ **المصدر السابق** ، ص ٣٠٠ .
١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٠٠ .
١١ ــ انظر وايزمان ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٣ ، وايضا شتاين ، المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .

للتأكيد الذي اطلقه وايزمان بان « وضع اليهودي المتحرر ، على الرغم من كونه لا يدرك ذلك بنفسه ، هو اكثر مأسوية من وضع اخيه المضطهد » (١٢) كما ابدوا انزعاجهم الشديد لقول الحاخام غاستر في مقاله المذكور اعلاه بان « الادعاء (لدى اليهود الاندماجيين) بكونهم مواطنين انجليز من اتباع المذهب اليهودي ـ اي ، انجليز الجنسية يهود المعتقد ـ هو مطلق الخداع الذاتي » (١٣) .

اما الذين شاركوا في كتابة المقالات ، بالاضافة الى وايزمان والحاخام غاستر ، فهم على التوالي : هاري زاخر (« قرن من التاريخ اليهودي »)، البرت هيامسون (« العداء للسامية ») حيث يفرق بين التعصب ضد العرق اليهودي (اللاسامية) والتعصب ضد الديانة اليهودية (Anti-Judaism) ، ويعتبر التعصب الاول ظاهرة حديثة العهد ، بينما التعصب ضد اليهودية قديم قدم الدياسبورا . وليون سيمون («الاحياء العبراني ») ، وريتشارد غوتهايل (« تاريخ الصهيونية ») (١٤) بينما عاد طولكوفسكي لمعالجة موضوع « اليهود والتطور الاقتصادي لفلسطين » . وتحدث برودتسكي عن « العمل الثقافي في فلسطين » وبيناس عن «معنى الجامعة العبرية » ، ونورمان بنتويش عن « مستقبل فلسطين » . وجاءت خاتمة المطاف محاولة ناحوم سوكولوف رسم صورة شعرية روائية لليهودي الجديد كما يراه بمنظار الصهيونية . وقد ارفق الكتاب بعدد من الملاحق عن « برنامج بازل » و « المنظمة الصهيونية ومؤسساتها » و« المستعمرات اليهودية بفلسطين » ، بالاضافة الى قائمة بالكتب والمراجع عن تاريخ اليهود من الناحيتين السياسية والاجتماعية وعن الحياة اليهودية في العصر الحديث ، وعن فلسطين (١٥) والصهيونية والاحياء العبراني .

١٢ ـ راجع ـ **الصهيونية والمستقبل اليهودي** ، ص ٦ ـ ٧ .
١٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .
١٤ ـ Richard J. H. Gottheil ١٨٦٢ ـ ١٩٣٦ . سبق له ان كتب مقالة « الصهيونية » في **الموسوعة اليهودية** (١٩٠٥) واصدر عام ١٩١٤ كتابه عن « الصهيونية » (Zionism : (Movements in Judaism وكان استاذ اللغات السامية بجامعة كولومبيه ، نيويورك ورئيس الاتحاد الصهيوني الاميركي (١٨٩٨ ـ ١٩٠٤) .
١٥ ـ من الاسماء التي ضمتها قائمة المراجع عن فلسطين :
الطبعة السادسة عشرة لكتاب جورج آدم سميث : « الجغرافيـة
(التتمة على الصفحة التالية)

غير ان ما يمت الى هذه الدراسة بصلة وثيقة هو دون شك تلك «الملاحظة حول حدود فلسطين» «A Note on the Boundaries of Palestine» التي اضيفت الى مقالات الكتاب المذكور قبل ان يعمد سوكولوف الى رسم صورته لليهودي الجديد . وقد الحقها القيّمون على نشر الكتاب بخريطة لفلسطين تمتد من بيروت الى خليج العقبة . (انظر الخريطة رقم ٣ في اواخر هذه الدراسة) .

ومن الملاحظ ان الحديث حول حدود فلسطين بلا توقيع . فهل يا ترى كان بقلم هربرت سايدبوثام دون ذكر الاسم . ام انه من بنات افكار طولكوفسكي ؟ وربما كان ثمرة تداول جماعي في مدرسة مانشستر الصهيونية تحت اشراف وايزمان وزاخر وسايدبوثام وهيامسون وغيرهم . غير ان ظهوره غفلا من اسم كاتبه والهدف المقصود من وراء الكتاب ، بالاضافة الى الطابع الرسمي الذي يتسم به المشروع ، يشجع على اعتبار موضوع الحدود المستقبلة لفلسطين مثار اهتمام الصهيونيين آنذاك ، بالاضافة الى سعيهم الدائب لتوجيه انظار الساسة البريطانيين والراي العام اليهودي والبريطاني نحو هذه المسألة بالذات .

ومما يجدر بنا التنبه اليه ان كاتب « الملاحظة حول الحدود » يبدأ باستعراض شتى التعريفات لحدود فلسطين القديمة . لكنه يفعل ذلك على سبيل العرض التاريخي . ويؤكد رغبته في التحدث عن « حدود فلسطين المستقبل » او فلسطين كما يتمنى لها الصهيونيون ان تكون فيما لو جرت الرياح كما تشتهي سفنهم ! ومن الطريف ان الكاتب لا يجد مفرا من الترديد على مسامعنا بان « الرقعة اللازمة لهذا الغرض متواضعة في مساحتها ومداها » وانها « مساحة لا تستحق الذكر » ، وهي « تضم بعض المراكز التي لا غنى عنها لتطور البلاد الاقتصادي » ـ مما يذكرنا

التاريخية للارض المقدسة » (لندن ١٩١٠)

Ellsworth Huntington : **Palestine and its Transformation** (London, 1911).

David Trietsch : **Palestine** (London, 1907), 3rd German Ed., 1912.

Albert Hyamson — **Palestine : The Rebirth of An Ancient People**, (London, 1916).

Israel Cohen (ed.) **Zionist Work in Palestine,** (London, 1911).

Frank G. Jannaway : **Palestine and The Jews,** Birmingham, 1914).

بمقالة طولكوفسكي في الكتاب السابق عن «الصهيونية: مشاكل وآراء».
وقد جرى تعيين حدود المستقبل من زاوية الدور الهام الذي يمكن لفلسطين ان تلعبه « كجسر ارضي » بين آسيه وافريقيه واوروبه على السواء . ولم يشأ الذين عكفوا على ضم مناطق خارجة عن الرقعة الممتدة من « دان الى بئر السبع » تعليل الاسباب التي حلت بهم للقيام بذلك . فاكتفوا بالقول : « ليس هنا مجال الشرح المفصل لاسباب الضم » ، ومضوا على اساس افتراضهم بان العوامل الكامنة وراء ذلك هي « فوق مستوى القارىء العادي من الناحية التقنية ، ولذا يتعذر عليه فهمها ». فهل غاب عن ذهنهم ان كتابهم موجه الى رجالات الدولة والسياسة في بريطانيه قبل كل شيء ، الى جانب الاهتمام بتنوير القارىء العادي ؟ ام انهم آثروا الحرص على عدم الدخول في التفاصيل خوفا من افتضاح امرهم ووقوعهم في شرك نزاع مفضوح مع المسؤولين البريطانيين . فالاحتمال الثاني هو المرجح ، اذ نعلم الكثير عن تحذيرات المسؤولين البريطانيين آنذاك وفي مطلع العام التالي (١٩١٧) من المبالغة فيالحماس اثناء الدعوة لمحمية بريطانية في فلسطين كي لا يؤدي الافراط الصهيوني - البريطاني الى تصلب في الموقف الفرنسي . ونعرف ان مارك سايكس ابلغ وايزمان وسوكولوف اعتراضه على ارتكاب الحماقات في بحث حدود فلسطين المستقبل . ولا شك ان هذه العوامل لعبت دورها في حمل الصهيونيين على اعتماد الحرص والحذر في حديثهم عن مسألة الحدود ، وخوفا من زج بريطانيه في مأزق حرج مع حلفائها . لذلك آثروا الامتناع عن ذكر ما من شأنه عرقلة المساعي والجهود المبذولة ، على الرغم من الشطط والتمادي الذي وقعت فيهما مجلة « فلسطين » حين تناولتهذا الموضوع في مقالات دون توقيع اصحابها .

ولا بد لنا قبل نقل النص الحرفي بكامله للملاحظة حول حدود فلسطين منالاستشهاد بالتقييم التالي لدور الكتابين اللذين جرىتناولهما اعلاه . وقد قام به بول غودمان بالذات عام ١٩٤٢ وبمناسبة مرور ربع قرن على صدور وعد بلفور . وضمّنه مقالة ظهرت في كتاب « الوطن القومي اليهودي: الثاني من تشرين الثاني ، نوفمبر - ١٩١٧ - ١٩٤٢ »، حيث قال :

« اذا كان هناك من شك حول مدى الشعور المؤيد للصهيونية والذي كان آخذا فيالنمو داخلالبيئة الانجلو - يهودية تحت وقعالاحداث، فقد تبدّى ذلك (الشعور) بواسطة منشورتين منفصلتين صدرتا في

آن واحد خلال فترة عام ١٩١٦ الحاسمة ، حين كان الرأي العام في طور التكوين » (١٦) .

وقد عني غودمان بالمنشورتين ، الكتاب الذي حرره هاري زاخر عن « الصهيونية والمستقبل اليهودي » بالتعاون مع ليون سيمون والبرت هيامسون ، والكتاب الذي حرره هو بالاشتراك مع آرثور لويس وقدم له ماكس نوردو ، عن « الصهيونية : مشاكل وآراء » . واكد ان الكتابين المذكورين جمعا حول لواء الموقف الصهيوني الزعماء الروحيين ليهود بريطانيه بالاضافة الى عدد لا يستهان به من قادتهم الفكريين .

---

١٦ — Paul Goodman (Ed.) — The Jewish National Home, The Second November: 1917 - 1942, (London, 1943), pp. 18 - 19.

ملاحظة حول حدود فلسطين

« ينفرد كل كتاب عن فلسطين بتعريفه الخاص لحدود البلاد . والسبب في ذلك يرجع الى الاتجاهات المتعددة ووجهات النظر الخاصة لدى المؤلفين ، اذ يتوصل هؤلاء الى نتائج مختلفة جدا : تختلف باختلاف الهدف الذي يرمون اليه من وراء كتبهم ، سواء كان دينيا ام علميا او سياسيا ، او تختلف باختلاف الاسس التي يعتمدون عليها ، سواء كانت نصوص التوراة ام المعطيات والمعلومات المستمدة من التقاليد او التاريخ والجغرافية .

فالتباينات القائمة بين مختلف التعريفات لا يستهان بها . يخبرنا كل من سفر الملوك الاول ، الاصحاح الرابع ، عدد ٢١ (« وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر (الفرات) الى ارض فلسطين والى تخوم مصر ... ») وسفر اخبار الايام الثاني ، ٩ : ٥–٢٦ (...«وكان لسليمان اربعة آلاف مذود خيل ومركبات واثنا عشر الف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في اورشليم . وكان متسلطا على جميع الملوك من النهر الى ارض الفلسطينيين والى تخوم مصر ») ، بالتفصيل عن الفترة التي بلغت فيها المملكة اليهودية ذروة قوتها وعظمتها . وكان هؤلاء الملوك يدفعون له الجزية وقد خضعوا له طيلة حياته .

ويتحدث سفر الملوك الأول ٩ : ٢٦ ، واخبار الايام الثاني (٨ : ١٧ – ١٨) كيف ان سليمان لما اكمل بناء بيت الرب وبيت الملك في القدس، عمل سفنا في عصيون جابر (العقبة) (Ezion - Geber) التي بجانب أيلة (ايلات) على شاطىء بحر سدف في ارض أدوم (البحر الاحمر) ، وارسل له حورام بيد عبيده سفنا وعبيدا يعرفون البحر فأتوا مع عبيد سليمان الى ادفير واخذوا من هناك اربع مئة وخمسين وزنة ذهب واتوا بها الى الملك سليمان . لكن اسباط بني اسرائيل الاثني عشر الذين توحدوا من جديد تحت صولجانه لم يكونوا سوى شعب واحد وسط عدد كبير من الشعوب الاخرى . واذا كانت سيادة داوود وسليمان قد امتدت

شمالا حتى نهر الفرات وجنوبا حتى تخوم مصر والبحر الاحمر ، فلا غرو انه من الصحيح ايضا كذلك ان الاسرائيليين انفسهم كانوا يحتلون احتلالا فعليا فقط لتلك المنطقة التي يصفها كتاب الملوك الاول (٤ : ٢٥) بانهـا تمتد « من دان الى بئر السبع » .

ان الغاية من هذه الملاحظة ليست الدفاع عن واحد او آخر من التعريفات لحدود فلسطين القديمة التي جرى تقديمها . فالحدود التي نرغب في التحدث عنها هي **حدود فلسطين المستقبل** ــ فلسطين كما سوف ستكون ، فيما لو اعطى موافقتهم اولئك الذين يمسكون بزمام مقدراتها المباشرة ، على اعادة تأسيس الحياة القومية اليهودية في البلاد.

الرقعة اللازمة لهذا الغرض متواضعة في مساحتها ومداها . فهي تشمل ما كان في الزمن التوراتي ارث اسباط اسرائيل الاثني عشر ، تمتد فوق رقعة ارض معينة ، بمساحة لا تستحق الذكر ، لكنها تضم بعض المراكز التي لا غنى عنها لتطوير البلاد الاقتصادي ولتحقيق ذلك الدور الهام الذي يمكن لفلسطين ان تلعبه « كجسر ارضي ». لان فلسطين يجب ان تقوم ، من الزاوية الاقتصادية ، بدور صلة الوصل بين آسيه وافريقيه .

اما فيما يتعلق بالحد الغربي فلا مجال هناك للنقاش والجدل : شاطىء البحر الابيض المتوسط هو تلك الحدود . لذلك سوف نتناول فيما يلي حدود الشمال والشرق والجنوب فقط .

ان الحدود الشمالية للرقعة القديمة التي كانت للاسباط الاثني عشر تمتد من الشاطىء ، شمالي صيدا بقليل (صيدون) في خط مستقيم تقريبا حتى النقطة التي ينحدر عندها وادي اللّوا الى بحيرة او مستنقع مطح براك، الى جنوب الجنوب الشرقي من دمشق . ويمتد الحد الشرقي من هذه النقطة بمحاذاة وادي اللوا ، ثم يرسم قوسا واسعا يصل شرقا الى مشارف المنطقة الجبلية في اللجا (المعروف ب Trachonitis في القديم) حتى نقطة واقعة على تقاطع خطي ٣٢° ٣٠َ شمالا . ثم يستدير من هناك صوب الجنوب الغربي حتى اقصى ما يصل اليه نهر جبّوك من الشرق ، ومن هناك جنوبا حتى نهر ارنون ، ثم غربا بمحاذاة هذا النهر الى البحر الميت ، الذي يشكل الحدود في اقصى طرفه الجنوبي .

تمتد الحدود الجنوبية من جنوب طرف البحر الميت ، صاعدة وادي العربة حتى النقطة ٣٠° ٣٠َ شمالا ، وتدور من هناك صوب الغرب حتى

وادي العريش ثم تسير مع الوادي حتى البحر .

هكذا كانت تقريبا حدود التركة القديمة لاسباط اسرائيل الاثني عشر . وعندما ننتقل الى تعيين النقاط الهامة التي لا بد منها لتطور البلاد الاقتصادي في الزمن الحديث ، علينا ان نتذكر بان دور فلسطين من وجهة النظر الاقتصادية هو دور جسر مزدوج : فهو من جهة جسر يصل قارتي اوروبه وآسيه مجتمعتين بالقارة الافريقية ، ومن جهة ثانية ، هو جسر بين حوض البحر الابيض المتوسط وشواطىء المحيط الهندي . وكجسر بين قارتين يجب ان يكون لفلسطين خط للسكك الحديدية وطرق للقوافل ، وكجسر بين حوضين بحريين يلزم ان تكون لها منافذ على تينك الحوضين . فمن الممكن دون صعوبات كبيرة وباستخدام الادوات الحديثة انشاء مرافىء ممتازة في حيفا ويافا على المتوسط ، بينما تشكل العقبة على البحر الاحمر ، حيث جهز سليمان اسطوله الشرقي في قديم الزمان ، المنفذ الطبيعي صوب المحيط الهندي وهو منفذ يخص فلسطين تاريخيا . والواقع ان العقبة لا قيمة لها على الاطلاق لدى اي انسان آخر ، بينما هي ضرورة حيوية بالنسبة لفلسطين .

ليس هنا مجال الشرح المفصل لاسباب الضم ، لكن تفحص جميع العوامل عن كثب وقرب ، مع العلم بان الكثير من تلك العوامل هي فوق مستوى القارىء العادي من الناحية التقنية ولذا يتعذر عليه فهمها ، يقترح علينا التخطيط التالي لحدود فلسطين :

في الشمال عند الاميال الخمسة الاولى من المجرى الاسفل لنهر الاوّلي ، ثم يمتد خط مستقيم نحو الجنوب ــ الشرقي ، مارا بمحاذاة الطرف الجنوبي لجبل لبنان وجبل حرمون وسائرا نحو نقطة تقع على ٣٦° شرقا ١٥َ ٣٣° شمالا . ومن هناك يمتد خط مستقيم آخر الى جنوب جنوبي شرق بصرى (الشام) ٣٠َ ٣٢° شمالا ، ثم تتجه الحدود من هذه البلدة نحو الجنوب ، بموازاة الخط الحديدي وعلى مسافة ١٠ ــ ٢٠ ميلا شرقي ذلك الخط ، حتى تصل الى مهبط الجفر الذي يبعد ٢٠ ميلا الى الشرق من معان ، تمتد الحدود من المهبط المذكور ملتفة صوب الجنوب الغربي حتى تصل الى العقبة . واخيرا تتعين الحدود الطبيعية في الجنوب عند الحدود المصرية القائمة ، متجهة الى الشمال الغربي ، من نقطة تقع على خليج العقبة تبعد مسافة بضعة اميال الى الجنوب الغربي من المرفأ المعروف بالعقبة ، ومنها الى رفح » .

٣ ـ القدرة الاستيعابية

لم ينفرد وايزمان ومعاونوه ، خلال العام الذي سبق صدور وعد بلفور ، في الاهتمام بتلقين الساسة والمسؤولين البريطانيين دروسا صهيونية حول مستقبل فلسطين والحدود المتواضعة التي ينشدونها لها. فحين انتقلت مكاتب المنظمة الرسمية الى كوبنهاغن باعتبارها بلدا محايدا، تقرر نقل المكتب الرئيسي للصندوق القومي اليهودي من كولونيه الى لاهاي . وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ سارع الصندوق المذكور الى المساهمة بقسطه في عملية التعريف بفلسطين وحدودها المنشودة والحديث عن طاقتها الاستيطانية وقدرتها الاستيعابية . فأصدر لذلك الغرض مجلة « ارض اسرائيل » (Erez Israel) بالالمانية لتفتح صفحاتها لاخبار المكتب الرئيسي والنشاطات التي يرعاها ويمولها (١) . كما اهتمت المجلة المذكورة بمراجعات قصيرة للكتب التي تعالج موضوع فلسطين والاستعمار الصهيوني هناك . وصدّرت صفحتها الاولى بخريطة لارض اسرائيل بعد ان احتفظ مكتب الصندوق القومي لنفسه بحقوق النشر والنقل .

ولو تناولنا العدد الاول للمجلة المذكورة لطالعتنا نبذة عن نشاطات الصندوق القومي في حقلي الاستعمار الفلسطيني وجمع الاموال من يهود العالم . تتبعها مقالة عن النشاط الاستعماري العملي بفلسطين (Palästinaarbeit) كتبها نحميا دي ليمى (١٨٨٢ــ١٩٤٠)، الاقتصادي الهولندي والزعيم الصهيوني الذي ترأس الاتحاد الصهيوني في بلاده منذ ١٩١٣ واصبح رئيسا للصندوق القومي (١٩١٩ ــ ١٩٢١) ، لكي يستقيل من منصبه ومن عضوية اللجنة الصهيونية لفلسطين ابان الخلافات بين وايزمان وجماعة برانديس ــ ماك في مطلع العشرينات . كما ان المهندس

---

١ ــ **Erez Israel**, Mitteilungen des Hauptbüros des jüdischen Nationalfonds, Heft 1. Den Haag, Sept. 1916.

الزراعي ج. اوتنغر (١٨٧٢ – ١٩٤٥) (٢) عالج في مقالتين موضـوع « المنافع العملية لحق الارث » ومسألة قيام الصندوق بتشجيع زراعة الخضار في فلسطين . بينما انصرف المهندس سولومون كابلانسكي (٣) الى بحث « قدرة فلسطين الاستيطانية » من زاوية صهيونية مدروسة . ويبدو من كتاباته التي نشرها في وقت لاحق انه تخصص في موضـوع « القدرة الاستيعابية » (Ansiedlungskapazität) واستمد الكثير من تعاليم البروفسور فرانز اوبنهايمر وآرائه . وقد ارسله ماكس بودنهايمر بصحبة صهيوني آخر (الدكتور ابشتاين) في مطلع الحرب الى الولايات المتحدة الاميركية لكي يتابع واياه بث الدعاية الصهيونية ابان الحـرب

---

٢ – غيّر اسمه فيما بعد الى عاكفه يعقوب اتينغر . اشتغل في السابق مع جمعية الاستعمار اليهودي في بيسارابيه واميركه الجنوبية . اشترك في تقديم صياغة من عنده لنص وعد بلفور ، واستوطـن فلسطين عام ١٩١٨ ليعمل على تطوير نمط جديد من المستوطنات في القرى وعلى سفوح التلال . اقترن اسمه بالمستوطن الذي اقيم على احدى التلال بالقرب من مدينة القدس – قريات انافيم .

٣ – Solomon Kaplansky ١٨٨٤ – ١٩٥٠ بولوني المولد . صهيوني اشتراكي ومن زعماء الحركة العمالية اليهودية المعروفة ب « عمال صهيون » (Poale Zion) . شغـل منصب سكرتير لدى المكتـب الرئيسي للصندوق القومي اليهودي (الكيرين كايمت) في كولونيه، (١٩١٣ – ١٩١٩) ، عضو المجلس المالـي والاقتصادي للمنظمـة الصهيونية في لندن ١٩١٩ – ١٩٢١ واحد الاعضاء المؤسسين في مجلس مدراء الكيرين هايسود فيمـا بعـد . تسلم ادارة قسم الاستعمار الزراعي التابع لاشراف اللجنة التنفيذية الصهيونية . وكان مديرا لمعهد حيفا التقني من ١٩٣٢ حتى وفاتـه . جـاء الى فلسطين عام ١٩٢٤ . مؤلفاته (التي امكن الحصول عليها ، بالاضافة الى البحث المذكور اعلاه) :

A) **Probleme der Palästina - Kolonisation**
(مشاكل الاستعمار الفلسطيني)
Verlag Ostertag, Berlin, 1923.

B) **Realitäten und Möglichkeiten Palästinas**
« واقع فلسطين وامكاناتها »
mit einer Einführung von Prof. Dr. Franz Oppenheimer (Laubsche Verlagsbuchhandlung, Berlin, 1931).

لمصلحة الصندوق القومي اليهودي . والقى في مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ محاضرته عن « القدرة الاستيعابية لفلسطين » في مدينة نيويورك، ثم كررها على مسمع الدورة الصيفية لمنظمة الطلاب الصهيونية فيهولنده (امستردام ـ تموز ، يوليو ، ١٩١٥) ، قبل ان يبني عليها مقالهفيمجلة « ارض اسرائيل » .

غير اننا سوف نحاول الوقوف على آراء نحميا دي ليمي المتعلقة بالنشاط الاستعماري العملي في فلسطين ، قبل الانتقال الى استعراض نظريات كابلانسكي وتقديراته لطاقة « فلسطين » الاستيعابية .

يبدأ دي ليمي مقاله عن النشاط الفلسطيني باعتبار « المسألة اليهودية » فريدة من نوعها (Sui Generis) لا يمكن توضيحها عن طريق المقارنة او قياسا على غيرها من المسائل القومية الاخرى . والسبب في ذلك يرجع الى رغبته في التمييز بين الوسائل الصهيونية من جهة والنشاط الاستعماري العام من جهة ثانية . فيتناول مسالة **الهجرة** للتدليل من خلالها على الفرادة التي تميز الصهيونية عن غيرها من الشعوب الاخرى لسلطان اجنبي واستغلال مواردها وطاقاتها العمالية لصالح ما يدعى بالبلد الام . بينما « الاستعمار الزراعي » هو النمطالذي يحظىباهتمام الصهيونيين. وهنا يلجأ الكاتب الى اجراء مقارنة يستمدها ويقتبسها عن دراسة بوخن برغر عن « الزراعة والسياسة الزراعية» (٤). فقد ميز هذا الاخير بين الانماط التالية للاستعمار :

أ ـ الاستعمار بمعناهالمعهود والمالوف: الاستيلاء علىبلاد ما واحتلالها، ثم توزيع اراضيها على المحتلين واستصلاح المتروك منها ، واقامة مستوطنات دائمة، بالاضافة الى وضع قانون وتنظيم المؤسسات المحلية والعامة .

ب ـ الاستعمار الداخلي بالمعنىالعصريللكلمة : لا يهدف الىالاستيلاء على ارض بلا صاحب لها او استصلاحها واستغلال ثرواتها الاقتصادية ، بل يسعى الى ايجاد مراكز مستقلة للفلاحين والمزارعين وسط الاراضي المأهولة والمزروعة ، ويعمل من خلال ذلك على اعادة توزيع الاراضي بغية استغلالها بصورة افضل واكمل . فتكون المصلحة المتعلقة بالسياسة الاجتماعية رائده

---

٤ ـ **A. Buchenberger — Agrarwesen und Agrarpolitik, 2. Aufla. 1. Bd. 1914.**

اكثر من مصلحة الانتاج . ويرمي الى تحقيق توزيـع افضـل للاملاك .

غير ان هذين النمطين لا ينطبقان كليا على « العمل الفلسطيني » الذي تقوم به الصهيونية . فهو يختلف عـن السياسة الاستعمـارية الامبريالية ، بكونه يسعى الى انشاء مستوطن يتمتع بالضمانات القانونية وفي ظل القانون العثماني ، كما هي الحال لدى الفئات القومية او الدينية في تلك البلاد (٥) . ويأخذ الكاتب على الحركات الاستعمارية المآخـذ التي لا يريد نسبتهـا الى الاستعمار الصهيونـي ، علمـا منـه بـان الهجـرة تشكل النقطـة المحورية الاساسية فـي المسألة اليهـودية . ويرى الفرادة التي يبحث عنها اولا في قـوله ان الشعـب اليهودي لا يعرف الهجرة Emigration او النزوح، لانه لا يعرف المهاجرة او التهجير (Immigration) . وترجع عدم معرفته بالهجرة الى كونه « في تجوال دائم ، يجوب الكرة الارضيةمنذ الفي سنة » . لذلك تأتي الصهيونية كمن يسعىالى وضع حد لهذه الظاهرة . وتصبح احدى غايات النشاط العملي الصهيوني بفلسطين « اعطاء الشعب اليهودي مطرحا يكون بمثابة الموطىء لقدمه » (٦) كما ان « موجـة غارات » (Streifzüge) الشعب اليهـودي تختلف عن هجرات الشعوب الاخرى، اذ لا تنبثق عن تركيبه اللاسوي ولا هي ترتكز على العلاقات الاقتصادية اللاطبيعية والسائدة لديه . فالحديث عن اللاسوية يتطلب وجود التركيب السوي . لكن « السوية » لا تصدق على حال اليهود في نظر الكاتب المذكور . والهدف من هـذه المقارنات والتمييزات ليس الا التأكيد على الوضع الشاذ للشعب اليهودي في المنفى، والوصول الى التعميم الجائر بان الحل الجذري للمسألة اليهودية لا يمكنه ان يتم الا بتصفية المنفى . والمجتمع اليهودي بفلسطين هو السبيل المنطقي الذي يحتمه تاريخ الشعب اليهودي ، كما ان النشاط الصهيوني العملي هو الوسيلة الهامة (احدى الوسائل) الى الغاية المنشودة .

ثم ينتقل دي ليمي الى التمييز بين « العمل الفلسطيني » من جهة والاستعمار عامة من جهة ثانية . فالعمل الصهيوني بفلسطين ولاجلهـا لا علاقة له البتة بالسياسة الاستعمارية الامبريالية في نوعيها الماضـي والحديث . وهي السياسة التي تعمل بصورة رئيسية على اخضـاع

---

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ١٠ .
٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٥ .

الشعوب الاخرى لسيطرة اجنبية . بينما نجده يأخذ على عاتقه مهمة التأكيد بأن الفارق الجوهري ينحصر بكون الصهيونية لا تسعى الى اخضاع شعب آخر واستعباده ، ولا هي تنوي استغلال فلسطين واهلها لصالح فئة خارجة عن فلسطين . بينما تتفق مع ذلك النمط من الاستعمار من حيث « اقامة مستوطنات دائمة وذات طابع قومي » . الا انه لا يجوز الحديث هنا عن « توزيع الاراضي على المحتلين » ، كما قد يجوز ذلك في حالات الشراء ، مثلا . والغاية من التجويز او عدمه ليست سوى التبرير للنشاطات التي يقوم بها الصندوق القومي اليهودي في حقل شراء الاراضي واعلانها ملكية ثابتة للشعب اليهودي .

وفيما يتعلق بالنمط الثاني من الاستعمار الداخلي ، يجد دي ليمي مجالا اوسع للمقارنة بينه وبين النشاط الصهيوني في فلسطين . لكنه لا يلبث حتى يشدد على الفرق المتعلق بموقف كل منهما ازاء ما يعتبر « نتيجة » او مسألة جانبية . فالاستعمار الداخلي يركز همه على مسائل رئيسية من طراز زراعة الاراضي البور او المتروكة ، ومضاعفة الانتاج ، بينما هو يعتبر توزيع الاراضي والاملاك قضية جانبية . وهذا ما لا يبدو في مصلحة الاستعمار الصهيوني . غير ان هذا الاستعمار يتضمن عناصر مشتركة مع جميع الانظمة الاستعمارية السالفة (٧) . ومع ذلك لا يريد له دي ليمي ان يقترن بها ، لان الشعب اليهودي في المنفى والمشتت في سائر انحاء المعمورة ـ على حد قوله ـ يأبى مقارنة «اعجوبته» الاستعمارية و « معجزته » القومية التي لا مثيل لها بشيء من هذا القبيل . ومن زاوية التوزيع المهني يأتي تركيب اليهود في سائر بقاع العالم على صورة احسن ما تكون ملاءمة للنشاط الصهيوني المنوي القيام به . ولم يغب عن بال الكاتب بان اراضي فلسطين هي ملك الافراد بصفة شخصية او تابعة لاملاك الدولة . وليس فيها تربة بكر بالمعنى المطلق ، كما ان خلوّها من السكان مسألة نسبية (٨) .

وعلى الرغم من كل ما تقدم نجد دي ليمي يطلب الى كل يهودي ان ينظم اسلوب حياته لكي يكون مستعدا في الوقت المناسب للانتقال الى فلسطين . اما الاستيلاء على فلسطين فلن يتم الا عن طريق ذلك التغلغل التدريجي البطيء . « ولا نريد امتلاك ارض الآباء والاجداد او وراثتها مرة واحدة ، بل مع مرور الزمن ، وخطوة خطوة ، حسب استعداد فلسطين

٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١١ .
٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١١ .

وملاءمتها لاستقبالنا واستيعابنا » (٩) . فاليهود بطبيعتهم لا يملكون موهبة خاصة للنشاط الفلسطيني الصهيوني بالمعنى الاستعماري . بينما يشدد فيرنر سومبارت على الدور البارز لليهود في التوسع الاستعماري ومساهمتهم الكبرى في نظام الانتاج الراسمالي (١٠) وقد حلل فيدراسته الشاملة عن « اليهود والحياة الاقتصادية » ذلك الدور الرائع الذي لعبه اليهود في تأسيس الاقتصاد الاستعماري الحديث . كما ان كارل ماركس سبقه في هذا المضمار حين اضفى صيغة علمية على مسألة القدرة الراسمالية لدى اليهود . وليس هنا مجال استعراض آراء ماركس وسومبارت التي يرفض دي ليمي التسليم بصحتها وصوابيتها . بل نكتفي بالاشارة الى محاولته الرامية لاعتبار المثال الاعلى الزراعي هو مثال الشعب اليهودي الاقتصادي، والى دحض الآراء التي تؤكد بان «اسرائيل» كانت « شعبا سيداً » (Ein Herrenvolk) ، تألفت منه طبقة من كبار الملاكين فراحت تستغل الشعوب الاخرى وتسخّرها لاغراضها الخاصة .

لكنه يلتفت صوب كاوتسكي بقصد الوقوف على الآراء التي توصّل اليها في دراسته للعلاقات الزراعية بفلسطين القديمة . والمعروف ان كاوتسكي اعتبر الملكيات الواسعة للاراضي وقيام الاقطاعات والعزبات الكبيرة (Latifundien) من اهم الاسباب التي ادت الى سقوط الدولة اليهودية وانهيارها (١١) . وهناك اوجه عديدة للشبه بين نظرة كاوتسكي تلك والآراء التي وردت في دراسة فرانز بوهل عن « العلاقات الاجتماعية لدى الاسرائيليين» حيث تناول بالبحث مسألة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين القديمة ، وبيّن ان الانبياء العبرانيين رفعوا الحياة البدوية في الحل والترحال الى مستوى المثال الاعلى (١٢) . والغاية التي يرمي اليها دي ليمي من خلال ذلك كله ليست سوى التدليل على ان اليهود ليسوا عاجزين بطبيعتهم عن الانصراف الى الاقتصاد الزراعي . كما ان فلسطين سوف تتيح امامهم فرصة الجمع بين الزراعة والتجارة والصناعة.

---

٩ ــ المصدر نفسه .

١٠ ــ انظر (اليهود والحياة الاقتصادية)
Werner Sombart — Die Juden und das Wirtschaftsleben 1 Aufl. 1911, (München & Leipzig, 1913).

١١ ــ راجع (اصل المسيحية)
Kautsky — Der Ursprung des Christentums, S. 220.

١٢ ــ **Franz Buhl — Die Sozialen Verhältnisse der Israeliten (1899)**

والاستعمار الصهيوني في فلسطين يجب ان يقوم على اساس زراعي ، مع العلم بان الاستعمار الزراعي يتسع لكل من النمو التجاري والتطور الصناعي . وقد لا تكون هذه المجالات الثلاثة منفصلة اصلا . ثم يستعين بالوصف الذي يقدمه كارل ماركس في الجزء الاول من كتاب **راس المال** عن تطور الاستعمار الزراعي في الولايات المتحدة الاميركية وعلاقة ذلك الاستعمار بالصناعة لينتهي الى القول بان فلسطين سوف تكون مسرحا يشهد تطور التجارة والصناعة ، وسوف تؤهلها الصناعات الاجنبية الى جانب تطور الراسمالية الامبريالية في آسيه الصغرى لتحتل المكانةنفسها التي احتلتها هولنده حين بلغ فيها راسمال السلع والراسمال التجاري ذروة تطوره ونموه (١٣) .

والدور الملقى على عاتق الصندوق القومي اليهودي في اطار الاستعمار الزراعي يتلخص بالخطوات الثلاث التالية :

١ ــ شراء الاراضي .
٢ ــ حراثتها ووضع اليد عليها .
٣ ــ الاستيطان .

وحين تنشأ مسألة تأجير الاراضي المشتراة من العرب ، يتنبه دي ليمي الى الاخطار التي تترتب عن ذلك . فقد سبقه آرثور روبين في خطابه امام المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣) حين نبّه الى خطورة ترك العرب يحرثون تلك الاراضي ويزرعونها . واذا كان تنفيذ الخطة الصهيونية يشكو من نقص في العمال اليهود ، وجب تحويل هذه المزارع الى مزارع تدريبية تقوم باعداد المزارعين وتلقينهم مبادىء الاستعمار الزراعي على اتم وجه .

وهناك مسألة هامة يلتفت اليها الكاتب المذكور وتتعلق بـ « تغيب المالك » عن ارضه في فلسطين Absentee Landlord = Absentismus فقد ساهمت هذه الظاهرة مساهمة فعالة في افقار السكان الفلاحين . وانبثقت عنها (في شمالي هولنده ، مثلا) حركة عمالية ثورية . لكن انعدام النسبة الكافية من العمال الزراعيين اليهود بفلسطين سوف يؤخر قيام الطبقة العاملة . ويؤدي تغيب المالك عن ارضه وسيطرته على العزب الكبيرة الى ما يلي :

---

١٣ ــ انظر دي ليمي ، **المصدر السابق** ، ص ١٤ .

أ – استهلاك الدخل العائد من اراضيه واملاكه بفلسطين خارج البلاد.

ب – الميل الشديد نحو رخص اليد العاملة ، مما يجعل الاعتماد على العمل العربي مسألة لا بد منها ، ويؤدي بدوره الى انخفاض في رؤوس الاموال الموظفة او المستثمرة .

ج – على الرغم من حسنات الاستفادة من اليد العاملة العربية ، فان الاعتماد عليها يجعل منها عاملا اقتصاديا قويا يقف كعقبة كأداء في سبيل التطور القومي للاستعمار اليهودي (١٤) .

لذلك نجده يسارع نحو الوقوف الى جانب يوسشكين في تشديده على الاهمية القصوى لحصر اليد العاملة باليهود وحدهم والحؤول دون استخدام العرب في الاراضي التي كانوا يعملون عليها . ويعتبر فقدان العمل اليهودي بمثابة انعدام الاساس او القاعدة التحتية التي يقوم عليها صرح النشاط الاستعماري الصهيوني بكامله :

« بدون اليد العاملة اليهودية نبني على رمال متحركة . نحن نسعى لاقامة مجتمع يهودي قومي بفلسطين . ومن البديهي ان طبقة ارباب عمل من اليهود وطبقة عاملة من غير اليهود لا يمكنها بناء ذلك » (١٥).

ثم يأخذ في امتداح كفاءات العامل اليهودي والرفع من شأنه وقيمة عمله (« لانه اذكى ، وامهر ... واكثر انتباها واستقامة ... ») ، لكي يبرر حصوله على نسبة اعلى من الاجور والعلاوات والمكافآت . ويسوق شتى الحجج والمزاعم لدحض الراي القائل بان استخدام العمال العرب اوفر وافضل من استقدام جماعات جديدة من المهاجرين . ولا حاجة بنا للتوسع اكثر مما فعلنا في الآراء التي يعرضها نحميا دي ليمي في بحثه المذكور . فلننتقل الى استعراض آراء كابلانسكي التي وردت في مقاله عن « ثورة فلسطين الاستيعابية » ، لنرى الصلة الوثيقة بين « قدرة الاستيعاب » و « حدود المستقبل » في اجلى مظاهرها . وبذلك نتعرف على نزعة متأصلة في التوسع الذي تضمره الصهيونية وتعمل على تحقيقه بشتى الوسائل . ومما يزيد في اهمية الآراء التي ينادي بها كابلانسكي كونه ينتمي الى الحركة العمالية الصهيونية ويدعي الجمع بين الاشتراكية والاستعمار الصهيوني على صعيد واحد .

يبدأ كابلانسكي بالقول ان السؤال المطروح حول قدرة فلسطين

---

١٤ – المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

١٥ – المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

الاستيعابية كان مدار البحث في الاوساط الصهيونية اثناء الانقسام في صفوف الحركة والمنظمة الى معسكرين : « فلسطيني » و « اقليمي » .
ويذكر ان زانغويل عاد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ ـ ومن خلال رسالة بعثبها الى صحيفة يديشية في نيويورك (Tog) ـ الى اعلان الحرب من جديد على الصهيونية بحجة ان فلسطين لا تستطيع تحمّل مضاعفة سكانها ولا يمكنها ان تعيل اكثر من مليون مهاجر يهودي . ثم يستعرض باختصار الراي العلمي في الموضوع . فيعترف بان البروفسور الفريد فيليبسون ـ الجغرافي الذائع الصيت ـ قدّر طاقة فلسطين الاقتصادية بالقدرة على استيعاب حوالي مليونا وربع المليون من السكان (١٦) . كما ان لفين نشر قبل الحرب سلسلة من المقالات بصحيفة «دي يوديشه فيلت» (Die Jüdische Welt) الصادرة بمدينة فيلنا ، اعرب فيهـا عن شكوكه بصدد مجالات التطور المفتوحة امام فلسطين ، ودعا الى ضرورة اشباع مسألة القدرة الاستيعابية للبلاد درسا وتمحيصا ، والتوقف عندها قبل الاقدام على عمل استعماري واسع النطاق وبصورة منظمة . وقد اعترف كابلانسكي بان الاوساط الاشتراكية الداعية الى الاندماج في اميركه جعلت مدار بحثها المفضل « ما يطلقون عليه تسمية مشكلة العرب بفلسطين » واثارت حوله نقاشا يتسم بالغيرة والحماس . حتى ان اولئك الاشتراكيين الاندماجيين هاجموا جماعة عمال صهيون من زاوية اعتبارهم التالية : ان اعادة توطين اليهود بفلسطين تشكل عملا من شأنه تجريد الفلاحين العرب من ملكيتهم وطردهم من اراضيهم . والصهيونية لا تعدو كونها حركة من حركات الغزو والفتح القوميين (١٧) .

ويؤكد لنا كابلانسكي بان اثارة هذا النقاش حامي الوطيس تجعل المسألة من « الاسلحة الهجوميـة المفضلة » لدى الاوساط الاشتراكيـة الاندماجية . فينسب دعوة هؤلاء الى منع الهجرة اليهودية لفلسطين او اخضاعها لقيود شديدة بانها من قبيل « الغيرة الشديدة والمتفانيـة في سبيل العرب » . ويزعم ان غيرتهم على مصالح العـرب والاعراب عـن

---

١٦ ـ ظهر نقد فيليبسون العلمـي في صحيفـة Berliner Tagblatt ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ و ١٩ شباط (فبراير) ١٩١٦ . ورد عليه البروفسور واربورغ في الثامن من شباط (فبراير) ١٩١٦ . (انظر كابلانسكي ، المصدر نفسه ، ص ٤٨) .

١٧ ـ انظر المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

صداقتهم لهم ليست في محلها ابدا . اذ ما يفعله هؤلاء لا يروق له :

« وبدلا من محاربة اعداء الهجرة وتوجيه حججهم صوب الاوساط التي تتحرك ضد الاجانب والمهاجرين في صفوف جماعة تركيه الفتاة والقوميين العرب ، نجدهم يسارعون الى حماية التقييديين السوريين (Die Syrischen Restriktionisten) ضد الصهيونيين الاشرار» (١٨) .

والافراط في حب العرب ــ على حد تعبير كابلانسكي ــ من المسائل التي يجهل دعاتها واصحابها ما تنطوي عليه من شطط وخطأ . غير ان الحركة الصهيونية يجب ان تولي اهتمامها لاصدقاء القضية ، فتعمل على تبديد شكوكهم وتبرئة نفسها في اعينهم من « التهمة » التي توجه اليها بصدد استغلال شعب آخر وقمعه بقصد الحلول محله والاستيلاء على مقدرات بلاده . ويترتب على الصهيونيين بالتالي ان يصوروا نشاطهم الاستعماري في فلسطين بمثابة «الفتح الاقتصادي السلمي» لبلاد متخلفة وضئيلة السكان (١٩) . لذلك ينصرف كابلانسكي الى الحديث عن قدرة فلسطين الاستيعابية بالتفصيل . فيعدد الوسائل الثلاث التالية التي يصح اعتمادها لمعرفة تلك القدرة الاستيعابية والاستيطانية للبلاد :

اولا ــ تقدير ما يمكن لفلسطين ان تستوعبه من المستوطنين اليهود على اساس المقارنات ، وبالقياس على غيرها من البلدان . وذلك باجراء مقارنة حول كثافة السكان في فلسطين داخل الكيلومتر المربع الواحد مع ما هي عليه البلدان الاوروبية من الكثافة السكانية .

ثانيا ــ الاستناد الى معيار الطاقة الانتاجية المبذولة في حقل الاقتصاد الزراعي (Arbeitsnorm) .

ثالثا ــ وفقا لكمية المواد الغذائية التي يمكن انتاجها في داخل البلاد .

وحين ينتقل الى الحديث عن تعداد سكان فلسطين نجده يميل الى تبنّي التقدير الذي يضعهم في حدود ٧٠٠ الف ، خصوصا « اذا اخذنا التكاثر البطيء جدا لسكان الارياف العربية بعين الاعتبار » (٢٠) . كما ان التقديرات التي توردها الكتابات الصهيونية لمساحة فلسطين وحجمها

---

١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

١٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

٢٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

تسترعي انتباهه لكونها جد منخفضة . والمعاجم الجغرافية تبالغ ايضا في التقليل من مساحة فلسطين ، اذ لا تتعدى هذه المساحة حسب تقديراتها الشائعة ما يتراوح بين ٢٧ ــ ٢٩ الفا من الكيلومترات المربعة . بينما يجد كابلانسكي فلسطين التاريخية تمتد على الرقعة التي يحدها شمالا القسم المتجه غربا من نهر الليطاني حيث يصب في البحر فوق مدينة صور ، والى الشرق من نهر الاردن ذلك القطاع الضيق البالغ عرضه حوالي ١٥ كلم ، وتضم الى الجنوب الشرقي ذلك القسم من باشان القديمة (الجولان وحوران اليوم) الواقع الى الجنوب من وادي قنوات ، بينما تسير الحدود التاريخية في الشرق بمحاذاة طريق الحج ، فتمتد الى الغرب منه حتى تصل نهر أرنون . ثم يضاف اليها القسم الجنوبي من النقب وموآب (٢١) .

لكن كابلانسكي لا يجد « اي سبب يدعونا لرسم حدود فلسطين على صورة ضيقة جدا » (٢٢) فهناك مناطق اخرى يعتبرها من الاماكن التي استوطنها العبرانيون القدامى في مملكتي يهوذا واسرائيل . وتشكل هذه وحدة جغرافية من الناحيتين الاقتصادية والتاريخية . كما ان اللغة العبرية الواحدة سبق لها ان كانت لغة التخاطب التي جمعت فيما بين هذه المناطق على الرغم من تباينها السياسي والديني والثقافي . ولو صح ما يقوله كابلانسكي بشأن انتشار اللغة العبرانية في سائر تلك الانحاء التي يطيب له ضمها ، لوجب على التاريخ ان يذكر ذلك ويقدّر لنا طول المدة التي استغرقها التخاطب بالعبرانية . غير انه لا يقدم على عمل من هذا النوع . وجل ما يشغل بال كابلانسكي هو الا يجرؤ احد على « اتهامنا بولع الغزو والتوسع ، حين نبادر الى ضم هذه المناطق المتاخمة في صورة لاحقة الى رقعة فلسطين» (٢٣) وهكذا تضم مساحة فلسطين التي ينشدها كابلانسكي بغية المضي في اجراء حساباته وتقديراته المناطق التالية :

أ ــ الارض الواقعة غربي نهر الاردن (من بئر السبع الى الليطاني) ومساحتها ١٥٫٦٤٠ كلم مربعا .

ب ــ منطقة شرقي الاردن التي تشمل حوران حتى نهر ارنون ومساحتها ١٣٫٠٠٠ كلم مربع .

---

٢١ ــ المصدر نفسه .

٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٥١ .

ج ــ موآب والنقب حتى خط العرض ٣١ . ومساحتها حوالي ٢٥٠ر٥ كلم مربعا .

فتكون المساحة الاجمالية لفلسطين ٣٣٨٩٠ر٣٣ كلم مربعا (٢٤) .

ولا نخاله يقنع بذلك في السياق الطويل . اذ نجده يسارع الى التنبيه بأنه اسقط المناطق التالية من حساباته واستثناها من مساحة فلسطين :

(١) الشريط الساحلي الممتد من نهر الليطاني حتى صيدا ، اي حتى حدود متصرفية جبل لبنان المستقل .

(٢) الهضبات الواقعة « بين نهر اليرموك ودمشق » الى الشرق من جلعاد والتي يمر بها خط الحجاز الحديدي ، والبالغة مساحتها حوالي خمسة آلاف كلم مربع . فالخبراء يعتبرون منطقة الجولان هذه صالحة للزراعة .

(٣) المثلث الارضي الممتد بين الحدود التركية المصرية ووادي العريش (« حدود فلسطين القديمة») والذي يقع رأسه عند خليج العقبة. فقد قدّر تريتش مساحة القسم التركي وحده من الخليج المذكور والمثلث التابع له بحوالي ستة آلاف كلم مربع (٢٥) .

ومن الطريف ان كابلانسكي يلجأ الى اعتماد الحد الادنى بدلا من الحدود القصوى عن سابق تصور وتصميم . فهو يريد اثبات صحة تقديراته للكثافة السكانية على الحد الادنى ، علما منه بان الحد الاقصى يمكن تذليله بالقياس والمقارنة . ولا شك ان حصر المساحة على الشكل الذي يرتأيه اعلاه يساعد في تبيان ما يهدف اليه بأسلوب اكثر فعالية واقناعا ، اذ يمكنه ذلك من التشديد على ضآلة السكان حتى ضمن هذه الحدود الدنيا لفلسطين . فكيف بنا لو اخذنا الحدود القصوى بعين اعتبارنا ! وربما كان عمله هذا من قبيل التدليل على صحة القاعدة وصوابيتها عن طريق الاستثناء والشواذ .

ثم ينتقل الى تطبيق القواعد الثلاث التي ورد ذكرها في معرض الحديث عن تعيين القدرة الاستيعابية . فيؤكد ان فلسطين قد تستوعب في المستقبل ، وفي ظل علاقات اقتصادية اوروبية ، ما يتراوح بين ٣ ــ ٩

---

٢٤ ــ المصدر نفسه .

٢٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٥١ .

ملايين من السكان . فيحاول الرد على انتقادات البروفسور فيليبسون ودحض الحجج التي قدمها بخصوص كثافة السكان وطبيعة الارض ومعدل سقوط الامطار وسياسة الاراضي وتوزيع الاقطاعات الكبيرة والموقع الجغرافي واوضاع المواصلات . فيقتبس عن العالم الجغرافي اليزيه ركلوس ما يلي :

« يمكن القول بان المنطقة الواقعة بين الفرات وقناة السويس لها ما يبرر اعتبارها نقطة الوسط في تلك البقاع الى درجة معينة . ومن المسلّم به ان هذه المنطقة لا تضم نقطة الوسط الهندسية للقارات الثلاث : آسيه وافريقيه واوروبه . لكن حوض البحر المتوسط يضم ممرا (معبرا) يفوق في اهميته ذلك الممر الذي تشكل دمشق والقدس مرحلتيه (او قاعدتيه) » (٢٦) .

ويرى في الحرب الحاضرة الى حد ما نزاعا حول البحر المتوسط . كما ان آسيه الصغرى لا بد لها من الانضمام الى عملية انتاج المواد الغذائية والخام التي تحتاجها السوق العالمية . مما يكسب شواطىء سوريه وفلسطين ، بصفتها مدخل آسيه الغربية ، اهمية متزايدة . ومن المرجح ان فلسطين سوف تحتل مكانة ممتازة في المبادلات التجارية العالمية ، وتلعب في تجارة الترانزيت دورا مماثلا للدور الذي تلعبه هولنده في تبادل السلع بين اوروبه الوسطى واميركه (٢٧) .

ثم يتناول مسألة الخصب والانتاجية في ارض فلسطين ، بادئا بالقول ان عبارة « اللبن والعسل » يجب الا تفهم بمعناها الحرفي . ويستنجد بعدد من العلماء الجيولوجيين للاستئناس بآرائهم حول الموضوع. فيرفض قبول النظرة التي يعرضها الجيولوجي الاميركي ، الزوورث هنتغتون ، في كتابه عن « فلسطين وتحولاتها » (٢٨) بصدد تغيّر مناخ فلسطين منذ عصر ازدهارها ، مما يستتبع تحولا في خصب البلاد . ويؤكد تعذر تقديم البراهين على صحة هذه النظرة . ويصبح همه الآن اجراء مقارنة بين العدد السكاني الذي يمكن لفلسطين استيعابه وعدد سكانها في الماضي . فهو يزعم ان عدد اليهود زمن احتلالهم لفلسطين بلغ حوالي ٢١/٢ مليون (وفقا لما ورد في سفر العدد : ٢٦) . ويعتبر عددهم

---

٢٦ ـ نقلا عن Elisée Reclus — Nouvelle Géographie Universelle - IX L'Asié Antérieure. Syrie et Palestine. p. 689.

٢٧ ـ كابلانسكي ، المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

٢٨ ـ Ellsworth Huntington — Palestine and its Transformation.

ايام الملك داوود متراوحا بين ٥ ـ ٦ ملايين . ولا ينكر ما تتضمنه هـذه الارقام من « مبالغات شرقية » ، لكنه يستند الى عدد من الباحثين في القول بان السكان كانوا اكثر عددا واشد كثافة في تلك الايام . لذلـك نجده يقدر ما تستوعبه فلسطين كهدف قريب للتطورات الآتية متراوحا بين ٣ ـ ٥ ملايين ـ علما بما توصل اليه التقدم التقني في شتى الحقول والمرافق ومما سيغيّر وجه الارض بصورة جذرية رائعة .

ويمضي في محاولته لتعيين قدرة فلسطين الاستيعابية بالاستنـاد الى « نورم العمل » او الطاقة الانتاجيـة المبذولة في حقـل الاقتصاد الزراعي . ويعني « نورم العمل » هذا الحد الادنى من الرقعة الارضيـة الضرورية لاعالة اسرة تشتغل بالزراعة . فاللجوء الى هذه الطريقة الثانية يتمتع بقوة اقناع وحجة تفوق الطريقة الاولى المعتمدة. كما ان كابلانسكي يستقي الكثير من معلوماته واحصائياته عن فرانز اوبنهايمر، ويقارن الدور الذي لعبه « نورم العمل » في قضية الاصلاح الزراعي بروسيه . فـاذا كانت المناطق الريفية تملك قدرة استيعاب مليونين من السكان ، لارتفع عدد سكان المدن اكثر فاكثر . كما ان فلسطين لن تبقى بلدا تغلب عليـه الزراعة . وما علينا الا ان نتذكر موقعها على طرق المواصلات بمثابة جسر اقتصادي يصل القارات الثلاث ببعضها بعضا . ومن المرجح ان يرتفـع سيل السواح القادمين اليها لدرجة تجعل من السياحة احدى الصناعات والمرافق الحيوية للبـلاد ، بجمال طبيعتها وتاريخهـا . ويضرب مثـل سويسره ، حيث لا تعتمد الصناعة المتقدمة على امتلاك الفحم والثروات المعدنية . بينما فلسطين لا تملك سوى الطاقة المائية لنهر الاردن . وليس هناك ما يمنعها من استيراد وسائل الانتاج ومواده بتكاليف بخسة عـن طريق البحر .

وفي ختام بحثه يتناول الطريقة الثالثة لحساب القدرة الاستيعابية ، فيعتبرها امتدادا للطريقتين السالفتين . ويؤكد سهولة الوصول الى عدد يتراوح بين ٥ ـ ٦ ملايين من السكان ، اذ يصبح هذا العدد بمثابة الحد الادنى للممكن :

« واخيرا ليست فلسطين بلدا منعزلا، بل تؤلف جزءا من رقعةسوريه الاوسع ، حيث تأتي بلاد ما بين النهرين كأرض داخلية ملاصقة لها. يمكنها التوسع والامتداد صوب الشرق والشمال الشرقي ونقلحدود الحضارة بعيدا الى السهوب . فالمشكلة التي تواجهنا ليست صغر مساحة فلسطين ، بل هي مشكلة تتعلق بالتقنية والاقتصاد الزراعي،

واهم من ذلك ، هي مشكلة اجتماعية ، ان تضمن لنا تجربة الطرق الاستيطانية ايجاد قطاع سكاني كثيف يعمل في الزراعة ويعتمد على نفسه ، وان يتسنى لجماهير شعبنا المهاجرة ، وللطبقات التي لا تملك شيئا منها ، ترسيخ جذورها في تربة فلسطين » (٢٩) .

وهكذا تتضح لنا العلاقة الوثيقة بين الهجرة اليهودية والتوسع الصهيوني . كما لا يبدو على كابلانسكي انه يولي مسألة الحدود ذلك الاهتمام الذي تستحقه، بل يفترض حتمية اتساع تلك الحدود وامتدادها. فيصبح همه الاول والاخير اقناع المترددين بقدرة فلسطين على استيعاب ملايين من اليهود الذين لا يملكون شيئا . ولا تشغله مسألة تجريد سكان البلاد العرب من ملكيتهم ، لكي يتسنى لجماهيره اليهودية المجتاحة ان تتغلغل في اقتصاد فلسطين وترسخ جذورها في تربة بلاد ليست لها . ومما يسترعي الانتباه انه يتحاشى الوقوف عند مسألة المدة التي يستغرقها التطور المنشود او السرعة التي يحدث بها . ولا يريد الربط بصورة مسبقة ومباشرة بين مراحل التطور ومجالاته من جهة وحاجات الهجرة اليهودية الجماعية من جهة ثانية . لكنه يعترف بان الهجرة تشكل احدى الدوافع القوية للصهيونية والتي تحركها صوب فلسطين . ويعزف عن تحديد النسبة بين قوة جاذبية فلسطين من جهة والقوى التي تنفّر اليهود في البلدان التي يقيمون فيها من جهة ثانية ، تاركا الامر لسياسة الاستعمار القومي الصهيوني، كي تتدبره في ضوء مقتضياتها واتجاهاتها.

لذلك يختم مقاله بتنويع عبارة مقتبسة عن فيكتور آدلر على الشكل الآتي :

« الارض كالهواء — والمرء لا يحيا بالهواء وحده ، كما انه لا يحيا بدونه . والشعب اليهودي ليس في مقدوره بعد أن يحيا بفلسطين ، كما انه لا يحيا بدون ارض اسرائيل » (٣٠) .

ويبقى الموضوع الذي شغله طيلة السنوات اللاحقة مدار اهتمامه وابحاثه : فهو يعالج مشاكل الاستعمار الصهيوني بفلسطين بعد صدور وعد بلفور وتعيين حدود البلاد في ظل الانتداب البريطاني (١٩٢٣) . ويتفحص قدرة فلسطين الاستيعابية من جديد طالبا الى الصهيونيين الوقوف بوجه التهمة التي تعتبر توطين اليهود بفلسطين عملا يؤدي الى تجريد الفلاحين العرب من املاكهم وقمعهم في بلادهم ، وترى في

---

٢٩ — كابلانسكي ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
٣٠ — المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

الصهيونية حركة من حركات الفتح والغزو القوميين (٣١) . ومما يسترعي انتباهنا من خلال النظرة الفاحصة الجديدة التي يلقيها كابلانسكي بعد مضي سنوات حافلة بالاحداث والوقائع والاحتمالات قوله عام ١٩٣١ ان النقطة الحاسمة في اهميتها تتركز حول المسألة التالية : « اذا صح ان ترسيخ جذور جماهير المستوطنين اليهود بفلسطين لن يتم الا على حساب نزع ملكية الجماهير العربية واقتلاعها من جذورها ، فاننا نواجه معضلة سياسية ومشكلة اخلاقية لا يمكن حلها . ومن العبث النزاع حول القيمة التاريخية لفلسطين يهودية » (٣٢) غير ان كابلانسكي ينسب النظرة القائلة بان فلسطين كثيفة السكان بمقدار كاف ، وان توطين اليهود يشكل تهديدا اقتصاديا لمصالح سكانها العرب الاصليين الى تقرير بعثة شو (Shaw Commission) التي اعترفت اكثريتها بهذا الواقع . لذلك يلجأ الى مساحة فلسطين في رده على القائلين قول البعثة المذكورة . فيبدا بالتنبيه الى كون « الحدود السياسية الحالية لفلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني» لا تطابق الحدود التاريخية لارض اسرائيل الموعودة والمنشودة. ويتحاشى معالجة نقل الحدود الشمالية من نهر الليطاني الى رأس الناقورة لاسباب دبلوماسية وتكتيكية ، وخوفا من اثارة الحساسيات الفرنسية وغيرها . ثم يؤكد لنا ان الخسارة الفادحة تنحصر في ضم مرتفعات الجولان وهضبات حوران وجبل الدروز الى سوريه ، مما افقد فلسطين التي ينشدها رقعة تزيد مساحتها على سبعة آلاف كيلومترا مربعا بين نهر الاردن وجبل الدروز . فيصف تقسيم فلسطين وتجزئتها السياسية تحت ظل الانتداب بالعملية المصطنعة . ويخبرنا انه احتج في حينه (ونيابة عن الصهيونيين الاشتراكيين) من على منبر مؤتمر حزب العمال البريطاني في برايتون ضد ذلك التقسيم المصطنع . كما ان استثناء الاجزاء المشتهاة من مساحة فلسطين لا يعني الاحجام عن القيام بنشاط استعماري يهودي فيها . غير انه يرى من الانسب لبحثه القديم ــ الجديد حول مجالات فلسطين وامكاناتها الاقتصادية ان يقتصر على فلسطين السياسية الخاضعة حدودها للانتداب البريطاني. ولا يعني هذا الاقتصار المؤقت تخلي كابلانسكي عن المطالب والمطامع الاخرى ، « لاننا لا نفرق اذاك بين فلسطين الغربية الواقعة تحت الادارة البريطانية المباشرة ومنطقة شرقي الاردن الخاضعة لاتفاقية خاصة بين الحكومة المنتدبة والامير عبدالله.

٣١ ــ انظر كابلانسكي : **Realitäten und Möglichkeiten Palästinas, (Berlin 1931), s. 7 - 23.**

٣٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٧ .

وبغض النظر عن الاستثناءات التي صادقت عليها عصبة الامم (تمــوز ، يوليو ، ١٩٢٢) ، يخولنا صك الانتداب حــق وحــرية القيام بنشاط اقتصادي واستعماري في شرقي الاردن » (٣٣) . ويمضي في حديثه عن الاطماع التوسعية ، لكي يعرب عن رغبته في البقاء « ضمن حدود الممكن تحقيقه والوصول اليه حاليا » . فيرسم الحدود الشرقية لمنطقة شرقي الاردن على طول خط الحجاز الحديدي (عند الدرجة ٣٦ من خط الطول). ويقدر تعداد السكان في فلسطين كلها (Ganz Palästina) بـ ٢٠٠ر٠٠٠ر١ نسمة (عام ١٩٣٠ واستنادا الى ما ورد في الكتاب الاحصائي لفلسطين ، الصادر عن الكيرين هايسود في القدس ١٩٢٩) .

ثم ينتقل الى تكرار معزوفته السابقة عن القدرة الاستيعابية فيعلن ان المرحلة التالية في تطور الاقتصاد الزراعي لفلسطين تتطلب مضاعفــة سكانها من الفلاحين حتى يصبح عددهم مليوني مزارع . فيقتبس عن السير وليام بفريدج قوله ان حــدود التوسع الزراعي لا نهائية البعــد . ويمضي الى استعراض امكانيات فلسطين في حقلي الصناعة والتجارة مع العلم بان الموضوع يحتاج الى معالجة في حد ذاته ولا يمكن لنطــاق دراسته الحالية ان يلمّ بجوانبه الواسعة المتعددة . والحديث عن قدرة البلاد الامتصاصية والاستيعابية لا محل له من زاوية الصناعة والتجارة. فالمجال التجاري الحيوي لفلسطين تتضح معالمه من خلال موقعها الجغرافي بمثابة الباب الذي يدخل الى الشرق الادنى بأسره . والاسواق التي تعتبر مسرحا لتصريف المنتوجات والسلع تشمل جميع البلدان المجاورة حتى تركيه وايران. وبالاضافة الى الطاقة المائية وتوليد الكهرباء وتوسيع مرفأ حيفا وايصال خط الانابيب التي تنقل بترول الموصل ، واستغلال الثروات المعدنية للبحر الميت ، وتنشيط الصناعات الكيماوية ، والاستفادة مــن جمال البلاد الطبيعي وطابعها التاريخي في حقل السياحة ـ بالاضافة الى ما تقدم ، يكرر كابلانسكي حديثه السابق عن اعتبــار فلسطين بمثابــة « جسر ارضي » بين القارات الثلاث ويشدد على اهمية موقعها الممتاز في تجارة الترانزيت وكنقطة تقاطع للخطوط الحديدية مــن استامبول الى القاهرة ومن حيفا الى بغداد وطهران . ثم يصل الى نهاية مطافه اذ يقول:

« تكتسب فلسطين في الهجــرة اليهودية عنصرا بشريا له مقــدرة اقتصادية وسيكولوجية خاصة على استثمار هذه الامكانيات كلها» (٣٤).

---

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٩ .

٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

وترتفع تقديراته لمجموع سكان فلسطين حتى تتراوح بين ٤ ــ ٨ ملايين . لكنه يفتقد الى النقطة التي يمكن الارتكاز عليها في البت نهائيا بالمسألة . فلا نعرف اين سيقع حكم التاريخ ــ على حد قوله ــ بين هذين الطرفين المتباعدين . وهل ستشير نتيجة القوى المجتمعية الفاعلة في البلاد صوب متوسط الفرق بين الطرفين ــ اي الى ٦ ملايين ــ ام تؤدي الى تخفيض هذا المعدل .

غير ان ما يرمي اليه من وراء ذلك كله ليس سوى التأكيد بان فلسطين الانتداب تقدر على استيعاب ملايين اضافية من الاناس العاملين، ويمكنها اعالة سكان يبلغ تعدادهم اربعة او خمسة اضعاف سكانها الحاليين . ومن اعجب الاجتهادات الصهيونية على لسان هذا الاشتراكي الفريد تفسيره الخاص لمبدأ حق تقرير المصير . فهو يتساءل عن حق سكان بلد ضئيل العدد ومتخلف في ملكية بلادهم المطلقة ، ويستغرب مناداة البعض بمبدأ تقرير المصير على هذه الصورة التي تؤدي الى اغلاق ابواب البلدان المتخلفة على ضآلة سكانها بوجه اولئك الباحثين عن عمل ولا ارض لهم ، ولا يريدون سوى وضع عملهم في خدمتها واغنائها . ثم يعتبر هذا « التقييد المبتذل » محاولة لسد ابواب فلسطين بوجه الهجرة اليهودية ويعترف فجأة بان السبب يرجع الى كون هذه الهجرة تعمل على تغيير الطابع القومي للبلاد . لكنه يريد الوصول الى التطمين العجيب بان سكان فلسطين العرب ليسوا عرضة للتهديد والاغتصاب . ويتحدث عن نفسه باعتباره من اولئك « الاشتراكيين والعالميين » الذين يصرحون بضمير مرتاح ومطمئن ان النشاط الصهيوني بفلسطين لا يشكل خطرا يتهدد شعبها العربي او يهدف الى نزع ملكيته عنها . ومن الطرائف التي يتوسلها من خلال محاولته اعطاء تعريف جديد لاهداف الصهيونية الاخيرة اقتباسه العبارة التالية عن المفكر الاشتراكي التحريفي ادوارد برنشتاين : « ان ما يدعوه المرء عامة بهدف الاشتراكية هو لا شيء ، والحركة هي كل شيء ». فيترجم هذه العبارة الى لغته الصهيونية الاشتراكية الهادفة الى التمويه لتصبح على يديه :

« ان ما يحدد عادة بانه الهدف الاخير للصهيونية هو لا شيء ، والمحتوى الاقتصادي للحركة ونشاطها العمراني في فلسطين هو كل شيء » (٣٥) .

---

٣٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

ومن هذه الزاوية المبتكرة يجدر بنا النظر الى مبـدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها !

ويختم كتابه بتحليل مفصل لتقرير هوب ــ سمبسون الذي قـام باستقصاء امكانات الهجرة والاستيطان بفلسطين بناء على طلب الحكومة البريطانية (في ايار ، مايو ، ١٩٣٠) وبعد انفجار المقاومـة العربيـة ووقوفها بوجه التوسع الصهيوني في انتفاضة عام ١٩٢٩ . لكنه يصر دون تردد على ان الانتداب على فلسطين يعني اتاحة المجال امام تزاوج بين العمل اليهودي ومصادر الانتاج في ارض اسرائيل ، لكي يتأمن المزيد من الاتساع والرخاء . ويكرر حديثه عن اعتبار فلسطين الانتداب وشرقي الاردن كيانا واحدا لا يتجزأ من النواحي الاقتصادية والجغرافية وغيرها . اذ لا يمكن لشرقي الاردن ان تعيش وتوجـد دون اتصـال مباشر بالبحـر الابيض المتوسط . ولولا المساعدات المادية التي تنالهـا مـن حكومة فلسطين والخزانة البريطانية لاعلنت افلاسها المالي . فالارض الواقعة عبر الاردن الى الشرق هي الخلفية الطبيعية لفلسطين . كما ان نهر الاردن لا يشكل حدا اقتصاديا ، الا بمقدار ما يشكل ذلك نهر التيمز او السين او الالبى . واذا كان عرب شرقي الاردن يتمتعون بحقوقهم الكاملة في فلسطين مـن حيث المساواة في حرية الاستيطان والاقامة والاقتصاد ، ولا يتوانون عن الاستفادة من تلك الحقوق ، فما الذي يمنع انتقال الفلاحين الفلسطينيين ــ الذين جردوا من اراضيهم على يد الصندوق القومي اليهودي والصندوق التأسيسي لفلسطين ــ الى شرقي الاردن لحراثة تلك الاراضي الواسعـة الشاسعة وزراعتها !

هذا هو المنطق الذي يتوسله كابلانسكي ، بعد اعترافـه الضمني بحصول التجريد من الملكية ومنع الفلاحين العرب من مزاولة اعمالهم في الاراضي التي انتقلت عن طريق صفقات البيـع والشراء الى سيطـرة الصهيونيين التي تجسدت في الصندوق القومـي اليهودي وصنـدوق تأسيس فلسطين . وما الحديث عن القدرة الاستيعابية واللجوء الى شتى الجداول والمقارنات الاحصائية سوى تغطية لما تضمره الصهيونية التوسعية من نوايا ومطامع . اما قوله « نحن لا نشارك السير سمبسون رأيه » في تقييد الهجرة ووضع حد لتجريد الفلاح الفلسطيني العربي من حقه في العمل على الارض التي طالما عاش من خيراتها كفافا . فلا يمنعه من المطالبة بالمعاملة بالمثل فيما يتعلق بفتح ابواب شرقي الاردن امـام الاستعمـار الصهيوني ومشاريع الاستيطان الزراعي . وكأنه يريد اعتبار العرب غرباء

في بلادهم ، فيطيب له التغني بالدول الاعضاء في عصبة الامم وبان صك الانتداب ساري المفعول على فلسطين الغربية وشرقي الاردن . ويرفع صوته محتجا على التجزئة المصطنعة التي تمثلت في فصل رقعة شرقي الاردن ، على ضآلة سكانها وفائض اراضيها ، عن فلسطين . بينما لا يدور بخلده ان التجزئة المصطنعة قد تمت لصالح الصهيونية آنذاك ، على الرغم من خيبة الامل التي اعترت زعماء الحركة بخصوص الحدود التي ينشدونها . وان الكيان الفلسطيني الذي اوجده الانتداب البريطاني جاء بمثابة اقتطاع لسوريه الجنوبية عن جسم الكيان الام والاوسع . كما ان شرقي الاردن كانت جزءا يتبع ولاية الشام وعاصمتها دمشق في ظل التقسيم الاداري العثماني . والغالبية المطلقة من سكان البلاد العرب والاصليين لم ترض عن التجزئة التي تمت بمعزل عن ارادتها ومنأى عن مطالبها الحقة ، والتي اقتسمتها الاتفاقيات السرية بين الدول الحليفة باعتبارها مناطق نفوذ او احتكارات لمصالحها .

ومن يتتبع تاريخ المسألة الفلسطينية في ظل الانتداب البريطاني وبعد قيام الدولة الصهيونية تطالعه النغمة المتكررة لمنطق كابلانسكي (٣٦) في الحديث عن القدرة الاستيعابية لفلسطين وتظهر له « المرونة » المتعمدة في تقديم الحدود وتأخيرها حسب الظرف الملائم . فلا يسع من يستعرض طبيعة النشاط الصهيوني خلال الخمسين عاما التي مرت منذ صدور وعد بلفور الا الاقرار بان منطق كابلانسكي وامثاله لم يكن سوى ذريعة لاستقدام المزيد من المهاجرين اليهود الى البلاد بشتى الوسائل والسبل ، المشروعة منها وغير المشروعة . وهل من سبيل الى انكار بطلان المنطق الذرائعي ، بعد ان تحول على صعيد الواقع العملي الى سيطرة فعلية على مرافق البلاد واغتصاب ارضها وحرمان الفلاح العربي من حقه في العمل ، بينما تصر المؤسسات الصهيونية على استخدام اليد العاملة اليهودية وحدها ، فتجد شتى المبررات لتهجير موجات جديدة الى الارض التي تعد بها وهي ليست ملكا لها . كما ان التواطؤ بين المالك الاقطاعي المتغيب خارج فلسطين والرأسمال الصهيوني الهادف الى التغلغل والسيطرة قد تم على حساب مصلحة الفلاح الفلسطيني . وازداد معدل القدرة الاستيعابية

---

٣٦ — ورد في **The Standard Jewish Encyclopedia** ان كابلانسكي كان ميالا نحو الاشتراكية اليسارية المتطرفة . وقد ترك حزب الماباي في سنواته الاخيرة وأيد المابام . فتأمل .

بازدياد تكالب الاقطاعي المتغيب عن ارضه على الاستفادة من المضاربة التي اصطنعها الصهيونيون ببيع تلك الارض لقاء اسعار مرتفعة ومغرية ، دون الالتفات الى مصير الفلاح العربي الذي استنبت الارض وقدم للسيد الغائب خيراتها ومحاصيلها ، لكي يأتي « الاسياد الجدد » ويطردونه منها. وليس هنا مجال البحث في الدور الذي ساهم به هذا الافقار للفلاح ، وحرمانه من العمل في الارض التي طالما حرثها واستدر خيراتها، في قيام الحركة العمالية وبلورتها على يد مثقفي البورجوازية الصغيرة في المدن والارياف . كما انه ليس من السهل الجزم بأهلية البورجوازية العربية المتمركزة في المدن للقيام بالمهام الملقاة على عاتقها خلال تلك المرحلة التاريخية . ومن الانصاف ان نؤثر ترك الموضوع عند هذه النقطة، لننتقل الى متابعة البحث في حدود « الوطن القومي اليهودي » كما حاول الحاخام صموئيل هيلل ايزاكس ان يرسمها تحت شعار ما اسماه بـ « الحدود الصحيحة (او الحقيقية) للارض المقدسة » (١٩١٧) .

الحاخام ايزاكس واسرائيل الكبرى

تعرّفنا فيما سبق على المطامع الاقليمية والتوسعية التي الصقها الصهيونيون بفلسطين اليهودية وعبّرت عنها المنشورات التي صدرت عنهم خلال فترة الحرب العالمية الاولى وقبل صدور وعد بلفور . فطالعتنا آراء هربرت سايدبوثام في تشديدها على النواحي العسكرية والاستراتيجية، بالاضافة الى متطلبات الامن والصمود الاقتصادي . وجاءت ابحاث نحميا دي ليمي وسولومون كابلانسكي لتستوفي المقومات الاقتصادية في تبريرها لقدرة فلسطين الاقتصادية معاستحضار لحدود البلاد التاريخية. لذلك يصح النظر الى كتاب الحاخام صموئيل ايزاكس عن « الحدود الصحيحة (او الحقة) للارض المقدسة » (١) بمثابة التعبير الرسمي عن

---

١ — Samuel Hillel Isaacs — The True Boundaries of The Holy Land (Chicago, 1917). والكتاب من تحرير ابنة الحاخام ، جانيت ايزاكس ديفيز ، وقد نشر بعد وفاته . كما اعترفت الناشرة في مقدمة الطبعة الاولى لكتاب والدها بالتشجيع الذي حصلت عليه من امثال البروفسور بنزنغر (Benzinger) مؤلف مقالة « فلسطين » في الموسوعة اليهودية ، والبروفسور لويس غنزبرغ من معهد اللاهوت اليهودي في اميركه (نيويورك) ، بالاضافة الى ايزنشتاين ، رئيس تحرير الموسوعة العبرانية وناشرها . والبروفسور ساليزبوري ، رئيس دائرة الجغرافية في جامعة شيكاغو .
اما مؤلف الكتاب ، الحاخام صموئيل هيلل ايزاكس ، فهو بولوني المولد والنشأة (١٨٢٥) . هاجر الى نيويورك ١٨٤٧ . وترأس معهد التلمود — التوراة في نيويورك ١٨٨٦ و ١٨٨٧ . اشتغل في جمع التقاويم التلمودية وترتيبها فذاع صيته كصانع للتقاويم وانصرف الى اصطناع تقويم دائم، بالاضافة الىالتقاويم العلمانية والاكليريكية.
(التتمة على الصفحة التالية)

المعايير التاريخية والدينية لدى الجناح الارثوذكسي المتدين داخل الحركة الصهيونية . ولا بد من استكمال عناصر الصورة التي رسمتها الصهيونية آنذاك لاسرائيل الكبرى وحدودها في ضوء ما اسمته بالعوامل والمقاييس الاستراتيجية والاقتصادية والتاريخية المستندة الى نصوص دينية معينة .

فالحدود التي يختارها ايزاكس للارض المقدسة هي تلك الحدود التي يرد وصفها في الاصحاح ٣٤ من سفر العدد : ١ ــ ١٢ من العهد القديم . والغرض الذي يرمي اليه من وراء بحثه في « الحدود الحقة » ليس الا الفصل في النظريات المتنوعة والمتباينة حول مواقع تلك الحدود والوصول الى تعيين ما يعتبره بمثابة الحدود التاريخية الصحيحة لاسرائيل .

وتقول « النبذة عن حياة المؤلف » في مطلع الكتاب بأن اصدقاء الحاخام تمكنوا من اقناعه بعد انعقاد المؤتمر الاول للسلام في لاهاي (١٨٩٩) ان يضع في متناول الباحثين في الكتاب المقدس من الناطقين باللغةالانجليزية الاكتشافات التي قام بها حول الحدود الصحيحة للارض المقدسة (٢) . كما ان التوطئة التي تسبق مقدمة الكتاب يرجع تاريخها الى عام ١٩٠٦ ــ اي قبل انعقاد مؤتمر لاهاي الدولي الثاني بعام واحد (١٩٠٧) . وقد تحدث المؤلف في تلك التوطئة عن نبوءة ارميا (٣٣ : ٢٣ ــ ٢٦) معتبرا اياها بمثابة النذير لمضطهدي اسرائيل . ثم اشار الى كونها احدى النبوءات التي لا حصر لها ، اذ وجدها تعد البقية الباقية من اسرائيل بمستقبل باهر يشهد رجوعها الى ربها وعودتها الى ارضه المقدسة ، بالاضافة الى السلام والسعادة الجامعة التي تسود العالم في المستقبل . وعلى الرغم من اعترافه بأن تحقيق هذه النبوءات لم تظهر علائمه في الافق بعد ، فانه يجد في العلامات الاستثنائية للعصر دلائل تشجعه على تبرير حدسه باحتمال حصول رجوع جزئي في مستقبل قريب (٣) . اما الدلائل التي تبشره

اهتم بجغرافية فلسطين ونشر العديد من مقالاته حول التقويم العبري وتفسير بعض فقرات التلمود في مجلة عبرانية شهرية (Torah M'Zion) كانت تصدر بمدينة القدس (١٩٠١ ــ ١٩٠٨) . وتوفي في اوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ .

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٣ ــ ١٤ . تشير مقدمة الطبعة الثانية (١٩١٩) الى كون « فلسطين » مرادفة لعبارة « الارض المقدسة » و « الارض الموعودة » . (انظر ص 8a) .

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦ .

باقتراب الموعد فقد اختار منها ما يلي : (أ) ـ مؤتمرات السلام الدولية ، والتي قد تتخطى مرحلتها التجريبية الحالية وتنتقل الى تحقيق غرضها على الصعيد العملي . (ب) ـ الروح السائدة ، في تحريكها للتغييرات من السلطة الفردية المطلقة والاستبدادية الى الحكم الدستوري . فحين تتوطد دعائم هاتين الحركتين ـ حركةالسلام العالمي والحكومةالدستورية ـ يتوقع الحاخام سيادة العدالة والحرية والتساهل . (ج) ـ الاهتمام المتزايد والناشط بالارض المقدسة ، تمثله وتشهد عليه الاستكشافات الاخيرة هناك . اذ يعود الفضل اليها في « فتح آفاق البلاد امام ناظرينا واقامة المجال امامنا لاقتفاء آثار حدودها التي مضى عليها حوالي الفي سنة وهي دفينة وخبيئة » (٤) .

غير ان الحاخام ايزاكس لا يكتفي بالدلائل الثلاثة التي اوردها لتبرير النبوءة المتوقعة التحقيق . بل يضيف اليها دليله الرابع على صورة « المسألة اليهودية » التي ازدادت خطورتها ، و « الحركة الصهيونية » التي اصبحت قوة لا يستهان بها وما زالت في نمو مستمر . ويبدو له من خلال الاصل المعاصر لهذه الدلائل ان القصد منها هو التحامها واندماجها لتعطي نتائج عظيمة وحسنة . فيسارع الى التعبير عن امنية الصهيونيين التي سبق لماكس نوردو ان تحدث عنها (انظر الفصل المتعلق بذلك) : الاعتراف بالصهيونيين كهيئة تمثل يهود العالم والسماح لهم بعرض المسألة اليهودية والمطالب التي يريدونها امام مؤتمر صلح في المستقبل ، على امل التوصل الى حل يرضيهم . ومن الطريف ان الحاخام ايزاكس يتوقع للمؤتمر المنشود ان يجمع كبار عقول العالم بدافع النظر في المشاكل الناشبة بين الامم وحلها على اساس « الحق والعدل » ، وليس « بقوة السلاح والقتال » . فهو يعقد آماله على مؤتمر من هذا النوع ويرجو منه النظر بعين العطف الى ما يدعوه بـ « مطالب اسرائيل المحقة » او « العادلة » . بالاضافة الى ايجاد السبل والوسائل الكفيلة بارجاع اليهود الى « ارضهم » وفقا لشروط « ترضي جميع المعنيين » . وسواء جاء الخلاص الذي يتحدث عنه على الصورة التي يتنبأ بها ام عن طريق احداث اضافية وخطيرة يمكن حصولها ، وسواء جاء عاجلا ام آجلا ، فهو لا يقلل في الحالين من اهمية معرفة « حدود الرقعة التي سوف تطالب بها اسرائيل » (٥) .

ولقد تبدّت لنا تلك الاهمية التي علقها الصهيونيون منذ اندلاع

---

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٦ .
٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ .

نيران الحرب العالمية الاولى على تحديد الرقعة التي يطمعون بالاستيلاء عليها في اجلى مظاهرها . واتجهت انظارهم ، بعد التأكد من صدق النوايا البريطانية ، نحو يهود اميركه بغية حث المنظمات الصهيونية هناك على مضاعفة نشاطاتها وتنسيق جهودها لكسب الرأي العام اليهودي الاميركي لصالح الصهيونية ، وحمله على الوقوف بجانب الدول الحليفة ضد قوات الدول المركزية « المعادية » . ففي الثلاثين من آب (اغسطس) ١٩١٤ تألفت ــ كما مرّ معنا في فصل سابق ــ « اللجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة » برئاسة القاضي الصهيوني لويس براندیس . وسعت اللجنة المذكورة الى اثارة اهتمام حكومة الولايات المتحدة الاميركية بالصهيونية من خلال حملها على تقديم المساعدات لليهود المقيمين بفلسطين. كما انصرفت الى الهاب خيال الجماهير اليهودية الاميركية وتجنيد خدمات الشخصيات البارزة من طراز القاضيين فليكس فرانكفورتر وجوليان ماك (٦) . وانضم الى براندیس لفیف من المساعدين امثال ريتشارد غوتهايل وجاكوب دي هاس (كلاهما بريطاني المولد) والحاخام ستيفن وايز . بينما ادّى الخلاف بينه وبين يهوذا ماغنس ، الذي كان شديد الارتياب بالامبريالية البريطانية على ما يبدو ، الى استقالة ماغنس من اللجنة في ايلول (سبتمبر) ١٩١٥ . وفي نهاية ١٩١٥ بدأ الزعماء الصهيونيون الاميركيون استعداداتهم لتنظيم « مؤتمر يهودي اميركي » يمثل مختلف الاتجاهات الصهيونية ويحاول الجمع فيما بينها . واعلن براندیس ، على الرغم من تعاطفه الشخصي مع الحلفاء وكرهه الشديد للروح العسكرية البروسية ، بأن اللجنة التحضيرية للمؤتمر تتمسك بالحياد الشديد ازاء الامم المتحاربة(٧) . فكان على الزعماء المؤيدين للدول الحليفة الوقوف بوجه الفئة اليهودية الاميركية الموالية لالمانيه بحكم اصلها ومنشأها . بينما اتجه اهتمام الغالبية الساحقة من اليهود الاميركيين نحو الحرب التي تدور في الجبهة الشرقية بين المانيه وروسيه . ففي عام ١٩١٦ ، مثلا ، نشرت « اللجنة اليهودية الاميركية » بنيويورك كتابا يتضمن شتى المعلومات عن « اليهود في جبهة الحرب الشرقية » (٨) واكدت في مقدمته بأن الحرب الحاضرة قد برهنت

---

٦ ــ انظر شتاين ــ **المصدر السابق** ، ص ١٩١ ــ ١٩٢ .

٧ ــ المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

٨ ــ **The Jews in the Eastern War Zone,** published by the American Jewish Committee, (New York, 1916).

(التتمة على الصفحة التالية)

من جديد على الحقيقة الكبرى ، في زمن النزاع والسلم على السواء ، بكون اليهود يشكلون مصدر قوة بالغ القيمة والاهمية لدى تلك الامم التي تسارع الى قبولهم كجزء لا يتجزأ من صلب شعبها وتسمح لهم بالتطور الحر (٩) . كما خص الكتاب الذي تبلغ صفحاته ١٢٠ ، فلسطين ويهودها بست صفحات ، وتحدث فيها عن التقرير الذي رفعه موريس فرتهايم (٢١ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٤) بعد ان عهد اليه السفير الاميركي في تركيه ــ هنري مورغنتاو ــ (١٩١٣ ــ ١٩١٦) بتوزيع مبلغ خمسين ألف دولار تبرع بها اليهود الاميركيون لفلسطين . وذكر ان « لجنة الاغاثة اليهودية الاميركية » و « اللجنة الصهيونية المؤقتة » تمكنتا في آذار (مارس) ١٩١٥ وبفضل مساعدة الحكومة الاميركية من ارسال سفينة محملة بالمؤن والاغذية الى يهود فلسطين (١٠) .

تأسست « اللجنة اليهودية الاميركية » عام ١٩٠٦ « لمنع التعدي على الحقوق المدنية والدينية لليهود في أي جزء من العالم » و « لتأمين المساواة في الفرص الاقتصادية والاجتماعية والتربوية » . وبدأت عام ١٩١١ حركة ترمي الى الغاء المعاهدة التجارية الروسية الاميركية التي جرى ابرامها ١٨٣٢ ، بحجة التمييز الروسي ضد اليهود حاملي جوازات سفر اميركية . ثم انضمت الى المنظمة الصهيونية الاميركية في مطلع الحرب ، وترأسها عام ١٩١٦ لويس مارشال ، بينما كان جوليان ماك احد نوابه ، وتسلم سايروس آدلر رئاسة لجنتها التنفيذية . انظر **(Standard Jewish Encyclopedia)**.

٩ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥ .

وقد اورد التقرير المرفوع من « لجنة مساعدة اللاجئين اليهود في الاسكندرية » عدد اليهود الذين التجأوا الى مصر من سوريه وفلسطين عام ١٩١٤ بـ ١١ر٢٧٧ نسمة . ونشر التقرير المذكور ضمن التقارير الاخرى الواردة الى لجنة التوزيع المشتركة لصناديق اغاثة ضحايا الحرب اليهود ، في نيويورك ، ١٩١٦ . انظر **Fannie Fern Andrews : The Holy Land Under Mandate, Vol. 1, (Boston - New York, 1931), p. 323 - 4.**

وجند الصهيونيون من بين هؤلاء اللاجئين وحدة نقل عملت في الجيش البريطاني تحت امرة الكولونيل باترسون في جبهة غاليبولي وضمت حوالي ٥٠٠ متطوع يهودي . كما عرفت الوحدة المذكورة بـ « فرقة بغّالة صهيون » **(Zion Mule Corps)** .

١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

ولم يكن كابلانسكي وشماريا ليفين وآرونسون وحدهم في التوجه صوب اليهود الاميركيين وبعث الحماس في نفوس براندیس ومعاونيه . بل لحق بهم في النصف الاول من ١٩١٥ عضوان آخران في حركة « عمال صهيون » : دافيد بن جوريون واسحق بن زفي ، بعد ان قامت السلطات العثمانية بطردهما من فلسطين بناء على المعلومات التي وردتها من المخابرات الالمانية بشأن نشاطهما المعادي لتركيه والعطف الذي ابدته الاوساط الصهيونية في الغرب على معسكر الدول الحليفة . وعلى الرغم مما كتبه بن جوريون في اولى مقالاته التي نشرها في اميركه ـ : « سوف نكسب ارضنا (« ارض اسرائيل ») بالعمل ورأس المال، بالثقافة والصمت »(١١) ـ فقد سارع مع رفيقه الملازم له كظله الى تأييد فكرة انشاء الفرقة اليهودية (Jewish Legion) ، التي تزعّم الدعوة لها فلاديمير جابوتنسكي منذ اواخر عام ١٩١٤ واتفق آنذاك مع الضابط الروسي اليهودي جوزيف ترومبلدور والمهندس الزراعي أتنغر وغيرهما على تأليف لجنة تسعى لاقناع الجنرال ماكسويل ، قائد القوة البريطانية في مصر ، بفتح باب التطوع امام اليهود الذين لجأوا الى الاسكندرية هربا من الاتراك (١٢) . وسوف يرد

---

١١ ـ انظر Maurice Edelman — **Ben Gurion. A Political Biography.** (London, 1964), p. 61. وراجع ايضا المقالة الاولى من كتاب بن جوريون «بعث اسرائيل ومصيرها» وعنوانها « اكتساب وطن» . «Earning a Homeland». (New York, September 1915): David Ben Gurion — **Rebirth and Destiny of Israel,** (Philosophical Library, New York, 1954), pp. 3 - 6.

١٢ ـ تم اجتماع اعضاء اللجنة التحضيرية لتأليف الفرقة اليهودية مساء الثالث والعشرين من شباط (فبراير) ١٩١٥ . وبدأ جمع المتطوعين مباشرة ، فبلغوا المائتين تقريبا خلال اسبوع واحد .

انظر : جوزيف شيختمان : قصة فلاديمير جابوتنسكي **Rebel and Statesman** — The Eearly Years, (New York, 1956), p. 204.

وفي العام التالي اصدر الكولونيل ج. هـ. باترسون كتابه « مع الصهيونيين في غاليبولي » وتحدث فيه عن فرقة البغالة اليهودية (Zion Mule Corps) التي قامت بنقل المؤن والذخيرة الى جبهة غاليبولي ، وكانت تحت امرته وبمساعدة الضابط السابق في الجيش الروسي القيصري جوزيف ترومبلدور . انظر :

Col. J. H. Patterson — **With the Zionists in Gallipoli»,** (London 1916).

الحديث عن الفرقة اليهودية بالتفصيل اثناء معالجة الدور الذي قام به جابوتنسكي .

وعلى الرغم من اقدام المكتب الصهيوني الرئيسي في كوبنهاغن على استنكار مشروع « الفرقة اليهودية » ، فقد سارع بن جوريون وبن زفي الى الوقوف في طليعة المتطوعين . كما انهما حاولا اقناع المترددين ودعاة الوسائل السلمية في صفوف الصهيونيين العماليين بالانضمام الى الجيش الصهيوني الذي ينوي الاستيلاء على فلسطين بالقوة تحت ستار طرد الاتراك منها ومن خلال التعاون مع الجيوش الحليفة ، فيما لو تقرر الزحف على فلسطين .

ومما يسترعي الانتباه ان مقالة بن جوريون آنفة الذكر عن «اكتساب وطن» (ايلول ، سبتمبر، ١٩١٥) تشير الى مؤتمر الصلح الذي « سوف يستجيب لندائنا العادل ويحقق توسلاتنا » . لكن مؤلفها ليس متأكدا ان ذلك يكفي لضمان تحوّل البلاد حتى تصبح « ارضنا » :

« نحن لا نطالب بأرض اسرائيل لاجل بسط سيطرتنا على عربها ، ولا نبحث عن سوق لبيع السلع اليهودية المنتجة في الدياسبورا . بل نبحث عن وطن .... والوطن لا يعطى او يمنح كهدية ، ولا يكتسب بالامتيازات او العقود السياسية، انه لا يشترى بالذهب، او يستولى عليه بالقوة . كلا ، بل هو يصنع بعرق الجبين » (١٣) .

وفي عام ١٩١٧ تنضج احدى ثمرات التعاون مع بن زفي على شاكلة كتاب موسوعي يعالج جغرافية فلسطين وتاريخها الحديث . فقد اصدر الاثنان كتابهما عن « ارض اسرائيل » (١٤) بغية المساهمة في كسب مزيد من الاميركيين لصالح المخططات الصهيونية ، ومن خلال الافراط في التغني بنشاط « الرواد البنّائين » . واعتبر فريش فاسر ــ رعنان كتاب بن غوريون وبن زفي من « الاعمال الرائدة » في الحقل المذكور ، بالاضافة الى الفصل الذي حواه عن حدود فلسطين المستقبل (١٥) . كما يبدو أن مجلة « فلسطين » الصادرة عن « لجنة فلسطين البريطانية » قد نشرت فيما بعد (حزيران ، يونيو ، ١٩١٨) مقالة بقلم الرجلين تحدثا فيها عن حدود الدولة اليهودية المنشودة ورسماها على الصورة التالية :

---

١٣ ــ انظر بن جوريون ــ « بعث اسرائيل ومصيرها » ، ص ٤ .

١٤ ــ **Eretz Israel.** (New York, 1917).

١٥ ــ فريش فاسر ــ رعنان ، **المصدر السابق** ، ص ٨٥ .

شمالا ــ جبل لبنان

شرقا ــ بادية الشام (الصحراء السورية)

جنوبا ــ شبه جزيرة سيناء

وغربا ــ البحر الابيض المتوسط .

وقد نقل فريش فاسر ــ رعنان عن مجلة « فلسطين » المذكورة اعلاه بعض الاعتبارات الهامة التي اوردها سايدبوثام وسائر الزملاء في اللجنة حول الحدود المرجوة لاسرائيل الكبرى ، مما يؤيد قوله السابق عن اهتمام المجلة الوثيق بمسألة الحدود طيلة الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٧ ــ ١٩٢١ . غير انه حاول الفصل بين مطالب الجناح الارثوذكسي المتدين داخل الحركة الصهيونية وبين ما اعتبره زعماء الحركة العلمانيين كافيا للوطن القومي اليهودي . فزعم ان المتدينين تطلعوا الى الحدود المثالية التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس : « من نهر مصر الى نهر الفرات » . بينما طالب العلمانيون بالرقعة التاريخية الاصغر : « من دان الى بئر السبع » . ولم يكتفوا بذلك ، بل اضافوا الى هذه الرقعة « تلك المناطق التي تؤمن للبلاد مرتكزات اقتصاد عصري معافى ومقومات الدفاع العسكري » (١٦) فحاولوا ضم مساحات صحراوية في الجنوب والشرق باعتبارها منطلقا لغزوات البلاد في الماضي . وحملتهم اعتبارات الامن على التطلع صوب وادي البقاع شمالا ، لانه يشكل مدخلا الى فلسطين بين منحدرات جبال لبنان وجبل حرمون . ثم « أملت » عليهم الحاجات العسكرية ضم حوران ووادي اليرموك لانها سهلت في الماضي دخول الغزاة وتوغلهم في سهول فلسطين الشمالية (سهل عكا ، مرج ابن عامر) ، مما ادى الى شطر الدولة اليهودية الى نصفين وفصل الجليل عن منطقة اليهودية (١٧) . بينما بدت لهم السيطرة على خط الحجاز الحديدي بين

---

١٦ ــ انظر المصدر نفسه ، ص ٨٧ ، نقلا عن مجلة « فلسطين » ١٥ شباط (فبراير) ١٩١٧ .

١٧ ــ المصدر نفسه ، انظر ايضا « فلسطين » ــ اعداد شباط ــ تموز (فبراير ــ يوليو) ١٩١٧ .

مما يجدر ذكره بصدد كتاب فريش فاسر ــ رعنان اغفاله للدور الذي لعبه سايدبوثام في تنبيه المنظمة الصهيونية الى مسائل الحدود من الزاوية الاستراتيجية والتاريخية والاقتصادية

(التتمة على الصفحة التالية)

درعا ومعان وكأنها تتيح امام الدولة اليهودية في المستقبل مجال تموين هذه « الجبهة الشرقية » بكاملها . وحين تذكروا الملايين من اليهود الذين سوف يجري تهجيرهم من بلدانهم الى فلسطين ، وفكروا بقدرة دولتهم الاقتصادية المنشودة على العيش والبقاء ، وضعوا الخطط التي تؤمن لهم حدودا تشمل منابع نهر الاردن ، ونهر الليطاني ، وثلوج حرمون ، واليرموك وروافده والجبّوك . وبدأوا يفكرون بتوليد الطاقة الهيدرو ــ كهربائية عن طريق اقامة مساقط وشلالات لمياه الليطاني واليرموك (١٨) . كما تلفتوا الى ارض جلعاد وصحراء النقب وغيرها من مناطق شرقي الاردن.

وليس من السهل على الباحث في مطالب العلمانيين والمتدينين رؤية الفروقات الشاسعة التي تبرر الفصل بينهما . اذ تقبع الاعتبارات الدينية في عقل الصهيونية الباطن ــ لو جاز لنا هذا التعبير ، وتأتي في الواقع مكمّلة للنوايا العلمانية في الحركة ومتممة لها . كما يصح اعتبار الحدود التي تمليها البواعث والاجتهادات والتفسيرات الدينية بمثابة الحدود المثالية لارض الموعد . مع العلم بأن « ملك بني اسرائيل زمن داوود وسليمان لم يتوطد عند هذه الاطراف المتباعدة ، كما لم يبسط عليها نفوذه الا لفترة قصيرة جدا في عمر التاريخ القديم . ولنا في التمييز الذي يقيمه الحاخام الصهيوني الاميركي ستيفن وايز بين « الصهيونية القصوى » (Maximum Zionism) و « الصهيونية الدنيا » (Minimum Zionism)

التوسعية . فهو يكتفي باعتباره داعية متحمسا لخطة كسب الحرب في الشرق وبالتالي احد المقربين جدا من لويد جورج (انظر المصدر نفسه ، ص ٨٦) . ويرد ذكره مرة ثانية عند الاشارة الى مقال افتتاحي شديد اللهجة نشرته صحيفة التايمز اللندنية في ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ وطالب كاتبه فيه بحدود ملائمة للوطن القومي . فيرجح فريش فاسر ــ رعنان ان سايدبوثام هو كاتب المقال (المصدر نفسه ، ص ١١٦) . ومن المستغرب ان قائمة المصادر والمراجع في كتاب من طراز « حدود أمة » لا تأتي على ذكر الكتابين اللذين ضمنهما سايدبوثام آراءه ومشروعاته بخصوص الدولة اليهودية المتحالفة مع الاستعمار البريطاني . فهل كان القصد من وراء ذلك الابتعاد عن نسبة تلك الآراء الى غير اليهود والخارجين عند حدود الامة المنشودة ، لابعاد شبهة التواطؤ بين الصهيونية والاستعمار البريطاني ؟ .

١٨ ــ المصدر نفسه .

دليل آخر على الترابط القائم بين التصوّرين ، العلماني والديني ، لارض اسرائيل الكبرى . وسوف تزودنا تحليلات الحاخام ايزاكس ومكتشفاته في حقل « الحدود الحقة » بمزيد من الدلائل على هذا الديالكتيك الصهيوني المتحرك بين طرفي « الواقع الادنى » و « المثال الاقصى » . ولا غرو فقد برز التآزر بين الطرفين او الفريقين على اتم وجه منذ عدوان الخامس من حزيران (يونيو) والمناداة العلنية بفكرة اسرائيل الكبرى . على ان هذا الامر الاخير سوف يجري تناوله في فصول لاحقة من هذا البحث .

لذلك نكتفي هنا بالرجوع الى ما كتبه فريش فاسر ــ رعنان كخلاصة للآراء والمطالب التي نادى بها زعماء الصهيونية خلال الفترة التي سبقت صدر وعد بلفور مباشرة . ومن ثم ننتقل الى التعرف على معالم الصورة التي يرسمها الحاخام ايزاكس لاسرائيل الكبرى بحدّيها الاقصى والادنى. فقد ذكر فريش فاسر ــ رعنان في كتابه « حدود أمة » ان الاعتبارات الواردة اعلاه أملت على المنظمة الصهيونية مطالبها الاقليمية والتوسعية ، بالنسبة الى تخطي حدود الرقعة التاريخية بين دان وبئر السبع . وقال عن زعماء الحركة :

« لقد تطلبوا ان يحد البلاد البحر المتوسط غربا ، ومنحدرات لبنان ومنابع الاردن وذروة عند سفح حرمون شمالا ، وبادية الشام شرقا . وفي الجنوب اراد الزعماء الصهيونيون الوصول الى خليج العقبة ، كما توقعوا الوصول الى اتفاق حبّي مع بريطانيه في الجنوب العربي لضم منطقة العريش في شبه جزيرة سيناء الى الوطن القومي . وبنوا توقعهم على التفكير بأن سيطرة بريطانيه الحالية على جنوب فلسطين قد تبطل حاجة المصالح الامبريالية الى شبه جزيرة سيناء بقصد الدفاع عن قناة السويس ، ولذلك فقد تكون بريطانيه على استعداد للسماح بنقل العريش من الحكم المصري الى الفلسطيني »(١٩) .

المنحة المخفضة وميراث المستقبل

تقول ابنة الحاخام ايزاكس في التوطئة التي صدّرت بها الطبعة الاولى لكتاب والدها بأن المؤلف اعرب عن رغبته قبل وفاته بنشر نتائج ابحاثه في حقل « الحدود الحقة » لاسرائيل الكبرى قبل انعقاد المؤتمر اليهودي

---

١٩ ــ راجع المصدر نفسه ، ص ٨٩ (ايضا : **مجلة فلسطين** ، ٩ تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩١٨) .

الاميركي (٢٠) ، لكي يتسنى للمعنيين بالموضوع الاطلاع على نتائج تلك الابحاث . وقد ظهر الكتاب في طبعته الاولى قبل ان ينعقد المؤتمر المذكور بمدينة واشنطن في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، اي بعد ما ينيف على الاسبوعين من صدور وعد بلفور . وربما كان من اسباب التأخير في عقده ، بعد ان بدأت الاستعدادات لتنظيمه منذ اواخر ١٩١٥ ، الرغبة في توقيته المناسب ليأتي اثر صدور الوعد مباشرة ، وفي تلك الاثناء كانت الولايات المتحدة قد اعلنت الحرب على المانيه (نيسان ، ابريل ، ١٩١٧) واندلعت نيران الثورة البولشفية في روسيه القيصرية ، كما سارع الاشتراكيون السوفيات الى اطلاع العالم اجمع على نصوص الاتفاقيات والمعاهدات السرية التي ابرمها الحلفاء فيما بينهم لاقتسام مناطق النفوذ في ممتلكات الامبراطورية العثمانية عامة ، وفي الولايات العربية بنوع خاص . ولم يغب عن بال ابنة الحاخام ايزاكس في توطئتها المذكورة بأن « المؤتمرات اليهودية يجري عقدها في بلدان مختلفة كوسيلة للتعبير عن آراء المشتركين بها ، ولكي يصار الى انتهاج خط عمل موحد اثناء انعقاد مؤتمر الصلح بعد نهاية الحرب » (٢١) .

---

٢٠ – American Jewish Congress – تأسست هذه المنظمة عام ١٩١٧ لضمان الاعتراف بالحقوق المتساوية لليهود – من مدنية وسياسية ودينية – في اوروبه الوسطى والشرقية ولتأمين « الحقوق اليهودية في فلسطين والحفاظ عليها » ، وذلك على اساس تنسيق التعاون بين الجماعات اليهودية في الدول الحليفة . ولعب الصهيونيون الاميركيون الدور الاول والاهم في التأسيس، ثم حاولت المنظمة كسب التأييد في الاوساط اللاصهيونية . واوفدت بعثة الى مؤتمر الصلح في باريس برئاسة جوليان ماك ولويس مارشال. ثم انفرط عقدها بعد انتهاء مؤتمر الصلح . لكن بعض المندوبين والفئات انضموا مجددا لتأليف منظمة دائمة تحمل الاسم نفسه عام ١٩٢٢ . وقد توالى على رئاستها ناثان شتراوس وستيفن وايز واسرائيل غولدشتاين ويواكيم برنس. ولعبت خلال الثلاثينات ابرز الادوار في تنظيم المؤتمر اليهودي العالمي (World Jewish Congress) الذي يرأسه ناحوم غولدمان الان ، كما منحت تأييدها المطلق للحركة الصهيونية .

انظر : **The Standard Jewish Encyclopedia. Ed. Cecil Roth**

٢١ – انظر توطئة الطبعة الاولى من كتاب ايزاكس، ص ٧ .

وسبق لنا القول ان الحدود التي يضعها ايزاكس في ضوء ابحاثه ومكتشفاته هي نفسها المستمدة من سفر العدد ٣٤ : ١ ــ ١٢ . فما هي تلك التخوم ؟ التي وردت كتابة في نصوص العهد القديم من الكتاب المقدس . وجاءت ابنته في مقدمتها للطبعة الثانية (٢٢) (شباط ، فبراير ، ١٩١٩) لتنبه القارىء بأن النص الذي يورده سفر العدد اعلاه يدل فقط على الرقعة الصغرى التي اعطاها الرب ميراثا لبني اسرائيل، وعقد الحاخام ايزاكس آماله على رجوع اليهود اليها . كما انها وجدت من اللازم اعطاءنا التأكيد التالي :

« لكن هذا لا يعني بأن مطلبه في الوطن يجب ان يبقى محصورا ضمن هذه الحدود ، بل على العكس من ذلك ، فان مؤلفنا يصرح بقوله ان « وعود الله المشروطة لا تلغى ابدا ، بل يحتفظ بها لكي تتحقق . . . في زمن مستقبل » (٢٣) .

ومن هنا تفتق ذهن الحاخام عن رسم صورة لتلك الحدود القصوى التي تتعدى ما يدعوه بـ « المنحة المخفضة » لاسرائيل الكبرى . وهي التي يطلق عليها تسمية «المنحة المشروطة» (Provisional grants) بعد استناده الى الشرط (Proviso) المتضمن في سفر التثنيه ١١ : ٢٢ (« لانــه اذا حفظتم جميع هذه الوصايا التي انا اوصيكم بها لتعملوها ، لتحبوا الرب الهكم وتسلكوا في جميع طرقه وتلتصقوا به ») . فلو استوفت اسرائيل شرط الرب وحفظت جميع وصاياه وعملت بها ، لسارع الرب الهها الى تقديم المكافأة على صورة المنحة الثانية :

« يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من امامكم فترثون شعوبا اكبــر واعظم منكم . كل مكان تدوسه بطون اقدامكم يكون لكم . من البرية ولبنان . من النهر نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تخمكم » .
(تثنيه ١١ : ٢٣ ــ ٢٤)

والعودة الى خريطة الحاخام ايزاكس من جديد تنبىء بالحــدود

---

٢٢ ــ تؤكد الابنة في مطلع مقدمتها للطبعة الثانية بأن الكتاب لاقى استحسانا كبيرا في الاوساط المسؤولة والنافذة . وتأتي على ذكر الاحداث الهامة والبارزة التي توالت بسرعة ، كما انها تتصل بحدود فلسطين وتؤثر عليها . مما حدا بها الى تنبيه القراء للحدود التي يرسمها الكتاب .

٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص 8a .

المشروطة « وكلّم الرب موسى قائلا : اوص بني اسرائيل وقل لهم انكم داخلون الى ارض كنعان . هذه هي الارض التي تقع لكم نصيبا . ارض كنعان بتخومها :

تكون لكم ناحية **الجنوب** من برية صين على جانب أدوم . ويكون لكم تخم الجنوب من طرف بحر الملح الى الشرق ويدور لكم التخم من جنوب عقبة عقر بيّم ويعبر الى صين وتكون مخارجه من جنوب قادش برنيع ويخرج الى حصر أدّار ويعبر الى عصمون . ثم يدور التخم من عصمون الى وادي مصر وتكون مخارجه عند البحر . واما تخم **الغرب** فيكون البحر الكبير لكم تخما ... وهذا يكون لكم تخم **الشمال** : من البحر الكبير ترسمون لكم الى جبل هور ، ومن جبل هور ترسمون الى مدخل حماه وتكون مخارج التخم الى صدد . ثم يخرج التخم الى زفرون وتكون مخارجه عند حصر عينان ... وترسمون لكم تخما الى **الشرق** من حصر عينان الى شفام . وينحدر التخم من شفام الى ربلة شرقي عين . ثم ينحدر التخم ويمر جانب بحر كنّارة الى الشرق . ثم ينحدر التخم الى الاردن وتكون مخارجه عند بحر الملح . هذه تكون لكم الارض بتخومها حواليها .

(سفر العدد ، ٣٤ : ١ ـ ١٢)

ولو عدنا الى الخريطة التي الحقها الحاخام ايزاكس بكتابه (انظر الخريطة رقم ٤ في اواخر هذه الدراسة) لتبيّن لنا كيف جرى رسم حدود « الارض الموعودة » (١٩١٦) وفقا للنص الوارد اعلاه من سفر العدد (الرقعة المظللة) . وقد اطلق الحاخام ايزاكس على هذه الرقعة ، المفرطة الاتساع نحو الشمال ، تسمية المنحة المخفضة (reduced grants) باعتبارها لا تشمل جميع التعيينات لاسرائيله الكبرى وقد جرى رسمها وفقا لما يعتبره حدود امبراطورية سليمان . فهو يلصق بتلك « الرقعة الصغرى » (المنحة المخفضة) مساحات شاسعة تمتد من نهر الفرات الى نهر مصر (وادي العريش) وتشمل خليج العقبة . ومما تجدر ملاحظته ان « مدخل حماه » (Entrance of Hamath) قد قفز في صورة الحدود المخفضة للرقعة الصغرى من ضواحي مدينة حماه الى جبال طوروس وحدود منطقة كيليكية !

وقد سارعت ابنة الحاخام الى التذكير بان هذه الرقعة الكبرى تضم تلك المراعي والاراضي الزراعية الخصبة والتي لها قيمتها الى الشرق من نهر الاردن . وبررت مسألة الضم بقولها ان هذه المساحات جرى توزيعها

فيما مضى على بني رأوبين وجاد ونصف بني منسّى : كما انها تضم تلك الاراضي التي تم الاستيلاء عليها « بالاستيطان السلمي » او « الغزو الذي له مـا يبرره » حتى زمن الملك سليمـان ، « الذي كان على رأس المملكة اليهودية اذ وصلت الى مداها الاوسع قبل وفاة الملك داوود » (٢٤) . ولم تنس الاشارة الى استرجاع الوطن القومي اليهودي في ظل الوصـاية البريطانية ، بعد ان بطلت المسألة موضع نقاش بفضل صدور الوعد وتأييد كل من فرنسه وايطاليه وغيرها من الحكومات ، وبفضل موافقة « رئيسنا العظيم ، ودرو ويلسون » ، يضاف اليه استحسان قداسة البابا بنديكت الخامس عشر . كما رأت من الضروري لفت نظرنا الى ما سوف يطالعنا به الكتاب : من ان « الحدود التوراتية والتقليدية والتاريخية » تشمـل مساحةاكبر بكثير منتلك المساحة التي يسلـّم بها عموما للامةاليهودية (٢٥).

ومما يجدر ذكره بصدد «الاكتشافات» التي يعلنها الحاخام ايزاكس ان الغالبية العظمى منها مستمدة من الابحاث التي قام بها « صنـدوق اكتشاف فلسطين » . فهو يقتبس الكثير عـن شارل ويلسون والكابتن وارين والكولونيل كوندر في اعمالهم وكتاباتهم المتعلقة بجغرافية فلسطين وطوبوغرافيتها . ويؤكد ان التعرف على هوية جميع الامكنة الواردة في نص سفر العدد كان ضربا من المحال ، لولا استجابة هؤلاء الرواد وامثالهم الى ضرورة ذكر الاسماء القديمة الى جانب الحديثة ، لتلك الاماكن التي عكفوا على وصفها وتعيين مواقعها . غير انه لا يكترث، مثلا ، لكونالاسماء الحديثة والسائدة عريقة في القدم ايضا ، ومـن زاوية التاريخ العربي للشرق الادنى بنوع خاص . بل يجعـل همه الصهيوني الاوحـد : نبش الاسماء البائدة وفرضها على التاريخ المتطور كيفما اتفق ، بحجة ورودها في النصوص المقدسة وتحت ستار « الوعد » و « الميثاق » و « الميراث».

فالبحر الكبير غربا (البحر الابيض المتوسط) و « بحر الملح » عند نهر الاردن شرقا (البحر الميت) كانت حدودا معروفة في نظره . بينمـا « القسم الشمالي من التخوم الغربية والشرقية (borders) والحـدود الشمالية بأكملها كانت منسية وعرضة للتخمين » (٢٦) . لذلك يلجأ الى الاستعانة بأعمال « صندوق اكتشاف فلسطين » على ان يقارن الاسمـاء

---

٢٤ ــ انظر المصدر نفسه ، ص 8a وما بعدها .

٢٥ ــ المصدر نفسه .

٢٦ ــ المصدر نفسه ، ص ١٨ .

التي عيّنتها بتلك التي يمكنه العثور عليها في الشروحات والترجومات العبرانية القديمة . والغرض من كل ذلك ليس الا التعرف على هوياتها الصحيحة ، عن طريق تعيين هوية تلك العلامات الواردة في النصوص المقدسة حول خطوط التخوم . وهكذا يتم له ــ على حد قوله ــ تكملة الحدود عند الجهات الاربع على «هيئة مستطيل» (rectangular figure) كما انه يأبى الفروغ من مقدمة كتابه قبل التوجه الى تلامذة الكتاب المقدس ولفيف الباحثين بالتماس يطلب فيه اعارة انتباههم التام للاسباب التي يعطيها كتعليل لخروجه عن نطاق المواقع والاماكن التي اختارها الشرّاح المعاصرون ، وللبديلات التي وقع اختياره عليها . ويعترف ــ دونما اي مبرر لذلك ــ بالشطط الجديد الذي ارتكبه في القسم الشمالي بنوع خاص، مؤكدا انه يشكل « خطوة جريئة » او جسورة (bold move) (٢٧) ويعد القارىء بتقديم تعليلات حسنة (good reasons) لكل خطوة ينحرف بها عن السلف والمعاصرين، على امل تسليمهم بها والاعراب عن ترحيبهم بالترتيب الجديد .

ونحن نود الاكتفاء بهذا المقدار من الملابسات التي تحيط باكتشافات الحاخام ايزاكس في وصفه للحدين ، الادنى والاقصى ، اللذين تتأرجح بينهما معالم الرقعة التي يمنحها لاسرائيله الكبرى . على ان نقدم عينات من مكتشفاته تبعا لكل حد من حدود الارض الموعودة وفي ضوء النص الذي اعتمده مقياسا لتخميناته .

الحدود الجنوبية : ورد في النص المذكور ان قادش برنيع هي بمثابة ابعد نقطة في مخارج التخم الى الجنوب . وفي الاصحاح ٤٧ : ١٩ من سفر حزقيال نجد السيد الرب يصف جانب الجنوب « يمينا من ثامار الى مياه مريبوث قادش النهر الى البحر الكبير » . كما نعرف من سفر العدد (١٣ : ٣ و ٢٦ ، ٣٢ : ٨) بان قادش برنيع ، حيث ارسل منها موسى جواسيسه الاثني عشر الى ارض كنعان ، تقع في برية فاران (Paran) . فكيف نوفق بين هذه النصوص المتباينة ؟ هنا يخالف الحاخام ايزاكس راي معظم المكتشفين والباحثين المحدثين فيفترض وجود مكانين باسم قادش ، بدلا من القبول بالرأي السائد الذي لا يميل الى نسبة الدقة في التعيينات القديمة . ولا يلتفت الى اجماع الباحثين بأن تخوم التيه آنذاك لم تكن على شاكلة الخطوط المرسومة بدقة ، كما هي الحال في الحدود

---

٢٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

السياسية الحاضرة . وقد سبق ومر معنا شيء عن اختلاف الباحثين والمكتشفين بصدد موقع قادش برنيع . فجعلها ستانلي في البتراء مثلا ، واكتشفها الرحالة الاميركي روبنصون عند المتخم الغربي للعربة . واعتمد البعض الآخر على المصادر الجغرافية والتاريخية العربية مؤكدا ان قادش برنيع ليست سوى عين قدس .

لذلك يطالبنا الحاخام ايزاكس بافتراض وجود مكانين يحملان الاسم نفسه . ويرضى بان تكون قادش برنيع هي عين قدس . لكنه يصر على وجود قادش ثانية عند « عين الويبه » كما عرّفها روبنصون ، مما يجعل الاثنتين في نظره مؤهلتين لاحتلال مكانيهما على تخم ارض اسرائيل .

الحدود الغربية (٢٨) : لا داعي للجدال في مسألة اعتبار البحر الابيض المتوسط بمثابة تخم الغرب ، فهو يؤلف علامة واضحة . لكن ما يقلق الحاخام ايزاكس هو انعدام اي تحديد جليّ في النص المقدس للنقطة التي تنتهي عندها الحدود الغربية شمالا على شاطىء البحر . اذ يفترض ان تتجه الحدود الشمالية صوب « جبل هور » ومنه الى «مدخل حماه». وقد شغل المكتشفون والباحثون طيلة النصف الثاني من القرن الماضي في اطلاق شتى التخمينات والنظريات المتباينة حول موقع « الجبل » و « المدخل » . واستعرض ايزاكس نظرياتهم ملخصا اياها على الشكل التالي :

أ ـ الرأي القديم ـ يعتبر جبل هور احدى قمم جبل حرمون . بينما « مدخل حماه » يعني المر المؤدي الى مدينة حماه عبر البقيعة والذي يبتدىء الى الجنوب الغربي من جبل حرمون . اما النقطة التي ترسم التخوم عندها على الشاطىء فتقع الى الغرب مباشرة من جبل حرمون ويسير التخم منها شرقا الى جبل هور المذكور.

ب ـ الرحالة اليهودي استوري هابارشي (الفارحي) : خطر له عام ١٣٢٢ م تعريف جبل هور بالجبل الاقرع ، الواقع على شاطىء البحر بين اللاذقية والاسكندرونه (شمالي مدينة اللاذقية) . فرسم خط الحدود من هذه النقطة وسار بها عبر البقيعة نحو حماه في الاتجاه الشرقي الجنوبي ، مما ادّى الى توسيع الرقعة التي يشملها الرأي القديم بحوالي ١١٠ اميال على امتداد الشاطىء.

---

٢٨ ـ الحديث عن نهاية الحد الغربي لجهة الشمال يتضمن في هذا السياق معالجة الحدود الشمالية ولو بصورة جزئية .

ج ـ الحاخام جوزيف شفارتز (١٨٥٠) ـ يجعل الجبل الباحث عن مكانه عند جبل النورية (رأس شكا على الساحل اللبناني الآن) ويرسم الخط من هناك مرورا بالبقيعة (مدخل حماه) الى ما يدعوه بالجديدة (Zedad) . تبعد نقطته هذه حوالي ٦٣ ميلا عن نقطة الرأي القديم .

د ـ روبنصون وبورتر وغيرهما من الباحثين : يضعان الجبل التائه مكان جبل عكار ، « ذلك القسم الشمالي الشامخ من جبال لبنان (Libanus) » . فيصبح « مدخل حماه » ذلك الوادي المتقاطع مع سلسلة جبال لبنان وجبال النصيرية (العلويين) . وتنطلق الحدود من مصب النهر الكبير عبر الوادي المذكور . وبذلك تتوسع مسافة ٨٤ ميلا على امتداد الساحل وعن النقطة التي يأخذ بها الرأي القديم (٢٩) .

وقد افرد الحاخام ايزاكس ملحقا خاصا في القسم الثاني من كتابه (الفصل الرابع) للرد على الرأي السائد منذ القدم وتفنيد آراء كل من استوري‌هابارشي والحاخام جوزيف‌شفارتز، ونظرية روبنصون وبورتر . (انظر : المصدر نفسه ، ص ٦٥ ـ ٧٥) . فسارع الى القول بان احدا من هذه الآراء والنظريات لا يمكن القبول به . وعلى الرغم من استناد معظمها الى نصوص دينية استقاها اصحابها من المصدر نفسه ـ اسفار يشوع والقضاة والتثنية وحزقيال في العهد القديم ، مثلا ـ فان الحاخام ايزاكس‌يرد على الرأي السائد («جبل هور=جبل حرمون») باستحضار النصوص المقدسة التي تتعارض معه وتناقضه . مع العلم بان هذه النصوص لا تتفق ابدا وقطعا مع الرأي الذي يخطر له تبنّيه . ولذلك نجده يلجأ الى ما يعرف عند اليهود بـ « الطوسفتا » (Tosefta) او ملحق المشنا (Mishnah) الذي جرى تنقيحه في القرن الثالث م . فيزعم ان النص المذكور ـ كما استشهد به التلمود والترجوم الآرامي ـ يأتي على ذكر « طوري أمانون » اي «جبال امانون» . ثم يعيّن موقع جبل‌اومانيس

---

٢٩ ـ انظر المصدر نفسه ، ص ٢٥ ـ ٢٦ . ينقل ايزاكس ايضا راي الباحث كاستيرين في Revue Biblique (١٨٩٥) : « جبل هور » يعني ذلك الجبل القائم عند انحناء نهر القاسمية (الليطاني القديم) صوب الغرب ، وحيث تبرز قلعة الشقيف على كل ما عداها . (انظر المصدر نفسه ، ص ٢٧) .

او مانوس (Umanis Manos) ، والتسمية الاغريقية هي Mons Amanus ـ على حد قوله) في مكان لا يرقى الشك الى صحته : على خليج الاسكندرون ! ويسارع الى الاعتراف بان الجبال التي يتحدث عنها الآن لا تحمل اسما مشتركا في الوقت الحاضر ، مؤكدا ان اسم « امانوس » قد ضاع . ولا يتردد في ارجاع التغير الذي طرأ على الاسم الى الفتح العربي لسوريه في القرن السابع للميلاد .

ومما تجدر ملاحظته ان الحاخام ايزاكس لا يجد تناقضا بين مختلف النصوص الواردة في اسفار العهد القديم بصدد رقعة الارض الموعودة (٣٠). بل يرد التباين في تعيين الحدود بجميع جهاتها الى خطأ في تفسير النصوص ، ولا يجد سبيلا الى نكران الغموض الذي يكتنف معظمها . ويعتبر تغير الاسماء الجغرافية بمثابة سبب رئيسي يعلل به منشأ هذا التباين في الآراء . وقد بلغ به التخمين حدا جعله ينحى باللائمة على **جغرافية** بطليموس وكتاب المجسطي . فزعم انها بقيت كتب التدريس المتعارف عليها لدى الاجيال اللاحقة حتى مجيء كوبرنيكوس وحصول الاكتشافات البحرية الكبرى في القرن الخامس عشر . وانتقد خريطة بطليموس لانها وضعت سلسلتي جبال لبنان ، الغربية والشرقية ، بعيدا عن حدود فلسطين ، مما حال دون ضمهما في نطاق تخومها (٣١) .

والسبب الثاني الذي يعتبره مسؤولا عن اساءة فهم النص الوارد في سفر العدد يرجع في نظره الى « الاعتقاد العام » بان الارض المقدسة التي استولت عليها قبائل العبرانيين وجرى توزيعها على اسباط بني اسرائيل بالقرعة زمن يشوع هي نفسها تلك الارض الموعودة التي اعطيت لهم في سفر العدد : ٣٤ : ١ ـ ١٢ . ولكي لا يقع في تناقض مع قوله بانعدام التناقض نجده يلجأ الى تذكيرنا بان الارض الموعودة ، بامتدادها وتخومها ، ليست هي نفسها الارض المحتلة او التي تم فتحها والاستيلاء عليها . وقد سبق لنا التعرف على هذا التمييز العجيب بين المثال والواقع او بين الوعد والتحقيق لدى استعراض آراء يحزقيل كوفمان في القسم الاول من هذا البحث . وهو تمييز يطالع الباحث في عدد من المؤلفات والدراسات حول الكتاب المقدس وتاريخ بني اسرائيل ، ويرجع بالتالي ، في الفترة الحديثة ، الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وربما

---

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
٣١ ـ المصدر نفسه .

كانت الاطماع التوسيعية لحدود ملك بني اسرائيل في الزمن القديم بمثابة سبب خفي او باطني وراء التباين الذي يتبدى في صورتي « الوعد » و « التحقيق » . فلو قبلنا الرأي الذي يلخص اقوال كوفمان ، ولا مانع من تكراره في هذا المجال :

« ... ان الحدود المثالية لارض الميعاد لا تطابق الواقع التاريخي او الآمال المعقودة على المسيح المنتظر . فالحدود البعيدة المدى للتخوم الشمالية واستثناء شرقي الاردن تبرهن (لنا) ان حدود ارض الميعاد هذه قد جرى تعيينها قبل الدخول الى ارض كنعان . ويتضمن ذلك مثالا قوميا اعلى جاء سابقا لحروب القبائل ، كل بمفردها ، للاستيلاء على رقعة خاصة بها » (٣٢)

لوجدناه يعرض رأيا مشابها لرأي الحاخام ايزاكس . ولعرفنا كذلك ان التباين مرده الى خطة جرى الاتفاق عليه بين زعماء القبائل الغازية لارض كنعان وتعينت بموجبها تلك الحدود المثالية للارض التي وعدوا انفسهم بها . ولا داعي هناك الى اعتبارها بمثابة « المثال القومي الاعلى » . فيصبح ما بسط العبرانيون سيطرتهم عليه ، حتى خلال فترات قصيرة جدا ، مجرد مرحلة تاريخية على الطريق نحو تحقيق « الوعد ـ الخطة » بالاستيلاء على رقعة اوسع لانها مطابقة للحدود المثالية والمرسومة قبل الشروع في الغزو . ويجعل جذور الاريدنتية اليهودية بالتالي مسألة عميقة الغور في تاريخ الشرق الادنى القديم .

كما انه من المفيد استذكار ما ورد على لسان المؤرخ آندرسون في كتابه عن « تاريخ اسرائيل وديانتها » الصادر قبل عامين . وقد سبق لنا الاستشهاد بآرائه في بحثنا عن « فلسطين عبر التاريخ » . فهو يؤكد في مطلع كتابه بان اسرائيل القديمة لم تتمكن من الحفاظ على وجود او كيان قومي يتمتع بالاستقلال التام الا خلال جزء يسير فقط من فترة العهد القديم . كما انها لم تحقق وحدة قومية فعالة الا خلال فترة زمنية اقصر بكثير من ذلك الجزء اليسير . وقد وصف وضع الاسرائيليين في ارض كنعان من زاوية المؤرخ الرصين بقوله :

« هكذا كانت الارض التي استوطن فيها بنو اسرائيل . وخلال معظم فترة العهد القديم كان احتلالهم لها جزئيا فقط ، فاحتلوها لفترات

---

٣٢ ـ راجع **Yehezekel Kaufmann — The Religion of Israel.** من بداياته الى النفي البابلي . ص ٢٤٦ .

طويلة بمثابة اتباع او مقطعين (Vassals) للدول الاجنبية ، بينما تغلغلت فيحياتهم الشعوب الاخرىبدرجاتمتفاوتة علىالدوام» (٣٣).

اما تعيين ايزاكس **للحدود الغربية** ، وفقا لما يعتبره التفسير الحرفي المتشدد للنص الذي يختاره من سفر العدد ، فقد جاء على الشكل الآتي :

« يبتدىء عند الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الكبير ، حيث ينحدر صوبه نهر مصر (وادي العريش) ... ثم يتجه شمالا فيمر بجبل الكرمل ، وصور وصيدا ، وجبال لبنان ، الخ حتى يصل الى الزاوية الشمالية الشرقية من خليج الاسكندرون » (٣٤) .

ولا غرو فقد اعتبر هذا التفسير « ترجمة حرفية » للنص الذي بين يديه واعلنه خلوا من كل التباس وغموض . ثم قرر انه يستحق القبول دون براهين اضافية . واحال المستزيدين منا الى ملحق كتابه ، حيث يريدنا ان نرى عجز جميع النظريين المار ذكرهم عن تعيين علامات الحدود الشمالية بشكل مقبول .

والحدود الشمالية ، كما يرسمها ايزاكس ، تبدأ من اجتهاده في تفسير تسمية « جبل هور » . فهذه العبارة مؤلفة من فكرة « جبل » واسم علم « هور » ــ مع العلم بان لفظة « هور » العبرانية تعني الجبل ! وماذا تعنيه اذن تسمية « جبل الجبل » او « الجبل المزدوج » او الجبل القائم على جبل ؟ وهل من وجود لشيء اسمه « جبل هور » ؟ هنا يلجأ الحاخام الى نص من المدراش (Midrash) ، كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء . ويصبح الجواب على سؤالنا : ما هو جبل الجبل ؟ (٣٥) ــ « انه الجبل القائم على رأس جبل مثل تفاحة صغيرة على ظهر تفاحة كبيرة » ! وهكذا يتحول « جبل هور » في تفسير ايزاكس الى وصف يدل على اي جبل يعلوه جبل ويقع على خط الحدود ! ففيسفر العدد ايضا (٢٠ : ٢٢ ــ ٢٥ و ٢٧) نقرأ عن ارتحال بني اسرائيل من قادش ومجيئهم الى جبل هور ، حيث كلّم الرب موسى وهارون في جبل هور على تخم ارضادوم. مما يؤكد ان التسمية المذكورة ربما اطلقت على اي جبل يعتمر جبلا آخر . ولا وجود للجبل المذكور عند شاطىء البحر بتاتا . كما ان ايزاكس يرفض

---

٣٣ ــ G. W. Anderson — **The History and Religion of Israel** (Oxford University Press, 1966), p. 13.

٣٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

٣٥ ــ تأتي في العبرية لفظة « هور » قبل« جبل » ، مع العلم بان النكرة تسبق اسم العلم .

اعتبار جبل هارون التقليدي هو نفسه جبل هور ، على الرغم مما ورد في سفر العدد (٢٠ : ١٦ و ٢٣) من وصف لقادش وجبل هور (هارون) باعتبارهما على تخم ارض أدوم . ويعرب عن تأكده من كون جبل هارون غير جبل هور ، بينما يرجح قليلا ان يكون جبل مديره هو نفسه جبل هور . غير انه يفضل تعيين جبلين بهذا الاسم : جبل هور في الجنوب على تخم ارض أدوم ، وجبل هور في الشمال ، وهو الذي يتحدث عنه سفر العدد في وصفه للتخوم . هذه هي الخطوة الاولى في تفسير ايزاكس واجتهاداته .

ثم يعمد الى التنقيب في الترجوم (الترجمة الآرامية القديمة للاسفار الخمسة) والمشنا (خلاصة الشريعة الشفهية ، تؤلف مجموعة قوانين اليهود السياسية والدينية) ليستنبط « جبل امانوس » ويعلنه جبل هارون المنشود . فيصبح جبل « هارون » (امانوس على الاصح) الحد الفاصل بين الشمال الغربي من سوريه وكيليكيه . وينتقل «مدخل حماه» الى مقربة من الجبل المذكور ، كما تتبعه سائر النقاط والمواقع الاخرى . وتصبح حصر عينان (٣٦) مكان عينتاب التركية على الزاوية الشمالية الشرقية لحدود الارض الموعودة . وهكذا يتسنى للحاخام ايزاكس اعتبار جبل هور جزءا من سلسلة جبال طوروس !

وتمتد **التخوم الشرقية** من حصار عينان (عينتاب التركية) الى بلدة شفام التي يعتبرها موقع قلعة المضيق على حدود لبنان الشمالية (ربما كانت هي نفسها قلعة الحصن) . ثم تسير نحو ربله ، التي يضعها مكان بلدة الهرمل الحالية باعتبارها تقع شرقي عين (=عين العاصي) . وتنزل من هناك نحو بحيرة طبريه لتلتقي بالحدود الجنوبية عند البحر الميت .

وبذلك ينتهي ايزاكس من تعيين جميع العلامات الواردة في النص الذي يختاره لحدود الارض الموعودة مؤكدا انها مستطيلة الشكل . ولا يفوتنا ان نتذكر الآن تمييزه بين المنحة المخفضة التي تمثلها حدود هذا المستطيل ، وتلك المنحة المشروطة التي يفسر في ضوئها امتداد الحدود من الفرات شرقا الى البحر الاحمر والنيل جنوبا . كما نأخذ علما بانه حصر اجتهاداته بالرقعة الصغرى او المخفضة لاسرائيل الكبرى . وترك الرقعة الاكبر لمستقبل امبراطوري يعيد امجاد سليمان بعد ان يفي بنو

---

٣٦ ــ تعتبر المصادر الاخرى حصر عينان عند القريتين او دير قانون . وقد اعتبرها وصف حزقيال للحدود « حصر عينان تخم دمشق » و «حصر الوسطى التي على تخم حوران» (٤٧ : ١٧ و ٤٨ : ١).

اسرائيل بشروط الميثاق الذي ذكرته النصوص في قديم الزمان .

ومما تجدر بنا ملاحظته في خاتمة هذا العرض اصرار الحاخام ايزاكس على ضم سلسلتي جبال لبنان الى داخل حدود الارض الموعودة. فهو يتهم بطليموس بارتكاب خطأ جغرافي لان خريطته لفلسطين هي المسؤولة وحدها عن الاعتقاد الشائع والخاطىء طيلة الفي سنة : فقد رسمت حدود الارض الموعودة الى الشمال عند طرف جبال لبنان وبناء على اتساع الرقعة التي تم الاستيلاء عليها زمن يشوع . ويعتقد الحاخام ايزاكس ان خريطة بطليموس ساهمت في نشر الاعتقاد بان هذه الرقعة الصغيرة هي نفسها الرقعة التي يرد وصفها في سفر العدد ٣٤ . بينما تنبئه اجتهاداته بان جبال لبنان الشرقية والغربية ليست خارج نطاق الرقعة المذكورة . ولذلك يؤكد على رسم الحدود الشمالية للارض الموعودة الى الشمال من جبال لبنان : « هذه في رأينا نقطة لا جدال فيها . بينما يبقى السؤال التالي : كم تبعد هذه الحدود الى الشمال ؟ » (٣٧) وهو السؤال الذي يشغل بال الحاخام ايزاكس ويحمله على استنطاق شتى النصوص الدينية ما لا تتضمنه ، ليقفز بتخريجاته واجتهاداته فوق مساحات شاسعة وسلاسل جبال شاهقة حاطا رحله عند جبال طوروس.

ولا نخال ايزاكس ينفرد وحده بهذا الرأي . فقد سبقه اليه القس هشلر وكثيرون غيره . غير انه يزعم الاستناد الى العلم واكتشافاته في هذه المحاولة الجريئة لرسم ما يتصوره بمثابة الحدود الحقة والصحيحة لارض اسرائيل . فلا عجب اذن ان تحظى اجتهاداته بذلك الصدى المستحسن في الاوساط المسؤولة والنافذة بين عامي ١٩١٧ — ١٩١٩ . ولا ندري ما اذا كان الصهيونيون الاميركيون او غيرهم قد بادروا الى تقديم مشروع الحاخام ايزاكس بمطالبه المخفضة الى مؤتمر الصلح بغية حمله على الاعتراف بما سموه « الحقوق التاريخية والروابط الدينية » القائمة بين يهود العالم وفلسطين . مع العلم بان الحاخام المذكور لم يستثن امكانية الاعتراف بالصهيونيين كهيئة تمثل يهود العالم . ولذلك توقع اقدامهم على عرض المسألة اليهودية ومطالبهم امام مؤتمر الصلح . فالتوطئة التي صدر بها كتابه جاءت لتعلن في شتى الاحوال والظروف انه « قد حان للعالم ان يعرف ما هي الحدود « الحقيقية » للرقعة التي سوف تطالب بها اسرائيل » — متى جرى طرح موضوع الوطن القومي اليهودي على البحث ، وامام مؤتمر الصلح ، في مستقبل قريب .

---

٣٧ — انظر المصدر نفسه ، ص ٦٤ و ص ٦٢ — ٦٤ .

وحين نتطلع الى مشروع الحاخام ايزاكس اليوم – وبعد مرور خمسين عاما على صدور آرائه في كتاب يحمل عنوان « الحدود الحقيقية لارض اسرائيل » – تطالعنا تلك المطالب التي ينادي بها حاخامات اسرائيل الآن بمثابة اصداء تتردد كلما وجدت الى ذلك سبيلا . وقد جاء عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ليتيح امام خلفاء ايزاكس فرصة الالحاح في المطالبة بخلق « اسرائيل الكبرى » بالاستناد الى تلك النصوص نفسها وبتلاوتها في صوت جهوري على مسامع المصلين في الكنيس. فالصهيونية الدينية بجذورها البعيدة المدى لا تختلف كثيرا عن قرينتها العلمانية او حليفتها الشعوبية والامية لجهة المطالب التوسعية وفي الدعوة الى « اسرائيل الكبرى » ، وان تعددت الاسباب التي تلجأ اليها كل منها لتبرير مزاعمها وتكريس مطالبها .

ولنستمع الى الصهيوني العلماني وايزمان ، على سبيل المثال ، يخاطب جماعة من المتدينين الصهيونيين ابان مجيء لجنة بيل (Peel) الى فلسطين عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ ، محاولا استغلال معتقداتهم الدينية وساعيا لحملهم على التريث في الاصرار على مطالبهم التوسعية . وهذا ما قاله لهم :

« اعرف ان الله وعد بني اسرائيل بفلسطين ، لكنني لا اعرف الحدود التي وضعها لها . واظن انها كانت اوسع من الحدود المقترحة الآن ، وربما شملت شرقي الاردن ايضا . ومع ذلك فقد نسينا القسم الشرقي ، ويطلب الينا الآن التخلي عن بعض من القسم الغربي . واذا كان الله سوف يبر بوعده لشعبه في الزمان الذي يختاره ، فان مهمتنا نحن المساكين من البشر ، اذ نعيش في عصر شاق ، هي انقاذ ما يمكننا انقاذه من بقايا اسرائيل . وفي تبنينا لهذا المشروع يمكننا انقاذ مقدار اكبر منها، فيما لو ايدنا استمرار سياسة الانتداب» (٢٨) .

وهكذا تابع وايزمان حديثه عن اعتقاده الراسخ بان الاله يصطفي البلدان الصغيرة دائما لينقل عبرها رسالته وتعاليمه الى الانسانية جمعاء . ووجد من الانسب للحركة الصهيونية آنذاك ان تقنع بانشاء دولة يهودية صغيرة ، حسنة التنظيم ، وتعيش بسلام مع جيرانها . فاختار المرحلية واتباع الاسلوب التدريجي لكي يتاح المجال امام قيام دولة يهودية لها حدود واضحة المعالم ومضمونة دوليا ...

---

٣٨ – انظر **التجربة والخطأ** ، ص ٣٨٦ .

عشية صدور الوعد

فعلت مدرسة مانشستر الصهيونية فعلها في التقليد الصهيوني البريطاني فاستطاعت ان تجعل من آرثور جيمس بلفور حلقة رئيسية في سلسلة ذلك التقليد العريق . واقترن اسمه (بلفور) منذ ذلك الحين بالوعد الذي قطعته حكومة صاحب الجلالة على نفسها ان « تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية » (١) . اذ اقدمت الحكومة البريطانية في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ على نشر تصريح بعد عرضه على الوزارة واقراره ليكون بمثابة بيان سياسي . واشتهر « تصريح بلفور » فيما بعد على صورة يفهم منها انه « وعد بلفور » . اذ جاء كناية عن رسالة بعث بها المستر بلفور ، وزير الخارجية آنذاك ، الى اللورد فالتر روتشيلد (الثاني) واعرب فيها عن سروره الزائد لابلاغه ، « بالنيابة عن حكومة جلالته ، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على اماني اليهود الصهيونية » (٢) .

اما الشق الثاني من الوعد ـ التصريح فقد شاء له واضعوه افهام من يهمه الامر بصورة جلية ما تشترطه حكومة جلالته لقاء النظر بعين العطف الى تأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين ولقاء جهودها المبذولة لتسهيل تحقيق هذه الغاية :

« انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » (٣).

---

١ ـ انظر النص الكامل للتصريح المذكور في : تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (الكتاب الابيض رقم ٥٤٧٩) ، القدس ١٩٣٧ ، ص ٣١ .
٢ ـ المصدر نفسه .
٣ ـ المصدر نفسه .

وهكذا سارع لويد جورج بعد صدور الوعد المذكور الى « ايضاح الملابسات » التي حملت حكومة بلاده على اصداره . فأدلى بالتصريح التالي نصه :

« ان الزعماء الصهيونيين قطعوا لنا وعدا اكيدا مآله انه اذا اخذ الحلفاء على عاتقهم تسهيل انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فانهم (اي الزعماء الصهيونيين) سيعملون كل ما في وسعهم لايقاظ عاطفة اليهود في كافة انحاء العالم وتأليبهم لمعاضدة قضية الحلفاء ، وقد بروا بوعدهم هذا » (٤) .

فهل كان الوعد الذي قطعته بريطانيه على نفسها بلسان وزير خارجيتها بلفور مجرد وعد كافأت به الزعماء الصهيونيين على برهم بوعدهم للمسؤولين البريطانيين في بذل اقصى الجهد لاستقطاب عاطفة يهود العالم وكسب تأييدهم لقضية الحلفاء ؟ وكيف لا يتعارض وعد بلفور والملابسات التي اوضحها المستر لويد جورج بصدده آنذاك مع تلك المراسلات التي سبقته بعامين وتمت بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون . الم تقم الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني في سبيل قضية العرب والحلفاء ايضا ؟ وهل تقل مساهمة العرب في الحرب الى جانب الحلفاء ومعاضدة قضيتهم عما قيل فيما بعد ان اليهود والصهيونيين اسهموا به ؟ (٥) .

---

٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٢ . وقد استعمل لويد جورج عبارات « الوطن القومي اليهودي » و « الدولة اليهودية » و « الكومنولث اليهودي » على انها مرادفات. (انظر اسكو ــ **فلسطين**، ص ١١٣)، وايزمان ، المصدر السابق ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

٥ ــ حين جاء سايدبوثام في كتابه الثاني على ذكر الاسباب التي ادت الى قيام التحالف بين وزارة الحرب البريطانية والصهيونية اختار اربعة منها وعدّدها على الشكل الآتي :

أ ــ المنطق الملحاح للوضع العسكري على ضفتي قناة السويس .

ب ــ مجيء المستر لويد جورج الى الحكم وتوقه للعثور على سياسة بديلة للهجمات الانتحارية على الجبهة الغربية .

ج ــ الرغبة في استجلاب الولايات المتحدة الى جانبنا .

د ــ واخيرا، الخوف من ان تسبقنا المانيه وتعلن تأييدها للصهيونية.

انظر **Great Britain and Palestine, (1937), p. 55.**

لا نريد الخوض في غمار هذه التساؤلات ، اذ نؤثر اعتبارها خارجة عن نطاق هذا البحث . غير ان الاحجام عن الدخول فيها لا يعني مطلقا التقليل من اهميتها ومغزاها . وما يهمنا بالدرجة الاولى في سياق هذا البحث يتناول تلك النوايا التوسعية والمطالب الاريدنتية التي زعم الصهيونيون نيلها عن طريق وعد بلفور . مع العلم بأن اللغة التمويهية التي صيغ بها نص تصريح بلفور تحاشت الاشارة الى حدود فلسطين من بعيد او قريب . وفضل واضعوه ـ بعد شتى التنويعات والصياغات التي جرى تداولها وتمحيصها ثم استقر الرأي على العدول عنها ـ الا يؤتى على ذكر عبارات يستفاد منها ان النية الصهيونية تتجه نحو اقامة دولة يهودية في فلسطين تحت ستار الاحتماء بالعطف البريطاني على « تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي » . فقرر الصهيونيون ـ او تظاهروا هكذا على الاقل ـ الاكتفاء بتحقيق الوصاية البريطانية على تلك الرقعة التي وصفتها اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية بالمنطقة السمراء . على ان يبادروا الى اغتنام اول فرصة تتاح لهم بعد صدور الوعد للمطالبة بالمزيد ، والاصرار على توسيع الحدود لتشمل مساحات اخرى من المناطق التي استثارت اطماعهم واغرتهم ثرواتها المائية وطاقاتها الاقتصادية او غير ذلك من المصالح المستشرية . ومن الملاحظ ان النص الرسمي لتصريح بلفور لا يتضمن اية اشارة الى المزاعم الصهيونية حول « الحق اليهودي بفلسطين» او «الروابط التاريخية بين اليهود وفلسطين » . فقد انتظر الصهيونيون طيلة خمس سنوات تقريبا (من مطلع تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩١٧ ـ ٢٤ تموز يوليو ، ١٩٢٢) حتى اقر مجلس عصبة الامم صك الانتداب البريطاني على فلسطين . وجاءت توطئة الصك لتدرج في حيثياته نصا يعلن ان وعد بلفور قد اعترف « بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين وبالاسباب التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد» (٦) .

ولا بد لمن شاء التوسع في مسألة الملابسات التي احاطت بصدور الوعد او التعرف على الصيغ المختلفة لنصه من الرجوع الى الفصل الخامس في كتاب هربرت سايدبوثام عن « بريطانيه العظمى وفلسطين » (١٩٣٧) . ومما تجدر ملاحظته ان سايدبوثام قد وضع عبارة « وعد بلفور » (The Balfour Promise) عنوانا لذلك الفصل بدلا من «تصريح بلفور» (The Balfour Declaration) . فالصيغة الاولى التي وضعت مسودتها

---

٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٦ (تقرير لجنة فلسطين الملكية) .

اللجنة الخارجية المشتركة في آذار (مارس) ١٩١٦ جاءت معبرة – على حد قوله – عن وجهة نظر اليهود الرسميين المعادين للصهيونية (٧) .

اما المعادلة الثانية فقد قدمها الزعماء الصهيونيون الى حكومة آسكويث في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦ . واسترعى انتباه سايدبوثام كونها تأتي للمرة الاولى على ذكر كلمة « وطن » (Home) ، دون اية اشارة الى « دولة يهودية » . كما ان مشروع منح البراءة او الترخيص لشركة تعمل في سبيل استعمار فلسطين جرى اقتباسه عن مشروعات لورانس اوليفانت وثيودور هرتزل . بينما جاءت الفكرة السائدة في هذه المعادلة (تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٦) لتعلن ان فلسطين كناية عن « عقار مهمل » يحتاج تطويره الى هجرة يهودية جماعية . ومما تجدر ملاحظته ان عدم الاتيان على ذكر الحدود للوطن الذي تنوي الشركة اليهودية استعماره بحجة كونه ارضا مهملة تحتاج الى التنمية والتطوير والاستثمار عن طريق تهجير الجماهير اليهودية ، لا يعني اغفال الصهيونيين لموضوع التوسع الحساس بالنسبة لهم . وما علينا سوى تذكر الموقف الصهيوني الرسمي آنذاك كما عبرت عنه « الملاحظة حول الحدود » في كتاب « الصهيونية والمستقبل اليهودي » ١٩١٦ – الذي مر معنا الحديث عنه – لكي نعرف طبيعة الحدود التي رسمها الصهيونيون بايعاز من وايزمان بالذات وانطلاقا من تعاليم مدرسة مانشستر الصهيونية . ولا بد ان

---

٧ – بما ان سايدبوثام كان في طليعة الداعين الى انشاء دولة يهودية والمصرّين على تضمين النصوص بندا ينص صراحة على ذلك ، فهو ينتقد مسودة هذه الصيغة باعتبارها تنفي فكرة الدولة اليهودية ولا تسمح حتى بقيام متحد يهودي واع في فلسطين . والمعروف ان المعادلة الاولى – كما يدعوها سايدبوثام – تحدثت عما يلي :
« في حال وقوع فلسطين ضمن دوائر نفوذ بريطانيه العظمى وفرنسه بعد نهاية الحرب ، لن تتوانى حكومات هذه الدول عن الاخذ بعين الاعتبار اهتمام اليهود التاريخي بتلك البلاد . وسوف يؤمّن للسكان اليهود التمتع بالحرية المدنية والدينية ، والحقوق السياسية المتساوية مع بقية السكان . بالاضافة الى تسهيلات معقولة في حقلي الهجرة والاستعمار ، وتلك الامتيازات البلدية في المدن والمستعمرات التي يقطنونها حسبما يبدو ضروريا » .
(سايدبوثام : المصدر نفسه ، ص ٥٦ – ٥٧) .

تكون هي نفسها الحدود التي اختاروها وفكروا بهـا حين تحدثوا عـن « الوطن » ، و « الوطن القومي اليهودي » فيما بعد . ولقد تناولنـا في فصل سابق قصة تأليف « لجنة فلسطين البريطانية » واقدام اللجنـة المذكورة منذ مطلع ١٩١٧ على اصدار نشرتها « فلسطين » ، حيث اولت مسألة الحدود اهتمامها البالغ وذهبت بها الاطماع الصهيونية الى حـد استباق الاحداث واعلان المطالب التي تتعارض مع مصلحة فرنسه وربما كان من شأنها حمل الدولة الحليفة على التصلب في موقفها ازاء الحركة الصهيونية . وقد عبّر جفريز عن تردد الذين صنعوا فكرة الوطن القومي ونادوا بها حيال مسألة الحدود التي سينشأ ضمنها ، واستنادا الى آراء سايدبوثام ، اذ قال : « حين اثيرت مسألة الحدود للمرة الاولى كانـت (مجلة) فلسطين على بيّنة من امر فلسطين . فكتبت تقول بان «فلسطين لم تكن ابدا، وفيما عدا فترات قصيرة جدا، تؤلف كيانا سياسيا موحدا ، ومن المتعذر ان تتفق التعريفات لحدودها الجغرافية حول التفاصيل» (٨).

وجاء سايدبوثام في كتابه الثاني عـن « فلسطين وبريطانيه العظمى » (١٩٣٧) لينقل في مطلع الفصل الذي كرسه لوعد بلفور عن تقرير اللجنة التنفيذية الصهيونية المرفوع الى المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) اقرار اللجنة بفضل مانشستر ومدرستها الصهيونية . اذ كانت السبّاقة الى ادراك ذلك التطابق ادراكا كليا بين المصالح البريطانية واليهودية . وكانت نظرتها الى الصهيونية تنطلق على الدوام من الزاوية البريطانية . فقد تمادت في استغلال الصورة التي رسمتها لمنطق الاحداث الى درجة جعلت سايدبوثام نفسه يعترف بانها جعلت نفسها عرضة لتهمة الامبريالية المفرطة والاهتمام الزائد بدفع عجلة المصالح البريطانية في الشرق . كما صرح سايدبوثام بان مجلة « فلسطين » لم يساورها اي شك بصدد الحل المرتقب لفلسطين ، اذ طالبت بدولة يهودية ، كما طالبت ايضا بأن « يكون لفلسطين ذلك المتسع من الحدود الكافي للسماح بتطور سياسي واقتصادي على الصعيد القومي » ، وان يكون موقعها ووضعها الاستراتيجي قـويا لدرجة تسهّل الدفاع عنها اكثر مما كان عليـه في الايام البائدة للدولة اليهودية ، وذلك حين تنتهي مدة الوصاية عليها وينكفىء حماتها عائدين الى قواعدهم في بريطانيه (٩) . ومما تجدر ملاحظته ان زاخر ، على العكس

---

٨ ـ انظر J. M.N. Jeffries — **Palestine: The Realty, Longmans - Green, London, 1939), p. 2.**

٩ ـ راجع سايدبوثام ، **المصدر السابق** ، ص ٥١ ـ ٥٣ .

من سايدبوثام ، لم يشأ تصور مدة تلك الوصايةبانها صائرة الى الانتهاء . فحين دعي للمثول امام احدى اللجان التي زارت فلسطين وسئل كم يجب ان يدوم الانتداب البريطاني في نظره ، جـاء جوابـه البديهي : « الى الابد » (١٠) . والتصق به الجواب فصار بمثابة لقب ملازم له : « زاخر ـ الى ـ الابد » («For - Ever - Sacher») ـ على حد قول جفريز .

ثم جاء التغيير الوزاري في نهاية ١٩١٦ ليأتي بلويد جورج رئيسا للحكومة ويخرج هربرت صموئيل ، واسكويث والمركيز اوف كرو ، علما بان الاول والثالث من اشد المتحمسين للصهيونية . فوجد الصهيونيون في لويد جورج وبلفور خير من يكنّ العطف الشديد لقضيتهم .

وقد سبق للزعماء الصهيونيين ان عكفوا منذ اواخر صيف ١٩١٦ على وضع صيغة مذكرة تتضمن البرنامج الصهيوني لفلسطين . وفرغوا من اعداد المسودة الاولى في نهاية تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٦ . غير ان الصيغة النهائية للمذكرة ـ البرنامج لم ينته تعديلها وتغييرها الا في اواخر تشرين الثاني ، نوفمبر . كما يعتقد شتاين (المصدر السابق ، ص ٢٩٨) بان هذه المذكرة لم تقدم الى الحكومة البريطانية على الاطلاق. بل جرى تعديلها من جديد في العالم التالي ، وبعد تاليف حكومة لويد جورج ، لكي يبعث بها الحاخام موزس غاستر الى السير مارك سايكس في اول شباط (فبراير) ١٩١٧ ، ولم يتمكن شتاين من معرفة اية مسودة من المسودات الثلاث قد تم ارسالها الى سايكس آنذاك . واكتفى بتقصي قصة سابقاتها والاشارة الى تعاون كل من الزعماء الصهيونيين وهربرت صموئيل والاعضاء المؤيدين للصهيونية في اسرة روتشيلد على اعداد تلك المذكرة .

ومن الملاحظ ان النص الالماني للمذكرة ، كما نشرت في « تقارير اللجنةالتنفيذية للمنظمةالصهيونية الى المؤتمر الصهيوني الثانيعشر» (١١)

---

١٠ ـ راجع جفريز ـ **المصدر السابق** .

١١ ـ «Berichte der Exekutive der Zionistischen Organisation an den XII. Zionisten Kongress, 1921. انظر ايضا النص الذي اورده Arno Ullmann — **Israels Weg Zum Staat, p. 246 - 9.** بينما يذكر كتاب «Esco Foundation for Palestine» (ج ١ ، ص ٨٧ ـ ٨٨)

(التتمة على الصفحة التالية)

(كارلسباد ١٩٢١) لا يتضمن اشارة واضحة الى حدود فلسطين . بـل يتحدث عن « البرنامج المؤقت » (Das provisorische Programm 1916) القائم على افتراض وقوع فلسطين تحت الحماية او السيادة للسيطـرة البريطانية او الفرنسية (وقوعها ضمن منطقة نفوذ الدولتين) او وضعها

بأن الصهيونيين فرغوا في تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٦ ، من اعداد مسودة للمقترحات الصهيونية حظيت صياغتها بعناية فائقة ، واعطيت العنوان التالي :

« مخطط برنامج لمنح فلسطين ادارة جديدة واعادة توطين اليهود هناك وفقا لاماني الحركة الصهيونية » «Outline of a Programme for a New Administration of Palestine and for a Jewish Resettlement of Palestine in accordance with the Aspirations of the Zionist Movement» وتقدموا بالبرنامج المذكور الى وزارة الخارجية البريطانية لكي تجري المفاوضات على اساسه . ويؤكد الكتاب نفسه بان سوكولوف صاحب الفضل الاول في صياغة البرنامج الذي جاء نتيجة مناقشات طويلة اشترك فيها وايزمان ، الحاخام غاستر وهربرت بنتويش بصفتهم اعضاء في اللجنة السياسية ، بالاضافة الى اخذ مشورة احد هاعام وبوريس غولدبرغ والحصول على موافقة هربرت صموئيل وكل من اللورد ليونيل فالتر روتشيلد وجيمس دي روتشيلد . (انظر ـ المصدر نفسه ، حاشية رقم ٥٦ ، ص ٨٨) . كما ان المقترحات الصهيونية خلال الاجتماع الى السير مارك سايكس في ٧ شباط (فبراير) ١٩١٧ تضمنت النقاط الاساسية التالية من ناحية الحدود :

أ ـ الاعتراف الدولي بحق الشعب اليهودي في فلسطين .

ب ـ الاعتراف بالمستوطن اليهـودي في فلسطين كامـة بالمعنى القانوني ، تتمتع بالحكم الذاتي في نطاق دائرة كبيرة وحق استعمال اللغة العبرية وجباية الضرائب ...

ج ـ ضم مساحة فلسطين التاريخية باكملها وتوحيدها تحت ادارة موحدة .

د ـ منح الاماكن المقدسة امتيازات خاصة خارجة عن اراضـي الدولة . (انظر المصدر نفسه ، ص ٩٤ . نقلا عن كتـاب

(التتمة على الصفحة التالية)

تحت السيطرة المشتركة للدولتين الحليفتين . وينظر الى ذلك من زاويتين: أ ــ من زاوية اليهود المقيمين حاليا في البلاد ، ب ــ من زاوية اعادة توطين الجماهير اليهودية المقيمة خارج فلسطين . كما يؤكد لنا شتاين بان الصيغة التي جرى تقديمها الى السير مارك سايكس آنذاك انتهت الى تلخيص الخطة الصهيونية على الشكل الآتي :

Gelber الصادر بالعبرية : « وعد بلفور وتاريخه » ؛ المنظمة الصهيونية ، القدس ١٩٣٩) .

ويمضي الكتاب المذكور في استعراض المقترحات التي تقدم بها سايكس خلال الاجتماع المذكور . فينسب اليه تحديد المساحة التي ستخضع لسيطرة الشركة اليهودية للاستعمار على الشكل الآتي:

« يحدها الى الشمال خط يسير من عكا متجها الى الشرق صوب نهر الاردن وحتى تخوم حوران . ويمكن تعيين حدودها الجنوبية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . اما القطاع الذي سيجري تدويله فيشمل القدس والرقعة الممتدة منها غربا حتى البحر الابيض المتوسط بمحاذاة الخط الحديدي بين يافا والقدس ، بالاضافة الى مدينة يافا التي يدخل منها الحجاج الروس » . (المصدر نفسه ، ص ٩٣) .

فيؤكد لنا ان مقترحات سايكس اثارت مناقشات طويلة ، اذ اعتبر الصهيونيون الحدود المعروضة عليهم غير كافية لمطامعهم . فقد ابقت اقساما كبيرة من الجليل خارج نطاق عمل « الشركة » واستثنت منطقة حوران التي تستوعب هجرة يهودية واسعة المدى . ولم يرحب الزعماء الذين استمعوا الى سايكس باقتطاع مساحات ليجري تدويلها ، مصرّين على اعتبار القدس مدينة يهودية ومعظم المستعمرات اليهودية قائمة على طول الخط الحديدي بين يافا والقدس . كما ان هربرت صموئيل وروتشيلد لم يرحبا بالاقتراح الداعي الى تفاوض الصهيونيين مع فرنسه ، بل طالبا بريطانيه ببسط سيطرتها المباشرة على فلسطين . وهكذا ترك المسؤولون البريطانيون للصهيونيين امر الاتصال بفرنسه واقناع المسؤولين فيها بمعارضتهم للوصاية المشتركة واصرارهم على المحمية البريطانية . وجرى اختيار سوكولوف للقيام بهذه المهمة . (انظر ، ص ٩٤) .

« الاعتراف بفلسطين على انها الوطن القومي اليهودي ، حيث يمنح اليهود حرية الهجرة اليها من جميع البلدان ، ويتمتعون بكافة الحقوق القومية السياسية والمدنية . منح براءة لشركة يهودية ، والسماح للسكان اليهود في البلاد بانشاء حكومة محلية ، والاعتراف رسميا باللغة العبرية » (١٢) .

ولا يختلف ذلك النص عما اورده هربرت سايدبوثام تحت المسودة الاولى لوعد بلفور (راجع اعلاه) والتي نسبها الى اللجنة الخارجية المشتركة في آذار (مارس) ١٩١٦ ، الا من حيث ادخال عبارة « الوطن القومي اليهودي » ومطالبة الدول الحليفة ان تعترف بفلسطين على انها ذلك الوطن . وفي الرسالة التي بعث بها سايكس الى هربرت صموئيل عشية سفر الاول الى بتروغراد (٢٦ شباط ، فبراير ، ١٩١٦) نجده يتحدث عن : قراءة المذكرة واتلاف نسختها بعد حفظ مضمونها في ذاكرته . ويفضل ان تعهد الدول الحليفة الى بلجيكه كوصي على ادارة فلسطين ، لان ذلك يجعل مسألة الوصاية مقبولة لدى فرنسه كبديل لتدويل الادارة . ثم يعبّر عن رايه بان الحدود كما جرى رسمها (١٣) قد جاءت اكثر مؤاتية مما لو كانت موسعة . فاستثناء الخليل وشرقي الاردن يقلل من المسائل المرشحة للبحث بشأنها مع المسلمين ، ويصبح المسجد الاقصى (مسجد عمر) بمثابة المسألة الوحيدة ذات اهمية حيوية للتباحث بشأنها معهم ، كما يبطل ذلك كل اتصال بالبدو الذين لا يعبرون نهر الاردن الا لقضاء اعمالهم ومتابعة اشغالهم . ومما قاله السير مارك سايكس في تلك الرسالة ايضا : « أتصور الهدف الرئيسي للصهيونية على انه تحقيق المثال الاعلى لمركز قومي (لليهود) (an existing centre of nationality) وليس الحدود او اتساع الرقعة » (١٤) .

وفي مطلع ١٩١٧ اصبح الصهيونيون في وضع قوي ازاء الحكومة البريطانية ، مما حمل البعض على الاعتقاد بصعوبة التخلي عن الوضع

---

١٢ ــ انظر شتاين ــ المصدر نفسه ، ص ٣٦٩ .

١٣ ــ هل يعني بذلك الحدود التي رسمت على الخريطة المربوطة باتفاقية سايكس بيكو ؟ المعروف ان الاتفاقية تمت فيما بعد على صورتها النهائية . وربما يشير الى مسودة الاتفاقية آنذاك .

١٤ ــ انظر نص الرسالة في شتاين . المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ــ٢٣٤ . فهل كان يعني مذكرة صموئيل ، ام غيرها ؟

الذي احرزوه . فجاء الاجتماع الذي تم عقده في بيت الحاخام غاستر بين مارك سايكس وخمسة من الزعماء الصهيونيين (١٥) ـ في ٧ شباط (فبراير) ١٩١٧ ـ بمثابة نقطة تحول جديدة . بينما اصر جميع المتحدثين الصهيونيين ، كل بمفرده ، على مسألة الوصول الى موافقة رسمية بشأن وضع الوطن القومي وانشائه في ظل الحماية البريطانية . وقد اكد لنا كريستوفر سايكس بان بعض الملاحظات التي ابدوها في ذلك الاجتماع تبيّن بوضوح سماعهم بالشائعات حول التوصل الى اتفاق انجلو-فرنسي بشأن فلسطين (اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية) . وان تخميناتهم لخطوط الاتفاق العريضة قد جاءت صحيحة (١٦) . كما ان رئيس تحرير المانشستر غارديان ، المستر سكوت ، سارع الى تحذير صديقه الحميم وايزمان من احتمال تراجع السير مارك سايكس (الكاثوليكي) امام المطالب الفرنسية في الشرق والتسليم بها . ولم يكتف بذلك ابدا ، بل اقدم على اخبار وايزمان بكل شيء توصل الى معرفته : اذ اخبره احدهم ، على ما يبدو ، اثناء زيارته لباريس في (نيسان ، ابريل ، ١٩١٧) بوجود اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية . فما كان منه الا ان افشى السر وباح بكل شيء على مسمع وايزمان في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩١٧ (١٧) . وهكذا اصبح الصهيونيون على معرفة تامة منذ ذلك الحين بأسرار الاتفاقية ، وتصرفوا على هذا الاساس . وقد نبّهنا كريستوفر سايكس الى الدور البارز الذي يجب تعيينه لهربرت صموئيل ، على الرغم من كونه خارج الحكم آنذاك . وتحدث عن سعي السير مارك سايكس للحصول على مشورة هربرت صموئيل بصدد ما يمكن البوح به من اتفاقية سايكس ـ بيكو . فقال : «اعطى صموئيل جوابا حذرا يمكن تفسيره كتعبير عن جهل او حماقة »(١٨) . غير ان الزعماء الصهيونيين اعربوا عن قبولهم منذ ذلك الحين بالسير على هدى نصيحة السير مارك سايكس ، وبعد موافقة هربرت صموئيل .

ومما لا شك فيه ان اتفاقية سايكس ـ بيكو جاءت بمثابة تحقيق

---

١٥ ـ حضر الاجتماع المذكور ، بالاضافة الى سايكس وغاستر ، كل من هربرت صموئيل ، وايزمان ، سوكولوف لورد روتشيلد ، جيمس دي روتشيلد ، جوزيف كووين ، زاخر ، وهربرت بنتويش . (انظر : شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧٠ .

١٦ ـ انظر كريستوفر سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

لرغبات الصهيونيين في ناحية بالغة الاهمية من نواحي ما تضمنته :
« لانها اعطت فلسطين هوية جغرافية للمرة الاولى بعد مئات من السنين » (١٩) .

والمعروف ان اقتسام مناطق النفوذ الزرقاء والحمراء توقف عند المنطقة السمراء التي اصبحت فيما بعد الكيان الجغرافي الفلسطيني . ولو عدنا بالذاكرة الى تلك المذكرة التي قدمها هربرت صموئيل قبل عامين (آذار ، مارس ، ١٩١٥) حول ما اسماه « مستقبل فلسطين » ، لامكن القول ان اتفاقية سايكس ـ بيكو كانت « صهيونية المنشأ » (٢٠) . ولجاز لنا القبول برأي كريستوفر سايكس القائل بان بند الاتفاقية الخاص والمتعلق بفلسطين (المنطقة البنية اللون) هو الى درجة كبيرة نتيجة العوامل التالية : أ ـ مذكرة هربرت صموئيل الآنفة الذكر، ب ـ مساعي الحاخام غاستر للتأثير على السير مارك سايكس وحمله على اعتناق المذهب الصهيوني ، و ج ـ التأثير الذي مارسه سايكس على المسيو جورج بيكو آنذاك (٢١) . وعلى الرغم من معارضة الاتفاقية المذكورة للاماني الصهيونية ـ في اصرارها على تدويل قطاع فلسطين والاماكن المقدسة ـ فقد خدمت الصهيونية من خلال حنثها بالوعود البريطانية للشريف حسين بصدد استقلال العرب .

وقبل الانتقال الى متابعة الحديث عن المعادلات الثلاث الباقية ، تجدر الاشارة الى الدور الذي لعبه ناحوم سوكولوف في اقناع المسيو جورج بيكو (٩ شباط ، فبراير ، ١٩١٧) بقبول السيادة البريطانية على فلسطين وتبنّي وجهة النظر الصهيونية . مع العلم بان اكثرية الساسة الفرنسيين كان همها الاول آنذاك التوكيد على رسالة فرنسه التاريخية في شرقي المتوسط . وهكذا ذهب سوكولوف الى باريس بصحبة السير مارك سايكس الذي رتب له الاجتماع بعدد من مسؤولي وزارة الخارجية الفرنسية ، رغبة منه في ابعاد شبهة التواطؤ الصهيوني مع بريطانيه . ثم سافر الرجلان ، كل على حدة ، الى ايطاليه والفاتيكان . واستطاع سوكولوف ان يحظى بمقابلة قداسة البابا بنديكت الخامس عشر في ١٠ ايار (مايو) ١٩١٧ ، بعد اجتماعه الى المونسنيور باتشيللي (البابا بيوس

---

١٩ ـ المصدر نفسه .
٢٠ ـ المصدر نفسه .
٢١ ـ المصدر نفسه .

الثاني عشر فيما بعد) ، مساعد ناظر الشؤون الخارجيــة . فالقى على مسامع قداسته محاضرة مدروسة فسر فيها المشروع الصهيوني وشرحه بالتفصيل ، بناء على رغبة البابا . وتحدث عن « برنامجنا الذي يتألف من شقين » : أ ـ انشاء مركز روحي وحضاري لليهود بفلسطين ، ب ـ اقامة وطن قومي لليهود المضطهدين (٢٢) . فترك حديثه ، على ما يبدو ، صدى عميقا في نفس قداسة البابا ، الذي ابدى اعجابه بالفكرة الرائعة . وعمد سوكولوف الى الاختباء وراء التعبيرات البلاغية والخطابية ، كلمــا وجه اليه البابا سؤالا محرجا للاستفسار عن اهداف المشروع . فراح يمطــر قداسته بوابل من العبارات الطنانة مشيرا الى حق اليهود بالحصول «على مكان تحت الشمس ـ في ارضنا » (٢٣) . وافاض في الشرح لتطلعات اليهود صوب المستقبل وفي سبيل بعث اليهودية التاريخية والاحيــاء الروحي والمادي للوطن ، « مما يجسد عبقريتنا القومية وتقليدنا الكتابي المقدس في أجلى مظاهره واصفاها » .

وحين سأله قداسة البابا عن وجود متسع من المكان في فلسطين يكفي لوضع المشروع موضع التنفيذ ، جاء جواب سوكولوف مثالا آخر على التهرب الماهر والمراوغ : « هناك امكانية في الوصول الى هدفنــا . لكن يجب علينا تمهيد السبيل لذلك اولا » (٢٤) . ثم عاود الكرة محاولا ان يعرف من محدثه ما اذا كان يرجح استيطان العديــد مــن اليهود في فلسطين . فكان جواب سوكولوف دليلا ثانيا على التهرب والمراوغة : « النخبة الممتازة (من اليهود) ـ واولئك الذين قاسوا العذاب اكثر من غيرهم » (٢٥) . ثم لجأ سوكولوف الى تغيير موضوع الحديث متنقلا بين « المنجزات الزراعية الرائعة » للرواد الصهيونيين في فلسطين واوضاع اليهود في اوروبه الشرقية . وقبل ان يخرج من المقابلة طلب سوكولوف من قداسة البابا ان يمنح الصهيونية تأييده المعنوي ، فجاءه الجواب :

---

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠١ . وقد نقل سايكس هذه الوقائع عن اجتماع سوكولوف بقداسة البابا عن التسجيل الذي قام به ابن سوكولوف ، فلوريان ، استنادا الى اوراق والده . ونشره في مجلة « صهيون » (Zion) كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٥٠ .

٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .

٢٤ ـ المصدر سفنه ، ص ٢٠١ .

٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

« نعم ، نعم ، اعتقد اننا سنكون خير جيران » (٢٦) .

ومن هنا ادرك سولوكوف ان الطريق الى باريس لكسب ود ساستها يمر عبر الفاتيكان . فسارع الى الاستفادة من الاستحسان الذي اعرب عنه بنديكت الخامس عشر بصراحة من خلال حديثه عن « حكومة فلسطينية تديرها بريطانيه العظمى ، اوسع الدول الاستعمارية خبرة واكبرها في العالم » ، وحقق نصره على مناوئي الصهيونية الفرنسيين بالحصول على وثيقة رسمية من الامين العام لوزارة الخارجية الفرنسية ، جول كامبون ، مؤرخة في الرابع من حزيران (يونيو) ١٩١٧ . فأكدت الوثيقة بان الحكومة الفرنسية « لا يسعها الا الشعور بالعطف على قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار الحلفاء » . وبعد ضمان هذا العطف الفرنسي كانت عودة الصهيونيين الى قواعدهم البريطانية للحصول على صيغة مرضية للعطف الذي تكنه لهم حكومة جلالة الملك .

ففي منتصف حزيران (يونيو) ١٩١٧ قام سولوكوف بتسليم وزارة الخارجية البريطانية نسخة عن الوثيقة التي بعث له بها كامبون على صورة رسالة . ويبدو ان المسؤولين الفرنسيين والزعماء الصهيونيين ، ولكل فريق منهما اسبابه ودوافعه وتحفظاته ، لم يتحمسوا لنشر مضمون تلك الرسالة ــ الوثيقة واعلانها على الملأ . فقد تخوف الفرنسيون من استعداء انصارهم ومؤيديهم في سوريه ، بينما لم تكن لدى الصهيونيين رغبة خاصة في اظهار فرنسه ، بدلا من بريطانيه ، على انها الرائدة الاولى في اصدار تصريح رسمي لصالحهم . ويبدو كذلك ان سولوكوف رفض اطلاع اللجنة السياسية ، الصهيونية ــ التي كانت قد تألفت في كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ ــ على مضمون الرسالة . على الرغم من افشائه لمضمونها بشتى الوسائل والايضاحات التي اعطاها بصدد « المرة الاولى التي تلزم فيها نفسها حكومة ما بتصريح يعترف بوجود قومية يهودية في فلسطين » (٢٧) .

---

٢٦ ــ المصدر نفسه .

٢٧ ــ انظر شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٤١٧ . هذا وقد جرى تعيين اللجنة السياسية في لندن من بين الاعضاء البارزين في المنظمة الصهيونية وفي صفوف الصهيونيين البريطانيين . كان بول غودمان امينها الفخري وضمت وايزمان ، سوكولوف ، احد هاعام ، يحييل تشلينوف، جابوتنسكي، ليوبولد غريتنبرغ ، هربرت بنتويش وبوريس غولدبرغ .

وليس بمستبعد ان يكون الصهيونيون قد قرروا استخدام الرسالة آنفة الذكر كأداة للمساومة وحمل اصدقائهم البريطانيين على المزايدة عليها . كما قد تكون النوايا الحليفة من وراء رسالة كامبون آنذاك على صلة وثيقة بالمهمات التي عهد بها الى سفير الصهيونية المتجول، سوكولوف. فقد اعربت باريس ولندن رغبتهما في ذلك الحين ان يقوم الصهيونيون باستعمال نفوذهم لدى اليهود الروس ــ وبعد قيام الثورة البولشيفية والدور الذي لعبه الاشتراكيون اليهود والصهيونيون الروس ــ لحملهم على الوقوف الى جانب الحلفاء وتأييدهم ، كما اكد سوكولوف على مسمع كامبون قبوله بالمهمة الموكولة اليه وثقته باحراز النجاح في هذا المضمار . وربما كان الفرنسيون على معرفة تامة بمعارضة الصهيونيين الروس لفكرة استصدار وعد بريطاني يعطف على الاماني اليهودية التوسعية بفلسطين . كما ان المصلحة الفرنسية والمطالب التي ارادتها فرنسه لنفسها في فلسطين لا شك قد لعبت دورا بارزا في عزم الفرنسيين على محاولة ابعاد الحركة الصهيونية من الاعتماد الكلي على بريطانيه (٢٨) . وهكذا وجد الصهيونيون انفسهم امام شتى الولاءات والارتباطات التي لم تتنازعهم طويلا . فقرروا الرجوع الى القواعد البريطانية بلا تردد ، بعد تقدم الهجوم البريطاني على فلسطين (ربيع ١٩١٧) و « البرود » الذي اخذ الراي العام الفرنسي يقابل به فكرة الدولة اليهودية (٢٩) . وعقدوا العزم نهائيا على اختيار الجواد البريطاني للمراهنة عليه ، حتى انه لم تؤخذ مشورة الحكومة الفرنسية مسبقا بصدد وعد بلفور . مما قد يتضمن تلميحا الى تنافس الدول الحليفة على خطب ود اليهود وتسابقها لاغداق العطف والوعود على مزاعمهم ومشروعاتهم في فلسطين .

وفي المعادلة الثالثة (تموز ، يوليو ، ١٩١٧) التي تقدمت بها اللجنة الصهيونية الى بلفور ، بعد ان اطلع عليها السفير مارك سايكس والبارون ادموند دي روتشيلد والرئيس الاميركي ويلسون ، نجد سوكولوف قد افلح في ادخال عبارة « الوطن القومي اليهودي » على صيغة التصريح المرتقب (٣٠) . وقد تم اعداد هذه المسودة وتقديمها اثناء غياب

---

٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤١٨ .

٢٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٤١٩ .

٣٠ ــ راجع النص الكامل في سايدبوتام ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨ ــ ٥٩ (انظر ايضا ، شتاين ــ **المصدر السابق** ، ص ٣٦٩) .

وايزمان. اذ غادر لندن في اواخر شهر حزيران (يونيو) للاقاة كل من مورغنتاو وفليكس فرانكفورتر في جبل طارق واحباط المحاولات الاميركية للاتصال باحرار الاتراك في سويسره والاتفاق معهم على معاهدة صلح . ولم يرجع الا في ٢٢ تموز (يوليو) . بينما تزعّم سايدبوثام وزاخر الجناح الصهيوني ـ البريطاني الذي مضى في اصداره على تضمين النص عبارة صريحة تعلن للملأ عطف بريطانيه الرسمي على انشاء « دولة يهودية » في فلسطين بأسرها ، بدلا من الاحتماء الدبلوماسي خلف عبارة « وطن يهودي **في** فلسطين » . وجاءت الصيغة المعدلة لاقتراحهم تشير الى هذا البديل وتتحاشى القول بجعل فلسطين كلها وطنا يهوديا . ولم يعبأ سايدبوثام وزاخر بمناشدة سوكولوف للمتطرفين ان ينهجوا سبيل الاعتدال والدبلوماسية . بل راح كل منهما يعد مسودة للتصريح على هواه ، ورائدهما الاول والاخير « جعل فلسطين كلها يهودية ، كما هي اميركه اميركية وانجلتره انجليزية تماما » . وقد تحدث سايدبوثام عن الصياغتين اللتين اصر هو وزاخر على اعتمادهما تحت تسمية « المعادلة الخامسة » ، محاولا اظهار المطابقة وعدم التعارض بين « الدولة الفلسطينية اليهودية الطابع » وبين الشرط الذي نص عليه وعد بلفور بانه « لن يؤتى بعمل من شأنه ان يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين »(٣١). وحاول اعطاء تأكيداته وتفسيراته بأن « الطابع اليهودي » لا يعني بالضرورة اقتصار فلسطين على العنصر او العرق اليهودي وحده (Jewish by race) . لكنه لم يجد من الضروري نقل النص الكامل والحرفي للمسودة التي اعدها هو وزاخر ـ بعد مضي عشرين عاما على صدور وعد بلفور . وجاء ليونارد شتاين في كتابه عن **وعد بلفور** ليعوض عن ذلك السهو المتعمد وينقل الينا خلاصة ما تضمنته المسودتان . فقد ناشد زاخر الحكومة البريطانية ان تعلن بان « احد اهدافها الجوهرية في الحرب هو اعادة تأسيس فلسطين كدولة يهودية وكوطن قومي للشعب اليهودي .... على ان يكون الشكل المحدد لاعادة التأسيس هذه فلسطين متكاملة في دولة تحكم نفسها بنفسها (٣٢) . بينما ارفق زاخر مسودته التي بعث بها الى سوكولوف بنسخة عن مسودة سايدبوثام التي ضمنها تفسيره لما تعنيه عبارة «الدولة اليهودية» في نظره : « ليست دولة » تقتصر عضويتها على اليهود ، بل كدولة يكون

---

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
٣٢ ـ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٤٦٦ .

طابعها القومي السائد ... يهوديا ، تماما كما هو الطابع القومي السائد لانجلتره انجليزيا ولكنده كنديا ولاستراليه استراليا » (٣٣) . ولا نعرف ما اذا انفرد زاخر وسايدبوثام وحدهما بالاصرار على مسألة « الدولة اليهودية » ، مع العلم بانعدام حظ المسودتين في التبني . فالمطالب الصهيونية بقيت هي هي ولم تتغير منذ تقدم بها الزعماء الصهيونيون الى السير مارك سايكس في شباط (فبراير) ١٩١٧ . لكن التكتيك الصهيوني الذي تبناه سوكولوف ووايزمان ، محاولين اضفاء صفة «الاعتدال» عليه، كان يقضي بتقديم « الحصول على موافقة عامة على الاهداف الصهيونية في صورة مقتضبة جدا وحافلة بالمعاني بقدر الامكان » على مسألة الاتفاق حول البرنامج الصهيوني بالتفصيل او نيل موافقة الحكومة البريطانية على مطالب الزعماء الصهيونية (٣٤) . ولم تكن مسألة اعطاء الافضلية لتصريح رسمي بالموافقة العامة وفي صيغة مختصرة ومفيدة سوى الخطوة الاولى التي يتم القفز منها الى سائر المطالب والاهداف — دون الاتيان على ذكرها صراحة ، بل بالعمل على تنفيذها تحت ستار الوعد الحافل بالمعاني وباعتباره حمّال اوجه وتفسيرات عديدة لا طائل تحتها .

والمعروف ان بلفور رجع من اميركه في التاسع من حزيران (يونيو) حاملا معه انباء المساعي الاميركية للاتصال ببعض السياسيين الاتراك المقيمين في سويسره . وقد كان لكل من جيمس مالكولم وحاييم وايزمان اليد الطولى في اخبار برانديس بوجود تلك الاتصالات . كما نمي الى الصهيونيين خبر انتقال مبعوثين فرنسيين الى سويسره لاجراء اتصالات تمهيدية مع اعضاء « الحزب العثماني للسلام والتحرر » . فما كان من وايزمان الا ان ذهب بصحبة مالكولم الى وزارة الخارجية البريطانية غداة رجوع بلفور ، وسرعان ما قام بلفور شخصيا باعداد ترتيبات سفر وايزمان الى جبل طارق لملاقاة مورغنتاو وعرقلة المساعي التي جاء من اجلها (٣٥) .

---

٣٣ — المصدر نفسه .

٣٤ — المصدر نفسه .

٣٥ — تمكن الصهيونيون البريطانيون منذ مطلع شباط (فبراير) ١٩١٧ ، وبفضل الجهود التي بذلها مارك سايكس، من اجراء اتصالات مع كل من برانديس وتشلينوف طمعا بكسب الرأي العام اليهودي في كل من اميركه وروسيه . واتيح لوايزمان وسوكولوف ارسال معلومات

وفي تلك الاثناء لجأ الصهيونيون الى حيلة مبتكرة للايقاع بحلفائهم البريطانيين . فتسربت الى لندن معلومات مؤداها ان الحكومة الامبراطورية الالمانية قد تفكر ببسط حمايتها على الصهيونية في فلسطين ، فيما لو اقدم الصهيونيون على اعلان ولائهم لالمانيه ودول المركز . مع العلم بأن السياسة الالمانية في الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية كانت ستعني القضاء على كل مستقبل للصهيونية في فلسطين (٣٦) .

ولا بد من الاشارة هنا الى ما اعتبره بعض الباحثين بمثابة شواذين عن القاعدة العامة في عدم التدخل التي استندت اليها السياسة الاميركية ازاء تركيه آنذاك (٣٧) . فالشواذ الاول تمثل في بعثة مورغنتاو والمهمة التي ارسل من اجلها ، بينما جاءت سياسة الرئيس ويلسون بصدد وعد بلفور تجسيدا للشواذ الثاني . كما لا يجوز التقليل من اهمية الدور الذي لعبه الصهيونيون الاميركيون منذ مطلع الحرب .

وهكذا جاءت المعادلة الرابعة لتصبح النص الرسمي لوعد بلفور الشهير . واكد سايدبوثام ان الشق الثاني الذي يتضمن الشرط الآنف الذكر لم تجر اضافته الا للرد بطريقة مرضية على اعتراضات السير فيليب ماغنوس والمستر كلود مونتيفيوري ــ من الزعماء اليهود الاصلاحيين والليبراليين . كما نبهنا الى تعذر ترجمة لفظة « هوم » (Home) « وطن » الانجليزية الى اللغات الاوروبية الاخرى ترجمة تنقل المعنى المقصود بأمانة ودقة . اذ جاء النص الفرنسي لوعد بلفور على ذكر كلمة

سرية الى واشنطن وموسكو بعيدا عن اعين الرقابة الحربية وبالطرق الرسمية البريطانية، وسرعان ما اصبحت الاجهزةالتابعة للسلطات العسكرية البريطانية تستخدم لنقل المعلومات الصهيونية واجراء الاتصالات اللازمة . حتى بلغ عدد الرسائل والبرقيات المتبادلة حتى نهاية ١٩١٧ بين الزعماء الصهيونيين في لندن وسائر زملائهم في الخارج حوالي المائتين . وقد جرى تبادلها عن طريق دائرة الاستخبارات العسكرية التابعة لوزارة الحربية البريطانية . (نقلا عن شتاين ــ **المصدر السابق** ، ص ٣٧٧) .

٣٦ ــ انظر كريستوفر سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٧ .

٣٧ ــ راجع ما كتبه **Lawrence Evans — United States Policy and The Partition of Turkey : 1914 - 1924. (The Johns Hopkins Press. Baltimore, 1965), p. 43.**

(Foyer) . والايطالي لفظة « مركز » (Centro) (٣٨) . بينما لجأت الترجمة الالمانية الى لفظة (Heimstätte) السالفة الذكر والتي وقع عليها اختيار ماكس نوردو قبل سنين . ولا غرو فان سايدبوثام يشير كذلك الى كون لفظة « كومنولث » او « الكومنولث المتمتع بالحكم الذاتي » غير مرادفة لعبارة « الوطن القومي » (٣٩) . ويرد على المعترضين بقوله ان عبارة « الوطن القومي اليهودي » في وعد بلفور بقيت تفسر حتى عام ١٩١٩ بما معناه ومفاده «دولة يهودية » . ثم يستدرك بانها دولة تمنح جميع المواطنين الفلسطينيين حقوقهم بالتساوي ودون الالتفات الى العرق . ولا يساوره ادنى شك بان هذا المعنى الاخير هو ما كان يدور بخلد المستر بلفور حين اصدر وعده . غير انه يرى في السنوات الثلاث التالية (١٩١٩ ـ ١٩٢٢) مسرحا شهد تقييدا كبيرا افضى الى الحد من « هذا المثال الاعلى الاصلي » (٤٠) .

واذا كان الصهيونيون الشعوبيون او الامميون قد بزوا الصهيونيين اليهود في غيرتهم واندفاعهم للمطالبة بدولة يهودية داخل حدود توسعية بحجة متطلبات النمو الاقتصادي والامن وفي سبيل تلافي الفشل الاستراتيجي الذي منيت به مملكة بني اسرائيل في التاريخ القديم ، فان وايزمان قد سارع بدوره الى قطع الطريق على هذا « التمادي الاحمق » باعتباره من السابق لاوانه ولا تمليه اعتبارات سياسة الدولة الحكيمة التي تعتمد المرحلية وتعمل على تحقيق اهدافها خطوة خطوة ، وبصمت المطمئن، لكي تضمن الوصول الى هدفها الاخير .

وهذا ما اعلنه وايزمان بالذات في ايار (مايو) ١٩١٧ بينما كانت المفاوضات سائرة على قدم وساق :

« نسمع من اصدقائنا ، اليهود وغير اليهود على السواء ، بان غاية الحركة الصهيونية السعي لانشاء دولة يهودية في فلسطين ....

---

٣٨ ـ سايدبوثام ـ **المصدر السابق** ، ص ٦١ .
٣٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . وقد وردت لفظة « كومنولث » هذه في مذكرة المطالب التي رفعتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر فرساي للصلح في شباط (فبراير) ١٩١٩ . كما استخدمها المؤتمر اليهودي الاميركي (كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩١٨) في قراره الداعي لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني .
٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

لا يمكننا اعتبار (آراء من هذا القبيل) بانها تمثل على نهج مأمــون في ادارة شؤون الدولة او الحكم . ومهما تكن الحركة الصهيونية على درجة من القوة ... فلا بد من التسليم بان الاوضاع لم تبلـغ ذلك النضج بعد ، والذي يسمح باقامة الدولة المعنية بالــذات . والدول يجب ان تبنى ببطء وتدريجيا ، بصورة منظمـة وبصبـر . لذلك نقول بأن خلق كومنولث يهودي في فلسطين هو مثالنا الاعلى والاخير ... بينما السبيل الى تحقيقه يمر عبر سلسلة من المراحل المتخللة والوسيطة » (٤١) .

فعبّر بهذا التصريح عن مبادىء المرحلية او السياسية التدريجية التي اختار السير في ضوئها دون التخلي عن الهدف الاخير للحركةالصهيونية. اما الحدود التي شاءها وايزمان فطالب بتعيينها ورسمها خلال المرحلة التي تلت صدور وعد بلفور فقد اعرب عنها صراحة في مقابلة اجراها معه والتر ديورانتي في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩١٩ ــ وبعد يوم واحد مــن اجتماع مجلس العشرة التابع لعصبة الامم ــ ونشرتها صحيفة «نيويورك تايمز» في الثالث من آذار (مارس) ١٩١٩ :ــ تعيين حدود فلسطين : « فلسطين كلها من متصرفية جبل لبنان المستقل الى الحدود المصريـة ومن البحر الى الخط الحجازي الحديدي » يجب ان نفتح ابوابها امـام الاستيطان اليهودي الذي سيتحول في السياق الاخير الى كومنولـث يهودي يتمتع بالحكم الذاتي (٤٢) . ولم يكن التصريح المذكور هو الوحيد من نوعه على لسان وايزمان . بل يمكن اعتباره مثالا صادقا على تلك المرونة السياسية التي اتسمت بها مبادىء المرحلية عنده . فهي اقرب الى المناورة والمراوغة ، لكنها لا تتردد في الخروج عن صمتها متىاحرجت او حين وجدت ذلك مناسبا لمطالبها وخادما لاهدافها القريبة او البعيدة .

ومن الكتب التي صدرت تحت اشراف « لجنة فلسطين البريطانية » خلال عام ١٩١٧ يسترعي انتباهنا كتابان اثنان من تأليف المؤرخ الصهيوني ــ البريطاني البرت هيامسون . فالكتاب الاول صدر بعنوان : « فلسطين: بعث شعب قديم » (٤٣) واعاد نشر الخريطة التي ضمها كتاب « الصهيونية

---

٤١ ــ راجع كريستوفر سايكس ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٢٦ .

٤٢ ــ Esso Foundation — **Palestine.** A Study of Jewish, Arab and British Policies. Vol. I, (Yale Univ. Press, New Haven, 1947), p. 161 - 162.

٤٣ ــ Albert Hyamson — **Palestine** .. The Rebirth of a Ancient People, (London, 1917).

والمستقبل اليهودي » السالف الذكر . كما حاول التمييز بين الصهيوني المتدين والصهيوني العلماني ، مؤكدا ان الاول كان ولا يزال من الذين يعيشون على الامل ، وليس العمل . فهو يتوقع مجيء المسيح المنتظر وعودة اسرائيل الى ميراثها ، ويأبى التدخل في سير التدبير الرباني لتعجيل فعل العناية الالهية ، كي لا يصبح تدخل الانسان تجديفا على الله. (انظر ص ١٦١) . اما الكتاب الثاني فقد اصدرته « جمعية فلسطين البريطانية » بالذات . وجاء بعنوان : « المشاريع البريطانية لارجاع اليهود » (٤٤) . اذ استعرض فيه مؤلفه تاريخ المساعي والمحاولات البريطانية لارجاع اليهود الى فلسطين واسترجاع ملك بني اسرائيل البائد . وعدد المشروعات التي تقدم بها بريطانيون على مختلف بواعثهم الدينية والسياسية والامبريالية بقصد اعادة توطين اليهود في فلسطين وتأسيس ملك جديد لهم في بلاد الغير .

ولا غرو فقد جاء هذان الكتابان بمثابة دليل اخر على التحالف الذي تم من خلال وعد بلفور بين الاستعماريين : البريطاني العريق في هذا المجال ، والصهيوني الجديد المتطلع الى عطف بريطانيه الرسمي والمختبىء في ظل حمايتها ووصايتها ، وانتدابها اللاحق .

---

٤٤ — Albert Hyamson — **British Projects for the Restoration of the Jews, (London, 1917).**

القسم الثالث

من بلفور الى بن جوريون

بعـد صدور الوعـد

١٩١٨ – ١٩٢٤

ما ان صدر وعد بلفور حتى سارعت المنظمة الصهيونية الى اصدار بيان وقعه كل من سوكولوف وتشلينوف ووايزمان ، واعلنت فيه ان الاماني التي جرى التعبير عنها في برنامج بازل قد وجدت الان مرساتها وقاعدة ارضية صلدة في تصريح الحكومة البريطانية الرسمي . ثم مضى موقعو البيان الى القول بان فترة الانتظار قد انتهت لتبدأ فترة التحقيق منذ الآن (١) . وتطوع المجتهدون والمفسرون لاستنباط شتى التطمينات المؤكدة بان التصريح المذكور يشير الى انشاء دولة يهودية في فلسطين تحت حماية الحلفاء او تأسيس جمهورية يهودية هناك . وهكذا كتب المستر سكوت ، رئيس تحرير المانشستر غارديان ، في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، لدى نشر نص الرسالة التي بعث بها اللورد بلفور الى اللورد روتشيلد ليقول : « ان ما يعنيه (الوعد) ، على أساس افتراض استمرار نجاحاتنا العسكرية ووقوع فلسطين كلها تحت سيطرتنا الاكيدة ، هو ان تكون سياستنا المتعمدة (والمدروسة) بعد ابرام الصلح بذل كل ما نستطيعه لتشجيع الهجرة اليهودية ومنح المهاجرين اليهود الامن التام ، بالاضافة الى مقدار كبير من الحكم الذاتي المحلي ، متطلعين صوب اقامة دولة يهودية في السياق الاخير » (٢) .

---

١ – انظر سوكولوف – **تاريخ الصهيونية** ، ج ٢ ، ص ١٢٤–١٢٧ .

٢ – نقلا عن **Esco Foundation — Palestine, Vol. I, P. 112**

وراى الصهيونيون ثمار تحالفهم مع بريطانيه على وشك النضج ، بعـــد ان جاء وعد بلفور لينشر الاطمئنان في نفوسهم بصدد الخطوة التالية . اذ كانت الخطوة الاولى قد تمت على يد اتفاقية سايكس ــ بيكو « السرية » لوضع فلسطين (المنطقة البنيّة اللون على خريطة اقتسام المغانم ومناطق النفوذ) تحت سيطرة دولية تشترك فيها الدول الحليفة . واصبح همهم الاوحد الحؤول دون التدويل والسعي لجعل تلك المنطقة محمية بريطانية، على أمل توسيع حدودها بشكل يتفق مع نواياهم ومطالبهم خلال تلــك المرحلـــة .

وما دمنا في معرض الحديث عن اتفاقية سايكس ــ بيكو وصدور وعد بلفور يجدر بنا التوقف قليــلا عند مسألة افتضاح أمر الاتفاقيات السرية ومن بينها اتفاقيـــة سايكس ــ بيكو . فقد أصدر تروتسكـــي ، مفوض الشؤون الخارجية السوفياتية منذ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية على حكم القياصرة ، اوامره بنشر نصوص الاتفاقيات السرية الموجودة في قلم المحفوظات بوزارة الخارجية الروسية . وكانت صحيفة المانشستر غارديان سباقة لنشرها في بريطانيه ، بعد ان ابرق مراسلها في بتروغراد (المستر فيليب برايس) بخلاصة ما تضمنته اتفاقية سايكس ــ بيكو حول الاستانة وممتلكات تركيه الآسيوية . فنشرت ذلك في عدديها الصادرين بتاريخ ٢٦ و ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ (٣) . مما اثار موجة من الاسئلـــة

رســالــة بعــث بهـــا جيمـــس مالكولـــم الـــى رئيـــس تحـــريـــر « السبكتيتور » ، تموز (يوليو) ١٩٤٤ . وقد وصف الســـير رونالد ستورز في كتابه **(Orientations)** « استشراقات » الصدى الذي لقيه صدور وعد بلفور بقوله :

(لقي الوعد صدى رائعا واستحسانا في الصحافة ، يضاف الى ذلك ما حظي به من التأييد العام والكبير لدى الآف من الكهنة الانغليكانيين والقساوسة البروتستانتيين وغيرهم من الرجـــال المتدينين في سائر انحاء نصف الكرة الغربي » . (انظر المصدر نفسه ، ص ٤٠٣) .

٣ ــ انظـــر Zeine N. Zeine — **The Struggle for Arab Independence Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom** in Syria, (Beirut, 1960,) P. 20-1. وقد استحصلت المانشستر غارديـــان على نسخـــة تتضمـــن النص الكامل لتلـــك الوثائـــق

المحرجة في مجلس العموم البريطاني . وحدا بالمستر بلفور الى استنكار الاقدام على نشر تلك الوثائق ، مؤكدا « بالطبع » ان قسما كبيرا منها « لا علاقة له البتة بهذه البلاد » بل يتصل بحكومات الدول الحليفة . كما انه اعتبر فكرة اعادة نشر « الوثائق المتعلقة بحلفائنا » غاية في السخف حتى تستحق كل ذلك الاهتمام (٤) . لكن الاتراك لم يشاطروا بلفور رايه ، فوجدوا ان المسألة تستحق اهتمامهم قبل ان يدلي المستر بلفور بتأكيداته

بعد ان نشرتها صحيفتا « الازفستيا » والبرافدا في عدديهما الصادرين بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ . ونشرت الترجمة الانجليزية في عدد ١٢ كانون الاول (ديسمبر) من العام نفسه . فسارع هربرت سايدبوثام الى ضم النص المذكور كملحق في كتابه **(England and Palestine)** الصادر في مطلع عام ١٩١٨ . (انظر سايدبوثام ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ، Appendix I) . غير انه ألصق بترجمة المانشستر غارديان تاريخ السادس من اذار (مارس) ، ١٩١٧ وهو تاريخ وقوع الثورة الروسية الاولى . مع العلم بان هذه الترجمة ظهرت في ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ . فهل كان ذلك مجرد خطأ مطبعي يتعلق بالشهر الصحيح أم العام المصحح ؟ أم ان المستر سكوت هو المسؤول عن هذه المعلومات التي ترامت الى سمعه في باريس ؟ وليس من السهل التكهن بدور الصهيونيين الروس من طراز بنحاس روتنبرغ وامثاله من الاشتراكيين الارهابيين الذين كانوا على صلة وثيقة بزعماء الثورة البولشفية . جل ما نعرفه من مذكرات وايزمان (**التجربة والخطأ** ، ص ١٦٨) ان روتنبرغ جاءه بخصوص الفرقة اليهودية حاملا كتاب توصية من الاشتراكي الفرنسي مارسيل كاشان (Cachin) الذي كان عضوا في الحكومة الفرنسية آنذاك . وقد حدث التعارف بين وايزمان وروتنبرغ في اواخر ١٩١٤ . بينما نجد روتنبرغ على اتصال دائم بفلاديمير جابوتنسكي خلال شهر اذار (مارس) ١٩١٥ . فلا يمكننا الجزم بشيء من هذا القبيل ، بل نكتفي بايراد الاحتمال القائل بوجود خطأ مطبعي يقدم تاريخ صدور النص المترجم للوثيقة بكاملها في المانشستر غارديان بما يزيد على ٩ اشهر .

٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢١ .

ويعرب عن استنكاره . ففي اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) كان جمال باشا يبعث برسولين من مقر قيادته في سوريه الى كل من الامير فيصل وجعفر باشا العسكري ، وقد حملهما رسالتين بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) تتضمن كل منهما ما افتضح امره من اتفاقية سايكس ــ بيكو بالاضافة الى دعوة لعقد صلح بين العرب والاتراك على حدة . ولم يفت كاتب الرسالتين تنبيه الامير فيصل الى وقوعه ضحية الوعود المضللة من جانب الحلفاء . فالوعود التي نالها ابوه ، الشريف حسين ، بعيدة كل البعد عن النوايا الحقيقية للدول الحليفة في اقتسام الولايات العربية كمناطق نفوذ فيما بينها . لذلك يجدر بالعرب الا ينخدعوا ، وما عليهم سوى العودة الى حظيرة العثمانيين وتكليف انفسهم نيل حقوقهم المشروعة بالتفاهم مع الاتراك (٥) . كما ان جمال باشا لم يكتف بهذا المقدار من الترغيب والاقناع لحمل العرب وزعمائهم على اعادة النظر في تحالفهم مع بريطانيه والالتفات صوب العروض الصادرة عن الاتراك وحلفائهم الالمان ، بل اقدم على اعلان العروض المقدمة للعرب في خطبته التي القاها اثناء احدى المآدب الرسمية التي اقيمت على شرفه في بيروت بتاريخ ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ . وصارح الحاضرين بما تضمنه العرض المقدم الى الشريف حسين ، قبل بضعة ايام من سقوط القدس بيد قوات الجنرال اللنبي . كما صدرت الصحف السورية وفيها الخطاب بنصه الكامل ، وجرى تهريب نسخ منها الى المدينة ومكة (٦) .

وحين تسلم الشريف حسين نص الرسالتين بدا عليه الانزعاج والامتعاض الشديدان ، لكنه اصر على رفض التعامل مع العدو التركي وطلب الى فيصل ارسال رد مقتضب برفض عروض الصلح التي تقدم بها جمال باشا . ثم دفعه ولاؤه للعهد الذي قطعه على نفسه بتأييد قضية الحلفاء واعلان الثورة على الاستانة الى القيام بخطوة جعلت الحكومة البريطانية تتحمس للاعراب عن « اعظم التأثير الحسن » الذي تركته بادرة « الرغبة والصراحة التامة » فقام بتحويل الرسائل التي في حوزته الى

---

٥ ــ راجع ما كتبه انطونيوس عن الرسالة الى فيصل « في صيغة نداء موجه من مسلم جدّي التفكير الى اخيه » ، **المصدر السابق** ، ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ .

٦ ــ نقل انطونيوس بعض فقرات الخطاب ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ .

المندوب السامي البريطاني في مصر ، السير ريجنالد ونغيت (Wingate) آملا تزويده بالتفسير اللازم للاتفاقية « السرية » التي تحدثت عنها رسائل جمال باشا وذاع خبرها على الملأ بعد خطابه الآنف الذكر . فجاء رد حكومة صاحب الجلالة على لسان المستر بلفور في رسالة أبرق بها المندوب السامي (٨ شباط ، فبراير ، ١٩١٨) وصيغت بأسلوب يتعمد التضليل ويوحي لقارئها آنذاك بخبث المقصد لدى جمال باشا ، كما قد يحمله على الاعتقاد بان الاتفاقية التي انتضح امرها لا تعدو كونها «مثالا جديدا على الدسائس التركية » . ومما تجدر ملاحظته ان رسالة بلفور البرقية هذه لجأت الى الخروج مـن المأزق عـن طريق الحيلة المتأرجحة بين الاقرار والانكار . اذ يقول انطونيوس : « ولم تقر الحكومة بصحة ما فضحه الروس من أمر الاتفاقية ولم تنكره » (المصدر نفسه ، ص ٣٦٢) . بل شفعت البرقيـة بمذكرة رسمية قدمها نائب المعتمد البريطاني في جده (اللفتنانت كولونيل باست Bassett) الى ملك الحجاز بالنيابة عن المندوب السامي البريطاني في مصر . فلم تبخل بالثنـاء على بادرة الحليف الصديق في اطلاع حلفائه على العروض التركية المقدمة اليه ، كما اعتبرت اجراءاته « رمزا » لتلك الصداقة « التي كانت دائما شاهد العلاقة » بين الحكومتين الحجازيـة والبريطانية . ولم تنس التنبيه الى سياسة تركيه التي ما فتئت تزرع بذور الشك والريبة بين العرب وحلفائهم وتوسوس للعرب بالنوايا السيئة التي تضمـرها الدول الحليفة ازاء بلادهم (٧) . كما انتهت الى تطمين الملك الحجازي بان « حكومة جلالة ملك بريطانيه العظمى وحلفاءها » ما زالت « على العهد » ، « واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدي الى تحرير الامم المظلومة وهي مصممة على ان تقف بجانب الامم العربية في جهادها حتى تبني عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني ... وقد سلكت مسلك سياسة التحرير وتقصد ان تستمر عليه بكل استقامـة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا مـن السقوط في وهدة الدمار وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم » (٨) .

واذا كان افتضاح أمر اتفاقية سايكس ـ بيكو قد ذهب ضحيـة

---

٧ ـ اعلن الرئيس الاميركي ويلسون نقاطه الاربعة عشر في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ .

٨ ـ راجع النص الكامل للمذكرة في كتاب امين سعيد : **الثورة العربية الكبرى** ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

التأكيدات والتطمينات التي صدرت لازالة امتعاض ملك الحجاز وانزعاجه فلم تزعزع ايمانه بالحليف البريطاني و « بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الانجليزي » ـ على حد قول جورج انطونيوس ـ فان وعد بلفور قد سبق الى الصدور بثلاثة اسابيع على الاقل . واتصل خبره بالزعماء العرب في مصر فسارعت السلطات البريطانية هناك الى التقليل من مخاوفهم وحدة استنكارهم بفرض رقابة عسكرية شديدة على الانباء ونشطت في نشر الدعايات المضللة بقصد تحويل الانظار عما تحوكه الدولة الحليفة والصديقة من مؤامرات وتتعهد به من التزامات أو تغدقه من وعود لكي تسهل استيلاء الصهيونيين على فلسطين في ظل عطفها وحمايتها . كما وصل النبأ الى مسامع الملك حسين « فعكر خاطره كثيرا وطلب تعريفا لمعنى الوعد ومداه » (انطونيوس ، ص ٣٧٥) . فاستجابت حكومة صاحب الجلالة بان امرت القائد دافيد جورج هوغارت (Hogarth) (٩)، من الذين تولوا رئاسة المكتب العربي في القاهرة ، بالتوجه الى جدة لمقابلة الملك حسين والعمل على تهدئة خواطره وتطمينه . واوكلت اليه في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ نقل رسالة باسمها دون ان تجد حاجة الى تدوينها ، فابلغه شفويا التأكيد الصريح التالي : « الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحا به الا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية » (١٠) . وقد تنبه انطونيوس الى

---

٩ ـ يقول هوغارت انه جرى ابلاغ العرب رسميا بوعد بلفور في كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ . وحين بلغ الامر الى الشريف حسين ، اخذ المسألة بروح هادئة ورباطة جأش ، فاكتفى بالتعبير عن نواياه الطيبة ازاء عنصر سامي تربطه بالعرب صلات القربى وفهم من ذلك (كما اوضحت عبارته) بان اليهود سوف يقيمون في بيت يملكه العرب . انظر H.W.V. Temperley (Ed.) **A History of the Peace Conference in Paris.** Published under the auspices of the British Institute of International Affairs, Vol. VI, P. 132.

١٠ ـ نقلا عن انطونيوس ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧٦ . وقد اقتبس هذه العبارة من النص العربي الذي دونه الملك حسين بعد المقابلتين اللتين اجراهما هوغارت معه .

ابتعاد مدلول هذا التأكيد عن الشق الثاني من نص وعد بلفور ، اذ اشترط واضعوه تحت ضغط المعادين للصهيونية احترام الحقوق المدنية والدينية للسكان العرب في فلسطين .

وعلى اساس التأكيدات الشفوية آنفة الذكر أعرب ملك الحجاز عن استعداده لبذل ما له من نفوذ في المساعدة على تحقيق الغاية التي فهمها من وعد بلفور ، باعتباره صدر كي « يهيء لليهود ملجأ من الاضطهاد » . ومن الانصاف للملك الا يغرب عن بالنا التوضيح الذي أعطاه للقائد هوغارث آنذاك ، ومفاده « ان مسألة التنازل عن مطلب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث ابدا » (انطونيوس ، ص ٣٧٦) . كما أعرب عن رضاه في الوقت المناسب اعادة النظر في قضية الاستعانة بالخبراء الاداريين والفنيين (من اليهود) متى ظهرت حاجة الحكومة العربية المقبلة في سوريه اليهم وبدا له ان اللجوء الى تدبير من هذا القبيل أوفق من سواه . ومنذ ذلك الحين تركزت جهوده على ازالة المخاوف التي جاء وعد بلفور ليزيد من حدتها وشدتها في صفوف الزعماء والثوار العرب . مع العلم بان المخاوف العربية من الاستعمار الصهيوني ترجع الى ما قبل وعد بلفور بعقدين من الزمن على الاقل . ولم يكن وعد بلفور بالنسبة للزعماء والمثقفين العرب سوى ذلك الدليل الجديد على نوايا الصهيونية بعد تحالفها مع بريطانيه . لكن الملك حسين آثر القبول بالتأكيدات البريطانية لاعتقاده بان الاستيطان اليهودي في فلسطين « لن يتعارض مع استقلال العرب في تلك البلاد » . ومن هذه الزاوية يصح النظر الى توصياته وتعليماته التي طلبت الى ابنائه واتباعه ان يبددوا المخاوف التي علقت في الاذهان وجاء وعد بلفور ليوقظها من جديد . كما يمكن القول بان موقفه المطمئن من بريطانيه وتأكيداتها قد شجعه في نظرته الى اليهودية كدين لا يمت الى الصهيونية السياسية بصلة . وحمله بالتالي على كتابة مقالة في الجريدة الرسمية لتذكير عرب فلسطين ان « كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح » ، كما حضهم على الترحيب باليهود اخوانا والتعاون معهم في سبيل المصلحة المشتركة (١١) . واذا صح اعتبار الدعوة التي وجهها الملك حسين خير مثل على تجرد النزعة العربية العامة نحو اليهودية عن الهوى وترفعها عن ذلك التعصب الديني الاعمى — وهو

---

١١ — نشر المقال في صحيفة « القبلة » (مكة) ، العدد ١٨٢ ، ٢٣ اذار (مارس) ١٩١٨ . انظر انطونيوس ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ .

امر لا يرقى الشك الى صحته ــ فان الصهيونية لم تتوان لحظة واحدة عن الاستفادة مــن هذا الموقف وتحويله لصالحها بشتى الوسائل . ولم يكن اطمئنان زعمـائها لبريطانيه ومصالحها مــن ذلك المعدن نفسه والذي يطالعنــا في ايمان الملك حسين « بعهود بريطانيه العظمى » واقتناعه بصدق التأكيدات المضللة التي اعطيت مرات متكررة للثناء على ولائه والتهرب من صراحته المحرجة (١٢) . فهل كانت استفادة الصهيونيين من رحابة صدر الملك وتقيد ابنائه بتوصياته في القيام بواجبات الضيافة والتسامح بمثابة

---

١٢ ــ تجدر الإشارة هنا الى نشاطات الاحــرار السوريين مــن اعضاء الجمعيات العربية الوطنية في الولايات العربية والاتصالات التــي اجرتها الحكومة البريطانية مع نفر من الزعماء الوطنيين الموجودين في مصر آنذاك . فقد كان هؤلاء على معرفة بشأن اتصال الحسين بالبريطانيين وارسلوا اليه من يبلغه اصرارهم على نيل الاستقلال التام الناجز . وتنادى العاملون منهم في مطلــع ١٩١٨ الى تأليــف هيئة قومية « جعلت شعارها تأييد الثــــورة العربية ومقاومــة الاستعمار الفرنسي » بعد ان وصلتهم اخبار المطامع الفرنسية في بلادهم . واتصل ممثل عن الهيئة بالامير فيصل محاولا اقنــاعه بتعريف اوروبه بالقضية العربية وثورة العرب. . . «اذ لا يجوز ان تبقى محصورة في الاطار الضيق الذي تدور فيه ، اطار الإنجليــز وحدهم » (انظر : امين سعيد ــ « اسرار الثورة العربية الكبرى». ومأساة الشريف حسين ــ دار الكاتب العربي ، طبعــة ثانيــة ، بيروت ، ص ٢٣٧ . وقد صــدرت الطبعة الاولــى في القاهــرة ١٩٣٥) . ويستفاد من الاحاديث التي دارت آنذاك بان الوطنيين ادركوا الضرر الذي كاد يلحق بالثورة العربيـــة ، طالما بقيت في عزلتها . كما تنادوا الى حسم الخلاف بين الضباط العــراقيين والسوريين في الجيش الشمالـــي . وادى تنازع الضباط علــى السلطة العليا الى انفراد السوريين منهم بالدعوة لفصل القضية السورية عن سائر القضايا العربية و « السعي لانشاء كيان مستقل لسوريه » . وما ان تألف حزب سياسي سوري وتبنّى الدعوة الى كيان سوري مستقل تمتد حدوده من « جبال طوروس شمالا ، ونهر الخابور والفرات شرقا ، والصحراء فمداين صالح جنوبا ، والبحر الاحمر فخليج العقبة ورفح فالبحر المتوسط غربا » (امين

قبول ضمني بالمطامع الصهيونية في فلسطين ؟ ام ان الصورة التي رسمت للحسين آنذاك عن غاية وعد بلفور في تهيئة ملجأ بفلسطين لليهود الهاربين من الاضطهاد لم تكن هي الصورة نفسها التي رسمها الصهيونيون وانصارهم لمضمون ذلك الوعد ؟ ان الاجابة على السؤال الثاني اسهل بكثير من التوقف عند السؤال الاول ، وليس بمستبعد ان تكون صورة فلسطين في ذهن الملك حسين لا تتعدى نطاق سنجق القدس المستقل الذي فصل عن ولاية الشام منذ ١٨٨٧ ووضع

سعيد ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٢) حتى تحرك المكتب العربي (البريطاني) في القاهرة لتحذير قادة الحزب المذكور من « الاتيان بأي حركة ضدنا او ضد من يتعاون معنا » . واسفرت المباحثات بين ممثلي الاحزاب والجمعيات العربية عن تقديم مشروع للحكومة البريطانية في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩١٨ – وبعد الزيارة التي قام بها حاييم وايزمان والميجور اورمسبي غور الى معسكر الامير فيصل في الكويرة . فجاء رد حكومة جلالة الملك بواسطة القائد هوغارث في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩١٨ على صورة تصريح عرف منذ ذلك الحين بـ « العهد البريطاني للسوريين السبعة » . اذ تلاه هوغارث بالذات على مسامع كل من : ١ – الشيخ كامل القصاب ، ٢ – حسن حماده ، ٣ – خالد الحكيم ، ٤ – رفيق العظم ، ٥ – عبد الرحمن الشهبندر ، ٦ – فوزي البكري و ٧ – مختار الصلح . واطلق عليه لورنس فيما بعد التسمية التي يعرف بها الآن . اما البنود الاربعة للعهد المذكور فقد نصت على رغبة الحكومة البريطانية بانقاذ عامة الشعوب الناطقة بالعربية من ربقة الاتراك وتركها تعيش في ظل الحكم الذي تريده . واكدت على اعتراف بريطانيه باستقلال البلاد العربية ، التي حصلت على الاستقلال منها وتلك التي سوف تحصل عليه بين الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ونهاية الحرب . كما اعربت عن ثقتها بحصول البلاد العربية على حريتها واستقلالها ووعدت ان يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغائبها . ولم ينس العهد المذكور ان يشير الى استعداد الحكومة البريطانية للنظر « في اي خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء العامة لسياسة بريطانيه وحلفائها » .

تحت سيطرة الباب العالي مباشرة . اذ لم توجد « فلسطين » التاريخية التي سعى الصهيونيون لاستردادها بمساعدة بريطانيه الا في بطون كتب التاريخ . وجاءت الحرب ضد تركيه لتتيح المجال امام هربرت صموئيل كي يضع مذكراته حول « مستقبل فلسطين » ، ثم كانت الرقعة البنيّة اللون في اتفاقية سايكس ــ بيكو و « فلسطين » التي ورد ذكرها في نص وعد بلفور . ومما يحمل على ترجيح ذلك رفض الشريف حسين اثناء تبادل المكاتبات مع مكماهون لاستثناء ولايتي بيروت وحلب وسواحلهما من المملكة العربية بحجة « لا يمكن ان يقال انها عربية محضة » . وقد انشئت ولاية بيروت الجديدة منذ ١٨٨٨ لتضم السناجق التالية : اللاذقية ، طرابلس ، عكا ، ونابلس . واصبحت سوريه الطبيعية منذ ذلك الحين تتألف من ولايات حلب ، الشام ، وبيروت ، بالاضافة الى متصرفيتي القدس وجبل لبنان المستقلتين .

لذلك نجد الملك حسين في جوابه الى القائد هوغارت يتحدث عن « تأمين الاماكن المقدسة والاشراف عليها من قبل اتباع كل مذهب من المذاهب التي تملك لها معابد مقدسة في فلسطين » (الكلام لانطونيوس ، ص ٣٧٦) . ولو انه اقتنع بصدق النوايا التي تضمنتها اتفاقية سايكس ــ بيكو ، وادرك ما يبيته تحالف الصهيونية مع بريطانيه ازاء المنطقة البنيّة اللون على خريطة اقتسام مناطق النفوذ ، لجاز لنا القول بوجود ذلك القبول الضمني بمطامع الصهيونية الاقليمية والتوسعية وسعيها لابراز كيان جغرافي لفلسطين كي تجعل منه قاعدة لتأسيس الوطن القومي اليهودي . ولا غرو فقد ابدى استعداده للمساعدة على تحقيق وعد بلفور بعد ان فهم ــ او افهم ــ بان الغاية منه هي تهيئة ملجأ لليهود

وحين ارسلت نسختان من هذا البيان الى الحسين وفيصل للحصول على موافقتهما ، امتنع الحسين عن الرد على البريطانيين ولم يصدر عن فيصل جواب بشأن النسخة التي طلب منه الوطنيون ارسالها الى والده واقناعه بالموافقة عليها ، مما زوّد البريطانيين بذريعة للاحتفاظ بالنص الاصلي لانفسهم وابطال قيمته طالما ان الحسين امتنع عن اقراره . (انظر السعيد ، المصدر نفسه ، ص٢٤٦) . وقد تم ذلك كله بينما كانت البعثة الصهيونية تمارس النشاطات التي جاءت من اجلها وتنام على حرير الوعود والصداقات التي ارسى الزعماء دعائمها واطمأنوا الى جدواها .

يحميهم من الاضطهاد . ويكفي انه شدّد على مطلب السيادة العربية وتمسك العرب به ، فاوضح ان مسألة التنازل « لن تكون موضع بحث ابـــداً » .

غير ان الخطة الصهيونية ــ البريطانية انتقلت الى حيز التنفيذ بعد استيلاء الجيوش البريطانية على مدينة القدس في ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ . ولا بد من ذكر استيلاء قوات الامير فيصل ومساعده لورنس على العقبة في ٦ تموز (يوليو) ١٩١٧ ، واتساع مسرح العمليات الحربية على يد « الجيش العربي الشمالي » ليشمل الجنوب والجنوب الشرقي من البحر الميت . وبعد مرور ثلاثة اسابيع من استيـــلاء هذا الجيش علـــى العقبة ابرقت وزارة الحربية البريطانية في ٢٧ تموز (يوليو) الى اللفتنانت كولونيـــل باترسون تأمره المباشرة بتنظيـــــم الفرقة اليهوديـــة (١٣)

---

١٣ ــ راجع **Lieut. — Col. J. H. Patterson — With the Judaeans in the Palestine Campaign** (London, 1922).

اعلنت « اللندن غازيت » تشكيل الفرقة اليهودية رسميا في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩١٧ . وتعيّن باترسون قائداً للفرقة . وبعـد اسبوع قام وفد يمثل اليهود المناوئين للصهيونية بمقابلة اللورد دربي ، ناظر الدولة لشؤون الحرب ، واحتج لديه ضد تسميـة « الفرقة اليهودية » وشعارها . مما ادى الى تغيير الاسم مـن (Jewish Regiment) الـى (Royal Fusiliers) (انظـر المصدر نفسه ، ص ٢٣ ــ ٢٤) . وقد طلب باترسون الحاق السيرجنت جابوتنسكي بمكتب الفرقة التنظيمي وعهد اليه بتدبـير المجندين والمتطوعين لضمهم الى الفرقة . كما اجـرى باترسون ترتيبـات خاصة لنقل فصيلة من فرقة بغّالة صهيون القديمة وجعلها نواة الفرقة اليهودية الجديدة (ص ٣١) . وســارع الصهيونيون الى القيام بحملة دعائية في الاوساط اليهودية محاولين التشديد على اهمية الفرقة من الناحيتين المعنوية والقومية اليهودية . ومع ان دائرة التجنيد هي التي قامت بتمويل الحملـة ، فان تسييرهـا حصل باسم اللجنة التـي أسسها جابوتنسكي عـام ١٩١٦ « في سبيل مستقبل يهودي » . والمعروف ان جابوتنسكي بالذات بعث رسائل لا حصر لها الى الولايات المتحدة وكنده والارجنتـين وروسيه وغيرها من البلدان المحايدة لكي يحث الشبان اليهود على التطوع والانخراط في سلك الفرقة اليهودية .

38th Battalion . وفي نهاية كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ صدرت الاوامر للفرقة التي وصل عددها عند نهاية الحرب الى الخمسة آلاف رجلا ، بالابحار صوب مسرح العمليات الحربية في فلسطين . فوصلت مرفأ الاسكندرية في اول آذار (مارس) ١٩١٨ ، ومكثت هناك بانتظار الاوامر الجديدة للتحرك . وبينما كانت الفرقة اليهودية في طريقها الى فلسطين غادرت بريطانيه البعثة الصهيونية في ٨ آذار (مارس) متوجهة هي ايضا الى فلسطين . فقد ترأسها حاييم وايزمان ورافقها الميجور اورمسبي غور منتدبا كضابط سياسي من قبل وزارة الخارجية البريطانية ومساعده الكابتن جيمس دي روتشيلد . وحمل وايزمان في جعبته رسائل توصية من لويد جورج وبلفور الى الجنرال اللنبي . كما ان البعثة المذكورة ضمت ممثلين عن يهود البلدان الحليفة ، فرنسه وايطاليه ، بالاضافة الى ضباط وحدة هداسا الطبية الذين انضموا اليها والصهيوني الروسي مناحيم يوسشكين الذي التحق بالبعثة في اواخر عام١٩١٩ (١٤).
اما الغاية من مجيء البعثة المذكورة ورحى الحرب ما زالت دائرة آنذاك في المنطقة فمن الصعب اكتناه سرها بمعزل عن الآمال التي عقدها الزعماء الصهيونيون على تشكيل الفرقة اليهودية المشار اليها اعلاه . وربما شعرت بريطانيه بعد استيلاء قوات الامير فيصل يعاونه لورنس على العقبة بضرورة اشراك الصهيونيين في « تحرير البلاد » لكي تكسبهم حق المطالبة بها وتتيح امام البعض منهم فرصة الاستشهاد في سبيل استرجاعها . كما ان الصهيونيين انفسهم كانوا يتحرقون لاغتنام هذه الفرصة الفريدة من نوعها ، اذ ستجعل منهم غزاة فاتحين تمكنوا من الاستيلاء على البلاد

---

١٤ — جاء في عداد البعثة عن الصهيونيين البريطانيين كل من جوزيف كووين وليون سيمون واسرائيل سيف والدكتور مونتاغو دافيد ادر (وهو من اقرباء اسرائيل زانغويل) . وعن اليهود الفرنسيين البروفسور سيلفان ليفي (انتدبته وزارة الخارجية الفرنسية — راجع وايزمان) . وعن الايطاليين : الدكتور آرثوم والكوماندنتي بيانشيني .
وقد تعذّر ايفاد مندوبين رسميين عن يهود اميركه ، لان بلادهم لم تكن في حالة حرب مع تركيه . مع العلم بان اليهود الاميركيين تطوعوا في الفرقة اليهودية ودخلوا فلسطين مع القوات البريطانية .

واسترجاعها بحد السيف وفي ظل الحماية البريطانية . وتجد « يهودية العضلات » التي بشّر بها ماكس نوردو وحمل لواءها كل من جابوتنسكي وترومبلدور وبن جوريون وغيرهم ميدانها الرحب لعرض قوتها ووضع ما جاهرت به طيلة العقدين الماضيين على الاقل موضع التطبيق والتنفيذ .

فحين تحدث وايزمان في **التجربة والخطأ** (انظر ص ٢١٢) عن البعثة المذكورة اكتفى بالقول ان حكومة صاحب الجلالة قررت ارسال بعثة صهيونية الى فلسطين لكي تقوم بدراسة الاوضاع هناك واعداد الخطط العملية وفقا لروح وعد بلفور . بينما ذكرت مصادر اخرى بان الغاية التي جاءت من اجلها البعثة الصهيونية الى فلسطين كانت مثلثة الوظائف :

أ ــ المساعدة في رد الاعتبار لليشوف (المستوطن اليهودي) بفلسطين واعادة تأهيله .

ب ــ العمل كضابط ارتباط بين الحكومة (؟) والجالية اليهودية .

ج ــ ارساء الاسس لاقامة الوطن القومي اليهودي (١٥) .

وليس من السهل مطلقا ان تدّعي بعثة من هذا الطراز ايفاء الوظائف الآنفة الذكر حقها ما دامت البلاد ترزح تحت رحى الحرب ولم يتم اخراج الاتراك منها بعد . ففي حزيران (يونيو) ١٩١٨ كان وادي الاردن لا يزال بيد القوات التركية . ولم يتمكن وايزمان والميجور اورمسبي غور من الوصول الى مقر قيادة فيصل في شرقي الاردن (١٦) الا عن طريق السويس ومنها بحرا الى العقبة ، ومن العقبة عبرا وادي العربة الى شرقي الاردن . ثم ان عمل البعثة كضابط ارتباط بين الحكومة واليهود المقيمين بفلسطين يدعو الى التساؤل عن هوية تلك الحكومة آنذاك . وربما كان القصد منه استباق الاحداث واظهار البعثة كمن جاء للتوسط بين سلطات الاحتلال العسكري (الجنرال اللنبي ومساعدوه) ويهود فلسطين . وهنا ايضا لا بد من التساؤل عن حاجة اولئك اليهود ، ولهم مجالسهم الملية الخاصة آنذاك وتنظيماتهم الوفيرة العدد ، الى من يقوم عنهم بدور الوسيط او ضابط الاتصال بسلطات الاحتلال . تبقى اذن مسألة العمل على ارساء الاسس لاقامة الوطن القومي اليهودي ، وهي اقرب ما تكون الى حديث

---

١٥ ــ Esco Foundation — **Palestine** — Vol. I, P. 128-9

١٦ ــ كان معسكر الامير فيصل آنذاك في « الكويرة » ، بين العقبة ومعان .

وايزمان عن اعداد الخطط العملية وفقا لروح وعد بلفور . لكن الحرب لم تضع اوزارها بعد ، والرقعة التي وقع الاختيار عليها لاقامة الوطن القومي على ارضها لم تسقط كلها بيد القوات البريطانية التي تنظر بعين العطف الى الاماني الصهيونية . كما ان احدا من الدول الحليفة لم ينتدب بريطانيه بعد لتبسط حكمها على القطاع البنّي اللون وتنصّب نفسها وصية على بلاد الغير جاعلة اياها محمية من محمياتها الامبريالية . أهذا هو العهد الذي قطعته على نفسها حكومة صاحب الجلالة مرة اخرى وقبل سفر البعثة الصهيونية بشهر واحد تماما ، اذ اكدت تصميمها على الوقوف « بجانب الامم العربية في جهادها حتى تبني عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني » . وهل يعني سلوكها مسلك سياسة التحرير مجرد اعتاق نفسها من الوعود والتعهدات المقطوعة ثم الحيلولة بين العرب وتحرير بلادهم بانفسهم من الحكم التركي ، لا لشيء بل لاستنباط فرصة مؤاتية بشتى الحيل والوسائل كي يتمكن الصهيونيون من الزعم فيما بعد بانهم ساهموا بقسط وافر في تحرير البلاد وقاموا بدورهم خير قيام ، مما يؤهلهم كمنتصرين وفاتحين لفرض شروطهم ووضع ايديهم على مقدرات البلاد ، زاعمين انها « ارض اسرائيل

---

١٧ ـ كان جابوتنسكي ممن يعتقدون بالحسنات التي تتأتى عن مساعدة الفرقة اليهودية لاسترجاع فلسطين من العدو . واعتبر من المسائل الجوهرية ان تحارب الفرقة اليهودية بقصد افتداء « ميراث اسرائيل القديم » وخلاصها . ويمضي باترسون في حديثه عن قصة الفرقة مشيرا الى الدور الذي لعبه جابوتنسكي، « ومن حسن حظ اليهود ان جابوتنسكي كان الاداة المختارة (لتحقيق ذلك الافتداء) ، فلو لم تحارب قوات يهودية في فلسطين ، ولم تبد قبور يهودية للعيان في المقبرة على جبل الزيتون وفي كل مقبرة عسكرية بمصر وفلسطين ، لكان خزي اسرائيل لاحقا بها على مدى الايام » . ثم يضيف : « وتساورني شكوك كبيرة بان مؤتمر الصلح كان سيجد الوقت ملائما لارجاع الشعب اليهودي الى وطنه القديم . كما انني متأكد بانه لو تسنّى لاماني جابوتنسكي بتشكيل فرقة قوية التحقيق على صعيد اكمل ، لكان موقف الدكتور وايزمان حول مائدة مؤتمر الصلح يزداد قوة لا حد لها » . (المصدر نفسه ، ص ٢٨) . ولا يساورنا اي شك

الموعودة (١٧) » وها هم قد عادوا اليها بالقوة ــ كما طردهم الرومان منها ! وما ان يستتب لهم الامر في ظل الحماية البريطانية حتى تسنح لهم فرصة التحدث عن الاخاء بين العرب واليهود والعيش بسلام في مناخ من علاقات حسن الجوار . ثم الا يصوّر لنا ذلك كله ناحية بارزة في المنطق الصهيوني آنذاك والمستظل عطف بريطانيه ؟!

يمكن القول اذن بان قدوم البعثة الصهيونية كان هدفه وضع وعد بلفور موضع التنفيذ . كما كان التعاون الوثيق بين افراد البعثة وقيادة الفرقة اليهودية على اتمه بشخص الميجور جيمس دي روتشيلد . وقد تحدث باترسون في كتابه المذكور اعلاه عما اسماه بانعدام العطف لدى الجنرال اللنبي ورئيس اركانه ، الميجور جنرال لويس جان بولز ، على فكرة الفرقة اليهودية . فلم تلق فكرته الداعية الى توسيع الفرقة لتصبح مؤلفة من ٢٥ الفا واطلاق يدها في جبهة فلسطين ذلك الترحيب والاستحسان الذي رآه منسجما مع السياسة المعلنة للحكومة البريطانية. لذلك لجأ الى اتهام الجنرال اللنبي ورئيس اركانه بانتهاج سياسة معادية لليهود واما نيهم القومية كما تبناها وعد بلفور . وبدا له ان الجنرال اللنبي يجسد فرعونا جديدا قام من بين الاموات ليقضي على آمال بني اسرائيل . فاعرب عن تحسره لرؤية السياسة الحكيمة والبعيدة النظر « لرجال دولتنا الامبراطوريين » غير مفهومة ابدا لدى معتمديهم المحليين في فلسطين . لكنه لم يفشل في تقدير موقف القادة العسكريين البريطانيين والنظر الى المسألة من زاويتهم الوثيقة الصلة بمسرح الاحداث وسيرها ، فكتب يقول :

« اصبح القائد الاعلى ، بالطبع ، مطّلعا الآن على الادعاءات العربية في سوريه . وبما ان ذهنه قد انصب كليا ، دون شك ، على مسرح حربه ، فمن الطبيعي ان يتوق لاسترضاء العرب وتهدئتهم بأي ثمن . والعرب يقفون على ابواب جبهته ، يقدمون له المساعدة بغاراتهم التي تضيّق على الاتراك الى الشرق من نهر الاردن . كما ان محاربة الجيش الحجازي الى جانبنا حالت دون اقدام البدو وغيرهم من اهل السلب والنهب على قطع خطوط مواصلاتنا ــ وهذه

بان حكومة صاحبة الجلالة قد فعلت كل ما بوسعها لتقوية الموقف الصهيوني وتعزيزه .

ليست من المسائل القليلة الشأن في سوريه وفلسطين . لقد كان تطفل اليهودي من العوامل التي تسببت في التشويش على سياسته ، ولذلك اثار امتعاضه واستياءه » (١٨) .

وقبل ان تغادر الفرقة مصر متوجهة الى فلسطين صدر امر عن القيادة العامة للجيش البريطاني بالسماح لها في تجنيد المتطوعين بين اليهود المقيمين في فلسطين . وجرى ارسال هيئة مدربة لهذا الغرض ، يتكلم جميع اعضاءها العبرية بطلاقة ، الى منطقة اليهودية لتباشر عملها . كما طلب اليها اجراء اتصالات مع الميجور جيمس دي روتشيلد ، وهو المشرف على اعمال التطوع والتجنيد في مصر وفلسطين (١٩) . فقامت بتوزيع المنشورات العبرية ـ « اسمعي يا اسرائيل » ـ لتستحثه فيها همم يهود القدس كي يضحوا بحياتهم في « سبيل بلادنا » ولا يتركوا البريطانيين وحدهم يفتدون البلاد بدمهم . وناشدتهم مؤازرة « مخلّصينا » بالتطوع لخوض المعركة . واستطاعت ان تتغلب على معارضة اعداء الصهيونية بين يهود القدس وتجند حوالي الف مقاتل .

وعند منتصف العشرين من نيسان (ابريل) وصلت بعثة وايزمان الصهيونية قادمة من مصر ، بعد ان اجرت اتصالات عديدة خلال الاسابيع التي قضتها هناك في الاوساط اليهودية والعربية على السواء . والمعروف ان الدكتور وايزمان سعى آنذاك لاستمالة الزعماء العرب واقناعهم بصدق النوايا الصهيونية في فلسطين . واستعان بخبرة المندوب السامي البريطاني الذي تكرّم باسداء النصح والمشورة حول العرب والعقلية العربية (٢٠) . فلم يظهر له اي عداء في الاوساط العربية التي توقع منها العداء ، على حد قوله . غير انه عزا ذلك الى انعدام خبرة الصهيونيين بالعقلية العربية وعجزهم عن القراءة بين السطور . كما سجل على معظم اليهود المصريين « بقاءهم بعيدين عنا كالعرب على السواء » . وخرج بالصورة التالية التي رسمها في مذكراته عن العربي والعقلية العربية ـ بعد ان أمدّه الاصدقاء البريطانيون وذلك النفر القليل من اليهود المصريين الذين تطوعوا لمساعدته بالكثير من ملامحها وسماتها :

---

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

٢٠ ـ انظر **التجربة والخطا** ، ص ٢١٥ .

« العربي يحسن الجدل ويبرع في المناظرة ـ اكثر بكثير من المثقف الاوروبي العادي ـ وما لم تكتسب اسلوبه ، تبقى متخلفا جدا عن مجاراته . والعربي ، بنوع خاص ، يملك موهبة هائلة في التعبير عن آراء تتعارض بشدة مع آرائك باسلوب يتحلى بالتهذيب الرفيع والتأنق الى جانب الالتواء ، حتى يخيل اليك انه على اتفاق تام معك وعلى استعداد كلّي للتكاتف والتحالف معك في الحال .
والمحادثات والمفاوضات مع العرب لا تختلف عن مطاردة السراب في الصحراء : ملأى بالوعد ويحسن التطلع اليها ، لكنها قد تقودك الى الموت عطشا .
السؤال المطروح بشكل مباشر يعني الخطر : اذ يثير في نفس العربي تراجعا ماهرا وتغييرا كليا لموضوع الحديث ، عليك ان تحاور وتناور وتدور وتلف حول المشكلة ، كما قد يستغرقك الوصول الى صلب الموضوع وقتا طويلا ، لا نهاية له (٢١) » .

ثم يؤكد لنا وايزمان انه وبعثته استطاعوا ، عند اقتراب نهاية اقامتهم في مصر ، المباشرة باختراق حجاب الالفاظ والكلمات والتغلغل قليلا لالتقاط نظرة خاطفة بين الحين والحين لذلك المعنى الحقيقي المختبىء وراء ما بدا للوهلة الاولى كأنه كتلة كثيفةمن الالفاظ التي لا علاقة لها بالموضوع. ولذلك توصلت البعثة الى قرارها العام بان مناخ المشاعر المصرية لم ينطو على ولاء كلي لقضية الحلفاء . ولا يخفى علينا ما يرمي اليه الصهيونيون من وراء هذه التعميمات الجائرة التي غرضها الانتقاص من فاعلية الموقف العربي آنذاك واظهاره بمظهر المتردد في مسايرة الحلفاء . فقد صار همهم الاوحد البحث عن ذريعة تسهم في التقليل من شأن المطالب الاستقلالية والتحررية العربية وتبرر بالتالي احجام الحلفاء عن البر بوعدهم والوفاء بتعهداتهم .

وفي اواخر شهر نيسان (ابريل) ١٩١٨ وصلت فرقة يهودية اخرى لتنضم الى الاولى ، كما قام وايزمان وجوزيف كووين وآرونسون بزيارة المعسكرات ، والقى كل منهم كلمة على الجنود . وقد ذكر باترسون في كتابه المشار اليه اعلاه ان المستر آرونسون (٢٢) حرك كوامن الغضب لدى

---

٢١ ـ انظر ، **التجربة والخطا** ، ص ٢١٦ .
٢٢ ـ Aaron Aaronsohn (١٨٧٦ ـ ١٩١٩) : عالم زراعي صهيوني ومنشىء منظمة التجسس السرية المعروفة بالنيلي Nili ـ بدمج

سامعيه حين راح يقدم وصفا حيّا للعذاب المرّ الذي ذاقه والده المسّن واخته الصغيرة على يد الاتراك لانهم تجرأوا على مساعدة بريطانيه والحلفاء.

الأحرف العبرانية الأولى من العبارة الواردة في سفر صموئيل الاول ٢٩:١٥ : « نصيح اسرائيل لا يكذب » (Netzach Yisrael Lo Yishaker,) هاجر اهله من رومانيه في مطلع الثمانينات وحملوه معهم طفلا الى فلسطين . درس الزراعة في فرنسه والمانيه والولايات المتحدة . واشتغل في مستعمرة المطلّة منذ ١٨٩٥ كخبير زراعي لدى البارون دي روتشيلد . فاكتشف نوعا من القمح البرّي (١٩٠٦) وانشأ المحطة الزراعية التجريبية في عتليت (١٩١١) . تقرّب من جمال باشا عند اندلاع نيران الحرب ليعرض خدماته كمستشار زراعي. وحين هجمت أسراب الجراد على فلسطين جعلته السلطات التركية على رأس حملة المكافحة : مما اتاح له الدخول الى مناطق عسكرية حظر على المدنيين دخولها . ويبدو انه اجرى اتصالات مبكرة مع دائرة الاستخبارات البريطانية في بور سعيد ، كما سبق له الاشتغال كمخبر سري تحت اشراف السير ليونارد وولي ، الذي مرّ ذكر مهمته الحقيقية معنا . سافر الى بريطانيه خلسة في صيف ١٩١٦ عن طريق الاستانة فبرلين وكوبنهاغن . وغادر لندن في نهاية تشرين الاول (اكتوبر) قاصدا مصر ، حيث استأنف الاتصالات بعملاء النيلي وراء الخطوط التركية وعمل في مكتب هيئة الاركان البريطانية بالقاهرة كمساعد لدى الجنرال اللنبي . اعتقلت اخته بعد القبض عليها بجرم التجسس للعدو . وتقول المصادر الصهيونية انها انتحرت قبل ان تبوح بشيء (١٩١٧) . كان على اتصال دقيق بالفرقة اليهودية في الجيش البريطاني واعتبر نشاطه التجسسي لصالح الحلفاء جزءا من الكفاح الرامي لتحقيق الاماني اليهودية بفلسطين والقضاء على حكم الاتراك . ساهم خلال زيارته القصيرة لبريطانيه في كسب التأييد البريطاني للصهيونية والتمهيد لصدور وعد بلفور عن طريق اعداد الجو المناسب في اوساط وزارة الحرب البريطانية . حضر مؤتمر الصلح وتوفي في حادث طائرة فوق القنال الانجليزي بينما كان في طريق عودته من احدى المهمات التي اوصلته الى اميركه .

ومما تجدر ملاحظته ان الدكتور وايزمان اغتنم فرصة وجوده في القدس اثناء حفلة الاستقبال التي نظمها الضابط العسكري رونالد ستورز ٢٧ نيسان (ابريل) لـكي يحاول ازالة المخاوف العربية وشرح الهدف الصهيوني بصراحة . فبادر الى القول بان اليهود يعتبرون انفسهم اخوانا للعرب في السامية . لذا فهم ليسوا غرباء في فلسطين ، كما انهم ليسوا وافدين أو قادمين اليها بل «عائدين» الى الوطن (٢٣) (not coming to it but returning) . وحاول تصوير غاية الصهيونية بانها ايجاد مركز روحي وأخلاقي يربط بين ماضي التقليد اليهودي ومستقبله ، مؤكدا على المعنى الضمني للوطن القومي اليهودي . ثم شدّد على الهجرة اليهودية التي يمكن تحقيقها بشكل ينسجم مع مصالح « الجماعات المقيمة حاليا في فلسطين » ولا بد ان يعود عليها جميعا بالنفع والخير . واعرب عن اقتناعه بان فلسطين تملك متسعا ارضيا يكفي لاعالة سكان يفوق عددهم اضعاف اضعاف عدد سكانها الحاليين (٢٤) . وقد أغفلت المصادر الصهيونية فيما بعد تصوير ردّ الفعل العربي ازاء خطاب وايزمان وغيره من الصهيونيين على حقيقته. فاكتفى بعض منها بالاشارة الى جواب محافظ القدس آنذاك ، موسى كاظم باشا الحسيني ، الذي جاء على سبيل المجاملة وتحدث عن وحدة الهدف التي يمكنهـا وحدها تحقيق ازدهـار فلسطين ورخائها . ونسب اليه

---

٢٣ ــ انظر Ronald Storrs — **Orientations** (London, 1937), P. 412-3 حيث يعتبر المؤلف بان التمييز بين الوافد أو القادم والعائد هو تمييز لفظي ، حتى بالاستناد الـى ثقـة الشاعر اليوناني القديم اسخيلوس ، اذ جعله ارسيتافونس في مسرحيـة « الضفادع » يقول : ــ « لانني جئت عائدا الـى هـذه الارض » . واعترضه اوريبيدس قائلا : ــ « اسخيلوس الذكي يكرّر الشيء نفسه » . فرد اسخيلوس عليه موضحا : ليس الشيء نفسه ، أيها الثرثار . « يجيء » الانسان الـى وطنـه متى لم يطرد منه ابدا لانه يأتي ببساطة دون ان ينطوي مجيئه عـلى بليـة بينما المنفي « يجيء » و « يعود » في آن واحد .

٢٤ ــ انظر اسكو فونديشن Esco Foundation ــ ج ١ ، ص ١٢٩ . وانظر ايضـا رونالـد ستورز : **Orientations**, P. 400. حيث يقول ان وايزمان القى خطبة بليغة عن الصهيونية واكد فيها ان اليهود لم يتنازلوا ابدا عن حقوقهم بفلسطين .

الاستشهاد بالحديث الشريف التالي : « ما لنا لكم وما عليكم علينا » (٢٥).
ولا شك ان وايزمان وبعثته الصهيونية قد فهموا هذا الحديث على

---

٢٥ ــ ستورز ، المصدر نفسه . وقد نسب المؤلف الاستشهاد بالحديث الشريف الى مفتي القدس آنذاك ، كامل الحسيني . بينما ذكر مصدر عربي بان المفتي حضر مأدبة المستر ستورز ، حاكم القدس العسكري ، و « لما سمع ما دار فيها من خطب عن المستقبل الذي يعدونه لفلسطين احتج وانسحب . وكان اول فلسطيني احتج على السياسة البريطانية الجديدة المنطوية على وعد بلفور » . انظر : عيسى السفري « فلسطين بين الانتداب والصهيونية » ــ سجل عام لقضية فلسطين في عشرين سنة (١٩١٧ ــ ١٩٣٦) . الطبعة الأولى . (مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة ، يافا ١٩٣٧) ص ٢٩ .
ولم يشر وايزمان في مذكراته الى شيء من هذا القبيل . بل اعتبر ان الصهيونيين اقاموا علاقات صداقة مع بعض الزعماء العرب وذكر من هؤلاء مفتي القدس وموسى كاظم الحسيني . (انظر **التجربة والخطأ** ، ص ٢٢٣) . غير ان ستورز يأتي على ذكر اقتراح تقدم به وايزمان آنذاك يقضي باهداء المفتي نسخة من القرآن الكريم عربونا للعطف والصداقة . وقد استحصل له ستورز على نسخة رائعة من القاهرة ، فقدمها الى سماحة المفتي أثناء مقابلة خاصة في مكتب الافتاء بدار المحاكم الشرعية الإسلامية . وعلق السير رونالد ستورز على الطابع الخاص للمقابلة بقوله ان القدس العربية في تلك العشية اعتبرت صندوق الهدية يحوي المبالغ المالية الضخمة التي عرضها وايزمان لقاء حصوله على الرصيف الممتد عند قدم حائط المبكى . وبما ان المكان المذكور من أملاك الوقف ولا يجوز بيعه ، فقد اقترح وايزمان ان تتم الصفقة على اساس اعتبار الاموال المعروضة بمثابة مبالغ يجري انفاقها على اعادة اسكان العائلات المقيمة هناك . (انظر ستورز ، المصدر نفسه ، ص ٤١٦ ــ ٤٠٧) .

ومهما يكن أمر تلك الشكوك التي ساورت عرب القدس آنذاك ودفعت بالبعض منهم الى اساءة الظن بالمفتي ــ لو صحت رواية ستورز ــ فانها تبقى أصدق شاهد على ادراكهم السليم للنوايا التي تبيتها الصهيونية بتشجيع بريطانيه وعطفها .

طريقتهم الخاصة وفي ضوء ما يضمرونه من نوايا ويعدونه من مخططات .
ثم كان اجتماع وايزمان والميجور اورمسبي غور بالامير فيصل في الرابع من حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، حيث استرعى انتباه الزعيم الصهيوني تلك الرقصة الاستعراضية التي يشاهد الجنود يقومون بها مثيرين حولهم عاصفة من الغبار فاعتبرها من طراز « الفنطازيا » (fantasia) التقليدية. واعترف بان الامير فيصل وجه اليه عددا لا يستهان به من الاسئلة ، كما أبدى دهشته لكون الامير مطلعا على مضامين البرنامج الصهيوني : (— «and I found him by no means uninformed») (انظر ــ **التجربة و الخطأ** ، ص ٢٣٤) . ومما يجدر ذكره ، حسب رواية وايزمن ، انه شرح للامير فيصل الغاية التي جاء من اجلها الى فلسطين واعرب له عن رغبة الصهيونيين « في بذل وسع طاقاتنا لإزالة المخاوف العربية وتهدئة الحساسيات ، آملين ان يمنحنا تأييده المعنوي القوي » . كما لم ينس وايزمان تذكير قارئه بان فلسطين وشرقي الاردن حينذاك كانتا تؤلفان « كيانا واحدا » لا تقطعه الحدود والفواصل . مما اتاح له الفرصة كي يشدد على وجود متسع كبير من الارض في البلاد يمكنه استيعاب الكثير فيما لو جرى تطبيق أساليب التنمية التكثيفية (intensive) في حقل الزراعة . كما وعد بتحسين اوضاع العرب وأحوالهم هناك الى درجة كبيرة نتيجة للمشروعات التي تنوي الصهيونية تحقيقها . وانتهى الى القول بانه وجد الامير متفقا معه كليا فيما القاه على مسمعه . غير انه « وعد بنقل خلاصة الحديث الذي دار بيننا الى أبيه الشريف حسين » باعتباره صاحب القول الفصل في جميع أفعاله ويتحمل بنفسه مسؤولية السياسة العربية (٢٦) . ويبدو من تحركاته اللاحقة ان وايزمان علق كبير الاهمية على ترسيخ أسس الصداقة بينه وبين الامير فيصل ، نظرا للدور الذي توسمه بشخصه فيما بعد . وليس هنا مجال الوقوف على الدور الذي لعبه « لورنس العرب » في « اقناع » فيصل وتعريضه لشتى الضغوط والمغريات بقصد حمله على توقيع اتفاقية مع الصهيونية .

عاد وايزمان الى لندن في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ ، بعد مغادرته لفلسطين في شهر ايلول (سبتمبر) . وتسلم الدكتور ادر رئاسة البعثة الصهيونية . وفي اواخر العام القى خطابا في جمع من الصهيونيين البريطانيين بمدينة لندن ، وعبّر فيه عن عدد من الافكار التي اراد البعض

---

٢٦ ــ راجع وايزمان ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥

ان يستخلصوا منها نظرة الزعماء الصهيونيين آنذاك . ومما قاله في خطابه:
« يعتقد البعض انه يتوجب على اليهود الحصول على دولة يهودية ، على غرار البولونيين واليوغوسلافيين وغيرهم . غير انه وجد في هذه الحالات جميعا سكان مقيمون ، ولم تستدع الضرورة سوى اقامة بنيان سياسي . فقبل ان تتمكن فلسطين من التحول الى دولة يهودية ، تستدعينا الضرورة ايجاد اليهود الساكنين هناك » (٢٧) .
ثم انتقل على ما يبدو الى تعيين المطالب الاساسية السياسية التي يجب على الصهيونيين تبنيها . فأوردها على الشكل الآتي :

أ ـ اعتراف العالم بان فلسطين ، أرض اليهود في الماضي ، يجب ان تصبح كذلك في المستقبل .

ب ـ اعطاء الفرص لايجاد الاوضاع والاحوال اللازمة والملائمة لارجاع اليهود الى فلسطين .

ج ـ تسليم الانتداب على فلسطين لدولة يثق بها اليهود ثقة تامة ، أي الى بريطانيه العظمى (٢٨) .

والتفت الى اولئك الذين زعموا بان هذه المطالب لا تتفق مع برنامج بازل . فلم يجد ما يرد عليهم به سوى الادعاء المطمئن بانه لو تم الحصول على الشروط التي ذكرها « لاصبح في حوزتنا بالفعل أكثر مما ينص عليه برنامج بازل » (٢٩) . وهذه عينة أخرى من تفكير وايزمان الذي يوصف تارة « بالصهيونية التوفيقية » وطورا بالمرحلية والتدريجية . فهو لا يستبعد ، منذ العام التالي لصدور وعد بلفور وبعد عشرين عاما على برنامج بازل ، حصول الصهيونية على ما يتعدى برنامج بازل ويفوق محتوياته .

وحين اخذت كفة الحلفاء في الحملة العسكرية للاستيلاء على البلاد العربية تميل الى الرجحان طيلة النصف الأول من العام ١٩١٨ ، اقدم الصهيونيون على توسيع نشاطاتهم وحث سعيهم للاقتراب مما يطمعون به . وتنادوا في مختلف انحاء العالم لعقد الاجتماعات والمؤتمرات بقصد التباحث بشأن ما أسموه بأهداف الوطن القومي اليهودي وبرامجه ،

---

٢٧ ـ نقلا عن اسكو فرنديشن ، **فلسطين** ، ج ١ ، ص ١٥٥ .
٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .
٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

واستعدادا لمؤتمر الصلح المتوقع عقده بعد نهاية الحرب . واوعزوا الى منظماتهم في الولايات المتحدة الاميركية بالعمل المستمر لاظهار تأييد اليهود لقضية الحلفاء ووقوفهم الى جانب الدول التي تحارب لدحر قوات المركز. كما حاولوا اضفاء طابع الليبرالية الديمقراطية على البرامج الصهيونية التي تنادوا لوضعها .

فجاء برنامج بتسبورغ (Pittsburg Program) الذي تبناه مؤتمر الصهيونيين الاميركيين في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، تحت تأثير براندیس وجماعته ، ليشدد على العدالة الاجتماعية والمبادىء التعاونية ، دون الالتفات الى النواحي السياسية . وتحدث عن تكافؤ الفرص في الوطن القومي اليهودي بفلسطين مؤكدا ان ضمان ذلك يتم متى اصبحت جميع الموارد الطبيعية والمنافع العامة للبلاد ملكا للشعب بأسره وتحت سيطرته. كما أشار الى احترام الحقوق القائمة بصورة عابرة . وانتهى الى الدعوة لجعل اللغة العبرية ، « اللغة القومية للشعب اليهودي » ، وسيطة التدريس والتعليم في المعاهد العامة (٣٠) .

واستطاعت البعثة الصهيونية الى فلسطين تنظيم مؤتمر ليهود البلاد في يافا بتاريخ ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ — بعد ان كان الأمير فيصل قد أعلن تأسيس دولته السورية في ٥ تشرين الأول (اكتوبر) ، وبعد التوقيع على اتفاق الهدنة بين الحلفاء وتركيه ، ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ ، لكي يضع المؤتمرون صيغة لما أسموه بـ « الخطوط العريضة للحكومة المؤقتة في فلسطين » . ورفعوا ، بايعاز من البعثة اياها ، نص المقررات التي اتخذوها الى المسؤولين الصهيونيين لكي يصار الى أخذها بعين الاعتبار متى عرضت المسألة اليهودية على مؤتمر الصلح . ومما يسترعي الانتباه ان نجد أقلية يهودية لا يزيد عددها على الخمسين الفا تدعو الى الاعتراف بفلسطين كوطن قومي ، تطالب بمنح الشعب اليهودي كله صوتا حاسما وفعالا في تقرير شؤون البلاد التي اكثرية أهلها ليست من الشعب اليهودي (٣١) . كما أصرت قرارات المؤتمر على وصاية بريطانيه وحمايتها ، ودعت الى خلق جمعية استعمار يهودي تقر بها عصبة الامم ، وتتمتع بسلطات واسعة لتنظيم الهجرة اليهودية والاستيلاء

---

٣٠ — راجع النص الكامل **Esco Foundation — Palestine, I, P. 152**

٣١ — انظر خلاصة المقررات — المصدر نفسه ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

على اراضي الدولة وتطويرها ، بالاضافة الى السعي للحصول على شتى الامتيازات الحكومية لمد الخطوط الحديدية وبناء الموانىء ومشروعات الري. كما خولت جمعية الاستعمار ان تقوم بادارة المصرف الزراعي التابع للحكومة العثمانية ، وحصولها على الحق الاستثنائي لاستغلال الموارد الطبيعية تحت سطح الارض . ولا تختلف المطالب التي عددها مؤتمر يافا من الاطار العام لسياسة التغلغل الاقتصادي التي دعا اوتو واربورغ الى انتهاجها قبل عشرة اعوام . ولا غرو فقد كان على رأس المنظمة الصهيونية العالمية آنذاك ، وفي وضع يؤهله لفرض تلك السياسة عن طريق المكتب الصهيوني الخاضع لاشراف صديقه آرثور روبين . كما لا يفوتنا ان نتذكر الهدف الذي من أجله طلع واربورغ ومؤيدوه بدعوتهم لانتهاج سياسة التغلغل الإقتصادي : ارساء « الحق اليهودي بفلسطين » على قواعد اقتصادية راسخة ، بدلا من الاستناد الى « الحق التاريخي » الذي اصبح باطلا بعد الفي سنة .

ولم تكتف مقررات مؤتمر يافا بتعيين السلطات التي يطلبها الصهيونيون لجمعية الاستعمار الجديدة ، بل صرحت بان الهدف من ذلك هو ايجاد اكثرية يهودية في البلاد . واكدت في الوقت نفسه على « ضمان حقوق سائر الجماعات القومية والدينية في جميع الشؤون الدينية والثقافية والخيرية » ، تاركة الاشارة الى الناحية السياسية عن سابق تصور وتصميم . وعلى الرغم من الاعتراف باللغتين العبرية والعربية كلغتين رسميتين على السواء ، فان الاعتراف بالوطن القومي يستدعي اطلاق تسمية « أرض اسرائيل » Eretz Israel على البلاد واعلان العلم اليهودي علما رسميا لفلسطين (٣٢) .

وفي الولايات المتحدة الاميركية كان المؤتمر اليهودي الاميركي يعقد اجتماعه بمدينة فيلادلفيه في التاريخ نفسه (١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨) ويتخذ قرارا باصدار التعليمات لمندوبيه (٣٣) في مؤتمر الصلح

---

٣٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

٣٣ ــ انتخب المؤتمر المندوبين التالين : جوليان ماك ، لويس مارشال وستيفن وايز . وقد استطاع هؤلاء الثلاثة اثارة اهتمام الكولونيل هاوس ، وهو من اكثر المقربين الى الرئيس الاميركي ويلسون بصفته من كبار مستشاريه وكاتمي أسراره وسفيره السري الى بريطانيه اثناء الحرب ، بمسألة حماية اليهود وضم بنود تتعلق بالاقليات في

كي يتعاونوا الى اقصى الحدود مع المنظمة الصهيونية العالمية . في سبيل الوصول الى الغاية التالية :

« اعتراف مؤتمر الصلح بالاماني والمطالب التاريخية للشعب اليهودي في فلسطين ... وايجاد تلك الاوضاع السياسية والادارية والاقتصادية بفلسطين ، في ظل وصاية بريطانيه العظمى التي تنوب في ذلك عن عصبة الامم التي سوف يتم تأليفها ، بشكل يضمن تطوير فلسطين الى كومنولث يهودي ... » (٣٤)

ولم يفت القرار اضافة العبارة التقليدية التي نص عليها الشق الثاني من وعد بلفور بخصوص الامتناع عن أي عمل من شأنه الحاق الأذى بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين . وقد جرى التعبير عن ذلك بالالفاظ التالية (Prejudice the existing rights)
اما الحديث عن « الاماني والمطالب التاريخية » ـ كما تمنى ذلك الحاخام ايزاكس قبل وفاته ـ فقد تبناه المؤتمر اليهودي الاميركي المنعقد في ٢ آذار (مارس) ١٩١٩ . اذ رفع مذكرة شاملة الى الرئيس ويلسون بالذات ـ وبعد مرور ما ينيف على العام من اعلان ويلسون لنقاطه الاربعة عشر ـ وجعل عنوانها « الحق اليهودي بفلسطين » . فزعم واضعوا المذكرة بان فلسطين هي « الوطن التاريخي لليهود » ، حيث بلغوا ذروة تطورهم وانبثقت عنهم تلك التأثيرات الروحية والمعنوية الرفيعة القيمة الى العالم أجمع . (٣٥) وقد طالبت المذكرة بان تقوم « الحكومة » بتقديم

بولونيه الى معاهدة الصلح مع المانيه . غير ان اتصالات الصهيونيين بالكولونيل هاوس ترجع الى ما قبل هذا التاريخ . وقد لعب فيها برانديس وفرانكفورتر دورا بارزا ، مما جعل الكولونيل هاوس صديقا للصهيونية . حتى ان ستيفن وايز يتحدث في مذكراته (**Challenging Years, 1949**) عن المساعدات والتشجيع الصادرة عن هاوس ، مؤكدا اهتمامه الخاص بالقضية الصهيونية وقيامه بدور ضابط الاتصال بين حكومة الرئيس ويلسون والحركة الصهيونية .

٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٣ . ونقلا عن صحيفة **Jewish Opinion** العدد ٢ ، ١٩ كانون ثاني (يناير) ١٩١٩ ، ص ٢ .

٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

المساعدات لليهود للاستمرار في التطور الذي بدأوه بفلسطين . كما عمدت الى تأجيل استعداد أهل فلسطين لاقامة حكم تمثيلي مسؤول ، دون الاتيان على ذكر الاسباب . واعتبرت من المسائل الجوهرية ان ينص دستور فلسطين في المستقبل على اعلان مؤتمر الصلح جاعلا ذلك الاعلان جزءا منه . كما دعت الى الاعتراف بالسبت اليهودي والاعياد الدينية كأيام راحة رسمية . لكنها لم تحدد الرقعة التي تعنيها بفلسطين ، حين تحدثت عن مسألة الجنسية وأطلقت الخيار أمام سكان فلسطين الغائبين منها بين الاحتفاظ بجنسيتهم أو التخلي عنها ضمن المهلة القانونية المحددة. فقد يكون السبب في ذلك ان المنظمة الصهيونية العالمية قد سبقت الى تعيين الحدود التي تطالب بها للوطن القومي في المذكرة التي رفعتها الى المجلس الإعلى في مؤتمر الصلح ـ بتاريخ ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ . كما ان لجنة الخبراء الاميركية رفعت التقرير المتضمن نتائج أعمالها الى الرئيس ويلسون في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ . وتقدمت بالمقترحات التالية المتعلقة بفلسطين تحت عنوان :

« الخطوط العريضة للتقرير المؤقت والتوصيات : فلسطين » (٣٦) توصي اللجنة بما يلي :

١ ـ انشاء دولة منفصلة في فلسطين .

٢ ـ وضع هذه الدولة تحت اشراف بريطانيه العظمى كدولة منتدبة عن عصبة الأمم .

٣ ـ توجيه الدعوة الى اليهود للعودة لفلسطين والاستيطان فيها ، مع تأكيد المؤتمر بتقديم جميع المساعدات اللازمة والتي لا تتعارض مع الحفاظ على الحقوق الشخصية (الدينية منها

---

٣٦ ـ Outline of Tentative Report and Recommendations — Palestine
والنص الوارد أعلاه مأخوذ عن :
David Hunter Miller — **My Diary at the Peace Conference** — With Documents (New York, 1928), Vol. IV, P.P. 263-264.
وقد نقله عن دافيد هنتر ميلر المحامي الصهيوني والاستاذ في اكاديمية لاهاي للقانون الدولي سابقا ، الدكتور ناثان فينبرغ .
Dr. Nathan Feinberg — **Some Problems of the Palestine Mandate** (Tel-Aviv - Palestine, 1936), PP. 28-30.

بنوع خاص) وحقوق الملكية لدى السكان من غير اليهود ، ومع التأكيد بان سياسة عصبة الأمم تقوم على الاعتراف بفلسطين كدولة يهودية حالما تصبح دولة يهودية بالفعل .

٤ — وضع الأماكن المقدسة والحقوق الدينية لجميع الطوائف والمذاهب الموجودة بفلسطين تحت حماية عصبة الأمم والدولة التي تنتدبها .

مناقشة التوصيات

اضيفت الحواشي الاربع التالية الى التوصيات الواردة أعلاه .

حاشية رقم ١ — « ان فصل المنطقة الفلسطينية عن سوريه له ما يبرره في الخبرة الدينية للانسانية . فالكنيستان اليهودية والمسيحية ابصرتا النور في فلسطين ، وكانت القدس ، لسنوات طويلة وفترات مختلفة ، عاصمة لكل منهما . ومع كون صلة المسلمين بفلسطين غير وثيقة الى الدرجة نفسها ، فقد اعتبروا القدس منذ البداية مكانا مقدسا. ولا يمكن ايفاء هذه الحقائق الكبرى نصيبها من الاهمية الا بجعل فلسطين دولة قائمة بذاتها .

وكما هو مرسوم على الخريطة ، سوف تبسط الدولة الجديدة سيطرتها على مصادرها الخاصة للطاقة المائية والري ، على جبل حرمون الى الشرق من نهر الاردن . وهذه ناحية بالغة الاهمية اذ يتوقف نجاح الدولة الجديدة على امكانات التطور الزراعي ومجالاته .

حاشية رقم ٢ — من الواضح ان فلسطين تحتاج الى هداية حكيمة وحازمة ، وسكانها لا يتمتعون بخبرة سياسية ، كما انهم يؤلفون مزيجا من عناصر متعددة ، ومن السهل ان يتلهوا بالتعصب والخلافات الدينية المريرة .

ان نجاح بريطانيه في معالجة اوضاع مماثلة ، وصلتها بمصر ، والمنجزات الادارية التي حققتها (في فلسطين) منذ ان قام الجنرال اللنبي بتحريرها من

الاتراك ــ جميع هذه الامور تشير اليها (الى بريطانيه) باعتبارها الدولة المؤهلة منطقيا للانتداب .

حاشية رقم ٣ ــ من الصحيح ان فلسطين يجب ان تصبح دولة يهودية، فيما لو جعلها اليهود كذلك ومتى أتيحت لهم الفرصة الكاملة . فقد كانت مهد عنصرهم الحيوي وموطنه ، ذلك العنصر الـذي قـدم مساهمات روحية عظمى للانسانية . وهي البلاد الوحيدة ، حيث يمكنهم عقد الأمل على ايجاد وطن خاص بهم ــ لكونهم ينفردون في هذه الخاصة الاخيرة بين سائر الشعوب البارزة .

بيد ان اليهود في الوقت الحاضر لا يكادون يؤلفون سدس مجموع السكان البالـغ عددهم ٧٠٠ الف في فلسطين . وما اذا كانوا سيؤلفون اكثرية ، أو حتى كثرة (Plurality) بـين السكان في دولة المستقبل تبقى مسألة غير مؤكدة . وباختصار ، فان فلسطين أبعد من ان تكون بلدا يهوديا الآن . الا انه يمكن الاعتماد على بريطانيه كدولة منتدبة لكي تمنح اليهود ذلك المركز الممتاز (المميّز) الذي يجب حصولهم عليه ، دون التضحية بحقوق غير اليهود .

حاشية رقم ٤ ــ ان أساس هذه التوصية أثر بديهي » .

وسوف يطالعنا في الفصل التالي ذلك الاهتمام المنقطع النظير لدى الصهيونيين بمسائل الحدود والتوسع ، الى جانب التبريرات والذرائع التي أفصحوا عنها في المذكرة التي رفعتها المنظمة الصهيونية العالمية الى المجلس الأعلى (مجلس العشرة) في مؤتمر الصلح بتاريخ ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ . كما نلاحظ التوقيت الذي اختاره رافعوا المذكرة ليأتي مطابقا مع تاريخ الجلسة الأولى التي تعقدها لجنة عصبة الأمم ، بعد انشغال مجلس العشرة طيلة الاسبوع الـذي سبق التقديم بمناقشة موضوع الانتداب والمناطق المرشحة للوصاية والحكم المنتدب .

مذكرة المطالب الصهيونية

يجدر بنا قبل الانتقال الى عرض المطالب والمقترحات الصهيونية الرسمية ـ كما رفعتها المنظمة العالمية الى مؤتمر الصلح متمنية عليه النظر فيها ـ ان نعود قليلا الى الوراء لنستعرض شريط الاحداث خلال المراحل الاخيرة في التطورات التي شهدها مسرح الحرب وبلغت احدى نهاياتها في التوقيع على اتفاقية الهدنة (٣٠ تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩١٨) واعلان وقف اطلاق النار ابتداء من صباح يوم الخميس الواقع في ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٨ .

ففي الثالث من اكتوبر (تشرين الاول) دخل الامير فيصل الى دمشق (١) بعد ان سبقه اليها لورانس ، ولحق به الجنرال اللنبي على

---

١ ـ نقل كتاب مؤسسة اسكو « فلسطين » عن مقالة نشرها موشيه بيرلمان في مجلة Jewish Social Studies (١٩٤٤ ، ص ١٣٢) بعنوان « فصول من الدبلوماسية العربية ـ اليهودية ، ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ » المعلومات التالية : حين دخل فيصل الى دمشق ، بعثت المنظمة الصهيونية برسالة تهنئة للامير ، فرد عليها بلطف ولياقة . (انظر Esco ، المجلد الاول ، ص ١٣٩) .
وفي صيف ١٩٢٩ ، بعد ان انتخب المؤتمر السوري العام الامير فيصل ملكا على سوريه في آذار (مارس) من العام نفسه ، تزعم الدكتور حاييم مارغاليت كالفاريسكي الدعوة للوصول الى تفاهم سياسي مع جماعة فيصل في دمشق . فتقدم بمشروع لهذا الغرض يتضمن مسودة دستور اساسي لفلسطين جاعلا اسمها « ارض اسرائيل » ، لكي يصار الى اعتماده كأساس للمفاوضات . وكانت الوثيقة موجهة الى كل من « جلالة الملك ووزيري خارجيته وداخليته ، بالاضافة الى رئيس المؤتمر السوري العام والمندوبين الفلسطينيين الذين اشتركوا في هذا المؤتمر» . (انظر المصدر نفسه ،

عجل لتنفيذ التعليمات الصادرة عن وزارة الخارجية ووزارة الحربية البريطانيتين بالتضييق على مطامح فيصل والوقوف بوجه « السيل العربي الجارف » ، وللحؤول دون الخروج على بنود اتفاقية سايكس — بيكو المتعلقة باقتسام مناطق النفوذ . وافهمه الجنرال اللنبي بان المنطقة التي تحتلها القوات تحت امرته هي « منطقة عدوّة » ، بعد ان نبهه الى كون الحرب لم تنته بعد . كما ابلغه عن مسؤولية بريطانيه في ادارة المنطقة حاليا . وذكّره بالاتفاقية « السرية » بين فرنسه وبريطانيه ، مؤكدا ان التعليمات الواردة اليه بموجب تلك الاتفاقية تقضي بترك فرنسه تبسط سيطرتها على المنطقة الزرقاء من سوريه الى الغرب من دمشق وحلب حتى تصل الى بيروت وتشمل جبل لبنان . وانبأ فيصل ولورانس باستلامه برقية من وزارة الخارجية البريطانية تدمغ العرب « بالمعتدين » . كما اعرب عن استعداده للاعتراف بقيام ادارة عربية تحت حكم فيصل في المنطقة العدوّة الى الشرق من نهر الاردن والممتدة من العقبة ومعان حتى تشمل دمشق . طالبا الى الامير فيصل القبول بتعيين ضابطي اتصال ، فرنسي وبريطاني ، بين الادارة العربية والحكومتين الحليفتين والابقاء على « الوضع الراهن » ريثما يتخذ مؤتمر الصلح قرارا نهائيا بهذا الشأن (٢) .

وهكذا رضخ فيصل للامر الواقع وانشأ ادارة عرفية عربية على « سوريه » بمعرفة الجنرال اللنبي وموافقته في الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ . واذاع بلاغه « الى اهالي سوريه المحترمين » معلنا

ص ٥٦٣ — نقلا عن كتاب كالفاريسكي (« البراشات دراخينو ») : «على مفترق طرقنا» ، القدس ، ١٩٣٩) .

اما المؤتمر الذي يرد ذكره في مشروع كالفاريسكي فهو المؤتمر السوري العام . اذ عقد المؤتمر المذكور بين ٣ حزيران (يونيو) ١٩١٩ — ١٩ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ثلاث دورات هامة :

أ — عند مجيء لجنة التحقيق الاميركية (٣ حزيران — يونيو ١٩١٩)

ب — ابان حدوث ازمة استبدال الجيوش البريطانية في خريف العام نفسه .

ج — عشية اعلان الاستقلال .

٢ — اعتمدنا في ذلك على كتاب الدكتور زين نور الدين زين ، **المصدر السابق** ، ص ٢٨ — ٣٠ .

تأسيس دولته على الشكل الآتي :

« تشكلت في سوريه حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالا مطلقا لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية (٣) » .

واعلن تكليف السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة وتأليف ادارة عرفية للسهر على الامن والنظام ، آملا ان يثبت اهالي سوريه « للعالم اجمع انهم امة لائقة بالاستقلال قادرة على ادارة شؤونها بنفسها » . وبعد التشديد على اعتماد قاعدة العدالة والمساواة في قيام الحكومة الجديدة ، نص البلاغ التاريخي على قانون ايمان الحكم العربي الجديد والمبادىء العليا التي يستلهمها بغية السير على هديها واعلن ان الحكومة

« تنظر الى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظرا واحدا لا تفرّق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي ، فهي تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التي قامت باسم العرب وتستهدف اعلاء شأنهم وتأسيس مركز سياسي لهم بين الامم الراقية (٤) » .

وحين تم سقوط كل من حمص وحماه وحلب بيد القوات العربية ــ البريطانية التي تابعت مطاردة الاتراك (٢٥ تشرين الاول ، اكتوبر) واستسلم الجيش التركي نهائيا ، كان قد انقضى حوالي اربعمائة عاما على انتصار جيوش السلطان سليم العثماني الكاسح في معركة مرج دابق ، شمالي حلب . ثم جرى توقيع اتفاقية الهدنة مع تركيه على ظهر السفينة الحربية البريطانية «اغاممنون» الراسيةفي مياه مرفأ مودروس (Mudros) ببحر ايجه . وتطلّع العرب من حولهم كمن راح ينتظر من بريطانيه ان تسارع الى الوفاء بالوعود والتعهدات التي قطعتها على نفسها اثناء الحرب ، فجاءتهم تأكيدات الجنرال اللنبي الرسمية بان التدابير التي اتخذتها الادارة العسكرية ليست الا تدابير مؤقتة ولن يسمح لها بالتأثير على الحل النهائي المتوقع من مؤتمر الصلح او خلق تحيّز ضد الاماني

---

٣ ــ انظر : **الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب.** اصدرته جريدة «الايام» ، دمشق (بدون تاريخ) ص ٨٩ .

٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

العربية . فما هي تلك التدابير والترتيبات «المؤقتة» التي بدات الادارة العسكرية الحليفة باتخاذها قبل توقيع اتفاقية الهدنة بعدة اسابيع ؟ لم تكن هذه التدابير في الواقع سوى وضع اتفاقية سايكس ـ بيكو الشهيرة موضع التنفيذ . فالمناطق التي احتلتها جيوش الحلفاء وبذلت شتى المساعي للحؤول دون دخول القوات العربية الى اقسام معينة منها كانت تابعة بالفعل للامبراطورية العثمانية وقد تألفت منها الولايات العربية في التنظيم الاداري العثماني . لذلك سارع الحلفاء الى اعتبارها « مناطق العدو المحتلة » وأصروا على تسميتها هكذا ، متذرّعين بالطابع « المؤقت » ريثما ينجلي الموقف ويتخذ مؤتمر الصلح العتيد قرارا نهائيا بشأنها .

ففي ٢٣ تشرين الاول(اكتوبر) ١٩١٨ ـ قبل توقيع الهدنة وبعد عودة وايزمان الى لندن ـ بعث الجنرال اللنبي بتقرير الى وزارة الحربية البريطانية يبلغها فيه انه قام بتقسيم « المناطق العدوة » في كل من سوريه وفلسطين الى القطاعات الادارية الثلاثة التالية (٥) :

أ ـ منطقة العدو المحتلة ـ القسم الجنوبي O.E.T.S.

ب ـ منطقة العدو المحتلة ـ القسم الشمالي O.E.T.N.

ج ـ منطقة العدو المحتلة ـ القسم الشرقي O.E.T.E.

فالمحتلة الجنوبية لم تكن سوى تلك المنطقة البنّية اللون على خريطة اتفاقية سايكس ـ بيكو . وقد شملت مساحتها فلسطين : من الحدود المصرية حتى عكا شمالا والى نهر الاردن شرقا . والمحتلة الشمالية لم تكن سوى « القطاع الازرق » الممتد على طول الساحل السوري من شمالي عكا الى الاسكندرون . بينما ضمت المحتلة الشرقية اقساما من القطاع A و B الذي رسمته خريطة سايكس ـ بيكو ، وفيها اعلن فيصل دولته العربية التي جعلها تقسيم الجنرال اللنبي تشمل شرقي الاردن وسوريه الداخلية . وجرى فيما بعد وضع المنطقة الشمالية المحتلة تحت الادارة العسكرية الفرنسية ، بينما اعتبرت بريطانيه ان

---

٥ ـ انظر زين ـ المصدر السابق ، ص ٤٠ ـ ٤١ . انظر ايضا Esco — **Palestine, Vol. I, P. 120.** والعبارة التي جرى استعمالها لوصف المناطق المحتلة :

Occupied Enemy Territory (South, North, East).

المنطقة المحتلة الشرقية هي من حصتها . وتركزت جهودها على اقناع الحليف الفرنسي بترك المنطقة الجنوبية (القطاع البنّي الذي كان في نية اتفاقية سايكس ــ بيكو تدويله) تخضع لادارتها العسكرية . كما ابقت العراق (ولايتي الموصل وبغداد) خارج هذه الترتيبات واخضعتهـــا لسيطرتها المباشرة .

وهكذا اندحرت تركيه وتداعت الامبراطورية العثمانية ليجد الشرق الادنى العربي نفسه غداة توقيع الهدنة وقد انتقل بين عشية وضحاها من حكم الاتراك الى قبضة بريطانيه وفرنسه وسيطرتهما الفعلية . ولقــد اصاب من اعتبر هذه الحقيقة وحدها تفوق في اهميتها ومغزاها جميع الوعود والتعهدات التي اغدقت زمن الحرب . كما استعان بمنظار التاريخ في تقديره لمغزى التحوّل الذي حصل من جراء استيلاء الدول الحليفة على البلاد العربية ، اذ كتب يقول :

« للمرة الاولى منذ الحروب الصليبية اصبحت القدس كما اصبح الشاطىء المعروف آنذاك بـ (سوريه) خاضعا من جديد لاحتــلال جيوش مسيحية اجنبية . بينما كانت الدول المسيحية تقبـــض بيديها على مصير العاصمتين التاريخيتين التوأمين لتلك الامبراطورية الإسلامية الشاسعة الاطراف والعظيمة : دمشق في شهرتها الاموية ، وبغداد في مجدها العبّاسي (٦) » .

وفي مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ايقن الحلفاء ان الشكوك بـــدات تساور العرب من جراء ما حصل حتى الان . فسارعت بريطانيه وفرنسه الى استصدار تصريح جديد من طراز الوعود والتعهدات السابقة ، انما لا يخلو في بعض عباراته من تأثير الافكار التي نادى بها الرئيس ويلسون . وقد نشر التصريح المذكور في الثامن من تشرين الاول (نوفمبر) ــ وخلال وقت واحد ــ في كل من لندن وباريس ونيويورك والقاهرة ، وجاء لاعلان «الاغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة». واعتبره الناس آنذاك في البلاد العربية بأنه على الاقل يعدّل في اتفاقية سايكس ــ بيكو ان لم يكن قد تخطّاها ليصبح وثيقة رسمية تتضمن نصا صريحا حول سياسة الدولتين الحليفتين في سوريه والعراق . كما ان الامير فيصل وصف التصريح الانجلو ــ فرنسي المذكور ــ في الحادي عشر

٦ ــ انظر زين . **المصدر السابق** ، ص ٤٦ .

من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ : يوم الهدنة ـ بانه « احدى الوثائق العظمى في التاريخ » والتي تعكس « المشاعر السامية والانسانية (٧) » .

ولا غرو فقد جاء التصريح الذي ابرقت نصه الحكومتان المتحالفتان الى الامير فيصل ليعلن ما يلي :

« ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسه وانجلتره في الشرق تلك الحرب التي اهاجتها مطامع الالمان انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريرا تاما نهائيا واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختيارا حرا . ولقد اجمعت فرنسه وانجلتره على ان تؤيدا ذلك بان تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سوريه والعراق : المنطقتين اللتين اتم الحلفاء تحريرهما ، وفي الاراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلا . وليس من غرض لفرنسه وانجلتره ان تنزلا اهالي هذه المنطقة الى الحكم الذي تريدانه . ولكن همهما الوحيد ان يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من ذات انفسهم ، وان تضمنا لهم عدلا منزّها يساوي بين الجميع ، ويسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد باحياء مواهب الاهالي الوطنيين ، وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية ... (٨) » .

---

٧ ــ انظر زين ــ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

٨ ــ راجع النص في « الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب » (جريدة الايام الدمشقية) ص ٨٨ ، وانظر ايضا علم الدين ــ « العهود المتعلقة بالوطن العربي » ، ص ٧٨ .

وقد اعتبر الكتابان المذكوران صدور التصريح بتاريخ الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ بدلا من ١٩١٨ ــ اي بعد صدور وعد بلفور بأقل من اسبوع . وجاء ترتيبها في كتاب علم الدين قبل نص وعد بلفور مباشرة . لكن هذا التقديم لا يمكنه الا ان يكون خطأ مطبعيا يحتاج الى تصحيح . فالمصدران يمتنعان عن ذكر المصادر والمراجع التي تم استقاء المعلومات والنصوص منها . لذلك قمنا بمقارنة الترجمة العربية للتصريح المذكور مع النص الانجليزي الذي

غير ان «الاجماع» الذي افصح عنه تصريح الحكومتين المتحالفتين ، على الرغم من مسايرته لافكار الرئيس ويلسون ، لم يكن يهدف الى الخروج عن اتفاقية سايكس ــ بيكو ، كي لا تقل شيئا عن اختيار الاهالي الوطنيين لحكوماتهم وإداراتهم في جو من الحرية . ففي السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ كان المسيو جورج بيكو قد نزل في مرفأ بيروت بصفته « المندوب السامي للجمهورية الفرنسية في سوريه وأرمينيه » . وازدادت مخاوف الفرنسيين من النوايا البريطانية والتشجيع الذي قد تستمده العناصر الوطنية المعادية لفرنسه فيما لو بقي الجيش البريطاني متمركزا في سوريه . وبدات المساعي تبذل للوصول الى اتفاق تمهيدي يضع الخطوط العريضة لسياسة الدولتين قبل انعقاد مؤتمر الصلح . فاتجهت بالدرجة الاولى نحو ادخال بعض التعديلات على اتفاقية سايكس ــ بيكو الشهيرة . وهكذا سافر المسيو كليمنصو مصطحبا معه المارشال فوش الى لندن في اول كانون الاول (ديسمبر) لاجراء التعديلات المناسبة واقتسام مناطق النفوذ في الاراضي التي تم تحريرها « من مظالم الترك » . بينما كان الامير فيصل ــ الذي وصل الى مرفأ مرسيليا على ظهر الطرّاد البريطاني « غلوستر » في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ــ يقوم بجولة للتفرج على ارض معارك الجبهة الغربية . وفي تلك الاثناء اجتمع كليمنصو ولويد جورج بين ١ ــ ٤ كانون الاول (ديسمبر) لاعادة النظر في بعض التقسيمات المتعلقة باتفاقية سايكس ــ بيكو . والتقى الطرفان على صعيد الرغبة لدى كل منهما في الوصول الى تعديل يؤمن له مصالحه ومطامعه . فالحكومة الفرنسية سعت بشخص كليمنصو لحمل حليفتها البريطانية على تثبيت الحقوق الفرنسية في كل من سوريه وكيليكيه . بينما طالبت بريطانيه ان يتم ذلك لقاء الثمن التالي : حصولها على كل من ولاية الموصل وفلسطين (المنطقة البنيّة اللون على خريطة سايكس ــ بيكو) . وقد عبّر لويد جورج في كتابه « الحقيقة حول معاهدات الصلح » (المجلّد الثاني) عما دار في ذلك الاجتماع بقوله :

« حين جاء كليمنصو الى لندن بعد الحرب العالمية الاولى توجهت

تلي في مجلس العموم البريطاني بتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٢١ (انظر زين ــ **المصدر السابق** ، ص ٤٧ ــ ٤٨) . وليس هناك من مبرر لاجراء تعديلات او تصحيحات على الترجمة العربية المعتمدة .

واياه الى السفارة الفرنسية ... وبعد وصولنا الى السفارة سألني عما اريده بالضبط من الفرنسيين ، فأجبته علـى التو بانني اريد ضم الموصل الى العراق ووضع فلسطين من دان الى بئر السبع تحت السيطرة البريطانية . وقد وافق دون اي تردد ... (٩) » .

ولا حاجة بنا الى الدخول في موضوع الشروط التي وضعها كليمنصو لقاء ادخال تلك التعديلات على اتفاقية سايكس ـ بيكو ، مع العلم بانه لم يكن راغبا في اجراء اية تعديلات مهما كانت الظروف بصـــدد سوريه . فالوجود العسكري البريطاني في المنطقة بعد الاستيلاء عليها من الاتراك ، وصدور وعد بلفور قبل عام ونيف ، بالاضافة الى مطالبة فرنسه بحصة في بترول الموصل ـ بعد ان اعترفت سابقا بشركة الزيت التركية علـــى انها صاحبة الحق الوحيدة في بترول ولاية الموصل ـ وضعت فرنسه امام الامر الواقع بصدد كل من فلسطين والموصل . وهكذا خرجت بريطانيه رابحة من الصفقة الجديدة ، « اذ حصلت فرنسه ، من جديد ، على ما وعدتها به بريطانيه ، بينما نالت هذه الاخيرة ما لم يكن من نصيبها ، اي الموصل ومنطقة فلسطين الاستراتيجية (١٠) » . وجاءت الصفقة على حد قول المؤرخ زين نور الدين زين « كمن يحاول بيع السلع نفسها مرتين من الزبون نفسه ، وربما كان عذره ان المؤسسة التجارية قد اصبحت الان تحت ادارة جديدة (١١) » .

فالذي يهمنا من زاوية هذا البحث هو تلك التغييرات التي طلع بها لويد جورج بعد ان سبقه وعد بلفور اليها . فقد توصل الى استبدال الاشراف الدولي على فلسطين بسيطرة بريطانيه ، وتمكن من المطالبـــة بحدود موسّعة لفلسطين تفوق الرقعة التي كان سايكس قد وافق عليها في السابق ، وتنادي بفلسطين العهد القديم « من دان الى بئر السبع » . بينما كانت حدود المنطقة البنّية التي تحدث عنها سايكس امام الزعماء الصهيونيين تصل الى مدينة عكا شمالا ، تاركة بذلك منطقة الجليل خارج نطاق القطاع البني اللون .

---

٩ ـ Lloyd George — **The Truth About the Peace Treaties Vol. II,** P. 1038 انظر زين ـ المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

١٠ ـ زين ـ المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

١١ ـ المصدر نفسه .

وفي الرابع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ ، وبعد انتهاء المفاوضات السرية بين لويد جورج وكليمنصو ، كان وايزمان يسارع الى وزارة الخارجية البريطانية لاستئناف اتصالاته بالمستر بلفور وابلاغه فحوى المقترحات التي سيتقدم بها الصهيونيون من مؤتمر الصلح بواسطة الحكومة البريطانية . وقد جاء في طليعتها « الاعتراف بالحقوق التاريخية والقومية لليهود في فلسطين ، مع الشرط اللازم بصيانة المصالح المشروعة للسكان غير اليهود صيانة تامة » ، بالاضافة الى تعيين وصي على فلسطين ، مع العلم بان الصهيونيين سوف يطالبون ببريطانيه العظمى ، وانشاء هيئة تمثل الشعب اليهودي وتملك سلطة اجراء الترتيبات اللازمة مع الدولة الوصية في سبيل اقامة الوطن القومي اليهودي بفلسطين (١٢) فأعرب بلفور عن استعداده للقبول بهذه التوصيات مطمئنا وايزمان الى ان الفرصة سوف تتاح امام الصهيونيين لعرضها مباشرة على مؤتمر الصلح . كما جدد العهد البريطاني بالتزام سياسة الوطن القومي اليهودي وتأييدها في مؤتمر الصلح . وعبّر وايزمان عن ارتياحه للتطمينات والتأكيدات حين اعلن في خطابه الآنف الذكر (انظر الفصل السابق) بانه لا يستبعد حصول الصهيونية على ما يتعدى برنامج بازل ويفوق محتوياته .

ثم اتجهت انظار الصهيونيين الى الامير فيصل بعد وصوله الى مدينة لندن في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ . وقبل مغادرته لندن بأيام معدودة في مطلع العام الجديد (١٩١٩) تمكنت الحكومة البريطانية بشخص لورانس من «اقناعه» بعقد اتفاق مع الصهيونيين يضمن التعاون معهم في فلسطين . وجرى توقيع الاتفاقية التي حملت اسم «فيصل ـ وايزمان» في الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، على ما يبدو . ولا نعرف بالضبط ما الذي تم آنذاك بين الامير ووزارة الخارجية البريطانية ، وما هي الضغوط التي تعرض لها (١٣) . وهل قبل بالنصيحة التي اسديت له حول السيطرة الفرنسية على سوريه ، ام رضخ للامر الواقع الذي جابهته به بريطانيه من خلال اصرارها على عدم الدخول في نزاع مع فرنسه حول القضايا السورية .

وهناك من يؤكد بان اقامة فيصل في لندن اتاحت له ، وللمرة

---

١٢ ـ انظر **Esco Foundation — Palestine, Vol. I, P. 155**

١٣ ـ انظر زين ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ .

الاولى ، مجال التعرف كليّا على اتفاقية سايكس ـ بيكو بمراميها ونتائجها البعيدة المدى . كما تسنّى له الاطلاع على الخريطة المربوطة بتلك الاتفاقية وكيف انها « دفعت العرب نحو الوراء صوب الصحراء » . فكان عليه ، كما صرح بذلك ، ان يواجه « الحقيقة المرة » (١٤) . ولا يهمنا بالتالي من امر الاتفاقية المذكورة سوى ذلك التحفظ الذي ذيّلها به الامير فيصل وبخط يده :

« يجب ان اوافق على المواد المذكورة اعلاه : بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ الى وزارة خارجية بريطانيه العظمى . لكن اذا وقع اقل تعديل او تحويل ، فيجب ان لا اكون عندها مقيّدا بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب ان لا اكون مسؤولا بأي طريقة مهما كانت » .

فهل اضيف هذا التحفظ الى النص بعد تقديم المذكرة المشار اليها اعلاه في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ؟ وما هي تلك المذكرة ؟ وهل جرى تقديمها بالفعل ؟ ام ان الاشارة تتجه صوب المذكرة التي رفعها الامير فيصل الى مؤتمر الصلح ، وهي المؤرخة في ١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ ؟ (١٥) .

يميل جورج انطونيوس ، استنادا الى الشواهد المتضمنة في تحفّظ الامير فيصل ، الى ترجيح الاحتمال القائل بان توقيع الاتفاقية بين فيصل ووايزمان يرجع تاريخه الى وقت لاحق للرابع من كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٩ (١٦) . وعليه يمكننا وضع المذكرة المؤرخة في الرابع منه ايضا ضمن اطارها الصحيح . اما المذكرة المرفوعة الى مؤتمر الصلح ، وهي التي نقلها الدكتور زين في ملاحق كتابه الآنف الذكر ، فقد اوردها دافيد هنتر ميلر في المجلّد الرابع من « مفكرتي في مؤتمر الصلح » My Diary at the Conference of Paris تحت عنوان الوثيقة رقم ٢٥٠ ، وأرخها في اول كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ . والمعروف ان افتتاح مؤتمر

---

١٤ ــ زين المصدر نفسه ، ص ٦٢ .
١٥ ــ انظر المصدر نفسه ، الملحق رقم «٢» ، ص ٢٥١ .
١٦ ــ راجع انطونيوس ــ **يقظة العرب** ، الملحق «د» ، ص ٥٩٢ـ٥٩٣ .

الصلح في باريس جرى في ١٨ من الشهر نفسه . فهل جرى تقديم المذكرة قبل انعقاد المؤتمر ام ان تاريخها يرجع الى وقت لاحق : ٢٩ كانـــــون الثاني (يناير) ؟ ومهما يكن الامر فقد اكد الامير فيصل في « مذكرة اول يناير » بان « البلاد التي يحدّها خط يمتد من الاسكندرون الى فارس ويتجه جنوبا حتى المحيط الهندي يقطنها « عرب » . ونعني بالعرب تلك الشعوب المتحدّرة من اصول سامية وثيقة القربى والناطقة بلغة واحدة ، هي اللغة العربية . كما ان العناصر الغير الناطقة بالعربية في هذه الرقعة لا يزيد عددها ــ كما اعتقد ــ على واحد بالمئة من مجموع السكان (١٧) » . وتحدث عن هدف الحركات القومية العربية لجمع شمل العرب وتوحيدهم في امة واحدة ، فاشار الى مقوّمات تلك الوحدة المرجوة التي تستمد من المبادىء العامة التي ارتضاها الحلفاء حين انضمت الولايات المتحدة الى صفوفهم ، والى « ماضينا المشرق » وذلك العناد الذي قاوم به العرب محاولات الاتراك لتذويبهم خلال ٦٠٠ عام ، وبدرجة اقل ، الـى « مـا حاولنا بذل وسعنا لتحقيقه كواحد من الحلفاء في هذه الحرب » . وخص فلسطين بالفقرة التالية :

« اما في فلسطين فان العرب يؤلفون الاكثرية الكبرى من السكان . ان اليهود تربطهم بالعرب وشائج القربى الدموية . وليس ثمـــة فارق في الطبائع بين الشعبين ، فنحن متفقون في المبادىء كـــل الاتفاق . ومع ذلك فان العرب لا يسعهم ان يخاطروا بالاضطلاع بعبء المحافظة على التوازن فيما يقع في هذا الاقليم من التصادم بين الشعوب والديانات ، ذلك التصادم الذي كثيرا ما ورّط العالم في مشاكل وهم يودون ان تقام عليهم دولة من الدول العظمـــى كوصيّة وان تنشأ لهم ادارة محلية تمثيلية تعمل لخير البـــلاد ورفاهيتها المادّية (١٨) » .

ويجدر بمن شاء التوسع في مسألة الضغط الذي تعرّض له فيصل اثناء زيارته الى لندن والمساعي التي بذلتها وزارة الخارجية البريطانية

١٧ــ راجع النص الكامل في الملحق «٢» من كتاب زين ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

١٨ــ المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ (النص العربي مأخوذ من « تقرير اللجنة الملكية لفلسطين » ، ص ٣٦) .

لحمله على الالتزام باتفاقية مع الصهيونيين يمكن بواسطتها مواجهة مؤتمر الصلح «بعمل ناجز» ، يجدر بمن شاء ذلك ، الرجوع الى ما كتبه انطونيوس في « يقظة العرب » عن ايعاز المسؤولين البريطانيين الى لورنس كي يستغل تأثيره في فيصل لحمله على الاعتراف رسميا بالاماني الصهيونية في فلسطين (ص ٣٩٣ – ٣٩٦) ، حيث اعتبر المؤلف توقيع فيصل الشروط على الاتفاقية مع وايزمان بمثابة المخرج الوحيد من الازمة النفسية والصعبة التي غدا الامير نهبا لاطرافها المتنازعة . وعلّق على اهمية الاتفاقية ومغزاها بقوله :

« وبما ان الشرط الذي ذيّل به على الاتفاقية لم ينجز فان الاتفاقية لم تكتسب طابع الإبرام الشرعي ولا قيمة لها الا في انها شهادة على المدى الذي كان فيصل مستعدا ان يقطعه في مسألة التعاون بين العرب واليهود ، ما دام ذلك لا يتضارب واستقلال العرب (١٩) » .

ولنعد الى متابعة التحرّكات الصهيونية في مطلع ١٩١٩ . ففي شهر كانون الثاني (يناير) ايضا من العام نفسه عقد عدد من الاعضاء البارزين في المنظمة الصهيونية اجتماعا خاصا لكي يتم وضع سياسة رسمية للصهيونية قبل انعقاد مؤتمر الصلح . وجرى تكليف هربرت صموئيل بوضع مسودّة برنامج في صيغة لائقة لكي يصار الى تقديمه لوزارة الخارجية البريطانية . وفي اواخر الشهر نفسه اخبرتهم وزارة الخارجية البريطانية ان يتقدموا بالمقترحات مباشرة الى الامانة العامة لمؤتمر الصلح . واشترطت بريطانيه عليهم قبول الانتداب متى جرى التخلص من بعض المقترحات المتطرّفة والمفرطة في مطالبها ، كالاصرار على كون رئيس حكومة فلسطين يهوديا وجعل اكثرية موظفي الحكومة ومسؤوليها من اليهود (٢٠) . فجرى ادخال بعض التعديلات حتى ظهرت

١٩– انطونيوس – **يقظة العرب** ، ص ٣٩٦ .

٢٠– انظر **Esco Foundation — Palestine, Vol. I, P. 156** وفي الإجتماع الذي عقدته البعثة الصهيونية الى فلسطين بتاريخ ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ سارع فلاديمير جابوتنسكي الى التقدم باقتراح يقضي بارسال برقية الى المنظمة الصهيونية في لندن تطلب الى المسؤولين استخدام نفوذهم للحؤول دون القيام بعمل من شأنه التعجيل في تسريح الفرقة اليهودية ، والابقاء على افرادها في سلك الخدمة اطول مدة ممكنة . لكن اغلبية البعثة قررت تأجيل

المذكرة بصيغتها النهائية ورفعت الى المجلس الاعلى في مؤتمر الصلح بتاريخ ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ تحت عنوان « تصريح المنظمة الصهيونية بصدد فلسطين » . وهكذا تضمنت المذكرة المقترحات الصهيونية الرسمية المرفوعة الى مؤتمر الصلح ، وتمنت على « الفرقاء المتعاقدين السامين » ان يعترفوا بالحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين وبحق اليهود في اعادة بناء وطنهم القومي هناك . اما الناحية التي تستأثر باهتمامنا في نطاق هذا البحث فهي التي تتعلق بالاقتراح الثاني : « تكون حدود فلسطين كما جرى الاعلان عنها في البيان الملحق بهذه المذكرة » :
The Boundaries of Palestine : Schedule

اما النص الحرفي للمقطع الذي يهتم بتعيين الحدود المرجوّة فقد جرت ترجمته على الشكل التالي :

« ان حدود فلسطين يجب ان تسير وفقا للخطوط العامة المذكورة ادناه :

« تبدأ في **الشمال** عند نقطة على شاطىء البحر الابيض المتوسط بجوار مدينة صيدا وتتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان حتى تصل الى جسر القرعون ، فتتجه منه الى البيرة ، متبعة الخط الفاصل بين حوضي وادي القرن ووادي التيم ، ثم تسير في خط جنوبي متّبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ (حرمون) حتى جوار بيت جن ، وتتجه منها شرقا متّبعة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنيه حتى تقترب من الخط الحديدي الحجازي الى الغرب منه .

« وفي **الشرق** يحدّها خط يسير بمحاذاة الخط الحديدي الحجازي والى الغرب منه حتى ينتهي في خليج العقبة .

« وفي **الجنوب** حدود يجري الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية .

« وفي **الغرب** ـ البحر الابيض المتوسط .

النظر في موضوع البرقية ـ على حد قول مؤلف سيرة حياة جابوتنسكي خلال مقابلة اجراها مع موشيه بيرلمان . (انظر ـ
J. Schechtman — **Rebel and Statesman** — The Vladimir Jabotinsky Story : The Early Years, P. 273).

« اما تفاصيل تخطيط الحدود ، او اي تعديلات تفصيلية لها قد تستدعيها الضرورة ، فسوف تسوّى بواسطة لجنة خاصة يتمثل اليهود فيها » (٢١) .

ومضت المذكرة ، بعد سردها للاعتبارات التي يقوم عليها مـــــا اسمته في بيانها بالحق التاريخي لليهود في فلسطين (٢٢) ومطالبتهـــــا

٢١ــ جرى الاعتماد على النص الانجليزي كما اورده : J. C. Hurewitz — **Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record : 1914-1956, Vol. II (Princeton, 1956), P. 46**

ونقلا عن كتاب دافيد هنتر ميلر « مفكرتي في مؤتمـــر الصلح » (نيويورك ، ١٩٢٤) ، المجلد ٥ ، ص ١٥ ــ ٢٩ .

٢٢ــ اورد البيان حـول « الحـق التـاريخي » الحجج او الاعتبارات الخمسة التالية :

ا ــ فلسطين هي الوطن التاريخي لليهود ، حيث طردوا منه بالقوة ولم ينقطع توقهم وأملهم عبر العصور في العودة .

ب ــ الاحوال المعيشية السيئة التي يتردّى بها ملايين اليهود في اوروبه الشرقية تولّد الحاجة الملحّة الى متنفس . وفلسطين هـــي البلد الذي يقع عليه خيار الجماهير اليهودية ، اذ يمكن تحويلها وتطويرها الى موطن للرخاء والازدهار يملك القدرة على استيعاب عدد مـن السكان يفوق عدد سكانها الحاليين اضعاف المرات .

ج ــ ان فلسطين لا تتسع لجميع يهود العالم البالغ عددهم ١٤ مليونا . غير ان الجزء الذي يشترك في تأسيس الوطن القومـــي اليهودي بفلسطين سوف تكون له قيمة عالية في نظر يهود العالم ، ويلهم الملايين اليائسة بأمل جديد واضعا نصب اعينهم مثالا اعلى .

د ــ فلسطين اليهودية لها قيمتها بالنسبة للعالم كله ، اذ يقوم غنـــى العالم الحقيقي على التنوّع المعافى للمدنيات والحضارات .

هـ ــ الارض بالذات تحتاج الى خلاص وافتداء ، حيث ترك معظمهـــا عرضة للاهمال والجدب . والافتداء يلزمـه حكومة مستقـــرة ومستنيرة ، بالاضافة الى نشاط اليهود وذكائهم والطاقات المالية الضخمة التي لا غنى عنها في حقل التنمية والتطوّر (انظر ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦ ــ ٤٧) .

ببريطانيه كدولة تنتدبها عصبة الامم على فلسطين ، لتستشهد بمقررات المؤتمر اليهودي الاميركي والمؤتمر الصهيوني ليهود فلسطين في يافا ، مؤكدة ان الخيار وقع على بريطانيه لتكون الدولة المنتدبة . ثم اوردت الشروحات والتعليلات التالية لتبرير اقدامها على رسم حدود فلسطين على الصورة الآنفة الذكر . فجاء ما ترجمته بالحرف الواحد :

« ان الحدود المرسومة اعلاه هي ما نعتبره جوهريا للاساس الاقتصادي الضروري للبلاد . وفلسطين يجب ان يكون لها منافذها الطبيعية للبحار والسيطرة على انهارها وعلى منابع تلك الانهار . ولقد جرى رسم معالم الحدود على اساس اعتبار الحاجات الاقتصادية العامة والتقاليد التاريخية للبلاد . وهي اعتبارات يتحتم على اللجنة الخاصة ان تراعيها حين تقوم بتعيين الحدود ورسم خطوطها المضبوطة . كما يجب على هذه اللجنة ان تتذكر بان من المرغوب فيه جدا ، لمصلحة الادارة الاقتصادية ، جعل المساحة الجغرافية لفلسطين اكبر ما يمكن ، بحيث تستطيع فيما بعد استيعاب عدد كبير من السكان ينعمون بالرخاء ، ولكي يصبح بمقدورها ان تتحمل اعباء الحكومة العصرية المتمدنة ، اكثر مما يتحمله بلد صغير محدود السكان بالضرورة .

« وتعتمد الحياة الاقتصادية لفلسطين ، كشأن اي بلد نصف جاف آخر ، على كميات المياه المتوفرة . لذلك يصبح من الاهمية الجوهرية بمكان ، ليس فقط تأمين جميع موارد المياه التي تغذي البلاد حتى الآن ، بل القدرة للمحافظة والسيطرة عليها عند منابعها.

« ان جبل الشيخ (حرمون) هو « أب المياه » الحقيقي لفلسطين ، ولا يمكن فصله عنها دون توجيه ضربة قاصمة الى جذور حياتها الاقتصادية بالذات . وجبل الشيخ لا يحتاج فقط الى اعادة تحريج وتشجير ، بل وايضا الى أعمال اخرى قبل ان يصبح مؤهلا ليكون خزان مياه البلاد . لذلك يجب أن يخضع كليا لسيطرة اولئك الذين تحدوهم الرغبة الشديدة ويملكون القدرة الكافية لاستغلال امكاناته حتى أقصى الحدود . كما يجب التوصل الى اتفاق دولي تحمى بموجبه حقوق المياه للشعب القاطن جنوبي نهر الليطاني (اي اليهود في فلسطين الكبرى) حماية تامة . اذ ان منابع المياه هذه ، فيما لو حظيت بالعناية اللازمة ، تستطيع ان تخدم تنمية لبنان مثلما تخدم تنمية فلسطين .

« ان السهول الخصبة الواقعة الى الشرق من نهر الاردن كانت منذ اقدم ايام التوراة ، مرتبطة اقتصاديا وسياسيا بالارض الواقعة غربي نهر الاردن . وهذه البلاد الضئيلة السكان حاليا ، سبق لها أيام الرومان اعالة اعداد ضخمة من السكان . ويمكنها ان تصبح الآن بصورة مدهشة حقلا للاستعمار التوطيني على نطاق واسع . ثم ان المراعاة العادلة للحاجات الاقتصادية لدى كل من فلسطين وشبه جزيرة العرب تتطلب اعطاء حكومات الطرفين الحق في حرية الوصول الى سكة حديد الحجاز على طول امتدادها .

« ان التنمية التكثيفية للزراعة وغيرها من الفرص والمرافق الموفورة في شرقي الاردن تحتم ان يكون لفلسطين منفذ على البحر الاحمر وفرصة لإنشاء موانىء جيدة على خليج العقبة . والعقبة ، كما نعيد الى الذهن ، كانت نهاية طريق تجاري هام لفلسطين منذ أيام سليمان فصاعدا . فالمرافىء التي يجري تطويرها في خليج العقبة يجب ان تكون مرافىء حرّة ، تمرّ فيها تجارة البلاد الداخلية على أساس المبدأ نفسه الذي أهتدينا به في اقتراحنا اعطاء حق حرية الوصول الى سكة حديد الحجاز » (٢٣) .

هكذا عرضت المنظمة الصهيونية العالمية مطالبها التوسعية الاقليمية على مؤتمر الصلح ، في باريس عام ١٩١٩ ، وفي مذكرة رسمية تضمنت بيانها حول فلسطين والمقترحات التي جرى الاتفاق بشأنها مع وزارة الخارجية البريطانية (٢٤) . وحين عقدت لجنة العمل الصهيونية اجتماعها

---

٢٣ ـ هوريفتز ، المصدر نفسه ، ص ٤٧ ، ٤٨ . وقد استعنا في ترجمة هذه المقاطع بالنص العربي الذي أورده برهان الدجاني في مقاله المنشور بجريدة « الأنوار » اللبنانية ، ١٩ أيار (مايو) ١٩٦٥ تحت عنوان « هكذا نستطيع ان نقهر الخطر الصهيوني » . وقمنا بادخال بعض التعديلات والاضافات اللازمة .

٢٤ ـ وقد شرح وايزمان آنذاك ما يجب ان يعنيه « الوطن اليهودي » في فلسطين مشدّدا على تهجير ٥٠ الفا من اليهود في العام الواحد لكي تصبح فلسطين بلدا يهودي الطابع ، مثلما هي انجلتره انجليزية . (انظر **A.T. Mason — BRANDEIS. A Free Man's Lief** (New York, The Viking Press, 1956), P. 455. وتحدث عن

في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ ، وقبل مثول الزعماء الصهيونيين أمام لجنة العشرة في مؤتمر الصلح بايام معدودة، ٢٧ شباط (فبراير) ، تعرضت المذكرة لانتقادات شديدة اللهجة بسبب اغفالها لعدد من المطالب الأخرى من قبيل اعطاء الشعب اليهودي بأسره صوتا في تقرير شؤون فلسطين والاعتراف بالعلم الصهيوني علما رسميا لفلسطين .

وكان الصهيوني الاقليمي اسرائيل زانغويل في طليعة الذين شنوا هجومهم العنيف على التفسير الصهيوني الرسمي لوعد بلفور . فنشر مقالا بعنوان « قبل مؤتمر الصلح » (Before the Peace Conference) في مجلة آسيه Asia ، عدد شباط (فبراير) ١٩١٩ ، وتحدث فيه عما يتوقعه الصهيونيون واليهودية من مؤتمر الصلح . كما حاول تعيين السبيل الأوحد لكي « نجعل من فلسطين وطنا قوميا يهوديا » . وانتقد التفسير الصهيوني الذي رأى فيه اتجاها لجعل فلسطين « مستعمرة تابعة للتاج البريطاني تضم اكثرية عربية ساحقة » ، حيث ينبغي على اليهود ان يتسللوا زحفا الى احدى زوايا « وطنهم » ، منعزلين كجماعة من البرص . فأصدر حكمه بان فلسطين هذه ليست يهودية ، ولا هي قومية ولا

زيادة حوالي ٤ ــ ٥ ملايين يهودي . بينما وقف البروفسور سيلفان ليفي للرد عليه مؤكدا ان فلسطين بلاد صغيرة لا يمكنها استيعاب تلك الملايين اليهودية التي تغنى وايزمان برغبتها في المهاجرة الى هناك . وأثار مسألة الازدواجية في الحقوق المواطنية والولاء ، متى جرى تحويل فلسطين الى مركز سياسي يهودي (الدولة اليهودية) . مما أوقع الصهيونيين الباقين في مأزق حرج ، فسارع المندوب الاميركي ، المستر لانسينغ الى انقاذ وايزمان بأعجوبة . اذ قاطعه بسؤال موجه الى وايزمان يستوضحه فيه عن معنى عبارة « الوطن القومي اليهودي » . فاغتنم الزعيم الصهيوني هذه الفرصة لينفي المزاعم القائلة بان المنظمة الصهيونية العالمية تسعى الى اقامة حكومة يهودية مستقلة في فلسطين . بل جلّ ما تريده قيام ادارة في ظل دولة منتدبة تفسح المجال امام ارسال ٧٠ ــ ٨٠ الفا من المهاجرين اليهود سنويا الى فلسطين ! (انظر Esco Foundation — Palestine, Vol. I: P. 161). وايضا : وايزمان ــ **التجربة والخطأ** ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

وطنا (٢٥) . وتمنى ان يتم « توطين » العرب تدريجيا في المملكة العربية الجديدة والشاسعة الاطراف ، مذكرا بان اليهود لم يقلوا عن العرب في التضحية بحياتهم لتحريرها من الاتراك ، ومشيرا الى اهتمام الكومنولث اليهودي بانماء علاقات الصداقة والتعاون الوثيق مع الدولة العربية الجديدة .

لذلك يطلع زانغويل بخطته الرامية لجعل فلسطين « وطنا قوميا يهوديا » في القلب والقالب ، وللحؤول دون ظهور وعد بلفور بمثابة السراب الخداع والاهانة . ويركز اهتمامه على كيفية التخلص من « ما يزيد على الثلاثين الف ملاكا عربيا وحوالي ٦٠٠ الف من الفلاحين الذين يملكون القسم الاعظم من التراب المقدس » (٢٦) . فلا يجد امامه سوى استبدال الاكثرية العربية باكثرية أو اغلبية يهودية ونزع ملكية العرب عن الارض « لقاء تعويض معقول » ، ايمانا منه بقول اللورد مورلي في «سيرة حياته» : « ان السلطة في كل بلد تقبع دوما بيد الطبقات المالكة للارض » (المصدر نفسه) . عند ذاك يمكن لاسرائيل ان تشرع في مهمة بناء الدولة المثالية . واذاك فقط يجوز للصهيونيين تطمين ١٣ مليونا من يهود الدياسبورا بان فلسطين هي وطنهم . فاليهودية تهب ، في نظر زانغويل ، للحصول على « أمل تقليدي ثانوي » من مؤتمر الصلح ، بالاستيلاء على فلسطين وامتلاكها من جديد :

« ولو أمكن توحيد هذا الاكتمال الثانوي مع جعل مدينة القدس مقرا لعصبة الامم ، بدلا من لاهاي المفلسة ، لتسنى جمع الحلمين العبرانيين ، الاكبر والاصغر ، ودمجهما في حلم واحد ، ولاصبحت العاصمة العبرانية الإم – ملتقى الديانات العالمية الثلاث – مركزا ورمزا للعصر الجديد في الحال » (٢٧) .

وطالما بقيت اكثرية عربية في فلسطين ، يتعذر على الاقلية ان تبسط

---

٢٥ – اعتمدنا النص التالي للمقال ، كما اعيد نشره في مختارات من خطب ومقالات ورسائل اسرائيل زانغويل : **Speeches, Articles and Letters of Israel Zangwill, Selected & Edited by Maurice** Simon (London, 1937), P. 340.

٢٦ – المصدر نفسه ، ص ٣٤٠ .

٢٧ – المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .

سيطرتها على من يفوق عددها بستة اضعافه . بينما تؤدي سيطرة الاكثرية العربية على الاقلية اليهودية الى « تقييد هجرتنا وخنق الوطن القومي اليهودي في المهد » . لذلك ان تصبح فلسطين « مؤهلة للديمقراطية » (Safe for democracy) ــ على حد تعبير الرئيس ويلسون ــ الا متى

« امتلك اليهود فلسطين كما سوف يمتلك العرب شبه جزيرتهم أو البولونيون بولونيه » (٢٨) .

وقد سبق لزانغويل بالذات انالقى خطبةفي ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ عن « وعد بلفور » تحدث فيها عــن التقليد البريطاني العريق في العطف على القضية اليهودية واستشهد بقول ماكس نوردو : « لقد انتهى عصر الخطابة واقتربت ساعة العمل » . ومما قاله بالحرف الواحد :

« سبع حملات صليبية الــى الارض المقدسة عادت عــلى اليهود بالمذابح . فهــل ستؤدي الصليبية الثامنة الــى استرجاع اليهود لفلسطين ، واذا كانت صليبية مسيحية حقّة ، فان تلك الحقيقــة بالذات تأتي بمثابة البرهان على النظام الجديد لعالم تسوده المحبة والعدالــة » (٢٩) .

كما لا يساورنا أدنى شك بان اسرائيل زانغويل لم يغرب عن باله أمر تلك الحملة الصليبية الثــامنة منــذ طرق سمعه خبر تشكيل الفرقــة اليهودية . فهو يلجأ لشهادة الكولونيل باترسون محاولا ابراز دور الكتائب اليهودية المحاربة في فلسطين ومؤكدا بان العمليات الحربية بأسرها قد ارتكزت على الفرقة اليهودية (٣٠) لذلك نجده يتوقع للصليبية اليهودية ان تلعب دورا بارزا في قيام الدولة الصهيونية وفي الاستيلاء على فلسطين من جديد . ولا يخلو تفكيره من النزعة التوسعية بحجة تحرير جميــع اجزاء الوطن اليهودي وتوحيدها : (Judaea Irredenta)

وحين ظهر المجــلد الأول مــن كتاب ناحوم سوكولــوف « تاريخ الصهيونية (حزيران ــ يونيو ــ ١٩١٩) (٣١) ، كتب اسرائيل زانغويل

---

٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .
٢٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ .
٣٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .
٣١ ــ من الملاحظ ان سوكولوف حين تحدث عن « النظام الاساسي »

مراجعـة تحت عنوان « فلسطـين المستعادة » (Palestine Regained) واقترح فيها الا يتعدى عنوان الكتاب عبارة مـن قبيل « مواد لتأريـخ الصهيونية » . فانتقد موقف فرنسه لاهتمامها بالصهيونية الحديثة من زاوية مصالحها في الشرق ، وازدياد ذلك الاهتمام منـذ اصبح تقسيم سوريه في مؤتمر الصلح بمثابة مسألة مسيحية . وأكد

« ان الامبراطورية العثمانية لا تعرف شيئا اسمه « فلسطين » : فقد جرت اذابتها طوعا في ولايتين وسنجق . وبنفس الروح تحاول فرنسه ان تذيبها في سوريه » (٣٢) .

ثم اشار الى تاريخ العطف البريطاني على القضية اليهودية والاهتمام بالحركة التي تزعمها المسيح الدجال شباتاي زفي في القرن السابع عشر .

لجبل لبنان ، والذي يرجع تاريخه الى ٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٤ ، (Réglement Organique) أخذ يلمح الى مسألة الحدود بطريقة تفضح المطامع التوسعيـة الصهيونيـة وتتحسر على ما أسـماه بـ « بسوء تعيين الحدود الى الشرق » حيث تعدت متصرفية جبل لبنان الخط المرسوم لحدودها و « انتهكت حرمة » سهل البقاع ! ولا مانع من نقل الفقرة بكاملها :

« جعل جبل لبنان سنجقا او متصرفية تتبع الباب العالي مباشرة ، كما اشترط عـلى الباب العـالي ان يعمل بعـد استشارة الدول الست الكبرى . وبلغ طول الرقعة حوالي ٩٣ ميلا من الشمال الى الجنوب (من حدود سنجق طرابلس الى قضاء صيدا) بينما كان معدل عرضها حوالي ٢٨ ميلا اذ امتد من احدى حصون سلسلة جبال لبنان حتى الاخرى، مبتدئا عند طرف السهل الساحلي خلف بيروت ومنتهيا عند الطرف الغربي لسهل البقـاع . غير ان الحدود رسمت بطريقة سيئة ، لجهـة الشرق على الاخص ، حيث لم يجر التقيد بالخط الاصلي الذي رسم عـلى طول حرف التلال (التابعة لسلسلة جبال لبنان الغربية) وتعدت الجبال على حرمة سهل البقاع » . (انظر ــ **تاريخ الصهيونية** ، ج ١ ، ص ١٧١) .

٣٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

حتى ان المراهنات في بورصة الاسهم اللندنية جرت على نجاح هذه الحركة أو فشلها ، مما يدل في نظر زانغويل على اهتمام الانجليز آنذاك بالموضوع. وانتقل الى اسداء المشورة لبريطانيه كي تقبض بيد من حديد على اولئك المنحطين من أبنائها الذي تسببوا في دمغها بصبغة « الغدار » أو «الخؤون» (Perfide Albion) . كما وجّه النقد الى سياسة السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين ، معتبرا الاعمال التي صدرت عنها محاباة للعرب والبريطانيين ودليلا على ما أسماه « بالسياسة الهدامة » — في معرض تعليقه على تصريح اللورد روبرت سيسيل بان ارجاع اليهود سيكون مثالا على « السياسة الخلاقة » . واستشهد بعبارة طوماس كلارك التي يعود تاريخها الى عام ١٨٦١ ، اذ تنبأ فيها بقيام الامة اليهودية وانبعاثها (٣٣) . ثم انتهى الى القول بان السؤال الذي يلح في طرح نفسه على مؤتمر الصلح لا يختلف عن توقعات كلارك . وأعلن ما يلي :

« ان الكيان السياسي الفلسطيني يجب افراغه في قالب يؤدي الى زوال الاريدنتية اليهودية (Judaea Irredenta) بشكل نهائي من على الخريطة ، مثل سائر الاريدنتيات الاخرى في العالم .

« ان مسألة الاماكن المقدسة يمكن حلها بسهولة : فكنيسة القيامة يقوم على حراستها يهود اعتنقوا المسيحية ، والمسجد الاقصى يحرسه يهود اعتنقوا الاسلام . والفصل التالي من « تاريخ الصهيونية » يجب ان يكون بعنوان « فلسطين المستعادة » ، وليس « خيانة اليهودية » (٣٤) » .

هذا هو زانغويل بعد ارتداده عن الاقليمية وارتمائه في احضان الحركة الصهيونية من جديد ، يطالب بتحرير جميع المناطق التي يزعم انها كانت تؤلف جزءا من مملكتي « يهوذا » و « اسرائيل » ، ويدعو الى ادخالها في الكيان الجغرافي الفلسطيني لكي تزول الاريدنتية اليهودية من خريطة الصهيونية ، دون تعيين الحدود المبتغاة .

ومما يسترعي الانتباه في العديد من الكتابات الصهيونية التي صدرت

---

٣٣ — راجع **Thomas Clarke — India and Palestine** : or, the Restoration of the Jews, viewed in relation to the Nearest Route to India (Manchester, 1861).

٣٤ — زانغويل — **المصدر السابق** ، ص ٣٤٧ .

ابان عام ١٩١٩ وما بعده ذلك الاهتمام الزائد الذي يوليه مؤلفوها لمسألة الحدود المنشودة للوطن القومي اليهودي . ففي المقترحات التي تقدم بها احد هاعام الى مؤتمر الصلح نجده يشدد على مسألتين : ١ ــ الحق التاريخي للشعب اليهودي في اعادة تأسيس وطنه القومي بفلسطين ، ٢ ــ وضع فلسطين ، بحدودها التاريخية التي تقوم بتعيينها لجنة خاصة ، تحت الحماية والوصاية البريطانية . على اننا سوف نكتفي بايراد الامثلة الثلاثة التالية ، خوفا من اتساع البحث بشكل يتعدى نطاق هذه الدراسة :

١ ــ في مطلع عام ١٩١٩ أصدر الكابتن نورمان بنتويش ، وهو الذي جاء مع القوات البريطانية من مصر الى فلسطين ، كتابا بعنوان « فلسطين اليهود : الماضي والحاضر والمستقبل » (٣٥) . وأضاف الى الكتاب ملحقا عنوانه « افتداء يهوذا » مع مقالات اخرى كان قد نشرها في صحيفة المانشستر غارديان حول تقدم القوات البريطانية نحو القدس . كما صدّره بخريطة لفلسطين تمتد من « بيروت الى الخليج » . وأعلن في المقدّمة انه يهدف الى التعريف ببعث الشعب اليهودي واحياء ارض اسرائيل التاريخية (٣٦) . فحين تحدث عن « فلسطين في التاريخ اليهودي » أشار الى الرقعة الصغيرة التي تشغلها متى جرى قياس مساحتها بين « دان وبئر السبع ومن الكرمل الى ما وراء نهر الاردن » (٣٧) . غير انه لم يجد مانعا من تخطي الحدود التاريخية متى وصل به الحديث الى « مستقبل الارض والشعب » . فاستعار من حاخامات الزمن القديم تشبيههم لفلسطين بذلك « الغزال الذي ينتفخ جلده كلما حسنت تغذيته » (٣٨) . ثم انتهى الى القول :

« لا حاجة بفلسطين المستقبل ان تبقى محصورة ضمن حدودها التاريخية ، فالاستعمار الاستيطاني يمكنه ان يمتد حتى

---

٣٥ ــ Norman Bentwich (Egyptian Expeditionary Force) : **Palestine of the Jews. Past, Present, and Future,** (London, 1919).

٣٦ ــ المصدر نفسه ، ص IX .

٣٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٣ .

٣٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ .

يشمل تلك الرقعة باكملها التي تضمنها الوعد (« من الفرات الى النيل » ؟) : من البحر الابيض المتوسط الى نهر الفرات ومن جبال لبنان الى نهر مصر ـ هذه هي الارض التي أعطيت للشعب المختار » (٣٩) .

ولا يلبث الكابتن بنتويش حتى يعترف بان هذه المساحة كلها ليست سوى « فلسطين الكبرى » ، التي

« تستصرخ مزيدا من السكان لافتدائها وتخليصها من اهمال القرون وانحطاطها ، وكلها ملأى بالـذكريات التاريخيـة في نظر اليهود . فالسهول المرتفعة (النجاد) في جلعاد وموآب والسهول الممتدة حتى دجلة والفرات يمكن استصلاحها بالجهد والكد اليهوديين ، تماما كما يمكن استصلاح تـلال اليهودية والسامرة ومنحدرات الجليل الخضراء » (٤٠) .

٢ ـ أما آرثور روبّين فيحاول رسم حدود فلسطين بمزيد من « الدقـة والموضوعية » مفترضا ان صدور وعد بلفور يستدعي تحديدا واضح المعالم لارض الوطن القومي التي تستأثر بالعطف البريطاني . وقد أصدر في العام نفسه (١٩١٩) دراسة مفصلـة عـن « بناء أرض اسرائيل » : أهـداف النشـاط الاستيطـاني اليهودي بفلسطين ووسائله (٤١) . وسعى لتبيان المهام الجديدة والطرق المستحدثة

---

٣٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

٤١ ـ انظر Dr. Arthur Ruppin — «Der Aufbau des Landes Israel» Ziele und Wege Jüdischer Siedlungsarbeit in Palästina, (Jüdischer Verlag, Berlin, 1919). ومن الكتب الاخرى التي الفها روبين حول موضوع الاستعمار اليهودي ومشاكل الاستيطان والاقتصاد الصهيوني تجدر الإشارة الى التالية

1) Die Juden der Gegenwart

« اليهود في العصر الحاضر »

2) Zionistische Kolonisationspolitik

« سياسة الاستعمار الصهيوني »

وقد صدر الكتاب مترجما الى الانجليزية تحت عنوان « الاستعمار

بالنسبة لفلسطين اليهودية من زاوية توقعات المستقبل ، والامكانات التي تنتظر من يكتشفها ويستغلها الى ابعد الحدود. كما قارن العمل الصهيوني بفلسطين حتى ذلك التاريخ بالتجربة العملية التي يقوم بها العالم الكيماوي الذي يشتغل على نطاق أوسع وبصورة منتظمة. ولا غرو فان روبين من الذين اهتموا بالدراسات الاجتماعية وتطبيق مبادىء علم الاجتماع على الحياة اليهودية ، بالاستناد الى معطيات الاحصاء وعلم السكان . وقد انشأ مكتب الاحصاء اليهودي في برلين – قبل مجيئه الى فلسطين – وأصدر مجلة لمعالجة الشؤون اليهودية من زاوية الإحصاء والديموغرافية (Zeitschrift für Demographie und Statistik de Juden). كما ان الكتب التي الّفها تعتبر من اهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها للتعرّف على سياسة التغلغل الاقتصادي الصهيوني التي دشنها البروفسور اوتو واربورغ عن طريق «مكتب فلسطين» الذي عمل تحت اشراف روبين وادارته.

وقد اعترف روبين بان فلسطين حتى ذلك التاريخ لم تكن لتؤلف وحدة ادارية مستقلة ، بل كانت موزعة على الولايات العثمانية : ولايتي دمشق وبيروت ومتصرفية القدس . لذلك اعتبر المهمة الاولى : « توحيد فلسطين ضمن حدودها التاريخية والاقتصادية الطبيعية وجعلها تؤلف منطقة ادارية واحدة » (٤٢) . كما اقر بان المؤرخين والجغرافيين لم يتفقوا فيما بينهم حول جميع النقاط المتعلقة بحدود فلسطين ، علما بان الحدود الغربية على شاطىء البحر المتوسط هي وحدها التي لا جدال حولها . وانتقل الى رسم الحدود التاريخية والطبيعية والاقتصادية على الشكل التالي ، متوخيا الدقة في التعيين وغير متردد في ايراد التعليلات والتبريرات الاقتصادية لتوسيع تلك الحدود الى ما وراء التخوم التاريخية طمعا بطاقاتها المائية (٤٣) ومواردها الطبيعية الاخرى :

الزراعي بفلسطين »

Agricultural Colonization in Palestine (London, 1926).

3) Syrien als Wirtschaftsgebiet

« سوريه باعتبارها منطقة اقتصادية » .

٤٢ – روبين – المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

٤٣ – يستشهد روبين ، على غرار سائر الصهيونيين ، بتلك الصورة التي

« وفيما يتعلق بالحدود **الشمالية التاريخية** ، فقد شملت هذه دون جدال أحد المنبعين الرئيسيين لنهر الاردن ، أي المنبع الواقع عند بانياس (بالقرب من بلدة دان القديمة) . غير ان الاسباب الاقتصادية تتطلب بالضرورة ان تمتد فلسطين صوب الشرق لتشمل المنبع الآخر لنهر الاردن عند حاصبيا (الحاصباني) . فالاردن هو النهر الرئيسي لفلسطين ، ومياهه بالغة الاهمية في حقلي الري وتوليد الطاقة . والاستغلال المناسب والمؤمن لمياهه في فلسطين لا يمكنه ان يتم الا متى اصبحت ينابيعه ملكا لفلسطين . ان منبع الاردن عند حاصبيا (الحاصباني) يقع عند خط العرض الشمالي ٣٣° — ٢٧´ . لذلك تتجه حدود فلسطين الشمالية من منبع الاردن هذا على امتداد خط العرض المذكور حتى تصل البحر المتوسط . والى الشرق من حاصبيا تسير الحدود الشمالية على الخط نفسه (٣٣°— ٢٧´) حتى تصل الى قمة حرمون (الواقعة عند ٣٥° — ٥٥´ شرقي غرينوش) ومنها تمر فوق تل دبه ونوس « حوران » فدرعا .

« وفي **الشرق** تفرض علينا وجهة النظر التاريخية ضم كل من موآب وآمون القديمتين ، واللتين كانتا فيما مضى جزءا من الدولة اليهودية، داخل الحدود الشرقية وتوسيع الحدود بالتالي حتى الصحراء » (٤٤) .

وهنا يتنبه روبين الى المعارضة المتوقعة في اوساط عرب سوريه والحجاز لضم ذلك القسم الكبير من الخط الحديدي الحجازي الى اراضي فلسطين . فيتخوف من اشتداد تلك المعارضة لكون الخط المذكور يؤلف الاتصال الوحيد بين سوريه والحجاز . وينصح بعدم الدخول في نزاع حول هذا الموضوع لان الحكمة السياسية لا تقضي بذلك . لا بل نجده

رسمها ثيودور هرتزل في روايته اليوتوبية « الارض القديمة — الارض الجديدة » (Altneuland) لمجتمع المستقبل اليهودي في فلسطين ، حيث كتب يقول :

« ان المؤسسين الحقيقيين للارض القديمة الجديدة هم المهندسون المائيون . فمن تجفيف المستنقعات الى ري المناطق المجدبة الى انشاء مصانع لتوليد الطاقة الكهربائية بقوة الماء — كل شيء يعتمد عليهم » .

٤٤ — المصدر نفسه ، ص ٦٠ — ٦١ .

يفضل البحث عن حل يرضي جميع المنتفعين الشرعيين . ويعثر على ذلك الحل في جعل الخط محايـدا أو اخضاع المنطقـة التي يمر بهـا لادارة مشتركة . وحين يتعذر اعتماد هذا المخرج ويتحتم على الصهيونيين ارجاع الحدود الشرقية الى غربي الخط الحديدي ، فلا بد على كل حال من وصل فلسطين بالخط المذكور عند نقاط معينة ، مثل معان ، وعمان ودرعا . كما يستلزم ذلك الحصول على حق الافضلية في استخدام الخط . ثم ينتقل روبين الى الحدود الجنوبية :

« تتعين الحدود في **الجنوب** بخط يسير من رفح على الحدود المصرية الى العقبة ، ذلك المرفأ الذي كان يعرف ايام سليمان باسم عصيون جابر ، ومن هنا مرورا بمحطة معان عـلى الخط الحجازي حتى الصحراء . ومن المسائل البالغة الاهمية لو امكن التوصل عن طريق الاتفاق مع الحكومة البريطانيـة ـ المصرية الـى توسيع الحـدود الجنوبية حتى العريش ، لان هذه الرقعة القاحلة حتى الآن تصلح على ما يبدو للتشجير ، وبذلـك تصبح ملائمـة جدا للاستعمار التوطيني اليهودي . والحكومة البريطانية لم تظهر ميلا حتى الآن لتوطين هذه الرقعة ، لانها رأت في هـذا الحزام الصحراوي سدا طبيعيا يقيها الهجوم المفاجىء من الجهة التركية . ومع زوال هذا الخطر بقيام فلسطين مستقلة، قد تعطي الحكومة البريطانية موافقتها على توطين يهود في هذه الرقعة وضمها الى فلسطين ، بعد ان كانت جزءا منها في قديم الزمان » (٤٥) .

وهكذا خرج روبين بصورة لفلسطين الكبرى ، يبلغ طول رقعتها حوالي ٢٦٠ كلم وعرضها ١١٥ كلم ، ومساحتها الاجمالية ٣٠ الف كلم مربعـا على وجه التقريب . واصبحت حـدود فلسطين المنشودة تضم ، بالاضافة الى فلسطين الانتـداب الاقضية التالية : قضـاء صور التابع لمتصرفية بيروت ، وقضاءي الكرك والسلط (متصرفية الكرك) وقضاء عجلون (متصرفية حوران) وقضاء القنيطرة (متصرفية دمشق) . بينما يبلغ تعداد سكان هذه الرقعة التي يرسم حدودها ـ استنادا الى المعلومات الرسمية التي حصل عليها من السلطات العثمانية عام ١٩١٥ ـ حوالي ٨٨٠ الف نسمة تقريبا . وقد وزع السكان حسب مذاهبهم على الشكل الآتـي :

---

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

٧١٠ آلاف من المسلمين
٩٠ الفا من اليهود
٨٠ الفا من المسيحيين

مؤكدا ان هذه الارقام ترجع الى مطلع الحرب العالمية الاولى (٤٦) . ولا حاجة بنا للتوسع في تفاصيل المشروعات التي يعرضها روبين في كتابه . وعلى الاخص معالجته لمسألة التفاهم السياسي مع العرب في الفصل الثالث عشر ، حيث يحاول تنفيذ الحجج العربية التي تساق ضد الاستعمار والاستيطان الصهيونيين في فلسطين . ويأتي على ذكر مسألة تحدّر كل من عرب فلسطين وسوريه واليهود من أجداد مشتركين ، كما يعدّد بعض اوجه الشبه بينهما . ثم يطرح السؤال التالي : « الا يشعر عرب سوريه من جهة وعرب مصر وشبه الجزيرة من الجهة الثانية بان فلسطين اذ تضم اكثرية يهودية تشكل سدا غير مرغوب فيه بينهما وتغدو بمثابة شوكة في الجسم ؟ » (٤٧) ويأتي جوابه بالنفي طبعا لان « فلسطين الصغيرة وسط هذه العربستان (Arabistan) الكبيرة تلعب دورا تافها بالنسبة لهم » . ثم يجد ان من الافضل له تركيز دعوته الصهيونية على أسس المنافع والمكاسب التي يجنيها العرب من وراء استيطان اليهود بفلسطين . فيؤكد ان الاستعمار الصهيوني بفلسطين يعود على العرب بمنافع اقتصادية وثقافية وسياسية . ثم يدافع عن استخدام اليد العاملة اليهودية في الزراعة والحرف اليدوية ، مكتفيا بالقول انه لا يجوز طرد عمال الأجرة العرب . ويغدق شتى الوعود بصدد استعداد المؤسسات المصرفية اليهودية لتسليف العرب قروضا ضمن نطاق امكانياتها ، كما يشدّد على المساعدات التي يمكن للدولة اليهودية العتيدة ان تقدمها في اقامة اتحاد للدول العربية مؤلف من سوريه وشبه الجزيرة العربية والعراق . ويرسم صورة مغرية للشرق الادنى حيث يتزعم اليهود والعرب تلك المساعي الرامية لجعله معقلا للثقافة الراقية حتى يصدق عليه المثل القديم «Ex Oriente Lux» «الضوء يأتي من الشرق» أو «الشرق مصدر النور» (٤٨) . وينتهي به المطاف عند الرسالة التي بعث بها الامير فيصل الى فليكس فرانكفورتر اثناء انعقاد

---

٤٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
٤٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .
٤٨ ـ انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

مؤتمر الصلح بتاريخ ١ آذار (مارس) ١٩١٩ . اذ يعتبرها بالغة الاهمية بالنسبة للنشاط الصهيوني في فلسطين ، لا بل يرى فيها وثيقة ذات مغزى تاريخي رفيع . ويجدها تتفق مع جميع النقاط التي تناولها بالشرح في الفصل المذكور .

٣ ــ أما المثال الثالث على الدعوة لتوفير حدود تاريخية للوطن القومي اليهودي فنجده عند القاضي الصهيوني الاميركي لويس برانديس . وقد سبقت الاشارة الى برنامج بتسبورغ (حزيران ، يونيو ، ١٩١٨) الذي وضعه برانديس وتبنته الصهيونية الاميركية حتى اصبح بمثابة « الأساس لكل صيغة من صيغ نظام الانتداب التي تقدم بها الصهيونيون الاميركيون من زملائهم لعرضها على مؤتمر الصلح»(٤٩). كما اقترح اسرائيل زانغويل ، في اواخر شهر آذار (مارس) ١٩١٩، ان يتم انتخاب برانديس أول رئيس لفلسطين والدولة اليهودية . وبلغ الحماس لدى البعض الآخر مبلغا جعلهم يرشحون برانديس لرئاسة الولايات المتحدة الاميركية ويعلنون استعدادهم لمنحه اصواتهم (٥٠) . وفي مطلع تموز (يوليو) من العام نفسه كان برانديس يزور فلسطين (« كاليفورنيه المصغرة » ــ على حد قوله) للتعرّف على معالمها وجمع المعلومات التي يمكن استخدامها ضد المسؤولين عن الإدارة العسكرية البريطانية بتهمة تجاهلها لصدور وعد بلفور . فراح ينادي لدى عودته الى اميركه بضرورة التحريج والتشجير والحصول على مزيد من الاراضي : الى الشرق من نهر الاردن وجنوبا حتى تصبح العقبة داخل الحدود .

لذلك نكتفي بايراد نص البرقية التي بعث بها برانديس الى وايزمان، في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٢٠ ، يطلب فيها التدخل الفعلي من جانب الحكومة البريطانية للحؤول دون خسارة جزء كبير من «فلسطين الشمالية» ودون ضمه للاراضي السورية :

« نرجوكم نقل الرسالة التالية عني وعن جميع العاملين معي في المنظمة الصهيونية الاميركية الى رئيس الوزراء لويد جورج : لقد أبرق لي

---

٤٩ ــ Alphens Thomas Mason — **BRANDEIS** — A Free Man's Life (New York, 1956, 1st Ed. 1946), P. 455.

٥٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٨ .

زملائي في المنظمة الصهيونية الاميركية من باريس بان فرنسه تصر الآن في المؤتمر حول المعاهدة التركية على بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو . ولو انتصر هذا الادعاء الفرنسي لكان معنى ذلك القضاء على التحقيق التام للوطن اليهودي والوعد بتأسيسه ، لان اتفاقية سايكس ـ بيكو تقسم البلاد بتجاهل كلي للحدود التاريخية والضرورات . الحدود القومية الشمالية والشرقية لا غنى عنها لقيام مجتمع يعيل نفسه بنفسه ولتطور البلاد الاقتصادي (الى الشمال) يجب ان تضم فلسطين مفارق مياه نهر الليطاني عند جبل الشيخ (حرمون) ، والى الشرق سهول الجولان وحوران . ولكي يتم وضع وعد بلفور موضع التنفيذ ـ وهو الذي وافقت عليه فرنسه وغيرها من الدول الحليفة والمؤيدة ـ لا بد من التسليم بهذه الحدود لفلسطين . والاقل من ذلك يؤدي الى بتر الوطن الموعود وتشويهه . ان تصريح بلفور وعد رسمي اعلنته حكومتكم ووافقت عليه الدول الحليفة . أجازف بالاقتراح ، في سعيكم للوصول الى حل عادل لحدود فلسطين ، ان يبرّ رجال الدولة في الامم المسيحية بهذا الوعد المقدّس المقطوع لاسرائيل » (٥١) .

* * *

وليس بمستبعد ان يكون الصهيونيون قد استمدوا الحجج والمبررات الجديدة لتدعيم مطالبهم التوسعية آنذاك من الآراء التي نادى بها السير هالفورد جون ماكندر في كتابه الذائع الصيت : « المثل العليا الديمقراطية والواقع » (٥٢) . والمعروف ان ماكندر يأتي في طليعة اصحاب المدرسة الجغرافية الطبيعية في السياسة (Geopolitics) والتي تعتبر السياسة علما طبيعيا يدرس « تأثير العوامل الجغرافية والاقتصادية والبشرية (من حيث كثافة السكان وتوزعهم) في سياسة الدولة الخارجية خاصة » (« معجم المورد ») . فقد الف الكتاب المشار اليه عند نهاية

---

٥١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥٨ .

٥٢ ـ Sir Halford John Mackinder — «Democratic Ideals and Reality A Study in the Politics of Reconstruction (Britain, 1919, U.S. 1919).

الحرب ليشرح نظريته حول الاسس الجغرافية للسياسة العالمية ، ولكي « ينير عقول صانعي معاهدة الصلح في مؤتمر فرساي » . كما سبق له ان قرأ امام الجمعية الجغرافية الملكية بحثا بعنوان « المحور او المرتكز الجغرافي للتاريخ » (The Geographical Pivot of History) عام ١٩٠٤ . وصك عبارة « الطاقة البشرية » (Man-Power) في مقالة اخرى عنوانها « الطاقة البشرية كمقياس للقوة الوطنية والامبريالية » (١٩٠٥) . ومن المرجح ان هربرت سايدبوثام قد اقتبس الكثير من آراء ماكندر [٥٣] ونظرياته الاستراتيجية . ولو أردنا تلخيص افكار ماكندر حول الاسس والمقومات الجغرافية للسياسة العالمية ، لأمكن القول بانه يعتبر القارات الثلاث . اوروبه وآسيه وافريقيه بمثابة « جزيرة العالم » (World-Island) او الوحدة المنفردة التي تتبع لها جميع القارات الاخرى وتدور في فلكها . هذه « الجزيرة » تضم « رقعة ممتازة في الوسط » (Heartland) ، وتمتد من الفولغا الى جبال سيبريه الشرقية وحدود منشوريه ومن محيط القطب الشمالي الى جبال الهملايا . واوروبه الشرقية ، في نظرة ، تؤلف مفتاح « الرقعة الوسطى » . وقد صاغ ماكندر نظريته على الشكل التالي : « من يحكم اوروبه الشرقية يسيطر على الرقعة الوسطى » .

و « من يحكم الرقعة الوسطى ، يسيطر على جزيرة العالم ، ومن يسيطر على جزيرة العالم يسيطر على العالم » [٥٤] .

غير ان ما يهمنا من آراء الرجل في نطاق بحثنا هذا لا يتعدى الاّ تأييده للمركز القومي اليهودي بفلسطين ، اذ يعتبره من أهم نتائج

---

٥٣ ـ شغل ماكندر منصب مدير كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة لندن (١٩٠٣ ـ ١٩٠٨) وحاضر في الجغرافيا في الجامعة نفسها (١٩٠٠ ـ ١٩٢٦) ، كما انتخب عضوا في مجلس العموم البريطاني عن غلاسكو (١٩١٠ ـ ١٩٢٢) وقام بتنظيم التجنيد في اسكوتلانده (١٩١٤ ـ ١٩١٥) وكان عضوا في لجنة مونتاغو (١٩١٥ ـ ١٩١٦) ، والمندوب السامي البريطاني في جنوب روسيه ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، بالاضافة الى مناصب ومهام اخرى .

٥٤ ـ انظر **Democratic Ideals and Reality** (Pelican Books, 1944), p. 113.

الحرب . ويؤكد لنا بان الوطـن القومي اليهودي « في الوسط (المركز) الطبيعي التاريخي للعالم ، سوف يحمل اليهودي عـلى توطين نفسـه (range himself) ونشر لوائه » في تلك الربوع (٥٥) . فالتغلغل الالماني في مراكز العالم التجارية الكبرى جاء بفضل اليهود الـى حد كبـير ، والسيطرة الالمانية في جنوب اوروبه الشرقية تحققت عـن طريق المجر والاتراك وبمساعدة اليهود . كمـا ان اليهود كانوا في طليعة البلاشفـة الروس . بينما اصبح اليهودي المشرد والذكي مؤهلا للنشاط على مستوى عالمي . غير ان عالم المستقبل ، كما يتصوره ماكندر ، لن يضم متسعـا لنشاطات من هذا النوع ، اذ يتألف من « عصبة الامم المستقلة الصديقة». ولذلك نجده يلتفت الى مسألة اعتبار اليهود « قومية » و « أمة » ويتحدث عـن الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

٥٥ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ . وقد اعترف ماكندر بان «اللغة العربية اليوم هي اللسان الجامع من جبال طوروس الى خليج عدن، ومن جبال فارس الى الواحات في الصحراء الكبرى الى الغرب من النيل » (ص ٧٢) .

حــدود الانتــداب

قدم الامير فيصل مذكرته الثانية الى مؤتمر الصلح في ٢٩ كانـــون الثاني (يناير) ١٩١٩ وعرض فيها المطالب العربية على الشكل الآتي :

« جئت ممثلا لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانيه وفرنسه لاطالب بان تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيه مــن خط الاسكندرونه ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوبا ، معترفا باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الامــم . ويستثنى مــن هذا المطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة وعــدن وهي محمــية بريطانية . وبعد التحقق مــن رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا ان نرتب الامور فيما بيننا ، مثل تثبيت الدول القائمة فعلا في تلك المنطقة ، وتعديل الحدود فيما بينها ، وفيما بينها وبين الحجاز ، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن ، وانشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها .... واني لأستند في مطلبي هذا على المبادىء التي صرح بها الرئيس ويلسون وانا واثــق مــن ان الدول الكبرى ستهتم باجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبارواحها اكثر مــن اهتمامها بما لها هي نفسها مــن مصالح مادية » (١) .

ومثل امام مؤتمر الصلح في ٦ شباط (فبراير) ١٩١٩ يشرح مطالب الشعوب العربية بصدد حقها في تقرير مصيرها وفقا لنظام التوكيل الدولي (الوصاية والانتداب) . فلخص تلك المطالب على الصورة التالية :

أ ـ الاعتراف ببلاد العرب وحدة جغرافية مستقلة برئاسة والـــده الملك حسين .

---

١ ـ اعتمدنا النص الذي اورده وجيه علم الدين . انظر **العهود المتعلقة بالوطن العربي** ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

ب ــ تطبيق العهود المقطوعة للعرب بالاستقلال التام .

ج ــ الاعتراف لسوريه بالاستقلال التام ، على ان تستعين بمستشارين اجانب تستخدمهم عند الحاجة ، وعلى ان تكون متصلة بحكومة الحجاز في شؤونها الخارجية » (٢) .

واستطاعت كل من بريطانيه وفرنسه حمل الرئيس ويلسون على ادراج مادة تتعلق بنظام الوصاية والانتداب . فكانت المادة ٢٢ من « عهد عصبة الامم » الذي حمله معه الرئيس ويلسون من واشنطن . وجرى دمج المادة الجديدة مراعاة للدولتين الحليفتين ولكي يبقى المجال مفتوحا امام اقتسام غنائم الحرب وتنفيذ ما نصت عليه اتفاقية سايكس ــ بيكو تحت شعار عصبة الامم وبوحي من مبادىء ميثاقها . كما اشترط التوقيع على الميثاق المذكور للدخول في عضوية العصبة . فرفضه الملك الحسين وابى توقيع المعاهدة المتعلقة بنظام الانتداب معتبرا اياه بدعة استعمارية جديدة . وبذلك جرى حرمانه من عضوية العصبة التي اقتصرت على الدول المستعدة لاقرار الميثاق بكامله (٣) .

ولدى عودة الرئيس ويلسون لمتابعة اعمال مؤتمر الصلح ــ بعد تغيبه في الولايات المتحدة بين ١٤ شباط (فبراير) ــ ١٤ اذار (مارس) ، ١٩١٩ــ تجددت المساعي الحليفة للحصول على موافقة اميركه بصدد المعاهدات السرية لاقتسام ممتلكات الامبراطورية العثمانية وايجاد حل لما تطلق عليه تسمية « المسألة السورية » . ويبدو ان بريطانيه استحصلت على موافقة فرنسه الشكلية بصدد نقل الموصل الى دائرة النفوذ البريطاني واستبدال تدويل فلسطين وحيادها بوضعها تحت السيطرة البريطانية في الخامس عشر من شباط (فبراير) ١٩١٩ (٤) . كما استؤنفت المداولات بشأن ارسال بعثة حليفة مشتركة للسلام لاستطلاع اراء اهالي البلاد ومعرفة رغبة الشعوب العربية بصدد اختيار الدولة المنتدبة. فقد اصر الرئيس ويلسون، بعد ان تمت الموافقة على «مبدأ الوصاية والانتداب» ان من الحكمة معرفة

---

٢ ــ انظر امين سعيد ــ **اسرار الثورة العربية الكبرى** ومأساة الشريف حسين ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ .

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ و ٢٨٠ .

٤ ــ Harry Howard — **The King-Crane Commission** (An American Inquiry in the Middle East (Beirut, 1963), p. 9.

ما اذا كان الفرنسيون مرغوبا بهم في سوريه والبريطانيون في العراق .

وهكذا طرح الموضوع بشكل جدي على بساط البحث خلال اجتماع عقدته الدول الاربع (اميركه ، بريطانيه ، فرنسه ، ايطاليه) في ٢٠ اذار (مارس) ١٩١٩ . وفي الخامس والعشرين منه تم اتخاذ قرار يقضي بايفاد لجنة للتحقيق تمثل الدول الاربع ، وسط مظاهر البرود والتردد والفتور لدى كل من فرنسه وبريطانيه . كما ان الصهيونيين قابلوا الفكرة والمشروع بعداء شديد ووقفوا الى جانب الدولتين الحليفتين ، مما زاد الرئيس ويلسون اصرارا على تنفيذ استطلاع مباشر « على المكان » ، وادى بالتالي الى ارسال الوفد الاميركي بمفرده . فكان ان وصلت اللجنة المعروفة باسم « لجنة كنغ ــ كرين » (King - Crane Commission) الى يافا في ١٠ حزيران (يونيو) من العام نفسه (٥) . وتخوف الصهيونيون من تعيين لجنة التحقيق فبذلوا وسعهم لعرقلة قيامها ومهامها . كما اوعزوا الى فليكس فرانكفورتر ان يكتب الى الرئيس ويلسون ، نيابة عن المنظمة الصهيونية . ويعرب له عن مخاوف الصهيونيين من ان يؤدي تعيين اللجنة المذكورة الى تأجيل حل مشكلة الشرق الادنى وارجائها الى ما بعد اقامة الرئيس في باريس . وانصبت مخاوفهم لئلا يتعزز الموقف المتعارض مع وعد بلفور ، بعد ان تركزت شتى آمالهم على ذلك الوعد . فحاولوا الحصول على تأكيدات جديدة من الرئيس ويلسون وطالبه فرانكفورتر باعطائها . وجاء جواب ويلسون : ان لا حاجة به الى اعطاء تأكيدات جديدة بشأن تمسكه بالوعد المذكور .

وفي تلك الاثناء عاد الامير فيصل الى سوريه فوصل بيروت على ظهر الطراد الفرنسي « باريس » في ٣٠ نيسان (ابريل) . واذاع بيانا فور عودته ــ في اول ايار (مايو) ١٩١٩ ــ الى « ابناء سوريه العزيزة » . قال فيه انه « تقرر مبدئيا استقلال بلادكم ، وصحّت النية على ارسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت الى الغربيين من رغائبكم » (٧) . وبدات الاستعدادات لعقد المؤتمر السوري العام بحيث يأتي في تأليفه وأعماله ممثلا لجميع الاقطار السورية انذاك : المناطق الثلاث ــ الشرقية والغربية

---

٥ ــ الاسم الرسمي الذي اطلق على اللجنة هو : « الهيئة الاميركية من اللجنة الدولية لشؤون الانتداب في تركيه » .

٦ ــ انظر زين نور الدين زين ــ **المصدر السابق** ، ص ٩٤ .

٧ ــ انظر ساطع الحصري ــ **يوم ميسلون** ، ص ٢٠١ .

والجنوبية ، أو سوريه الداخلية والساحلية وفلسطين . وقد عقدت اولى جلسات المؤتمر السوري العام في ٣ حزيران (يونيو) ١٩١٩ ، وكانت آخر اجتماعاته في ١٩ تموز (يوليو) من العام التالي (١٩٢٠) . ولا شك ان المؤتمر كان بمثابة المجلس النيابي والتأسيسي في آن واحد معا . هذا مع العلم بانه قام في الاصل لتحقيق الغرضين التاليين :

اولا ــ اظهار رغبة الشعب العربي في سوريه والتعبير عن ارادته امام لجنة الاستفتاء (التحقيق) الاميركية التي وصلت يافا بعد اسبوع من تأليف المؤتمر وانعقاده .

ثانيا ــ تعيين شكل الحكومة العربية السورية ووضع قانونها الاساسي واقراره (٨) .

على ان ما يستأثر باهتمامنا من زاوية هذا البحث يكاد ينحصر في قرار المؤتمر السوري المتخذ في ٢ تموز (يوليو) ١٩١٩ بصدد « رغبات سكان البلاد الذين انتدبونا » . وقد جرى رفع لائحة تبين تلك الرغبات الى لجنة التحقيق الاميركية . وفي طليعتها :

أولا ــ اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية ، التي تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا (رفح) فالخط المار من جنوب (الجوف) الى جنوب (العقبة الشامية) و (العقبة الحجازية) وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي (ابي كمال) الى شرقي (الجوف) وغربا البحر المتوسط ــ وبدون حماية ولا وصاية » (٩) .

وبعد المطالبة بحكومة « ملكية ، مدنية ، نيابية » في البلاد واعتماد اللامركزية في الادارة مع المحافظة على حقوق الاقليات ، احتج قرار المؤتمر على المادة ٢٢ في « عهد عصبة الامم » والداعية الى اعتبار سوريه في عداد الامم التي تحتاج الى دولة منتدبة . ورفض « فكرة الفتح والاستعمار » . ثم اشترط لقبول مسألة الانتداب ان تكون « عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسي التام » . واوضح انه يختار الولايات المتحدة الاميركية لتقديم تلك المساعدة الفنية والاقتصادية ، دون

---

٨ ــ انظر ساطع الحصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .
٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

المساس باستقلال البلاد و « على ان لا يزيد امد هذه المساعدة عن عشرين عاما » . وفي حال تعذر اميركه عن الاستجابة لهذا المطلب ، يقع الخيار على بريطانيه في المرتبة الثانية . كما ان المؤتمر اكد عدم اعترافه بالحقوق التي تدعيها فرنسه في اي بقعة من البلاد ورفض الحصول على مساعدتها رفضا باتا . ولم يحصل اجماع على البند المتعلق باختيار بريطانيه .

وفيما يتعلق بالصهيونية ومطامعها الاستعمارية اعلنت المادتان السابعة والثامنة من قرار المؤتمر رغبة الشعب صريحة دون مواربة :

« اننا نرفض مطالب الصهيونيين ، بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية أي فلسطين وطنا قوميا للاسرائيليين ، ونرفض هجرتهم الى أي قسم من بلادنا . لانه ليس لهم فيها أدنى حق ، ولانهم خطر شديد جدا على شعبنا ، من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي . أما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا » (١٠) .

« اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريه المعروف بفلسطين، والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان ، عن القطر السوري ، ونطلب ان تكون وحدة البلاد مضمونة لا تقبل التجزئة باي حال كان » (١١) .

وقد جاءت توصيات لجنة كنغ ــ كرين الخاصة بسوريه ــ فلسطين والعراق (٢٨ آب ، اغسطس ، ١٩١٩) بمثابة تأكيد جديد لما اعلنه المؤتمر السوري العام بصدد الصهيونية وفلسطين . فأشارت اللجنة المذكورة الى وجوب القيام بتنقيح كبير في البرنامج الصهيوني لفلسطين لجهة الهجرة اليهودية غير المحدودة والرامية الى تهديد البلاد . واستندت في ابداء هذه المشورة على « الحقائق الحسية التي وجدتها في فلسطين » ، بالاضافة الى قوة المبادىء العامة التي أعلنها الحلفاء ونالت قبول السوريين كما اعربت عن اعتقادها بان الصهيونيين « حصلوا على تشجيع معلوم من الحلفاء في تصريح اللورد بلفور الذي كثر اقتباسه والاستشهاد به وتصديق ممثلي الحلفاء الآخرين عليه »(١٢) . واقترحت ادخال تعديلات

---

١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ .

١١ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ .

١٢ ــ انظر الملحق (ز) في الترجمة العربية لكتاب جورج انطونيوس ــ **يقظة العرب** ، ص ٦٠٧ .

كبيرة على البرنامج الصهيوني فيما لو جرى العمل بنص وعد بلفور ، وبعد ان اتضح لها الامر التالي :

« والحقيقة التي وقفت اللجنة عليها في احاديثها مع ممثلي اليهود هي ان الصهيونيين يتوقعون ان يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الاراضي منهم »(١٣) .

واطلعت اللجنة الاميركية على رأي سكان فلسطين غير اليهود (وهم تسعة اعشار السكان كلهم تقريبا ») فوجدتهم على رفض بات للبرنامج الصهيوني – « لم يجمعوا على شيء مثل اجماعهم على هذا الرفض » . واتضح لها ان الشعور المعادي للصهيونية لا يقتصر على فلسطين وحدها بل يتعداها ليشمل سكان سوريه عامة . (اذ « ان ٧٢ بالمئة من مجموع العرائض – البالغ عددها ١٣٥٠ – في سوريه ضد الصهيونية ، ولم ينل مطلب نسبة اكبر من هذه النسبة غير الوحدة السورية والاستقلال »(١٤). ثم تمنت على مؤتمر الصلح الا يتجاهل شدة الشعور المناوىء للصهيونية او يستخف به . فقد خرجت من احاديثها مع المسؤولين البريطانيين بفلسطين بالاعتقاد الثابت ان « البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بالقوة المسلحة ويجب ان لا تقل هذه القوة عن خمسين الف جندي » ، واعتبرت ذلك في حد ذاته بمثابة « برهان واضح على ما في البرنامج الصهيوني من الاجحاف بحقوق غير اليهود » (١٥) . فراعها استخدام الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة ووصفت مزاعم الصهيونيين ومطالبهم بالحق اليهودي في فلسطين بعد الفي سنة من احتلالهم لها بانها « دعوى لا تستوجب الاكتراث والاهتمام » (١٦) .

وهكذا سلمت النسخة الاصلية من تقرير لجنة كنغ – كرين الى البيت الابيض في ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ ، بينما كان الرئيس ويلسون في غمرة حماسه لنشر مبادئه العالمية . وحين عاد الى مقر عمله في الخريف كانت اعراض المرض قد ظهرت عليه واصيب بالشلل . فلم يصدر أي علم او خبر باستلام التقرير المذكور ، من جانب الرئيس ويلسون او

---

١٣ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٧ .
١٤ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٨ .
١٥ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٨ .
١٦ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٩ .

بعثة السلام الاميركية في باريس . وهناك شك في ان يكون الرئيس ويلسون قد اطلع على التقرير النهائي أو قرأه ، قبل اعتكافه وتقاعده عن الرئاسة في اذار (مارس) ١٩٢١ (١٧) . وبقي التقرير رهن السرية التامة بالنسبة الى الرأي العام ، مع العلم ان نفرا من المسؤولين البريطانيين والفرنسيين قد اتيح لهم الاطلاع على مقاطع منه . وحين انتقل هاري هوارد في دراسته عـن لجنة كنغ ـ كرين الى تحليل الاسباب المعطاة لتعليل الفشل في نشر التقريـر وابقائه طي الكتمان ، اشار الى كون التقرير يمثل نتائج الجناح الاميركي وحده في لجنة تحقيق كان القصد منها ان تمثل الدول الحليفة الاربع . لكنه عاد واستقر رايه على اعتبار الصراحة التي تضمنتها الوثيقة والنتائج التي اوردتها بخصوص وضع فرنسه في سوريه قد تترك أثرا سيئا على العلاقات الفرنسية ـ الاميركية . كما ان موقف عرب فلسطين مـن الصهيونيـة كان يتسبب في ازعاج الحكومة البريطانية . ولذلك قد يؤدي الجفاء بين الدول الثلاث الى توجيه ضربة خطيرة لعصبة الامم ، علما بأن الولايات المتحدة بنوع خاص رفضت التصديق على الميثاق (١٨) .

فلم ينشر التقرير بنصه (الرسمي) الكامل الا بعد مضي ما يزيد على الثلاثة اعوام مـن وضعه (٢ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٩٢٢) ، وبعد ان اذن الرئيس بنشره . وهناك راي شاع بعد تسليم التقرير الى البيت الابيض مفاده ان الحكومة الفرنسيـة والمنظمة الصهيونية العالمية ، وربما بريطانيه ايضا ، قد مارست بوسائلها المختلفة شتى انواع الضغوط على كل من البعثة الاميركية للسلام في باريس ونظارة الخارجية في واشنطن لحملها على ابقاء التقرير طي الكتمان وعدم اذاعة محتوياته وتوصياته . وقد اكد هوارد بـان نظارة الخارجية الاميركية لم يسبق لها الادلاء بأي تصريح حول التقرير المذكور (١٩) .

وفي ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ تم توقيع الاتفاق العسكـري الفرنسي البريطاني تنفيذا لما استقر الرأي عليه بصدد اقتسام مناطق النفوذ الذي نصت عليه اتفاقية سايكس ـ بيكو . واصبحت المنطقة المحتلة الشمالية (بعد ان سميت بالغربية O.E.T.West) خاضعة للسيطـرة

---

١٧ ـ Harry Howard, **The King - Crane Commission**, P. 258.

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

الفرنسيـــة . تضاف اليها منطقة كيليكيـــه التي احتلها الفرنسيون في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ . وبقي البريطانيون في المنطقة الجنوبية ، بعد انسحابهم الى « فلسطين » وراء خط يقترب من تقسيم سايكس ــ بيكو. بينــما بقيت المنطقة الشرقية وحدها (قطاع A و B) تحت الإدارة العربية . وتعين الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ موعدا للانتهاء من انسحاب القوات البريطانية الى المناطق التي اصبحت من حصتها . فوصل الامير فيصل الى لندن في ١٨ ايلول (سبتمبر) بناء على دعوة لويد جورج لحمله على القبول بالترتيبات الاحتلالية الجديدة، وفقا للتسوية التي توصل اليها الجانبان الفرنسي والبريطاني . ويبدو ان المستر لويد جورج مارس مــن جانبه ضغطا شديدا على الامير فيصل محاولا اقناعه بان الفضل في الحرية التي نالها العرب يرجع بمقدار كبير الى التضحيات الغالية التـي قام بها الشعب الفرنسي اثناء الحرب الاخيرة (٢٠) . غير ان فيصل اعترض بشدة على الاتفاق الفرنسي البريطاني واعلــن معارضته لتقسيم البــلاد العربية الى مناطق نفوذ تحت ستار الانتداب . وحاول بدوره مناشــدة لويد جورج الغــاء تلك الاتفاقية او تأجيل وضعها موضع التنفيذ . لكن الحكومة البريطانيـــة فضلت ترك الإستقلال العربي في سوريه تحت فيصل فريسة للاطماع الفرنسيــة .

وانتقل فيصل من لندن الى باريس ليقضي ما يزيد على الشهرين ونصف الشهر محاولا الوصول الى تفاهم مع الحكومــة الفرنسية . وفي تلك الاثناء تم اجلاء الجيوش البريطانية من سوريه وانتهى الانسحـــاب خلال الاسبوع الاول من شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ . فباشرت فرنسه في بسط سيطرتها على سوريه للحلول محل القوات البريطانية . وعاد فيصل الى دمشق في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ ليجدها في غليان شديد ، بعد ان سبقته الاشاعات عن اتفاقه مع المسيو كليمنصو وارتفعت الاصوات العسكرية الاجبارية في ديسمبر ١٩١٩ ــ قبل عودة الامير . وبدأت البلاد تستعد للدفاع عن نفسها بوجه غزو فرنسي . بينما اغلق مؤتمر الصلح ابوابه في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ ، دون اشتراك الولايات المتحدة في حل مشكلات الشرق الادنى ما بعد الحرب .

وهكذا استطاع اعضاء المؤتمر السوري تخطــي شتى الاعتبـــارات والمساومات . فقبض المؤتمر على زمام الامر بيده ، وعقد اجتماعـــا في ٦

---

٢٠ ــ انظر زين ــ **المصدر السابق** ، ص ١١١ .

آذار (مارس) ١٩٢٠ للتعبير عن ارادة الامة في ممارسة حق تقرير المصير واعلان الاستقلال التام . وقد جاء قرار المؤتمر في جوابه على بلاغ الامير فيصل لينص على ما يلي بشأن الشعور العام في البلاد :

« لقد مضى عام ونصف والبلاد لا تزال رازحة تحت اثقال الاحتلال ، والتقسيم العسكري الذي الحق بها اضرارا جمة واوقف سير اعمالها الاقتصادية والادارية ، واوقع الريبة في نفوس ابنائها من مصيرهم ، فاندفع الشعب في كثير من انحاء البلاد وقام بثورات اهلية في المناطق المحتلة ، مطالبا باستقلال بلاده ووحدتها (٢١) » .

وفي ليلة الاثنين الموافق لتاريخ ٧ آذار (مارس) ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر القرار التاريخي التالي نصه :

« فنحن اعضاء هذا المؤتمر رأينا بصفتنا ممثلين للامة السورية في جميع انحاء القطر السوري تمثيلا صحيحا ، نتكلم بلسانها ونجهر بارادتنا ، (وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج) ، استنادا على حقنا الطبيعي والشرعي في الحياة الحرة ، وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا المديد في هذا السبيل المقدس ، وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية (السالفة الذكر) ، وعلى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم الامة الثابت على المطالبة بحقها ووحدتها والوصول الى ذلك بكل الوسائل ، فاعلنا باجماع الراي :

استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ، ومنها فلسطين ، استقلالا تاما لا شائبة فيه ، على الاساس المدني النيابي وحفظ حقوق الاقلية ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود او محل هجرة لهم (٢٢) » .

ولم يكن المؤتمر السوري العام وحيدا في مضمار ادراك الخطر التوسعي الذي يتمثل في الصهيونيين ومحاولاتهم الرامية لجعل فلسطين وطنا قوميا يهوديا . فقد سبق لعرب فلسطين ، او اهالي سوريه الجنوبية ، الاشتراك في المؤتمر السوري الاول . كما ساهموا في صياغة قراراته المتعلقة برفض المطالب الصهيونية ، من تأسيس الوطن القومي

٢١ــ انظر ساطع الحصري ، **يوم ميسلون** ، ص ٢٦٤ .
٢٢ــ المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

الى الهجرة . وتنبهوا لخطر الدعوة الصهيونية على الشعب العربي من النواحي الاقتصادية والقومية والكيانية السياسية . ثم اكدوا « لسان البلاد الإصليين من اخواننا الموسويين » بأن «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» .

وفي ٢٧ شباط (يناير) ١٩٢٠ عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني في دمشق ـ باعتبار المؤتمر السوري قد جاء بمثابة مؤتمر فلسطيني اول ـ واشترك مندوبون عن اللجنة العليا للدفاع الوطني ومفوضون عن الاحزاب السياسية والجمعيات ، بالاضافة الى عدد من الزعماء والاعيان . واتخذ المجتمعون القرارات التالية (٢٣) :

١ ـ ان اهالي سوريه الشمالية والساحلية يعتبرون سوريه الجنوبية « فلسطين » قطعة متممة لسوريه .

٢ ـ رفض الهجرة الصهيونية لخطرها على كيان البلاد السياسي ورفض جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود .

٣ ـ عدم الاعتراف باية حكومة وطنية في فلسطين قبل ان تعترف الحكومة المحلية بمطلبي الفلسطينيين اللذين قدموهما الى اللجنة الاميركية للتحقيق : وهما عدم فصل فلسطين عن سوريه ومنع الهجرة الصهيونية .

٤ ـ ان الحركة الوطنية القائمة في البلاد للمطالبة باستقلال سوريه بحدودها الطبيعية تهدف الى امرين :

ـ اخراج المحتلين من الساحل .
ـ واخراج المحتلين من فلسطين .

وبعد شهر واحد من اعلان الإستقلال وقيام «الحكومة العربية السورية» او «المملكة السورية» ومن تنصيب الامير فيصل ومبايعته ملكا على الدولة المستقلة كان مجلس الحلفاء الاعلى يعقد اجتماعاته في سان ريمو (٩ نيسان (ابريل) ١٩٢٠) . ثم يتوصل الى اتفاق نهائي في الرابع والعشرين منه ليختتم اعماله في ٢٦ نيسان (ابريل) . فقد عيّن مؤتمر سان ريمو فرنسه كدولة منتدبة على سوريه ولبنان ، وجعل فلسطين والعراق من نصيب الانتداب البريطاني ـ « الى ان يحين الزمن الذي تستطيع فيه

٢٣ـ انظر عيسى السفري ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .

هذه الدول الوقوف وحدها » ـ على حد قول الجنرال اللنبي في برقيته الموجهة من دار الاعتماد بالقاهرة الى الملك فيصل ليبلغه بالقرار الذي اتخذه مجلس الحلفاء وينقل اليه اعتقاد الحكومة البريطانية بان حق البت بقضية ملكية فيصل ينحصر بصورة رسمية في مؤتمر الصلح وحده .

* * *

وفي تلك الاثناء كانت اللجنة الصهيونية بفلسطين تبذل اقصى جهودها لفرض شتى المواقف المتلائمة مع مطامعها واهدافها على سلطات الاحتلال العسكري البريطاني ، فقد سبقت الاشارة الى الفرقة اليهودية (Jewish Legion) التي بلغ تعدادها عند نهاية الحرب ما يزيد على ٥ آلاف جندي . واشترك افراد هذه الفرقة في العمليات الحربية بغور الاردن وشرقيه خلال الاسابيع الاخيرة التي سبقت توقيع اتفاقية الهدنة . كما ان جابوتنسكي (٢٤) بقي على اتصال دائم بالصهيونيين الروس محاولا حثهم على تجنيد فرقة يهودية في القوقاز وواعدا بالحصول على موافقة السلطات البريطانية . وحين بدأت السلطات العسكرية البريطانية بتسريح جنود الفرقة اليهودية ، سارع فريق من المجندين الاميركيين اليهود الى الاعراب عن رغبتهم بالبقاء في فلسطين بعد ان يتم تسريحهم ، معلنين انهم يودون الاقامة بصورة دائمة في البلاد . غير ان جابوتنسكي ابرق الى سوكولوف في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ يلح عليه في ايقاف عملية التسريح متذرعا بتأجيلها ريثما توفر البعثة الصهيونية لهم الارض والعمل الضروريين . وبرر مخاوفه من تسريح الفرقة التي تضم يهود فلسطين على اساس الزعم بان الطلاب بينهم يتعذر سفرهم الى الجامعات الاوروبية لمتابعة دراستهم ، بينما لا يمكن ايجاد وظائف للعمال الزراعيين . لذلك طلع بحل بديل يقضي بتمديد خدمة هؤلاء لسنتين ، وطلب من سوكولوف تأمين الحصول على التسهيلات اللازمة (٢٥) . ولا شك ان اهتمام

٢٤ـ تعيّن فلاديمير جابوتنسكي برتبة قائد فصيلة في الفرقة اليهودية . وعهد اليه القيام بمراقبة الرسائل التي يكتبها جنود الفرقة بلغة غير الانجليزية ، حرصا على عدم تسرب معلومات عسكرية الطابع عن طريق المراسلات الخاصة. (Schechtman, op. cit. I, p. 261).

٢٥ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .

جابوتنسكي بهذه الناحية العسكرية ، بعد انتهاء الحرب ، يعكس طابع الخطط التي رسمها والادوار التي اختارها لكي يعهد الى الفرقة اليهودية ان تقوم بها . فقد اكد مؤلف سيرته مسألة الاهمية البالغة التي كان يعلقها على نشاط الفرقة اليهودية وبقائها في الخدمة اثناء الفترة اللاحقة بتوقيع اتفاقية الهدنة . وحين بلغ مسمعه نبأ رغبة معظم افراد الفرقة من الاميركيين والفلسطينيين بالحصول على التسريح من الخدمة ، سارع في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩١٩ الى اصدار تعليمات سرية خاصة طلب فيها الى الذين وقع عليهم اختيار التسريح محليا العمل بنصيحته القائلة ان « من مصلحتهم البقاء في صفوف الجيش حتى اتخاذ القرار النهائي بصدد وضع فلسطين والى ان تتمكن المنظمة الصهيونية من المباشرة في النشاط الاستعماري العملي المنظم (٢٦) » . كما ابلغ المجندين بطبيعة الدور الذي ينتظرهم خلال المرحلة التالية ، اذ

« يتوجب على كل متطوع يهودي ان يدرك بان مهمة الفرقة اليهودية في فلسطين هي الآن اهم بكثير مما كانت عليه في اي وقت مضى (٢٧) » .

وهكذا تابع جابوتنسكي مساعيه ومارس نشاطاته على هذا الاساس. فبعد انعقاد المؤتمر السوري العام عشية اعلان الاستقلال وقيام المملكة العربية السورية ، نجد المهتمين بمصير الفرقة اليهودية يتقدمون من جديد ، خلال اجتماع البعثة الصهيونية لفلسطين في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٢٠ ، بمشروعات لتوسيع الفرقة : بتجنيد المزيد من يهود فلسطين وفتح باب التطوع امام الشبان اليهود في الخارج (٢٨) . وتجمع آراء الزعماء الصهيونيين ـ من وايزمان الى الدكتور ادر ويوسشكين ـ بان جابوتنسكي وحده المؤهل لاداء هذه المهمة في الخارج . فهو العليم بهذه المسائل وعليه الذهاب الى لندن لتنظيم حملة دعائية في الصحف البريطانية ووضع الفكرة موضع التنفيذ . والمعروف ان تسريح جابوتنسكي من البعثة الصهيونية قد تم في شباط (فبراير) ١٩١٩ ، ثم قام الجنرال اللنبي بتسريحه من الجيش البريطاني في آب (اغسطس) من العام نفسه .

٢٦ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .
٢٧ـ المصدر نفسه .
٢٨ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

كما ان معظم الذين جاؤوا في عداد البعثة الصهيونية في ربيع ١٩١٨ غادروا البلاد في خريف العام نفسه . ولم يتبق منهم سوى الدكتور ادر في رئاسة اللجنة والكوماندانتي بيانشيني ، مساعده . ونشأت صلات تعاون وثيقة بين جابوتنسكي والبعثة الصهيونية منذ نهاية الحرب . حتى انه حضر المؤتمر الذي عقده مندوبو يهود فلسطين بمدينة يافا (Mootzah Erez Israelith) بين ١٨ - ٢٣ من شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ . وتضمن مشروع «الخطوط العريضة لحكومة فلسطين المؤقتة» ، الذي تقدم به المؤتمر المذكور الى زعامة الحركة الصهيونية العالمية كي يؤخذ بعين الاعتبار اثناء عرض المسألة اليهودية على مؤتمر الصلح ، عددا وفيرا من الاقتراحات والافكار التي جاهر بها جابوتنسكي في خطابه امام مؤتمر يافا . فقد شدّد في تفسيره الخاص لوعد بلفور باقامة الوطن القومي اليهودي بان الوعد المذكور لم يعط في سبيل يهود فلسطين ، بل ليهود العالم اجمع . وانتقل الى القول بان مؤتمر يافا لا يتحدث بلسان الاقلية اليهودية في فلسطين فحسب ، بل نيابة عن ملايين اليهود في العالم، وبالاصالة عن اولئك الذين سيأتون منهم او يريدون العودة في المستقبل (٢٩) . وربما كان هو صاحب الاقتراح القاضي بتسمية فلسطين « ارض اسرائيل » واعلان العلم اليهودي علم البلاد الرسمي .

وحين لم يؤخذ بجميع اقتراحاته عاد الى اتهام القيادة الصهيونية الرسمية باتباع سياسة التهدئة والمسايرة للسلطات البريطانية . واخذت بذور الخلاف بينه وبين الدكتور وايزمان تنمو وتتكاثر ، بعد ان كان تعاونهما وثيق العرى فيما يختص بالفرقة اليهودية . وقد اكد مؤلف سيرته بانه انتدب لتمثيل البعثة الصهيونية لدى الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين قبل مغادرة وايزمان في ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ بايام معدودة . بينما راح وايزمان يؤكد من طرفه فيما بعد بان المهمة لم تكن سوى « نظرية » و « اسمية » ، اذ كان الدكتور ادر صاحب السلطة الفعلية في البعثة الصهيونية (٣٠) . وزعم وايزمان ان الكابتن جابوتنسكي رفض التقيد بالانظمة العسكرية حين اشار الى قصة دخوله على الجنرال كلايتون دون استئذان . ثم نسب الى نفسه « محاولة التأثير في جابوتنسكي بصدد الحاجة الى اعتماد الحذر (٣١) » .

٢٩- المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ .
٣٠- انظر **التجربة والخطأ** ، ص ٢٢٧ .
٣١- المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

وفي ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ قامت البعثة الصهيونية بتعيين فلاديمير جابوتنسكي رئيسا لدائرتها السياسية بينما كان لا يزال ضابطا في الجيش البريطاني . فلم تدم رئاسته للدائرة المذكورة اكثر من اسابيع معدودة ، اذ جرى اقصاؤه عنها تحت ستار الاستقالة في ٢٦ شباط (فبراير) من العام نفسه . واعتبره وايزمان في الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ من الخبراء والمستشارين التابعين للبعثة الصهيونية وليس من اعضائها الاصليين . غير ان ذلك كله لم يحل دون متابعته لنشاطه وسعيه لتحقيق فكرة توسيع الفرقة اليهودية حتى تصبح نواة الجيش الصهيوني المستقل . فقد جعل نفسه ناطقا بلسان اعضاء الفرقة وبقي على اتصال وثيق بشؤونهم وشجونهم . حتى استطاع ان يبني رصيدا كبيرا لنفسه ودعوته في اوساط الصهيونيين الشباب. وتقرّب من منظمات الشباب اليهود السفارديين (Halutz Hamizrachi) مظهرا اهتمامه بالثقافة السفاردية ومحاولا استمالة ابنائها للوقوف بجانبه . ففي شهر تموز (يوليو) ١٩١٩ تبنّى الدعوة لعقد مجلس تأسيسي منتخب (٣٢) . ليحل محل « اللجنة المؤقتة ليهود فلسطين » (Vaad Zemani) والتي اعتبرها هيئة ناقصة لا تمثل اليهود في اليشوف على حقيقتهم . واصطدم مع وايزمان ويوسشكين خلال اجتماع « المجلس الزماني او المؤقت » في ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ حين اعلن رفضه المطلق لكل « تردد » او « تريث » واستنكر سياسة « الانتظار » . ثم ناشد « زعماءنا » القبول بالعنصرين الفعالين لنجاح القضية الصهيونية : الجيش اليهودي والبرنامج الواسع النطاق . ورد على وايزمان ، الذي لم يأت على ذكر الجيش الصهيوني في خطابه ، بقوله : « سوف يقوم جيش (صهيوني) في هذه البلاد ، ويتحتم على هذا الجيش ان يكون يهوديا في قلبه وقالبه ، على الرغم من ارتداء افراده البزة العسكرية البريطانية » (٣٣) . ومن هنا

٣٢ــ الجمعية التأسيسية التي تعرف بالعبرانية تحت اسم «Asafah ha' Myasedeth»

٣٣ــ انظر « سيرة حياة جابوتنسكي » ــ المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .
وتجدر الاشارة هنا الى عودة الضابط الصهيوني في الجيش القيصري سابقا ، جوزيف ترومبلدور ، لفلسطين في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٩ واقامته بين المستوطنين اليهود في مستعمرة تل حي . والمعروف ان ترومبلدور غادر لندن ، بعد عودة « فرقة

اخذ جابوتنسكي في نشر دعوته الى تحقيق الهجرة الجماعية كحل لما اطلق عليه ماكس نوردو من قبله « محنة اليهود » Judennot . ومنذ ذلك الحين ــ أي منذ مطلع العام ١٩٢٠ ــ بدأت معالم الصهيونية التي نادى بها جابوتنسكي تبرز على مسرح الحركة الصهيونية وكأنها شديدة التعارض مع المفهوم الصهيوني المرحلي الذي يدّعيه وايزمان لنفسه . على اننا سوف نتناول الاتجاه الذي سار فيه جابوتنسكي في الفصل التالي . لذا يحسن بنا ان نعود لمتابعة ردود الفعل والتحركات الصهيونية غداة التوقيع على معاهدة سان ريمو واتفاق الحلفاء بشأن تقسيم دوائر النفوذ وتعيين مناطق الانتداب .

سبقت الإشارة في هذا الفصل الى توقيع الاتفاق العسكري الفرنسي البريطاني في منتصف ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ . وقد جرى تقسيم منطقة العدو المحتلة بموجب الاتفاق المذكور الى القطاعات الثلاثة التالية :

أ ــ القطاع الجنوبي ويضم فلسطين حتى شمالي عكا وشرقي الاردن (تحت الادارة البريطانية) .

ب ــ القطاع الشمالي ــ على طول الساحل السوري : من عكا الى كيليكيه والاسكندرون (يخضع لسلطة قائد القوات الفرنسية) .

بغالة صهيون » من جبهة غاليبولي ، الى روسيه (في صيف ١٩١٧) لكي يعمل على تنفيذ مشروعين سبق له ان شرحهما لجابوتنسكي : فالمشروع الاول يتعلق بتنظيم حركة الرواد (Hechalutz) الصهيونيين بين الشباب اليهودي في روسيه . بينما المشروع الثاني يقضي بتأليف جيش يهودي ــ وليس مجرد فرقة يتراوح عدد افرادها بين ٧٥ ــ ١٠٠ الف . ويبدو ان خطة ترومبلدور وجابوتنسكي في تأليف الجيش المذكور كانت تعتمد على ثقتهما بالحصول على موافقة وزير الحربية في حكومة كيرنسكي ، بوريس سافينكوف . اما مهمة الجيش المذكور فهي التحرك نحو جبهة القوقاز وشق طريقه بالقوة عبر ارمينيه والعراق الى احتلال فلسطين الشرقية . فجاء انهيار الحكومة المؤقتة في روسيه وابطال الجبهة الحربية الروسية باسرها ليضع حدا للمشروع ، بينما بقيت الفكرة مغروسة في اذهان الصهيونيين هناك . (انظر **Schechtman, op. cit., P. 240.**

ج ــ القطاع الشرقي ــ شرقي الاردن وداخلية سوريه (تابعا للادارة الفيصلية) .

وبقيت منطقة الجليل الاعلى خاضعة للسلطة العسكرية الفرنسية الى ان تم تعيين حدود مناطق الانتداب في أواخر عام ١٩٢٠ . وفي نهاية ١٩١٩ حدثت اضطرابات كثيرة عند حدود مناطق الاحتلال وتكررت هجمات البدو والمناوشات . فتعرضت المستوطنات اليهودية في الجليل الاعلى لغارات البدو وهجماتهم . ودار نقاش طويل في الاوساط الصهيونية بفلسطين حول جدوى وكيفية الدفاع عن المستعمرات الواقعة هناك . فعقد « الفاد زماني » (المجلس المؤقت) جلسات متكررة لهذا الغرض منذ ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٢٠ . وكان يوسشكين قد تسلم رئاسة البعثة الصهيونية منذ ايلول (سبتمبر) الماضي . فتقدم جابوتنسكي برأي يدعو المستوطنين اليهود الى الإنسحاب من تلك المستعمرات . وناشد ممثلي الكتائب العمالية المنظمة ان يبادروا الى استدعاء رفاقهم من منطقة الخطر، علما منه واقتناعا بان السلطات الفرنسية سوف تضع حدا لهجمات البدو . كما انه لم ير أي جدوى في الدفاع عن مستوطنات الجليل بمعزل عن المساعدة البريطانية . غير ان بقية اعضاء المجلس لم يكونوا من رأيه واعتبروا الدفاع عن الجليل الاعلى مسألة وثيقة الصلة بالشرف والكرامة القوميين . وحين قتل جوزيفترومبلدور وستة من رفاقه الذين اشتبكوا مع البدو في اول اذار (مارس) في مستعمرة تل حي ، عثر جابوتنسكي على ضالته المنشودة . وجعل من قضية مقتلهم منبرا لتوجيه اشد الانتقادات الى الزعماء الصهيونيين الذين عارضوه . فاتهمهم بالعجز والتقاعس عن اتخاذ اية تدابير عسكرية الطابع ، زاعما ان موقفهم لا يعدو كونه استهتارا بقيمة الحياة البشرية . بينما نسب الى نفسه الرغبة في انقاذ الحياة الغالية لاولئك الذين عقدوا العزم البطولي للدفاع عن المستوطنات والموت استشهادا . فتولد في نفسه شبه اقتناع بان ترومبلدور ورفاقه ذهبوا ضحية التفكير والعمل المتسرع واللا مسؤول . ومما تجدر ملاحظته ان جابوتنسكي بالذات نشر مقالة في صحيفة هاآرتس (٢٢ شباط ، فبراير ، ١٩٢٠) قلل فيها من شأن الاستشهاد معتبرا اياه بلا قيمة او اثر سياسي في ايامنا هذه (٣٤) . لكنه سرعان ما لبث ان عدّل موقفه كليا بعد مقتل ترومبلدور وراح يتحدث في رثائه

---

٣٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٣١٨ .

عن العظمة المعنوية التي يجسدها المدافعون عن تـــل حي . كما وجـد الفرصة مناسبة حين زجت به السلطات العسكرية في سجـن عكا ، كـي ينظم قصيدة مهداة الى ذكرى ترومبلدور عنوانها « انشودة سجناء عكا ». فتحدث عـن الدم المراق ولا أقدس منه ... في تل حي ، وعن ذلك القبر الوحيد « بين ايلات والمطلة » ، مؤكدا انه دم ذلك البطل الاجـذم الـذي يحرس حدود الوطن !

ولا بد مـن التوقف عنـد التحرشات والتحديات التي اطلقتـــها « عصابة جابوتنسكي » وادت الى انفجار الاضطرابات الدامية في عيد النبي موسى الذي صادف مجيئه في الاسبوع نفسه من عيدي الفصح اليهودي والمسيحي : وذلك في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ . وقد سعى جابوتنسكي، بالاشتراك مع بنحاس روتنبرغ وموشيه سميلانسكي ، ومنذ اواخر ١٩١٩، الى نقل فكرته حول « الدفاع عـن النفس » على الصعيد العملي . وبـدأ في اعداد نواة « قوة للدفاع عن النفس » وتسليحها وتدريبها على قتال العصابات . وهي التي تحولت فيما بعد الى جماعة « الهاغانا » . امـــا التكتيك الذي اتبعه جابوتنسكي فهو مستمد مما يدعوه مؤلف سيرتـه بـ « مفهومـه للاستراتيجية السياسية الصهيونية » . وقد عبّر عن ذلك المفهوم في مقالة نشرها بصحيفة « هاآرتس » (٢٨ اذار ، مارس ١٩٢٠) وجاءت بمثابة قانون ايمانه . ولنترك مؤلف السيرة يحدثنا عن التبريـر الذي استنبطه جابوتنسكي ودفعه الى مطالبة السلطات البريطانية للسماح بتنظيـم الجمـاعات العسكرية الصهيونية ــ مع العلم بان التنظيم المذكور ربما تم قبل ابلاغ السلطات ، لا بل بمعرفتها التامة . وهذا ما نسبـــه شيختمان الى مقالة جابوتنسكي :

« وجدت نزعة خلال العامين الفائتين لاصطناع احداث في فلسطين تبرهـن للمسؤولين في لندن بان وعد بلفور يجب التخلي عنه . ولقد أوصلت هذه النزعة بالبلاد الى وضعها الحاضر . غير ان الرأي العام اليهودي يجب الا يبالغ في تصوير الخطر ... ان هدف القـوى المعادية للصهيونية هدف شرير ، لكنها لـن تتمكـن من تحقيقه الا متى استمر سكوتنـا نحـن اليهود . لقد ارتكبنا غلطة لا مثيل لها حين اخلدنا الى السكون والهدوء . ولعلنا نتعلم امثولة من ذلك . ان بريطانيه تنعم براي عام صائب الحكم وعميق النظر . وهو الـى جانبنا . غير ان الرأي العام هو كناية عن محكمة لا تتدخل في النزاع

ما لم يمثل امامها امرؤ ويعرض قضيته عليها . فلو فعلنا ذلك ، لانتصرنا . واذا فشلنا في القيام به ، كتبت لنا الخسارة » (٣٥) .

واذا كان الجيش الذي شرع جابوتنسكي في تأليفه مسألة علنية تمت بمعرفة السلطات البريطانية وموافقتها ، فلا عجب اذن ان تساور عرب فلسطين مختلف الشكوك حول الغاية التي من اجلها تم تأليف جيش جابوتنسكي . ولقد قام المجندون الصهيونيون بتدريباتهم ومناوراتهم على مرأى من السلطات والناس . فها هو الياس غنزبورغ يتحدث عن ذلك بقوله : « قبل بضعة ايام من عيد النبي موسى (الاسلامي) اجرت (فرق الدفاع عن النفس) مناورات عسكرية منتظمة عند اقدام جبل الزيتون وعلى منحدراته ، حيث يقوم مقر الحكومة ، ولقد تابع الضباط البريطانيون حركاتنا من خلف المنظار ... فالموقف الرسمي ازاء منظمة الدفاع عن النفس لم يبد سلبيا بل اظهر نوعا من الرعاية الابوية » (٣٦) . كما ان الكولونيل باترسون يؤكد اقدام جابوتنسكي على تنظيم (قوات الدفاع عن النفس) بمعرفة السلطات التامة ، قبل اسابيع عديدة من نشوب الاضطرابات .... وكان اول عمل قام به اثر تسلمه قيادة القوات هو ابلاغ السلطات بوجودها وتسلحها وغرضها (٣٧) .

ولا شك ان جيش جابوتنسكي كان يؤلف حلقة اساسية في حلقات مخططه الصهيوني . فقد سبق للصحافي فلاديمير جابوتنسكي ان جاء من الاستانة الى فلسطين في رحلة خاطفة بعد الانقلاب العثماني (١٩٠٨) بقصد الاطلاع على ما اسموه آنذاك الاجراءات الدفاعية الصهيونية ، وتحت ستار الدفاع عن النفس في المستوطنات والمستعمرات . واعتبر في تلك الفترة المبكرة ان الاقامة في المستوطن تتطلب امرين جوهريين :

(١) تعلم اللغة العبرية والتكلم بها

(٢) والضرب بقوة وقسوة «punch hard» (٣٨) .

---

٣٥ ـ نقلا عن المصدر نفسه ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

٣٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢٥ .

٣٧ ـ المصدر نفسه .

٣٨ ـ انظر الفصل عن جابوتنسكي . Robert St. John — **They Came From Everywhere Twelve who Helped Mold Modern Israel. (New York, 1962), P. 98.**

ونعرف عنه خلال تلك الفترة التي أقامها في الاستانة بانه انمى في نفسه شعور الكراهية الشديدة لما شملـــه تحت تسميـــة « الشرق » والعثمانيين ، معتبرا اياهم « مجمـوعة مـــن الرعاع الذيـــن يتعالـى صراخهم »(٣٩) . وسوف يتناول الفصل التالي هذه الناحية من صهيونية جابوتنسكي بشيء من التفصيل والتحليل . فالارهاب والعنف ــ « الضرب بقوة وقسوة » ــ من المقومات النفسية والعملية لديه . وليس بمستبعد ابدا ان يصبح طقس الضرب بقوة وقسوة سبيلا لنشر اشاعات تتكهـــن بقرب حصول مذابح على نطاق واسع ، ومسوغا للبحث عن الاضطهاد كي تجد « يهودية العضلات » والفتوة الصهيونية متنفسا وذريعة تصب عليها جام غضبها .

فالحقيقة التي لم تكن مجهولة في اوساط « فتيان جابوتنسكـــي وجيشه العلني » ــ بعد ان تسربت عـــن طريق استخباراته واتصالاته ــ تشير الى ان توقع نشوب الاضطرابات اثناء عيد النبي موسى (الذي كان بمثابة عيد قومي لدى عرب فلسطين) (٤٠) ، مرده في الدرجة الاولى الى

---

٣٩ ــ انظر شيختمان ــ « قصة فلاديمير جابوتنسكـــي » ، ج ١ ص ١٦٠ . هذا وقد عبر جابوتنسكي عن كرهه العنيف للشرق في قصة قصيرة بعنوان أدميه (Edmée) « الشرق ؟ انه غريب كل الغرابة بالنسبة لي ... ان عقليتي غربية » .

٤٠ ــ كتب عيسى السفري يصف اضطرابات القدس يوم عيد النبـــي موسى على الشكل الآتي : « هرع المقدسيون يوم الاحد في ٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ حسب عادتهم لاستقبال اهل الخليل الذين يؤمون القدس في مثل هذا اليوم مـــن كل سنة قاصدين زيارة مقام النبي موسى . فكان الاستقبال عظيما جدا اشترك فيه ابناء القدس وقراها وابنـــاء نابلس ووفود الوادية والطوائف المسيحيـــة المختلفة ينادون بالوحدة العربية والاستقلال ورفض الهجرة الصهيونيـــة والدعاء للملك فيصـــل . وخطب في الجمـــاهير بعـــض الشبان المتحمسين نذكر منهم السادة عارف العارف وخليل بيدس وموسى كاظم باشا الحسيني ، رئيس بلدية القدس ، وعبد الفتاح درويش فألهبوا شعور المتظاهريـــن وبخاصة حينما رفعت امامهم صورة الملك فيصل ووضعت بجانب علم الخليل . وصادف مرور بعض اليهود بين الشعب الصاخب فهاجت الافكار واحتدمت نيران الفتنة

ما وصفه البلاغ الرسمي الموزع على مختلف قوات الجيش البريطاني بقوله : « بما انه كان على الحكومة في فلسطين انتهاج سياسة لا تلقى اي ترحيب لدى الاكثرية الساحقة من السكان » . وهكذا قام جابوتنسكي عن سابق تصور وتصميم بافتعال حوادث النبي موسى واتخاذ اجراءات عسكرية بحجة الدفاع عن يهود القدس . مع العلم التام بان العداء العربي لم يكن موجها ضد اليهود المقيمين اصلا في فلسطين (ومعظمهم في القدس) بقدر ما كان ضد المهاجرين الصهيونيين الجدد وتحدياتهم للعرب في عقر دارهم وفي ظل الحماية البريطانية . والقت السلطات القبض على جابوتنسكي و ١٩ رفيقا له اشتركوا في العمليات الارهابية في السابع من نيسان (ابريل) ١٩٢٠ .

وحين مثل المعتقلون امام قاضي التحقيق ، وهو استرالي برتبة كابتن ، وكاتب المحكمة (عربي) ، رفض جابوتنسكي الاجابة على سؤال الكاتب له عن اسمه باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانجليزية . وبرر رفضه موجها كلامه الى القاضي بقوله : « انا لن أجيب كاتب محكمة ينتمي الى قبيلة المجرمين الذين ما زالت هجماتهم على الابرياء ، واعمالهم في السلب والنهب والاغتصاب مستمرة خارج جدران هذه القاعة » . ثم اعلن استعداده للاجابة على الاسئلة متى طرحت عليه بالعبرية « لغتي ولغة ارض اسرائيل ولغة الرفاق التسعة عشر » (٤١) . فما كان من القاضي الا ان وبخه بشدة مذكرا اياه بان المحكمة لا تضم قوميات وجنسيات مختلفة بل مسؤولين فقط . لكن جابوتنسكي اردف بقوله :

بين الطرفين فقتل منهما عدد ليس بالقليل وظلت الحالة مضطربة حتى المساء » . (السفري ـ **المصدر السابق** ، ص ٤٧) واستنادا الى ما سبق التعرف عليه من استعدادات الصهيونيين ومخططات جابوتنسكي يمكن الترجيح بان اليهود الصهيونيين تعمدوا الاحتكاك بموكب النبي موسى عن سابق تصور وتصميم لاظهار تلك « الفطرسة المسلحة » وابراز عجز السلطات العسكرية عن حمايتهم او الحد من نشاطاتهم .

٤١ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ . ومن الملاحظ ان مؤلف سيرة جابوتنسكي لا يأتي على ذكر الشق الثاني من الحكم الصادر بحق منظم الجيش الصهيوني والقاضي بابعاده من فلسطين عند انتهاء مدة سجنه .

« اذا كان الامر كذلك ، فانا لن اجيب على اسئلة هذا المسؤول ، (وهو يعني الكاتب العربي في المحكمة) . ولم يجد القاضي بدا مــن طلب اخراجه مــن غرفة المحكمــة .

وفي ١٩ نيسان (ابريل) مــن العام نفسه اصدرت المحكمة حكمها بسجنه ١٥ عاما مع الاشغال الشاقة ، كما حكمت على عربيين متهمـــين باغتصاب فتيات يهوديات خلال الاضطرابات حكما مماثلا . ونقل الجميع الى سجــن عكا ، بعد ان وصلت انباء الى مسامع جابوتنسكي مفادها ان السير هربرت صموئيل سوف يعين مندوبا ساميــا على فلسطين ، وهكذا وصل المندوب السامي الى حيفا في ٨ تمــوز (يوميو) ١٩٢٠ ليعلـــن العفو عــن جميــع السجناء في حوادث القدس . فحاول جابوتنسكي حمل رفاقه على رفض العفو الممنوح لهم « على قدم المساواة مع العربيين » ، لكــن تدخل البعثة الصهيونية جعل رفاقه يقررون عدم اتباع نصيحته ويقبلون بالعفو . كمــا لم يشأ جابوتنسكي الا التمادي في الغطرســـة والتبجح، فنضحت اناء نفسه امام المؤتمر الصهيوني الثانيعشر (كارلسباد، ١٩٢١) بقصة مفادها انه ابرق الى المندوب السامي (هربرت صموئيل) يحذره مــن ارتكاب غلطة باطلاق سراحه ويطلب اليه تفضيل البقــاء في سجــن عكا على ان يقف على قدم المساواة مع ذلك « الاسود » . وحين قاطعه بعض المندوبين ، وتنبه هو الى « زلة اللسان » التي تفيد العنصرية ، سارع الى تهدئة المحتجين بقوله : « سادتي ، أنا اتحدث عــــن السواد المعنوي (الاخلاقي) » . وحاول نسبة اللون الاسود الى التسمية التي يريد أطلاقها على مثيري الفتــن والمذابح ، واستنادا الى « المئة السود » (The Black Hundred) في تاريخ روسيه القيصرية . فقوبل ايضاحـــه واستدراكه بالتصفيق . ثم انتقل الى الاستشهاد بقول ماتزينـــي عــــن ايطاليه : « انا اعمل لاجل فلسطين ، حتى ولو ارغمت على التحالف مع الشيطان » (٤٢) . وسوف نتناول التحالفات التي سعى اليها جابوتنسكي مختارا في الفصل التالي .

على ان نكتفي ، في معرض الوقوف عند التحريضات والتحديـــات الصهيونية التي اقرتها البعثة وكان جابوتنسكي وانصاره اداة تنفيذها ،

---

٤٢ ــ انظــر Stenographisches Protokoll der Verhandlungen des XII. Zionisten - Kongresses in Karlsbad — vom 1-14 September 1921, (Jüdischer Verlag, Berlin, 1922), S. 183-4.

بنقل النص الكامل للرسالة التي بعث بها الحاكم العسكري ، الجنرال لويس بولز (Bols) ، الى رئيسه الجنرال اللنبي في مقر القيادة بالقاهرة. والمعروف ان بولز بالذات سبق له ان كلف وايزمان في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٩ بنقل رسالة سابقة الى الجنرال اللنبي تضمنت الاشارة الى مشروع تنمية لفلسطين يستغرق تنفيذه عشر سنوات ويحول البلاد الى ارض اللبن والعسل . على امل ان يؤدي ذلك المشروع الطويل الامد الى التخفيف من حدة العداء العربي الصهيونية وبالتالي الى فتح ابواب الهجرة على مصراعيها في صمت وسكون . فيجد العرب انفسهم امام اكثرية يهودية ساحقة . اما الرسالة الثانية ــ وهي التي تعنينا الان ــ فقد كتبها الجنرال بولز يوم وقوع حوادث النبي موسى : أي في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ . وهذا هو نصها المترجم (٤٣) دون تعليق :

سيدي الجنرال ،

لا استطيع ان اقرر على اي فريق من فريقي السكان تقع المسؤولية حتى ولا استطيع تعيين افراد منهم ، ما دامت القضية ــ قضية فلسطين ــ لم يبت فيها بعد . ولكني استطيع ان اثبت بكل توكيد انه لما وضعت الامور على المحك ، راحت اللجنة الصهيونية تتمرد على سلطة الحكومة ، واتخذت من بداية الامر موقفا كله منابذة ،

---

٤٣ ــ يقول نفيل باربور في كتابه **Neville Barbour, Nisi Dominus, (London, 1946), p. 96.** بان الجنرال بولز كتب رسالته اثر حوادث النبي موسى ، وفي جهل تام للطريقة التي فسر بها كل من لويد جورج واللورد بلفور الوعد الذي يحمل اسم الثاني . ويؤكد بان الرسالة لم تنشر بصورة رسمية ابدا . وقد اوردتها المصادر العربية التالية :

أ ــ وديع البستاني في كتابه المنشور بالإنجليزية
The Palestine Mandate — Invalid and Impracticable (Beirut, 1936), P. 136.

ب ــ عيسى السفري ــ **المصدر السابق** ، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

ج ــ عجاج نويهض ــ **بروتوكولات حكماء صهيون** . المجلد الاول . ص ٧٥ ــ ٧٧ . وقد اعتمدنا الترجمة التي قام بها عن الاصل الانجليزي .

ونقد جارح وسفاهة . وباستثناء قلة ضئيلة من رجالها فكلهم يرفضون التصديق بحسن نيتنا البريطانية واخذنا بالعدالة والسوية .

« فهم لا يرتضون هذه العدالة من المحتل العسكري ، بل يريدون ان تكون الحكومة العسكرية ملبية لرغائبهم في كل قضية يكون فيها احد الفريقين يهوديا . فهم صعاب المراس جدا . وفي القدس وهنا هم الاكثرية ، لا يرضيهم ما يرضي غيرهم من السكان، بان يكونوا في ظل الحكومة وتحت رعايتها . بل يريدون ان يمارسوا السلطة بانفسهم . واما في اماكن اخرى حيث هم اقلية ، فيستصرخون السلطة طالبين حمايتها . ولا حاجة الى الاسهاب في شرح الصعاب التي لا بد للحكومة ان تلاقيها في المستقبل ... وانا اليوم اذا احتجت الى التعامل مع ممثلي الطائفة اليهودية (٤٤) ، فيهددني بسطوة الرعاع ، ويرفض ما تفرضه الانظمة الرسمية المقررة ، الجارية الاحكام .

« فيتضح مما تقدم ان سلطتي الخاصة وسلطة أي دائرة من دوائر الحكومة ، هما عرضة للتنزي عليهما من قبل اللجنة الصهيونية . واني متأكد انه من المتعذر استمرار هذا الوضع دون ان يسبب ضررا ويوقع الامن العام في معضلات تعم البلاد ، فتجر الحكومة الى مآزق حرجة .

« ولا يجدينا نفعا في هذا الحال ان نقول للسكان المسلمين والمسيحيين اننا في السير باداراتنا الحكومية انما نحن محافظون على العهد الذي اعلناه لهم لما دخلنا القدس ، بينما شواهد الحال تكذبنا في ذلك : نمن جعل العبرية لغة رسمية ، الى انشاء جهاز قضائي يهودي ، الى امتلاء جهاز الحكومة بالموظفين اليهود الذين ولاّهم للجنة الصهيونية ، الى منح اعضاء اللجنة الصهيونية امتيازات خاصة في اسفارهم وتنقلاتهم . كل هذا وامثاله ، يراه منا السكان غير اليهود خروجا على العهد المقطوع لهم ، ومحاباة وتمييزا وايثارا، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان اللجنة الصهيونية تتهمني

---

٤٤ ــ الاشارة هنا الى يوسشكين ، نائب الرئيس . « يهددني باقامة هياج الغوغاء » (انظر السفري ــ **المصدر السابق** ، ص ٤٨) .

وتتهم موظفي الحكومة باننا معادون للصهيونية . فهذه حالة لا تطاق . ومن الإنصاف لي وللموظفين الذين في ادارتي ان تزول هذه الحالة . ولا بد من القول ان هذه الحكومة التي في عهدتي قد نفذت باخلاص رغبات حكومة جلالته ، ونجحت ، لانها سارت وفق قوانين الادارة الاحتلالية العسكرية بدقة . غير ان هذا لا يرضي الصهيونيين الذين يزدادون غطرسة في محاولتهم حمل الحكومة العسكرية المؤقتة على ان تمنحهم التفضيل على سواهم قبل ان يقرر الانتداب . وانه لمن المستحيل ان تستطيع ان ترضي قوما ينادون بألسنتهم نريد وطنا قوميا . بينما هم في خططهم العملية لا يطمعون في ما هو اقل من الدولة اليهودية بكل معانيها السياسية .

« فلذلك ومن اجل مصلحة الامن العام ، ومصلحة الصهيونيين انفسهم ، ألتمس الغاء اللجنة الصهيونية » .

المخلص

ل.ج بولز

وهكذا كان من نتيجة التوصيات التي تقدم بها الجنرال بولز ان صرف هو نفسه من منصب الحاكم العسكري وجيء بالمستر هربرت صموئيل ، الصهيوني العريق ، لتسليمه مقدرات فلسطين ووضعه على رأس الادارة المدنية بعد استبدال الحكم العسكري بحكم مدني . مع العلم بان احكام معاهدات لاهاي لا تجيز للدولة المحتلة اقامة حكم غير عسكري قبل التوقيع على معاهدة السلام . وقد تم التبديل بعد مداخلات اجراها براندیس مع الرئيس ويلسون والكولونيل هاوس واللورد بلفور . مما حدا بالاخير الى اصدار التعليمات اللازمة والاتيان بضباط يعطفون على الاماني الصهيونية لاحلالهم محل الذين شكا الصهيونيون منهم . واستطاع الصهيونيون ان يمارسوا اكبر التأثير في السياسة العليا اثناء انعقاد مؤتمر سان ريمو بعد ان نظموا اوسع الحملات واعنفها بغية الضغط على المتفاوضين وكسب تأييدهم لصالح المطالب الصهيونية التوسعية . وجاءت المادة « ٩٥ » من معاهدة الصلح مع تركيه (٤٥) ـ

---

٤٥ ـ ومن المعروف ان معاهدة سيفر لم تبرم على الاطلاق ، واسقطها تبدل الاوضاع السياسية الداخلية في تركيه اثر قيام ثورة

وهي التي وقعها الاتراك مرغمين وسط الاحتجاج في سيفر (Sèvres) يوم العاشر من آب (اغسطس) ١٩٢٠ ـ لتدمج في نصها مطلبين رئيسيين للحركة الصهيونية :

١ ـ « أن يعهد بادارة فلسطين ، عملا باحكام المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم الى دولة منتدبة . (بريطانيه) .

٢ ـ ان تكون الدولة المنتدبة « مسؤولة عن تنفيذ تصريح بلفور الذي اصدرته الحكومة البريطانية في الاصل بتاريخ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، واقرته دول الحلفاء الاخرى فيما بعد» (٤٦) .

بينما تركت مسألة تخطيط الحدود وتعيينها في عهدة الدول الحليفة الكبرى ، وانصرف الصهيونيون الى « استكمال الفوز الذي احرزوه» والى حمل الدول على توسيع الحدود الفلسطينية على حساب لبنان وسوريه وشرقي الاردن . فطالبوا بلبنان الجنوبي حتى نهر الليطاني ، وبسهلي حوران وجولان في سوريه ، وكان من الطبيعي ان ترحب بريطانيه بهذا الطلب ، وهو يوسّع منطقة نفوذها ... ولكن الفرنسيين رفضوا المطالب الصهيونية وتمسكوا بنص معاهدة سايكس ـ بيكو السرية

اتاتورك . وحين جرى التوقيع الرسمي على معاهدة الصلح مع تركيه في لوزان ـ ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٢٣ ـ جاءت معاهدة لوزان دون اية اشارة للانتدابات . فقد سبق لمجلس عصبة الامم ان اقر مشروع صك الانتداب قبل ذلك بعام واحد : في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ . وفي حزيران (يونيو) ١٩٢٢ ادلى وزير المستعمرات البريطاني ، المستر ونستون تشرشل بتصريحه حول « السياسة البريطانية في فلسطين » ، فخرج بالتفسير التالي لوعد بلفور :

« ولو سأل سائل عن معنى تنمية الوطن القومي في فلسطين لامكن الرد عليه بانها لا تعني فرض الجنسية اليهودية على اهالي فلسطين اجمالا بل زيادة نمو الطائفة اليهودية بمساعدة اليهود الموجودين في انحاء العالم حتى تصبح مركزا يكون فيه للشعب اليهودي برمته اهتمام وفخر من الوجهتين الدينية والقومية ...» (انظر : « تقرير اللجنة الملكية لفلسطين » ص ٤٤) .

٤٦ ـ انظر المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

وهي تجعل من فلسطين منطقة ضيقة . وعبثا حاول الصهيونيون ان يقنعوا الفرنسيين بضرورة التنازل لهم عن قسم من الاراضي السورية واللبنانية ، فاجتمعوا برئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ووزير الخارجية والمندوب السامي في بيروت وكثيرين غيرهم من اصحاب النفوذ . ولكن جهودهم لم تثمر (٤٧) » .

فلجأوا الى حمل حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، وسط حملة صحفية منظمة ، على التدخل في الامر . وتمكنوا من الحصول على توقيع الرئيس ويلسون على نص كتاب رسمي صيغ بلهجة عنيفة وارسل الى الحكومة البريطانية . فلم يأت النص المذكور مخالفا للبرقية التي بعث بها برانديس الى وايزمان طالبا منه ابلاغ الحكومة البريطانية بشخص المستر لويد جورج . ومما جاء فيه :

« ان حققت مطاليب الفرنسيين المستندة الى معاهدة سايكس-بيكو السرية ، فان تحقيقها ضربة قاضية على الوطن القومي ، تنافي طبيعة ارضه الجغرافية وتهمل حاجاته الاقتصادية . ان نجاح القضية الصهيونية يتوقف على توسيع الحدود في الشمال والشرق الى ان تشمل نهر الليطاني ومنابع المياه في حرمون ، اي سهلي حوران وجولان . ان لم يكن وعد بلفور ــ الذي وافقت عليه فرنسه وسائر الدول الحليفة ــ قصاصة من الورق ، فيجب ان تتخذ التدابير اللازمة لتحقيقه (٤٨) » .

وسارعوا الى تحريك الرأي العام اليهودي في انحاء العالم للاعراب عن حماسه وتأييده لقرارات مؤتمر سان ريمو . فراح سوكولوف في حزيران (يونيو) ١٩٢٠ يعلن « ان صفحة السياسة قد انطوت عمليا ، وبدأت صفحة جديدة الآن ــ صفحة تحقيق امانينا . فالصفحة الاولى لم نكتبها نحن ، بل اولئك الذين كان بيدهم زمام الامر لفتح ابواب البلاد ، اما الصفحة الثانية فلن يكتبها احد سوانا (٤٩) » . وفي مطلع تموز (يوليو) من العام نفسه توافد الصهيونيون لحضور مؤتمر لندن الصهيوني السنوي (*) . فجاء برانديس على رأس وفد اميركي كبير العدد ، ثم وقف

---

٤٧ ــ راجع نجيب صدقه ، المصدر السابق ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

٤٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

٤٩ ــ انظر Esco Foundation — Palestine..., Vol. I, p. 143

* ــ حيث تم انشاء الصندوق التأسيسي لفلسطين (الكيرين هايسود) .

ليعبّر عن مشاعره ازاء معاهدة سان ريمو بقوله : « لقد جرى اتمام عمل هرتزل العظيم في سان ريمو . وكللت الجهود الراميـة للحصول علـى اعتراف بالوطن اليهودي في فلسطين ... بالنجاح (٥٠) » . بينما رد لويد جورج على الصهيونيين الذين جاؤوه للاعراب عن شكرهم وامتنانهـم للجهود التي بذلها : « لقد دفعناكم في السبيل ، واصبح الامر منوطـا بكم الآن (٥١) » . وانتهز بلفور فرصة الجلسة العامة في « البرت هول » تحت رئاسة اللورد روتشيلد للاعراب عن اعتقاده بان البعث اليهودي في فلسطين سوف يتوّج بالنجاح ، على الرغم من شتى الصعوبات الكبرى التي لا بد من التغلب عليها . فاشار الى رقعة فلسطين الصغيرة وحالتها المتخلفة ، مؤكدا بان التعاون بين المهارة والمثابرة والخبرة اليهودية مـن جهة ، والرأسمال اليهودي من جهة ثانية ، سوف ينجح في التغلب علـى عقبات من هذا القبيل . ودعا اليهود الى توحيد صفوفهم ومنح الثقـة الكافية لزعمائهم . كما انه اكتشف فجأة بان كبرى المصاعب التي تواجه الصهيونية في فلسطين هي التي تتصل بما اسماه « المسألة العربية » . وراح يردد على مسامع الحاضرين فكرة التوفيـق بين وجهتي النظـر العربية والصهيونية على الشكل الآتي :

« ومن جملة هذه الصعوبات صعوبة معالجة المسألة العربية بالشكل الذي تظهر فيه ضمن حدود فلسطين ، وهي صعوبة اعتبرها مـن اعقد هذه الصعوبات ان لم تكن اكثرها تعقيدا ، وهي تحتاج الى لباقة والى حكمة وتتطلب قبل كل شيء توفر النية الحسنة المقرونة

---

٥٠ ـ المصدر نفسه .

٥١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٩ . وقد عقد الصهيوني الاميركي هوراس ماير كالن في كتابه «الصهيونية والسياسة العالمية» فصلا بعنـوان « سان ريمو : خاتمة عصر » ، بداه بالقول : ان معاهدة سان ريمو بدات تفتدي ما وعد به تصريح بلفور . فهي تعيد الشعب اليهودي الى مكانة على قدم المساواة مع شعوب العالم الاخرى ... انهـا ميثاق وعهد بالغ الخطورة والاهمية بالنسبة لكل من اليهود والعالم . وهي تعلن نهاية عصر في تاريخ البشرية باوروبه المسيحية ... » . (انظر : الفصل الثامن عشر في Horace Meyer Kallen — **Zionism and World Politics.** A study in History and Social Psychology (London, 1921), P. 263.

بالعطف من جانب اليهود والعرب . اما فيما يتعلق بالعرب ، ذلك الشعب العظيم ، الكبير المزايا ، ذو التاريخ الحافل ، فاني آمل ان يذكروا ... ان الدول الكبرى ، وخاصة بريطانيه العظمى ، قد حررتهم من استبداد قاهرهم الطاغي ، الذي داسهم تحت قدميه طيلة هذه الاجيال العديدة الماضية . وآمل ان يذكروا اننا نحن الذين اسسنا الدولة العربية المستقلة في الحجاز واننا نحن الذين نعمل الان على تمهيد السبيل لاقامة دولة عربية مستقلة في العراق . واذا ذكروا كل هذا آمل ان لا يستولي عليهم الحقد اذا اعطى ذلك الفرض الصغير من بلاد العرب الحالية ـ لانها مهما كانت قيمة فلسطين التاريخية فهي ليست في الحقيقة الا فرضا صغيرا[1] (that small notch) من الوجهة الجغرافية ـ لذلك الشعب الذي اقصي عنها طيلة القرون الماضية » (٥٢) .

غير أن «الفرض الصغير» من الوجهة الجغرافية «that small niche» بمعنى « المشكاة » او «الكوّة الصغيرة») ـ لم يكن كذلك في نظر الصهيونيين ، وان طاب لهم الميل المتعمّد الى « التصغير » والتقليل من الشأن والاهمية . فقد هب ماكس نوردو غداة اعلان مجلس الحلفاء لقرار انتداب بريطانيه على فلسطين في سان ريمو ليعلن « ان من يكتفي بما هو اقل من دولة يهودية ليس صهيونيا سياسيا » . وبلغ به الحماس مبلغا جعله يردد : « ما علينا بعد اليوم انشاد النشيد الصهيوني (هاتكفاه) لان آمالنا قد تحققت » . ولم يكتف نوردو بهذه التصريحات المنفعلة ، بل تحدث الى الوفد الاميركي المؤلف من ٤٥ صهيونيا في اول تموز (يوليو) ١٩٢٠ . فاستجاب لطلب اعضاء الوفد وعرض برنامجه الصهيوني الداعي الى المباشرة بنشاط استعماري على اوسع نطاق ويفي بمتطلبات الظروف الراهنة . وما هي الا بضعة اسابيع حتى برزت افكار نوردو على صورة مشروع ضخم اقترن باسمه منذ ذلك الحين (Nordau Plan) فما الذي قاله نوردو لاعضاء الوفد الاميركي ، قبل ان يدغدغ بلفور سمعهم بتصغيراته الآنفة الذكر ؟ تقول سيرة حياته ، من تأليف زوجته وابنته ،

---

٥٢ ـ The Earl of Balfour — **Speeches on Zionism**, Ed. by Israel Cohen, «Great Britain and Palestine», (London, 1928), P. 23-4

والترجمة العربية للنص الوارد في خطاب بلفور مأخوذة من « تقرير اللجنة الملكية لفلسطين » ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

في الفصل الذي عنوانه « في خدمة شعبه » (الفصل التاسع عشر) بان نوردو اخبر الوفد الاميركي آنذاك بالبرنامج التالي :

« يتحتّم علينا ان نرسل الى فلسطين نصف ميلون على الاقل من الشبان والشابات العاقدي العزم على جعلها وطنهم الأم ، لكـي يستقرّوا هناك بأي ثمن ، ويكدحوا ، ويتألمـوا فيما لو دعت الحاجة . فيؤكدوا بكل قوّتهم على ارادة الشعب اليهودي الرامية الى الإستيلاء السلمي من جديد على ارض آبائهم التي وعدهـم الحلفاء بها .

هذا هو الحد الادنى الضروري ، والسبيل الوحيد لاقامة اكثرية يهودية في فلسطين بالحال . ولا توجد هناك طريقة اخرى فعّالة نبرهن بها على قصدنا في الوفاء بالقسم المتعلق بنا من العقد المبرم مع بريطانيه، ونتفادى بواسطتها الخطر العربي الذي يتهددنا(٥٣) » .

وتمضي سيرة نوردو في سرد قصة المقابلة مؤكدة بان نطاق المشروع القى الفزع في روع الاميركيين وحملهم على اثارة الاعتراض التالي الذي تطوّر الى حوار بين الجانبين :

ـ « كيف يمكنك ايواء هؤلاء الناس واسكانهم ؟ »

اجاب نوردو : « يمكنهم النوم تحت الخيام في ذلك المناخ » .

ثم سألوه : « من يؤمن الاموال اللازمة لهذه الهجرة الجماعية ؟ »

فأردف بقوله : « انتم » !

ـ « وماذا لو هلكوا ؟ »

ـ ربما هلك البعض . لكن عددهم سوف يكون أقل بكثير مما لو عرّضنا فيما بعد جماعات صغيرة لاخطار أشد هلاكا » (٥٤) .

وفي السادس عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ عاد ماكس نوردو الى باريس ليبدأ في اليوم التالي بنشر مقالاته العشر في الصحيفة الاسبوعية

٥٣ـ انظر Anna and Maxa Nordau — Max Nordau. A Biography والكتاب مترجم عن الفرنسية وقد نشرته « لجنـة نوردو » في نيويورك ، ١٩٤٣ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

٥٤ـ المصدر نفسه ، ص ٢٨١ (وقد علقت زوجته وابنته على ذلـك بقولهما : « لا سبيل الى النكران بان سير الاحداث قد اثبت صحة تكهنات نوردو النذيرية » .

التي يصدرها الاتحاد الصهيوني الفرنسي (Le Peuple Juif) . فظهرت المقالة العاشرة والاخيرة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه . وجاءت السلسلة بمثابة تقييم لبرنامج الصهيونية وتعاليمها منذ نشأتها حتى تاريخ كتابة المقالات . واعتبرها الصهيونيون بمثابة وصيّته السياسية ، فدرجوا على الرجوع اليها كلما سنحت الفرصة متذرّعين بان التطورات اللاحقة جاءت لتشهد على صحة آرائها . وأكد البعض بان التاريخ قد حوّل مشروع نوردو من تلك « الصهيونية اللامسؤولة والسهلة» الى «برنامج العمل والمخطط المقبول لبناء صرح اسرائيل(٥٥) » .

بينما كرّس نوردو قسما من مقالته العاشرة للرد على منتقديه ، فانحى باللائمة على زعماء الحركة لتقاعسهم عن بذل الجهود في سبيل الحصول على مزيد من الارض اللازمة لتحقيق مشروعه على نطاق واسع . فكتب يقول :

« حين قرعت ناقوس الخطر في العام الفائت وبيّنت انه يترتب علينا ، بأي ثمن ، ان نصبح اغلبية في فلسطين ، وان الواجب يقضي بالتالي في ارسالنا الى هناك ، ودون تأخير وبظرف شهور فقط ، ٦٠٠ الف نسمة من اليهود ، والا بقي « وطننا القومي » مجرّد سراب وأمل خادع ــ حين اقدمت على ذلك انهالت عليّ الصحافة الرسمية في المنظمة بالسخرية والشتائم ، ونعتتني بالبلشفي والديماغوغي العديم الاخلاق . بيد ان وايزمان اعترف ، بعد التفكير والتروّي ، بان علينا ان نرسل الى فلسطين بدلا من الالفي يهودي في العام عشرين او ثلاثين او ستين الفا وحتى مئة الف من اليهود . وقال القائلون ــ وهنا بيت القصيد ــ بان ذلك يستحيل من الناحية المكانية والطبيعية . لماذا ؟ ــ اجابوا : تنقصنا الارض اللازمة والمال . ــ ولماذا الارض ؟
ــ « لان رجالاتنا لم يكلفوا انفسهم مشقة المطالبة بها ولم يقوموا بعمل للحصول عليها » (٥٦) .

٥٥ــ Oskar K. Rabinowicz — **Fifty Years of Zionism : A Historical Analysis of Dr. Weizmann's « Trial and Error »**, (London, 1950), P. 85.

٥٦ــ انظر سيرة حياة ماكس نوردو ــ المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ (ومما قاله نوردو في الخطاب الذي القاه اثناء الجلسة العامة في

غير ان زمام المبادرة انتقل الى يد الدولتين الحليفتين في صيف ١٩٢٠ . فجاء نظام الانتداب الذي وصفه لويد جورج بـ «بديل الامبريالية القديمة» ليأخذ على عاتقه تنفيذ المطالب الصهيونية . ولم يكن ثمـــة فارق كبير بين فكرة نوردو عن الرسالة التمدينية التي عهد هو الى الصهيونيـــين بادائها حتى تمتد حدود اوروبه الى الفرات ، وبين « الحضانة السياسية والاقتصادية » التي اقترحها الجنرال سمطس (Smuts) في معـــرض حديثه عن عصبة الامم لتكون من نصيب « الشعوب المتخلفة » والتـــي تنقصها قدرة حكم نفسها بنفسها . لذا ليس بمستغرب ان يستقبـــل الصهيونيون مقرّرات سان ريمو بالتهليل والحماس . بينما هي توجّه ضربة شديدة لاماني العرب القومية ، ولا تلقى سوى الاستنكار والاستياء ، فتقابل بالاضرابات والمظاهرات العنيفة . وأبان انعقاد المؤتمر الصهيوني في لندن كانت قوات الانتداب الفرنسي تتحرك للقضاء على دولة فيصل في « سوريه ضمن حدودها الطبيعية » . ولم ينقض شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ (٥٧) حتى دخل الفرنسيون مدينة دمشق بجيوشهم غير عابئـين بمقررات مؤتمر الصلح ومبادىء عصبة الامم . وغادر الملك فيصل سوريه

« البرت هول » ــ ١٢ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ــ وبعد استماعه الى خطاب المستر بلفور :

« ربما كانت بريطانيـــه العظمى في غنى عن فرقة بغالة صهيـــون والفرقة اليهودية («Palestine Legion») . غير ان هـــذه كانت مجرّد رمز ، واشارة لذلك الالهام الذي الهب يهود العالم اجمـــع حماسة آنذاك » . (المصدر نفسه ، ص ٢٨٤) .

٥٧ــ تلي قرار انتداب بريطانيه على فلسطين في الطور (القدس) يـوم الاربعاء في ٧ تموز (يوليو) ١٩٢٠ على صورة فرمان صادر عن جلالة الملك البريطاني .

وفي عام ١٩٢٠ اصدر الميجور هـ. ا. لوك كتابه « غزاة فلسطـين خلال اربعين قرنا » وكتب مقدّمته الفيلد مارشال اللنبي . فقال في مطلعه : « قد لا يوجد بلد ما في العالم وقع ضحيـــة للعدوان الخارجي بمثل عدد تلك المرات التي شهدتها فلسطين » . انظر :
Major H.O. Lock, The Conquerors of Palestine Through Forty Centuries (London, 1920), p. 6.

بطريق فلسطين ، بعد ان تم اتخاذ جميع الترتيبات لسفره الى بريطانيه بالاتصال مع السير هربرت صموئيل ـ المندوب السامي البريطاني في فلسطين .

وقبل بداية الاسبوع الاخير من العام نفسه ـ ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ ـ توصل الجانبان البريطاني والفرنسي الى اتفاق حول تعيين الحدود بين سوريه ولبنان وفلسطين والعراق . فتسنى لإتفاقية سايكس ـ بيكو ان تخرج الى حيّز التنفيذ من جديد على صورة المناطق التي شملها انتداب الدولتين الحليفتين . وجاء اتفاق بريطانيه وفرنسه على الحدود ثمرة اعمال الوزيرين المفوضين « هاردنغ » و « بيج » . فكان بمثابة الحلقة المتممة لمقررات مؤتمر سان ريمو . وتعيّنت حدود المناطق التابعة للانتدابين وفقا للخطوط التالية :

« **من الشرق** نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ، ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوي ، ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة الى امتار فجنوب جبل الدروز . ومن هناك يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز ، فسمخ الواقعة على بحيرة طبريه ، سائرا الى جنوب خط السكة الحديدية وموازيا له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي . ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الإمكان ان يمد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المشمولة بالانتداب البريطاني . وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين ان يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية لتمكنا من استعمال بحيرة طبريه بحريّا .

« **ومن الغرب** يسير الخط من سمخ مارا داخل بحيرة طبريه فأول وادي المسودية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، والى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطره وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسية لغاية

بانياس ، ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلّة وتبقى المطلّة في المنطقة البريطانية .

« وتفصل التخوم بالمطلة بمفرق الماء في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني وتسير **جنوبا** مع وادي الاردن فوادي فرعم ووادي كركره (يبقى الواديان في المنطقة البريطانية) . ومنه الى وادي البلاونة ، ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسية . ويصل الحد الى شاطىء البحر الابيض المتوسط في ميناء راس الناقورة . وتظل هذه في المنطقة الفرنسية » (٥٨) .

وهكذا استطاعت بريطانيه ان تنتدب نفسها على فلسطين الممتدة من « دان الى بئر السبع » ، ونجحت في اضافة الجليل الاعلى الى الرقعة البنيّة اللون على خريطة سايكس ــ بيكو ، بعد ان كانت تصل الى شمالي

٥٨ــ انظر : **الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب** ــ اصدار جريدة الايـام بدمشق ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ . وانظر ايضا : وجيه علم الدين ــ **العهود المتعلقة بالوطن العربي** ١٩٠٨ ــ ١٩٢٢ ــ **المصدر السابق** ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ . وقد اورد مصطفى مراد الدبّاغ تعيين الحدود بين فلسطين من جهة ولبنان وسوريه من جهة اخرى ، بموجب الاتفاق الفرنسي البريطاني الآنف الذكر ، على الصورة التالية : «تسير الحدود من رأس الناقورة الواقع على البحر الابيض المتوسط باتجاه الشرق الى قرية يارون في لبنان . ومن ثم تسير باتجـــاه الشمال الشرقي الى «قدس» و «المطلة» في فلسطين ، وعبر وادي الاردن الى «تل القاضي» في فلسطين والى بانياس في سوريه .

« وبعد ذلك يسير خط الحدود باتجاه الجنوب الغربي الى « جسر بنات يعقوب » ، ومن ثم يسير باتجاه الجنوب على طول نهر الاردن حتى بحيرة طبريه ، وساحلها الشرقي الى نقطة تكاد تكون الـــى الشرق من مدينة طبريّه ، حيث ينحرف خط الحدود في اتجاه الجنوب الشرقي الى ان يصل محطة «الحمّه» الواقعة على سكة حديد درعا ــ سمخ .

« وحسب هذا التحديد تقع جميع « بحيرة الحولة » وحوضهـــا وبحيرة طبريه باكملها في فلسطين » .

(انظر : **بلادنا فلسطين** ــ الجزء الاول ــ القسم الاول بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٧) .

مكا فقط . ومن الملاحظ ان شرقي الاردن بقيت داخل حدود منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين . ففي حزيران (يونيو) ١٩٢٢ ، اصدر المستر ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات البريطاني ، بيانه حول « السياسة البريطانية في فلسطين » . وبعد مضي عامين تقريبا على توقيع معاهدة سيفر استطاعت بريطانيه حمل حكومة الولايات المتحدة الاميركية على التنازل عن طلبها بتطبيق « المبدأ القائل باعطاء فرصة المساواة الاقتصادية لجميع الدول المنتمية الى عصبة الامم (٥٩) » فيما يتعلق بفلسطين . واعتبر الصهيونيون هذا التنازل بمثابة اعتراف بوضع فلسطين الخاص ، واستعداد لرعاية مصالح الوطن القومي اليهودي . فأقدم مجلس الشيوخ والنواب الاميركي على اتخاذ قرارهما المشترك في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ ، والذي اعربا فيه عن تحبيذ اميركه (بلسان الهيئة التشريعية في البلاد) لانشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وتصديقها على النص الكامل لوعد بلفور (٦٠) .

وبذلك اصبح السبيل ممهدا امام مجلس عصبة الامم لاقرار مشروع صك الإنتداب على فلسطين . فتم اقراره في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ – اي بعد مضي ما يقارب الخمس سنوات على صدور وعد بلفور . ونصت المادة الخامسة والعشرون من الصك على ما يلي :

« يحق للدولة المنتدبة بموافقة مجلس عصبة الامم ان ترجىء او توقف تطبيق ما تراه من هذه النصوص غير قابل للتطبيق على المنطقة الواقعة ما بين نهر الاردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعيّن فيما بعد ، بالنسبة للاحوال المحلية السائدة في تلك المنطقة وان تتخذ ما تراه ملائما من التدابير لادارة تلك المنطقة وفقا لاحوالها المحلية ... » (٦١) .

فأقدم المندوب السامي البريطاني لفلسطين وشرقي الاردن على تعيين « الحدود الادارية » (Administrative Boundaries) بين غربي فلسطين وشرقيها – على حد التعبير الصهيوني – في اول ايلول (سبتمبر) من العام نفسه . وجرى رسمها على الشكل الاتي :

٥٩– انظر تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، **المصدر السابق** ، ص ٤٢ .
٦٠– المصدر نفسه .
٦١– راجع النص الكامل لصك الانتداب – المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

« تبدأ من نقطة اتصال اليرموك بالاردن فتسير جنوبا من منتصف مجرى نهر الاردن وبحيرة لوط ووادي العربة حيث تنتهي في ساحل خليج العقبة على بعد ميلين غربي مدينة العقبة » (٦٢) .

ورفعت الحكومة البريطانية في ١٦ ايلول (سبتمبر) مذكرة بهـذا المعنى الى عصبة الامم فأقرّها مجلس العصبة . وبذلك تعيّنت « حدود ذلك القسم من فلسطين المعروف بشرق الاردن » . واصبحت بريطانيه دولة منتدبة على شرق الاردن . وبقيت الحدود بين فلسطين ومصر على حالها ــ اي كما جرى تحديدها بموجب اتفاقية اول تشريـن الاول (اكتوبر) ١٩٠٦ بين خديوية مصر والحكومة العثمانية : « من تل الخرائب في رفح على ساحل البحر الابيض المتوسط حتى رأس طابا على خليـج العقبة » * .

وهكذا وجدت الحركة الصهيونية نفسها ، بعد مضي ربع قرن على قيامها وتأسيسها ، امام « فلسطين » التي رسم الانتداب حدودهـا فجاءت مطابقة للصورة التي خلقتها الرواسب الدينية عن الرقعة الممتدة من دان الى بئر السبع . غير ان فلسطين الانتداب هذه لم تأت مطابقة للأماني الصهيونية التي طالعتنا شتى التعبيرات عنها : من « مملكة داوود وسليمان » ، الى « فلسطين الكبرى » و « اسرائيل الكبرى » والـى « فلسطين بحدودها التاريخية » و « الوطن القومي اليهودي » في الحدود التي رسمتها له مذكرة المطالب الصهيونية المرفوعة الى مؤتمر الصلح . وقد سارع ماكس نوردو ــ كما مر معنا ــ الى الانحاء باللوم على الزعامة الصهيونية متهما اياها بالتقصير والتفريط في مسألة الحـدود الأوسع

٦٢ــ الدبّاغ ، **المصدر السابق** ، ص ١٩ .

* يحسن الرجوع الى الخريطة رقم (٥) في ملاحق الكتاب للتعـرّف على صورة كل من الحدود التي رسمت لفلسطين في الإتفـاق الفرنسي ــ البريطاني (٢٣ كانـون الاول ، ديسمبر ، ١٩٢٠) والحدود التي فصّلت لامارة شرقي الاردن . وقد نقلناها عـن المصدر التالي : Leon Simon and Leonard Stein — **Awakening Palestine** (London, 1923) والملاحظ ان الخريطة المذكورة ترسم النوعين التاليين من الحـدود لفلسطـين : أ ــ حـدود الانتداب ، ب ــ الحدود الادارية بين فلسطين غربي الاردن وشرقي الاردن .

للوطن القومي . ولم يكن وحده في صفوف المعارضين والناقمين . بل اخذت منذ ذلك الحين تتبلور حول فلاديمير جابوتنسكي واتباعه الحركة الداعية للمطالبة بفلسطين ضمن حدودها التاريخية . وما لبثت ان ظهرت الى حيّز الوجود على صورة حزب صهيوني منظّم ، عرف منذ ذلك الحين بالحزب التحريفي (Revisionist) . ثم انشق عن المنظمة الصهيونية العالمية ليؤسس منظمته الصهيونية الجديدة ببرنامجها الخاص وجيشها القائم على العنف والارهاب في سبيل الوصول الى اسرائيله المنشودة .

وسوف نستعرض في القسم التالي من هذه الدراسة ناحية هامة من نواحي الفكر التوسّعي الصهيوني ، من خلال الدعوة التي بشّر بها فلاديمير جابوتنسكي وحمل لواءها حتى وفاته عام ١٩٤٠ ، وعلى صعيد اقتران الفكر بالعمل ، كما تجسّد هذا الاقتران في الاحداث المؤدية لقيام اسرائيل عام ١٩٤٨ . والفترة الممتدة خلال ربع القرن الثاني من قيام الحركة الصهيونية (١٩٢٢ ــ ١٩٤٨) تطابق مدة الانتداب البريطاني على فلسطين منذ اقرار مجلس عصبة الامم لصك الانتداب حتى جلاء البريطانيين واستيلاء القوات الصهيونية على قسم من فلسطين لاقامة دولة اسرائيل عليه ، بعد طرد الاكثرية العربية وارهابها . وقد اخترنا النظر الى تلك الفترة التي شهد مطلعها انشاء الصندوق التأسيسي لفلسطين (الكيرين هايسود) والوكالة اليهودية ومشروعات التوسع والتغلغل الاقتصادي الصهيوني ، اخترنا النظر اليها من زاوية «الصهيونية الكبرى» التي نادى بها جابوتنسكي وطالعتنا بذورها لدى ماكس نوردو وديفيز تريتش والصهيونيين المتديّنين بالاضافة الى اصحاب مدرسة مانشستر الصهيونية وكثيرين غيرهم .

واذا كنا قد تحدثنا عن « عصر هرتزل » وعن الفترة الممتدة من « هرتزل الى بلفور » وعن « الوطن القومي اليهودي » ، فلا بأس في اطلاق تسمية « عصر جابوتنسكي » على فترة الربع قرن التي تفصل بين تعيين حدود فلسطين الانتداب وقيام دولة اسرائيل . على ان يكون « عصر بن غوريون » من نصيب العشرين عاما التي انقضت منذ قيام الدولة الصهيونية في فلسطين حتى عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وبروز حركة المطالبة باسرائيل الكبرى على اوسع نطاق في الاوساط الصهيونية بفلسطين المحتلة وخارجها في سائر انحاء العالم .

الصهيونية الكبرى : جابوتنسكي

حين عقد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في كارلسباد (تشيكوسلوفاكيه) بين ١ ـ ١٤ من ايلول (سبتمبر) ١٩٢١ ، كان أول مؤتمر صهيوني عام ونظامي يعقد بعد انقطاع ثمان سنوات منذ المؤتمر الحادي عشر في فيينه (١٩١٣) . وقد حضره ٥٤٠ مندوبا يمثلون حوالي ٧٧٥ ألفا من دافعي الشاقل (رسم العضوية في المنظمة الصهيونية العالمية). والقى سفير بريطانيه في براغ ، السير جورج كلارك ، خطبة في المندوبين . كما رفع كل من وايزمان وسوكولوف تقريرا مفصلا للمؤتمر . واستعرضا النشاطات والتطورات التي أدت الى صدور وعد بلفور وموافقة الحلفاء على نصه ودمجه في معاهدة الصلح مع تركيه ، بالاضافة الى القبول بانتداب بريطانيه على فلسطين . ومما قاله وايزمان في خطابه الافتتاحي :

« لم تكن لدينا قوة السلاح ولا المال أو النفوذ . وحتى الفرقة اليهودية كانت مجرد رمز على استعدادنا للتضحية ، وهي ابعد ما تكون عن النوايا العدوانية . لم يكن لدينا سوى القوة المعنوية لفكرتنا ، وحقنا التاريخي ، وولائنا الراسخ لصهيون ، بالاضافة الى ما قمنا به حتى الآن من اعمال لاحياء فلسطين » (١) .

فبرزت اثناء انعقاد المؤتمر تيارات معارضة للسياسة التي يعتمدها وايزمان . وتزعم الجناح المعارض صهيونيون من طراز نحميا دي ليمي وجوليوس سيمون . بينما وقف فلاديمير جابوتنسكي ليدافع عن اللجنة التنفيذية : ضد التقصير الذي اتهمت به والتفريط في المطالب التوسعية الصهيونية لجهة الاتفاق الفرنسي البريطاني حول الحدود قبل تسعة شهور من المؤتمر تقريبا . واعيد انتخاب وايزمان لرئاسة المنظمة بعد ان

---

١ ـ بروتوكول جلسات المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ـ **المصدر السابق**، ص ١٤ (بالالمانية) .

خلفه مؤتمر فيينه رئيسا على اللجنة الدائمة . كما اصبح سوكولوف على رأس اللجنة التنفيذية التي ضمت في عدادها أمثال يوسشكين ، وكووين والدكتور ادر وجابوتنسكي وليختهايم ، وموتزكين ، وروبين .

ويكفي الاطلاع على فهرس الموضوعات التي أثيرت في المؤتمر المذكور، وكما أوردها الكتاب الفخم المتضمن وقائع جلسات المؤتمر (برلين، ١٩٢٢)، لكي نأخذ فكرة عن مدى الاهتمام الذي أولاه معظم المتحدثين اثناء الجلسات والمناقشات لمسألة الحدود والملابسات المتعلقة بها . ومن الملاحظ ان مسألة الحدود الشمالية والشرقية للوطن القومي قد استأثرت باهتمام المندوبين والزعماء . فوقف نحميا دي ليمي ليتساءل عما آلت اليه قضية الحدود بعد سنين من النشاط الدبلوماسي في باريس . فأكد الاهمية الاقتصادية الكبرى التي تعلقها الصهيونية على الحدود الشمالية وأعرب عن مخاوفه المتزايدة بصدد الحدود الشرقية من ناحية التطورات السياسية في المنطقة العربية آنذاك ، كما اعترف بان الصهيونيين احتجوا لدى الحلفاء ضد « الغبن » الذي لحق بهم من جراء تقسيم مناطق النفوذ والإنتداب ، واعلن ان النتائج لم تكن مرضية تماما ، مما يقدم افضل برهان لتبرير المخاوف التي تساوره (٢) . وهب غيره من المندوبين لتوجيه النقد الشديد لنشاطات المكتب الصهيوني في باريس واتهامه بالتقصير . وراح بيرل كاتزنيلسون يؤكد بان هربرت صموئيل صرح منذ البداية حول النية لفصل شرقي الاردن عن فلسطين . كما أثنى كابلانسكي ، عضو لجنة العمل الصهيونية ، على صحة المخاوف زاعما ان مسألة الحدود الشمالية لم تحل لصالح الاستعمار اليهودي ، واعتبر قضية شرقي الاردن ، حيث أوجدت امارة جديدة للامير عبدالله بن الحسين ، تعاني من الاجحاف نفسه ! (٣)

وحين فرغ معظم المندوبين من التكلم حول مسألة الحدود ، وقف وايزمان للرد عليهم . فأعلن ان صك الانتداب قد نشر ولا مجال لادخال تغييرات أو تعديلات عليه . الا فيما عدا قضية شرق الاردن . فبعد ان جرى اقصاؤها عن منطقة الانتداب في النص الاول للصك ، اصبحت الآن داخلة فيه . ثم التفت الى دي ليمي مؤكدا له بالحرف الواحد : « يمكننا الاجابة على السؤال بطريقة أفضل ، يا سيد دي ليمي ، لو ان الضفة

---

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

الفربية لـلاردن امتلأت لدرجة تـدفع بنا دفعـا صوب شرقي الاردن (تصفيق) » (٤) . وانتقل الى الحديث عن الحدود الشمالية ليعلن انهـا لا تزال على حالها : غير مرضية . فأتى على ذكر المساعي المبذولة في ذلك السبيل وخصّ الحكومة البريطانية ببـذل مـا في وسعها لتأمين المطالب والمطامع الصهيونية . غير ان جميع المحاولات كانت عبثا ، اذ « لم يتسن لنا الحصول عليها » . وزعم وايزمان بان الصهيونيين تمكنوا من الحصول على شيء واحد ، الا وهو « الامتياز الذي يخولنا حق المشاركة في ملكية المياه » . ثم ختم كلامه قائلا لو ان الحلفاء اعطونا اكثر مما لدينا الآن ، منذ مؤتمر سان ريمو ، لكان لهم الحق في المطالبة باكثر من ذلك .

وهكذا توصل المؤتمر الصهيوني الى اتخاذ قرار خاص حول مسألة الحدود اعلن فيه باسم الشعب اليهودي ما يلي :

« يأخذ المؤتمر علما ، وسط الارتياح ، بان منطقة شرقي الاردن ، والتي ينظر اليها الشعب اليهودي كجزء متمّم من أرض اسرائيل سوف تدمج في منطقة الانتداب الفلسطيني . ويجد المؤتمر نفسه ملزما بالاعراب عن أسفه لـكون مسألة الحـدود الشمالية لارض اسرائيل لم تجد سبيلها الى حل مرض حتى الآن وعلى الرغم من جميع المساعي التي بذلتها اللجنة التنفيذية . كما يطالب المؤتمر اللجنة التنفيذية بألا تترك في المستقبل اية خطوة دون ان تطرقها وتتخذها ، للحؤول دون التخلي عن الوحدة الادارية والاقتصادية لفلسطين لصالح سياسة مناطق النفوذ ، ولكي لا يؤدي ذلك الى تقليص امكانيات الاستيطان والاستعمار بوجه الجماهير اليهودية الباحثة عن عمل . ويأمل المؤتمر ان تستجيب حكومة الجمهورية الفرنسية لمصالح الشعب اليهودي وتفي بها » .

ولا حاجة بنا للدخول في الآراء والنظريات الـتي طلع بهـا ديفيز تريتش ، عضو لجنة العمل ، حول الاشكال المنظمة للاستعمار الصهيوني في فلسطين ، وتركيز هذا الاستعمار على أسس تعاونية واسعة النطاق . فقد سبقت الاشارة اليها في الفصل الذي تناول افكـار تريتش ودعوته لفلسطين الكبرى . فلنعد الى متابعة نشاطات جابوتنسكي اذن ، بادئين بتلك الفترة التي قضاها في عضوية اللجنة التنفيذية الصهيونية (١٩٢١

---

٤ ــ المصدر نفسه ــ انظر المقررات السياسية التي اتخذها المؤتمر بصدد الحدود («Grenzen») ص ٧٦٨ .

ـ ١٩٢٣) ، لكي ننتقل منها الى ظهور الحركة التصحيحية (أو التحريفية) منذ انعقاد « مؤتمر رابطة الصهيونيين التحريفيين (أو التصحيحيين) في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٥ . ثم حصول الانشقاق من جديد في صفوف المنظمة الصهيونية العالمية والحركة التحريفية بالذات ، مما ادى عام ١٩٣٣ الى قيام « حزب الدولة اليهودية » Judenstaatspartei تحت زعامة مابر غروسمان ، وخروج جماعة جابوتنسكي من حظيرة المنظمة الصهيونية ليؤلفوا منظمة مستقلة تعمل لحسابها الخاص (١٩٣٥) . وقد عرفت منذ ذلك الحين بالمنظمة الصهيونية الجديدة (New Zionist Organization)

١ ـ صندوق الضريبة

غادر جابوتنسكي فلسطين بعد اطلاق سراحه في العشرين من آب (اغسطس) ١٩٢٠ متوجها الى لندن ، فوصلها في أول أيلول (سبتمبر) . واستأنف نشاطه الصهيوني بعد ان عقد العزم على الإندماج كليا وبدون تحفظ في خضم الجهود الصهيونية الجماعية ، معربا عن رغبته في التعاون المخلص بجميع النواحي والحقول الرئيسية التابعة للجهود الصهيوني العام . فكانت اولى ثمرات هذا التعاون انضمامه الى مجلس ادارة الصندوق التأسيسي لفلسطين (الكيرين هايسود) وتسلمه مهام دائرة الصحافة والدعاية في الصندوق . ويعزو مؤلف سيرة حياته الى جابوتنسكي الفضل الاول في القيام بتحرير الكتاب الذي صدر عن الكيرين هايسود آنذاك (٥) ليصبح المرجع المعترف به لكل فروع النشاطات الصهيونية بفلسطين . فيؤكد لنا شيختمان بان احدى العلامات المميّزة لدى جابوتنسكي هي عدم ظهور اسمه كرئيس للتحرير على غلاف الكتاب المذكور . ويستشهد بقول أحد مؤسسي الصندوق « ايزاك نايديتش » (Naiditch) ان رئيس التحرير جابوتنسكي راجع كل مقالة بمفردها في هذا العمل الجماعي بعناية فائقة وبذل الكثير من جهوده في الكتاب الذي اصبح اساسا لنشاطات الكيرين هايسود (٦) . هذا مع العلم بان رئيس التحرير يعرب عن شكره في مطلع الكتاب للمساهمين في مواده ، ويعلن انه لم يشأ منع التعبير عن النزعات الفردية والتعاطفات . فأتاح المجال امام

---

٥ ـ The Keren Ha-Yesod Book. Colonization Problems of the Eretz Israel (Palestine) Foundation Fund; Edited by Publicity Department of the Keren Ha-Yesod (London, 1921).

ومن الذين ساهموا في اصدار الكتاب : الدكتور ادر وزوجته ، بوريس غولدبيرغ ، س. غنزبرغ ، أ. غولاك ، كابلانسكي وزلاتوبولسكي وغيرهم .

٦ ـ انظر شيختمان ، المصدر السابق .

الاخصائيين كل في موضوعه وحقله ، لـكي يأتي كتاب الكيرين هايسود انعكاسا للصهيونية ، « حيث يوجد متسع لجميع الآراء على اختلافها » . وتصدّر الكتاب نداء الى يهود العالم « مانيفستو الكيرين هايسود » وقّعه كل من روتشيلد ، الفريد مونـد ، جوزيف كووين ، حاييم وايزمان ، ناحوم سوكولوف ، برتولد فايفل ، ايزاك نايديتش وهيلل زلاتوبولسكي ، بالاضافة الى جابوتنسكي . جاء فيه :

« ان الانتداب على فلسطين ، وهو تعهد وتحد للشعب اليهودي في آن واحد ، اوشك ان يصبح جزءا من قانون الامم (يعني ميثاق عصبة الامم) . لقد حانت لحظة تركيز الجهد اليهودي على بناء صرح الوطن القومي اليهودي ... ان غرض الكيرين هايسود هو توطين فلسطين باليهود وفقا لخطة رائعة التنظيم وبأعداد متزايدة باستمرار ، وتمكين عمليات الهجرة من البدء دون تأخير ... فلم تعد ابواب فلسـطين مغلقـة مـن الداخـل ، والمفتاح بيـد الشعب اليهودي ... » (٧) .

كما نبّه البيان الى ان الصداقة او الحسنة المالية بين الحين والحين لا تكفي لتحقيق ذلك . وعليه فلا بد من اتخاذ الجهد الإستثنائي المطلوب شكل « الضريبـة الذاتية » ، التي تـدفع باستمرار ومثـابرة وبصورة منتظمة . (٨) وهي بالتالي مستوحاة من التقليد اليهودي السامي والمعروف بالعشار (Tithe) ، اذ كـان الناس يدفعون عشر غلتهم أو مالهم الـى المؤسسة الدينية في الزمان القديم . وجاءت مقدمة الكتاب لتبين ان فكرة الكيرين هايسود تقوم على التحام فكرتين جوهريتين : « مبدأ المعاشر » و « وحدة الجهد » . فالمبدأ الاول ليس الا عودة الى اقـدم التقاليد اليهودية وأروعها :

---

٧ ــ كتاب الكيرين هايسود ص ٥ ــ ٨ .

٨ ــ زار جابوتنسكي الولايات المتحدة الاميركية للمرة الاولى بعد المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في كارلسباد . فقد سافر في عـداد وفد الكيرين هايسود الذي ضم سوكولوف وغولدشتاين والبروفسور اوتو واربورغ ، بالاضافة الى الكولونيل باترسون وغادر لندن في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ . وتكررت زياراته لاميركه في الاعوام التالية ١٩٢٦ و ١٩٣٥ و ١٩٤٠ . وابان الزيارة الاولى اتيح له المجال كي يطلع مباشرة على تطبيق مبدأ العشار لدى طائفة

« يجب ان يذهب عشر ما تملكه على الاقل الى صندوق الامة لبعث أرضنا . ويجب ان يتم ذلك على الرغم من الازمة المالية في العالم ، وهبوط أسعار العملة ، والكوارث الرهيبة في اوروبه الشرقية ، على الرغم من كل شيء ، فان عشر كل ما تملكه وتكسبه على الاقل هو من نصيب فلسطين . وهذا هو المطلوب من كل يهودي ، سواء كان صهيونيا أم غير صهيوني . ولن يقوم يهودي بواجبه ما لم يدفع المعاشر . هذا هو الشرع اليهودي القديم ... » (٩) .

ومما تجدر ملاحظته ان مقدمة الكتاب تصدّرتها عبارة تذكرنا بفكرة التغلغل الاقتصادي التي طالعتنا عند اوتو واربورغ في دعوته للاستيلاء على فلسطين بواسطة السيطرة على مقدراتها الاقتصادية . فها هي جماعة الكيرين هايسود تبادر الى التصريح بدورها ان

« الطريقة السلمية للغزو والمعروفة بالاستعمار قد مرت في أيامنا هذه خلال التحولات نفسها التي مرت بها طرق الغزو بقوة السلاح والمعروفة بالحرب » (١٠) .

وليس بمستبعد ان تكون المقالة التي عنوانها « الوضع السياسي » بقلم جابوتنسكي نفسه . بينما يمكن التأكيد بصورة جازمة انه صاحب مقالة « القوات اليهودية » . فمن الموضوعات التي تناولها الكتاب ،

المورمون ـ (Mormons) التي انشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ وأباحت تعدد الزوجات فترة ثم حظرته . فذهب الى منطقة سولت لايك ستي (Salt Lake City,) حيث تقوم مستوطنات المورمون في ولاية يوتاه وعاد بكثير من الكتب التي تتناول حياة المورمون وتنظيمهم ، ثم سعى لاقناع اليهود الاميركيين بادخال مبدأ جباية ضريبة العشار ودفعها للصندوق التأسيسي . ويؤكد شيختمان بان غاية الوفد كانت جمع الاموال وجبايتها لصالح الكيرين هايسود ، بالاضافة الى الوقوف بوجه المعارضة للفكرة والتي كانت متوقعة الصدور عن جماعة برانديس ـ ماك هناك ، (انظر Schechtman — **Rebel and Statesman, The Early Years,** p. 388-9.

٩ ـ كتاب الكيرين هايسود ـ المصدر السابق ، ص ١١ .
١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٩ .

بالاضافة الى ما تقدم ذكره ، تجدر الاشارة الى : « ما يمكن تحقيقه بـ ٥ ملايين جنيه » ، « العشار في التقليد اليهودي » « الهجرة » ، « الاستعمار الزراعي » ، (١١) « المجالات الصناعية » ، « الطاقة المائية في فلسطين » ، و « الاستعمار التعاوني » ، و « مشكلة الاسكان » ، « المصارف » ، « التحريج » ، « الصحة » ، « المدارس » و « الجامعة » ، و « صندوق الجوهرات » . كما اشتملت ملاحق الكتاب على نصوص لكل من مقررات المؤتمر الصهيوني السنوي بلندن ، مسودة صك الانتداب على فلسطين والاتفاق الفرنسي البريطاني حول الحدود ، وعدد من المراسيم الصادرة عن المندوب السامي البريطاني والاستجوابات المقدمة في مجلس العموم .

والذي يستأثر باهتمامنا من زاوية هذا البحث يكاد ينحصر في الفصل الذي يستعرض الموقف السياسي في ضوء المسائل التالية : وعد بلفور وقرار مؤتمر سان ريمو والاتفاق الفرنسي ــ البريطاني حول حدود فلسطين وصك الانتداب ، بالاضافة الى سلسلة القوانين والمراسيم التي

---

١١ ــ ربما كانت هذه المقالة من تأليف كابلانسكي اذ نجدها تعكس الكثير من افكاره وآرائه التي سبق لنا التعرف عليها . فهي تطرح اسئلة من طراز : « هل يمكننا بالفعل ايجاد متسع من المكان لانفسنا دون اللجوء الى طرد الآخرين ؟» او : «لمن تعود ملكية هذه الارض ، وهل يمكن الحصول عليها لاستعمارها ؟ » وتجيب على السؤال الثاني بتقسيم أراضي فلسطين الى الفئات الاربع التالية :

أ ــ المشاع

ب ــ الاراضي المشغولة وغير المسجلة

ج ــ املاك الدولة

د ــ الملكيات الخاصة

ثم تستحضر القانون العثماني الذي يسمح بالاستيلاء على المشاع لكل من اقدم على حراثتها وزراعتها . وتتوقع الا يتغير القانون في ظل الحكومة الحالية وفيما يتعلق بهذا النوع من الاراضي ، بينما المبدأ الاساسي لسياسة الارض الصهيونية ينص على أن تصبح جميع الاراضي التي يقوم عليها الاستعمار اليهودي ملكا مشتركا للشعب اليهودي ! (انظر المصدر نفسه ، ص ٤٦ ــ ٤٧) .

استصدرها المندوب السامي البريطاني في القدس . ويبدأ كاتب المقال بان يعلن جواز النظر الى الوضع السياسي الراهن في فلسطين ، والناتج عن المسائل الآنفة الذكر ، من الزاويتين التاليتين :

١ ــ « هل يكفي هذا الوضع في حد ذاته ، وهل يقدم أية ضمانات ثابتة لسير مخطط الوطن القومي سيرا حسنا خلال فترة جيل واحد على الاقل ، وهل يستثني جميع المحاولات لاعاقة تطور الكومنولث اليهودي ؟ »

٢ ــ « هل هو موآت كفاية لتبرير الاقدام على القيام بجهد مباشر ، والسماح للكيرين هايسود بمتسع مكاني يكفي لتسيير عجلات آلة العمل البنّاء في فلسطين ؟ (١٢) » .

فالجواب على السؤال الاول لا يخفي تشككه الصريح مؤكدا الا جدوى هناك في اغماض اعيننا عن حقائق الواقـع الصارخة . اذ لا يزال صك الانتداب بحاجة الى التصديق والاقرار ، كما ان نصه الرسمي قد صيغ بعبارات غامضة تشجـع التفسيرات المقيدة ، ولفظة « الوطن القومي » ليست سوى عبارة غامضة ، تنتمي الى البلاغة بـدل السياسة . وحين ينتقل كاتب المقال الى معالجة مسألة الحدود من زاوية السؤال الاول ، نجده لا يتردد في المصارحة برأيه والاعراب عن مطامعه :

« ان مياه الليطاني ، اغنى خزانات فلسطين ، قد اقتطعت كليا . وابقي اليرموك خارج الوطن القومي اليهودي ، فلا يمكن استغلال مياهه الا اذا وجدت حكومة اجنبية ان من المرغوب فيه منح امتياز لذلك . ومنابع الاردن العليا تعاني من الوضع نفسه ، ومن السخرية التي تثير الفضول ان يرفض لجزء جوهري من النهر المقدس شرف الدخول في نطاق الارض المقدسة (١٣) » .

غير انه يجد حدود الانتداب ، علـى علاتها ، تؤمّن المتسع الكافي والحماية اللازمة للمباشرة بالنشاطات الاستعمارية . ومن الملاحظ ان الرقعة التي يتحدث عنهـا تشمل شرقي الاردن عـلى جانبي الخط الحديدي الحجازي . فهو يشير الى أرض جلعاد باعتبارها من اغنى مناطق فلسطين في مواردها المائية ونوعية تربتها وخضرتها ، مؤكدا انها من أفقرها سكانا .

---

١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

١٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

ويريد ملء « فلسطين المبتورة » ـ كما يطيب له ان يدعوها (this truncated Palestine) حتى أقصى سعتها الطبيعية بالمهاجرين اليهود . كما يعرب عن اسفه الشديد « لاضطرارنا ان نتخلى في الوقت الحاضر عن جميع المشروعات المتعلقة بالليطاني » . ويدعو الى الاهتمام بمياه الاردن بين بحيرة الحولة والبحر الميت ، « لان ضفتي النهر تقعان داخل الحدود » ، وشرقي الاردن تؤلف جزءا من الرقعة التي يشملها الانتداب ، وتخضع بالتالي للمندوب السامي نفسه ، كما تخضع له اليهودية والسامرة والجليل (١٤) . ولا يجد (جابوتنسكي) اية عوائق قانونية تعترض سبيل تصفية النظام الخاص الذي أقيم في شرقي الاردن ، اذ يعتبره من الوجهة القانونية الدولية نتيجة عمل أقدمت عليه الحكومة البريطانية من طرف واحد .

وفضلا عن ذلك ، فهو يطمئن الصهيونيين الى ان « المنطقة الفرنسية من فلسطين » لا يمكن اعتبارها مغلقة بوجه الاستعمار اليهودي . فقد وقّعت فرنسه على وعد بلفور واخذت على عاتقها بموجب قرار سان ريمو تحبيذ مشروع الوطن القومي داخل منطقة نفوذها . لذلك يعلن بان

« المساحة المفتوحة بوجه الاستعمار اليهودي ، والمنوي اقامة الوطن القومي اليهودي على أرضها فيما بعد ، لا تنحصر من ناحية المبدأ بمنطقة الانتداب البريطاني » (١٥) .

وينتهي الى القول بان الوضع السياسي في فلسطين ، ومن زاوية الصهيونية ، يعتمد كليا على « شخصية المندوب السامي » . وطالما يشغل منصب المندوب السامي رجل لا يرقى الشك الى اخلاصه لروح وعد بلفور ، فان امكانات فلسطين داخل الحدود الراهنة لا حدود لها من الناحية العملية . ويختم المقالة بالتطمين التالي :

« الجهد والطاقة هما الدواء الافضل والوحيد لمعالجة النواقص أو العاهات التي قد يتضمنها صك الانتداب أو اتفاق الحدود . والقوة

---

١٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦ (يؤكد شيختمان في القسم الاول من قصة فلاديمير جابوتنسكي (ص ٤١٦) بان مقالة « الوضع السياسي » هي بقلم جابوتنسكي نفسه ، كما كان معروفا في الاوساط الصهيونية آنذاك) .

الحية (Live-force) ، قوة الجماهير ، وثقل غناها الجماعي ، هما اقوى من الكلمات المكتوبة او المحذوفة » (١٦) .

واذا كان من المؤكد ان « القوة الحية » تذكرنا بأفـكار جابوتنسكي السابقة واللاحقة على السواء ، فلا بد من النظر الى دعوة « الصهيونية الكبرى » ، التي حمل لواءها خلال الثلث الاخير من عمره ، من زاوية المطالبة بفرقة يهودية جديدة والمناداة بتأليف وزارة صهيونية كبرى تضم « الاقطاب والجبابرة » في الحركة بغية تنسيق الجهود وتوحيدها في سبيل الهدف الواحد . وقد حاول مؤلف سيرة حياته ان يجعل من الفترة التي قضاها جابوتنسكي في عضوية اللجنة التنفيذية تكريسا لجهوده الرامية الى تحقيق « الصهيونية الكبرى » .

---

١٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٢ ـ « غاريبالدي الصهيوني »

« أنا أعمل لاجل فلسطين حتى ولو
اضطررت الى التحالف مع الشيطان»

(ماتزيني ـ جابوتنسكي)

« سئل الصبي جابوتنسكي في احدى
المناسبات
ـ « ابن من أنت ؟ »
فأجاب : « انا ابن نفسي » .

(سيرة حياته بقلم شيختمان)

لا نريد الدخول في تفاصيل حياة جابوتنسكي منذ ولادته في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٠. بمدينة أوديسه حتى وفاته في تموز (يوليو) ١٩٤٠ . فقد تناولها صديقه ونصيره الصهيوني جوزيف شيختمان في مجلدين ضخمين (١٧) ، مخصصا القسم الاخير من المجلد الثاني للحديث عن القوى التي اطلقها جابوتنسكي في الحركة الصهيونية. واعتبره بمثابة الاب الروحي الذي تعهّد بعنايته ورعايته بنوّة كل من: ١ ـ منظمة بيطار(Betar) أو « رابطة جوزف ترومبلدور للشباب » (Berit Yoseph Trumpeldor) ـ وسيأتي الحديث عنها ـ ٢ ـ الهجرة غير المشروعة ، ٣ ـ المقاومة اليهودية ، ٤ ـ المقاومة اليهودية المسلحة . كما انه لا يهمنا من فلاديمير جابوتنسكي ما يصف به المؤلف المذكور أعلاه سيرة حياته من النعوت : « الثائر ورجل الدولة » ، « المحارب والنبيّ » ، أو ما اذا كان يجمع في شخصه ذلك الخليط النادر بين الشاعر والزعيم السياسي والخطيب

---

١٧ ـ Joseph B. Schechtman — **Rebel and Statesman.** The Vladimir Jabotinsky Story : The Early Years, (Thomas Yoseloff, New York, 1956) — **Fighter and Prophet.** The Vladimir Jabotinsky Story : The Last Years, (Thomas Yoseloff, New York, 1961).

والباحث واللغوي والدبلوماسي والصحافي والروائي والناشر ــ على حد قول أحد الذين كتبوا عنه باعتباره واحدا من الاثني عشر الذين ساعدوا على تكوين اسرائيل الحديثة (١٨) ، بقدر ما يهمنا انعكاس ذلك كله على دعوة الصهيونية الكبرى التي نادى بها جابوتنسكي واخذ على عاتقه مسألة تنظيم جيش صهيوني والتحالف مع الشيطان في سبيل الوصول الى مبتغاه واقامة الدولة اليهودية على ضفتي الاردن وضمن الحدود التاريخية القديمة لمملكة اسرائيل ويهوذا .

وقد نقل الينا مؤلف السيرة عن حداثة جابوتنسكي ان الصبي احب اللهو والمرح واتصف باللامبالاة وقلة الاكتراث ، الى جانب العناد وحب الاذى وكثرة الحركة والنشاط . وبالاضافة الى التشبث بالرأي وتوتر الاعصاب والغطرسة والجموح ، كانت رغبة أمّه القانون المطاع لديه . ولم يكن متدنيا او مهتما بمراعاة الشعائر والطقوس الدينية . وحين سئل في احدى المناسبات « ابن من انت ؟ » اجاب : « انا ابن نفسي » (١٩) . وكان يكره جو المدرسة الخانق ، كما طرد من المدرسة مرات عديدة لسوء سلوكه . فزعم ان العداء للسامية هو سبب الطرد ، ثم اعترف فيما بعد بان السبب يرجع الى سلوكه وتمرده على انظمة المدرسة وقوانينها . وقبض عليه الناظر مرة وهو يغش في الامتحان . كما ان قبح شكله قد حز في نفسه كثيرا فحمله على التعويض بالاكثار من مغازلة الفتيات والسعي وراء المغامرات الغرامية الباكرة . وربما تولدت في نفسه ثقة اكثر مما ينبغي ، فعمد الى المبالغة والتبجح في الكلام .

ولم يكتف شيختمان بنقل هذه المعلومات من تاريخ طفولة جابوتنسكي ، بل استند الى ما قاله ارنست جونز في كتابه عن « حياة سيغموند فرويد وآثاره » في معرض الحديث عن « طفل الإم المدلل » :

---

١٨ ــ انظر الفصل الثالث من كتاب Robert St. John — **They Came from Everywhere. Twelve who helped Mold Modern Israel** (New York, 1962). وانظر ايضا الفصل السابع من كتاب Barnet Litvinoff — **To The House of Their Fathers. A History of Zionism** (New York, 1965). تحت عنوان : « جابوتنسكي : صليبيون باللباس الكاكي » .

١٩ ــ قصة فلاديمير جابوتنسكي ، السنوات الاولى ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .

حيث قال (فرويد) : ـ « الانسان الذي كان الطفل المفضل بلا منازع لدى والدته يحتفظ مدى الحياة بشعور الفاتح او المنتصر ، وتلك الثقة بالنجاح التي غالبا ما تستميل النجاح الحقيقي » (٢٠) . فالمدرسة لم تلعب دورا بارزا في حياة الصبي الروحية ، بل كان يقرأ الكتب بكثرة ودون تمييز او تمحيص . ولا توجد خلفية يهودية خاصة في صباه . فمدينة اوديسه على البحر الاسود ـ والتي اطلقت عليها تسمية « اسكندرية ذلك الزمان » كانت اشبه بالمرفأ المنفتح على العالم . لا تضم حيا يهوديا مميزا : ولم يشعر يهودها بالعزلة او الانفصال ، بل اعتبروا انفسهم من اهلها ، واتخذوا موقفا متساهلا ازاء التقاليد اليهودية . فالروسية كانت لغة أسرة جابوتنسكي ووسيلة التخاطب بين الام واولادها. ولم يتعلم جابوتنسكي اللغة اليديشية الا في الرابعة والثلاثين من عمره (١٩١٤) . كما انه ثار على تعلم اللغة العبرية في سنه الثالثة عشرة واصفا اياها باللغة الميتة . وحين عاد الى تعلم العبرية فيما بعد كتبها بالحرف اللاتيني ولم يستطع قراءة نص مكتوب بالحروف العبرية . وقد اعترف فيما بعد ايضا بان صباه كان عديم الصلة الداخلية باليهودية ، كما ان حياته المدرسية لم توقظ فيه الشعور بذلك ، مما جعله يشب على الثقافة الروسية متأثرا بالقيم السائدة آنذاك ، فاستهوته الافكار القادمة من اوروبه الغربية على يد الادباء والمفكرين الروس . واثرت في نفسه النزعة الرومنطيقية التي تجلت في كتابات بوشكين وليرمونتوف وتولستوي ، وتشيكوف وغوركي الى حد ما . ومن المفكرين الذين استحوذوا على عقله وساهموا في تكوين ذوقه الادبي وميوله الفكرية يجدر بنا ان نذكر : بيساريف Pissarev (في طليعة الوضعيين الروس) وبيلينسكي Bielinsky والكسندر هرتزن (Herzen) بالاضافة الى ميخايلوفاسكي وكروبتوكين (٢١) . وهكذا اتقن اللغة الروسية وحدها من بين سائر اللغات التي تكلم بها . وكتب معظم شعره بتلك اللغة .

غادر جابوتنسكي الشاب وطنه للمرة الاولى في ربيع ١٨٩٨ قاصدا ايطاليه . واطاع نصيحة امه بالبقاء في مدينة برن (سويسره) ، حيث لم

---

٢٠ ـ انظر المصدر نفسه ، ص ٣٦ (مات الاخ الاكبر لفلاديمير بالحمى القرمزية (١٨٨٢) وتوفي الاب في نهاية العام ١٨٨٦ مصابا بالسل والسرطان) .

٢١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

يجد صعوبة في الانضمام الى كلية الحقوق التابعة للجامعة ــ مع العلم بانه لم يحصل على شهادة التعليم الثانوي . واعتنق مذهب النباتيين الداعي الى العيش على الخضر والحبوب والفاكهة والاقتصار في الطعام عليها . ثم تخلى عن عزلته وراح يحتك بافراد الجالية الروسية ، وبينهم قسم كبير من اليهود والمهاجرين السياسيين الروس . وفي خريف العام نفسه تابع سفره الى رومه ، فبقي في ايطاليه حتى اواخر تموز (يوليو) من العام ١٩٠١ ، حين عاد الى اوديسه بحرا عن طريق البندقية والاستانة .

ومما لا شك فيه ان ايطاليه قد لعبت دورا بارزا في تكوين جابوتنسكي النفسي والفكري والروحي . وهو الذي ينقل عنه قوله : « لو كان لي وطن روحي على الاطلاق ، فان ايطاليه هي ذلك الوطن اكثر من روسيه » . وقد اعتبر مؤلف قصة حياته ان الفترة الإيطالية هي من اهم الفترات في تكوين عالم جابوتنسكي الفكري . تسجل كطالب في الجامعة لكنه لم يتابع برنامج الدروس بانتظام ، وقام باعداد برنامجه الخاص ، فاختار الاساتذة والمحاضرات التي يود الاستماع اليها . فجاء معظمها حول القانون الروماني والاقتصاد السياسي والاحصاء بالاضافة الى محاضرات البروفسور انطونيو لابريولا في الفلسفة والتاريخ . والمعروف ان الماركسي لابريولا كان في طليعة المفكرين الداعين للمادية التاريخية في الجامعات الاوروبية . فهو ينكر الحتمية المسبقة في الحياة الانسانية ولا يعتبر التقدم امرا مقدورا . بل يشدد على ان الانسان يصنع التاريخ بنفسه . وليس بمستبعد ان تكون صهيونية جابوتنسكي الواحدية قد تأثرت بالاتجاه الواحدي لدى استاذه (Monism) . كما تأثرت بتلك الافكار التي سمعها من استاذه انريكو فيري اثناء محاضراته في قانون العقوبات . وفيري من الدعاة البارزين للمدرسة الوضعية في علم الجريمة ، ومن كبار مؤسسي علم الاجتماع الجرائمي . بينما يتحدث مؤلف سيرة حياته عن تأثير فلسفة بنديتو كروتشي (Croce) في جابوتنسكي ، بالاستناد الى قول هذا الاخير : « كروتشي هو اول من علمني ان اميز ذبذبات الجهاز العصبي الجمالي الذي يكمن خلف الآت الساعة التي تدير دواليب التاريخ » .

ولا شك ان جابوتنسكي ابدى اهتمامه الخاص بقضية كفاح ايطاليه في سبيل تحقيق وحدتها القومية . فوقع اختياره على الجنرال غاريبالدي من بين الثالوث الشهير « ماتزيني ــ غاريبالدي ــ كافور » ليكون بطله المحبوب ، واسند الى غاريبالدي الدور الاول في تحرير ايطاليه

وتوحيدها ، وانمى اعجابا شديدا بجميع مظاهر الحياة الايطالية حتى انعكس ذلك على نمط تفكيره وتعبيره الى ابعد حد . كما يبدو من المؤكد بان جابوتنسكي لم يكن ليهتم آنذاك بالشؤون اليهودية الايطالية . فاليهود الايطاليون قد اندمجوا الى درجة قصوى في المجتمع الايطالي . ولا يخفى ان بارزيلاي (Barzilai) الزعيم البرلماني للحركة الايطالية التحريرية الوحدوية (Irredentist) ــ والرامية الى ضم مقاطعتي ترنتو وتريست (Trento, Trieste) للوطن الإيطالي الام ــ كان يهوديا (٢٢) .

اما اعجاب جابوتنسكي بالجنرال غاريبالدي دون سواه ، فمرده الى القومية المتعصبة التي شاء نسبتها الى الرجل ، ثم ما لبث ان راى فيه مثالا للبطل الذي يجمع بين القومية والمواطنية العالمية في آن واحد . وليس من السهل اكتناه السر الكامن وراء هذا الإعجاب الذي يقوم على دعامتي العسكرية والنزعة السلامية في وقت واحد . فحين سافر جابوتنسكي في عداد وفد الكيرين هايسود الى اميركه وتجول في غربي البلاد بصحبة الكولونيل باترسون ، سارعت الصحافة الصهيونية المؤيدة له الى القول بان الرجلين يمثلان الناحية المحاربة والمتعصبة في حركة الاحياء القومي اليهودي . ووصفه احد الذين قاموا بتعريفه قبل القائه احدى الخطب الحماسية بانه من اشد المحاربين تعصبا في سبيل الصهيونية . وقد اصبح معروفا لدى العالم أجمع بـ « غاريبالدي اليهودي » . ومن الطريف ان بن غوريون اطلق عليه فيما بعد تسميات اخرى من طراز « تروتسكي صهيوني » و « فلاديمير هتلر » ! بينما نجده يختار لنفسه الاسم المستعار التالي : Altalena ، ويقابل هذه اللفظة في الانجليزية كلمة (Swing) اي المتذبذب او « المتأرجح » . وربما قصد من وراء هذه الاستعارة « فلاديمير المتأرجح » ، أن يعبّر عن شعوره بانه لم يزل غير مستقر على حال ، بل مهزهزا ومتأرجحا بين شتى الافكار والنزعات . وقد وصف الفترة الايطالية فيما بعد بانها اسعد فترات حياته على الاطلاق : فلا

---

٢٢ ــ سلفاتوري بارزيلاي (١٨٦٠ ــ ١٩٣٩) : سياسي ايطالي . أبوه جوسبّي بارزيلاي (١٨٢٤ ــ ١٩٠٢) باحث في الدراسات السامية وامين سر الطائفة اليهودية في مدينة تريست . عمل الابن باستمرار في سبيل توحيد تريست وايطاليه وكان وزيرا ١٩١٥ ــ ١٩١٦ ، كما اشترك في التوقيع على معاهدة فرساي وتعين عضوا في مجلس الشيوخ الايطالي (١٩٢٠) .

هم يعكر صفو حياته الشابة ولا التزاما سياسيا او عقيدة معينة تثقل كاهله . كما ان المقالات التي بعث بها الى احدى الصحف في اوديسه قد درت عليه بعض المال واكسبته عيشه في ايطاليه .

وهكذا عاد مبهورا بالحياة والعادات والثقافة الإيطالية الى حد الانغماس والاندماج (٢٣) . فغادر « وطنه الروحي » ليصل مسقط راسه وقد بلغ سن الجندية فكان عليه المثول امام هيئة التجنيد لترتيب أمر خدمته العسكرية . وكتب عام ١٩٠٢ قصيدة عنوانها «شارلوت المسكينة» حاول فيها تفسيرا جديدا للعمل الارهابي الذي اقدمت عليه الفرنسية شارلوت كورداي حين طعنت زعيم اليعاقبة في الثورة الفرنسية جان مارا وهو يغتسل في الحمام . فوصفها بالنحلة التي تموت وهي تلسع ، مؤكدا انها ثارت لكبريائها وتمردت على رتابة حياتها وسخافتها . والمح الى تعطشها للعمل البطولي ، ولحزم امرها على توجيه ضربة جسورة تشفي غليل كبريائها الثائر (٢٤) . وفي ربيع ١٩٠٣ ، ابّان مذبحة كيشنيف في مقاطعة بيسارابيه ، نجد فلاديمير جابوتنسكي يتزعم الدعوة لتشكيل قوة عسكرية يهودية في روسيه تحت ستار الدفاع عن النفس . ويبحث عن مبرّر لتلك الدعوة في الاشاعات التي تتحدث عن مذبحة وشيكة الوقوع في مدينة اوديسه . فيهبّ ماير دتزنغوف ، اول رئيس لبلدية تل ابيب فيما بعد ، معلنا استعداده للتعاون معه .

واذا كانت قضية دريفوس هي الدافع المباشر الذي القى بثيودور هرتزل في احضان الصهيونية ــ على حد قول العديد من مؤرخي حياته الصهيونيين ــ فان مذبحة كيشنيف قد لعبت دورا مماثلا في كسب فلاديمير جابوتنسكي لصالح العمل في النشاط الصهيوني . وهكذا تعيّن ممثلا صهيونيا عن مدينة اوديسه وذهب مندوبا الى المؤتمر الصهيوني السادس (بازل ١٩٠٣) في الثالثة والعشرين من عمره . ويبدو ان تجربته الاولى على مسرح المؤتمر الصهيوني تركت في نفسه بعض الرواسب المرة . فقد خيّب امله زعيم المعارضة آنذاك (حاييم وايزمان) حين دخل

---

٢٣ ــ كتب جابوتنسكي في ربيع ١٩٣٤ يقول عن نفسه :
« لم اتعلم صهيونيتي من احد هاعام ، وما تلقيتها حتى من هرتزل ونوردو ، بل تعلمتها من غير اليهود في ايطاليه » .
(المصدر نفسه ، ص ٧٦) .

٢٤ ــ قصة جابوتنسكي ــ **المصدر السابق** ، ص ٦٧ .

جابوتنسكي على احدى الحلقات التي توسطها وايزمان في احدى المقاهي فطلب اليه الزعيم المعارض الابتعاد لانه تسبب في ازعاجه ، وصدّه عنه النقاش (٢٥) .

ومن الطريف ان جابوتنسكي الذي رفع يده بالتصويت ضد مشروع يوغنده اكّد في وقت لاحق انه لم يكنّ آنذاك حبا رومنطيقيا لفلسطين ولم يستطع ايجاد المبرر الذي دفعه الى التصويت ضد المشروع . وقد اعترف فيما بعد بان الشك ساوره مرة بصحة تصويته ، فراح يفكر بينما هو يسعى لتشكيل الفرقة اليهودية (١٩١٥ — ١٩١٦) بانه لو وجد كومنولث يهودي في يوغنده ، لكان يزوّد الجيش اليهودي العتيد بنواة جاهزة (٢٦) . غير انه كتب في رسالة بعث بها الى المؤتمر الذي عقدته منظمة « البيلو الجديدة » (Neo Bilu) عام ١٩٠٦ ، شارحا مبادىء برنامج الرواد في المستقبل ومحاولا تلقينهم درسا في الصهيونية والنشاط الاستيطاني . فهو يميّز بين نوعين من المهاجرين اليهود الى فلسطين : فيدعو النوع الاول بالمهاجر الطبيعي الوافد الى فلسطين لكسب عيشه ، بينما يجد الرائد (Pioneer) انفع لجهة الغزو الثقافي والاقتصادي المنشود . ويشترط في الرائد ان يتحلّى بالصفات التالية : الكفاءة واللياقة الجسدية والروحية ، بالاضافة الى التنظيم والانضباط . ويشدّد على هذه الامور نظرا لنوعية المستعمرين اليهود الذين يريدهم في فلسطين ، ومن خلال تطلعه الى المستقبل الصهيوني ، اذ :

« يلزمنا اعداد نوع من السكان في فلسطين يملك القدرة في المستقبل على القتال في سبيل استقلالنا السياسي » (٢٧) .

وحين جاء جابوتنسكي الى الاستانة بعد الانقلاب العثماني (١٩٠٨) نشر سلسلة من المقالات لدى عودته الى روسيه بعنوان « تركيه الجديدة وآمالنا » ، وتحدث فيها عن توقّعاته الصهيونية بصدد اقدام جماعة تركيه الفتاة على تشجيع النزعات القومية لدى الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية . واكد حتمية ذلك التشجيع . بينما نبّه الصهيونيين الى ما اسماه بـ « ميل طليعتنا الفلسطينية الى المبالغة في تقدير القوة العربية » . واعتبر ان ما يعرف بالرعب العربي

---

٢٥ — المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
٢٦ — المصدر نفسه ، ص ٨٨ — ٨٩ .
٢٧ — المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

(terror arabicus) والخوف من قوة العــــرب يجب الا يعني لدى الصهيونيين سوى مجرّد الرغبة في العيش بسلام مع العرب . لكنه رفض اتاحة المجال امام ذلك الخوف كي « يرعى فينا المحاولات الرامية لجعلنا نكيّف انفسنا للاماني السياسية العربية ، او نمنح تأييدنا لنزعاتهـــم الانفصالية والمناوئة لتركيه » (٢٨) .

وقد نقل شيختمان عن جابوتنسكي في تلك الفترة رفضه الصريح والمطلق لشعار « الصمت والعمل » الذي كان سائدا في الاوساط التي توجه النشاط الصهيوني بفلسطين . واتهم الشعار المذكور واصحابـــه بانهم يدعون الى « الابتعاد عن السياسة » والتركيز على النشاطـــات الإستعمارية والعملية وحدها . وحجته في ذلك كله :

« لقد فات الاوان ، بعد خمس وعشرين سنة من الدعاية الصهيونية ، لكي نتظاهر باننا ننوي الذهاب لفلسطين لمجـــرد حراثة الارض هناك ... فالاسلوب السياسي في حركتنا لا يمكن فصله اطلاقا عن النشاط العملي » (٢٩) .

وسبق لنا التعرف على الشعار الذي طرحه جابوتنسكي اثنـــاء زيارته الاولى والخاطفة لفلسطين ، والداعي الى تعلم اللغة العبريـــة والضرب بقسوة وشدة . فحين اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى وجد فاريبالدي الصهيوني فرصته المناسبة لتحقيق حلمـــه في انشاء جيش يهودي يساهم في غزو فلسطين ، تحت ستار تحريرها من ربقة الاحتلال التركـي .

وفي مطلع العشرينات نجد جابوتنسكي على اعتقاده السابق ، يوجه النداءات للشباب اليهودي في العالم ، ويعلن بصراحة متغطرسة ان السبيل الوحيد لتحرير بلادنا لن يكون الا بحد السيف (٣٠) . وقد ذهب لحضور المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) في ظل الشعار المذكور ، آملا حمل المنظمة الصهيونية على تبنيه ووضعه موضع التنفيذ . وحاول التوصل الى اتفاق مع وايزمان ومؤيديه بحجة توسيع التمثيل الصهيوني داخـل المنظمة والحركة والعمل على تشكيل حكومة او وزارة صهيونية كبرى تضم اقطاب الحركة وجبابرتها وتأتي ممثلة لجميع الاتجاهات السائدة فيها.

---

٢٨ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

٢٩ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

٣٠ ــ انظر روبرت سان جون ــ They Came from Everywhere, P. 124

٣ ـ « الوزارة الصهيونية الكبرى »

تحدث جابوتنسكي في خطابه امام المؤتمر الصهيوني عام ١٩٢١ عن الاتفاق الذي تم التوصل اليه مع حاييم وايزمان . فانكر ونفى نفيا مطلقا ان يكون الاتفاق المذكور قد تم على اساس التنازلات المتبادلة من الطرفين. واستعرض البنود الاربعة التالية المتضمنة في ذلك الاتفاق :

١ ـ عندما يحين الوقت لاحداث تغيير كبير على جبل الزيتون (اي عندما يتعين مندوب سام جديد) ، سوف تطالب المنظمة الصهيونية بحقها في تقرير ذلك .

٢ ـ فيما يتعلق بالفرقة اليهودية ، لم تكن هناك حاجة الى الاتفاق ، لانني تعاونت مع الدكتور وايزمان في هذه المسألة طيلة سنوات عديدة .

٣ ـ يجب تمثيل المستوطن اليهودي بفلسطين (اليشوف) في حال القيام باعادة تنظيم اللجنة الصهيونية .

٤ ـ اعادة تشكيل اللجنة التنفيذية على الاسس المبينة اعلاه » (٣١) .

وزعم في خطابه المذكور ان الفاظ « الثورة » و « العسكرية » هي من التعبيرات اللاتينية « التي لا افهمها » . بينما سبق له الانضمام الى اللجنة التنفيذية في المنظمة وبرّر قبوله برأي الاكثرية وبقاءه في اللجنة على اساس اعتقاده بامكانية ما اسماه بـ « الإستيلاء على المواقع من الداخل » ، اي انه تحدث في احدى مقالاته عن وجود مسلكين اثنين في عالم السياسة : يقضي الاول منهما بدك الحصون عن طريق مهاجمتها من الخارج ، بينما يدعو الثاني الى الاستيلاء عليها من الداخل . وقد وقع اختياره آنذاك على المسلك الثاني اعتقادا منه بانه السبيل العملي والملائم وحده . وربما دفعه ضعف موقفه في تلك الفترة الحرجة كي

---

٣١ ـ انظر بروتوكولات جلسات المؤتمر الثاني عشر ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

يسعى الى اللجوء لدعوة من هذا النوع . فقد كرر في ختام خطابه دعوة جميع الصهيونيين الى « بناء الجسور التي تربط بيننا » مؤكدا ان هناك اعمالا تكفي لتجنيد الجميع في خدمة الغرض الواحد ، وان هناك نقاطا يمكن الاتفاق عليها الى جانب نقاط الاختلاف . فوصف دعوته الى تأليف « الوزارة الصهيونية الكبرى » بانها دعوة لوزارة عظمى تضم

« جميع اولئك الذين يقبلون اسس الصهيونية التاريخية ، ويملكون المقدار الكافي من التساهل لوضع برنامج يرضى عنه الجميع ويستطيعون العمل في سبيله » (٣٢) .

وتمثلت صهيونيته الكبرى آنذاك ، وخلال المدة التي قضاها في عضوية اللجنة التنفيذية ، في الاهتمام الذي اعاره للمشاكل المتعلقة بما اسماه « قضية امن اليهود بفلسطين » . فكرّس لها معظم وقته . وحين طلع هربرت صموئيل بالمشروع الرامي الى تأليف قوة يهودية ـ عربية مشتركة للحفاظ على الامن والنظام (آذار ، مارس ، ١٩٢١) سارع جابوتنسكي الى التنبيه للاخطار التي تترتب على خطوة من هذا النوع . وأخذ على وايزمان تردده في معارضة المشروع . اما حجته في ذلك فهي الزعم بان قلة من اليهود واغلبية ساحقة من العرب سوف تتطوع للخدمة وتنخرط في سلك القوة المنوي انشاؤها . وراح ينادي بان اليهود لا يمكنهم البقاء في قوة ميليشيا مختلطة او في جهاز بوليس مشترك ، زاعما ان الاكثرية العربية سوف تعني بالضرورة عداء لليهود والصهيونية . وذهب به تعصبه حد القول بان ذلك لا يعني سوى « ايجاد جيش يقوم بالمذابح (٣٣) » . ولا غرو فالهدف الابعد من وراء معارضته يرجع الى الفكرة التي نادى بها دائما ، وهي تقضي بتفشيل مشروع القوة المختلطة لكي يصبح المجال مفتوحا امام مشروعه الخاص الرامي الى تأليف فرقة يهودية قائمة بحد ذاتها . لذلك سعى على هذا الاساس للحصول على تأييد اللجنة التنفيذية وحملها على تقديم مقترحاته الى الحكومة البريطانية بصدد « القوة العسكرية في فلسطين » . فكانت تلك المقترحات تنص على ما يلي :

١ ـ الابقاء على الفرقة اليهودية التي تألفت عام ١٩١٧ (٣٤) داخل القوات

---

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

٣٣ ـ انظر قصة جابوتنسكي ـ **المصدر السابق** ، ص ٣٧٧ .

٣٤ ـ The 38th - 40th Royal Fusiliers (Judeans)

البريطانية في فلسطين .

٢ ـ اعادة فتح باب التطوع امام اليهود ، حتى يصبح عددهم على الاقل نصف مجموع القوة المقررة للحامية البريطانية (٧٬٧٠٠) .

٣ ـ مناشدة الروح الوطنية لدى جماعات الرواد لحمل عدد كاف منهم على الانخراط في سلك الجندية (بمعاش قدره جنيها مصريا واحدا في الشهر للجندي ، يتضاعف كلما ارتفعت الرتبة) ، والسماح للعازبين وحدهم بالتجند ، للحؤول دون دفع الزيادات العائلية(٢٥) .

والمعروف ان جابوتنسكي دخل في نزاع مع دعاة الانصراف الى تسليح « الهاغانا » والابقاء عليها كمنظمة عسكرية سرية للدفاع . مع العلم بان اللجنة التنفيذية وافقت على مقترحاته بالاجماع ، فان اشتراطه على المنظمة الصهيونية ان تساهم هي بدفع المعاشات لم يكتب له النجاح . وانصرف زعماء الهاغانا (موشيه شرتوك ، دافيد هاكوهين والياهو غولومب) بعد اضطرابات يافا (ايار ، مايو ، ١٩٢١) الى تنظيم الهاغانا على اسس مغايرة للجيش العلني الذي طالب به جابوتنسكي . فعملوا على اساس تحويل مئات من العمال الصهيونيين الى جيش سري موزع في كل مكان من فلسطين ، يستطيع الدفاع وتوجيه الضربة قبل فوات الاوان . وردوا على جابوتنسكي بان مسألة السلاح لا تقل اهمية عن قضية الفرقة اليهودية (٢٦) . ثم تطور الخلاف بين زعماء الهاغانا وجابوتنسكي حول مفهومه لطبيعة منظمة الهاغانا والوظيفة التي يجب ان تؤديها : فأصر الزعماء على السرية التامة ، بينما دعا هو الى ضرورة اعتراف حكومة فلسطين الشرعي بالمنظمة ، لكي يتسنى لها القيام بمهماتها على اتم وجه . وزار فلسطين في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ محاولا الحصول على ترخيص رسمي من السير ويندهام ديدز لتنظيم وحدات الهاغانا وتدريبها في المدن والمستعمرات . غير ان زعماء الهاغانا كانوا بالمرصاد ورفضوا تسليم السلاح الذي في حوزتهم لقاء التصريح بقانونية المنظمة . فأصر شرتوك وغولومب على رفض الهاغانا ان تضحي بقوتها الحقيقية ، مهما كانت تلك القوة صغيرة ، على مذبح احلام جابوتنسكي الخدّاعة (٢٧) .

---

٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

٣٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ . انظر ايضا Eliahu Golomb — The History of Jewish Self-Defence in Palestine (1878-1921) Tel-Aviv.

٣٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨٤

لكن جابوتنسكي لم يشأ التخلي عن الامر بهذه السهولة وبعد ان شعر بافلات زمام الهاغانا من يده . كما انه لم ينس القول الذي تعلمه من ماتزيني ورد به على منتقديه اثناء المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، حين اتهم بان دعايته الموالية للحلفاء اثناء الحرب وضعته عمليا في مصاف الحكومة القيصرية المعروفة برجعيتها وعدائها للسامية . فراح يردد قول ماتزيني مؤكدا استعداده للتحالف مع الشيطان في سبيل العمل لاجل فلسطين . وانصرف خلال المؤتمر وبعد انتهائه الى استعادة اهتمامه القديم بالاماني القومية الاوكرانية . على امل النجاح في تنظيم جيش يهودي بحجة الدفاع عن النفس داخل اوكرانيه . وهكذا اجتمع الى صديقه القديم مكسيم انطونوفيتش سلافينسكي (Slavinsky) في آب (اغسطس) ١٩٢١ . وبدأ البحث في كيفية التعاون بين اليهود والحكومة الاوكرانية في المنفى لشن حملة عسكرية ضد حكم البولشفيك . والمعروف ان احدى الدول الغربية (بريطانيه ؟) كانت تموّل الجيش الاوكراني على الحدود الروسية ، استعدادا لشن هجوم جديد في ربيع ١٩٢٢ . فوجد جابوتنسكي فرصته المناسبة واقترح على الزعماء الاوكرانيين انشاء « جندرمة يهودية » يقودها اليهود انفسهم وتكون مسلحة جيدا لكي تعسكر في المدن التي يجري احتلالها [٣٨] . وتقوم بواجب الدفاع عن السكان المسالمين .

وحين جرى توقيع الاتفاق بين الطرفين في الرابع من ايلول (سبتمبر) ١٩٢١ حضره الكولونيل باترسون مؤكدا تأييده للقضية ومتعهدا بتقديم المساعدات . وليس بمستبعد ان يكون جابوتنسكي قد فكر باستخدام «الجندرمة اليهودية» التابعة للجيش الاوكراني لغايات اخرى تتعلق بفلسطين . على ان الدول الغربية المؤيدة للحركة الاوكرانية تخلت عن تأييدها في ربيع ١٩٢٢ واعرضت عن لعب هذه الورقة السياسية الخطيرة . فلم يتسن للمشروع ان يبصر النور . لكن جابوتنسكي تعرّض لانتقاد شديد من جماعة عمال صهيون . فراحوا يطالبونه بالاستقالة من اللجنة التنفيذية . واعربوا عن مخاوفهم من المضاعفات التي قد تحصل على الصعيد الروسي وتؤدي الى اضطهاد الصهيونيين في الاتحاد السوفياتي . كما تنادى الصهيونيون الروس من اصل اوكراني لعقد اجتماع في برلين (٧ ــ ١١ ايلول ، سبتمبر ، ١٩٢٢) استمعوا فيه الى

---

٣٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٠١ .

جابوتنسكي يعرض القضية مدافعا عن نفسه . وأقدموا على تبرئته من تهمة التدخل في الشؤون السياسية الاوكرانية ، لئلا يؤدي ذلك الى خروج المنظمة الصهيونية العالمية عن حيادها . كما شددوا على ضرورة بقائه كقوة عاملة في منصب مسؤول داخل المنظمة . واشتـــد ضغط زعماء اليسار الصهيوني مطالبا اللجنة التنفيذية برفع تقريرها الموعود حول القضية . فبعث جابوتنسكي عشية انعقاد لجنة العمل في برلين (١٨ كانون الثاني ، يناير ، ١٩٣٣) برسالة اعلن فيها استقالته من اللجنة التنفيذية واعرب فيها عن عزمه على ترك المنظمة الصهيونية . واعتبر ممثلو اليسار الصهيوني ان القضية انتهت عند هذا الحد ، فاسقطوا طلبهم مشترطين اعادة فتح الملف بكامله في حال عودة جابوتنسكي الى اللجنة والمنظمة .

اما القضية الثانية ـ بالاضافة الى اتفاق جابوتنسكي ـ سلافينسكي ـ التي لعبت دورها في اخراج جابوتنسكي من المنظمة بعد احراجه واقدامه على وضع السياسة الصهيونية في مأزق صعب ـ بحجة الدعوة الـــى « الصهيونية الكبرى » ـ فهي خلافه مع هربرت صموئيل والنزاع الذي اثاره حول كتاب تشرشل الابيض (١٩٢٢) . فبعد الاضطرابات التـــي حصلت في يافا (ربيع ١٩٢١) بايعاز وتحريض من الصهيونيين قـــام المندوب السامي البريطاني بتعيين لجنة تحقيق برئاسة القاضي الاعلى السير طوماس هايكرافت . ورفعت اللجنة تقريرها في العاشر من آب (اغسطس) ١٩٢١ لتضع اللوم على الصهيونيين في افتعال تلك الحوادث وتحمّل الصهيونية مسؤولية الاضطرابات والشغب . فجاء فيه مثلا :

« وقد اكد لنا الكثيرون وتحققنا بأنفسنا انه لولا وجود القضيـة اليهودية في فلسطين لما لاقت الحكومة اقل صعوبة في ادارة الشؤون المحلية ، ونعتقد ان كره العرب للبريطانيين نشأ عن مساعـــدة الحكومة للسياسة الصهيونية » (٣٩) .

ومضى التقرير المذكور ليتحدث بصراحة وتجرد عن المظالم التـــي يشكو منها العرب والتي لعبت دورا كبيرا في نشوب الاضطرابات . فتحدث مثلا عن عدم مراعاة منافع سكان فلسطين الاصليين في انشاء حكومـــة فلسطين ، والرضوخ للرغبات الصهيونية عمــلا بسياسة انشاء الـوطن القومي . ووصف اللجنة الصهيونية بانها اقدمت على تأليف حكومة ثانية

---

٣٩ ـ انظر النص الكامل للتقرير في كتاب وجيه علم الدين ـ **المصـــدر السابق** ، ص ٢٤٠ .

داخل الحكومة الفلسطينية . كما ذكر انعدام التكافؤ بين عدد الموظفين اليهود نسبة الى عدد نفوسهم . وشدد على الخطر الناجم عن الهجرة اليهودية وتأثيره في اقتصاديات البلاد من ناحية المزاحمة التي يتعرض لها الوطنيون في اعمالهم . ولم يفته التنبيه الى الكبريـــاء والفطرسة التي اظهرها المهاجرون اليهود ازاء العرب (٤٠) .

وحين قرأ جابوتنسكي التقرير المذكور سارع الى اتهامه بالتحيز

٤٠ــ ومما يلفت النظر في التقرير المذكور تناوله لكيفية تفسير الصهيونيين لمسألة الوطن القومي اليهودي واطلاع العرب على ذلك ، ومعرفتهم بالنوايا الصهيونية . فقد لفت انتباه اللجنة مثلا : « ان جميع ما يكتبه الصهيونيون ومن يعطف عليهم في اوروبه حول موضـــوع الصهيونية يصل في حينه الى فلسطين ويقرأ لأهاليها في المـــدن والقرى على السواء . وقد روى لنا احد الشهـــود من سكان طولكرم ، بينما كان يوضح لنا بعض الامور عن حوادث الحضيرة ، حديثا للكاتب هربرت سايدبوثام ورد في كتابه «انكلتره وفلسطين» (طبع في لندن ١٩١٨ ، ص ٢٣٥) : « ومن الامور المرغوب فيهـا تشجيع الهجرة اليهودية بكل وسيلة ممكنة ومنع الهجرة العربية» . (المصدر نفسه ، ص ٢٤٨) .

ونحن لو عدنا الى الكتاب المذكور في الفصل الذي عنوانه « مبادىء الاسترجاع » ، لوجدناه يقول في الاصل : **«It is desired to encourage Jewish immigration by every means and at the same time to discourage the immigration of Arabs». (P. 235).**

كما ذكر التقرير ان الوطنيين العـــرب ابرزوا مزيـدا من الاقوال والتصريحات الصهيونية بعد اضطرابات يافا . واستشهد باحدى العبارات الواردة في صحيفة الجويش كرونيكل (عدد ٢٧٢٠ ، ٢٠ حزيران ، يونيو ، ١٩٢١) وهي القائلة : ان التفسير الحقيقـــي للقضية الفلسطينية ــ والحل الوحيد لمسألة فلسطين ــ هو اعطاء اليهود كيهود السلطة التامة لجعل فلسطين يهودية والاعتراف بها انها يهودية ، كما ان انجلتره انجليزية وكنده كندية » . ولا غرو فقــد وردت هذه العبارة اثنــاء تناولنا لافكار هربرت سايدبوثام بالذات في فصل سابق !

وعدم التجرد . واعترف بان تحقيقات اللجنة « سوف تلحق بنا الكثير من الاذى » . وناشد الوفد الصهيوني الذي تقرر ارساله الى فلسطين في مؤتمر كارلسباد ان يخبر المندوب السامي صراحة بالنتائج المترتبة على سياسته ويلفت نظره الى ضرورة القيام بتغيير جذري . غير ان الوفد لم يذهب الى فلسطين ، بل جاء جابوتنسكي في خريف العام التالي (١٩٢٢) واجتمع الى هربرت صموئيل محملا سياسة الحكومة الفلسطينية مسؤولية المصاعب المالية الخطيرة التي يعانيها النشاط الصهيوني في البلاد ومعلنا ان استمرار تلك السياسة يهدد بالافلاس المحتوم . غير ان اللجنة التنفيذية الصهيونية لم تكن على استعداد للقبول بمزاعم جابوتنسكي القائلة ان هربرت صموئيل الصهيوني ينهج سياسة تعمل على تقويض اركان الموقف السياسي الصهيوني ودعائمه (٤١) .

وحين اصدر المستر تشرشل كتابه الابيض في ١ تموز (يوليو) ١٩٢٢ بعد الحاح هربرت صموئيل وبغية تهدئة خواطر العرب عن طريق تزويدهم والهائهم بتفسير مقيّد لوعد بلفور والاهداف الصهيونية ، وعرضت مسودّة الكتاب على اللجنة التنفيذية (٣ حزيران ، يونيو ، ١٩٢٢) ، لم يتخلف جابوتنسكي عن التوقيع الى جانب بقية الزملاء الصهيونيين ، بل اغتنم الفرصة بعدخمس سنوات لاتهام اللجنة التي كان في عدادها بالانهزامية . وجاء مؤلف سيرة حياته ليؤكد لنا ان جابوتنسكي رفض منذ البداية اعطاء الكتاب الابيض تلك الاهمية الكبرى او اعتباره ضربة رئيسية موجهة « للحقوق والمصالح الصهيونية (٤٢) » . ولا ندري ما اذا كان اقباله على توقيع الوثيقة آنذاك يشكل جزءا متمما لدعوة الصهيونية الكبرى التي نادى بها وحمل لواءها على صورة الاقتراح بتأليف وزارة تضم الجبابرة في الحركة وتمثل سائر الاتجاهات والميول . فمن المؤكد انه لم يستقل من اللجنة بعد قبول الكتاب الابيض ، بل راح يبحث عن مسوغات جديدة للعدول عن موقفه والعودة الى قواعده السابقة والاصلية .

وهكذا تقدم من جديد الى لجنة العمل بعدد من الاقتراحات التي تضمنتها المذكرة التي بعث بها الى جميع اعضاء اللجنة التنفيذية في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ . وقد لخصها شيختمان على

---

٤١ ــ انظر قصة جابوتنسكي ــ **المصدر السابق** ، ص ٤١٧ ــ ٤١٩ .
٤٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٢٣ .

الشكل الاتي :

١ ــ ابلاغ الحكومة البريطانية وادارة فلسطين ان الاستمرار في السياسة الحالية بفلسطين يهدد الحركة الصهيونية بالخراب المالي ويوصل مشاريعنا الى الافلاس .

٢ ــ الاعلان بان وجود المعادين للصهيونية او المعادين للسامية في صفوف المسؤولين البريطانيين بحكومة فلسطين يتنافى مع صك الانتداب : والطلب الى اللجنة التنفيذية ان تصر على سحبهم .

٣ ــ التصريح العلني ، نظرا للافتراض الشائع بان الصهيونية قد تخلت عن مثلها الاعلى ، بان الحركة ما زالت تقوم على اساس غايتها التاريخية ، وان التزاماتنا حيال الدولة المنتدبة لا تسمح بأي تفسير آخر » (٤٢) .

غير ان لجنة العمل لم ترحب باقتراحات جابوتنسكي المتطرفة اثناء جلستها المنعقدة في برلين (كانون الثاني ، يناير ، ١٩٢٣) . ووجه معظم اعضائها انتقادات شديدة اللهجة لموقف جابوتنسكي واجتهاداته الخاصة ، طالبين اليه تقديم استقالته او التقيد بقرار الاكثرية ، نظرا لان اللجنة التنفيذية هي بمثابة الحكومة الصهيونية . وهكذا استقال فلاديمير جابوتنسكي ــ داعية الصهيونية الكبرى ووزارة الجبابرة ــ من اللجنة والمنظمة في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ . وانتصر وايزمان ومؤيدوه في اللجنة والحركة الصهيونية . كما ان جابوتنسكي انصرف الى العمل الصحفي. فاستطاع الانضمام الى هيئة تحرير صحيفة (Rasswyet) الناطقة رسميا بلسان اتحاد الصهيونيين الروس الاوكرانيين في برلين . وهي التي ايدت مواقفه السابقة بلا قيد او شرط . ثم جلب انصاره الى رئاسة التحرير واصبحت الصحيفة المذكورة لسان حاله منذ مطلع تموز (يوليو) ١٩٢٣ . وراح يعمل بصمت وهدوء لتمهيد السبيل امام خطوته التالية .

---

٤٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٢٧ .

٤ ـ التصحيح والتحريف

« لا سياسة بعد اليوم بالنسبة لي .
حين يستقيل وايزمان ـ او يجبر على
الاستقالة ـ سوف تكون له هواية :
الكيمياء . اما هوايتي فهي الادب .
انني انسان بيتوتي في الصميم ،
والناس يجرونني دوما الى
السياسة » .

(جابوتنسكي)

لم يطل ابتعاد جابوتنسكي عن حقل النشاط الفعلي في السياسة الصهيونية ، بل راح يتابع اتصالاته بالشباب المتطرّف في المنظمات الصهيونية . واتخذ من عمله في ادارة تحرير الصحيفة الاسبوعية باللغة الروسية (Rasswyet) وسيلة لتأمين عودته الى مسرح النشاط الصهيوني . وحين اصبح وضع الصحيفة حرجا من الناحية المالية ، تطوّع بنفسه للقيام بجولة في بلدان البلطيق (ليتوانيه ولاتفيه واستونيه) متذرعا بالقاء سلسلة من المحاضرات حول الصهيونية والنشاط الفعّال (Activism) . وسافر في خريف ١٩٢٣ لكي يتصل هناك بالمثقفين اليهود والطلاب وعدد من انصاره ومؤيديه . فظهر عليه فجأة عدوله عن الاقتصار على « التوعية السياسية » والابتعاد عن النشاط الصهيوني المنظم (٤٤) . ووجد في الجمعيات والمنظمات اليهودية هناك تربة خصبة لافكاره ودعوته المتعلقة بالنشاط الفعّال . فقام الطلاب الثانويون في مدينة ريغا (Riga) بتنظيم انفسهم في جماعة عرفت منذ ذلك الحين بـ « منظمة الشباب الصهيوني الناشط باسم جوزيف ترومبلدور (٤٥) » . واتهمته الصحافة

---

٤٤ ـ أنظر الجزء الثاني من قصة جابوتنسكي ، ص ٣١ .

٤٥ ـ Histadrut ha-Noar ha' Zioni ha' Activisti al Shem Joseph Trumpeldor.

الصهيونية الموالية للمنظمة بانه لا يتورع عن المجاهرة بمطالب متطرفة ؛ كما نسبت اليه اعطاء العالم اجمع سلاحا جديـــدا لاستعماله ضـــد الصهيونية . فهو يعطي الناس ، في نظرها ، فكرة خاطئة تقول بـــان الصهيونيين ينوون السيطرة على عرب فلسطين بقوة السلاح . ويقدم على مغامرة سوف تلحق الاذى بقضية التفاهم مع العـــرب . كما ان محاضراته ليست سوى حملة تشن ضد الدعائـــم المقدسة للحركـــة الصهيونية . ويؤكد لنا صديقه شيختمان بان هذه الهجمات التي تعرّض لها جابوتنسكي لم يكن من نتيجتها سوى تقوية عزمه وتصميمه علـــى التشمير عن ساعد العمل (٤٦) .

وفي شهر آذار (مارس) ١٩٢٤ اخذت الصحيفة الناطقـــة بلسان جابوتنسكي تنشر سلسلة من المقالات تحت العنوان الشامل «برنامجنا» ، بعد سلسلة من الاجتماعات والمداولات المغلقة التي عقدتها هيئة التحرير . وساهم في كتابة تلك المقالات ، بالاضافة الى جابوتنسكي نفسه ، الدكتور بروتزكوس (Brutzkus) وغبشتاين ، وكلينوف ، والدكتـور بيرلمان ، واسرائيل روزوف وجوزيف شيختمان (بالذات ــ مؤلـف سيرة حياة جابوتنسكي) وترينوس . فعدّد جابوتنسكي في مقالة عنوانها « الهجوم السياسي » النقاط الاساسية في البرنامج الذي وضعوه على الشكـل الاتـي :

١ ــ هدف الصهيونية ــ الدولة اليهودية
٢ ــ مساحة الدولة ــ على ضفتي الاردن
٣ ــ الإسلوب ــ الاستعمار الجماعي
٤ ــ النظام المالي ــ القرض القومي (٤٧) .

وأشار الى ضرورة « عسكرة » (Militarization) الشباب اليهودي في فلسطين والدياسبورا كاحدى المهمات المباشرة للصهيونية . بينما راح انصاره يفتحون مكاتب تنظيمية في عدد من العواصم الاوروبية ، ويبعثون بالمنشورات التي تتضمن تحليلا نقديا للموقف السياسي في القضيـــة الصهيونية بالاضافة الى برنامج العمل المتفق عليه . وهكـــذا حملت المطبوعات المرسلة الى الزعماء والمؤيدين العبارة التالية في اعلى الصفحة ، لتعلن المصدر الذي جاءت منه :

---

٤٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٤٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

«رابطة تصحيح السياسة الصهيونية : المكتب المؤقت للمنظمة» (٤٨).

وفي منتصف ايار (مايو) ١٩٢٤ توقفت الصحيفة الاسبوعية عن الصدور ، وسافر جابوتنسكي الى باريس ومنها الى فيينه بعد زيارة المانيه والنمسه وتشيكوسلوفاكيه في محاولة لجمع الاموال اللازمة لانشاء المكتب الجديد واحياء الصحيفة . فالتقى بالصهيوني آرثور كوستلر وكسبه الى صفوف المعارضة والدعوة للنشاط الفعّال . ثم عاد الى قواعده الجديدة في باريس ليبعث من هناك بعلم وخبر في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ الى عدد من مؤيديه يعلن فيه انشاء مكتب تنظيمي لجميع الهيئات المعارضة وتأسيس جماعات جديدة . وتوالت الاجتماعات في باريس لانجاز الاعمال التحضيرية ، فوقع اختيار جابوتنسكي على اقتراح احد المتحمسين الرامي الى تسمية اتباع الحركة الجديدة بـ « التصحيحيين » (Revisionists) ، بدلا من « العاملين » او دعاة النشاط الفعال (Activists) او جماعة راسفيت (Rasswyet Group) وهكذا اصبح تصوّر جابوتنسكي للرسالة التي نذر نفسه لادائها : تصحيح برنامج المنظمة الصهيونية وتكتيكها وفقا للوضع الجديد (٤٩) » . بينما كان جابوتنسكي يعلن لصديقه شيختمان قبل عام واحد : « لقد عدت الى الميدان من جديد ، وسوف ابذل ما في وسعي لاطلاق حركة هرتزلية صحيحة (٥٠) » . وعقدت الحركة الجديدة اولى اجتماعاتها في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٥ ، وفي الحي اللاتيني بباريس ، تحت الاسم التالي : «مؤتمر رابطة الصهيونيين التصحيحيين » . فجرى انتخاب لجنة مركزية من ١٢ عضوا ، يقيم نصفهم في باريس . وراحت اللجنة الجديدة تنظر في مسألة اشتراك « المنظمة التصحيحية » في المؤتمر الصهيوني الرابع عشر (فيينه ١٩٢٥) . بينما عارض جابوتنسكي بشدة فكرة الذهاب الى المؤتمر .

غير ان اللجنة تمكنت من اقناعه بتزعّم « القائمة التصحيحية » في انتخابات المؤتمر بفلسطين . ووجد الفرصة مناسبة لاحباط مساعي وايزمان الرامية الى توسيع الوكالة اليهودية لفلسطين بادخال عدد من

---

٤٨ ــ Ligue Pour la Révision de la Politique Sioniste, Bureau Provisoire d'Organisation.

٤٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

٥٠ ــ المصدر نفسه .

اليهود اللاصهيونيين ، الاثرياء والنافذين على اساس المناصفة مع الصهيونيين . فزعم ان المنظمة الصهيونية العالمية اوشكت ان تفقد سيطرتها على الوكالة اليهودية ، وبرّر معارضته الشديدة بقوله ان عملية التوسيع هذه توازي التنازل عن السيادة المنوطة بالمؤتمر الصهيوني المنتخب ديمقراطيا . وذهب الى المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ليعلن معارضته ويجد متنفسا لانتقاداته . بينما هب الكثيرون للرد على آرائه . فاتهمه شماريا ليفين بالدعوة لفلسفة صهيونية اشبه بالآلية (mechanistic) وفضح نواياه الرامية الى « ارسال جنود لفلسطين قبل ان نوجد اليهود هناك » (٥١) وذكّره البعض الاخر بتساويه في المسؤولية مع سائر اعضاء اللجنة التنفيذية الذين قبلوا كتاب تشرشل الابيض . بينما راح وايزمان يرد عليه مشيرا الى المطلب الذي تقدم به لاقامة « حكومة استعمار » في فلسطين . فذكّره بان فلسطين ليست روديسيه ، بل تقع وسط العالم العربي . وقال له ان المطالبة بجيش يهودي في الظرف الراهن لا تجدي نفعا بل تحدث ضررا . ثم ختم كلامه بان مفتاح الوضع الحالي يوجد على صعيد اخر يقضي بفتح الشرق الادنى امام المبادرة اليهودية في جو من الصداقة الحقة والتعاون مع العرب » (٥٢) .

وهكذا برزت الحركة الصهيونية التصحيحية الى حيّز الوجود ، فجاء تصحيحها لبرنامج بازل الصهيوني على الشكل التالي الذي اصبح اساس برنامجها الجديد :

« ان غاية الصهيونية هي تحويل فلسطين تدريجيا (مع شرقي الاردن) الى كومنولث يهودي ، اي الى كومنولث يحكم نفسه بنفسه في ظل اكثرية يهودية قائمة . وكل تفسير اخر للصهيونية ، خصوصا ما ورد في الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ ، لا بد من اعتباره غير صحيح » (٥٣) .

---

٥١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

٥٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

٥٣ـ ويبدو ان هذه الصيغة التصحيحية ليست سوى ترديد للمعادلة التي صرح بها هربرت صموئيل اثناء الخطاب الذي القاه في دار الاوبرا بلندن ، ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ـ (انظر المصدر نفسه ، ص ٣٨) .

واصبحت الحركة الجديدة المعروفة باتحاد الصهيونيين التصحيحيين جزءا لا يتجزأ من المنظمة الصهيونية العالمية ، مع احتفاظها لنفسها بحق القيام بدعاية مستقلة في الاوساط اليهودية وغير اليهودية . فاعتبرت نفسها مؤهلة للقيام بعملية تصحيح للبرنامج الصهيوني الذي تم وضعه في بازل عام ١٨٩٧ ، بينما هي في الواقع تلجأ الى المصارحة والبوح بما ترددت الصهيونية الرسمية في اعلانه خوفا من افتضاح نواياها . وليس هناك بالتالي من فارق كبير بين التصحيح والتحريف من هذه الناحية ، الا فيما عدا الاسلوب الذي يعتمده كل من الفريقين الصهيونيين : جناح وايزمان ومنظمة جابوتنسكي الجديدة . ومما تجدر ملاحظته ان بعض المصادر العربية العائدة الى الثلاثينات من هذا القرن قد اختارت لفظة الاصلاحيين (Reformists) كترجمة للتحريفيين او التصحيحيين (Revisionists) .وربما كان انصار جابوتنسكي تحريفيين من زاوية المنظمة الصهيونية وتصحيحيين في نظر زعيمهم ، الذي يدّعي ان برنامجه اقرب ما يكون الى الحركة الهرتزلية الصحيحة .

والتوسعية لا تنتسب الى فريق صهيوني دون الآخر ، بل تجمع بينهما في احضان المنظمة الصهيونية العالمية : فريق يجاهر بها غير عابىء بما يترتب على تلك المجاهرة ، والفريق الآخر يعمل لها بصمت وهدوء مؤكدا للملأ ان دعاة التطرف ينتمون الى معسكر الاقلية ولا مكان لهم في صفوف الصهيونية الرسمية . فلنتابع قصة جابوتنسكي وحركته الجديدة خلال السنوات العشر التالية ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥ .

لكي نتعرف على ذلك « الجديد » الذي ادخلته ونقف على «التصحيح» الذي قامت عليه . وننتقل من هناك الى دور صهيونية جابوتنسكي هذه في قيام اسرائيل والملابسات التي تحيط بها منذ وفاة مؤسسها عام ١٩٤٠ حتى الزمن الحاضر . ولا يسعنا سوى التذكير بان فكرة « الوزارة الصهيونية الكبرى » قد تحققت الى حد ما عشية الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عندما انضم ممثل حزب حيروت الصهيوني الارهابي ، وخليفة فلاديمير جابوتنسكي ، (مناحيم بيغين) الى الوزارة الحربية التي الفها ليفي اشكول وجعله فيها وزير دولة بلا حقيبة وزارية معينة . كما سوف تطالعنا ثمار الدعوة التي غرسها جابوتنسكي من خلال الحركة واسعة النطاق داخل اسرائيل الان والتي تنادي باسرائيل الكبرى وتجاهر بنواياها التوسعية المعروفة ، تحت ستار متطلبات « الامن » و « الدفاع » و « الاستقرار » .

« بـائع الصهيونية المتجول »

« قد اكون كاتبا عديم اللياقة ،
أو رجلا سيئا بكل معنى الكلمة ، فما
اهمية ذلك ؟ وما العمل اذا كـان
للمعلم صوت بغيض ؟ ان المسألة هي
ما اذا كانت تعاليمه صحيحة » .

(جابوتنسكي ، ١٩٢٦)

أخذ فلاديمير جابوتنسكي على عاتقه ، منذ قيام اتحاد الصهيونيين التحريفيين (او التصحيحيين ؛ حتى وفاته ، ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠ ، مسؤولية الدعوة للفكرة التوسعيـة والتبشير بالتعاليم التي جعلها ملازمة لتلك الفكرة . نتابع حمـلته الصليبية في سبيل تحقيق الصهيونية الكبرى . وقام بجولات دعائية لكسب الانصار والمؤيدين واستقطاب الناقمين على سيـاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، والمعارضين للاتجاه الرامي نحـو توسيـع الوكالة اليهودية لفلسطين وادخال عدد من اللاصهيونـيين البارزيـن في العالم الى عضويتها على اساس المناصفة . واتجهـت انظاره نحو الولايات المتحدة الاميركية ، بعد ان اتم جولته في بلدان اوروبه الشرقيـة والوسطى . فقصدها في مطلع ١٩٢٦ وسبقـه مؤيـدوه الاميركيون الى نشر كراس يتضمن المبادىء الاساسية للبـرنامـج التحريفي (١) . ونصت هذه المبادىء على امرين رئيسيين بالنسبـة لجابوتنسكي : الدعوة للمضي في تشكيل جيش يهودي مستقل ، والمناداة بتنفيـذ الاصلاح الزراعي في فلسطين ، على ان يؤول هذا الاصلاح الـى نزع ملكية الاراضي العربية بحجة كونها تخص طبقة الافندية ، ولانها

---

١ ـ Revisionism : The Essentials of its Program
انظر شيختمان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

متروكة دون حراثة وزراعة . بينما نجد الصهيونيين المنتمين الى الحركة العمالية يرمون الى الاستيلاء على تلك الاراضي عن طريق الشراء بالاموال المجباة من يهود العالم .

وراح جابوتنسكي خلال المدة التي قضاها في اميركه يسعى الى التقرب من شتى المنظمات والهيئات الصهيونية . فكانت جمعية ابناء صهيون (٢) ، في طليعة الجمعيات النافذة التي ركز عليها جهوده الدعائية ، محاولا حمل لجنتها التنفيذية على اعلان تبنيها للبرنامج التحريفي واعتناقها للاراء التي يبشر بها معلم الصهيونية التوسعية المتجول . وقد بادرت الجمعية المذكورة الى انشاء « المؤسسة الصناعية اليهودية » (Judea Industrial Corporation) التي قدمت مساهمات فعالة في حقل الاستعمار الاقتصادي الصهيوني بفلسطين . فهي صاحبة الفضل في تأسيس « شركة التأمين اليهودية » التي لجأت الى تشجيع الرهونات بغية وضع يدها على الاراضي والممتلكات المرهونة . وتمكنت خلال فترة قصيرة من افتتاح ثلاثة فروع لها في فلسطين ، بالاضافة الى فرعين في مصر . كما عمدت الى تأسيس « شركة المعارض والاسواق الفلسطينية » التي أشرفت على اقامة المعارض الكبرى للبضائع والمصنوعات اليهودية منذ العام ١٩٢٤ . واستمرت في نشاطاتها لتؤمن كل عامين معرضا يأتي بمثابة التغطية لادخال المزيد من المهاجرين اليهود تحت ستار الاشتراك في المعرض المزيف (٣) . ولا غرو فقد لعبت

---

٢ ــ Order of the «Sons of Zion» : تأسست عام ١٩٠٩ ، وبلغ تعداد اعضائها آنذاك حوالي خمسة الاف عضوا .

٣ ــ ذكر عيسى السفري في كتابه « فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية » (يافا ، ١٩٣٧) ان الجمعيات الصهيونية تلجأ في عملية تهريب اليهود الى فلسطين للطرق التالية :

اولا ــ المكابياد ، نسبة الى المكابيين القدامى ، وهو على غرار الاولمبياد أو الالعاب الاولمبية ، كناية عن حفلات رياضية ينظمها الصهيونيون مرة كل عامين ويشترك فيها ظاهريا عدد لا يستهان به من يهود العالم الذين يبقون في فلسطين بعد دخولهم اليها في عداد اللاعبين الرسميين. وقد اقيم المكابياد الاول عام ١٩٢٧ .

افكار جابوتنسكي والتنظيمات الرياضية والكشفية والعسكرية التي تعهدها بعنايته ورعايته دورا بارزا في حقول هذه النشاطات . ولجأ التحريفيون الى الالعاب الرياضية فاتخذوا منها ستارا لتدريب الشبان والشابات على فنون القتال . واستغلوا مباريات المكابياد لادخال اعداد كبيرة منهم الى البلاد كي تكون على استعداد للانخراط في سلك الجيش الصهيوني .

ولم يكتف جابوتنسكي بالمكاسب التي حققها في صفوف الصهيونيين الاميركيين . بل وزع نشاطاته بين انصاره في فلسطين والطلاب اليهود في اوروبه ، محاولا تكتيلهم وتحريضهم ضد المنظمة الصهيونية بحجة الدفاع عن فكرة الجامعة العبرية وخوفا من تحولها الى مجرد معهد للبحوث . وبقي على معارضته الشديدة لاشراك اليهود غير الصهيونيين في الوكالة اليهودية ، فلم يوافق الا على فكرة التعاون معهم على الصعيد الاقتصادي البحت .

وحين قام باحدى زياراته لفلسطين (تشرين الاول ، اكتوبر ، ١٩٢٦) ، حاول اقناع اعضاء المجلس الوطني اليهودي (الفاد ليئومي) بالتصويت الى جانب الاقتراح الذي يطالب حكومة الانتداب بتشكيل وحدة عسكرية يهودية داخل قوات الحدود في شرقي الاردن . ولم يشأ التخلي عن حلمه القديم ؛ زاعما بان دعوته للصهيونية العدوانية التي

ثانيا ــ المعارض ــ حيث يدخل الى فلسطين تحت ستارها الوف من المهاجرين غير الشرعيين على صورة عارضين مزيفين ، حاملين معهم البضائع الكثيرة المعفاة من الرسوم الجمركية لبيعها من العرب وتحويل الارباح الى الصندوق القومي اليهودي في ظل الشعار الصهيوني الداعي الى شراء شبر ارض في فلسطين . ثم يقيم اولئك العارضون في فلسطين بصورة دائمة .

ثالثا ــ قوة الاستيعاب ــ وهذه « تبنى على تقارير صورية يقدمها اصحاب المعامل اليهودية وورش البناء يذكرون فيها انهم في حاجة ماسة الى العمال . ثم تقدم الوكالة اليهودية هذه التقارير الى الحكومة فتصادق عليها وتصدر امرها باعطاء شهادات الهجرة » . (انظر ــ المصدر نفسه ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦) .

تتوسل العنف والقوة ليست مـن قبيل التحريف ، بل هي اقرب الـى التصحيح منها الى التحريف :

« نحـن نناضل في سبيل المفهوم الهرتزلي القديم ، ضد نزعات المنفى التي تسيطر عـلى الحركة الصهيونيـة في الظـروف الحاضرة » (٤) .

كما كرس جهوده لتلقين الشباب اليهودي افكار الفتوة الصهيونية وحمـلهم على ممارسة يهودية العضلات التي بشر بها ماكس نـوردو . وتمنـى على الصهيونيين الدائرين في فلك تعاليمه ان ينموا في انفسهـم « عقلية الغزاة » الطامعين بالاستيلاء على فلسطين بحد السيف . فحين حضر اجتماع احـدى المنظمـات الطلابيـة اليهوديـة بمدينـة فيينـه (١٩٢٧) واصغى الى مدرب جمعية « يونيتاس » فيما هو يعرب عـن عزمه على التخلص مـن جميع الطقوس والشعائر الموروثة عن الجمعيات الالمانيـة ، هب واقفا ليعلن معارضته الشـديدة للفـكرة وليؤكد تعلقه بعادة المبارزة بالسيف ــ كما فعل هرتزل من قبله . وخاطب المجتمعين بقولـه :

« بامكانكم ان تلغوا كل شيء ــ القلانس والاشرطـة والشارات الملونة ، الشراب المفرط والاناشيـد ، كل شيء ، ما عدا السيف ، يجب ان تحتفظوا بالسيف . فالقتال بالسيف ليس بدعة المانية ، بل يرجع تاريخه الى اجدادنا القـدامى . وعنهم اخـذنا التوراة والسيف » (٥) .

ولـم تـكن دعـوة الابقـاء عـلى السـيف هـذه سـوى الجزء المتمم للنـداء الـذي طـالما وجهه للشـباب اليهودي كي يقبـل عـلى الانخراط في سلك الجيش الصهيوني بغية القيام بتحرير فلسطين مـن العرب ! ولطالما اعلن جابوتنسكي على رؤوس الاشهاد ــ وفي مقاله عن « الفرقة اليهودية » المنشور في كتاب الكيرين هايسود بشكل خاص ــ ان غايته مـن وراء الابقاء على القوات اليهودية في فلسطين ومحاربـة المحاولات الرامية الى تسريح افراد الفرقة اليهودية ليست مجـرد الحؤول دون تجدد الاضطرابات المناوئة للصهيونية . بل « ان تبريـر الابقاء عليها في الخدمة الفعلية يرجع الى دوافع اعمق وابعد من ذلـك

---

٤ ــ انظر شيختمان ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٧٩ .

بكثير » (٦) . فهو يأتي على ذكر الدور الذي يمكن للجيش الصهيوني ان يلعبه في الدفاع عن قناة السويس وحماية المصالح البريطانية ، مؤكدا ان فلسطين مؤهلة للمساهمة في ذلك بحكم مركزها المتاز . ولا ينسى التذكير بان العناصر العربية مشكوك بولائها لروح الإنتداب ، كما يشدد على الاهمية البالغة ، من الناحيتين السياسية والاستعمارية ، التي تجعل من الجندي اليهودي المتفوق احدى الدعامات الرئيسية في تدعيم النشاط الصهيوني بفلسطين وتوسيع نطاقه .

وفي اواخر عام ١٩٢٨ نجده يدعو ، مثلا ، الى حركة ترمي لتوثيق عرى الصلات المالية والاقتصادية بين الصهيونيين في فلسطين وسائر اليهود في العالم (الدياسبورا) . ويرفع شعارا يناشد يهود العالم شراء المنتوجات اليهودية الصادرة من فلسطين ، (Jewish Palestine Products for the Diaspora) بغية تحويل علاقة الصدقة والاحسان الى روابط متينة تقوم على الشرطين التاليين :

١ ـ اقدام يهود الدياسبورا على الاحتفاظ بمدخراتهم في فلسطين

٢ ـ « فلسطين تنتج والدياسبورا تشتري » (٧) .

وحين صدر كتاب الكولونيل جوسايا ودجوود (Wedgwood) تحت عنوان « الدومنيون السابعة » (٨) . سارع جابوتنسكي الى تبني الفكرة التي تضمنها الكتاب لجعل فلسطين بمثابة الدومينون السابعة داخل الكومنولت البريطاني . وكرر مطلبه الاساسي بايجاد « حكم مستعمر » (بكسر الميم الثانية) في فلسطين («a Colonizing Regime») ثم ترأس الرابطة التي تألفت في القدس (ايار ، مايو ، ١٩٢٩) باسم « رابطة الدومينون السابعة » . وذهب الى المؤتمر الصهيوني السادس عشر (زوريخ ، ١٩٢٩) ليلقي خطابه محاولا المجاهرة بتعريف الافكار الرئيسية في الاصطلاح الصهيوني التصحيحي على النمط التالي :

« ما هو الوطن القومي اليهودي ؟

---

٦ ـ انظر « كتاب الكيرين هايسود » ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ـ ١٤٩ .

٧ ـ شيختمان ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

٨ ـ Col. Josiah Wedgwood — **The Seventh Dominion** (London, 1928).

« — انه دولة قومية ، دولة تخضع لسيطرة الاكثرية اليهودية ، وتقوم فيها ارادة الشعب اليهودي بتقرير اشكال الحياة الجماعية واساليبها .

« ما هي فلسطين ؟

« — انها مساحة من الارض ميزتها الجغرافية الاساسية هي ان نهر الاردن لا يجري على حدودها ، بل في وسطها » .

« ماذا تعني الصهيونية ؟

« — تهدف الصهيونية الى ايجاد حل فعلي للمأساة السياسية والاقتصادية والثقافية التي يعاني منها ملايين اليهود » (٩) .

ولا يكتفي جابوتنسكي باطلاق هذه التعريفات التي جعلها من صلب برنامجه الصهيوني التصحيحي ، بل يعمد الى توضيح غاية الصهيونية بانها ليست مجرد تأمين اكثرية يهودية في فلسطين . وهكذا يصبح الشعار الصهيوني كما يفهمه جابوتنسكي ويعمل في ضوئه : ايجاد مجال او مدى حيوي (Living Space) للملايين اليهودية على ضفتي الاردن(١٠). مما يضعه دون تردد في مصاف الدعاة التوسعيين الذين حفلت بهم الحركات الفاشية والنازية في أوروبه والعالم آنذاك . وقد كشف المؤرخ هانز كوهن في احدى مقالاته النقدية التي تناول فيها بعض الكتب عن الايديولوجية الصهيونية بان افكار جابوتنسكي قد نمت وترعرعت في المناخ الفكري السائد آنذاك في كل من ايطاليه وفرنسه . واعتبر نظرة جابوتنسكي الى الكون والانسان وثيقة الصلة بالفكرة القومية السياسية المبنية على القوة والسلطان والمتشربة بالروح المحافظة . فلم يفته التنبيه الى كون هذه النظرة هي نفسها النظرة التي تستحوذ على عقول الشباب في ايطاليه وفرنسه والمانيه اليوم (اي عام ١٩٢٧) . كما انه لم يجد جابوتنسكي تحريفيا الى ذلك الحد البعيد ، فيما لو نظرنا اليه من زاوية التفكير الهرتزلي :

« ان جابوتنسكي في جميع النقاط الحاسمة لنظريته تلميذ لهرتزل اثناء عهد هذا الاخير بتأليف كراس الدولة اليهودية »(١١) .

---

٩ — راجع شيختمان ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

١٠ — «Living Space for millions; on both sides of the Jordan»

١١ — انظر مقالة هانز كوهن : «Bücher zur Zionistischen Ideologie» من ضمن سلسلة المقالات المجموعة في الكتاب التالي :

فهو ينطلق من النقطة ذاتها التي انطلق منها هرتزل ونوردو في حديثهما عن محنة اليهود في بلدان اوروبه الشرقية . ويرى الخروج من المحنة عن طريق الاستعمار اليهودي وسلطة الدولة اليهودية والقوة العسكرية كأداة لتنفيذ ذلك . ولا يتحدث عن السلطة السياسية وكيان الدولة الا من خلال القوة العسكرية التي تدعمها . كما انه يعرف تمام المعرفة بان مسألة ايجاد الاكثرية اليهودية في فلسطين تصطدم بمعارضة شديدة يحتمها واقع البلاد . فالاكثرية التي ينشدها لا يمكن تحقيقها الا ضد ارادة العرب من سكان البلاد الاصليين . لذلك تصبح الدعوة التي حمل لواءها جابوتنسكي صريحة للغاية : تنفيذ الاستعمار الصهيوني في ظل القوة والسلاح ، والا كان من المتعذر تحقيق الصهيونية واهدافها .

والمنطق الذي يأخذ به جابوتنسكي لا يمت الى السلام والعدالة بشيء على الاطلاق . فالتفكير الصليبي الذي يتبنّاه ويضمّنه تعاليمه يقوم في جوهره على التقليل من شأن اليقظة القومية لدى الشعوب العربية الشرقية وغرس بذور العداوة الابدية بين العرب واليهود . وقد دفعه تنكره الصهيوني الفاشستي للاماني العربية فأعلنها صراحة بقوله :

« لا يمكننا حتى ولا دعم الحركة العربية ، لانها تقف منا موقف العداء في الظرف الحالي . ونفرح من صميم القلب لكل فشل تمنى به هذه الحركة ، ليس فقط في شرقي الاردن المجاور او في سوريه فحسب ، بل وفي مراكش ايضا » (١٢) .

وقد علق هانز كوهن على افكار جابوتنسكي وعدائه الصهيوني المتعصب لكل ما هو عربي او شرقي بقوله الذي جاء خير مصداق للمسلك الصهيوني بصورة عامة ، فجاءت الاحداث اللاحقة خلال اربعين عاما لتشهد على صحة ذلك القول . واتى عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بمثابة البرهان القاطع على طبيعة الصهيونية التي تتعدى التحريف والتصحيح لتظهر في ميزان التاريخ على الصورة التالية :

« فمن سخريات القدر العجيبة ان الشعب الذي عاش في الغرب

Hans Kohn & Robert Weltsch — **Zionistische Politik** (Verlag Dr. R. Färber, Mährisch — Ostrau, Tschechoslowakei, 1927), S. 118.

١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

بمثابة شعب شرقي منبوذ قد اسكرته الإن خمرة الاندماج من القرن الماضي ، فصار يريد العودة الى الشرق على صورة الشعب الغربي السيد المتفوق » (١٣) .

ويمكننا ان نضيف الى هذا التعليق ، في معرض الحديث عن التعاليم التي بشر بها جابوتنسكي ، بان الحركة الصهيونية التوسعية بجميع الاحزاب والفئات التي تنضوي تحت لوائها وتعمل بوحي افكارها ، وجميع الزعماء والقادة الذين تعاقبوا على توجيهها ، لا تخرج عن كونها انعكاسا مبطنا للنهج الذي سار عليه فلاديمير جابوتنسكي . ولا نريد الاعتقاد بان جابوتنسكي يكاد ينفرد وحده بالنسج على منوال الاتجاه الصهيوني الموصوف بالتطرف والنوايا التوسعية . او ان خلفاء جابوتنسكي والعاملين بوحي تعاليمه لا يتعدون نطاق الحزب الذي استقطب اعضاءه من صفوف المنظمات العسكرية والارهابية العاملة حتى عشية قيام اسرائيل ، لكي تتحول غداة اغتصاب فلسطين الى « حزب حيروت » القائم على « حرية الارهاب » . فالميل الى اعتقاد من هذا القبيل يوقع صاحبه في شباك الدعاية الصهيونية التي تنشرها اجهزة الدولة الاسرائيلية في فلسطين المحتلة . اذ عكفت خلال العشرين عاما التي انقضت على قيام الدولة الصهيونية على ترديد نغمة التنصل من افكار حيروت والابتعاد عن اراء جابوتنسكي ، محاولة اقناع العالم بان « حيروت » لا يمثل سوى القطاع الصغير المعارض للحكم القائم . وعمدت الى ابعاد زعمائه عن كرسي الحكم لاسباب شخصية ورواسب خلافات ماضية ، اكثر من زعمها بان الابعاد يرجع الى عوامل عقائدية . وساعدها ذلك على الظهور بمظهر تقدمي مسالم ، بينما جعلت انصار جابوتنسكي وحدهم في صفوف المعارضة الاقلية ، ناسبة اليهم كل تطرف او ميول توسعية وعدوانية . ولم تعدل عن هذا الاسلوب الا عشية عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ، وذلك تحت ستار تشكيل حكومة للتكتل الوطني تضم مختلف العناصر والفئات الموجودة في البلاد . فتم وصول الارهابي مناحيم بيغين ، وتلميذ جابوتنسكي ، الى الحكم حيث اعطي حقيبة وزير للدولة . وبيغين هو صاحب القول التالي :

« لن يكون سلام لشعب اسرائيل ، ولا لارض اسرائيل ، حتى ولا للعرب ، ما دمنا لم نحرر وطننا بأجمعه ، حتى ولو وقعنا معاهدة

---

١٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

الصلح ... » (٧ نيسان ، أبريل ، ١٩٥٠) بينما راح الشباب الصهيوني في منظمات « بيطار » Betar العسكرية منذ الثلاثينات يتغنى بالشعارات التي لقنه اياها جابوتنسكي وادخلها في صلب النشيد الخاص الذي نظمه عام ١٩٣٢ ليكون النشيد الرسمي لمنظمات الشباب الصهيوني العسكرية :

مجال حيوي للملايين
على ضفتي الاردن .
الاردن له ضفتان
واحدة لنا ، وكذلك الاخرى (١٤) .

١٤ـ انظر شيختمان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩٤ . وقد ذكر مؤلف سيرة جابوتنسكي ان « نشيد بيطار » هذا اصبح بمثابة المارسيلياز الجابوتنسكي لدى تلامذة الرجل واتباعه بين الشباب الصهيوني. وقد نشرت صحيفة «ذي جويش ستاندرد» الناطقة بلسان الحركة التحريفية (تأسست عام ١٩٣٩ في لندن) في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ اذار (مارس) ١٩٤٦ النص الكامل مع ترجمة انكليزية للنشيد الذي ألفه جابوتنسكي بعنوان «Semol Hayarden» الضفة الشمالية للاردن (Left Bank of the Jordan) .

وجاء توقيت النشر بمناسبة تصريح المستر ارنست بيفين (Bevin) حول شرقي الاردن امام الجمعية العامة للامم المتحدة واعرابه عن نية بريطانيه وعزمها على جعل امارة شرقي الاردن دولة مستقلة ، وقد يضيق المجال هنا لعرض مضمون ردود الفعل الشديد في الاوساط الصهيونية عامة ولدى كل من المنظمة الصهيونية الجديدة وحزب الدولة اليهودية بنوع خاص ، فنكتفي بنقل اللازمة في النشيد المذكور اعلاه :

My country's spine and pillar, as of yore,
Is holy Jordan, mine for evermore.
Two banks has the Jordan river :
Right and left are ours for ever —
Both of them are ours...
Mine, wholly mine, my holy motherland,
However poor to others it may seem.

واذا كان جابوتنسكي قد تزعم منذ مطلع الثلاثينات حملة دعائية عنيفة اللهجة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين ـ بعد ابعاده نهائيا عن البلاد ـ بالاضافة الى هجومه الشديد على السياسة الصهيونية الرسمية ، فلا يغرب عن بالنا ان حركته الداعية لفسخ التحالف بين بريطانيه والصهيونية لم تكن سوى دعوة للمطالبة باستبدال الدولة المنتدبة على فلسطين . ففي المؤتمر العالمي الرابع للتصحيحيين (براغ ١٩٣٠) نجده يتحدث عن تجربة التحالف مع بريطانيه فيعلن انها تجري للمرة الاخيرة . ويقوم باحدى جولاته في سبيل التوعية وكسب الانصار والمؤيدين في جنوب افريقيه ، حيث يسارع الى تنبيه مستقبليه بانه لم يأت اليهم حاملا السلام بل السيف .

وحين يقف حاييم وايزمان ليعلن في اجتماع لجنة العمل الصهيونية (٢٧ آب ، اغسطس ، ١٩٣٠) بمدينة برلين ما يلي :

« لم تكن الدولة اليهودية في يوم من الايام غاية في حد ذاتها ، بل مجرد وسيلة فقط الى الغاية . ولا يوجد أي ذكر للدولة اليهودية في برنامج بازل أو في وعد بلفور . ان جوهر الصهيونية هو ايجاد عدد من الاسس المادية الهامة ليقوم عليها بناء مجتمع ذاتي متراص ومنتج » (١٥) .

يبدأ جابوتنسكي في التفكير جديا باخراج جماعة التصحيحيين من حظيرة المنظمة الصهيونية واعلان استقلاله رسميا عن المنظمة العالمية . وفي المؤتمر السابع عشر (بازل ، ١٩٣١) يحل سوكولوف محل وايزمان في رئاسة المنظمة ، بينما يتقدم جابوتنسكي بالاقتراح التالي من المؤتمر :

« ان غاية الصهيونية ، كما تعبر عنها الفاظ مثل « الوطن القومي » و « الدولة اليهودية » أو «وطن يضمنه القانون العام»(Homestead) هي ايجاد اكثرية يهودية على ضفتي الاردن » (١٦) .

Mine from the sea into the desert's sand.
And through it flows the Jordan's sacred stream.
Yet, like a traitor's, wither may my right
If the left hand of Jordan I forsake...

١٥ ـ انظر : **Chaim Weizmann — Reden und Aufsätze. 1901 - 1936 (Tel-Aviv, 1937,), P. 28.**

١٦ ـ راجع شيختمان ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

غير ان الاكثرية الصهيونية داخل المنظمة اثارت بوجه التصحيحيين قضية الولاء المزدوج ، فبادرت اللجنة التنفيذية الى اصدار قرار يمنع الجمع بين العضوية في المنظمة الصهيونية العالمية والانتماء الى هيئات او منظمات خارجية اخرى ، متى كان هذا الانتماء متعارضا مع الولاء للمنظمة الصهيونية الام . وتعالت الاصوات داخل الاتحاد التصحيحي منادية بالعودة الى هرتزل ، بينما راح انصار جابوتنسكي يطالبون بالعودة الى جابوتنسكي بالذات والاصرار على برنامج الحد الاقصى . ولم يكتف الاتباع بهذا المقدار ، بل اخذت اكثريتهم تطالب باقامة حكم ديكتاتوري داخل الحركة التحريفية . وراح الزعماء التصحيحيون يتسابقون في ميدان اجراء الاتصالات بالحكومات والساسة ، فيما حاول جابوتنسكي صيانة النظام الداخلي والانضباط . ووجد الفرصة مؤاتية لمجاراة هتلر في المانيه واعلان ديكتاتوريته عقب استفتاء السادس عشر من نيسان (ابريل) ١٩٣٣ . فقام بتسلم جميع السلطات ، زاعما انه يعمل في سبيل التسوية ومؤكدا ايمانه بحتمية الزعامة الشخصية . حتى كاد « حب صهيون » لدى مؤيديه وانصاره يتحول الى « حب جابوتنسكي » ، فبرزت طقوس عبادة البطل والشخصية ، واشتد الولاء لشخص الزعيم الديكتاتوري . بينما بادرت المعارضة الصهيونية الى محاربة « الهتلرية اليهودية » واستنكارها .

وما ان جاء المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (براغ ١٩٣٣) حتى تم تكريس الانقسام الاخير داخل الحركة التصحيحية . فخرج جناح الديمقراطيين التحريفيين ، بزعامة ماير غروسمان ، على ارادة جابوتنسكي . وسرعان ما غير المنشقون اسمهم من « التحريفيين الديمقراطيين » الى « حزب الدولة اليهودية » (Jewish State Party) (١٧) . واكدوا على اعترافهم بسيادة المنظمة الصهيونية العالمية في جميع

---

١٧ ــ ــ «Judenstaatspartei» تأسس « حزب الدولة اليهودية » عام ١٩٣٣ ليضم اولئك التحريفيين الذين لم ينشقوا على المنظمة الصهيونية العالمية ، بل فضلوا البقاء كحزب يعمل ضمن الاطار الرسمي . كان معظم هؤلاء من الصحافيين والمهنيين ، دون قاعدة شعبية تستحق الذكر . وقرروا الاستمرار في المعارضة للزعامة الصهيونية وسياستها ، فأبقوا على ولائهم للمنظمة العالمية باعتبارها من صلب التراث الذي خلفه هرتزل ولكونها تمثل الشعب

الاحوال والظروف . ثم تنبه الصهيونيون الاشتراكيون لخطر الحركة التي يتزعمها جابوتنسكي ، خصوصا بعد اتجاه اصابع الاتهام في قضية مقتل الزعيم العمالي المعتدل الآراء ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية : حاييم ارلوزوروف (Arlosoroff) الى اثنين من الارهابيين المحسوبين على جابوتنسكي . بينما حاول جابوتنسكي الصاق التهمة بالمتطرفين العرب . وقام ائتلاف واسع ضد جماعة جابوتنسكي فتعالت الاصوات مطالبة بطرد « العصابة التخريبية » من حظيرة المنظمـــة واقصائها عن الحياة اليهودية . فيما بقي جابوتنسكي على دعوته الرامية الى اعلان هدف الصهيونية بانه اقامة دولة يهودية اكثريتها يهوديـــة على ضفتي الاردن ، والى تصفية الوكالة اليهودية الموسعة ، ووضع حد لحرب الطبقات في فلسطين ، بالاضافة الى المطالبة بالترخيص القانوني

اليهودي على الصعيـد الرسمي . يتبنى الحزب موقف الطبقـة الوسطى وعقيدتها الصهيونية ولا يفترق عن جابوتنسكي في موقفه ازاء القضايا العمالية ورفضه لمفهوم الوعي الطبقي . يدعو الى توثيق التعاون بين فلسطين اليهودية في المستقبل والامبراطورية البريطانية ، على ان تعترف بريطانيه بالحق التاريخي لليهود في فلسطين وتترجم هذا الاعتراف الى صعيد العمل بتسهيل الهجرة ، وحماية الصناعة اليهودية ، وتنفيذ الاصلاح الزراعي واعطاء اليهود حصتهم الكاملة من المنشآت والخدمات العامة . تطالب باعـادة شرقي الاردن الى فلسطين ، لان الضفتين الشرقية والغربية للاردن تؤلفان وحدة اقتصاديـة وتاريخية لا تتجزأ . وتسعى لفتح ابواب شرقي الاردن امام الاستيطان والاستعمار الصهيوني ، بالاضافة الى وقوفها مع جابوتنسكي في مسألة الجيش الصهيوني المستقل بحجة الدفاع عـن سلامة اليشوف . وتصر بالتالي على توظيف الايدي اليهودية العاملة وحدها في المشروعات الصهيونية ، بينمـا تؤيد فتح اسواق جديدة للمنتوجات اليهودية خارج فلسطـين لتوثيق الروابط الاقتصادية وغيرهـا بـين الدياسبورا واليشوف عملا بشعار « ترويج المنتوجات الفلسطينية » (Tozeret Haaretz) (انظر ملخص مبادىء الحزب «Jewish State Zionism» الصادر عن اللجنة المركزية لصهيونيي الدولة اليهودية في اميركه (نيويورك) . راجع Esco Foundation for Palestine, Vol. II, pp. 1136-1138).

للتنظيم العسكري اليهودي تحت ستار الدفاع عن النفس (١٨) . غير ان سيطرة الجناح العمالي على المؤتمر الثامن عشر نجحت في اقصاء التحريفيين عن المجلس الرئاسي الصهيوني . وراح الفريقان يتسابقان لخطب ود المانيه الهتلرية ، حتى لجأ كل منهما الى اتهام الاخر بالتعاون مع النازية واحراجه بدعوته للتصويت على اقتراح يطالب يهود العالم اجمع بمقاطعة المانيه وشن حرب اقتصادية عليها . وكانت صحيفة Hazit Haam الناطقة بلسان التصحيحيين في فلسطين سبّاقة للاعراب عن عطفها على الافكار النازية وابداء تفهمها لما وصفته « بالعناصر الاصيلة لحركة تحرّر قومي » . فبرزت النواة الرجعية والفاشيّة للحركة التي يتزعمها جابوتنسكي في اجلى مظاهرها . وما ان جاء عام ١٩٣٥ حتى تظاهر جابوتنسكي بالسعي للانتقام من الرايخ الثالث على الصعيد الاقتصادي ، وذلك لحمل المسؤولين النازيين على السماح بقيام هجرة يهودية جماعية الى فلسطين . وأثار عداء زعامة الحركة الصهيونية العمالية من جديد حين اخذ يدافع عن الطبقة الوسطى باعتبارها تؤلف الطليعة السياسية المناضلة في اليشوف ، وربما توسّم في صفوفها مزيدا من المؤيدين والانصار . فراح يعلن عداءه المستحكم لكل من يتخذ لنفسه مثالا اعلى ثانيا الى جانب المثال الاعلى الصهيوني . ومما يسترعي الانتباه ان مفهومه للطبقة الوسطى (Mittelstand) كان يعني ذلك اليهودي العادي الذي اقترب من سن الثلاثين او تعدّاها قليلا ، بين المستوطنين الصهيونيين واليهود في العالم (١٩) . فالمستقبل بيد البورجوازية وحدها ، على حد قوله . والبورجوازيون من الد اعداء الدولة البوليسية وأخلص دعاة الفردية . والمثقّفون لا يمكنهم انكار انتمائهم للطبقة البورجوازية ، بينما تصبح الفاشية اليهودية على لسان جابوتنسكي وسيلة لتحقيق الاستعمار الصهيوني :

« بالطبع ، ان موقفنا من القضايا الاجتماعية مختلف : فهو ليس الى « اليمين » ولا الى اليسار ، بل هو استعماري متصلّب (Colonizing) » (٢٠) .

لذلك نجده ينتقد مفهوم الصراع الطبقي الذي ينسب اعتناقه الى

---

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .
٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

الصهيونيين الاشتراكيين ، فيعلن ان « الطبقات لا توجد الا في مجتمع قائم وجاهز التكوين » ، كما يستنكف عن تطبيق نظرية حرب الطبقات « على بلد يمر في مرحلة الإستعمار (٢١) » . ويأخذ عن الفاشية والنازية شعار المناداة بـ « انسجام المصالح الوطنية وتناسقها » ، مشددا على كونه يفوق سائر الاعتبارات الاخرى ويتعدّاها الى الخير الصهيوني العام . ثم يدعو الى حل الخلافات الاجتماعية اثناء عملية البناء الصهيوني باللجوء الى التحكيم الوطني الالزامي . والهدف من وراء هذه الحملة التي يشنها جابوتنسكي لم يكن سوى محاولة للحـــد من احتكارية الهستدروت واضعاف مكانتها الممتازة وكسر شوكة سيطرتها والدور الرئيسي الذي تلعبه في الاقتصاد الصهيوني . لذلك يلجأ في ربيع ١٩٣٤ الى مواجهة تحدّي الهستدروت عن طريـــق انشاء « اتحـــاد العمل الوطني » (Oved Leum) ، محـــاولا ادمـــاج بعض المفاهيم الدينيـــة اليهوديـــة في المبادىء والآراء التي اعلنها حول المشاكل الاجتماعية وحول العلاقة بين العمل ورأس المال . وقد عبّر عن ذلك كله في مقالة نشرها عام ١٩٣٦ بعنوان « الفلسفة الاجتماعية في العهد القديم من الكتاب المقدّس » ، وتحدث فيها عن فكرة السبت او يوم الراحة . كما جعل العلاقة بـــين السيد والخادم بمثابة شأن من شؤون الله والملك (٢٢) . وحاول استنباط بعض الاجتهادات مـــن سفر اللاربين حول مبـــدأ الضريبة الاجتماعيـــة

---

٢١ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ .

٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ . اما « اتحاد العمال الوطني » او «منظمة العمال القومية» Histadrut ha-Ovedim ha - Leumit (National workers' Organization) فقـــد انضم اليهـــا معظم الاعضاء التابعين لمنظمات «بيطار» العسكرية . ولعبت دورا بارزا في نشاطات عصابتي «الارغون زفاي ليئومي» (المنظمة العسكرية القومية) و « لوحامي حيروت اسرائيل » : «عصابة شتيرن» (المقاتلون لحرية اسرائيل) . فأمدّت عصابات الارهاب التي تزعّمها جابوتنسكي بصفته « زعيم البيطاريم » بالمال والعتاد والرجال . والواقع ان معظم الارهابيين كانوا اعضاء عاملين في « منظمة العمال القومية » هذه ، فجـــاءت بمثابة « منظمة واجهة » للنشاط الارهابي ، وانشأت العديد من الفروع في سائر انحاء العالم لتوسيع نشاطاتها وجمع المتطوعـــين بقصد ادخالهم الى فلسطين بشتى الوسائل كي ينضموا الى الجيش

(Social Tax) ، كما لجأ الى تفسير يتلاءم مع حاجاته لمبدأ السنـــة اليوبيـــل (Jubilee Year Principle) فجعل الثورة الاجتماعية مجرّد حدث دوري يحصل كل نصف قرن ، وخلص الى التشديد على الاقتصاد الحر والجهد الفردي تحت شعار التفاعل الحـــر للقوى والطاقـــات الاقتصادية (٢٣) .

وعلى الرغم من هذه التحدّيات التي استعان بها جابوتنسكـــي للوقوف بوجه اعدائه واخصامه في الصهيونية العماليـــة ، فقد ابدى استعداده للتفاوض مع دافيد بن غوريون . ويبدو ان قوة جابوتنسكي كانت آخذة في التزايد ، مما اثار شتى المخاوف في نفوس جماعة بن غوريون وحملهم على الوصول الى اتفاق مع الحركة التحريفية كي لا يحقـــق جابوتنسكي وجناحه اليميني انتصارا ساحقا يقضي على آمالهم في الجمع بين الصهيونية والاشتراكية . فقد اقترح الزعيم التحريفي على بن غوريون تغيير اسم الماباي (Mifleget Poalei Erez Israel = Mapai) حزب عمال ارض اسرائيل) الـى المابای (Mifleget Bonei Erez Israel = Mabai) اي ، حزب بنّائي ارض اسرائيل) (٢٤) . وتوصل الجانبان الصهيونيان الى اتفاق ينص على المهادنة والامتناع عن القيام باعمال العنف والإرهاب . وابرما نوعا من الاتفاق التعايشي حول شؤون العمل والعمال (١٩٣٤) . غير ان بعض القادة التحريفيين اخذوا على جابوتنسكي تنازله بقصـــد التحالف مع بن غوريون ، فراح الارهابي مناحيم بيغين يذكّر زعيمه اثناء المؤتمر العالمي السادس للتحريفيين بشتى الاسماء والنعوت والتهم التي الصقها بن غوريون بشخصه . واشتدت حدّة الازمة من جديد عندما رفضت الهستدروت بأغلبية الاصوات منح شهادات الهجرة بناء على طلب التحريفيين لجماعات « البيطاريم » او اعضاء منظمات بيطار العسكرية للشباب .

فسارع جابوتنسكي الى اعلان تعذّر الجمع بين القومية الصهيونية والاشتراكية ، وسافر الى اميركه في مطلع ١٩٣٥ بقصد اعادة الكرّة في

الصهيوني السّري ويكونوا في العلن اعضاء في المنظمة العماليـــة القومية .

٢٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

٢٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

محاولة كسب المؤيدين بين اليهود هناك . وانقسم الصهيونيون الاميركيون عقب وصوله بين مناصر متحمس ومعارض لم يأل جهدا في التحذير من الاخطار التي تنطوي عليها هـذه الفاشية الصهيونية الجديدة . واتهمه البعض بتلقين الشباب اليهودي في منظمات « بيطار » العسكرية الصهيونية اغاني واناشيد مـن الطراز التالي : « المانيه لهتلر وايطاليه لموسوليني وفلسطين لجابوتنسكي » . كما نبّهوا الى سعيه الهادف لانشاء « جيوش عمالية فاشية » متى انتصرت الحركة التي يتزعمها . ونفى البعض الآخر عن الماباي تهمة زجّ مفهوم الصراع الطبقي في حقل النشاط الصهيوني بفلسطين . ثم حاولوا عزله باعتباره الوحيد ممن يتزعمون حركة تسعى الى تطهير فلسطين من العرب واقامة دولة يهودية عنصرية تأتي خالية من كل ما هو عربي . ونسبوا اليه التبشير بالروح العسكرية ، بينما التقليد اليهودي بأسره يتنافى مع هذا الاتجاه .

غير ان جابوتنسكي لم يأبه للتهم الموجهة اليه ، فعاد الى اوروبه في العاشر من نيسان (ابريل) ١٩٣٥ ، بعد اعلانه عن امتناع انصاره من الاشتراك في انتخابات المؤتمر الصهيوني . ثم اعلن انسحاب التصحيحيين من المنظمة الصهيونية وأجرى استفتاء عقب « جولة توعية » قام بها في اوروبه الشرقيـة والوسطى . فجاءت النتـائج لصـالحه ، وحملتـه استراتيجيته الجديـدة عـلى انشـاء المنظمـة الصهيونيـة الجديـدة (New Zionist Organization) . فتحقق بذلك حلمه القديم في العودة الى هرتزل والانطلاق من المفاهيم الصهيونية التي توسمها في دعوة مؤسس الحركة وكتاباته الرئيسية . وقال عنه غروسمان ، أحد زعماء « حزب الدولة اليهودية » ، بانه حاول تحقيق وحدة الصف الصهيوني بالقوة ، واحداث الوحدة عن طريق الانشقاق ... بينما دفعه اليأس من البرلمانية الصهيونية الى السير في هذا الاتجاه الجديد (٢٥) .

---

٢٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

المنظمة الصهيونية الجديدة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦

عقــد المؤتمر التأسيسي للمنظمــة الصهيونية الجديــدة في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٥ . وطلـع جابوتنسكي بتعريف جديــد للهـدف الإعلى للصهيونية محاولا ادخال بعض التعديلات على فكرة الصهيونية الكبرى . فشدّد على الناحية الانسانية في الحركة ، محاولا تغطية الأماني القومية المرتكزة على العنصرية اليهودية. ولم تعد الدولة اليهودية هدف الصهيونية الأعلى ، بل أصبحت مجرّد الخطوة الأولى عــلى طريق تنفيــذ مخطط الصهيونية الكبرى ونواتها التوسعية ، عــلى ان تكون الخطوة التالية : « عودة الشعب اليهودي الى وطنه » عــلى صورة خروج جماعي يتجه صوب فلسطــين . وتحولت الصهيونية بمعناها الحقيقي الــى خروج (Exodus) وتصفية للشتات والنفي القسريين . فرفع جابوتنسكي شعاره الجديد : « ان لم نعمل على تصفية المنفى ، فسوف يقوم المنفى بتصفيتنا والقضاء علينا » . وطلع بمشروع جديد من وحي آراء ماكس نوردو . ثم اطلق عليه تسمية مشروع السنوات العشر ، اذ كان يرمي لنقل حوالي مليون ونصف المليون من المهاجرين اليهود الى فلسطين بقصد توطينهم هناك خلال عشر سنوات .

والتفت الى الناحية الدينية في التصوّر الصهيوني « الجديد » ، محاولا استمالة الجماعات اليهودية الارثوذكسية وكسب تأييدها . ولا غرو فقد أدرك الدور الذي يلعبه الشعور الديني داخل الحركة الصهيونية، ولم يشأ التنكر للمعطيات المذهبية على الرغم من ادّعائه العقلانية والعلمانية. ولجأ الى مناورة جديدة بادخاله الدين والتقليد الديني في نطاق المبادىء الأساسية للحركة التصحيحية الجديدة ، مع العلم بان هذه الخطوة تشكل انحرافا عن المبدأ الاساسي الذي اعتمدته «الصهيونية الواحدية» Zionistic Monism . وهكذا وصف تقرّبه من الأوساط المتدينة بمثابة « صفقة شراء » . وزعم ان الصهيونية التي يبشر بها تحتاج الى العاطفة الدينية في حد ذاتها (١) .

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .

وحين انتقل مقرّ المنظمة الصهيونية الجديدة الى لندن (١٩٣٦) ، راح جابوتنسكي يدلي بتصريحاته المناوئة للمجلس التشريعي الفلسطيني . ثم خطرت له من جديد فكرة عرض الانتداب على ايطاليه بدلا من بريطانيه، فأعلن انتهاء المرحلة البريطانية في الصهيونية بعد ان استنفذت نفسها . وركز جهوده على مسألة التخلص مـن الوصاية البريطانية ، زاعما بان الانتداب سوف ينتقل الى الأيدي اليهودية متى أثبتت منظمة الارغون زفاي ليئومي وجودها العسكري والارهابي بشكل فعّال . فمثل أمام لجنة التحقيق الملكية ليدلي بشهادته في ١١ شباط (فبراير) ١٩٣٧ ، ودفعه استعلاؤه لمطالبة بريطانيه « برطل اللحم الذي وعدت به » بعد ان ضرب المائدة بقبضته مهدّدا متوعدا . واجتمع الـى هربرت سايدبوثام اثناء الاحتفال بالذكرى العشرين لتأليف الفرقة اليهودية ، فاصغى الى نـداء الصهيوني البريطاني مناشدا اليهود توحيد صفوفهم واحلال السلام عن طريق الجلوس الى مائدة مستديرة وفقا للتقليد البريطاني القديم . ثم قاد حملته العنيفة ضد التقسيم . فسافر الـى جنوب افريقيه لنشر الدعوة والمطالبة باجلاء اليهود القاطنين في « حزام البؤس » بالقسم الشرقي من اوروبه . كما أعرب عن استنكاره لاستعداد وايزمان على التضحية بتسعة اعشار الوطن القومي اليهودي . وكتب في رسالة الى ناحوم ليفين (٢٦ حزيران ، يونيو ، ١٩٣٩) متهكما على وايزمان وشركاه بتهمة تحريف برنامج بازل على الشكل الآتي :

« تهدف الصهيونية الى تقسيم فلسطين واعطاء العرب ٩٥ ٪ من البلاد ، بما فيها القسم التوراتي التاريخي » (٢) .

بينما عمد الى تجديد الدعوة لعقد مؤتمر طاولة مستديرة لتصفية الجو الصهيوني وتوحيد الصفوف . وذهب الى حدّ المطالبة بعقد مؤتمر عالمي يضم حكومات الدول الصديقة لـكي تقوم بـدرس مشكلة الهجرة اليهودية وتجد حلا لها . وتوقع من المؤتمر المذكور ان يعكف على درس مشروع العشر سنوات الذي تبنته المنظمة الصهيونية الجديدة . وطالب بعقد جمعية وطنية ليهود العالم ، على ان يتم انتخاب ممثلين عنهم بصورة عامة جامعة .

ومما يسترعي الانتباه ان جابوتنسكي لم يكن يحبذ فكرة انشاء دولة

---

٢ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ .

عربية ـ يهودية مشتركة . فقد بقي على مطلبه الرئيسي بايجاد اكثرية يهودية في فلسطين ، مدركا تمام الادراك ان تحقيق هذا المطلب لن يتم الا ضد ارادة الاكثرية العربية الموجودة في البلاد . ولم يعبأ بشتى الاعتبارات، بل شدّد على اقامة « جدار حديدي » من القوة اليهودية المسلحة لحماية عملية فرض الاكثرية اليهودية بقوة السلاح عن طريق اللجوء الى العنف والارهاب . واستهوته الفكرة التي دعا لها اسرائيل زانغويل في السابق والقاضية بنقل عرب فلسطين وشرقي الاردن الى العراق وتوطينهم هناك (٣) . فتبنى هذه الفكرة ومنحها تأييده في كتابه «الحرب واليهودي»

---

٣ ـ قام المحسن والثري اليهودي الاميركي ادوارد نورمان عام ١٩٣٧ باجراء مفاوضات مع الحكومة العراقية للوصول الى اتفاق حول نقل عرب فلسطين الى العراق بقصد توطينهم هناك . وربما استمد جابوتنسكي الوحي من الاتفاقية التي جرى ابرامها في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ بين الرايخ الثالث وايطاليه الفاشية بصدد نقل ٢٦٦ الفا من الألمان من منطقة التيرول المتنازع عليها الى يومنا هذا .

وقد أورد زانغويل في احدى مقالاته (١٨٩٩) نبأ المشروع الذي طلع به الدكتور بول هاوبت ، استاذ الدراسات الشرقية في جامعة جونز هوبكنز وضمّنه في الكراس الذي نشره بالألمانية على حسابه الخاص . فوصف مشروعه على الشكل الآتي :

« من ينجح في ترسيخ قدمه بقلب آسيه الغربية بين البحار التالية : البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر قزوين والبحر الفارسي ، سوف يكسب الجائزة في تقسيم الكرة الارضية » .

وبما ان الارض الواقعة بين دجلة والفرات (بلاد ما بين النهرين) هي من اغنى بلدان الزمان القديم ، فان « النكهة التوراتية التي تتحلى بها اللفظة المباركة « ما بين النهرين » تجعل من البلاد جذّابة كفلسطين تقريبا . ومتى عمها الازدهار سوف يتفجر سكانها ويمتدون في السياق الأخير نحو فلسطين . كما اقترح صاحب المشروع ان يكون الجنود القدامى في عداد المستوطنين لتشكيل ميليشيا عسكرية تدافع عن المستوطن ضد غزوات البدو المتكررة .

وذكر اسرائيل كوهين في مذكراته (المصدر السابق ، ص ٦٧) بان بول هاوبت بالذات حضر مؤتمرا عالميا عن تاريخ الديانات في جامعة اكسفورد وحاول ان يبرهن ان المسيح من اصل آري .

(The War and the Jew) الصادر في نيويورك ، ١٩٤٢ (٤) . ولا يسع كل من اطلع على شتى التصريحات الصادرة عن الزعماء الاسرائيليين منذ قيام الدولة الصهيونية حتى يومنا هذا الا الاعتراف بان موقفهم الواحد من قضية عرب فلسطين الذين شردوا من بلادهم واغتصبت ارضهم فاصبحوا « لاجئين » لا يختلف مطلقا عن موقف جابوتنسكي واتباعه . ولقد اصبح الموقف التحريفي بين عشية وضحاها موقفا تصحيحيا رسميا بالنسبة للزعماء الصهيونيين على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم . فالجميع يطالبون بحل لمشكلة اللاجئين يقضي بتوطينهم في الاراضي العربية الشاسعة الاطراف والتي تستوعب المزيد من السكان لانها ما زالت دون الكثافة التي تتحملها وتتسع لها .

كما لا يخفى بان الاعتبارات التي شاء جابوتنسكي اخذها بعين اعتباره لم يطرأ عليها تغير أو تبدل يستحق الذكر منذ وفاته وبعد قيام دولة اسرائيل على أرض فلسطين . فقد شدّد على أهمية العامل الزمني في الصهيونية ، وتنبه الى الاعتبارات الديموغرافية ومعدل الزيادة المرتفعة بين السكان العرب سنويا . لذلك راح يحث على الاسراع في عمليات ومشروعات التهجير والاستيطان اليهودي . وسارت اسرائيل في الخطوات نفسها ، بعد قيام دولتها عام ١٩٤٨ ومنذ عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . فلا يكاد يمضي يوم واحد الا ونقرأ العديد من التصريحات يدلي بها زعماء الصهيونية وحكام اسرائيل : وكلها تدعو للاسراع بتوطين المستعمرين اليهود الجدد في المناطق المحتلة ، أو التي تم تحريرها من سكانها العرب ــ على حد تعبير الصهيونيين . فالتوسع عن طريق العدوان والاحتلال تتبعه دعوة لاسكان اليهود في المناطق المستولى عليها بحجة

---

٤ ــ يضم الكتاب المذكور النص الكامل للمشروع الذي تقدّم به جابوتنسكي باسم الهيئة التنفيذية للحركة التحريفية عام ١٩٣٤ ، مطالبا بجعل فلسطين دومنيون مستقلة داخل الامبراطورية البريطانية . وقد أوضح جابوتنسكي ان مشروعه لن يوضع موضع التنفيذ الا متى اصبح اليهود يؤلفون اكثرية سكان فلسطين . وربما جاز لنا اعتبار المشروع المذكور اكثر تصورات جابوتنسكي المفصلة والتي جرت صياغتها بعناية فائقة وحذر شديد . (انظر : مؤسسة اسكو ، **فلسطين** ج ٢ ، ص ١١٣٩) .
The War and the Jew (Dial Press, New York, 1942), P. 215 ff.

متطلبات السلامة والأمن . ولا شك ان الاعتبارات الديموغرافية تلعب دورا بارزا في حسابات التوسع والاستعمار الصهيوني . كما انه ليس بمستبعد ان تكون الدعاية الصهيونية قبل الخامس من حزيران (يونيو) هي مصدر التكهنات الديموغرافية القائلة بان معدل زيارة العرب الذيـن يعيشون في اسرائيل سوف يؤهلهم خـــلال الخمسين سنة القادمة لكي يصبحوا اكثرية ، او على الاقل كي يتمتعوا بقوة عددية تضاهـي القـوة اليهودية ، وتتهدد بالتالي استئثارها بالبلاد والسلطة .

وليس هناك ما يدعونا على الاعتقاد بان الصهيونية قد تخلت ، أو هي تنوي التخلي عن تنفيذ المشروع الذي اقترن باسم ماكس نوردو ونقله جابوتنسكي عنه . فالنداءات الى يهود العالم ما زالت تتوالى اكثر من قبل، تناشدهم الهجرة الى فلسطين المحتلة . واذا كان جابوتنسكي قد اختار استعمال لفظة اجلاء (Evacuation) للتدليل على مشروعه القاضي بخروج يهودي جماعي كحل للمسألة اليهودية ، فـان الصهيونية لم تتوان لحظة واحدة عن القيام باجلاء اليهود زاعمة انهم يرغبون في ذلك . وقد ضمّن جابوتنسكي فكرة الاجلاء هذه هدف الصهيونية كما نصت عليه بطاقة العضوية في المنظمة الصهيونية الجديـدة . واكد ان مشروعه ليس الا تطبيقا لمفهوم هرتزل الاساسي والـذي يأتي ذكره في كرّاس « الـدولة اليهودية » ، بالاضافة الى مشروع نوردو الـذي يعود تاريخه الى العام ١٩٢٠ . فهو يشارك هرتزل نظرته الضيقة والجامدة الى ظاهرة العداء للسامية . ويعتبرها المحرّك الذي لا بد مـن وجوده لتحقيق المخطط الصهيوني الشامل . ومـن هنـا حديثه عـن « الخروج » (Exodus) و « الاجلاء » .

ومن الطريـف ان جابوتنســكي يسير في خطى مؤسس الصهيونية السياسية اذ يصرح في المؤتمر العالمي الثاني للحركة التحريفية بما يلي :

«الاجنبي او الاممي هو معلمنا وراعينا Morenu ve' Rabenu, ha'goy (٥) ويعتبر العالم غير اليهودي بمثابة قوة عظمى وخلاّقة ، تستمد منه الحركة الصهيونية الكثير من الدوافع والتعاليم في حقلي الفكر والعمل السياسي. لذلك نجده يدعو الى اقامة تعاون وثيق الصلات بين العالم الأممي من جهة

---

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ . (Our teacher and our mentor, the gentile)

والحركة الصهيونية من جهة ثانية . وهو المعروف بالحماس الشديد لفكرة الاعتماد اليهودي على النفس . فلا يترك فرصة تمرّ خلال الثلاثينات دون التذكير بمشروع ماكس نوردو ، حتى جعله بالفعل « حجر الزاوية في الحملة الصليبية التي شنها في سبيل الاجلاء » . وقد جعل نصب عينيه ان الباعث الرئيسي وراء تلك الرؤيا الجريئة التي خلفها نوردو للصهيونية الكبرى : « يجب ان نصبح اكثرية في فلسطين مهما كان الثمن ... والا بقي الوطن القومي سرابا خداعا وذهبت الاماني ادراج الرياح (٦) » . فأجرى اتصالات مع الحكومة البولونية لهذا الغرض وعملا بسياسة التحالفات التي سار عليها منذ قيام منظمته الصهيونية الجديدة بشكل خاص . كما حاول في مطلع العام ١٩٣٩ بذل اقصى جهوده كي يلفت نظر الحكومة الاميركية للمشروع السالف الذكر . ورائده في ذلك كله تلك الثقة المغرورة

« بان عرب فلسطين ، حين يستيقظون بين عشية وضحاها ليجدوا ظاهرة الاكثرية اليهودية قد اصبحت حقيقة واقعة ، سوف يقبلون الامر الواقع ويتصالحون معه » (٧) .

كما توصل الى اتفاق خاص في العام ١٩٣٧ مع بعض المسؤولين البولونيين لكي تحصل بموجبه منظمة الارغون الارهابية على شتى المساعدات : من السلاح الى التدريب وسائر التسهيلات والتجهيزات التي تحتاجها . وفكر عام ١٩٣٨ بتشكيل «برلمان للبؤس اليهودي» Zion Sejm في بولونيه ، بالاضافة الى مذكرة رفعها للحكومة البولونية طالبا فيها تأييد مشروع نوردو ودعمه ، واعلان الدعوة لعقد جمعية وطنية يهودية عالمية ، بالاضافة الى اعلان تأليف لجنة يهودية عالمية تكون بمثابة حكومة صهيونية في المنفى (Comité de Salut Public) ، وترسل الوفود والبعثات التمثيلية الى حكومة الانتداب وغيرها من الحكومات ، والى الولايات المتحدة الاميركية بنوع خاص . واجتمع الى ملك رومانيه ، كارول الثاني ، صيف ١٩٣٧ لهذا الغرض ، فلقي منه تفهما لفكرة الدولة اليهودية ووعدا بالعمل على تشجيع الهجرة الى فلسطين . كما اعرب له الملك المذكور عن استعداده « لمحاربة كل مشروع للتقسيم يهدد باقتطاع المساحة الحيوية الضرورية للتوسع اليهودي » (٨) . ثم ذهب لمقابلة الرئيس التشيكي ادوارد بنش

٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٥١ .
٧ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٥٣ .
٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ .

في خريف ١٩٣٨ ، كما اتصل بالرئيس الايرلندي ادموند دي فاليرا للغرض نفسه . فقد كان حقا بائع الصهيونية المتجول وداعية التوسع بأي ثمن ، حتى ولو اقتضى الأمر انشاء حكومة في المنفى .

وقد حملت صحيفة «ذي جويش ستاندرد» ، لسان حال الصهيونية التحريفية والجديدة في بريطانيه ، منذ صدورها عام ١٩٣٩ حتى عشية قيام اسرائيل ، اعلانات من الطراز التالي لنشر مبادىء المنظمة الصهيونية الجديدة . ففي عددها الصادر بتاريخ ٢٤ آب (اغسطس) ١٩٤٥ يطالعنا هذا الإعلان :

انخرطوا في سلك

المنظمة الصهيونية الجديدة

وايدوا برنامجها :

١ ـ لحل المسألة اليهودية باقامة دولة يهودية في فلسطين على ضفتي الاردن .
٢ ـ النقل الطوعي المبكر لجميع اليهود الاوروبيين وغيرهم من البائسين ، واعادة توطينهم في فلسطين .
٣ ـ تأليف حكومة يهودية مؤقتة تكون ممثلة في منظمة الأمم المتحدة .
٤ ـ خلق جيش يهودي يقوم بالدفاع عن فلسطين .
٥ ـ توحيد صفوف يهود العالم أجمع لتحقيق الاهداف المذكورة اعلاه .

انضموا الى المنظمة الصهيونية الجديدة في بريطانيه العظمى (٩) .

* * *

اما الخريطة الخلفية التي تطالع القارىء في عنوان الصحيفة المذكورة فهي خير دليل على الشعار التوسعي الذي اعتمدته منظمة الصهيونية الجديدة اثناء حياته وابقت عليه بعد وفاته عام ١٩٤٠ . وربما كان من المفيد نقل صورة عن كل من الاعلان الدعائي للبرنامج الصهيوني الجديد

---

٩ ـ انظر (National Jewish Weekly) **The Jewish Standard,** August 24, 1945.
(A Weekly Paper issued 1939 by the Zionist Revisionist Party).

والخريطة التي يتطلع اليها الزعماء الصهيونيون التصحيحيون لتكون بمثابة المدى الحيوي لدولة المستقبل . وقد ارتأينا نقل العنوان الصادر بتاريخ ٢١ أيار (مايو) ١٩٤٨ ـ أي قبل عشرين عاما بالضبط ، وغداة اعلان دولة اسرائيل على أرض فلسطين المحتلة (انظر آخر هذا الفصل) .

واذا كان جابوتنسكي يبدو لنا من زاوية خلافاته المتكررة مع المنظمة الصهيونية العالمية بانه داعيـة للتطرف والعنف في سبيل الوصول الى هدفه الصهيوني الأكبر ، فان « مبادىء الصهيونية الجديدة » التي حمل رايتها لا تتنكر لتعاليم هرتزل أبدا ، بل تعلن صراحة ان هدف الصهيونية يقوم عـلى :

« اعادة تأسيس فلسطين ، ومـن ضمنها شرقي الاردن ، واقامة الدولة اليهودية ، تجميع كل اليهود الذين يعتبرون انفسهم مشردين لسبب ما ، ووضع حد بذلك لكل انواع الشتات القسري ، وبناء حضارة يهودية تكون العبرية لغتها والتوراة روحها ونظامها الحرية والعدالة الاجتماعية » (١٠) .

ولا يسعنا بالتالي القول ان هذه الصهيونية تنادي بمبادىء جديدة . فهي متحدّرة رأسا من المدرسة الصهيونية التي تزعمها هرتزل ونوردو . وقد اخذت عن استاذتها حتى الاطار التوسعي ، فأبرزته غير عابئة بشتى الاعتبارات المصلحية أو الدبلوماسية ، كـي لا نأتي عـلى ذكر الروادع الانسانية والحقائق التاريخية ومعطيات الوضع الراهن . واستحوذت على عقول الشباب اليهودي : فتمرّس في العنف والارهاب ، واعلن ولاءه التام والمطلق لزعامة رئيسه جابوتنسـكي . ثم اخـذ يقوم بتنفيـذ المخطط الصهيوني وتطبيق تعاليم الزعيم التصحيحية ، فانتهى به الأمر الى طرد اهل فلسطين من بلادهم وأرضهم ووطنهم ، ظنا منه ان الارهاب والاغتصاب وسائر وسائل العنف لا تعدو كونها أداة لتحرير الوطن القومي اليهودي بطرد عرب فلسطين من ديارهم والاستيلاء عليها بقوة السلاح . ولا تختلف هذه الصورة عن المعالم التي رسمها ثيودور هرتزل في اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر لاهداف الحركة الصهيونية وغاياتها البعيدة المدى .

---

١٠ ـ انظر «What Zionism Stands for» — American Jewish Chronicle, June 20, 1940. وراجع كتاب مؤسسة اسكو ، ج ٢ ، ص ١١٣٥ .

فالتوسع ليس وقفا على الصهيونية المتطرفة التي يعتبرها الصهيونيون الآخرون مجرّد نزعة تحريفية تتجاذبها الإهواء الشخصية وتسيطر عليها الهيبة الديكتاتورية للمعلم جابوتنسكي . بل هو مرتكز أساسي في الفكر الصهيوني ، ويعد ملازما لجميع النشاطات الاستعمارية الصهيونية . ولا غرو فالصهيونية بطبيعتها وبحكم نشأتها والاغراض التي ترمي اليها يصعب فصلها عن النوايا التوسعية والاطماع الامبريالية ، مهما أفلحت في التمويه والتضليل أو ظهرت بمظهر التقدمية و « الدولة الصغيرة المسكينة » التي لا تنشد سوى الهدوء والسلام أو مد يد الصداقة والتعاون لجيرانها .

ولا سبيل بالتالي لاصدار الحكم على تعاليم جابوتنسكي وصحتها وتقييم صوت المعلم البغيض سوى القياس علـى الاعمال والنتائج التي استوحت تلـك التعاليـم وسارت في ضوئها . فالصهيونية في نزعتهـا التوسعية ، وبجناحيها التحريفي والرسمي العلني ، لم تنحرف عـن صراط جابوتنسكي ، بل سارت في خطواته واقتدت به . وما زالت تتطلع الى هرتزل ونوردو وجابوتنسكي من خلال زعمائها الحاليين : سواء تغيرت الاسماء من بن غوريون الى اشكول ومن وايزمان الى شرتوك وايبان وغيره. وليس باستطاعتها ان تناقض طبيعتها مهما زعمت ان في نيتها القفز عـلى ظلها التوسعي الملازم لها .



THE JEWISH STANDARD

NATIONAL JEWISH WEEKLY

Ninth Year/No. 4 Friday, May 21st, 1948—Iyyar 12, 5708. Price 3d.

CALL TO ARMS

By

A. ABRAHAMS

(See page 3)

STATE OF ISRAEL IS PROCLAIMED

ISRAEL MOVING TO OFFENSIVE

Striking Successes Reported

(From Our Correspondent in Israel)

JEWISH Army Headquarters have just reported the linking up with the Jews in the Old City and the capture of Mount Zion, which commands the road from Hebron and the entry into Jerusalem from the South. Seventy Arab soldiers were captured in the attack on the Old City. The Arab Legion outside Jerusalem has been shaken by the steady advance of the Jewish forces, which are acting according to a plan, while the Arab troops seem to be operating without co-ordination and frequently without agreement among the different units.

"Our Call to Jewry to Rally to Our Side"

THE Jewish State, to be known as Israel, was proclaimed at 4 p.m. on Friday, May 14th, at a solemn session of the National Council at Tel Aviv. Mr. David Ben-Gurion, who became Israel's first Prime Minister and Minister of Defence, read the declaration of independence. It begins:

"The land of Israel was the birthplace of the Jewish people. Here their spiritual, religious and national identity was formed; here they achieved independence and created a culture of national and universal significance. Here they wrote and gave the Bible to the world. Exiled from Palestine, the Jewish people remained faithful to it in all the countries of their dispersion, never ceasing to pray and hope for their return and the restoration of their national freedom impelled by this historic association. Jews strove throughout the centuries to go back to the land of their fathers and regain their Statehood."

After recalling the events which led up to the establishment of the State, from the first Zionist Congress to the Jewish holocaust during the Second World War, the proclamation goes on:

"On November 29th, 1947, the General Assembly of the United Nations adopted a resolution for the establishment of an independent Jewish State in Palestine and ... the Jewish

TWO KINDS OF RECOGNITION

Britain Avoiding the Issue

(From Our Diplomatic Correspondent)

THE recognition of the State of Israel by the United States, Guatemala and Soviet Russia, was followed during the week by recognition on the part of Poland, Uruguay and Czechoslovakia. The French Government was expected to give recognition before the end of the week as it was known that the French Cabinet was almost unanimously in favour of it. It was anticipated that most of the European States would follow suit very soon.

Important Differences

While the United States has granted

في خطى جابوتنسكي

توفي فلاديمير جابوتنسكي في صيف ١٩٤٠ بينما كان يبذل مساعيه لتحقيق فكرة الجيش الصهيوني على نطاق واسع ويعرب عن استعداده للقيام بشتى التنازلات في سبيل وحدة الصف الصهيوني والوصول الى اتفاق عمل بشأن العديد من المسائل المتنازع عليها . ولم ينس عشية وفاته في اميركه مناشدة يهود العالم التعاون المخلص مع بريطانيه في سبيل الكفاح المشترك ضد الخطر النازي ، كما عمد الى التذكير بان المآخذ الصهيونية على الدولة المنتدبة ما زالت على حالها . وفي روايته التي بدأها خلال العشرينات بعنوان « شمشون » وصدرت في اميركه عام ١٩٣٠ بعنوان « القاضي والمهرج » (١) ، نجده يلقي الدرس التالي على الشعب اليهودي في ذلك الحين : جل ما تحتاجه الصهيونية لتحقق انتصارها المنشود ينحصر في شعار « الحديد وملك » (Iron and a King) وقد حاول اثناء وجوده على راس الحركة التحريفية الجمع بين طرفي هذا الشعار في شخصه وتلقين انصاره في منظمات « بيطار » المضمون العملي لفلسفة العنف والقوة والارهاب («الحديد») ، كما شدد على ضرورة الولاء لزعامته والطاعة العمياء لاوامر رئيس البيطاريم (٢) . ولا غرو

---

١ ــ نشرت بالروسية (برلين ١٩٢٧) وبالالمانية (ميونيخ ١٩٢٨) بتوقيع مستعار (Altalena) ، كما اعيد نشرها في اميركه بعنوان « مقدمة الى دليلة » (١٩٤٥) واقتبس المخرج سيسيل ب دي ميل بعض مقاطعها لفيلمه المعروف « شمشون ودليلة » (١٩٤٩) ، بعد ان حصلت شركة «بارامونت» على حقوق الاخراج عام ١٩٣٥ .

٢ ــ نقل ميخائيل بارزوهار في كتابه الذي يسرد سيرة حياة بن غوريون تحت عنوان « النبي المسلح » ما قاله موسوليني الى الحاخام براتو عام ١٩٣٥ :

« لكي تنجح الصهيونية ، تحتاجون الى دولة يهودية وعلم يهودي

فالالفاظ الثلاثة التي اختارها كشعارات للشباب الصهيوني هي Tagar = الحرب ، Hadar = اللمعان ، لتأتي على وزن «بيطار» Betar . حتى انه اراد تصوير العضو المنتمي الى منظمات الشباب العسكرية هذه على النحو التالي : He is a real gentleman = He is a real Betari .

فجعل صفة الجنتلمان ملازمة للشاب الصهيوني المنتمي الى منظمة بيطار والمتمرس في فنون العنف والارهاب .

وبعد شهر من وفاة جابوتنسكي انشق ابراهام شتيرن وجماعته عن منظمة الارغون ، ليؤلف عصابة تتلقى الاوامر منه . وعرفت الجماعة الجديدة بعصابة شتيرن (Stern gang) ، بينما اطلقت على نفسها تسمية « المحاربين في سبيل حرية اسرائيل » (Fighters for the Freedom of Israel) وبقي على رأس عصابة الارغون اولئك الذين حافظوا على ولائهم للمعلم والزعيم الراحل . فلم يمض عام واحد على وفاة جابوتنسكي حتى تعالت الاصوات من جديد منادية بوحدة الصف الصهيوني ومطالبة بفض النزاعات المعلقة بين المنظمة الصهيونية الجديدة من جهة والمنظمة الصهيونية العالمية من جهة ثانية . وأعيد الى الاذهان اقتراح عقد اجتماع مائدة مستديرة بغية الوصول الى اتفاق بين الاطراف المتنازعة (٣) .

وجرى تلخيص سياسة المنظمة الصهيونية الجديدة في النقاط الخمس التالية :

أ ـ انشاء جيش يهودي مستقل .

ب ـ تأليف لجنة وطنية يهودية لتكون بمثابة حكومة مؤقتة خلال الحرب .

ولغة يهودية . والشخص الذي يفهم ذلك فهما صحيحا بينكم هو جابوتنسكي الفاشستي » .

انظر : Michael Bar-Zohar — **The Armed Prophet.** A Biography of Ben Gurion, trans. from the French by Len Ortzen (London, 1967), P. 49.

٣ ـ راجع رسالة ا . ابراهامز ، رئيس اللجنة الادارية في المنظمة الصهيونية الجديدة ، الى صحيفة « الجويش كرونيكل » (١٨ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤١) تحت العنوان التالي :

Zionists Unite ! Position of the N.Z.O. The Problem of an Independent Opposition — Can Zionists Make Democracy Work?

ج ــ تبني خطة للهجرة الطوعية والمنظمة على نطاق جماعي من بلدان اوروبه بقصد اعادة التوطين في فلسطين .

د ــ اعلان هدف الصهيونية بانه اقامة الدولة اليهودية على ضفتي الاردن .

هـ ــ احداث تمثيل يهودي موحد في مؤتمر الصلح (٤) .

ثم انتقل كاتب الرسالة لنفي التهمة عن منظمته بانها الوحيدة داخل الحركة الصهيونية التي تمارس النشاط السياسي بصورة مستقلة . فاكد ان الاحزاب العمالية في المنظمة القديمة درجت منذ سنوات على انتهاج سياسة خاصة ، غير عابئة بالحصول على موافقة عامة من المؤتمر الصهيوني . واعرب عن استعداد التحريفيين للاشتراك بمؤتمر المائدة المستديرة الى جانب المنظمات الصهيونية الاخرى بغية تنسيق العمل في المسائل الحيوية وفي سبيل الوصول الى وحدة عضوية متماسكة للصف الصهيوني العام .

لكن زعامة المنظمة الام رفضت الاستجابة لدعوة التحريفيين ، متهمة اياهم بالسعي لحمل المنظمة الصهيونية العالمية على القبول ببرنامجهم ، وتضليل الراي العام اليهودي بادعاء تكافؤ القوى بين المنظمتين . وراحت تذكر من نسي بان المنظمة التحريفية لا تعدو كونها فئة ضئيلة من المنشقين ، همها عرقلة اعمال المنظمة الام واحداث البلبلة والشغب في صفوف الصهيونيين . كما ردت على التهمة المنسوبة اليها بتبني النقاط السياسية التي اعلنتها المنظمة الصهيونية الجديدة بعد معارضة اولية . فاعتبرت هذا القول الخاطىء من قبيل المغالطة ، واكدت ما يلي :

« لكن الصدف تشاء ان يكون مؤلف كراس « الدولة اليهودية » هو ثيودور هرتزل وليس جابوتنسكي » (٥) .

ثم حاولت تبرير موقفها من التحريفيين على اساس اخذها هي بعين الاعتبار للحقيقة القائلة بان الامم كالافراد لا تعيش في فراغ ، بل عليها ان تكيف نفسها للاوضاع السياسية وتقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب . وخلصت الى القول بان فلسفة التحريفيين واساليب دعايتهم

---

٤ ــ المصدر نفسه .

٥ ــ انظر «Zionist Review», August 28, 1942.

غريبة عن التقليد اليهودي والمثل العليا التي يتطلع صوبها المجتمع الديمقراطي. ونسبت الى خلفاء جابوتنسكي الرغبة في تقديم صورةخاطئة كل الخطأ عن الشؤون الداخلية للحركة الصهيونية وفي تضليل الرأي العام اليهودي لاكتساب تأييد اوساطه النافذة . لذلك لا يمكن السكوت على حملات التحريفيين وادعاءاتهم المغرضة .

وقد بادرت زعامة المنظمة القديمة الى قطع الطريق على منافسيها التحريفيين : فحاربتهم بسلاحهم ، وكشفت اوراقها المستورة في الوقت المناسب : عشية مرور ربع قرن على صدور وعد بلفور . فكان اجتماع نيويورك الصهيوني الاستثنائي في « اوتيل بيلتمور » (٨ ايار ، مايو ، ١٩٤٢) . وحضره ممثلون عن الهيئات والمنظمات الصهيونية الاميركية ، بالاضافة الى كل من حاييم وايزمان ودافيد بن غوريون وناحوم غولدمان والحاخام ستيفن وايز وغيرهم من الزعماء الصهيونيين البارزين . وتبنى الاجتماع المذكور في الجلسة الختامية عددا من المقررات التي صيغت على صورة اعلان للمبادىء وجاءت بمثابة تعبير عن اراء الصهيونيين الاميركيين المتحدين في المسائل المتعلقة بفلسطين . فعرف اعلان المبادىء هذا منذ ذلك الحين بـ « برنامج بيلتمور » (Biltmore Program) وسارت عليه السياسة الصهيونية الرسمية في السنوات التي تلت . ولا غرو فقد نصت الفقرات السادسة والسابعة والثامنة من الاعلان على المبادىء التالية :

(٦) يطالب الاجتماع بتحقيق الغرض الاصلي لوعد بلفور وصك الانتداب، اللذين اعترفا بالصلة التاريخية بين الشعب اليهودي وفلسطين ، لكي يتيحا الفرصة امام تأسيس كومنولث يهودي هناك ، وفقا لما جاء في تصريح الرئيس ويلسون . ويؤكد الاجتماع من جديد على رفضه الثابت للكتاب الابيض الصادر في ايار (مايو) ١٩٣٩ ، نافيا عنه الصحة المعنوية والقانونية . كما يشير الى ان الكتاب المذكور يسعى للحد من حقوق الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين ، لا بل يعمل على ابطالها ، ويشكل بالتالي ، وفقا لما صرح به المستر ونستون تشرشل في مجلس العموم (ايار ، مايو ، ١٩٣٩) ، « خرقا لوعد بلفور وخروجا عليه » .

(٧) يجب الاعتراف بحق اليهود ، خلال الكفاح ضد قوى العدوان والطغيان التي كانوا في طليعة ضحاياها واصبحت الان تتهدد الوطن القومي اليهودي ، في اداء قسطهم الكامل للمجهود الحربي وفي الدفاع

عــن بلادهم بواسطة قوة عسكرية يهودية تقاتل تحت رايتها وبأمــر القيادة العليا للامم المتحدة .

(٨) يعلن الاجتماع ان نظام العالم الجديد لا يمكــن قيامه على اسس السلام والعدالة والمساواة ما لم يتم حل مشكلة التشرد اليهودي بصورة نهائية . ويطالب بالحاح كي تفتح ابواب فلسطين علـــى مصراعيها ، وتناط بالوكالة اليهودية مسألة ضبط الهجــرة الـــى فلسطين والسلطات اللازمة لبنـــاء البلاد وتنميـــة اراضيها المتروكة والبور ، وان يقوم في فلسطين كومنولث يهودي يحقق الاندمـــاج الكلي مع نظام العالم الديمقراطي الجديد » (٦) ...

وهكذا جاء اعلان المبادىء الصهيونية في « برنامج بيلتمور » نصرا للاقتراحات التي سبق ان تقدم بها كل من بن غوريون ووايزمان . فكــان بمثابة توكيد آخر « على البرنامج الجــديد للسياســـة الصهيونيـــة الاساسية » (٧) وتضمن الموقف الصهيوني الرسمي بشأن اقامة الدولـــة اليهودية على ارض فلسطين ، والمطالبة بانشاء الجيش الصهيوني تحت ستار الإشتراك في الحرب الى جانب الحلفاء ، بالاضافة الى التنديـــد بسياسة الكتاب الابيض والدعوة لترك مسألة الهجرة بيد الوكالة اليهودية وحدها . بينما وقف زعيم حزب الدولة اليهودية لتوجيه النقد الشديد لحاييم وايزمان واتهام الزعامة الصهيونية بانتهـــاج سياسة التهدئـــة والاحجام عن احراج الحكومة البريطانية ، فحمل هذا الاحجام مسؤولية كارثة غرق الباخرة ستروما (Struma) في البحر الاسود وهي تقل علـــى ظهرها مزيدا مـــن المهاجريـــن اليهود . وخلص الى المطالبة بتغيير القيادة الحالية في ضوء سجلها الحافل بالفشل والهزيمة ، على حد قوله . لكــن الدكتور وايزمان رد على منتقديه آنذاك فاعلن استعداده لتحمل كل شيء « ما دامت السيـــاسة البريطانية في فلسطين تسمح لنا بالحصول علـــى مزيد مـــن الاراضي وجلب المهاجرين اليهود الى البلاد » . ووصف الدعوة لتجنيد جيش صهيوني بانها تحظى بموافقة الجميع ورضاهم . غير انـــه اعتبر رفع عدد افراد هذا الجيش الى حد المائتي الف « اشبه برقم غير معقول » . ولم يشأ استعمـــال عبارة « الجيش اليهودي » ، بل استبدلها بالحديث عـــن فرقة يهودية (Contingent) تضم بضع افواج (Regiments).

---

٦ ـ راجع النص الاصلي Zionist Review, May 22, 1942

٧ ـ انظر صحيفة The Jewish Chronicle, Friday, May 15, 1942

ثم اشار الى وجود نواة للفرقة تضم ١٢ الفا مـن اليهود يعملون في خدمة الجيوش الحليفة في الشرق الادنى . واعرب عـن ارتياحه فيما لو اعطي هؤلاء شارات وشعارات ترمز الى نجمة داوود السداسية .

غير ان التحريفيين وحزب الدولة اليهودية اصروا عـلى وصف السياسة التي اعلنتها وانتهجتها الزعامة الصهيونية الرسمية بانها سياسة تهدئة وتسويف ، لن تؤدي سوى الى الانهزامية والتنازلات المتكررة .

وحين قام الدكتور يهوذا ماغنس ، رئيس الجامعة العبرية في القدس، بأخذ زمام المبادرة مـن جديد لانشاء منظمة جديدة اسمها « ايحود » (Ihud) وتحمل راية الدعوة لتوحيد جميع البلدان التي ينتمي اهلها الى الشعوب السامية ، بالاضافة الى اقامة دولة مزدوجة القومية في فلسطين ودمج الاتحاد السامي في نظام العالم الديمقراطي (٨) ، سارع الصهيونيون « القدماء » و « الجدد » الى التنصّل من الفكرة وطالبوا بايقاف الدكتور ماغنس عند حده واقصائه عـن منصبه ، فيما لو اقتضى الامر كذلك . والمعروف ان ماغنس اقترح على الصهيونيين الغاء تلك المادة مـن قانون الصندوق القومي اليهودي (الكيرين كايمت) والمتعلقة بتأجير الاراضي التي يشتريها الصندوق المذكور الى اليهود وحدهم وحصر اليد العاملة في الممتلكات اليهودية بهم ايضا . ومع العلم بـان الاتصالات التي اجرتها جماعة الدكتور ماغنس للبحث في مجالات التقارب بين العرب واليهود في فلسطين لم تسفر عن نتائج ايجابية ، فقد تعالت الاصوات لدى الفئتين الصهيونيتين متهمة اياه باستخدام مركزه ومكانته للاقدام على مناورات سياسية محفوفة بالضرر والخطر ! واعتبرت بادرته خروجا على نظام اليشوف وشق عصا الطاعة على الاجهزة المسؤولة لدى يهود فلسطين ، بالاضافة الى كونه يزج باسم الجامعة العبرية ليخدم اغراضه السياسية (٩) . بينما راح موشيه شرتوك في تقريره عن الوضع

---

٨ ـ انظر صحيفة «The Jewish Chronicle», September 4, 1942 وقد ضمت المنظمة حوالي الستين من الشخصيات اليهودية البارزة ، على رأسها امثال هنرييت تزولد ، مارتن بوبر ، وموشيه سميلانسكي وكالفاريسكي .

٩ ـ Zionist Review, Sept. 11, 1942

السياسي المرفوع الى اللجنة الداخلية في المجلس الصهيوني العام بالقدس يصف برنامج منظمة « ايحود » بانه يتعارض مع النشاطات الصهيونية في الولايات المتحدة الاميركية ومع رغبات الجماهير اليهودية . وقد انطلق شرتوك من الاقتناع الصهيوني التوسعي الذي يعتبر كل برنامج سياسي لا يشتمل على المطالبة بفتح ابواب الهجرة كأحدى دعاماته الرئيسية ، برنامجا يتعارض مع الاهداف الاساسية للصهيونية (١٠) . فاستنكر العمل الذي اقدم عليه ماغنس وجماعته واصفا اياهم بفئة صغيرة لا تملك اي نفوذ لدى يهود فلسطين او في الشؤون الصهيونية ، واعتبر « ايحود » تشكل خطرا في حد ذاتها لان اعضاءها لا يترددون في الاعراب عن عدائهم للصهيونية والمجاهرة بذلك العداء !

واذا كان رد الفعل لدى الصهيونية الرسمية قد بلغ هذا الحد ، فمن السهل علينا تصور موقف التحريفيين من الافكار التي اعلنتها « ايحود » . ولا يفوتنا التذكّر بان الدكتور ماغنس وزملائه سارعوا الى اعلان معارضتهم الشديدة لسياسة الكتاب الابيض (١٩٣٩) واعطوا شتى التأكيدات بان موقفهم ما زال على حاله . وفي ربيع ١٩٤٤ كانت صحيفة « الجويش ستاندرد » ، الناطقة بلسان الحركة التحريفية ، تتابع شن حملتها على نشاطات الدكتور ماغنس ناعتة اياها بالحشرجة الاخيرة لروح التهدئة التي اقترنت باسم ميونيخ ، وزاعمة ان جهوده لحل المشكلة اليهودية ـ العربية عن طريق منع هجرة اليهود لا تعني سوى وضع المستوطنين اليهود تحت رحمة الخناجر العربية (١١) . فلم تبق سيئة في نظر الصهيونية الا وجرت نسبتها الى المواقف التي يتخذها الدكتور ماغنس . فهو يعارض تأليف الجيش اليهودي وينتقد تصرفات الوكالة اليهودية التي تبدو له « دولة ضمن دولة » ، تسير بدافع الغطرسة والشوفينية . لذلك لا يجد المعلّق التحريفي سوى القول بان ماغنس يردد اصداء صوت وزارة المستعمرات البريطانية والمندوب السامي ، لا بل يبادر لاعطاء اشارة للممثلين على مسرح السياسة الخطرة . فهو يقترف ذنب التخريب الفكري ويريد منح اليهود حقوق الاقلية في البلاد التي اكثريتها من العرب ، على ان تبقى نسبة العرب لليهود على حالها (٢:١) .

---

١٠ ـ The Jewish Chronicle, Sept. 18, 1942

١١ ـ انظر A. Melitz, «The Activities of Dr. Magnes» in The Jewish Standard, March 10th, 1944.

وقد ختم الكاتب تعليقه بالقول ان التفاهم الحقيقي لا يتم الا على اساس الاعتراف المتبادل بالمطالب الحيوية لدى كل فريق . ونبّه الى النقطة التي تصلها حرية النقاش والكلام اذ تقترب من الخيانة العظمى للمصلحة القومية ، وعلى الاخص حين يتحول دعاة هذه الفكرة الخطرة الى طابور خامس متى حان الوقت لذلك ! فالنشاطات التي تقوم بها جماعة ماغنس هي بالفعل معادية للامة وللصهيونية ، وبالتالي مناوئة لليهودية .

* * *

وحين نعود لمتابعة السياسة التي سار عليها خلفاء جابوتنسكي ابان السنوات الفاصلة بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام اسرائيل (١٩٤٥ ــ ١٩٤٨) ، تطالعنا المطالب والمزاعم التي عهدناها لدى المنظمة الصهيونية الجديدة منذ انشائها على يد فلاديمير جابوتنسكي . ففي تموز (يوليو) ١٩٤٥ ، مثلا ، كان زعماء التحريفية يدلون بتصريح رسمي يتضمن قواعد السياسة التي قرروا المضي بها حتى النهاية . ومن جملة مطالبهم التي كانت منظمة الارغون اداة تنفيذها على الصعيد العسكري والارهابي : السعي لحمل بريطانيه على احداث تغيير كلي في سياستها الكبرى نحو الصهيونية ، كي لا تسوء العلاقات البريطانية ــ اليهودية وتختفي آثار المرارة من النفوس ، تحذير الدول الكبرى الثلاث من عاقبة ترك مشكلة التشرد اليهودي بلا حل دائم ، ودعوة بريطانية لاستخدام نفوذها في « العالم العربي المزعوم » (هكذا) وتنفيذ سياسة اقامة الدولة اليهودية بفلسطين ، بغض النظر عن « خرافة المعارضة العربية » (١٢) . ومن الملاحظ ان التحريفيين لم يتخلوا عن اعتقادهم بان سياسة الدولة اليهودية لن تلقى معارضة تستحق الذكر من جانب الشعوب العربية متى تم وضعها موضع التنفيذ بحزم واستقامة . فلا تزال حدود الانتداب في عرفهم تشمل فلسطين التاريخية على ضفتي الاردن : الشرقية والغربية . لذلك يتلخص المطلب الاعلى بما يلي :

« ان مطلبنا من بريطانيه هو اقدامها ، بالاشتراك مع الدول الكبرى ، على اعلان عزمها على الاعتراف بفلسطين الانتداب كدولة يهودية تحكم نفسها بنفسها ... ويجب ان تقوم حكومة يهودية

١٢ ــ انظر صحيفة The Jewish Standard, July 20, 1945

مؤقتة تتمتع بسلطات تخولها تنفيذ شتى الاجراءات التي تتيح المجال امام اعلان الدولة اليهودية في اقرب فرصة ممكنة ... وتنظيم عملية نقل اليهود طوعا من اوروبه وغيرها الى فلسطين ...»(١٣).

هذا وقد سبقت الوكالة اليهودية الى تقديم مذكرة لمؤتمر سان فرنسيسكو في مطلع ايار (مايو) ١٩٤٥ ، ضمنتها برنامجا من خمس نقاط بقصد « الحفاظ على الحقوق القومية اليهودية » في فلسطين . وعرض موقع المذكرة ، حاييم وايزمان ، ضرورة اتخاذ الخطوات الخمس التالية لتحقيق غايات الانتداب وسد حاجات الشعب اليهودي :

اولا ـ ان تعلن الدول الكبرى في الحال قرارها القاضي بجعل فلسطين كومنولث يهوديا ، حرا وديمقراطيا .

ثانيا ـ ان تلغى بسرعة جميع القيود على الهجرة وبيع الاراضي وتوطين اليهود بفلسطين .

ثالثا ـ ان تناط بالوكالة اليهودية سلطات للاشراف على الهجرة الى فلسطين وبناء البلاد وتطوير الاراضي المتروكة .

رابعا ـ ان تمدّ الوكالة اليهودية بمساعدات مالية وفنية من الحكومات ، لكي تؤمن الهجرة اليهودية على نطاق واسع .

خامسا ـ ان تمنح الوكالة اليهودية حق الاستشارة والتمثيل في المحافل والهيئات الدولية التي تتناول شؤونا متعلقة بفلسطين » (١٤) .

فحاول التحريفيون المزايدة على تصريح الوكالة اليهودية ومطالبتها باثبات وجودها وسلطتها الفعلية ازاء حكومة الانتداب ، حتى ولو وصل الامر بها الى درجة اظهار الحكم المنتدب وادارة فلسطين بانها آلة تستند الى الموارد اليهودية وتعتمد في سيرها على الرغبة اليهودية في التعاون . وطلبوا الى الوكالة اليهودية ابلاغ سائر الحكومات التي تتصل بها ان ولاءها هو للشعب اليهودي وليس لادارة فلسطين ، الا بمقدار تعاون تلك الادارة مع اليهود في سبيل اقامة دولة يهودية ضمن حدود فلسطين التاريخية (١٥) . كمايتضح من شتى التعليقات والمقالات التي نشرتها

---

١٣ ـ المصدر نفسه .

١٤ ـ راجع صحيفة The Jewish Standard, May 11, 1945

١٥ ـ انظر التعليق الاسبوعي ، المصدر نفسه .

الصحف التحريفيـة آنذاك بان انتهاء الحرب في اوروبه وانتصار الحلفاء لا بد ان تعقبه حرب اخرى في فلسطين لتحقيق النصر الصهيوني والقضاء على مناوئيـه . واتهم التحريفيون وايزمان بالموافقة على كتاب تشرشل الابيض (١٩٢٢) والتخلي عن شرقي الاردن « خوفا من تعقيد الامور » ، والاكتفاء بالضفة الغربية وحدها . غير ان انباء الهجمـات التخريبيـة والارهابية على خطوط المواصلات ومحطات السكك الحديدية ليلـة ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ تؤكد قيام تعاون وثيق بين منظمتي الهاغانا والارغون ، على الرغم من مسارعة مسؤولي الوكالة اليهودية في كل مـن لنـدن وواشنطن لتحميل عصـابتي شتيرن والارغـون زفـاي ليئومي مسؤولية تلك الاعمال (١٦) . فأخذت اصوات الزعماء التحريفيين تتعالى مطالبة خلفاء جابوتنسكي بالعودة الى حظيرة المنظمة الصهيونية القديمة بعد غياب دام عشر سنوات ، وعلما بان جميع الصهيونيين قد اعلنـوا قبولهم بمبدأ الدولة اليهودية الذي تبنته الاجهزة المسؤولة في المنظمـة القديمة ايضا . وتدعو جميـع الصهيونيين لتوحيد صفوفهم والاستعداد لخوض المعركة عملا بالحقيقة البسيطة التالية : « نحن لا نملـك اليـوم الموارد الكافية ــ في الرجال والعتاد ــ لتجهيز منظمتين صهيونيتين وعدد مـن المنظمـات نصف الصهيونية ، بالاضافة الى كثير غيرها » . لذلـك يجدر بخلفاء جابوتنسكي ان يخوضوا معركة انتخابات المؤتمر الصهيوني القادم تحت رايته الخفاقة وفي ضوء صهيونيته التي برهنت الاحداث على صحتها (١٧) .

وحين ادلى المستر ارنست بفين بتصريحه حول لجنة التحقيق الانجلو ــ اميركية (١٣ تشرين الثـاني ، نوفمبر ، ١٩٤٥) ، سـارع كل مـن التحريفيين والوكالة اليهودية الى استنكار ما ورد فيه والتنديد بالسياسة البريطانية في فلسطين ، زاعمين ان التصريح المذكور ليس الا استسلاما للعرب وخضوعا لمطالبهم . وذهب معلق صحيفة « الجويش ستاندرد » ، في معرض حديثه عن « ارغام اليهود على المقاومة » ، الى حد تحـذير الشعب البريطاني من مخاطرة الدخول في نوع من الحرب مـع الشعب اليهودي بقصد « تهدئة الغول الذي ليس غولا بأي حال من الاحوال »(١٨) .

---

١٦ ــ انظر The Jewish Standard, November 9, 1945

١٧ ــ راجع مقالة موردخاي كاتز ــ المصدر نفسه (وكاتز هو عضو اللجنة المركزية في المنظمة الصهيونية الجديدة) .

١٨ ــ المصدر نفسه . November 16, 1945

وتصاعدت اعمال العنف والارهاب ، بينما كانت الوكالة اليهودية تجدد مطالبها للحصول على شهادات هجرة لمئة الف من اليهود ، ويتقدم اسحاق بن زفي ، رئيس الفاد ليئومي ، من المندوب السامي البريطاني بأحر التعازي لعائلات الضحايا ، معبرا عن استنكار اليشوف لاعمال الارهاب والعنف الاخيرة . وفي مطلع العام ١٩٤٦ كشف الجنرال السير فردريك مورغان ، رئيس منظمة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين (U.N.R.R.A.) ، النقاب عن « عصابة يهودية سرية » تمارس شتى النشاطات الارهابية لحمل اليهود البولونيين على الهرب بصورة جماعية الى منطقة الاحتلال الاميركي من المانيه . واكد ان مظهر الذين يعبرون الحدود والمال الذي يحملونه لا يدل على ترحيل او طرد ، بل يؤكد ان الدافع لمغادرة بولونيه يرجع الى منظمة سرية تعمل على اخراج اليهود من اوروبه وتهجيرهم الى فلسطين (١٩) . بينما كان فريدمان يلين ، زعيم عصابة شتيرن ، يدلي بتصريح يعلن فيه : « نحن في حالة حرب مع الامبراطورية البريطانية الان » لكي نجعل من فلسطين دولة يهودية رغم أنف البريطانيين ! ولم ينس الصهيونيون مطامعهم التوسعية في أي وقت من الاوقات . فها هي منظمة « التوراة والعمل » التي تضم عناصر يهودية متدينة (Torah Va'Arodah) تعلن في مؤتمرها السنوي الثامن عشر دعوتها لانشاء « دولة يهودية ضمن الحدود التاريخية » ، الى جانب الاعراب عن خيبة املها المرة لتصريح المستر بفين السياسي ، ورفضها لسياسة الكتاب الابيض ولكل مشروع يهدف لتقسيم فلسطين التاريخية باعتباره يتعارض مع المبادىء الدينية (٢٠) . وتلجأ المنظمة الصهيونية الجديدة الى اتخاذ قرارها بعدم التعاون مع لجنة التحقيق الانجلو ـ اميركية ، متهمة الاعضاء البريطانيين في اللجنة بانهم لا يهتمون حتى لمسألة « جمع الحقائق » ، جاعلين من اللجنة مهزلة كاملة .

اما حين ادلى المستر بيفين بتصريحه الثاني حول شرقي الاردن امام الجمعية العامة للامم المتحدة (١٧ كانون الثاني ، يناير ، ١٩٤٦) فقد ثارت ثائرة الصهيونيين « لسلخ ذلك الجزء من فلسطين الى الشرق من نهر الاردن » وجعله دولة مستقلة ذات سيادة ، فاعلنوا وقوفهم صفا واحدا خلف الوكالة اليهودية في قيادتها لمعركة الكفاح في سبيل « الحقوق

---

١٩ ـ المصدر نفسه ، January 4, 1946
٢٠ ـ المصدر نفسه .

القومية اليهودية » ونقل القضية الى الامم المتحدة (٢١) . وكتب احد الملقين التحريفيين حول الناحية القانونية لمسألة فصل شرقي الاردن ليعلن ان السيد الاوحد على فلسطين التاريخية هو الشعب اليهودي بلا منازع . فاعتبر انشاء شرقي الاردن كدولة مستقلة دون الحصول على موافقة الشعب اليهودي خرقا للقانون الدولي ! بينما راحت صحيفة خلفاء جابوتنسكي تتحدث في افتتاحيتها عن « اردننا » (Our Jordan) مستخفة بدولة شرقي الاردن ، ومؤكدة ان وعد بلفور اعتبر نهر الاردن بمثابة « النهر الفلسطيني » وليس حدود دولة يرسمها البريطانيون لارضاء رغبات اصدقائهم بين العرب . ووصف البروفسور كلاوسنر (Klausner) الاعتداء البريطاني على كرامة التاريخ اليهودي بـ«السرقة» (The robbery) (٢٢) . ثم ناشد اليهود ان يتذكروا هذه الفعلة الاثيمة . وانضم حزب مزراحي والصهيونيون العامون الى المنظمة الصهيونية الجديدة في الموافقة على اتخاذ القرار التالي :

« ان الامة اليهودية لن توافق مطلقا على سلخ شرقي الاردن عن جسد فلسطين الذي تربطها به صلات تاريخية وجغرافية واقتصادية . ولا يستطيع اي تصريح ان يغيّر من اعتقاد كل فرد يهودي بان الارض الواقعة شرقي نهر الاردن تؤلف جزءا لا يتجزأ من وطنه الأم ودولة المستقبل » (٢٣) .

وجرى توزيع عشرات آلاف النسخ من قصيدة جابوتنسكي التي مر معنا ذكرها ــ « شمال الاردن » (Semol Hayarden) . فتضافر الشعور الديني وتناسى الصهيونيون خلافاتهم في سبيل الاعراب عن رفض اليهود اجمعين لفصل « فلسطين الشرقية » عن جسد الارض التي يطمعون بالاستيلاء عليها تحت راية مزاعم التوراة والتاريخ والتراث والوطن القومي اليهودي .

واخذت الصحافة الصهيونية تتحدث صراحة عن « حركة المقاومة اليهودية » التي تتألف من الهاغانا والارغون زفاي ليئومي وشتيرن (« المحاربون في سبيل حرية اسرائيل ») . فانذرت بريطانيه كي تعتبر كل

---

٢١ ــ المصدر نفسه ، Friday, January 25, 1946

٢٢ ــ المصدر نفسه ، February 8, 1946

٢٣ ــ المصدر نفسه .

يهودي في فلسطين عضوا ينتمي بالفعل الى « حركة المقاومة » . بينما كان الجنرال دارسي ، قائد القوات البريطانية في فلسطين يدلي بالشهادة التالية امام لجنة التحقيق : في حال خروج القوات البريطانية من البلاد ، سوف تتمكن الهاغانا ، التي يقدر عدد افرادها بسبعين الف جندي ، من احتلال فلسطين والحفاظ على مكاسبها لثلاث سنوات دون الحصول على اية مساعدة خارجية . واذا حصلت الهاغانا على الذخيرة من الخارج ، استطاعت البقاء في مراكزها المحتلة الى الابد (٢٤) .

وفي ١٩ آذار (مارس) ١٩٤٩ تم اندماج الحزب التحريفي وحزب الدولة اليهودية وانتقلت السلطات القيادية الى « اتحاد الصهيونيين التحريفيين » في المملكة المتحدة . بينما راحت اجهزة الدعاية تعلن بان الحركة التحريفية تتزعّم ما اسمته « الكفاح القومي اليهودي » ، واكدت ان « حركة جابوتنسكي » قد اصبحت على رأس « النضال اليهودي في سبيل الحرية » ، بعد ان اقتنع اليشوف بان « طريقنا هي الطريق الوحيدة ، ونحن نقتفي الان خطوات زعمائنا (٢٥) » . وتصاعد النشاط الارهابي الصهيوني فبلغ ذروته في حادثة نسف اوتيل الملك داوود وغيرها من اعمال العنف والقتل ضد المدنيين العرب . فزالت الفروقات بين جميع الصهيونيين وجرى ارتكاب شتى انواع الجرائم تحت ستار « حركة المقاومة اليهودية » . ولا غرو فان الوثائق والمعلومات المتوفرة تؤكد قيام التعاون الوثيق بين كل من الارغون والهاغانا من جهة وبين الهاغانا ومسؤولي الوكالة اليهودية (وعلى رأس هؤلاء دافيد بن غوريون) من جهة اخرى . وهكذا خيّمت ظلال الارهاب الصهيوني الموحّد على حياة فلسطين وسمائها . وانكشفت امام البريطانيين طبيعة تلك الاتصالات السرّية بين المنظمات والعصابات الارهابية الصهيونية في فلسطين وخارجها . كما اتضحت معالم الخطة الرامية الى ادخال الارهابيين اليهود الذين تلقوا تدريبهم في جيوش اوروبه الشرقية وغيرها تحت ستار الهجرة الى فلسطين .

وتنادى الصهيونيون التحريفيون وانصار حزب الدولة اليهودية الى حضور المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين (بازل ، ١٩٤٦) ، فتمت بذلك

---

٢٤ ــ راجع خلاصة التصريح في «الجويش ستاندرد» March 29, 1946

٢٥ ــ المصدر نفسه ــ من تصريح لاعضاء اللجنة المركزية اثناء توقفهم في لنـدن .

عودة المنشقين عن الصف الصهيوني العام . وجاء العام التالي (١٩٤٧) ليشهد تضافر الجهود الصهيونية ووقوفها صفا واحدا في سبيل تحقيق حلم هرتزل ونوردو ونقل تعاليم جابوتنسكي الى صعيد الواقع العملي . وانتقل الصراع المزعوم بين اسلوبي جابوتنسكي ووايزمان الى اجتماعات المؤتمر الصهيوني ، دون ان يتخلى التحريفيون عن مطالبتهم باسترجاع شرقي الاردن او عن اتهامهم لانصار الوكالة اليهودية بالانهزامية والتخاذل. فقد جمعت بينهم الان « وحدة الكفاح » في سبيل نصرة الصهيونية ، وعادوا الى حظيرة المؤتمر الاصلي وفي نيتهم « تحويل المؤتمر الصهيوني الى برلمان للشعب اليهودي ، يجري انتخاب اعضائه ديمقراطيا بالتصويت العام والحر لجميع اليهود الراغبين في ذلك (٢٦) » . لكن العقدة التوسعية بقيت متمكنة من النفوس الصهيونية .

فحين دار الحديث في اروقة الامم المتحدة عن التقسيم ، سارعت منظمة الارغون الى رفع مذكرة في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ ضمّنتها الاعتراضات التي لقّنها اياها المعلم جابوتنسكي . فانتقدت مشروع التقسيم واعادت الى الاذهان مطامع الصهيونية في شرقي الاردن ، ثم خلصت الى القول بان اي اتفاق حول موضوع التقسيم لا يلزم الشعب اليهودي بتاتا . وقد يكون من المفيد نقل بعض الفقرات التي وردت في المذكرة على الشكل الاتي :

« لا يمكن لاي وعد يقطعه الزعماء اليهود على انفسهم بالحفاظ على الحدود التي يجري تعيينها ان يبر به ، وليس بالامكان الوفاء به . ان الضغط المتزايد لملايين من التائقين للعودة وهدفهم الوحيد وضع حد لحياة الذل والمهانة في الدياسبورا سوف يتغلب على جميع العقبات التي قد توضع في طريقهم » .

« ان ارض اسرائيل لا يمكن تقسيمها ولا يجوز ، بل من الواجب اعادة توحيدها . فشرقي الاردن تؤلف جزءا لا يتجزأ من وطننا الأم ، وقد حوّلته بريطانيه هذا الجزء من بلادنا ــ تحت ستار منحه الاستقلال ــ الى مستعمرة اخرى من مستعمراتها » .

« اننا نعلن كل اتفاق يوقعه افراد او مؤسسات على اي مشروع للتقسيم غير ملزم لشعبنا . فتوقيعهم لاغ ولا قيمة له منذ البداية.

---

٢٦ ــ Jewish Standard, March 15, 1946

وكل معاهدة يجري توقيعها على اساس التقسيم تنقصها صفة الشرعية ، ويصبح من حق شعبنا وواجبه ان يبادر الى الغائها (٢٧) » .

وقد بادر الارهابي مناحيم بفين الى تلخيص الاهداف السياسية لمنظمة الارغون فيما يتعلق بنطاق التوسع الإسرائيلي على الصورة التالية :

« تعتبر الارغون ارض اسرائيل وطن الشعب اليهودي » . وتعني ارض اسرائيل الضفتين الشرقية والغربية للاردن ، بما فيها شرقي الاردن (Transjordan) ولفظة « شرقي الاردن » ترجمة انجليزية ناقصة . والاصل العبراني يطلق بالفعل هذه التسمية على ضفتي الاردن : عبر الاردن (The Westward side of the Jordan) لجهة الغرب ، وعبر الاردن لجهة الشرق (The Eastward side of the Jordan)

ثم تابع اجتهاداته المستوحاة من تعاليم جابوتنسكي والسائرة في خطاه التوسعية قائلا :

« لقد افتتح الاجداد الاوائل لليهود فلسطين قادمين من جهة شرق الإردن الحالية ، وعبروا نحو فلسطين من الشرق الى الغرب . والارغون تعتبر الرقعة بأسرها ارضا يهودية ، وتهدف لخلق جمهورية عبرانية في ظل حكومة ديمقراطية » (٢٨) .

وحين اثار دافيد بن غوريون مسألة انشاء حكومة يهودية مؤقتة ، ونال موافقة الفاد ليئومي على صيغة نداء يناشد الامم المتحدة اقامة تلك الحكومة ، سارعت الارغون الى اعلان تأييدها ودعمها الكلّي على اساس اخذ الشرط التالي بعين الاعتبار :

« نحن نعلن صراحة باننا سوف نمنح تأييدنا لانشاء حكومة يهودية مؤقتة ، شرط ان تكون حكومة على ارض اسرائيل بكاملها ، وليس على غيتو يهودي في ارض اسرائيل . ان مشروع التقسيم مشروع للنكبة وسوف نحاربه بكل ما لدينا من قوة . ومن العبث ان تنطلق من هذه الزاوية دعوة منافقة لتأليف جبهة يهودية موحدة . فلا

٢٧ـ راجع مقالة **«Irgun and Partition» — Jewish Standard, October 31st, 1947.**

٢٨ ـ المصدر نفسه .

محل لجبهة موحدة مع اولئك الذين على استعداد لتجزئة الوطن الأم ، بل جوابنا الوحيد هو الحرب ضد الذين على استعداد لتقسيمها » (٢٩) .

ما اشبه الأمس باليوم ، والعكس بالعكس . فما اعلنه بيغين على لسان منظمة الارغون قبل عشرين عاما بالضبط ، قد اصبح في طور التحقيق والتنفيذ . ولا يختلف في جوهره عن التصريحات التي اخذت تصدر عن زعماء اسرائيل ـ ومن بينهم بيغين والكتلة التي يتزعمها ويمثلها في حكومة ليفي اشكول ـ حول النية في جعل الاحتلال والتوسع الاسرائيلي بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) امرا واقعا لا رجوع عنه ، وخطوة فعالة في سبيل قيام « اسرائيل الكبرى » .

وفترة العشرين عاما التي انقضت على قيام الدولة الصهيونية في فلسطين المحتلة هي خير شاهد على عقدة التوسع الصهيوني ، وبالتالي « حقل تجارب » لوضع الفكرة موضع التنفيذ بشتى الوسائل الممكنة والمستنبطة . اذ تخيّم عليها ظلال « النبي المسلح » : دافيد بن غوريون ؛ وتحمل طابع تفكيره السياسي والتوسعي على اصدق وجه . فلا عجب ، اذن ، ان يكون العصر اللاحق لعصر جابوتنسكي وخلفائه وقفا على بن غوريون وتلامذته العاملين بوحي تعاليمه كأداة لتنفيذ السياسة العدوانية التوسعية التي ما فتىء ينادي بها ويعلنها على رؤوس الاشهاد .

---

٢٩ ـ المصدر نفسه .

القسم الرابع

عصر بن غوريون

من «اسرائيل» الى «اسرائيل الكبرى» ١٩٤٨ ــ ١٩٦٨

« ليس من السخف ان نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحاح بالعودة الى حدود عام ١٩٦٦ أو عام ١٩٦٧ ، تماما كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود ١٩٤٧ ، تلك الحدود التي رفضوها في الماضي » .

ابان ايبان ــ صيف ١٩٦٥
في مجلة Foreign Affairs

لم يكد يمض الاسبوع الاول لاعلان قيام دولة اسرائيل حتى كان المستر اوبري ايبان ينوب عن الوكالة اليهودية في اعطاء الاجابات التالية على عدد من الاسئلة التي وجهها مجلس الامن الى المسؤولين الصهيونيين :

أ ــ ان حكومة اسرائيل المؤقتة تمارس الان سيطرة فعلية على مساحة الدولة اليهودية كما حددها قرار الجمعية العامة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ . وبالاضافة الى ما تقدم تمارس حكومة اسرائيل المؤقتة سيطرة على مدينة يافا ، والقسم الشمالي الغربي من الجليل ، المشتمل على عكا والزيب والبصة ، والمستوطنات اليهودية الممتدة حتى الحدود اللبنانية ، وتسيطر على رقعة بمحاذاة الطريق من حولده الى القدس ، وعلى معظم القدس الجديدة ، والحي اليهودي داخل جدران مدينة القدس القديمة . ان المساحات المذكورة اعلاه تقع خارج اراضي دولة اسرائيل » (١) .

---

١ ــ اعتمدنا النص كما اوردته صحيفة Zionist Review, May 28, 1948 واوبري ايبان هو نفسه ابا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل حاليا .

ب ـ « نحن نعتبر اراضي اسرائيل وحدة قائمة بذاتها وتضم اكثرية يهودية . وكما اشرنا اعلاه ، فان حكومة دولة اسرائيل تعمل في اقسام من فلسطين تقع خارج اراضي دولة اسرائيل ، وهي الاقسام التي ضمت في معظمها اكثريات عربية سابقا ، باستثناء القدس . غير ان هذه المناطق قد تخلّى عن معظمها سكانها العرب . ولا توجد مساحة خارج فلسطين واقعة تحت الاحتلال اليهودي ... » (المصدر نفسه) .

ومضى المستر ايبان في حديثه عن القيام « بعمليات حربية (٢) » عبر حدود الدولة بين الحين والاخر وفقا لما املته العوامل العسكرية و«كجزء من خطة دفاعية في جوهرها» . ثم انتقل الى تبرير العمليات التي جاء على ذكرها ، فاعتبرها لصد العدوان والحؤول دون استخدام هذه المناطق كقواعد للهجوم ضد دولة اسرائيل ، ولحماية السكان اليهود وحركة السير والحياة الاقتصادية خارج اراضي الدولة . وأبلغ مجلس الامن ان الترتيبات قد اتخذت كي يدخل فلسطين مهاجرون يهود من جميع الاعمار ومن الجنسين ، قادمين من بلدان عديدة وتمشيا مع الفرض الاول لدولة اسرائيل بان تفتح ابوابها امام الهجرة على نطاق واسع جدا .

ولا حاجة بنا لمتابعة شتى التفاصيل التي اوردتها مذكرة الوكالة

---

٢ ـ والترجمة العربية الأصحّ لما عناه المستر ايبان بالعبارة التالية :

«No area outside of Palestine is under Jewish occupation but sallies beyond the frontiers of the State of Israel have occasionally been carried out by Jewish forces for imperative military reasons, and as a part of an essentially defensive plan».

تضع لفظة « هجمات » صاعقة او مفاجئة بقصد فك حصار ما او خرقه ، مقابل كلمة (Sallies) التي استعملها ايبان ، فاصبحت منذ ذلك الحين احد المرتكزات البارزة في التكتيك العدواني الاسرائيلي وذريعة لتغطية التحركات التوسعية الصهيونية وتبريرها . ولا غرو فقد راحت « الهجمات » المذكورة تتكرر طيلة السنوات التي تلت قيام دولة اسرائيل في فلسطين المحتلة ، تارة تحت ستار «التأديب» و « الانتقام » ، وطورا بحجة « الوقاية » والحؤول دون تلقي الضربة الاولى . وجاء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، ومن بعده عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، بمثابة الصيغة المكبّرة لتلك الهجمات المفاجئة عبر حدود دولة اسرائيل بقصد توسيع تلك الحدود والعمل على تثبيت دعائم مشروع « اسرائيل الكبرى » .

اليهودية . فالقصة اخذت تتكرر منذ ذلك الحين وطيلة العشرين عاما التي انقضت على قيام دولة اسرائيل فوق اراضي فلسطين . والجواب المعد لاستهلاك مجلس الامن الخاص يتحاشى الافصاح عن النوايا العدوانية والتوسعية المبيتة . وبعد خمسة شهور على ارسال اجوبة المستر ايبان ، كانت « قوات جيش الدفاع الاسرائيلي » تتحرك لاحتلال النقب وضمها الى اراضي اسرائيل . بينما تعالت اصوات التحريفيين مطالبة ببذل اقصى الجهود لاحتلال فلسطين التاريخية بكاملها عند هذا المنعطف . واعربت الصحف الناطقة باسمهم عن الاعتقاد السائد بان « اسرائيل في وضع يتيح لها ، خلال زمن قصير ، كي تقوم بتطهير فلسطين الغربية من العرب وارسال قوات الى شرقي الاردن («فلسطين الشرقية») لتقضي مرة واحدة على السراب الذي يزعم وجود شيء باسم دولة شرقي الاردن (٣) » . ولم يكتف التحريفيون بذلك ، بل ساهمت منظماتهم العسكرية وعصاباتهم الارهابية ايما مساهمة في نقل ذلك الاعتقاد الى الصعيد العملي . واستأنفوا المفاوضات لتوحيد الحركة التي انشأها جابوتنسكي ، بغية الوصول الى اتفاق بين المنظمة التحريفية وجماعة « هاحيروت » (Hacherut). فعقدت منظمة « بيطار » اول مؤتمر لها بعد الحرب في باريس بين ٢٥ ــ ٣٠ من ايلول (سبتمبر) ١٩٤٨ . وجرى اتخاذ قرارات ترحب باعلان قيام دولة اسرائيل « كخطوة اولى في عملية استرجاع اسرائيل الكاملة ضمن الحدود التاريخية » ، بالاضافة الى تخصيص قرار يدعو بضم القدس رسميا الى اسرائيل واعلانها عاصمة للدولة الصهيونية . كما ارسل المجتمعون برقية الى زوجة جابوتنسكي واعربوا فيها عن عزم « البيطار » على متابعة العدوان حتى يتم تحقيق وصية جابوتنسكي ــ راس البيطار ــ باسترجاع ارض اسرائيل : حرة كاملة وغير مجزاة (٤) . وقد سبق للزعامة التحريفية ان ابرقت الى بن غوريون من نيويورك معربة عن احتجاجها لاقصاء التحريفيين عن الاشتراك في الحكومة ، فعمد ماير غروسمان الى تذكير بن غوريون بالنداءات التي ناشد فيها توحيد الصف وتصعيد التأييد والدعم ، اذ لا معنى لذلك كله ما دام « ثاني اقوى حزب في اسرائيل » قد اقصي عن المشاركة في السلطة التنفيذية ، والاخطار التي تتهدد اسرائيل تلح على

---

٣ ــ **The Jewish Standard, October 22nd, 1948**

٤ ــ المصدر نفسه .

تأليف حكومة ائتلاف وطني بكل معنى الكلمة ، لكي يتمكن التحريفيون من الاشتراك الكلّي في الدفاع عن البلاد (٥) . غير ان الاقصاء استمر طيلة العشرين عاما التي انصرمت لاسباب ، شخصية وتكتيكية ، سبق التلميح اليها .

وهكذا تسنى لمطالب التحريفيين ان تتحقق عشية عدوان الخامس من حزيران (يونيو) . فقد اجتمع « العدوّان اللدودان » ، بن غوريون وبيغين ، وتصالحا في سبيل توحيد الصف الصهيوني وتكريس التكتل الوطني . ثم جيء بزعيم حزب « حيروت » كوزير دولة في حكومة التكتل الوطني ، يمثل كتلة غاهال (Gahal) اليمينية القوية . وبعد ان بقي الماباي ايام بن غوريون وراء رفض الحكومة للمطالبة بالعمل على نقل بقايا جابوتنسكي الى اسرائيل تنفيذا لوصيته ، جاءت حكومة ليفي اشكول لتعلن استجابتها لطلب حيروت وتقوم باعادة دفنه في تموز (يوليو) ١٩٦٤ . وفي الذكرى السابعة والعشرين لوفاة مؤسس الحركة التصحيحية والأب الروحي لحزب « حيروت » (مطلع شهر آب ، اغسطس ، ١٩٦٧) سارع انصاره الى اقامة حفلة تذكارية على قبره وقبر زوجته في جبل هرتزل . بينما قام المحاربون القدامى من التحريفيين بجلب حفنات من التراب الى القبر ، جاؤوا بها من مختلف انحاء الضفة الغربية — من جبل الزيتون ، ومخاضات نهر الاردن — حيث قاد جابوتنسكي الفرقة اليهودية قبل خمسين عاما ، ومن قبر راحيل والخليل (٦) . وراحت كتلة «غاهال» التي تضم احزاب حيروت والليبراليين والصهيونيين العامين تسعى لحمل الحكومة على تعديل سياستها بصدد عودة اهالي الضفة الغربية الى بيوتهم . فذكرت صحيفة « الجيروسالم بوست » بان الحزب الليبرالي يسير في ركاب « حيروت » ، اذ تبنت لجنته التنفيذية قرارا يصر على « عدم السماح للاجئين العرب بالعودة الى منازلهم في الضفة الغربية ، لانهم سوف يكونون بمثابة طابور خامس » في المناطق المحتلة . وتمنت على الحكومة الا ترحب بمبعوث الامين العام للامم المتحدة فيما يتعلق بالقدس ، لان مجيئه يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية لاسرائيل وخرقا للسيادة الاسرائيلية ، بعد ان سبق للكنيست اقرار القوانين التي توحّد بين قطاعي القدس (٧) . ومضت الصحيفة تقول بان هذه المقترحات نالت

---

٥ — المصدر نفسه May 21st, 1948

٦ — راجع صحيفة «الجيروسالم بوست» .Monday, August 7, 1967

٧ — المصدر نفسه August 13, 1967

اكثرية ساحقة وانتصرت على الاعتراضات التي ابداها الوزير الليبرالي ، يوسف سابير ، بعد ان نال حظه من الانتقاد بسبب ما اسمته « المبالغة في الحذر » .

واذا كنا قد قصرنا حديثنا على خلفاء جابوتنسكي حتى الان ، فلا يعني ذلك قبولا بالدعاية المضللة التي درجت الاجهزة الصهيونية على بثها في سائر انحاء العالم منذ قيام دولة اسرائيل : بان حزب حيروت المتطرّف وحده يدعو الى انتهاج سياسة توسعية ويرفع شعارات « اسرائيل ضمن الحدود التاريخية» ، بينما تسعى دولة اسرائيل المسالمة (او حزب الماباي الحاكم) للعيش بسلام واطمئنان مع جيرانها . وقد جاءت الاحداث طيلة العشرين عاما المنصرمة خير دليل على بطلان هذا الزعم والنتائج الخطيرة المترتبة على الاخذ به والوقوع فريسة له . فمن التعدّيات المتكررة عبر حدود الدولة كما اقرها مشروع التقسيم في الامم المتحدة الى ضم المناطق العربية بحجة الحفاظ على الامن ومتطلباته واحتلال النقب والاستيلاء على منطقة العقبة التي تحولت الى ميناء ايلات ، الى العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وعدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ــ نجد عقدة التوسع الإسرائيلي قابعة وراء جميع التحركات والمناورات والاعتداءات . وتطالعنا تصريحات قادة اسرائيل المتكررة بشتى التأكيدات على ما تضمره الصهيونية من النوايا التوسعية تحت ستار الحديث عن « تحرير ارض الوطن القومي اليهودي بكاملها » والتطلع صوب دولة المستقبل التي سوف تمتد لتشمل «ارض اسرائيل» كلها ضمن الحدود التاريخية المنشودة .

فهذا هو بن غوريون يعكف على صياغة الاساس الايديولوجي الارىدنتي للصهيونية العالمية من خلال استدراجه لبعض المعطيات الجغرافية والتاريخية والدينية واسباغها على قاعدة الصهيونية التي تجسّدها دولة اسرائيل . وقد عبّر في احدى مقالاته التي تصدّرت « الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل » (تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩٥٢) ، ثم اعيد نشرها بعنوان « اسرائيل بين الامم » في كتابه : « بعث اسرائيل ومصيرها » ، عن تصوره للابعاد والملابسات الجغرافية والتاريخية والدينية التي ينطوي عليها وجود اسرائيل من خلال الفقرات الثلاث التالية ، ننقلها تباعا لورودها في سياق المقالة :

الفقرة الاولى تشير الى موقع فلسطين الجغرافي عبر التاريخ وانعكاساته على مسألتي الحدود والتوسع . وتسعى متعمدة الى ابراز

العامل الجغرافي الثابت بغية ايجاد الصلات بين الماضي السحيق والحاضر، ومع التحفظ بصدد الراي القائل ان التاريخ يعيد نفسه :

« ان جغرافيتها (ارض اسرائيل) ، حيث ملتقى قارات ثلاث ، اضفت على البلاد اهمية قصوى وجعلتها بصورة ما ، حجر المغناطيس ، الذي يجتذب الامبراطوريات . لكنها لم تضف شيئا من ناحية الامن الى قدرة اسرائيل في الدفاع عن نفسها . بل على العكس ، انقصتها من حيث الواقع والقياس . ولم تكن حدود اسرائيل مرسومة ومعيّنة ، بل جرى تنقيلها مرارا وتكرارا منذ ايام القضاة الى ايام باركوحبا . وحتى في ذروة توسعها ونموّها ، لم تكن تلك الحدود بالذات لتشكل ضمانة للبقاء والوجود . ولا يختلف وضع اسرائيل التي بعثت من جديد عما كان عليه في الماضي البعيد ، او يفضله . فتعريفها الجغرافي ـ الطبيعي لم يتغير عمليا ، على الرغم من التبدلات الكبرى والحيوية التي طرات على محيطها الجغرافي ـ السياسي (٨) » .

ثم تأتي الفقرة الثانية لتزوّد السائل عن ذلك التعريف الجغرافي الطبيعي بجواب بن غوريون الذي يذكّرنا بكثير من العبارات الواردة في كتابات المشتغلين لصالح « صندوق اكتشاف فلسطين » . فهي تقرر ما يلي :

« تتميز بلادنا في النواحي الثلاث الآتية :
الطوبوغرافيا
والجغرافيا
والتاريخ

ان هيئتها لا مثيل لها على سطح الكرة الارضية . فعلى طولها بأسره ، والممتد من الشمال الى الجنوب ، من قمم لبنان وحرمون الى البحر الاحمر ، تمتد تلك الهاوية (Abyss) التي ندعوها وادي الاردن وصحراء العربة ، وفي وسطها يقع البحر الميت الذي ينخفض ٤٠٠ متر عن سطح البحر ، وهو اشد النقاط انخفاضا على اديم الارض (٩) » .

---

٨ ـ انظر **Rebirth and Destiny of Israel, P. 444**
٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥٢ .

وفي الفقرة الثالثة والاخيرة نجد بن غوريون يسعى جاهدا للربط بين الماضي البائد والحاضر الذي يقضّ مضجعه ويأبى التصالح معه ، فيحاول اللف والدوران حول عروبة فلسطين والنظر الى تاريخها من زاوية العصيان الذي تزعّمه « بار كوحبا » ضد الحكم الروماني ، ويؤرخ لظهور الاسلام «بالقرب من ارض اسرائيل» انطلاقا من نهاية «بار كوحبا» :

« لقد اعيد انشاء دولة اسرائيل في القسم الغربي (من فلسطين التاريخية) ، وهي لا تقل مساحة عن الدولة اليهودية خلال معظم فترة الهيكل الاول والهيكل الثاني . بينما خطورة مشكلة الامن الراهنة ليست مسألة اختلاف حول الحدود ، بل هي تنبع من تغيّرات بعيدة المدى حدثت بالقرب من ارض اسرائيل حوالي ٥٠٠ سنة بعد بار كوحبا (اي الفتح العربي) ومن الزلزلة الروحية التي غيرت وجه الشرق الاوسط وآسيه الوسطى وجميع بلدان شمال افريقيه (١٠) » .

وهو يعني بذلك ظهور الاسلام وانتشاره ، وتلك الانطلاقة العربية التي غيرت وجه التاريخ وأضفت طابعها على هذه البقعة من العالم بعد انقضاء قرون على سحق الرومان لحركة التمرد التي تزعمها بار كوحبا ! لكنه يتحاشى التطرق الى التفاصيل والملابسات التاريخية التي احاطت بقيام الكومنولث الاول والثاني ، مكتفيا بالقول ان مساحة اسرائيل الحالية (١٩٥٢) لا تقل عما كانت عليه آنذاك . فيلجأ الى اسلوب النفي ، كي لا يجد نفسه مضطرا للاعتراف بان « اسرائيل » اليوم تفوق بكثير من حيث المساحة التي تحتلها حدود «الرقعة الدينية» التي شغلتها في معظم فترات تاريخها وخلال فترة الهيكل الثاني بنوع خاص (١١) .

---

١٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦٣ .

١١ ــ راجع ، مثلا ، البحث الذي كتبه سالو بارون مؤلف « تاريخ اليهود الاجتماعي والديني » ، ونشره موشيه ديفيز في كتابه: Moshe Davis — Israel : its Role in Civilization, 1956 في الباب الذي عنوانه «ماذا يعلّمنا التاريخ» . فقد بيّن سالو بارون في بحثه: Salo Baron = «Second and Third Commonwealth : Parallels and Differences» (PP. 58 ff.) حول اوجه الشبه والفروقات بين الكومنولث الثاني والثالث (دولة اسرائيل) ، بان الكومنولث

ومما لا شك فيه ان الآراء الصهيونية التي يعبّر عنها بن غوريون في الفقرات المنقولة اعلاه تكشف عن نوايا اسرائيل وتطلعها نحو تكبير الرقعة التي تحتلها ، متذرعة بالجغرافية والتاريخ او بالاستناد الى ما كانت عليه في قديم الزمان ، واللجوء الى اجراء المقارنات والترابطـــات المزيفة . والواضح ان الصهيونية التوسعية تريد ارجاع التاريخ الى الوراء ، بعد ان تعيد كتابة التاريخ على هواها ووفقا لاطماعها ونزعاتها . فلا بد اذن من ان يحضرنا السؤال التالي : كيف ترفض اسرائيل والصهيونية العودة الى الوراء مجرد عشرين عاما ونيف لتظهر واقعها العدواني في ضـــــوء قرارات الامم المتحدة وحقوق الشعب العربي الفلسطيني ، بينما هي تصر على الرجوع مئات السنين الى الوراء لربط كيانها الغاصب بعجلـــــة كومنولث يهودي عاش فترة من الزمن وانقرض عبر سير التاريخ وأحداثه المتلاحقة . الا يأتي ذلك الرفض الصهيوني بمثابة دليل اخر على كون «اسرائيل» او «الكومنولث الثالث» (١٩٤٨) مجرد مرحلة على طريـــق الوصول نحو « الامبراطورية الإسرائيلية الشاسعة الاطراف » كما تمثلها فكرة المناداة بتحقيق « اسرائيل الكبرى » .

الثاني لم تكن لــه حدود طبيعية بــل « سياسية » ومن صنع الأنسان . (انظر ص ٦٢) . وأكد ان فلسطين لم تكن ابدا لتؤلف كيانا جغرافيا مستقلا » !

حين يعلن دافيد بن غوريون في المقدمة التي كتبها لتصدّر « الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل » (١٩٥٢) بان « دولة اسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل » (١٢) ، يأتي اعلانه بمثابة التأكيد الجديد لكون التوسع الصهيوني في طليعة الاهداف التي تجاهر بها « دولة اسرائيل الصغرى » كلما وجدت الظرف الملائم للمجاهرة والافصاح العلني . وقد عبّر بن غوريون في خطبه وتصريحاته وكتاباته ، قبل قيـام اسرائيل ، وبعد قيامها بنوع خاص ، عن الاتجاه الصهيوني السائد في النظر الى « دولة اسرائيل » كمجرد مرحلة على طريق الحركة الصهيونية الماضية نحو تحقيق ذاتها . فهو ما فتىء يعلن بان « الدولة » لا تشكل هدفا في حد ذاته ، وليست بالتالي « تجسيدا كاملا للرؤيا الصهيونية » . بل هي مجرّد وسيلة للوصول الى الهدف الأسمى : الصهيونية . هكذا نجده يقول في ١٣ آب (اغسطس) ١٩٤٨ ، وبعد « اعلان الاستقلال » وقيام الدولة :

« انني اعتبر المقدمة الكبرى الرئيسية التي تحتل مركز الصدارة في تفكيرنا بأسره ، لا بل توجه حركتنا وسياستنا بأجمعها ، هي التالية : بان الدولة ليست هدفا في حد ذاته ، بل هي وسيلة الى الهدف ، والهدف هو الصهيونية » (١٣) .

---

١٢ ـ انظر **Israel Government Year Book** (1952) — Jerusalem Government Printer, p. 15.

وراجع أيضا : Ben Gurion — **Rebirth and Destiny of Israel,** p. 466.

١٣ ـ انظر **Ben Gurion Looks Back** — in Talks with Moshe Pearlman (New York, 1965), P. 238. وتذكر العبارة التنبوءية التي دونها ثيودور هرتزل ، مؤسس الصهيونية الحديثة ، في يومياته

وفي خطاب القاه داخل الكنيست (مطلع ١٩٥١) يعمد الى تذكير زملائه بان « تسعة اعشار يهود العالم بدون وطن » ، بعد مناشدته اياهم رؤية الامور على حقيقتها وتحذيرهم من الوقوع فريسة تلك « التسميات المغلوطة والعذبة السماع » . لذلك يكرّر على مسامعهم خلاصة الاريدنتية الصهيونية الجديدة وفحوى المقدمة الكبرى للتفكير التوسعي الصهيوني

قبل سبعين عاما (وخمسين عاما تقريبا مــن قيام اسرائيل على أرض فلسطين العربية) ، حيث كتب يقول :

« لو أردت تلخيص أعمال مؤتمر بازل في عبارة واحدة ــ وهذا ما لن أقدم على الجهر به ــ لقلت : في بازل اسست الدولة اليهودية . ولو جهرت بــذلك اليوم ، لقابلني العالم بالهزء والسخرية ، وربما في غضون خمس سنوات ، وفي غضون خمسين سنة على وجه التأكيد ، سوف يراها العالم اجمع »

(انظر : **اليوميات الكاملة** ، ج ٢ ، ص ٥٨١) .

وفي غضون سبعين عاما من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول . كانت الدولة اليهودية تحتل المزيد مــن الاراضي العربية بعد عدوانها الجديد . بينما تنادى الصهيونيون في العالم لتخليد ذكرى مؤتمر بازل الاول والبرنامج الــذي انبثق عنــه . فعقــدوا اجتماعهم التاريخي في مدينة بازل بالذات خلال النصف الثاني من شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ وسط مناخ فورة النصر العسكري الاسرائيلي ونشوة المكاسب والمغانم الاقليمية الجديدة ، وبحضور الجنرال اسحق رابين . (انظــر : « 70 Jahre Zionistenkongress : Ein Kundgebung in Basel » في صحيفة Neue Züricher Zeitung Nr. 4006, Dienstag, 26 September 1967.

وقــد وقــف ناحوم غولــدمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، ليعلن بان هدف الصهيونية الاول ليس خلق دولة يهودية، بل الحفاظ على الشعب اليهودي ! ويؤكد بــان منظمته لم تكن لتوافق على تقسيم فلسطين ، على الرغم من المعارضة الشديدة في صفوف الصهيونيين ، وبالرغم من وعد بلفور ، لولا « الحاجة الملحة لتأمين البقاء بعد سنوات الارهاب النازي » .

المنطلق من قاعدة « اسرائيل الصغرى » بقولـه « ان الامة اليهودية في اسرائيل ... لا تزال وعداً لم يتحقق بعد » (١٤) .

وهكذا تبرز عقـدة التوسع الصهيوني المتأصلة في الحركـة ، منذ قيامها المنظّم على يد ثيودور هرتزل وظهورها على المسرح السياسي العالمي الى ما بعد قيام الدولة اليهودية في فلسطين . وتطالعنا منذ اللحظة الاولى لولادة « اسرائيل » مظاهر جديـدة للمنطق الصهيوني القائم على ابراز التباين والتوتر بين طرفي « الوعد » و « التحقيق » . فالاقسام التي اعطاها مشروع التقسيم لليهود بلغت حوالي خمسين بالمئة من مساحة البلاد ، على الرغم من كون حجم ممتلكاتهم أقل من سبعة بالمئة من فلسطين . وقد سارعوا الى اعلان موقفهم الرسمي معتبرين النصف بمثابة « الحد الادنى الذي يتعذر انقاصه » أو الرجوع عنه . أما الاستراتيجية العسكرية التي خططوا لها ووضعوها موضع التنفيذ قبل خروج الانتداب وغداة الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ ، فلم تكن محصورة ضمن نطاق الحدود التي تحدث عنها ايبان في رسالته الى مجلس الامن الدولي (١٥) . بل تعدت

---

١٤ ــ انظر مقالة « الدفاع المدني » في Ben Gurion — **Rebirth and Destiny of Israel** (New York, 1954), P. 386.

١٥ ــ كتب مراسل صحيفة التايمز اللندنية آنذاك عن الهدنة بين الدول العربية و « اسرائيل » يقول بان الهدنة في فلسطين حالت دون اقدام حكومة اسرائيل المؤقتة على وضع العالم امام « أمر واقع عسكري » . وأشار الى التذمر الذي سمعه في الاوساط الصهيونية من كون الهدنة غير منصفة بحق الـدولة الجديدة ، اذ اعتبرت الاوساط المذكورة ان الهدنة جاءت بمثابة « انكار للطموح الصهيوني المشروع » . أفلا يعني ذلك ان ايقاف اطلاق النار قد فوت على الصهيونية فرصة تحقيق المزيد من التوسع على حساب الآخرين بحجة تأمين المجال الحيوي « للطموح الصهيوني المشروع » ؟ وما هو ذلك الطموح ان لم يكن مجرّد الاطماع التوسعية الصهيونية التي اعتبرت حصتها من التقسيم ــ بعد ان اعطيت فوق ما تملك بسبعة أضعاف تقريبا ــ ذلك الحد الادنى الذي لا رجوع عنه ، فراحت تعمل للاستيلاء على المزيد بغية التطلع نحو تحقيق ذلك الحد الاقصى الذي طالما تحدث عنـه الصهيونيون منـذ هرتزل ونوردو وجابوتنسكي وغيرهم .

سائر الاعتبارات ليتسنى لها ان تفرض « وضعا راهنا جديدا » وتضع العرب والعالم أمام « الأمر الواقع » . والمعروف ان الخطة الاستراتيجية بشقها الثاني والمسمّى بـ « الخطة دال » Plan Dalet وضعت بغية احتلال فلسطين برمتها . فها هو كتاب « معارك » (١٩٤٨) (Ourvot) الصادر بالعبرية لتغطية العمليات العسكرية التي قامت بها « البالماخ » والهاغانا يصف هدف الخطة المذكورة على الشكل الآتي :

« السيطرة على القسم الذي أعطي لنا في الامم المتحدة بالاضافة الى المساحات التي نحتلها والواقعة خارج هذه الحدود ، وتمركز قوات لمجابهة هجوم الجيوش العربية المحتمل بعد الخامس عشر من أيار (مايو) » (١٦) .

لكن حدود « الوضع الراهن » بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة تبقى في نظر بن غوريون أشبه بالحدود الانتقالية أو المؤقتة ، طالما ان حدود الدولة لم تأت مطابقة لحدود الامة المنشودة . فالخريطة التي رسمتها الصهيونية لمملكتها الموعودة ما زالت أوسع بكثير من المساحات التي تم احتلالها والاستيلاء عليها بقوة السلاح (١٧) . والجناح الديني في الحركة

(انظر مقالة «Militant Israel» في صحيفة **The Times,** Monday, Sept. 20, 1948

وانظر ايضا المقالة التالية :

«Irredentism in Israel» **The Times,** Tuesday, Oct. 19, 1948).

١٦ ــ نقلا عن مقالة وليد الخالدي «Plan Dalet : The Zionist Master Plan for the Conquest of Palestine». **PALESTINE.** Collected Papers (The Arab Cultural Club, Beirut, May 15, 1963), P. 69.

١٧ ــ أدلى بن غوريون بالاعتراف التالي خلال مقابلة صحفية نشرتها جريدة « هابوكر » في ٩ آذار (مارس) ١٩٦٤ :

« ان حدود الدولة اليهودية كانت تكون أبعد وأوسع مما هي عليه لو كان الجنرال موشيه دايان رئيسا للاركان العامة اثناء حرب ١٩٤٨ ضد العرب في فلسطين » .

وقد سارع ييغال آلون ، رئيس الاركان آنذاك ، للرد على بن غوريون بقوله :

« لو لم يطلب بن غوريون ايقاف اطلاق النار ــ بصفته رئيسا

الصهيونية يأبى التخلي عن فكرة الإمبراطورية الاسرائيلية التي تعيد امجاد داوود وسليمان في رقعة تمتد من « الفرات الى النيل » . بينما يمضي التحريفيون في مطالبتهم بالحدود التاريخية لفلسطين لتشمل شرقي الاردن باعتباره « الضفة الآخرى » لنهر الاردن . وقد عبّر بن غوريون بالذات عن الاريدنتية الصهيونية أصدق تعبير حين اشار الى انعدام التطابق بين « الـدولة » و « الارض » (ارض اسرائيـل) « والشـعب اليهودي » ، فكتب يقول :

« تتألف كل دولة من الارض والشعب . واسرائيل لا تشذ عن هذه القاعدة ، غير انها دولة لم تأت مطابقة لارضها أو شعبها . . . واضيف الآن انها قامت فوق جزء من أرض اسرائيل فقط . فالبعض يتردّد بصدد استرجاع حدودنا التاريخية التي جرى رسمها وتعيينها منذ بداية الزمان ، وحتى هؤلاء لا يسعهم انكار الشذوذ الذي تمثله الخطوط الجديدة » (١٨) .

للوزارة ووزيرا للدفاع ـ لكانت قواتنا اكملت زحفها لتحقيق النصر : باحتلال نهر الليطاني في الشمال وصحراء سيناء في الجنوب الغربي . . . ولاستطعنا بعد أيام قليلة من متابعة القتال تحرير أرض وطننا باكملها » .

١٨ ـ انظر Ben Gurion — **Rebirth and Destiny of Israel,** Op. Cit. P. 466. وانظر ايضا ـ الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل ، المصدر السابق ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٢ .

غير ان الصيغة الحديثة العهد لخطة التوغل التي استهدف بن غوريون تحقيقها عام ١٩٤٨ ، وجاء موشيه دايان يضعها موضع التنفيذ في عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وردت مؤخرا على لسان بن غوريون بالذات . فقد كتب صفحات من مذكراته خصيصا للعدد الممتاز الذي أصدرته صحيفة « معاريف » الإسرائيلية بمناسبة مرور عشرين عاما على قيام اسرائيل . واكد فيها من جديد انه تزعم الراي القائل بوجوب خرق اتفاقية الهدنة والاستيلاء على الضفة الغربية بكاملها . وحين لم يصادف رايه اجماعا لدى اعضاء الحكومة المؤقتة ، تقـدم باقتراح آخر يدعو للاسراع في احتلال صحراء النقب !

وهناك العديد من الدراسات والكتابات الصهيونية التي نذرت نفسها للحديث عن « رسالة اسرائيل » و « الامــة المقيمة في صهيون » ، وعن « عودة اليهود الى بيت الآباء والاجداد » ، أو اجراء المقارنات بين كل من الكومنولث اليهودي الأول والثاني والثالث المتمثل في دولة اسرائيل . ففي عام ١٩٥٥ ، مثلا ، نشر فريش فاسر ــ رعنان كتابه بعنوان « حدود أمة » ليفحص من جديد تلك القوى التي أوجدت فلسطين الانتداب وقررت شكلها الاقليمي . ونظر الى ما أسماه بـ « قصة حدود اسرائيل (١٨٧٠ ــ ١٩٥٥) من الزاويتين التاريخية والجغرافية ، محاولا اقناع القارىء وايهامه بـــان الكتاب بعيـــد عـــن الإريدنتية الصهيونيـــة او الجغرافيـــة السياسية ، مع العلم بان « مسائل الحدود تلعب دورها الاهم خلال آلام المخاض التي ترافق ولادة الدول القومية الجديدة » (المقدمة) . ومما قاله في مقدمة الكتاب الذي يعنى بسرد تاريخ حدود اسرائيل الدولة ليظهر التباين القائم بـين « الوعــد والتحقيق » أو « المثال والواقع » ، وبين « اسرائيل » من جهة وسائر البلدان من جهة ثانية :

« ان الجغرافية التاريخية للبلدان الأخرى لا بد ان تكون بحكم الضرورة على شاكلة المسرحيات التي يتغير اشخاصها مرات عديدة خلال التمثيل ، بينما لا يتغير أبطال الدراما الاسرائيلية وأنذالها الا بمقدار تقدمهم في السن بعض الشيء » (١٩) .

وما علينا سوى متابعة مشاهد الدراما آنفة الذكر منذ ظهور أبطالها

(انظر : The London Times, 9 April 1968 : «Ben-Gurion's 1947 Raid Plan : Incursion into Jordan» .

وقد سبق لموشيه دايان ان قال في خطاب له أثناء اجتماع حضره انصار حزب رافي بعد شهرين من عدوان ٥ حزيران (يونيو) ما يلي في معرض اصراره على رفض العودة الى حدود عام ١٩٤٨ :

« ان الحدود السابقـــة كانت نتيجة حرب ١٩٤٨ ، عندما كانت اسرائيل ضعيفة . وقد أوجد ذلك الوضع حدودا غير معقولة الى الشرق . . . » .

(انظر : Jerusalem Post, Thursday, August 10, 1967, Vol. XXXVII, Nr. 12033).

١٩ ــ H.F. Frischwasser — Ra'anan — **The Frontiers of a Nation** (London, 1955), P. XV.

وانذالها الى مسرح « الدولة » التي قامت على جزء فقط من أرض الامة الموعودة والمنشودة . وسوف نكتشف ما اذا كان التقدم في السن خلال العقدين المنصرمين لقيام « اسرائيل » قد أدى الى التغيير والتبديل فعلا ، أم ان الاشخاص هم هم ، فريسة لعقـدة التوسع وأداة لتحقيق الفكرة الصهيونية والجمع بين حدود الامة والدولة على صورة «اسرائيل الكبرى» ومثالهـا (٢٠) . ولا يساورنا أدنى شك بـان العصر الـذي يحمل اسم بن غوريون قد شهد اعادة ملقنة للمسرحية اياها ، بأشخاصها وأحداثها وعقدتها . كما لا يغرب عن بالنا ذلك الدور الرئيسي الذي لعبه « النبي المسلح » ــ بن غوريون ــ طيلة المدة التي قضاها في مقاعد الحكم ، للعمل مـن وراء الستار عـلى تحقيق المرحلـة التالية من مخطط الصهيونية التوسعي ، واتمام ما فات الصهيونيين اتمامه غداة قيام دولتهم «الصغرى» على ارض فلسطين : باحتلال القسم المتبقي مـن « فلسطين الانتداب » والاستيلاء على أقسام ومساحات هامة من المناطق العربية المحيطة بها (٢١) .

---

٢٠ ــ راجع المحاضرة التي القاها الياهو ايلات ، رئيس الجامعة العبرية في القدس ، وسفير اسرائيل السابق في بريطانيه والولايات المتحدة الاميركية ، أمام الجمعية التاريخية اليهودية في لندن ، حزيران (يونيو) ١٩٦٦ ، وموضوعها : « اسرائيل وايـلات : الكفـاح السياسي في سبيل ضم ايلات الى الدولة اليهودية » .

Eliahu Elath — Israel and Elath : The Political Struggle for the Inclusion of Elath in the Jewish State. (Jewish Historical Society of England, Weidenfeld & Nicolson, London, 1967).

٢١ ــ كتب دافيد بن غوريون بحثا طويلا بعنوان «اسرائيل والدياسبورا»، وتصدّر البحث « الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل » (١٩٥٧) . ومما جاء فيه :

« لو ان دولة اسرائيل قامت كليا وفرغت من تحقيق رسالتها التاريخية ، لما كان هناك من معنى للنقاش عمن بنى الدولة واقامها . لكننا لا نزال في بدايـة الطريق (عام ١٩٥٧) ، وامامنا طريق طويلة وشاقة ... لذا يتوجب علينا الالحاح الشديد على الحقيقة الاولية بان المهاجرين وحدهم قد بنوا ارض اسرائيل وسوف يبنونها في المستقبل » .

انظر : **Israel Government Year Book, 5718 (1957) — Government Printer (Jerusalem) P. 24.**

وليس الاصرار على التمييز بين « حدود الدولة » التي توصف بحدود الهدنة أو وقف اطلاق النار ، وحدود الوضع الراهن من جهة ، و « حدود الامة » التي تشكل « اسرائيل الكبرى » منعطفا تاريخيا على طريق تحقيقها ، من جهة ثانية ، سوى أحد مظاهر النوايا التوسعية التي تضمرها الصهيونية وتنقلها الى صعيد الواقع العملي متى وجدت الظرف المناسب . لذلك يجدر بنا التوقف عند بعض « الاستعدادات » والمشروعات التي اصبحت « اسرائيل ١٩٤٨ » قاعدتها ومسرحها ، لكي تتحين الفرص وتنطلق نحو تحقيق المرحلة التالية على طريق الصهيونية تحت ستار « القيام بتحرير الاجزاء المتبقية من أرض الوطن القومي اليهودي » ، و « توحيد أرض اسرائيل » بعد طرد سكان فلسطين من بلادهم ــ كمن يقوم بطرد الاجنبي لتحرير وطنه !!

فلنتابع في الفصل التالي خطوات التحرك الاسرائيلي منذ مطلع الخمسينات وعلى صعيد ترسيخ الاحتلال الصهيوني في فلسطين ، حتى نصل الى عدوان الخامس من حزيران (يونيو) والمطالبة العلنية بخلق « اسرائيل الكبرى » وعدم السماح للنازحين العرب بالعودة الى ديارهم كي تعمد السلطات الصهيونية الى توطين المزيد من المهاجرين اليهود وتنشىء المستعمرات الاستراتيجية تحفزا للوثبة التالية .

ولنتذكر كيف حاول بن غوريون ان يبرّر قيام الدولة اليهودية وهجرة عشرات الآلاف من اليهود ــ الأصح ان نقول تهجيرهم على يد المنظمات والشبكات الصهيونية ــ بالرجوع الى ما أسماه « رؤيا الخلاص عند مجيء المسيح المنتظر » ، محاولات تغطية الطابع الاستعماري للصهيونية وطمس معالمها التوسعية . وهو القائل :

« ليس من الممكن فهم كل ما حدث في أيامنا ــ تجديد الدولة اليهودية وهجرة عشرات الآلاف من اليهود الذين لم يقرأوا أبدا هسّ وبنسكر وهرتزل ، وربما لم يسمعوا مطلقا باسم الصهيونية ! ــ دون الالتفات الى رؤيا الخلاص على يد المسيح المنتظر ، تلك الرؤيا التي تمتد جذورها الى أعماق قلب الشعب اليهودي ، ليس فقط منذ خراب الهيكل الثاني ، بل منذ أيام الانبياء الاوائل ، ان لم يكن قبل الرحيل من مصر » (٢٢) .

---

٢٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٦ .

فلماذا تم تهجير تلك الاعداد الكبيرة مـن يهود العالم الى فلسطين المحتلة اذن ؟ وان لم تكن الصهيونية هـي التي حدت بهم للمجيء الـى فلسطين ، فكيف نوفق بـين تعاليم الصهيونية العلمانية وهـذه النزعة الدينية المتأصلة ـ عـلى حد قول بن غوريون . لا بـل متى كانت رؤيـا الخلاص الديني بانتظار مجيء المسيح تجد تحقيقها الامثل في الاغتصاب بقوة السلاح والتعلق بالدنيويات لدرجة اقامة دولة في بلاد الغير وأوطانهم. أوَ ليس سليمان بالذات هـو صاحب القول التـالي في ترنيمة المصاعد (المزمور ١٢٧) :

« ان لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون . ان لم يحفظ الرب المدينة فباطلا يسهر الحارسون » .

وليس بمستبعد على الإطلاق ان تكون الصهيونية العملية قد لجأت الى اثارة المشاعر الدينية في نفوس اليهود واستغلتها لصالحها ، كي تدفعهم للانضمام الى موجات الهجرة تحت ستار « الصعود الى أرض اسرائيل » ، وتبعث الحماس في كوامن نفوسهم ، كي يتسنى لها تحقيق الالتحام التام بين العاطفة الدينية المتعصبة من جهة والروح العسكرية المتجسدة في جماعات الروّاد من جهة ثانية . فقد عبّر عنه « اعلان قيام دولة اسرائيل » ، الذي جاء في نظر الصهيونيين بمثابة « اعلان الاستقلال » ، اذ نصّ على ما يلي :

« سعى اليهود جيـلا تلو جيل مدفوعين بهـذه العلاقة التاريخية والتقليدية الى اعادة ترسيخ اقدامهم في وطنهم القديم . وعادت جماهير منهم خلال عقود السنوات الاخيرة . جاؤوا اليها روادا ومعابيليم * ومدافعين : فجعلوا الصحارى تنفتح وأحيوا اللغة العبرية وبنوا المدن والقرى ، وأوجدوا مجتمعا ناميا ، يسيطر عـلى اقتصاده الخاص وثقافته ، مجتمعا يحب السلام لكنه يعرف كيف يدافع عن نفسه ، وقد جلب نعم التقدم الـى جميع سـكان البلاد ، وهو يطمح الـى تأسيس امة مستقلة » (٢٣) .

---

٢٣ ـ انظر النصّ الرسمي بالانجليزية في كتاب : **Joseph Badi — (Ed.) Fundamental Laws of the State of Israel** (New York, 1961) PP. 8-11.

* المعابيليم (Maapilim) صيغة الجمع العبري ، مفردها « معابل » وهو « المهاجر الصاعد الى ارض اسرائيل » ، وفقا لما جاء في أحد أسفار العهد القديم . واختيار هذه التسمية من جانب الصهيونية

ولا غرو فان الطموح الصهيوني لتأسيس امة يهودية مستقلة وجد ضالته المنشودة الاولى على صورة « قيام الدولة اليهودية » فوق جزء من أرض اسرائيل (١٩٤٨) . وقد بلغ به حبه للسلام مبلغا جعله يحسب العدوان والتوسع من قبيل معرفة الدفاع عن النفس ، كما تحولت ، بين عشية وضحايا ، نعمة « التقدم الى جميع سكان البلاد » نقمة على غالبية اولئك السكان من غير اليهود ، روءادا ومعابيليم ، وقامت الدولة اليهودية على ارضهم وفي عقر دارهم لتطردهم منهـا في ظل شـعارات مـن طراز « حرب التحرير » أو « حرب الاستقلال » . ولم يكتف « المجتمع النامي » بما اقترفه في سبيل حب السلام ، بل راح يسخر نموه وتطوره لتوسيع رقعة اغتصابه وبسط سيطرته على المزيد من المناطق التي يعتبرها ضمن نطاق « حدود الامة التاريخية » . فقـد أعماه التعصب وسيطرت عليه الاطماع التي تحركها العنصرية حتى خيل اليه أنه يعيد تمثيلية قديمة العهد على مسرح يدعوه « أرض اسرائيل » .

لاطلاقها عـلى المهاجرين اليهود القـادمين الـى فلسطين بقصـد الاستيطان والمشاركة في النشاط الاستعماري يفضح الصلات التي يطيب للصهيونيين اصطناعها بـين العاطفة الدينية والرغبـة في المهاجرة الى فلسطين تحت ستار « الصعود الى ارض اسرائيل ».

الدولة وتجميع المنفيين

حين يؤكد لنا بن غوريون ، بعد ما يقارب العشرة اعوام على قيام اسرائيل ، بان الدولة الصهيونية لم تحقق الرؤيا الخلاصية بعد — وهي الرؤيا التي كانت احد البواعث الرئيسية ، ان لم تقل الباعث الاهم على حد قوله ، لقيام دولة اسرائيل ، فانه يكشف لنا عن طبيعة الاهداف والغايات الكبرى التي تضعها الصهيونية نصب عينيها . وهو بالتالي يكرر على مسامعنا من جديد ما سبق له واعلنه غداة قيام اسرائيل من ان الدولة وسيلة الى الهدف الاسمى : الصهيونية(1) . فلنتساءل ، اذن ، عن طبيعة الاهداف التى تسعى الصهيونية الى تحقيقها بعد قيام دولتها « فوق جزء من ارض اسرائيل التاريخية» ، لنرى كيف تتصور الحركة الصهيونية تلك المرحلة المنشودة من تحقيق الذات وتجسيد الرؤيا تطابق «الدولة» و « الامة » على المستويات المختلفة : الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والمعنوية . ولنبدأ المحاولة انطلاقا من قول بن غوريون بالذات :

« ان ما خلق دولة اسرائيل هو رؤيا الخلاص المسيحي المنتظر لدى شعب مشتت في سائر انحاء العالم . لكن الدولة لم تحقق الرؤيا بعد ، ومستقبلها رهن الوصول الى هدفين نص عليهما اعلان الاستقلال وجرى التوكيد عليهما في قانونين ، يجب اعتبارهما بمثابة القوانين العليا لدولة اسرائيل ، وان لم تطلق عليهما تسمية

---

1 — يجدر بالقارىء التوقف عند القول التالي على لسان بن غوريون بالذات في كتابه « بعث اسرائيل ومصيرها » (ص ٤٨٩) :

« ان دولة اسرائيل هي جزء من الشرق الاوسط من حيث العامل الجغرافي فقط — وهو في جوهره عامل جامد . اما من حيث العوامل المصيرية الحاسمة ، مثل الطاقات الحركية والابداعية والانمائية ، فان اسرائيل جزء من اليهودية العالمية . من هذه اليهودية تستمد اسرائيل بأسها ، وتستمد وسائل تكوين هوية الامة وتطوير الارض . وبقوة اليهودية العالمية اياها سوف تبنى اسرائيل مرارا وتكرارا » .

القوانين الاساسية . وطالما ان هذين القانونين لم يتم تنفيذهما كليا ، فلا يمكننا اعتبار مهمة الدولة منجزة وعملها تاما » (٢) .

وغني عن القول ان القانونين الاساسيين اللذين جرت صياغتهما رسميا لكي تعمل دولة اسرائيل على وضعهما موضع التنفيذ ، فيصبح مستقبلها رهنا بالوصول الى الاهداف المتضمنة ، وتسعى الصهيونية لتحقيق ذاتها عن طريق ذينك القانونين هما التاليين :

١ — قانون العودة ، وغايته تجميع المنفيين (٣) .

٢ — قانون التعليم الحكومي ، الذي ترعاه الدولة في سبيل « ازدهار الثقافة اليهودية في الوطن الام » .

فما الذي يعنيه ، « قانون العودة » من خلال مادته الاولى التي تمنح كل يهودي في العالم حق المجيء « الى هذه البلاد » بصفة مهاجر **عائد** (Oleh) . وما هي علاقة « العودة » ، التي استنتّت لها الصهيونية قانونا خاصا ، بالتصورات الاسرائيلية للبقاء والنمو ، ولتحقيق ما يدعوه بن غوريون بـ « رسالة الخلاص القومي » . وهل يكشف لنا نداء العودة هذا احدى النواحي البارزة في عقدة التوسع الصهيوني ، من خلال التعلق الاسرائيلي بيهود العالم والتشديد البالغ الاهمية على الروابط القائمة بين « اسرائيل » و « الدياسبورا » .

يجيبنا بن غوريون في مقالته آنفة الذكر بعنوان « اسرائيل والدياسبورا » كما يلي :

« ان قانون العودة ليس مثل قوانين الهجرة السارية المفعول في البلدان الاخرى ، اذ تنص تلك القوانين على الشروط التي تقبل الدولة بموجبها بعض طبقات المهاجرين من الخارج . بل ان قانون العودة هو قانون الديمومة التاريخية والاستمرار للصلة القائمة بين شعبنا وارض اسرائيل ، وهو يضع المبدأ الاساسي الذي تم بفضله احياء دولة اسرائيل ، كما سيعود اليه الفضل في بقائها ونموها وتحقيق

---

٢ — انظر مقالة « اسرائيل والدياسبورا » في **الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل** ، المصدر السابق ، ص ٣٠ — ٣١ .

٣ — راجع النص الكامل لقانون العودة (Law of Return) ، ١٩٥٠ ، في ملحق هذا الفصل .

رسالتها في الخلاص القومي » (٤) .

ويترك للمستقبل امر تبيان مقدار « تلك النسبة من شعبنا التي ستكون راغبة في العودة الى الوطن وقادرة على العودة » .

غير ان المستقبل الذي يحتمي « خلفه » بن غوريون بدأ قبل قيام الدولة بزمن غير قصير ، وامتد منذ قيامها وصدور « قانون العودة » حتى ايامنا الحاضرة . وليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بان امتداده لن يتخطى حدود الحاضر كي يصل الى قاعدته الصحيحة ومداه الحيوي . واذا كان بن غوريون على شيء من التردد — في هذا المقال كما يبدو على الاقل — لشرح تصوراته للبقاء والنمو والخلاص القومي ، فان غيره من الصهيونيين قد ناب عنه سلفا واوضح لنا بصراحة تامة احدى النتائج المترتبة على دفع عجلة الهجرة اليهودية الى فلسطين : ابان الانتداب البريطاني ومنذ وقوعها تحت الاحتلال الصهيوني .

وقد نشر الصهيوني التحريفي وعضو الهيئة التنفيذية في الوكالة اليهودية ، جوزيف شيختمان (٥) ، سلسلة مقالات في ربيع ١٩٤٩ لمعالجة ما اسماه « مشكلة النازحين العرب : دول الشرق الاوسط امام التحدي » و « مشروع نقل السكان العرب : منشأه وردود الفعل » . فبدأ احدى تلك المقالات بالعبارة التالية :

« كان وجود اكثرية عربية كبيرة في فلسطين على الدوام بمثابة كابوس الصهيونية السياسية . والهدف الاساسي للحركة الصهيونية هو اقامة دولة يهودية برعاية اكثرية يهودية من السكان . بينما عارض العرب — والمتصلون منهم بالسياسة على الاقل — باستمرار هذا

---

٤ — المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٥ — هو نفسه مؤلف سيرة حياة جابوتنسكي ومستشار الوفد الاسرائيلي في اجتماعات لايك سكسس . وصفته صحيفة «الجويش ستاندرد» بانه من ابرز الخبراء العالميين حول المسائل المتعلقة بنقل السكان وتبادلهم . ومن مؤلفاته في الموضوع :

1) **European Population Transfers : 1939 - 1943, (Oxford University Press, 1946).**

2) **Population Transfers in Asia.**

بالاضافة الى كتاب عنوانه « المفتي والفوهرر » واخر عن اليهود في الاتحاد السوفياتي : **Star in Eclipse**

الهدف الصهيوني والشرط اللازم لتحقيقه : الهجرة اليهودية » (٦).

وانتقل الى سرد الاحداث والتطورات التي اوصلت فلسطين الى عشية شهر ايار (مايو) ١٩٤٨ وخروج العرب من بلادهم . فنفى ان يكون الارهاب والرعب الصهيوني وراء نزوح العرب ، لان المصادر العربية آنذاك لم تزوده بالوقائع والمعلومات التي تثبت وجود الارهاب والعنف والرعب. وسارع الى تبني الصيغة التي تنوي الصهيونية اشاعتها : « لقد اخلى عرب فلسطين البلاد وجلوا عنها بملء ارادتهم ، والمسؤولية تقع على عاتق الزعماء العرب وحدهم » . ثم زعم بان النازحين لم يستجيبوا لنداءات الزعماء اليهود تناشدهم البقاء والعودة ، فجاء هجوم الجيوش العربية ليضع حدا لسياسة التساهل الصهيوني ويرغم الحكومة الاسرائيلية على اعلان موقفها الرسمي : « لا نريدهم ولن نقبلهم ، لاننا لو قبلناهم ، لاصبح عندنا جيش تحرير وانقاذ ثان يقاتل في وسطنا » . وانتهى به القول الى عرض الحل الصهيوني الرسمي لمشكلة النازحين العرب على اساس القيام بعمليات لتبادل السكان بين الطرفين المتنازعين : العرب واليهود . وخلاصة الحل المذكور : اجلاء اليهود القاطنين في البلاد العربية والسماح بترحيلهم الى فلسطين لقاء اسكان النازحين العرب في اماكنهم .

والواقع ان شيختمان، والصهيونية الرسمية من بعده ، لا يريد حل المشكلة بل تحويرها وحصرها بين عرب فلسطين واليهود المقيمين في البلاد العربية وحدها . متجاهلا بذلك عن عمد موجات اليهود الاوروبيين الدين حملوا الصهيونية معهم وساهموا بشكل فعال في غرس بذور الشقاق والنزاع . فالصهيونية ، على حد ما نعلم ، لم تولد بين يهود الشرق . واليهودي العربي لم يكن ليحلم بدولة يهودية او باسترجاع ملك اسرائيل القديم . بل عاش في المجتمع العربي مثل سائر الاقليات ، ان لم نقل افضل منها على صعيد النشاط الاقتصادي المزدهر والشؤون الاهلية العائدة لطائفته الدينية . والنظرة الملأى بالاحتقار الى اليهود الشرقيين تطالعنا لدى الاوروبي-الروماني جابوتنسكي اكثر مما تطالعنا لدى العرب. الم يؤثر عن الشاعر الصهيوني «بياليك» (Bialik) وصديق جابوتنسكي الحميم قوله: انا لا احب العرب لانهم يشبهون اليهود الشرقيين كثيرا»! (٧).

---

٦ ـ انظر The Jewish Standard, Friday, April 29, 1949.

٧ ـ اما جابوتنسكي نفسه فقد وصف العرب في مجلته « الفجر » (عام ١٩٢٩) بقوله عنهم : « لواطيين من نابلس ، اولاد الزنى ، ومشاكسين من يافا ، والاوباش السفلة في مرفأ قذر » .

ومن الملاحظ ان شيختمان ينسب الاقتراح الرامي « لحل المشكلة العربية في فلسطين » الى اسرائيل زانغويل ، اذ تقدم به بعد نهاية الحرب العالمية الاولى . ولا يدور بخلده ان مؤسس الصهيونية بالذات افشى السر في يومياته حين تحدث عن النية في التخلص من السكان الاصليين وحرمانهم من كسب العيش في بلادهم كي يتم ترحيلهم عنها عبر الحدود والى البلدان المجاورة . ثم يزعم ان جابوتنسكي وانصاره لم يتبنـــوا « مشروع تبادل السكان » بصورة رسمية الا بعد عام ١٩٤٨ . وحـــين اقدم مؤتمر المنظمة الصهيونية الجديدة في اميركه على اتخاذ زمام المبادرة واعلان قراره الداعي لقبول المشروع (شباط ، فبراير، ١٩٤٢)، سارعت زعامة التحريفيين الى مناشدتهم التريث خوفا من اثارة التعصب ضـــد الصهيونية واعطاء العرب سلاحا دعائيا لمحاربتها في الخارج .

لكنه يعترف بأن حاييم وايزمان ذكر المشروع بصورة عابـرة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ . بينما « اقر » بن غوريون عام ١٩٤٣ــ وكان رئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية ــ بان العرب قد تكون لهم مصلحة اقتصادية وسياسية على السواء في تقوية مركزهـــم ازاء جيرانهم الاتراك والفرس عن طريق نقل مستوطنين عرب جدد الى بلادهم. ولم ينس الاشارة الى فلسطين باعتبارها المصدر الوحيد للمستوطنـــين من هذا النوع . ثم استدرك بن غوريون بقوله : « هذه مشكلة عربيـــة داخلية يمكننا ان نساعد فيها لو طلب الينا العرب ذلك ، لكننا لا نستطيع ولا يجب علينا اخذ زمام المبادرة . . . » (٨) .

اما الناحية التي تسترعي الانتباه في عرض شيختمان لمشروع تبادل السكان فهي دون شك ميله الى التشديد على القول بان المشروع لا يمكن اعتباره « حلا صهيونيا » الا بعد العام ١٩٤٨ ، حين اكتسب الطابـــع الصهيوني الرسمي . فهو ينسب مشروعات مماثلة الى كل من :

أ ــ السير نورمان انجيل (الحائز على جائزة نوبل للسلام) تقدم بمشروع في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ .

ب ــ والتر كلاي لودرميلك(٩)، رئيس الاتحاد الاميركي الجيوفيزيائي

---

٨ ــ انظر مقالة «The Arab Transfer Plan» في صحيفة **The Jewish Standard, May 28, 1949.**

٩ ــ يبدو ان لودرميلك كان لا يزال على حماسه السابق للمشروع حين

(التتمة على الصفحة التالية)

ومساعد رئس دائرة المحافظة على التربة في وزارة الزراعة الاميركية ، وصاحب المشروع الشهير لانشاء وكالة استثمار وادي الاردن واعطاء اسرائيل اضعاف حصتها من المياه . قام بدراسة مفصلة واسعة لمنطقة الشرقين الادنى والاوسط (١٩٣٨ ــ ١٩٣٩) واقترح تهجير عرب فلسطين الى السهل الطمي في وادي دجلة والفرات .

ج ــ ايلي كولبرتسون ــ تقدم بمشروع اتحاد عالمي وضمّنه عملية نقل السكان العرب المسلمين والمسيحيين من فلسطين الى رقعة اخرى في الشرق الاوسط .

د ــ جون غونتر ــ رأى في تبادل السكان السبيل الوحيدة لحل النزاع العربي اليهودي ، واقترح ترحيل عرب فلسطين الى شرقي الاردن او العراق ، حيث يوجد متسع لهم والمجيء باليهود من اوروبه لكي يحلوا محلهم .

هـ ــ التصريح الذي اعدته اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني (١٩٤٤) بصدد حل المشاكل في عالم ما بعد الحرب تضمّن الاشارة الى تبادل السكان . غير ان الحزب تجاهل ذلك عند مجيئه الى الحكم (١٩٤٥) .

و ــ مشروع الرئيس السابق هربرت هوفر الذي قدمه الى البيت الابيض في اواخر ١٩٤٥ ، واقترح فيه نقل عرب فلسطين الى العراق. وقد لقي المشروع ترحيبا في اوساط الصهيونيين الاميركيين واعتبره « مجلس الطوارىء الصهيوني الاميركي » مثالا للسياسة الحكيمة والبنّاءة ، كما سجل على نفسه بان المنظمة الصهيونية لم تدع ابدا لنقل عرب فلسطين الى العراق او الى اي مكان آخر . . . » (١٠) .

قابله مراسل صحيفة « الجويش ستاندرد » في ربيع ١٩٤٩ . فقد طمأن الصحيفة التحريفية الى ان المجال في العراق يتسع لاسكان ٣٠ مليونا في معرض حديثه عن مشكلة النازحين العرب . وكرر تقديره السابق لقدرة فلسطين الاستيعابية : بين ٣ ــ ٤ ملايين يعيشون على اقتصاد متوازن بين الزراعة والصناعة . (انظر **The Jewish Standard, May 20, 1949).**

١٠ ــ المصدر نفسه .

على ان تنصل الصهيونية الرسمية من المشروع طيلة الفترة الممتدة قبل العام ١٩٤٨ لا يعني امتناعها عن الترحيب به والسعي لانجاحه بشتى الحيل والوسائل . وحين وجدت الوقت المناسب لذلك ، لم تتردد لحظة واحدة في تبنّيه رسميا والكشف عن جذوره اليهودية . فهي تلوّح به متى شعرت بان الراي العام في اوروبه واميركه قد سئم النزاع العربي ــ الاسرائيلي واصبح على اقتناع بان العرب وحدهم يحملون مسؤولية النزوح والخروج ، وبالتالي فان مفتاح الحل بيدهم . ومن الملاحظ ، مثلا ، ان الزعماء الصهيونيين في اسرائيل اخذوا ، منذ عدوان الخامس من حزيران (يونيو)، يكثرون من الحديث عن قضية تبادل السكان. فها هو ليفي اشكول ، رئيس الوزراء الذي يصفه المتطرفون بالاعتدال ، يذكر العرب والعالم عن طريق مجلة « دير شبيغل » الالمانية كي يدخلوا في حسابهم « اننا تقبّلنا ٦٠٠ او ٧٠٠ الف يهودي من البلاد العربية ــ من العراق وسوريه واليمن ومصر وشمالي افريقيه » . ويأخذ على العرب تقاعسهم في ايواء اللاجئين الفلسطينيين واسكانهم في البلاد العربية الشاسعة الاطراف بقصد التوطين الدائم . كما يلوّح صراحة بمزيد من عمليات تبادل السكان هذه ، متى جرى احلال السلام وتوقيع معاهدة الصلح (١١) . ولا يخفى ان الصهيونية لن تتردد في لعب هذه الورقة التي تعتبرها « رابحة » للابقاء على احتلالها لبعض المناطق العربية التي تطمع في الحصول عليها وفتحها امام المهاجرين اليهود ومشروعات الاستيطان والاستعمار التي تؤلف في جوهرها استمرارا لمشروعاتها الخطيرة في التوطين الاستراتيجي . والانباء التي ترد من « الارض المحتلة » كل يوم تقريبا عن انشاء المستعمرات والمستوطنات« الدفاعية » في هضبة الجولان او في الضفة الغربية وقطاع غزة هي خير شاهد على ذلك . كما ان النداءات التي يوجهها زعماء اسرائيل الى يهود العالم (الدياسبورا) يناشدونهم فيها الهجرة الى اسرائيل (« العودة ») تأتي بمثابة الجزء المتمم للخطة التوسعية التي كانت ولا تزال في طليعة الاهداف الصهيونية واحد المرتكزات الاساسية في سبيل تحقيق الفكرة الصهيونية لذاتها . فلا يفوتنا التذكير والتذكر بان اسرائيل الدولة تعتبر نفسها ناقصة وغير مكتملة . لذلك ترفع شعار « عودة المنفيين » الى « حظيرة الوطن » ، وتبقى فريسة كيانها المندفع نحو التوسع والقائم على « جمع شمل يهود

---

١١ ــ في مقابلة صحفية مع صاحب مجلة « ديرشبيغل » ، رودولف اوغشتاين ــ انظر : **Der Spiegel, Nr. 29, 10. Juli 1967, s. 65.**

العالم » (١٢) بغية الوصول الى هدفها الامثل في التوحيد بين « الدولة » و الامة » والمطابقة بين الحدود اللازمة لهما .

فلا نعجب اذا ما تبين لنا بان كيان الدولة لن يستقر على حال الا ليقفز منها الى المدى الحيوي الارحب . كما ان استقدام المزيد من المهاجرين لا يمكنه ان يبقى محصورا ضمن نطاق الدفاع البحت، اذ اصبح الهجوم والعدوان وسيلة الدفاع الامثل لدى دولة اسرائيل ، وذريعة لتحقيق الاطماع التوسعية على حساب الدول المحيطة بها . وليس من قبيل المبالغة اطلاقا ترديد الراي القائل بان الاراضي العربية الواقعة ما وراء خطوط الهدنة او خطوط وقف اطلاق النار تعتبر من الزاوية الاسرائيلية التوسعية بمثابة « حقل للتجارب » تمارس فيه شتى انواع المحاولات والتحركات في عملية بحث مستمرة : « الدولة » التي تبحث عن « الامة » وتشن العدوان تلو العدوان فتزعم ان احتلالها يأتي كخطوة جديدة في سعيها الدائب « لتحرير ارض الوطن القومي اليهودي » بأسره ومناداة يهود العالم (« الشعب الذي نفي من بلاده عنوة » ــ على حد ما جاء في توطئة اعلان الاستقلال) كي يعودوا من المنفى الى «البيت والوطن».

واذا كانت الدعوة لتجميع المنفيين تشكل احدى المرتكزات الصهيونية الكبرى في كيان دولة اسرائيل الباحثة عن « الامة اليهودية التامة » ، فان المرتكز الذي يدانيها اهمية وخطورة قد وجد احد مظاهره البارزة في « قانون التعليم الحكومي » وتوجيه الجهود كافة نحو « انعاش الثقافة اليهودية في ارض اسرائيل » وبث الروح اليهودية الخالصة في شتى مضامينها ومرافقها . وقد اشار بن غوريون نفسه الى الصلة او الرباط الداخلي بين المثالين او القانونين الصهيونيين ، واعتبر كل مثال منهما يعمل على تعزيز مجالات تحقيق الآخر وتدعيمها (١٣) . ومضى يتحدث عن كون اسرائيل البلد الوحيد في العالم دون « اقارب » من زاوية الدين

١٢ ــ يجدر بالقارىء ان يتذكر العبارة التالية التي وردت في يوميات ثيودور هرتزل خلال المقابلة التي اجراها مع المستشار الالماني في اواخر القرن الماضي : « وسألني ايضا عن الارض التي نريد وما اذا كانت تمتد شمالا حتى بيروت او ابعد من ذلك . فكان جوابي: سنطلب ما نحتاجه ، اذ تزداد المساحة المطلوبة مع ازدياد عدد المهاجرين ». (انظر **اليوميات**، الجزء الثاني ، ص ٧٠١ــ٧٠٢).

١٣ ــ انظر مقالة «اسرائيل والدياسبورا» ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .

واللغــة والاصل والثقافة ـ « كما هــي حال الشعوب السكندنافية او الشعوب الناطقة بالانجليزية او الشعوب العربية او الكاثوليكية او البوذية وهلم جرا » . فحاول ان يضع اسرائيل في واد والعالم كله في واد آخر، لكي يصل الى القول : « نحن شعب يعيش لوحده وبمفرده » (١٤) .

فما هي عيشة الوحدة والفرادة هذه يا ترى ؟ ولماذا تكون «اسرائيل»، و « الشعب اليهودي » معها ، وحيدة بين سائر الامم وفريدة من نوعها ؟

يقول احد اليهود الاميركيين الذين يرفضون الصهيونية المتعصبــة ويسهرون على دراسة افكارها ومنجزاتها ، بالاضافة الى وعيهم للاخطار التي تنطوي عليها بالنسبة للديانة اليهودية الصحيحة ، ما يلي نصه :

« انها لمن سخريات التاريخ وفي تمام اللحظة التي يتم خلالها تجميع المنفيين ، أن يغدو وجود الثقافة اليهودية بالذات موضع تساؤل الى هذا الحد » (١٥) .

وقد وصف بن غوريون « قانون التعليم » بانــه يضــع الخطوط الرئيسية لتعلقنا بالشعب اليهودي في جميع انحــاء العالم وبثقافــة الانسانية ، ويعيّن المبادىء التي يمكننا بموجبها ان نصبح شعبا نموذجيا ودولة نموذجية . وبذلك يصبح « التهويد » عملا متمما للتهجير او تجميع المنفيين ومكملا له . غير ان عملية تهويد الثقافــة والتعليم تتخذ طابعــا

---

١٤ ـ المصدر نفسه. ومما قاله بن غوريون ايضا : هناك ايضا، بالاضافة الى تراث الانبياء القدامى ، عوامل واسباب تمت الى السياسة الطبيعية بصلات ، وتكمن وراء الحقيقة القائلة بان اسرائيل ليست ولا يمكنها ان تكون مثل سائر الدول فقط . ولا يعتبر بن غوريون تلك الاسباب الجيوبوليتية (الجغراسية) مجرد عقيدة دينيــة واخلاقية فقط ، بل يؤكد انها حقيقة تاريخية ملحة لا سبيل الى تجاهلها ومن احكام القدر التي لا مرد لها . والمعروف ان « علم السياسة الطبيعية » (Geopolitics) في التعريف القاموسي يعني ما يلي :

« دراسة تأثير العوامل الجغرافية والاقتصادية والبشرية (مــن حيث كثافة السكان وتوزعهم) في سياسة الدولة الخارجيــة خاصة » (انظر قاموس « المورد ») .

١٥ ـ انظر **Jacob Petuchowski — Zion Reconsidered, (Twayne Publications, Inc., New York, 1966), p. 34.**

عنصريا متعصبا يسعى لتسخير التاريخ القديم والبائد لاغراض « الخلاص القومي » وربط الثقافة اليهودية بخيوط واهنة للماضي السحيق بعد نبش معالمه او تزييف البعض الآخر في معرض نسبته الى « صهيون » . فالدولة تجمع منفييها لكنها ما زالت تبحث عن ثقافة مشتركة لهؤلاء « العائدين » ، كي يتسنى لها صهر العناصر المتنافرة بخليطها العجيب الغريب في بوتقة الامة الواحدة ذات الطابع اليهودي الذي يميزها عن سائر الامم اجمعين . لذا تجد نفسها امام معضلة ، وتتراءى لها صعوبة الجمع بين المنفيين المتحدرين من اصول ثقافية مختلفة . فيصبح التهويد بحثا عن الثقافة اليهودية وجذورها المشتركة . او كما قال بتوشوفسكي في كتابه « نظرة ثانية الى صهيون » المار ذكره :

« ان ادراك هذه المعضلة هو المسؤول دون شك عن البحث المحموم الذي تقوم به اسرائيل للعثور على جذور ثقافية او حضاريةمشتركة. ويعلل لنا الدور الذي يلعبه علم الآثار القديمة فيحياة الدولة الفتية، اذ يوشك هذا الدور ان يكون دينيا .
ففي خرائب الماضي السحيق ، وفي اساسات المباني التي شيدها الاجداد ، كما في بقايا الاشياء التي من صنعهم يجري العثور على رابطة ثقافية مشتركة (وجاهزة لاستعمال) المتحدرين من سلالاتهم في هذا العصر . وبالطبع فان « الارض » في حد ذاتها يجري استحلابها واستنزافها حتى آخر قطرة فيها من الترابطاتالتاريخية – كل ذلك في سبيل الغاية التالية : مجرد اظهار (او تصديق) ان « الامة التي تقيم في صهيون » (وهي احدى العبارات المفضلة في التصريحات الاسرائيلية الرسمية) اليوم تتألف من ذلك الشعبنفسه الذي سكن هذه البقعة في الزمن التوراتيالسحيق في القدم، وهكذا يتم اجتياز القرون وآلاف السنين الممتدة بين ذلك الماضي البعيد والعصر الحاضر بصمت مرح وجهل يبعث منتهى السعادة » (١٦) .

وليس من قبيل الصدفة ان تكون احدى الهوايات المفضلة لدىابرز القادة العسكريين في اسرائيل قائمة على ذلك البحث المحموم عن معالم الماضيونبش الآثار والبقايا التي دفنتها عجلة التاريخ منذ آلاف السنين. ويكفي ان نذكر الحفريات والتنقيبات التي كرس نفسه لها ييغال يادين (Yadin) فجاء كتابه عن « قلعة مسعده » (Massadah) او مسادة (وهي

---

١٦ – انظر المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

سبا العربية القريبة من الشاطىء الغربي للبحر الميت (١٧) ثمرة تلك الغيرة الدينية والشوفينية لاحياء الماضي المندثر واكتشافه من جديد . وغني عن القول ان الكتاب المذكور باخراجه الرائع اصبح من اوسع الكتب رواجا وانتشارا ، واكسب مؤلفه لقب « مكتشف مساده » . بينما راحت العقلية السائدة في اسرائيل ـ وهي اقرب ما تكون الى « عقلية القلعة المحاصرة » ـ تكرس الموضع الذي عيّنه يادين لبقايا « مساده » كأبرز مزار قومي مقدس يرمز الى الثورة اليهودية ضد الرومان في القرن الاول . ويذكّر الجنود الاسرائيليين الذين يؤدون القسم هناك بان المدافعين عن ذلك الحصن اليهودي فضلوا الفتك ببعضهم بعضا على الوقوع اسرى بيد الرومان المنتصرين !

كما ان الغيرة على نبش الماضي السحيق والتعجيل في الانتماء الى معالمه وقيمه التي تبحث عنها الثقافة اليهودية الناشئة فتبادر الصهيونية الى تكييفها وفقا لرغباتها وحاجاتها ، ليست وحدها في ميدان السعي المحموم للعثور على قاسم حضاري مشترك يلتف حوله « المنفيون العائدون الى الوطن » خلال عملية جمع شمل يهود العالم في ارض اسرائيل . فهناك الشعار الدعائي الذي اطلقته الصهيونية منذ ظهورها وتغذت به على يدي بنسكر وهرتزل ونوردو وجابوتنسكي وبن غوريون . وهو ما يوصف بـ « خطر الاندماج » ، ويحمل الصهيونيين على حصر « الحياة اليهودية التامة » ضمن حدود دولة اسرائيل وحدها (١٨) . مع العلم بان الديانة

---

١٧ ـ هكذا يعيّن موقعها جورج آدم سميث : « على شاطىء البحر الميت مسافة خمس ساعات من عين جدي » . انظر George Adam Smith. **The Historical Geography of the Holy Land** (The Fontana Library, 1966), p. 329. وهذه الطبعة للكتاب مبنية على الطبعة الخامسة والعشرين التي جرى تعديلها كليا عام ١٩٣١ .

١٨ ـ يضيق المجال في هذا الفصل للقيام بدراسة تحليلية للظاهرة التي يمكن تسميتها بـ « البحث عن الاضطهاد » باعتباره احد المقومات الاساسية في الحركة الصهيونية منذ نشأتها ونعني بذلك سعي الصهيونية المتعمد لاصطناع الاضطهاد وايجاد المبررات من خلال ظاهرة العداء للسامية . وليس من قبيل المبالغة ان يقال : لو لم يوجد العداء لليهود ، لكانت الصهيونية اخترعته ، كي تستمد منه

(التتمة على الصفحة التالية)

اليهودية صمدت عبر آلاف السنين دون الاستفادة من خدمات الدولة الاسرائيلية !

اضف الى ذلك كله التأرجح الذي تمارسه اسرائيل بين طرفي الدولة التوراتية او التيوقراطية من جهة والدولة العلمانية العصرية من جهة اخرى . فتبدو ـ على حد قول بتوشوفسكي ـ وكأنها لا تأخذ الا القليل عن الطرفين. كما تمضي في تأجيل مسألة وضع الدستور المكتوب للدولة. وتجعل قانون الاحوال الشخصية اداة للمساومات بين الاحزاب العمالية والدينية ، تتنازل عن شتى القوانين البعيدة عن الطابع العلماني في سعي الحكم الائتلافي القائم للابقاء على تأييد العناصر الدينية لقاء عقد صفقة سياسية من هذا النوع . بينما نجد الصهيوني العلماني ثيودور هرتزل يدوّن في كراس « الدولة اليهودية » العبارة التالية : « سوف نسعى لابقاء حاخاماتنا داخل جدران هياكلهم وجنرالاتنا العسكريين خلف اسوار ثكناتهم » .

لكن « الامة التي تقيم في صهيون » عبثا تبحث عن الحاخام في كنيسه والقائد العسكري خلف سور الثكنة . فالكل يعكف على صنع الثقافة الجديدة ـ القديمة في « اليشوف المتطور » لكي يؤمن استيعاب المزيد من موجات المهاجرين ويعمل على « تهويدها » وتلقينها متطلبات

بواعثها ومحركاتها . وهكذا تبدو الحركة الصهيونية من زاوية « التحذير من خطر الاندماج » اسيرة صنيعتها ، اذ نجدها تمضي بثبات في محاولتها « لبناء الخلاص اليهودي على اساس العداء للسامية » . والفكر الصهيوني بالذات لم يشأ التخلص من تأثير عقدة « العداء لليهود » ، بل جعلها احد منطلقاته ومرتكزاته الاساسية . فأصبح مسؤولا بالدرجة الاولى عن ترويج نظرة معينة لليهود في سائر انحاء العالم ، وساهم الى حد بعيد في رسم صورة « اليهودي المكروه » والذي يكره ذاته ، لكي يصل به الى الاستنتاج القائل بوجوب الرحيل من بلدان الدياسبورا .

انظر مقالة الصهيوني يحزقيل كوفمان التي ظهرت للمرة الاولى عام ١٩٣٤ بعنوان « خراب النفس : بحث في الصهيونية والعداء للسامية». وقد اعيد نشرها مؤخرا في مجلة Issues التي يصدرها المجلس اليهودي الاميركي «Hurban Hanefesh : A Discussion of Zionism and Anti Semitism — (Winter 1967 — Spring 1968), pp. 104 - 110.

المرحلة التالية في حياة الدولة التي تجد البحث عن مجتمع متماسك يعيد تاريخ الامجاد الماضية ويعمل على تحقيق الاهداف الصهيونية التي يأتي في طليعتها ذلك التطابق المنشود بين حدود الدولة والامة . ولا يسعنا في معرض الاشارة الى الفروقات والتباينات التي تميز الخلفية الثقافية « للعائدين من المنفى » الا ايراد الملاحظة التالية التي تلفت النظر :

« في هنغاريه يشار الى اليهودي كيهودي ، وفي بولونيه يشار الى اليهودي كيهودي ، وفي رومانيه يشار الى اليهودي كيهودي . لكن حين يأتي هؤلاء اليهود الثلاثة الى اسرائيل ، يعتبر الاول هنغاريا والثاني بولونيا والثالث رومانيا ! (١٩) .

حقا انها لمن سخريات التاريخ ومفارقات الصهيونية العجيبة التي تكشف عقدة التوسع المتأصلة في نفوس معتنقيها ان نجد التباين الصارخ بين هدف « دولة اسرائيل » الرامي الى تحقيق عملية تجميع يهود العالم في « ارض اسرائيل التاريخية » تحت راية عودة المنفيين ، وبين انعدام « الثقافة اليهودية الواحدة » ، التي ما زالت « كمية مجهولة الهوية » وفريسة للبحث المحموم عن « الجذور الحضارية المشتركة » ، تنتظر الانقاذ من براثن الزمن السحيق والخلاص السريع على يدي علم الآثار الحديث وهوايات القادة العسكريين في نبش معالم الماضي والتنقيب عن مثال اعلى قد لا يمت الى وقائع التاريخ بصلة قريبة او بعيدة . اذ في سبيل ترسيخ اقدام « الامة التي تريد جمع شمل يهود العالم على ارض فلسطين » يصبح التزوير والتزييف اشبه بالواجب القومي ، ويهون تسخير الوسائل الشريرة لتبرير غاية الصهيونية ومطامعها التوسعية المنشودة .

---

١٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

قانون العودة *

١٩٥٠ م

١ ـ يحق لكل يهودي المجيء الى هذه البلاد بصفة مهاجر عائد (Oleh)

٢ ـ أ ـ يكون الاشتراك في موجة الهجرة ـ العودة (Aliyah) على اساس تأشيرة ممنوحة للمهاجر العائد (تأشيرة مهاجر) .

ب ـ تمنح التأشيرة الى كل يهودي يعبّر عن رغبته في الاستيطان بأرض اسرائيل ، الا اذا رأى وزير الهجرة واقتنع بان مقدم الطلب :

١ ـ يقوم بنشاط موجه ضد الشعب اليهودي ، او

٢ ـ يحتمل ان يشكل خطرا على الصحة العامة او يتهدد أمن البلاد وسلامتها .

٣ ـ أ ـ ينال اليهودي الذي جاء الى اسرائيل ، وعبّر لدى وصوله عن رغبته في الاستيطان باسرائيل ، شهادة مهاجر عائد (بطاقة هوية للمهاجرين) بينما لا يزال مقيما في اسرائيل .

ب ـ يسري مفعول القيود المحددة اعلاه في المادة « ٢ ب » على منح شهادة المهاجر العائد ايضا ، غير ان شخصا لن يعتبر ممن يتهددون الصحة العامة بسبب مرض اكتسبه بعد وصوله الى اسرائيل .

٤ ـ يعتبر كل يهودي هاجر الى هذه البلاد قبل ان يصبح هذا القانون ساري المفعول ، وكل يهودي مولود في هذه البلاد ، سواء كان مولودا قبل ان يصبح هذا القانون ساري المفعول او بعده ، شخصا جاء الى هذه البلاد بصفة « مهاجر عائد » في ظل هذا القانون .

٥ ـ يعهد الى وزير الهجرة بتنفيذ نصوص هذا القانون ومواده ، ويجوز له اصدار القوانين واتخاذ الاجراءات والترتيبات في جميع المسائل المتعلقة بهذا التنفيذ وبمنح تأشيرات وشهادات « الهجرة ـ العودة » الى القاصرين حتى سن الثامنة عشرة .

---

* ـ انظر جوزيف بادي ـ القوانين الاساسية لدولة اسرائيل (نيويورك ١٩٦١) ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

المنظمة والوكالة والدولة

حين يعلن بن غوريون بصوت النبوءة المستعار من انبيـاء العهد القديم بان « دولة اسرائيل ليست سوى بداية الخلاص » ، نجده يسعى للربط بين بقاء الدولة وتحقيق رسالتها من جهة واستمرار تجميع المنفيين من جهة ثانية . فيرسم الصورة التالية للعلاقـة التـي تربط اسرائيل بالدياسبورا :

« ان مصير الدولة يرتبط بمصير يهود العالم ، والعكس بالعكس ... ومن المشكوك فيه ان تستطيع اسرائيل البقاء على قيد الحياة ، والا ينقرض يهود الدياسبورا بواسطة قتـل الرحمـة (Euthanasia) او الاختناق ، دون الاواصر المتبادلة التي تشد اسرائيل الى مجتمعات الدياسبورا » (١) .

فما هو الاساس العقائدي الصهيوني الذي تقـوم عليـه الحركة والمؤسسات والوكالات التابعة لها ، بعد مضي سبعين عاما على اول مؤتمر صهيوني عالمي وبعد قيام الدولة اليهـودية على ارض فلسطين المحتلة ؟ وبكلام آخر ، ما هي طبيعة العلاقة القائمة بين المنظمة الصهيونية العالمية = الوكالة اليهودية لفلسطين ، من جهة وبين « دولة اسرائيل » مـن الجهة الاخرى .

لقد نص القانون الاساسي للمنظمة الصهيونية ـ كما جرى تبنيه في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) ـ على التحديدات التالية :

١ ــ تسعى الصهيونية لايجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، يضمنه القانون العام .

---

١ ــ انظر مقالة بن غوريون الآنفة الذكر ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

٢ ـ تضم المنظمة الصهيونية جميع اليهود الذين يعترفون بالبرنامج الصهيوني ويدفعون رسوم الشاقل . (او الضريبة الصهيونية التي تقابل رسم العضوية) .

وتضمّن دستور الوكالة اليهودية الموسعة لفلسطين ، كما تم توقيع الاتفاق المتعلق به في زوريخ (١٤ آب ، اغسطس، ١٩٢٩) تحديدا مفصلا للاهداف التي تسعى الوكالة المذكورة الى تحقيقها : من تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين وضمان النشاطات التي تكفل الحاجات الدينية اليهودية، الى « رعاية اللغة العبرية والثقافة اليهودية والاعتناء بهما » ، وابتياع الاملاك لصالح الصندوق القومي اليهودي « على ان تصبح ملكا ثابتا للشعب اليهودي » ، بالاضافة الى العمل على انجاح الاستيطان الزراعي والاقتصار على استخدام اليد العاملة اليهودية وحدها في المشروعات التي تتعهد الوكالة بتنفيذها او تمد لها يد المساعدة .

والواقع ان الوكالة اليهودية انشئت للقيام بوظيفة سياسية والعمل كأداة لدى الحكومة المنتدبة على فلسطين . واستندت للمواد التي نص عليها صك الانتداب . كما ان الوكالة في صحيفتها الموسعة لم تبرز الى حيز الوجود الفعلي ، بل استمرت على صورة الواجهة الفارغة. وانتهت مهمتها الاساسية التي ادت الى التوسيع بوفاة لويس مارشال وانقطاع الدعم المالي اليهودي الاميركي (٢) . وعلى الرغم من احجام الصهيونيين ، في اميركه مثلا ، عن الاعتراف بكون الوكالة اليهودية فرعا من فروع المنظمة الصهيونية العالمية او انها تلك المنظمة بالذات ، فان الوقائع تؤيد العكس تماما . ولم تنقطع المنظمة العالمية ابدا عن ممارسة سيطرتها على الوكالة والتلاعب بتركيبها وفقا للظروف والحاجات .

اما بعد قيـام اسرائيل واستيلاء القوات الصهيونية على مقدرات فلسطين فلا نجد ان نشاطات المنظمة والوكالة قد توقفت لتترك للدولة الصهيونية امـر تدبّر شؤونها بنفسهـا وبسط سيطرتها على المرافق والنشاطات التي كانت من نصيب المنظمة والوكالة المذكورتين . بل يتخذ

٢ ـ انظر : Moses Lasky. **Between Truth and Repose,** (San Francisco, California, 1956), p. 14. دراسة في التنظيم : تتنـاول المنظمة الصهيونية العالمية ، ووكالتها التابعة لدولة اسرائيل ، والوسائل التي تلجأ اليها في جمع اموالهـا والجهاز الذي تعمل من خلالـه في الدياسبورا .

المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (١٩٥١) قرارا يكلف المجلس الصهيوني العام بواجب تحديد جهاز الوكالة وتركيبها ودرس مسألة استمرارها قيد الحياة وتكييفها وفقا للظروف الحاضرة(٣). وفي ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ ، يسارع الكنيست الاسرائيلي الى اقرار « القانون التشريعي » المعروف بـ (The Status Law) والتصديق عليه . فيأتي القانون المذكور بمثابة التحديد الرسمي لوضع المنظمة الصهيونية العالمية القانوني ازاء دولة اسرائيل ، وينص صراحة في البند الثالث على ان المنظمة الصهيونية العالمية هي نفسها الوكالة اليهودية لفلسطين (٤) . ثم يتم ابرام الميثاق بين حكومة اسرائيل من جهة واللجنة التنفيذية الصهيونية (التابعة للوكالة اليهودية ايضا) من جهة ثانية ، وفقا للقانون الوارد اعلاه وبناء على الاعلان الذي تبنّاه المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون :

« يعلن المؤتمر ان البرنامج العملي الذي تتولاه المنظمة الصهيونية العالمية واجهزتها من اجل تحقيق اغراضها التاريخية في ارض اسرائيل يتطلب منها اقصى درجات التعاون والتنسيق مع دولة اسرائيل وحكومتها ، تمشيا مع قوانين البلاد » .

و « يرى المؤتمر ضرورة اقدام دولة اسرائيل ... على منح المنظمة الصهيونية العالمية وضعا قانونيا بصفتها الممثلة للشعب اليهودي في جميع المسائل المتصلة بمشاركة يهود العالم المنظمة في تطوير البلاد وبنائها والاستيعاب السريع للقادمين الجدد » (٥) .

ولو عدنا الى الاساس العقائدي الصهيوني القابع وراء هذا الاعلان والذي ترتكز عليه بنود القانون التشريعي الآنف الذكر ، لطالعتنا تلك الافكار نفسها التي يعبّر عنها بن غوريون بالنيابة عن دولة اسرائيل . فحدود الامة اليهودية ابعد واوسع من حدود دولة اسرائيل وقد عبّر ناحوم غولدمان خلال اجتماع المؤتمر اليهودي العالمي بمدينة فيينه ، ١٩٥٤) عن تلك العلاقة بين الدولة القائمة والامة المنتشرة في سائر انحاء العالم بقوله :

« لا توجد اية دولة اخرى في العالم يعيش ٩٠ بالمئة تقريبا من شعبها خارج حدودها » (٦) .

---

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥ ــ ١٦ .
٤ ــ راجع النص الكامل للقانون المذكور في آخر هذا الفصل .
٥ ــ راجع دراسة لاسكي ــ المصدر السابق ، ص ٤٧ .
٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

فما هو التصور الاساسي الذي تشترك في تبنّيه والعمل بموجبه كل من المنظمة الصهيونية العالمية (الوكالة اليهودية) ودولة اسرائيل ؟ للاجابة على هذا التساؤل ننقل عن دراسة لاسكي الصيغة التي يوردها كما يلي :

« جميع اليهود في العالم يؤلفون امة واحدة ، دولة اسرائيل هي الممثل الشرعي لذلك القطاع من الامة المقيم في صهيون ، والمنظمة الصهيونية هي الممثل المخوّل السلطات للامة التي تقيم خارج اسرائيل وفي سائر انحاء العالم . والاثنان منهما ممثلان، يتساويان في الرتبة والاهمية، للامة الواحدة. ولذلك يستطيعان ابرام المواثيق والمعاهدات والتعاون فيما بينهما لاجل الغاية المشتركة » (٧) .

ولا شك ان التعاون القائم بين الصهيونية العالمية ودولة اسرائيل يرتكز الى اصرار الطرف الثاني على اشراك يهود العالم اجمع في تدعيم الدولة اليهودية ومدها بالاموال والمساعدات والرجال . وقد نصت المادة الاولى من القانون التشريعي على ان « دولة اسرائيل تعتبر نفسها صنيعة الشعب اليهودي بأسره » بينما هي في الواقع ثمرة الجهد الصهيوني وتحالفه مع الاستعمار . وليست « صنيعة الشعب اليهودي بأسره » في نظر الكثيرين من اليهود الذين لا يجدون حاجة الى الحركة الصهيونية وعقدتها العنصرية في سعيهم للحفاظ على ديانتهم اليهودية والعيش باطمئنان وثقة في المجتمعات التي ابصروا النور بين ظهرانيها .

ويكفي ، في معرض الحديث عن تنسيق الجهود بين دولة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية ، ان نأتي على ذكر حقول النشاطات التي تملك الصهيونية العالمية سلطات العمل فيها بموجب اتفاق خاص يجري ابرامه مع الحكومة الاسرائيلية . وقد عدّد بيان المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين البعض من حقول النشاط الصهيوني العالمي على الشكل الآتي:

أ ـ تنظيم الهجرة ونقل المهاجرين وممتلكاتهم الى ارض اسرائيل.
ب ـ المشاركة في عمليات استيعاب المهاجرين .
ج ـ هجرة الشباب اليهودي (Aliyah) .
د ـ تطوير المستوطنات الزراعية .
هـ ـ الحصول على الاراضي وتحسينها بواسطة الصندوق القومي اليهودي (الكيرين كايمت لاسرائيل) .

---

٧ ـ المصدر نفسه .

و ــ الاشتراك في مشروعات التنمية (٨) .

والمعروف ان مجلس التنسيق في حكومة اسرائيل يتعاون معالهيئة التنفيذية لكل من المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية في سبيل تنسيق سير العمليات في حقول النشاط الوارد ذكرها اعلاه .

فلا يخفى ان جميع تلك النشاطات تسعى لتمكين دولة اسرائيل من تحقيق الهدف الصهيوني الاخير وجعل حدودها تأتي مطابقة « لحدود الامة التاريخية » . وهي بالتالي خير دليل على النزعة الصهيونية المتأصلة في البحث عن المدى الحيوي لكيان الدولة اليهودية وتسويغ الطابع التوسعي لهذا الكيان . وقد تضافرت القوى التي تعززها الصهيونية العالمية فحولت « دولة اسرائيل » الى « قاعدة ديناميــة » و « يشوف متطور » تنطلق منها محاولات تحقيق المكاسب الاقليمية تحت ستار « الحرب الوقائية » و « الدفاع المشروع عن النفس » . فجاءت حركة المطالبة بتحقيق « اسرائيل الكبرى » بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ خلاصة للجهود المبذولة والمخططات التي تم وضعها موضع التنفيذ منذ قيام « دولة اسرائيل فوق جزء من ارض اسرائيل » . ولم تجد الصهيونية بدا من المجاهرة بنواياها التوسعية واعلان مطالبها واطماعها ، متذرعة باعتبارات الامن والسلامة الوطنيــة ، ومشيرة الى الرغبة في ان يعم الاستقرار منطقة الشرق الاوسط ، بينما هي فيالواقع لا تنشد الاستقرار متى انست من نفسها وقوتها القادرة على توجيه الضربة الصاعقة التالية .

فهذا هو بن غوريون يخطب في اجتماع عام لحزبه ، بعد ان توالى على الكلام كل من موشيه دايان وشمعون بيرس (الامين العام لحزب رافي) ، ليؤكد من جديد على ضرورة المضي في المخطط الصهيوني الذي عمل له طيلة عشرين عاما ، فجاء تلامذته يتابعــون « تأدية الرسالة » . والاسلوب الذي يعتمده « النبي المسلح » في ايصال دعوته الى الاسماع ينطوي على ما يلي :

أ ــ التحذير بأن حرب الايام الستة ليست المعركة الاخيرة ، « لان العرب ما زالوا يخططون للقضاء على اسرائيل » .

ب ــ لا بد من قدوم موجة كبرى من المهاجرين اليهود بقصد « الاستيطان في الاماكن الخالية » ــ على حد قوله .

---

٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

ج ــ مناشدة « الجاليات اليهودية في العالم » (اليهودية العالمية) والالحاح عليها كي تضع نصب عينيها هدف تهجير ٢ بالمئة سنويا من مجموعها . وبذلك تبلغ الهجرة السنوية من بلدان العالم الحرة الى اسرائيل حدا يعيّنه بن غوريون ب ـ ١٦٠ الفا (في العام الواحد) .

د ــ العودة الى اثارة خلافه القديم في الرأي مع زعامة المنظمة الصهيونية العالمية الممثلة بشخص ناحوم غولدمان : « لا يمكن تحقيق ذلك (الرقم) الا متى تسلمت الحكومة مسألة الهجرة وانتزعتها من المنظمة الصهيونية » .

هـ ــ التلاعب من جديد على مشاعر الصهيونيين خارج اسرائيل وبين يهود العالم : « ان اسرائيل وحدها يمكنها اجتذاب اليهود الآخرين . والاسرائيليون وحدهم يستطيعون استيعاب هؤلاء ، بعكس الصهيونيين الذين لم يستوطن معظم زعمائهم هنا ابدا » . واتهام الصهيونية العالمية بالتقصير في اداء واجباتها في محاولة للمزايدة على صهيونية ناحوم غولدمان ومعاونيه : « لقد تحولوا الى « جمعية اصدقاء لاسرائيل » ويخشى أن تكون مسؤولياتهم قد واكبت هذا التحول واصبحت اسيرة له .

و ــ عود على بدء : « السبيل الوحيدة لاقناع العرب باقرار السلام » (وقبول الصلح) ليس الا « مرأى اسرائيل القوية » . وغني عن القول ان الهجرة اليهودية « ذات اهمية قصوى بالنسبة لقوة اسرائيل » وسيرها على طريق التوسع والعدوان (٩) .

بينما يؤكد الصهيوني آريه بنكوس ، رئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية ، بان اسرائيل تحتاج الى ٤٠ الفا من المهاجرين سنويا ، فيما لو ارادت التغلب على مشاكلها الديموغرافية بنجاح . ويمضي في حديثه الى بعثة صهيونية زائرة ــ تتألف من ١٧ مسؤولا ينتمون الى « مجلس الفدراليات اليهودية والصناديق الخيرية » في اميركا الشمالية ــ معربا عن وجهة النظر التالية :

---

٩ ــ راجع ما نقلته صحيفة «الجيروسالم بوست» من خطاب بن غوريون :
Jerusalem Post, August 10, 1967, Vol. XXXVII, Nr. 12033.

« ومع العلم بان الحركة الصهيونية عليهـا القيـام بدور حاسم في مسألة الهجرة (Aliyah) ، فان هذه المسألة لم تعد قضية صهيونية صرفة، بل يجب ان تستأثر باهتمام جميع يهود العالم (الدياسبورا) ».

ولم يشأ المسؤول الصهيوني الا تطمين اعضاء البعثة بقوله :
« ان العاملين التابعين للوكالة اليهودية في حقل استيعاب المهاجرين يتلقون التوجيهات والارشادات العلمية والمنتظمة حول الاوضـاع الجديدة المتعلقة بتشجيع الهجرة من الغرب واستيعابها » (١٠) .

ولا حاجة بنا للدخول في موضوع التسهيلات التي تقرر حكومـة اسرائيل ، بالتعاون مع الوكالة اليهودية = المنظمة الصهيونية العالمية ، منحها للمهاجرين الجدد . فقد سارع الكنيست ، بعد شهرين من عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ، الى تعديل القانون المتعلق برسوم الشقق الكبيرة . وقرر اعفاء المهاجرين الجدد من دفع الرسوم الاضافية على تلك الشقق والبيوت طيلة السنوات الثلاث الاولى من تاريخ قدومهم الى اسرائيل . كل ذلك في سبيل تنفيذ المخطط الصهيوني الرامي الى تشجيع الهجـرة بأي ثمن (١١) ، وعلى الرغم من ازمة البطالة التي استفحل امرها داخـل اسرائيل خلال العام الفائت (١٩٦٧) ، وعشية العدوان على البلاد العربية بنوع خاص . ولا شك ان اي انخفاض في نسبة العاطلين عن العمل منذ ذلك الحين له ما يعلله في التعبئة العسكرية والاستنفـار الدائم ، وفي توزيع قوات الاحتلال على المناطق المحتلة وابقائها في حالة تأهب واستعداد مستمر . كما ان اقامة المستعمرات والمستوطنات الاستراتيجية تستوعب المزيد من اولئك العاطلين عن العمل ، لكي تدفع بهم الى حصون القوات الضاربة (الناحال) وتلقنهم اساليب التوسع القائمة على سرعة الحركة،

---

١٠ — انظر صحيفة .Jerusalem Post, August 9, 1967

١١ — يبدو ان الحملة الاسرائيلية الرسمية لزيادة النسل قد اكتسبت طابعا معجلا بعد الخامس من حزيران (يونيو) . فقد أوردت مجلة « دير شبيغل » الالمانية في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) خبرا مفاده ان الاطباء في اسرائيل يمتنعون عن اعطاء وصفات لحبوب منع الحمل. وذلك بغية ارغام النساء الاسرائيليات على الاكثار مـن المواليـد وزيادة النسل ، وحتى يتمكن معـدل الولادات الاسرائيلية من مجاراة نسبة الولادة في المناطق العربية المحتلة . (انظر : Der Spiegel, Nr. 48, 20. November 1967, s. 24)

والانضباط العسكري الصارم . ثم تدفع بهم الى العمل الزراعي والتدريب العسكري اللازم له ، لكي تخفف عن كاهلها اعباء النفقات المالية وتستفيد من طاقاتهم في زيادة الانتاج الزراعي والعمليات العسكرية التي تدور عند خطوط الهدنة . والمعروف ان معظم المستعمرات العسكرية التي تقيمها « الناحال » تقع على مقربة من الحدود العربية . وهي بمثابة « مواطىء قدم» لا تلبث ان تتحول، تمشيا مع المتطلبات الصهيونية، من مستعمرات عسكرية صرفة الى مستوطنات للاقامة الدائمة . كما يحظى برنامج « الناحال » بتأييد حكومة اسرائيل المطلق ودعم الجيش الاسرائيلي واشرافه .

وقد اعلن مدير مصلحة الهجرة التابعة للوكالة اليهودية بتاريخ ١٩ ايار (مايو) ١٩٦٨ ان عدد اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل خلال العام المنتهي في ٣١ آذار (مارس) ١٩٦٨ قد بلغ ٢١ الفا . واضاف راديو اسرائيل ، نقلا عن وكالة الصحافة الالمانية (د.ب.أ) ، بقوله ان ٤٠ بالمئة من هؤلاء المهاجرين « تقل اعمارهم عن السابعة عشرة » ، بينما قدم ٣٠ بالمئة من دول اوروبه الغربية (١٢) .

وهكذا يتم التعاون الوثيق بين الدولة والمنظمة = الوكالة لتحقيق الاهداف الصهيونية واستقدام اكبر عدد ممكن من يهود العالم — والشباب منهم بنوع خاص — الى اسرائيل تحت ستار شعارات من طراز « تجميع المنفيين » و « العودة الى الوطن » او « موجة الهجرة الصاعدة الى ارض اسرائيل » . فكيف تريد الدولة الصهيونية اقناع العالم بان تهجير اليهود الى فلسطين المحتلة لا ينطوي على نوايا عدوانية تهدف الى تحقيق المزيد من التوسع ، والى شن « حروب حزيرانية » بقصد الاستيلاء على المجال الحيوي اللازم ! هذا التساؤل يشغل بال المراقبين ، امثال القس هنري ه. بوخر ، اذ كتب يقول :

« من غير الممكن ان تحل الصهيونية مشكلة النازحين حلا عادلا وتبني دولة يسودها الطابع اليهودي الخالص ، دون المزيد من « الحروب الحزيرانية » . ومن غير الممكن على السواء كذلك ان تتبنى الصهيونية تصور « العالية » (Aliyah) — او موجة الهجرة اليهودية الى اسرائيل وتعمل لتحقيقه ، دون ان تترك لدى المراقب الحذر انطباعا مؤداه ان

١٢ — انظر صحيفة « النهار » البيروتية ، العدد ٩٩٨٢/٢٠ ، ٢١ ايار (مايو) ١٩٦٨ .

« حروب حزيران » هي (اجراءات) ضرورية للحصول على مزيد من المدى الحيوي (Lebensraum) » (١٢) .

فلا حاجة بنا ، بعد ان تحول الانطباع المذكور الى واقع فعلي منــذ عدوان الخامس من حزيران (يونيو)، الى البقاء في نطاق التساؤل المجرد . بل يتأكد لدينا بصورة قاطعة ان التوسع من المرتكزات الاساسية التي تقوم عليها دولة الصهيونية العنصرية في جميع مظاهرها واعمالها العدوانية .

القانون التشريعي

كمـا اقره الكنيست الاسرائيلي

في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢

١ ـ تعتبر دولة اسرائيل نفسها صنيعة الشعب اليهودي بأسره، وتمشيا مع قوانينها تفتح ابوابها امام كل يهودي يرغب في الهاجرة اليها .

٢ ـ ان المنظمة الصهيونية العالمية ، منذ تأسيسها قبل نصف قـرن ، قد (سارت في طليعة) حركة الشعب اليهودي ومساعيه لتحقيق رؤيا الاجيال بالعودة الى وطنه ، واخذت على عاتقها ، بمساعـدة اوساط وهيئات يهودية اخرى ، عبء المسؤولية الرئيسية في اقامة دولة اسرائيل .

٣ ـ تنذر المنظمة الصهيونية العالمية ـ الوكالة اليهودية لفلسطين ـ نفسها ، كما فعلت في الماضي ، لدفع عجلة الهجرة الى اسرائيل ، وتدير مشاريع الاستيعاب والاستيطان في الدولة .

٤ ـ تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على انها الوكالة المخولة السلطات والتي سوف تتابع عملها في دولة اسرائيل لتوطين البلاد وتطويرها ، ولاستيعاب المهاجرين من الدياسبورا ، ولتنسيق النشاطات (في اسرائيل) التابعة للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في هذه الحقول .

٥ ـ ان مهمة (جمع شمل المنفيين) ، وهي الواجب المحوري لكل مـن دولة اسرائيل والحركة الصهيونية في ايامنا هـذه ، تتطلب الى الشعب اليهودي في الدياسبورا الاستمرار في بذل الجهود، ولذلك تتطلع دولة اسرائيل صوب مشاركة جميع اليهود والهيئات اليهودية

١٢ ـ راجع Rev. Henry H. Bucher — Issues Winter 1967 — Spring 1968. «Symposium : The Significance of the June, 1967 Arab-Israeli War», p. 12.

في بناء صرح الدولة ومساعدة الهجرة الجماعية اليها ، وتعترف بالحاجة لتوحيد جميع الفئات والجماعات اليهودية لهذه الغاية .

٦ ـ تتطلع دولة اسرائيل الى المساعي التي تبذلها المنظمة الصهيونية العالمية في سبيل تحقيق هذا التوحيد ، وحين تقرر المنظمة الصهيونية ، لاجل هذا الغرض وبعد موافقة الحكومة وتصديق الكنيست ، توسيع اطارها ، سوف تتمتع الهيئة الموسعة بالوضع الشرعي اياه الذي جرى منحه للمنظمة الصهيونية العالمية في دولة اسرائيل .

٧ ـ ان شروط الوضع الشرعي وشكل التعاون بين المنظمة الصهيونية العالمية ـ كما تمثلها اللجنة التنفيذية الصهيونية التي تدعى ايضا ب اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين ـ والحكومة سوف يتم وضعها في ميثاق يجري ابرامه في اسرائيل بين الحكومة واللجنة التنفيذية الصهيونية .

٨ ـ سوف يرتكز الميثاق على بيان المؤتمر الصهيوني الثاني والثلاثين المنعقد في القدس ، والذي ينص على ان البرنامج العملي ، كما تتولاه المنظمة الصهيونية العالمية والوكالات التابعة لها في سبيل تحقيق مهماتها التاريخية في ارض اسرائيل ، يتطلب من جانبها ابعد درجة من التعاون والتنسيق مع دولة اسرائيل وحكومتها ، وفقا لقوانين الدولة .

٩ ـ تنشأ لجنة لتنسيق النشاطات بين الحكومة واللجنة التنفيذية في تلك الحقول التي تعمل بها اللجنة التنفيذية ، ووفقا للميثاق ، على ان يجري تحديد مهام اللجنة في نص الميثاق .

١٠ ـ سوف ينشر الميثاق ، وكل تغيير او تعديل يحصل بموافقة الفريقين، في « الرشوموت » ، ويصبح ساري المفعول بتاريخ نشره ، ما لم يرد نص لتقديم التاريخ او تأخيره عن موعد النشر .

١١ـ اللجنة التنفيذية هيئة قانونية يحق لها ابرام العقود والاستحصال على الممتلكات (الشراء) ، والاحتفاظ بها او تصريفها ، كما يحق لها ان تكون طرفا في جميع المعاملات القانونية وغيرها .

١٢ـ تعفى اللجنة التنفيذية ، بصناديقها المالية ومؤسساتها الاخرى ، من الضرائب وغيرها من الرسوم الحكومية الالزامية ، وفقا لقيود وشروط سوف ينص عليها الميثاق ، ويصبح الاعفاء نافذ المفعول في وقت واحد مع الميثاق .

حركة اسرائيل الكبرى

« ان المهمة القومية التي تضطلع بها دولة اسرائيل الا وهي جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة في العالم وتهجيرها الى اسرائيل ، ان تلك المهمة تستدعي هجرة متصلة تستمر على الاقل لمدة جيل واحد (٣٠ عاما) وعلى الدولة الاسرائيلية ان تؤمن الاحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان ... ولذا فان مهمتنا هي احتلال الاراضي العربية وتوطيد سيطرتنا عليها ... » .

(نقلا عن الخطة الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي للعام ١٩٥٦ — ١٩٥٧ .
انظر كتاب **خنجر اسرائيل** ، ص ٧٥)

لم تتجه نوايا الدولة الصهيونية واعمالها ، منذ قيامها على ارض فلسطين قبل عشرين عاما ، نحو تطبيق سياسة الوضع الراهن والابقاء عليه ، الا من قبيل التصريحات التي كان يطلقها زعماء اسرائيل وحكامها بين الحين والآخر وبقصد الاستهلاك الدعائي فقط . فالدلائل المتوفرة عن سياسة تهجير يهود العالم ، ومشاريع استغلال المياه الاقليمية العربية ، وتحويل العلاقة بين الدولة والمنظمة الصهيونية الى نوع من « الاممية الصهيونية العالمية » ، واقتصاد الحرب ، بالاضافة الى استغلال « عقلية الحصار » وتلقينها الروح العسكرية التي اخذت تمهد السبيل امام ازدياد نفوذ العسكريين واتساعه — هذه الدلائل تشير كلها الى اعداد العدة لتحقيق التوسع وقلب الوضع الراهن رأسا على عقب . وليس التمييز من الزاوية الصهيونية بين « خطوط الهدنة » (Demarcation lines) و « الحدود » (Boundaries) التي تتراوح بين « الآمنة » و « الطبيعية » و« التاريخية » سوى احدى الوسائل المبطنة التي يحلو للقادة العسكريين الاسرائيليين ترديد نغمتها دون الافصاح عما يجول في خاطرهم التوسعي. كما ان افتعال حوادث الحدود عند خطوط الهدنة والتعديات المتكررة على

حرمة المناطق المجردة من السلاح لا يمكن فصلها عن المخطط التوسعي الصهيوني الذي يلجأ الى الاستفزاز وتصعيد تبادل اطلاق النار بغية توسيع نطاقه وتحيّن الفرصة للعثور على مبررات تستوجب شن «الحرب الوقائية» التي يطيب لبن غوريون التحدث عنها والتهديد بها . ولا شك ان مناوشات خط الهدنة تساهم الى حد بعيد في تصعيد «عقلية الدولة المحاصرة» كي لا تجد امامها مفرا من الاقدام المفاجيء على كسر الطوق وفك الحصار ــ متى اصبحت على ثقة تامة من قوتها الذاتية وفعاليتها العسكرية وتأكد لها استعداد الاصدقاء في العالم لتأييدها ودعمها بشتى الوسائل الممكنة .

وسرعان ما تتحول «عقلية الحصار الاسرائيلية» الى «حصن صليبي مدجج بالسلاح في قلب العالم العربي» واداة تضع نفسها بتصرف المصالح الاستعمارية في المنطقة ، وتقوم بتنفيذ مخططات تخدم اللقاء المسبق بين نواياها التوسعية ومصالح الاستعمار التي تمثلها وتعمل لاجل الدفاع عنها .

ففي منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ كان دافيد بن غوريون يدلي بتصريح امام الكنيست ليعلن فيه رفضه القاطع لمقترحات «التسوية» التي تقدم بها السير انطوني ايدن لحل النزاع بين اسرائيل والدول العربية . ويعرض على العرب الدخول في مفاوضات مباشرة دون شروط مسبقة ، بغية التوصل الى حل . غير ان ما قاله رئيس الوزراء عن «اسرائيل التي لا تطمع في الحصول على بوصة واحدة من الارض الاجنبية ، ولا تسمح لاحد ان يسرق منها بوصة واحدة من ارضها» (١) لا يعني مطلقا عزوف اسرائيل عن الاستيلاء على المزيد مما تعتبره الصهيونية «ارض اسرائيل الخاضعة لسيطرة اجنبية» . ولا بد من

---

١ ــ انظر التصريح كما نقلته صحيفة **The Jewish Chronicle, November 18, 1955.** ومما يسترعي انتباهنا ان الصحيفة المذكورة اوردت الى جانب تصريح بن غوريون نبأ تقديم السفير الاسرائيلي لدى الولايات المتحدة الاميركية ، المستر ابا ايبان ، قائمة بالاسلحة التي تطلبها اسرائيل الى نظارة الخارجية ، للحفاظ على التوازن بعد شحنات الاسلحة التشيكية الى مصر . وقد صرح السفير للصحفيين بان السلاح المطلوب لا يدخل في «سباق التسلح» ، بل يقع ضمن نطاق «الدفاع المشروع عن النفس» .

تحريرها في مستقبل الايام وضمها الى الاراضي المحررة التي لا تؤلف ارض الوطن القومي بكاملها بعد .

ومما اعلنه بن غوريون امام الكنيست : « ان هجوم الدول العربية جعل مقررات الامم المتحدة حول فلسطين حبرا على ورق . فلا يمكن اعادة تلك المقررات الى قيد الحياة، او احياء آلاف اليهود الذين قدموا ارواحهم في سبيل تخليص شعبهم » فاتهم رئيس الوزراء البريطاني باعطاء « مكاسب » للدول العربية لم تكن ابدا مشمولة في قرارات الامم المتحدة. كما وصف الاقتراح الرامي لزيادة اراضي الدول المجاورة على حساب اسرائيل بالاقتراح الخيالي العجيب . وزعم ان اسرائيل هي الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط التي يحق لها المطالبة بالتعويض عن الهجوم الذي شنه العرب عام ١٩٤٨ . وانتقل الى توجيه الكلام للمستر ايدن بخصوص قوله ان اتفاقيات الهدنة لا تلزم الجانبين وزعمه ان من الخطأ تجاهل قرارات الامم المتحدة . فوصل الى الاستنتاج التالي :

« اذن يجب على مصر مغادرة قطاع غزة في الحال ، وعلى الاردن اخلاء فلسطين الغربية بكاملها » (٢) .

غير انه لم يشأ ذكر اسرائيل وخرقها الدائم لقرارات الامم المتحدة بالاستيلاء على المناطق العربية التي بلغت مساحتها حوالي ٣٦ ٪ من مجموع المساحة التي يعيّنها مشروع التقسيم للدولة اليهودية .

وفي منتصف ايار (مايو) ١٩٥٦ كان المؤتمر الصهيوني ينتخب ناحوم غولدمان لمنصب الرئيس السادس للمنظمة الصهيونية العالمية ويتخذ قرارا لمناشدة الاتحاد السوفياتي السماح لاعداد اكبر من اليهود بالهجرة الى اسرائيل (٣) . وقد حدث ذلك قبل وقوع العدوان الثلاثي على سيناء والسويس . مما يشير الى وجود صلة بارزة بين انخفاض معدل الهجرة الى اسرائيل وركود الاوضاع الاقتصادية من جهة ، وعقد النية على القيام بعمل عسكري ضد الدول العربية تحت ستار التذرع بالحرب الوقائية والاحتماء خلف المصالح البريطانية والفرنسية التي ابدت استعدادها للانتقام من اجراء تأميم شركة قناة السويس .

وها هو بن غوريون ، الذي لا يطمع في الاستيلاء على شبر واحد من اراضي الغير ، يعلن في خطابه امام الكنيست بعد العدوان الثلاثي ،

---

٢ ــ المصدر نفسه .

٣ ــ المصدر نفسه . May 11, 1956

وبتاريخ ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ، ما يلي :

« كان لحملتنا ثلاثة اهداف :

اولا ــ القضاء على قوات العدو التي تتهدد بلادنا .

ثانيا ــ تحرير تلك الاجزاء من وطننا التي لا تزال تحت احتلال الاعداء .

ثالثا ــ ضمان حرية المرور في العقبة والسويس » .

وعلى الرغم من احتلال القوات الاسرائيلية لشبه جزيرة سيناء بكاملها ، فقد وجد بن غوريون « اننا لم نحقق حتى الان سوى الهدف الاول » . وتابع قوله : « غير انه لا يساورني ادنى شك باننا سوف نحقق الهدفين الآخرين في المستقبل القريب » . فلم يقترب ذلك المستقبل الذي تمناه بن غوريون الا بعد مضي ما يقارب العشرين عاما على قيام اسرائيل ، وبعد مرور حوالي ١١ عاما على حصول العدوان الثلاثي . ولا بد لنا من النظر الى تصريح بن غوريون هذا في ضوء ما تحمله خطة التوسع المعروفة بـ « الخطة الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي لعام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ » . اذ تستهدف تلك الخطة « الحصول على حد ادنى من الاراضي للفترة التي تنتهي عام ١٩٥٧ » ، وتتحدث عن « منافع ومساوىء الحرب الوقائية » .

١ ــ التوسع الاستراتيجي

لم يعد من الضروري طرح السؤال عن صحة الوثيقة التي يتضمنها كتاب « خنجر اسرائيل » (٤) ، او النظر اليها بعين الشك والريبة من حيث المحتوى . فهي ، كما نعلم ، « عبارة عن نسخة من الخطة الاستراتيجية العامة التي كانت قد وضعتها هيئة اركان الحرب الاسرائيلية للعام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ » . وقد جاءت الاحداث الاخيرة لتثبت صحة محتوياتها من ناحية الاطماع التوسعية ، على الاقل . وتؤكد ان التخطيط العسكري الاسرائيلي يقيم دفاعه على اساس الهجوم المفاجىء ويتحيّن فرصة تشوب حرب عربية ــ اسرائيلية لكي تحقق الدولة الصهيونية مزيدا من المكاسب والاطماع على حساب الدول العربية المحيطة بها .

غني عن القول ان خطط العمليات التي تضعها هيئة الاركان العامة في مختلف الدول تعكس بصورة مركّزة آراء الطبقات الحاكمة في تلك الدول ومخططاتها . ولا تشذ اسرائيل عن هذه القاعدة السائدة ، بل تقدم اصدق برهان على صحتها من خلال اعمالها السابقة واللاحقة لعدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . كذلك نجد التفكير الصهيوني القابع وراء العقل المخطط يشدد على وضع الهدف المزدوج « نصب اعيننا في كل الخطط التي نرسمها » على النحو الآتي :

اولا : الاستيلاء على الاراضي ذات الاهمية الجوهرية لنا في زمن الحرب ــ وذلك **كهدف ادنى** .

ثانيا : الاستيلاء على الاراضي الكفيلة بان تسد كل احتياجاتنا ــ وذلك **كهدف اقصى** (٥) .

محاولا الجمع بين الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية في تنسيق خطط العدوان التوسعي . فالمهمة القومية التي تضطلع بها

٤ ــ انظر : ر.ك. كرانجيا ــ **خنجر اسرائيل** . نقله الى العربية مروان الجابري . (المكتب التجاري ، بيروت ، ايار (مايو) ١٩٥٨ .

٥ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٦ ــ ٤٧ .

دولة اسرائيل هي احد البواعث الرئيسية التي تدفعها لاحتلال المناطق العربية ، زاعمة انها تؤلف الاجزاء المتممة لارض اسرائيل والوطن القومي اليهودي ضمن حدوده التاريخية :

« ان الحاجة الى احتلال المناطق التي تطالب بها اسرائيل انما هي حاجة يمليها هدف الصهيونية الاول : الا وهو خلق دولة يتراوح عدد سكانها بين ٣ و ٤ ملايين وذلك خلال فترة جيل واحد » (٦) .

وفي معرض تبرير الحاجة الى التوسع على الصعيدين **الاستراتيجي والاقتصادي** تأتي الخطة المذكورة على تبيان شيء من طبيعة الدوافع الكامنة وراء العدوان التوسعي :

« ليس لحدود اسرائيل الحالية من حماية طبيعية ولذا فان مهمة الدفاع عنها عسيرة جدا » .

« ان الغاية من الحرب بين اسرائيل والعرب هي تغيير خط الحدود الحالية ، وان احتلال الاراضي التي تطالب بها اسرائيل سيحسّن من وضعها السياسي والاقتصادي » (٧) .

اما على الصعيد **السياسي** فان الغرض الذي ترمي اليه اسرائيل من وراء احتلال الاراضي العربية وتغيير معالم خريطة الشرق الاوسط هو

« تعزيز وتقوية مركز اسرائيل السياسي عن طريق تحقيق سيطرتها على الطرق ذات الاهمية الاستراتيجية في الشرق الاوسط وعن طريق شق ممرات عبر الاقطار العربية ومنع قيام الوحدة العربية وبنشر الدعاية المفيدة لاسرائيل بين اقليات الشرق الاوسط » (٨) .

ولو القينا نظرة عابرة على ما تصفه الخطة المذكورة بالمتطلبات الدفاعية التي تحتم قيام اسرائيل باحتلال المناطق العربية التي تعتبرها مسألة جوهرية وحيوية ، لتبيّن لنا ان تلك المناطق لا تقع خارج الصورة التي طالما رسمتها الصهيونية « لفلسطين الكبرى » او « ارض اسرائيل بحدودها التاريخية » وعبّرت عنها مذكرة المطالب التي تقدمت بها المنظمة الصهيونية العالمية الى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ . فالصهيونية لم تتنازل عن المناطق التي تطالب بها منذ ظهور حركتها في اواخر القرن الماضي .

٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
٧ ــ المصدر نفسه .
٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

ودولة اسرائيل هي ربيبة الصهيونية العالمية ووريثة العقدة التوسعيةالتي تبطل الصهيونية بدونها وترتد على ذاتها .

اما المناطق التي ترشحها الخطة الاستراتيجية للاحتلال الصهيوني بحكم ما تدعوه المتطلبات الدفاعية ، فهي التالية :

« **المنطقة الجنوبية ومنطقة غزة :** من شأن احتلال هذه المنطقة ان يضمن سلامة مراكزنا الحيوية وان يمكننا من احتلال الشطر الجنوبي من شبه جزيرة سيناء وتأمين منفذ حر عن طريق ايلات » .

« **شبه جزيرة سيناء :** ان احتلال هذه المنطقة من شأنه ان يجعل من المستحيل قيام هجوم مصري معاكس على اسرائيل بل ان احتلالها يجعل مصر عرضة لخطر الهجوم دائما » .

« **المنطقة الشرقية :** وتتضمن الضفة الغربية من الاردن (المثلث) وتلال الخليل والضفة الشرقية من الاردن بما فيها المناطق الصحراوية . ان احتلال هذه الاراضي سيمكن اسرائيل من اقامة حدود لها مع العراق والعربية السعودية » .

« **المنطقة الشمالية :** وتتضمن الجولان وحرمون والليطاني . ان هجوما في هذا القطاع من شأنه ان يجعل من الممكن الاستيلاء على الجولان ودرعا واليرموك والجليل الشمالي حتى نهر الليطاني » (٩) .

ولا حاجة بنا للدخول في مزيد من التفاصيل حول الاهمية التيتعلقها خطة اسرائيل على المناطق المطلوب احتلالها من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية . فقد يخيّل الينا ان ديفيز تريتش قد بعث حيا وجاءت الخطة التوسعية الصهيونية لتحقق الفكرة التي طالما حمل لواءها وكافح في سبيلها :

« يجب التمسك بفكرة فلسطين الكبرى على ان تكون البداية متركزة على الاطراف ــ هذه هي الصهيونية الواقعية الممكنة » (١٨٩٩) .

واذا كانت الصهيونية التحريفية قد اخذت على عاتقها خلالالسنوات التي تلت قيام اسرائيل مهمة الاعراب بصورة مستمرة عن الاطماع والنوايا التوسعية ، فانها أتاحت امام الحكم القائم فرصة العمل الجدي والفعلي لوضع ذلك كله موضع التنفيذ . وسرعانما وجدت نفسها على صعيد واحد الى جانب الاحزاب والعناصر الدينية المتطرفة . ففي ١٢ حزيران (يونيو)

---

٩ ــ المصدر نفسه ، ص ٧٦ ــ ٧٧ .

۱۹٥۱ ، مثلا ، ادلى التحريفيون بتصريح الى صحيفة «الجيروسالم بوست» اكدوا فيه وقوفهم « في طليعة المطالبين بدولة تمتد حتى حدودنا التاريخية » (۱۰) . ثم ما لبث يهوذا مينون ، وزير الشؤون الدينية ، ان اعلن في حديثه امام اجتماع لصندوق (Karen Ha'emet) بتاريخ ۸ آب (اغسطس) من العام نفسه ما يلي :

« ان حدود الدولة اليهودية تمتد من الفرات الى النيل » .

غير ان ابا ايبان لم يشأ التحدث عن الحدود التاريخية دون ابداء التحفظات والتنصل من وجود النوايا التوسعية . فقد سبق لصحيفة « الجيروسالم بوست » اياها ان نقلت تصريحه في عددها الصادر في ۲ ايار (مايو) ۱۹٥۱ ، وبمناسبة مرور ثلاثة اعوام على اعلان قيام اسرائيل ، حيث قال في معرض نفيه لوجود النوايا التوسعية لدى اسرائيل :

« لسنا من المهتمين بالنيل والفرات ، لكننا نولي الاردن ومنابعه كل اهتمام » .

والحديث عن اهتمام اسرائيل الزائد بنهر الاردن ومنابعه الواقعة في الاراضي اللبنانية والسورية يقودنا الى التوقف قليلا عند طراز آخر من مشروعات التوسع الصهيوني : مشاريع الري واستغلال الثروات المائية في البلاد العربية المتاخمة لاسرائيل .

---

۱۰ ــ وقد جاء في احدى النشرات التي قامت منظمة الشباب الصهيوني المعروفة (Brit Trumpeldor — Betar) بتوزيعها في شتى مدن الولايات المتحدة الاميركية (عام ۱۹٥۳) ما يلي :

« لقد فشل التقسيم ! وقد اخطأنا خطأ مميتا بقبوله منذ البداية وهو الآن يستوفي منا ضريبته بالاموال والارواح . ان الزمن يعمل ضدنا وكلما اسرعنا في العمل ، اسرعنا في اتقاء الكارثة التي لا مفر منها .

ان واجبنا المباشر هو اعادة توحيد القدس ، القديمة والجديدة ، والقضاء على اضحوكة الدعاية المسماة المملكة الاردنية الهاشمية واعادة الحكم اليهودي الى اسرائيل الكبرى بكاملها على ضفتي الاردن.

ايها اليهود لا تنخدعوا ! فالاحسان لا يحل مشاكل اسرائيل الاقتصادية . ان اسرائيل الكبرى بحدودها التاريخية هي وحدها تقدم الحل الدائم » .

ب ـ مشاريع الري التوسعية

يرجع اهتمام الصهيونية بقضية الموارد المائية في فلسطين والمناطق المتاخمة لها الى ايام ثيودور هرتزل، ان لم نقل الى النشاطات التي قام بها « صندوق اكتشاف فلسطين » وجاء الصهيونيون لاقتباسها وتبنّيها (١) . وقد كتب هرتزل في روايته « الارض الجديدة ـ الارض القديمة » يصف

---

١ ـ ان نفتالي هرتز ايمبر (Naphtali Hertz Imber) مؤلف النشيد القومي الصهيوني « هاتكفاه » (الامل) ، والسكرتير المساعد للصهيوني البريطاني لورنس اوليفانت اثناء المساعي المبذولة لتحقيق مشروع الاستعمار اليهودي في مناطق حوران والجولان وشرقي الاردن ، هو نفسه مؤلف النشيد الصهيوني الآخر بعنوان « الحارس على الاردن » «The Watch on the Jordan» على غرار النشيد الالماني الذائع الصيت : « الحارس على الراين » (Die Wacht am Rhein) وقد قام اسرائيل زانغويل بترجمة النشيد الى الانجليزية ونشره في كتابه « ابناء الغيتو » (Children of the Ghetto) . ثم ضمه جوزيف هيرتز ، الحاخام الاكبر للطوائف العبرانية المتحدة في الامبراطورية البريطانية (١٩١٢ ـ ١٩٤٦) ، الى كتابه الذي يحوي « مقتطفات من الافكار اليهودية » (١٩١٧) ، انظر : **A Book of Jewish Thoughts.** (Oxford University Press, May 1917), pp. 117 - 118.

والنشيد المذكور عبارة عن نداء يناشد اليهود ترغيب روحهم بالعودة الى ارض الآباء والاجداد ، والى نهر الاردن « لتحرير نهرنا المقدس من الاعداء » ، واقامة الحراسة عليه تحت شعار : «سيف ارضنا وآلهنا» «The Sword of our Land and our Lord. By Jordan then set we our Watch». ثم جاء جابوتنسكي بعد ذلك بزمن لينظم نشيده ويتغنى بالتوسع الصهيوني على ضفتي الاردن تحت شعار توطين الملايين من اليهود هناك !

مستقبل المجتمع اليهودي الذي سيقوم على استيطان فلسطين واستعمارها على النحو التالي :

« ان المؤسسين الحقيقيين للارض الجديدة ـ القديمة هم مهندسو الماء . فعليهم يعتمد كل شيء : من تجفيف المستنقعات الى ري المساحات المجدبة والى انشاء معامل توليد الطاقة الكهربائية من الماء » (٢) .

وعكفت الحركة الصهيونية منذ قيامها على تحقيق احلام هرتزل والمطالبة بضم المناطق الغنية بالمياه الى رقعة الارض التي تطمع بالاستيلاء عليها في سبيل انشاء المستوطن اليهودي وتأمين المجال الحيوي للنشاطات الاستعمارية. فراحزعماء الصهيونية يخططونللدولة التي يزمعون اقامتها بالاعتماد على ما اعتبروه بمثابة « الاصول التاريخية » لحدود الدولة الموعودة ، كما لجأوا الى مراعاة شتى المتطلبات الاقتصادية والاستراتيجية والحيوية . وقد لخص فريش فاسر ـ رعنان في كتابه « حدود امة » المخططات التوسعية الصهيونية ، على صعيد الموارد المائية المتوفرة في المناطق المتاخمة لفلسطين ، على الشكل الآتي :

« لما كانت المنظمة الصهيونية تهدف الى جمع اكبر عدد من الناس في ارض محدودة المساحة ، اصبح من الواجب وضع مخططات للري واسعة النطاق . ولما كانت الموارد المائية محدودة في فلسطين ، فقد جرى توسيع تلك المخططات حتى تشمل الاراضي الواقعة الى الشمال والشمال الشرقي من فلسطين ، وكي تصل الى منابع الاردن ونهر الليطاني وثلوج حرمون واليرموك وروافده ونهر الجابوك . وبالاضافة الى ذلك فان افتقار البلاد الى الفحم . . والبترول . . . . أوجب الاعتماد في المشاريع التصنيعية على انتاج الطاقة الكهربائية التي يمكن تأمينها من الليطاني واليرموك » (٣) .

اما الخطوة الاولى في هذا السبيل فقد تمثلت في المشروع الذي أعده المهندس الصهيوني الروسي الاصل بنحاس روتنبرغ (٤) لاستغلال مياه

---

٢ ـ انظر **Arthur Ruppin — The Agricultural Colonization of the Zionist Organization in Palestine (London, 1926), p. 3.**

٣ ـ انظر **H. F. Frischwasser - Ra'anan — The Frontiers of a Nation,** op. cit., p. 87.

٤ ـ Pinhas Rutenberg ١٨٧٩ ـ ١٩٤٢ : مولود في بولتافه (روسيه) ، درس الهندسة في المعهد التكنولوجي بموسكو . انضم الى الحزب

الاردن وتوليد الطاقة الكهربائية لعموم فلسطين . والمعروف ان الصهيونيين اصروا آنذاك على اعتبار الاتفاقات الفرنسية ــ البريطانية بصدد حدود فلسطين الشمالية بأنها تمنحهم حق استغلال مياه الاردن الاعلى واليرموك بموجب اتفاق يصار الى وضعه بالتعاون بين الفرنسيين والفنيين الصهيونيين . وقد جاء اصرارهم بوحي من رغبتهم في ضم وادي اليرموك ومنابع الاردن الى منطقة الانتداب البريطاني . فهذا ما كتبه الصهيوني الاميركي هوراس ماير كالن في كتابه « الصهيونية والسياسة العالمية » بالحرف الواحد :

« ان اقتصاد فلسطين ، وعدد الناس الذين يمكنها اعالتها ، ومكانتها الثقافية وتنظيمها الاجتماعي ، يجب ان تعتمد الى حد بعيد على درجات التصنيع التي يمكنها تحقيقها . والتصنيع يعتمد على الطاقة ، وفي فلسطين خلال المرحلة الحاضرة من السيطرة التقنية على الطاقة ، لا

الاشتراكي الثوري ولعب دورا بارزا في ثورة ١٩٠٥ . كما اشترك بمقتل الاب غابون الذي اعتبر عميلا لراسبوتين والعوبة له . توثقت صلاته بالحركة الصهيونية خلال عمله في ايطاليه ، حيث كان موسوليني (الاشتراكي آنذاك) في طليعة المعجبين بمقدرته وبراعته الهندسية . سافر الى اميركه عام ١٩١٤ بقصد تجنيد المتطوعين اليهود في الفرقة التي عمل جابوتنسكي لتأليفها . وعاد الى روسيه قبل نهاية الحرب العالمية الاولى ليصبح مساعد القائد العام في بتروغراد (لنينغراد) ويشارك في حكومة روسيه الشمالية بعد سقوط كيرينسكي . ثم انتقل الى باريس ومنها الى اميركه لتنظيم المؤتمر اليهودي الاميركي واعداد المطالب التي سترفع الى مؤتمر الصلح ــ وفي طليعتها تعيين بريطانيه دولة منتدبة على فلسطين .

جاء الى فلسطين لوضع تفاصيل مشروعه القاضي باستغلال مياه الاردن واليرموك ، وتفاوض مع وزير المستعمرات آنذاك ، ونستون تشرشل ، بشأن المشروع . فحصل على الامتياز من بريطانيه في خريف ١٩٢١ ــ وقبل التوقيع على صك الانتداب وتصديقه . ثم أسس « شركة كهرباء فلسطين » عام ١٩٢٣ وتسلم ادارتها . وانشأ المحطات الثلاث لتوليد الطاقة عند جسر المجامع وفي مدينتي حيفا وتل ابيب . تراس الفاد ليئومي (١٩٢٩ ــ ١٩٣١) ولمدة عشرة اشهر عام ١٩٣٩ ، حين استقال اثر خلافات داخل اليشوف . انظر :

The Jewish Chronicle, January 9, 1942.
The Palestine Post, January 4, 1942.

يمكن لهـذه الطاقة الا ان تنحصر بالطاقـة المائية . فالطاقة المائيـة هي مسألة حدود ، والحدود الشمالية بنوع خاص ... ان مستقبل فلسطين باكمله هو بأيدي الدولة التي تبسط سيطرتها على الليطاني واليرموك ومنابع الاردن » (٥) .

ولم تكتف الصهيونية العالمية آنذاك برفع المذكرة التي ضمنتها شتى المطالب التوسعية الى مؤتمر الصلح . بل لجأت الى شتى الوسائل والضغوط والمساومات . ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠ لجأ الصهيونيون عن طريق المجلس الاستشاري في مدينة القدس الى اتخاذ القرار التالي نصه :

« يصر ممثلو عموم سكان فلسطين بالاجماع على ان تشمل الحـدود الشمالية : القسم الاسفل من الليطاني ، وكل منطقة وادي الاردن وجميع روافده ومجاريه . ويطلبون الى المندوب السامي اتخاذ الخطوات اللازمة » (٦) .

غير ان الفرنسيين أصروا على موقفهم مؤكدين ان الليطاني ينبع ويجري كليا داخل الاراضي اللبنانية الواقعة تحت انتدابهم وادارتهم . وقد ذكر فيليب غريفز في الفصل الذي عنوانه « حدود وجيران » من كتابه : « فلسطين ــ ارض الديانات الثلاث » بأن

« التأثيرات الصهيونية هي التي أوحت على ما يبدو باقتراح لضم وادي اليرموك الاسفل لصالح مشروع روتنبرغ ، فلم يقبل الفرنسيون بذلك ... وقرروا ... الاحتفاظ بحقوقهم في مياهه . كما اقترحوا خلال المفاوضات تخليهم عن الاراضي الواقعة الى الشمال من بحيرة الحولة لقاء الحصول على حدود تصل الى نهر الليطاني . غير ان الفرنسيين يحتاجون الى مياه الليطاني لري سهل البقاع الخصب » (٧) .

على ان تخطيط حدود فلسطين الانتداب وتعيينها بصورة نهائية عام ١٩٢٣ لم يكن ليقف حائلا دون المضي في تنفيذ المشروعات التوسعية الصهيونية على مختلف المستويات وبشتى الوسائل . ومن ابرز المحاولات

---

٥ ــ انظر الفصل الذي عنوانه «Vita Nuova» من كتاب **Horace Meyer Kallen — Zionism and World Politics. A Study in History and Social Pcychology, (London, 1921), pp. 288 - 89.**

٦ ــ نقلا عن **Mc. Crackan - The New Palestine, (1922), p. 382.**

٧ــ انظر : **Philip Graves - Palestine, The Land of Three Faiths (1923), p. 219 - 20.**

الرامية لتحقيق مشروعات الري التي جرى وضعها في ضوء المصلحة الصهيونية وقبل قيام اسرائيل بعدة سنوات : المشروع الذي اعده خبير الاراضي والري العالمي والتر كي لودرميلك (Lowdermilk) بطلب من الوكالة اليهودية. وهو يرمي الى انشاء هيئة تقوم باستثمار وادي الاردن واستغلال مخزون المياه لري منطقة تقع غربي نهر الاردن بحيث تتسع لتوطين مليونين من المهاجرين اليهود ! وقد بعثه الصهيونيون من جديد عام ١٩٤٤ ، عندما حصل الدكتور وايزمان على موافقة ونستون تشرشل وقبوله بفكرة ادخال صحراء النقب في مشروع تقسيم فلسطين (٨) .

وهناك المشروع الـذي وضعته « هيئـة مشروع وادي تنيسي الاميركية » في صيف ١٩٥٣ . وهو المعروف بمشروع جونستون ، المبعوث الاميركي الخاص الى الشرق الاوسط ، وغايته « الانماء الموحد لمصادر وادي نهر الاردن » . فقد نص على انشاء هيئة لاستثمار مياه الاردن ، تشترك في عضويتها كل من اسرائيل والدول العربية الثلاث : سوريه والاردن ولبنان . وخص اسرائيل بكميات من المياه تزيد عن حاجتها لري اراضي السقي وتشجعها على استصلاح مزيد من الاراضي الفلسطينية بغية اعدادها لتوطين ما يزيد على مليون و ٣٥٠ الفا من المهاجرين اليهود ، بالاضافة الى امدادها بمقادير هائلة من الطاقة الكهربائية التي لا تكلف الكثير .

ثم هناك المشروع الذي وضعه مهندس الري الاميركي، جون كوتون ، بالتعاون مع الخبراء الاسرائيليين ليكون بمثابة « اقتراح مضاد » لمشروع جونستون الذي اعدته مؤسسة Charles T. Hain, Inc. في بوسطن ، ماساشوستس . وقد وصفته احدى النشرات التي وزعتها السفـارة الاسرائيلية في لندن (١٩٥٣) ابان عرض الشكوى السورية على لجنة مراقبي الهدنة التابعة للامم المتحدة بما يلي :

« مشروع كوتون لتطوير واستثمار الموارد المائية لكل من حوضي نهر الاردن والليطاني » (٩) .

وتحدثت عن « انماء المياه الاقليمي في الشرق الاوسط » بحيث يجري دمج جميع الموارد المائية في مشروع واحد ، لكي يتم توزيعها على اسرائيل والبلدان العربية : سوريه والاردن ولبنان . بحيث تكون حصة

---

٨ ــ انظر وايزمان ــ **التجربة والخطا** ، ص ٤٣٦ .

٩ ــ نشرت الحكومة الاسرائيلية « مشروع كوتون » (The Cotton Plan) عام ١٩٥٤ من جملة مشاريعها المائية الرسمية .

اسرائيل من المساحات المروية بالدونم اربعة اضعاف وربعا عما كانت عليه في مشروع جونستون . كما زعمت النشرة بان القسم الاعظم من مياه الليطاني لا يستخدم للري داخل لبنان ، بل يذهب هدرا الى البحر ! واعتبرت تحويل فائض المياه اللبنانية لا يشكل عقبة في سبيل مشروعات الري داخل لبنان .

وفي عام ١٩٥٦ بدأت اسرائيل بتنفيذ ما اسمته « مشروع السنوات العشر » (١٠) والهادف الى الاستيلاء على مزيد من الموارد المائية العربية عن طريق الخطوات التالية :

أ ـ تجفيف بحيرة الحولة وجر مئة مليون متر مكعب من مياهها الى داخل اسرائيل في اقنية خاصة .

ب ـ تحويل نهر الاردن عند جسر بنات يعقوب بقصد الحصول على ٥٠ مليون متر مكعب .

ج ـ تحويل مياه بحيرة طبريه وضخها في اقنية تخترق منطقة بيسان للحصول على ٧٠ مليون متر مكعب .

د ـ تحويل المياه الربيعية المالحة في بحيرة طبريه بقصد الحصول على ٣٠ مليون متر مكعب اخرى .

وبذلك تستولي اسرائيل على ما يوازي ٥٠ بالمئة من مياه الاردن . فلا تترك للدول العربية الثلاث مجتمعة الكمية نفسها ، مع العلم بأن نسبة المياه التي تنبع ضمن الاراضي التي تحتلها اسرائيل لا تتجاوز ٢٣ ٪ من المجموع الاجمالي لكميات المياه التي يحويها نهر الاردن وروافده .

من هنا يتبين لنا اهتمام الصهيونية بالاردن ومنابعه ـ على حد قول أبا ايبان ـ وتتضح اطماع اسرائيل بالاستيلاء على مياه الليطاني التي تزعم انها تذهب هدرا الى البحر . فالمشروع الاسرائيلي لاعمار النقب واستصلاحه

---

١٠ ـ ربما كان من الاصح ان نقول « مشروع السنوات الخمس » ، لان الخطة العشرية الاسرائيلية بدأت عام ١٩٦١ . و « تقوم على اساس تنفيذ مشروع تحويل نهر الاردن » ، بالاضافة الى ما تنطوي عليه من « منجزات » تجدّ السعي لتحقيقها :

١ ـ اجتلاب ٥ ملايين يهودي

٢ ـ تعمير النقب لاسكان هذا العدد من القادمين

٣ ـ زيادة الجيش الاسرائيلي الى مليون جندي

(انظر : هيثم الكيلاني ـ **الموقع الستراتيجي العربي** ، ص ٢١٠) .

بقصد توطين المزيد من المستعمرين اليهود يشكل جزءا هاما من المخطط الاسرائيلي العام والرامي لجعل النقب نقطة انطلاق نحو التوسع ، على الرغم من حملات الدعاية الصهيونية التي تركز على « الاعجوبة الاسرائيلية » في فلسطين والجهود الانمائية التي جعلت الصحاري تزهر وتتفتح بالحياة والنبات . وفي مقالة نشرتها دانا ادامز شميدت في مجلة « ميدل ايسترن أفيرز » الاميركية الصهيونية تحت عنوان « مشاريع لتسوية الخلاف على وادي نهر الاردن » ، ورد التصريح التالي :

« كان من الواضح للاسرائيليين ان احلام تطوير النقب لا يمكن ان تتحقق بدون مياه الليطاني » (١١) .

ولنا في تصريح ليفي اشكول الذي نشرته صحيفة «لوموند» الفرنسية بتاريخ ٨ تموز (يوليو) ١٩٦٧ خير شاهد على احلام التوسع الاسرائيلية التي ما زالت تصور اطماعها بمياه الليطاني على غرار ما فعلته منذ مطلع الخمسينات . وهذا ما قاله رئيس الوزارة الاسرائيلية بالحرف الواحد ونقلا عن الصحيفة اياها :

« لو امكننا اكتشاف الماء في هذه المناطق ، وباستطاعتنا القيام بذلك ، ولو ان مياه الليطاني ، بدلا من ذهابها سدى وهدرا الى البحر ، يجري استثمارها بصورة افضل وضمن نطاق مشروع جونستون ، عن طريق استخدام الاقنية الموجودة بالفعل ، ولو اقترن ذلك بالنظر جديا الى مشكلة تحلية مياه البحر ، (dessalement) فليس من المحال تصور ذلك » (١٢) . . . .

والمعروف ان اشكول ينوي الاعراب عن الاطماع الاسرائيلية بمياه الليطاني من خلال التستر وراء الزعم بانه يفتش عن وسائل لانعاش الكيان الفلسطيني المستقل في الضفة الغربية من الاردن . فهو يضع مزاعمه حول مياه الليطاني التي تذهب هدرا الى جانب مسألتي امكان العثور على مياه جوفية في المناطق المحتلة والعمل الجدي لتحلية مياه البحر وازالة ملاحتها . وليس اتيانه على ذكر «مشروع جونستون» الذي قابلته اسرائيل «بمشروع كوتون» المضاد سوى من قبيل المناورة والتمويه . كما انه لا يتردد في

---

١١ ــ انظر مجلة **Middle Eastern Affairs** - Vol. 6, No. 1, January, 1955.

١٢ ــ انظر **Le Monde**, 8. Juillet, 1967,«Une Interview Du Président Du Conseil Israélien» اجرى المقابلة مراسل الصحيفة الخاص اندريه سكيمامه (André Scemama) .

تذكيرنا بأن اسرائيل كانت تنادي على الدوام بضرورة تحقيق مشروعات انشائية ومائية كبرى تعود بالنفع على المنطقة باسرها ، وفي الاعراب عن استعداد اسرائيل لتقديم المساعدات الفنية والمساهمة بمبالغمالية محترمة. ولا يخفى ان اشكول تحدث عن ذلك كله في معرض الاجابة على سؤال بخصوص وضع اللاجئين الفلسطينيين في المناطق التي تحتلها اسرائيل وامكانات الوصول الى حل للقضية على الصعيدين السياسي والاقتصادي . فلم يشأ الا عرض وجهة النظر الاسرائيلية المعروفة : المطالبة بجر مياه الليطاني ــ « التي تذهب هدرا الى البحر » ــ للاقنية المعدة خصيصا لاستلامها ! فالاقنية التي عناها اشكول لا يمكنها ان تكون سوى تلك التي اعدتها اسرائيل لهذه الغاية بالذات وفي نطاق مشروعاتها المائية التوسعية . كما ان حديثه عن الانصراف الجدّي لتحقيق مشروع تحلية مياه البحر لا يعني سوى تأمين متسع من الاراضي لمزيد من المستوطنين اليهود وبالتالي المضي في سياسة التوسع الاسرائيلي التي تعمل بوحي التعاليم الصهيونية المعروفة .

ولم يكتف ليفي اشكول بتصريحه الاول الذي اطلقه بعد شهر واحد تقريبا من عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ، بل اعاد الكرة من جديد بعد مضي شهرين على التصريح الاول ، محاولا طرق اسماع الذين صموا آذانهم وتجاهلوا المسألة كأنها لا تعنيهم . فقد ادلى بتصريح نقلته صحيفة «لوموند» بالذات وبتاريخ ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ ، وتحدث فيه عن قناة السويس باعتبارها تشكل افضل حدود طبيعية ، بعد ان اعرب عن استنكاره الشديد « لكون نصف مليار متر مكعب من مياه الليطاني تذهب هدرا الى البحر كل عام ، بدلا من استغلالها لمنفعة سكان المنطقة (١٣) .

واكد مراسل الصحيفة الخاص بأن هذا القسم الاخير من تصريح اشكول يحظى باهتمام بالغ في الاوساط الرسمية بالقدس المحتلة ، وفي

١٣ ــ انظر Le Monde, No. 7046, 8. Septembre, 1967.
ومما يجدر ذكره ان المصلحة الوطنية لنهر الليطاني في لبنان تحركت للرد على تصريح اشكول الثاني ، وبعث مديرها الى الصحيفة نفسها بتوضيح حول استثمارات مشروع الليطاني وكميات المياه المتجمعة في مجرى النهر عبر شهور السنة . وقد تم ذلك بغية « تنوير الرأي العام الفرنسي حول هذه المسألة » . (انظر : Le Monde, 3. Octobre, 1967)

الدوائر الدبلوماسية بنوع خاص . فليس بمستغرب ، اذن ، ان تتجه الاطماع التوسعية الاسرائيلية الى مياه الليطاني وحوضه والمنطقة المتاخمة لحدود فلسطين المحتلة من لبنان الجنوبي . كما انه ليس من قبيل الصدفة المجردة ان يسعى الجاسوس القادم من اسرائيل ، الياهو كوهين ، لاقامة اتصالاته بأحد المهندسين اللبنانيين بغية الوقوف على تفاصيل المشروعات المائية الاخرى داخل الاراضي اللبنانية والتعرف على طبيعة القناة التي سيجري شقها ضمن نطاق مشروعات التحويل العربية لروافد نهر الاردن التي تنبع في اراضي لبنان وسوريه (١٤) .

فلا يساورنا ادنى شك : بأن الاطماع التوسعية الصهيونية لا تقوم بمعزل عن الطابع العدواني لدولة اسرائيل . والسعي الحثيث للاستيلاء على منابع المياه ومصادرها يؤلف حلقة متصلة بسائر حلقات ألتوسع الصهيوني المستمر تحت ستار « تجميع اليهود في ارض اسرائيل » واستصلاح المزيد من الاراضي لتوطينهم في المناطق الشمالية والجنوبية عملا بمتطلبات الاستيطان الاستراتيجي الذي يصلح منطلقا نحو توسيع الرقعة وتأمين المجال الحيوي للعنصرية الصهيونية المتوثبة .

وها هي الاوساط الحاكمة في اسرائيل تسارع بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) لوضع المشروع الصهيوني الاصلي لضخ مياه نهر الاردن موضع التنفيذ . فقد اوردت صحيفة «الجيروسالم بوست» في عددها الصادر بتاريخ ٧ آب (اغسطس) ١٩٦٧ النبأ التالي تحت عنوان « مشروع ضخ المياه عند جسر بنات يعقوب » :

« من المنتظر اتخاذ قرار على اعلى المستويات في المستقبل القريب بخصوص الخطط الرامية الى احياء المشروع الاصلي لضخ مياه نهر

---

١٤ ــ انظر : **Ben Dan - L'Espion qui Venait d'Israël L'Affaire Elie Cohen (Ed. Tayard, Paris, 1967), p. 229.**

كما اورد الصحفيان الاسرائيليان في كتابهما اسم احد كبار المقاولين العرب الذي تعهدت مؤسسته بشق قناة التحويل . وزعما ان كوهين استقى الكثير من معلوماته عن المقاول الكبير . ــ وقد جاء في تصريح لوزير السياحة الاسرائيلي ، موشيه كول ، ان اسرائيل مستعدة للموافقة فيما لو عرض لبنان فتح نقطة الحدود عند رأس الناقورة لتنقل السواح ! (انظر صحيفة « الدايلي ستار » ، ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧) .

الاردن عند جسر بنات يعقوب ، كما جرى تصميم ذلك ضمن نطاق « قناة المياه القومية » (National Water Carrier» عام ١٩٥١ . وبما انه لم يعد من الضروري الدوران حول المناطق المجردة من السلاح سابقا، فقد اصبح بامكان الصندوق توفير ما يقدّر بحوالي ١٢ مليون ليرة اسرائيلية لتنفق على « قنال مشمار هايرون ـ تبغا . . . ولقد جرى ايقاف العمل في هذا المشروع عام ١٩٥٣ ، عندما حصل السوريون على قرار من هيئة الرقابة الدولية بمنع الاستمرار في المشروع » (١٥) .

ثم انتقلت الصحيفة الى ذكر المنافع التي تتوقعها اسرائيل من تحقيق مشروعها القديم ـ الجديد . فأكدت ان تنفيذه سوف يؤمن لسائر انحاء البلاد كميات وفيرة من المياه التي تحوي نسبة منخفضة من المعادن ، بينما هو يبطل الحاجة الى ضخ المياه من بحيرة كنّرت (Kinnereth) (اي بحيرة طبريه) . وبذلك تتمكن محطة توليد الطاقة الكهرمائية من استخدام كمية ٢٦٠ مترا لتسقيط المياه من القنال الى بحيرة كنّرت . مما يؤدي بدوره الى زيادة الطاقة الاختزانية للبحيرة برفع اطرافها حوالي مترا واحدا ، واعادة توزيع مياه اليرموك .

فالاستيلاء على مياه الاردن والتهديد باحتلال المناطق التي تنبع فيها روافده لا يمكن فصلهما عن الاطماع الصهيونية بمياه الليطاني . وقد ذكرت المفكرة الفرنسية غواشون (Goichon) في كتابها عن « المياه : مشكلة حيوية في منطقة وادي الاردن » بأن احدى الشركات الصهيونية المعروفة بـ « لجنة ميـاه فلسطين » (Palestine Water Committee) قامت عام ١٩٤٣ بوضع دراسة لمياه الليطاني لكي تنتهي الى القول بأن « مياه الليطاني لا يمكن ان تستخدم كلها في لبنان » . وعلقت المؤلفة على تلك النتيجة المدروسة بالاشارة الى الدراسات اللاحقة التي قررت غير ذلك (١٦) ، مما يؤكد من

---

١٥ ـ انظر Jerusalem Post, Monday, August 7, 1967, «Plan to Pump Water from Bnot Ya'acov».

١٦ ـ انظر A. - M. Goichon — L'Eau — Problème Vital de la Région Du Jourdain. صدر عن منشورات مركز دراسات مشاكل العالم الاسلامي المعاصر ، بروكسل ١٩٦٤ ، وقد اعتمدنا الترجمة العربية للكتاب « تحويل نهر الاردن » ، كما نقله يوسف اليازجي، دمشق ١٩٦٤ . راجع ص ٥٦ ـ ٥٧ من الترجمة المذكورة .

جديد على وجود النوايا الصهيونية لتحويل قسم من مياه الليطاني الى اسرائيل والاستيلاء على المنطقة الجنوبية التي يمر النهر وسطها .

وحين يعمد ليفي اشكول بعد مضي ربع قرن الى تذكير العالم بتلك الكميات الهائلة من مياه الليطاني التي تذهب هدرا ــ حسب زعمه ــ فهو يكرر على مسامعنا تلك المزاعم القائلة بتعذر استخدام مياه الليطاني كلها في لبنان . ويكشف لنا من جديد ثبات الاطماع الصهيونية في التوسع الى الشمال وضم جنوب لبنان بغية إستكمال « الحدود الطبيعية لدولة اسرائيل » وتحويل مياه الليطاني لري النقب واعداده لاستقبال المزيد من المهاجرين اليهود (١٧) . واذا كان المسؤولون الاسرائيليون قد درجوا

---

١٧ ــ ذكر بن غوريون في الرسالة التي بعث بها بتاريخ ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ الى الجنرال ديغول ردا على التصريحات التي وردت فيمؤتمر الرئيس الفرنسي الصحفي تشرينالثاني (نوفمبر) ما يلي :
« لقد سألتني : ما هي احلامك بشأنالحدود الحقيقية لاسرائيل ؟ اخبرني ، فلن احدث احدا بذلك » .
ويرجع زمن السؤال المذكور الى حديث دار بين الجنرال ديغول وبن غوريون في قصر الاليزيه ، حزيران (يونيو) ١٩٦٠ . ويتابع بن غوريون قائلا :
« وقد اجبتك : لو سألتني هذا السؤال لخمس وعشرين سنة خلت ، لاجبتك بان **نهر الليطاني هو حدودنا الشمالية وشرق الاردن حدودنا الى الشرق** » .
ثم ينتقل الى اواخر عام ١٩٦٧ ، وبعد عدوان الخامس منحزيران (يونيو) وما تلاه من تصريحات واجراءات تناقض المزاعم الاسرائيلية الرسمية بقصد الدعاية وكسب التأييد :
وسأقول لك : لدينا امنيتان رئيسيتان :
« السلام مع جيراننا وهجرة واسعة » .
(انظر صحيفة « النهار » البيروتية ٦٨/١/١٠) .
غير انه ليس هناك ما يشير في تصريحات بن غوريون السابقة واللاحقة ، او في الاعمال العدوانية التي اقترنت بها ، الى تخليه عن المطالبة بتلك الحدود التوسعية . وربما الجأته حدة انتقادات الجنرال ديغول الى كتمان تلك المطامع والاكتفاء بنسبتها الى ربع

منذ قيام دولتهم على تذكيرنا بانهم يولون الاردن ومنابعه كل اهتمـــام ، فان تصريحات اشكول الاخيرة وسابقاتها الصهيونية قد جاءت لتذكيرنا بان الاهتمام بمياه الليطاني لا يقل خطورة عن الاردن ومنابعه. ومن يدري، فلعل الخطوة الصهيونية التالية تقضي بتوجيه الاهتمام الى النيل والفرات!

قرن مضى . ولا غرو فان تلامذته في الحكم ينوبون عن استاذهم ويتفوقون عليه في مضمار المزايدات والاعلان عن شتى المطالـب التوسعية .

ج ـ « جغرافية اسرائيل »

اذا كانت الخطة الاستراتيجية المنسوبة لهيئة الاركان العامة في الجيش الاسرائيلي تفضح الاطماع التوسعية للدولة الصهيونية ، فان التصور الصهيوني لجغرافية اسرائيل يشكل دليلا قاطعا لا سبيل الى نكرانه او الشك في صحة مصدره . فهذا هو الكتاب الذي عنوانه « جغرافية اسرائيل » الصادر في القدس عن « برنامج اسرائيل للترجمات العلمية » (١) يسارع في المقدمة الى التمييز بين « الحدود الطبيعية » والحدود السياسية والتاريخية . وتطالعنا الصفحة الاولى منه بالتصريح التالي :

« هذه الحدود العرضية لا جذور لها في الجغرافية الطبيعية او في وقائع الديموغرافيا ومعطيات الاقتصاد ، الخ ، القائمة آنذاك » (٢) (اي عام ١٩٤٨) .

ثم ينتقل الى الحديث عن « الرقعة القصوى » او الارض التي وعد بها ابراهيم . فيذكر مملكة داوود وسليمان التي امتدت من « النهر الكبير ، نهر الفرات ، الى نهر مصر » (وفقا للنص الذي يرد في سفر التكوين ١٥ : ١٨ ـ ٢١) . غير انه لا يرى ضرورة في المحافظة على الصدق التاريخي والامانة العلمية . فلا يأتي على ذكر الحقيقة القائلة بان المملكة الاسرائيلية الموحدة لم تدم فترة حياتها سوى ثلاثة ارباع القرن على اقصى تقدير . بل يشير الى « الرقعة الدنيا » كما حددها الحكماء اليهود في ظل الحكمين الروماني والبيزنطي . ثم يحاول الخروج من المأزق التاريخي والواقعي الراهن بتقسيم فصوله على اساس تخصيص قسم منها « للحدود السياسية الراهنة » والقسم الآخر للنواحي التاريخية . بينما نجده يترك الفصول التي تتناول الجغرافية الطبيعية تتعدى نطاق

---

١ ـ راجع Efraim Orni & Elisha Efrat - Geography of Israel, (Israel Program for Scientific Translations - Jerusalem, 1964).

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١ .

الحدود القائمة لتشمل البلاد كلها باعتبارها وحدة عضوية .

وهكذا تكون المساحة التي تقع ضمن نطاق جغرافية اسرائيل « من الناحية العلمية » على الشكل التالي رسمه :

« يحدها غربا البحر الابيض المتوسط ، وشرقا الصحراء السورية الكبرى (بادية الشام) ، والى الجنوب والجنوب الغربي : شبه جزيرة سيناء وخليج ايلات (ميناء ايلات يقع على خليج العقبة !) ، وشمالا: ذلك الجزء من نهر الليطاني الممتد بين انعطافه الحاد ومصبه » (٣) .

اما الخرائط التي يكثر الكتاب منها ، بالاضافة الى الرسوم البيانية والصور المختلفة ، فقد جرى تكريسها لاظهار اتساع رقعة اسرائيل ايام الملوك الاوائل (اي مملكةداوود وسليمان) ، وتبيين الحدود زمن شاوول، ولدى مملكتي اسرائيل ويهوذا . وهناك خريطة لملكة الاشمونيين في ظل حكم الكسندر جنيوس . وفيما يتعلق بالفترة الحديثة تطالعنا التفصيلات التالية :

- الحدود المقترحة والتخوم الفعلية لفلسطين بين عامي ١٩٠٥ ــ ١٩٢٣ .
- الخط الذي يعيّن الحدود بين تركيه ومصر قبل ١٨٩٢ .
- الخط الفاصل لحدود سيناء عام ١٩٠٦ .
- الحدود التي طالبت بها المنظمة الصهيونية (١٩١٩) .
- فلسطين تحت الاشراف البريطاني ــ الفرنسي ــ الروسي كما اقترحت ذلك مفاوضات سايكس ــ بيكو .
- مقترحات التسوية البريطانية لتعيين الحدود بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني ، (١٩١٩) .
- حدود شرقي الاردن ، ١٩٢٣ .
- حدود فلسطين الغربية (غربي الاردن) ١٩٢٣ .
- المساحات التي اضيفت الى فلسطين ١٩٢٣ .
- المساحات التي سلخت عن فلسطين ، ١٩٢٣ (٤) .

وليس بمستبعد ان يكون الكتاب المذكور من جملة الكتب التي يجري تدريسها رسميا في مدارس اسرائيل ، حيث تغرس في الاذهان والنفوس تلك الصورة المنشودة لجغرافية اسرائيل الكبرى ، وحيث يتعلم

---

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٢ .

٤ ــ راجع المصدر نفسه ، ص ١٦٢ . (راجع الخريطة رقم ٦) .

النشء اليهودي مبادىء الاريدنتية الصهيونية والشوفينية القومية المتعصبة. ويشب على النظر الى حدود دولة اسرائيل كحدود عرضية فرضتها الظروف الطارئة ورسمها خط وقف اطلاق النار ، بينما هي لا تمت الى الواقع الجغرافي الطبيعي والحقائق التاريخية بشيء من الصلة على الاطلاق .

وها هو مؤلف « حدود امة » يذكرنا على طريقته الخاصة بان « رسم الخرائط في الشرق الاوسط لم يكن ليتم ابدا بمعزل كلي عن السياسة » (٥) .

بينما تتعالى الاصوات داخل اسرائيل ومنذ قيامها مطالبة بالاقدام على خطوة حاسمة لتغيير معالم خريطة ارض اسرائيل واعادة رسمها من جديد على صورة المثال الصهيوني المنشود . كما ان هناك افتتانا صهيونيا عجيبا برسم الخرائط وتعيين الحدود المطلوبة ، يطالع الباحث خلال متابعته لتاريخ الصهيونية في الرحلة التي قطعتها اثناء العقود السبعة الماضية .

وقد آثرنا الاكتفاء بايراد ما اعلنه وزير العمل الاسرائيلي ييغال آلون في القدس المحتلة منذ زمن قصير ، في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٦٨ . اذ « ان جميع الخرائط الصادرة عن دائرة المساحة الاسرائيلية والتي تحمل اشارات ترمز الى خطوط هدنة عام ١٩٤٨ ، باتت تعتبر الآن « اثرية وتاريخية » . وقد وضعت الدائرة خرائط جديدة لاسرائيل وفق حدود وقف اطلاق النار في حزيران ١٩٦٧ » (٦) .

واجاب في رده على سؤال خطي داخل الكنيست بقوله الصريح : « ان خطوط الهدنة السابقة ، كاتفاقات الهدنة نفسها، انتهى مفعولها نتيجة لحرب حزيران (يونيو) . وجميع الخرائط الصادرة عن دائرة المساحة منذ ذلك الحين تحمل علامات تشير الى خطوط وقف اطلاق النار فقط تحت عنوان « اسرائيل ـ خريطة خطوط وقف اطلاق النار» . ثم اعقب جوابه بالايضاح التالي الذي ينطوي على مغزى خاص : « ان خطوط وقف اطلاق النار هذه ليست حدودا سياسية متفقا

---

٥ ـ انظر فريش فاسر ـ رعنان ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

٦ ـ انظر صحيفة « النهار » البيروتية نقلا عن وكالة رويتر ووكالة الصحافة الفرنسية عدد ٩٨٩٨ ، الخميس ، ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٦٨ .

عليها ومعترفا بها ، الا انها من وجهة نظر القانون الدولي والعرف السياسي تشكل الحدود الوحيدة القائمة حاليا بين اسرائيل وجيرانها » (٧) .

ولا شك ان اسرائيل تنوي القيام بالمناورة نفسها التي قامت بها عام ١٩٤٨ ، لكي تخرج هذه المرة بمزيد من المكاسب الاقليمية ، وترسم صورة جديدة لخريطتها السياسية والجغرافية بعد عشرين عاما من « الانتظار » والتحفز لتغيير معالم خريطة ارض اسرائيل . والخريطة التي قامت بنشرها الدوائر الصهيونية هي ، نقلا عن جريدة « هايوم » الاسرائيلية كناية عن محاولة متعمدة لاظهار حدود « الدولة الاسرائيلية الجديدة » بأنها اصبحت تضم مرتفعات الجولان السورية وجميع مناطق الضفة الغربية بالاضافة الى قطاع غزة وصحراء سيناء . اما الشروح التي ارتأت اضافتها للخريطة المرسومة فقد تضمنت ما يلي :

مساحة اسرائيل قبل الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كانت تبلغ ٢٠٧٠٠ كلم مربع والآن اصبحت مساحة اسرائيل الكبرى ما يفوق اربعة اضعاف مساحة اسرائيل منذ قيامها اي ٨٧ الف كلم مربع (٨) .

---

٧ ــ المصدر نفسه .

٨ ــ راجع صحيفة « الدستور » الاردنية ــ ١٤ آذار (مارس) ١٩٦٨ .

د ـ الحافز الديني للتوسع

« ولما كان عنـدنا كتـاب التـوراة (Book of the Bible) ونحـن اهـل الكتاب (People of ths Book) يصبح لـدينـا ايضـا « ارض التـوراة » (Land of the Bible) ارض القضـاة والآباء ، في القدس والخليل واريحـا وجوارها » !

(موشيـه دايان ، في التاسع من آب ، اغسطس ، ١٩٦٧)

حين يقف وزير الدفاع الاسرائيلي ، الجنرال موشيه دايان ، ليتفوه امام حشد من انصار حزبه بهذا النمط العجيب من المنطق الصهيوني ، داعيا الناس للنظر الى واقع العام ١٩٦٧ والى خريطة العام ١٩٦٧ ، يجدر بالباحث عن المدلول الديني للتوسع الصهيوني ان يتوقف قليلا عند اقوال هذا المسؤول وافعاله على السواء . وان يكن قد استدرك في مطلع كلامه وأردف قائلا : « لا اتكلم بصفتي وزيرا للدفاع أو عضوا في الحكومة » . فهو يعبّر أصدق تعبير عن الشعور السائد في اسرائيل بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) ، ويكشف لنا ناحية بارزة مـن تلك النواحي التي رافقت ظاهرة التوسع الصهيوني منذ نشوئها . والا فما هو المقصود من اعلانه التالي :

« يجب ان يـدرك العالم الخـارجي انـه بالاضافة الـى الاهميـة الاستراتيجية التي تعلقها اسرائيل على كل من شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان ومضائق تيران ، فـان سلسلة الجبال الواقعة غربي نهر الاردن تقع في صميم التاريخ اليهودي (١) .

---

١ ـ انظر صحيفة Jerusalem Post, No. 12033, August 10, 1967 تحت عنوان : « لا عودة الى حدود عام ١٩٤٨ » .

يجيب موشيه دايان على تساؤلنا بقوله : « قد لا يكون هذا برنامجا سياسيا ، لكنه أهم من ذلك بكثير » . والاهمية القصوى التي يعلقها على البرنامج التوسعي الصهيوني تنبع من الوصف الذي يطلقه عليه بقوله :

« انه تحقيق لاحلام السلف من شعبنا » .

وما ان يصل هذا الكلام الى أسماع الحاخام الاكبر لليهود السفارديين ، اسحق نسيم ، حتى يسارع رجل الدين الى ارسال برقية تهنئة لوزير الدفاع على تصريحاته التي أطلقها حول « وجود اسرائيل في المناطق الجديدة » واعتباره لهذا الوجود بمثابة « تحقيق لاحلام السلف من شعبنا » . وهذا ما قاله الحاخام الاكبر في نصّ برقيته مخاطبا دايان :

« لقد أعطيت التعبير الصحيح لاعتقاد اسرائيل بصدد أرض اسرائيل، Eretz Yisrael وتغلغلت في اعماق التصوّر اليهودي . فلتكن لك نعمة العيش لرؤية هذه الاماكن جميعا وقد تم استيطانها وعم ازدهارها على ايدي اسرائيل . كن قويا وشجاعا في موقفك » (٢) .

بينما نجد وزير العمل الاسرائيلي ، ييغال آلون ، يدعو في خطابه أمام « اتحاد الكيبوتز الموحد » الى توطين اليهود في الضفة الغربية للاردن وفي مرتفعات الجولان « لتدعيم أمن اسرائيل » . ثم يرسم حدود اسرائيل الشرقية عند نهر الاردن وعلى خط يشق البحر الميت الى نصفين ، ليؤكد من جديد ان حضور اسرائيل الدائم في هذه المناطق لا يؤمنه سوى الاستيطان اليهودي الذي يشكل ضمانة لسلام اسرائيل (٣) . ولا يتردّد في وصف المناطق المحتلة بـ « المناطق التي تم تحريرها أو المحرّرة » ، لكي ينتقل الى الاعراب عن دهشته واستغرابه لاقدام احد زملائه في الوزارة على اقتراف ذنب لا يغتفر :

« بنفيه علنا لوجود الروابط التوراتية في مرتفعات الجولان وسلسلة جبال حوران (Golan Heights and the Bashan Range) .
فالجولان قطعة من اسرائيل القديمة لا تقل اهمية عن الخليل ونابلس.
او لم يكن يفتاح قاضيا ! » (٤) .

---

٢ ـ انظر Jerusalem Post, Friday, August 11, 1967

٣ ـ انظر المصدر نفسه Wed., August 16, 1967

٤ ـ المصدر نفسه :«Jordan River must be eastern border»ويفتاح المقصود هو يفتاح الجلعادي (« جبار بأس و . . . ابن امراة زانية » ـ قضاة ١١ : ١) .

وربما كان الوزير الاسرائيلي الـذي عناه آلون آنذاك هو اسرائيل بارزيلاي (Barzilay) ، احـد زعمـاء حزب المابام وعضو حكومة التكتل الوطني . فقد نقلت صحيفة « لوموند » الفرنسية في زمن لاحق نبأ مفاده ان الوزير المذكور أقدم للمرة الاولى على استنكار النزعات التوسعية لدى كل من الجنرالين دايان واشكول . واعلن ان حزبه سوف يعمد لتأليف جبهة واسعة لمحاربة الشوفينية والتوسع ، والـدعوة للتفاوض بشـأن السلام (٥) .

ولا يسع المتتبع لسياق الاحداث والتصريحات التي أطلقها زعماء اسرائيل منذ ذلك الحين الا التنبه لتلك الفورة العارمة من التعصب الديني التي جاءت في اثر مزايدات السياسيين ، وبرزت الى العلن بعد ان كانت مترسبة في عقل الصهيونية الباطن . فها هو حاخام الجيش الاسرائيلي الاكبر ، شلومو غورين (Schlomo Goren) يسارع بدوره الى المطالبة باقامة كنيس يهودي (الهيكل الثالث ؟) فوق ساحة المسجد الاقصى وعلى انقاض هيكل سليمان القديم (٦) بينما يعلن حاخام السفارديين الاكبر ، اسحق نسيم ، معارضته للمشروع ، لان « مسألة اعادة بناء هيكل سليمان لا تكون الا بارادة الله ومشيئته » . غير ان التصريحين لم يبقيا في نطاق الاماني ، بل افلحا في تحقيق الاغراض المرجوة . فلقـد تصاعدت موجـة الشعور الديني المتعصب داخل اسرائيل بعد عدوان الخامس من حزيران (يونيو) بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل . والانعكاسات التي رافقتها لا تدل على مجرد « فورة النصر » او « نشوة الانتصار في حرب الايام الستة » . بل تعود جذورها ورواسبها الى الماضي القريب والبعيد على حد سواء . ولم تساهم الازمة الاخـيرة الا في زيـادة حدّة الشعور الديني اليهودي المتعصب وابراز العناصر الـدينية الـى مسرح الاحداث بشكل سافر . فلنتوقف قليلا عند الملاحظات والاراء التي ابداها الصحفيون الفرنسيون الثلاثة : اريك رولو وجان لاكوتور وجان فرنسيس هيلد ، من خلال الحوار الذي تضمنه كتابهم : « اسرائيل والعرب : الجولة الثالثة » (٧) .

---

٥ ـ انظر .Le Monde, 2 Déc., 1967

٦ ـ انظر صحيفـة « الاوريان » اللبنانيـة نقلا عـن وكالـة الصحافة الفرنسية ، ١٧ آب (اغسطس) ١٩٦٧ .

٧ ـ Israel et les Arabes. Le 3e Combat, Editions du Seuils, Paris, 1967. وقد اعتمدنا الترجمة الالمانية التي صدرت بعنوان :

قام الكتاب الثلاثة في القسم الاخير من حوارهم بطرح السؤال حول مصير « المناطق المحتلة » او « المغانم » التي استولت عليها اسرائيل أثناء العدوان . وحاولوا تصنيف الاطماع الاسرائيلية في الرقعة الممتدة من « السويس الى القنيطرة » على النمط التالي :

أ ــ ابقاء شبه جزيرة سيناء ومنطقة القنيطرة والجولان تحت الاحتلال بحجة ضمانها لأمن اسرائيل وحدودها ، على ان تصبح أداة للمساومة متى جرى التفاوض بين الطرفين .

ب ــ الضفة الغربية للاردن : هنا يختلف الامر تماما ، اذ تؤلف هذه المنطقة جزءا من فلسطين . وسوف تلعب دورا اساسيا في كل عملية لتسوية النزاع العربي ــ الاسرائيلي بصورة دائمة . أضف الى ذلك كله الحقيقة التالية :

« ان الضفة الغربية لا تمثل أرضا اجنبية في الوجدان الجماعي الإسرائيلي ، بل تعتبر ــ على صعيد تشويشي ــ جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل ، أي جزءا من أرض الميعاد او فلسطين التي يرد ذكرها في التوراة » (٨) .

ج ــ واخيرا ، القدس : « وهنا يخالف الصهيونيون وراءهم كل اعتبارات المنطق السياسي ، ليسلموا انفسهم الى ميدان العاطفة المشبوبة » . وتستحوذ عليهم ظاهرة أشبه بالهوس والهستيريا الدينية . وليس تعجيل اسرائيل بضم القدس القديمة الا احد المظاهر الاساسية لما تجوز تسميته بـ « عملية اعادة تهويد اسرائيل » . كما ان التهافت الذي شهده حائط المبكى (البراق) ، وما خالطه من تجاوزات وافراطات تظاهرية مهووسة ، يفسر لنا طبيعة « الفورة الشعورية » التي تنطوي عليها عملية « التهويد » هذه .

ثم انتقل المشتركون في الحوار الى التساؤل عما اذا كانت المشاعر اللاهبة التي رافقت ضم القدس القديمة تبشر بولادة جديدة للروح

Rouleau, Held, Lacouture — **Die Dritte Schlacht : Israel und die Araber** (Fischer Bücherei 948, Frankfurt am Main, Oktober 1967).

٨ ــ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

الدينية اليهودية الكامنة في الصهيونية الكبرى او القوميـــة الشاملـــة والمتمسكة بالتقاليد (der Jüdische Integralismus) . فأجمعوا على القول بان « الازمة » ساهمت في اذكاء الروح الدينية وشحذها . ورأوا في ذلك ضربا مـــن « النكوص » أو الارتداد الى الماضي . اذ بدت لهم اسرائيـــل تتقهقر ازاء الآمال المعلقة عليها في مسائل « علمنـــة الدولة وبلوغها ســـن الرشد ، وتحررها من العصابات (Neurosis) القديمة التي ورثتها عـــن زمن الشتات « الدياسبورا » والاضطهادات » (٩) . لكنهم اعتبروا انبعاث الروح الدينية او « الدينية المزيفة » بمثابة ردة الفعل للتطرف العربـــي حيال اسرائيل . ولم يجدوا بالتالي فوارق جوهرية بين القوميتـــين ، العربيةواليهودية ، اذ يسود كل منهمـــا نزوع الى التطرف والغلو على حد سواء !

اما الاساس الذي بنوا عليه تعليلهم لبروز ظاهرة « التوكيد عـــلى الذات اليهودية » وعلى كل ما هو يهودي ، فمرده الى اعتبار الازمـــات والمحـــن حافزا لشحذ الشعور واذكاء حدة الحساسيـــة بالهوية المميزة . وهكذا وجد الاسرائيليون انفسهم بعد الخامس من حزيران انهم اصبحوا « اكثر يهودية مـــن قبل » أو « اشد ايغالا في التهود » .

وبينما يحاول لاكوتور التركيز على ما يدعوه ب « الصلة القائمة بين شعور الفزع (Ängstgefühl) واشتداد نزعة التهويد (Rejudaisierung) لكي ينفي وجود الارتباط الوثيق بين « الاقبال على احياء الروح الدينية » و « تسلسل الاحداث » ، نجد زميله ، جان فرنسيس هيلد ، يبـــدي استغرابه ودهشته لحصول العكس تماما . فالنصر الذي احرزته اسرائيل اطاح بالسدود امام تيار ردة عنيفة من الشعور بالاعتزاز الديني المزيف . والصهيونيـــة هي صاحبة الفضل ، اولا واخيرا ، في خلق « الوجـــدان المشحوذ » لدى اليهودي الذي اصبح يعي يهوديته ويعتز بها . كما لا يخفى ان هذا الوجدان بالذات يمكنه التبلور والانطلاق خارج دائرة الاديان المنزلة ، دون ان يأتي بعيدا عن الدين او مفعولـــه . فما هـــو موقف الاسرائيليين من ذلك كله ؟ يجيب الكاتب بقوله :

« حين يقوم احدنا بلفت نظر الاسرائيليين الى هذه المسائل كلها ، يأتيه ردهم بان هذا السلوك اصلا لا علاقة له بالدين بتاتا . بل هو

---

٩ ـــ المصدر نفسه ، ص ١٣٠

ينبع من تصميمهم (المتأصل ؟) للتوكيد على هويتهم الخاصة واصالتهم الذاتية » (١٠) .

ولو امعنا النظر في هذا القول ، لتبين لنا ارتباطه الوثيق بوعي اليهودية لتماميتها وعزلتها ، ورغبتها الشديدة في الانحسار عن العالم الخارجي والابتعاد عنه . وقد ورثت الصهيونية عنها نزعة الرفض لادماج العناصر الخارجية او معاملتها على قدم المساواة . فالاندماج يشكل خطرا على الصهيونية ، اذ تعتبره وسيلة تؤدي الى فقدان « الكيان اليهودي » و « تذويب » الامة اليهودية او محوها من صفحة الوجود . لذلك نجد

« الصهيونية تعتبر ان العنصرية الذاتية هي السبيل الوحيد الى « الانقاذ » و « الخلاص » و « اتمام » الامة » (١١) .

والمسافة بين « مبدأ العنصرية الذاتية » في الصهيونية واليهودية على حد سواء ، وبين المناداة بضرورة المحافظة على « طهارة السلالة » ليست بعيدة ابدا . كما ان الحديث عن « التفوق اليهودي » انعكس بوضوح على تصريحات موشيه دايان وتبجحاته بصدد « التفوق الاسرائيلي » . وليست الدعوة الصهيونية الرامية الى تطهير « الارض اليهودية المصير » من كل ما هو غير يهودي وتحريرها من سكانها العرب الاصليين سوى احد المظاهر البارزة على الصعيد السياسي والتوسعي لعقيدة « شعب الله المختار » .

وهذا يظهر لنا الحافز الديني وراء التوسع الاسرائيلي مجردا عن هالات الدعاية والتضليل . فتطالعنا تلك العنصرية الشاذة ، يغذيها التعصب الديني ، في اجلى مظاهرها . وتتضح لنا معالم « المصير اليهودي الخاص » الذي تنوي الصهيونية تحقيقهبعد تجميع يهود العالم وتوحيدهم

---

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

١١ ـ انظر مقالة اندريه دوني في كتاب : **Un Jour ou l'Autre Israël disparaîtra (Paris, 1968** والتي عنوانها : (اسرائيل دولة استعمارية عنصرية) **«Israel : Etat Colonial, Etat Raciste».** ـ وفي الترجمة العربية « عاجلا او آجلا ـ ستزول اسرائيل » بقلم ١٥ كاتبا فرنسيا . (دار الآداب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨) . ص ٥٣ .

في « ارض اسرائيل الموعودة » ضمن حدودها التاريخية المنشودة (١٢) .

فالذين خاضوا حرب الخامس من حزيران تحولوا بين عشية وضحاها الى « متحدرين من سلالة المكابيين ونسلهم » (١٣) . وموشيه دايان يعلن في ١١ حزيران (يونيو) بان مسألة استيعاب عرب المناطق المحتلة في بلادهم « تتنافى مع اهدافنا في المستقبل ، اذ تجعل من اسرائيل دولة مزدوجة القومية او دولة مشتركة الطابع بين العرب واليهود . ونحن نريد دولة يهودية ... » وحين سأله مراسل « النيويورك تايمز » (سيدني غروسون) :

---

١٢ ــ يقول دافيد بن غوريون في رسالته التي بعث بها الى صاحب مجلة « دير شبيغل » الالمانية الغربية ، رودولف اوغشتاين ، وتحدث فيها عن الاسباب التي حملته على رفض الانضمام الى الحزب العمالي الجديد في اسرائيل نتيجة اندماج احزاب « الماباي » و « رافي » و « احدوت هاعفودا » ، ليتهم زعامة الماباي بانها انحرفت عن المفاهيم اليهودية والصهيونية ، « ضاربة عرض الحائط باخلاقنا وعاداتنا وفضائلنا كشعب له ذاتية خاصة » ــ ما يلي نصه :

« منذ اليوم الاول الذي وطأت به قدماي ارض الميعاد .. ارض اسرائيل .. أي منذ ٦١ عاما ، وانا ابحث عن العوامل والاسباب التي صانت الشعب اليهودي كشعب قومي متماسك ... ولقد توصلت الى حقيقة دامغة ، وهي ان سر بقائنا كشعب متماسك هو محافظتنا على **صفاتنا الروحية والقومية** التي استطعنا التمسك بها تحت اسوأ الظروف التي تعرض لها أي شعب على وجه الارض » .

« **ان اليهود لم ينسوا مطلقا اراضي آبائهم واجدادهم ، حيث عاشوا كشعب واحد** ونزل عليهم الكتاب المقدس الذي يعتبر ذروة عظمة شعبنا . **ان مثلنا هو المثل الوحيد في تاريخ الانسانية** ، فبعد تفرقنا واضطهادنا في جميع انحاء المعمورة منذ آلاف السنين ، عدنا للتجمع في وطننا الام ولبناء **دولة كبرى** نجمع فيها شعبنا من جديد ، انه المثل الوحيد في تاريخ الانسانية » . (نقلا عن صحيفة «الانوار» البيروتية) .

١٣ ــ انظر صحيفة Jerusalem Post, 3 November, 1967

« وهل مـن الضروري في رأيك المحافظة على هذه الدولة كدولـة يهودية الطابع ، والابقاء عليها دولة يهودية خالصة ؟ » .

جاء جوابه ، بعد مضي خمسين عاما تقريبا على صدور وعد بلفور ، كمـا يلـي :

ـ « من كل بد ، من كل بد

نريد دولة يهودية مثلما توجد لدى الفرنسيين دولة فرنسية » !

والمعروف ان الصهيونيين توسموا في وعد بلفور فرصة تتيح امامهم مجال انشاء دولة يهودية الطابع في فلسطين ، تكون يهودية مثلما هـي انجلتره انجليزية وكنده كندية !

وحين طرح طالب في الجامعة العبرية بالقدس سؤاله على موشيه دايان حول « حدود ارض البلاد حسب رأيه » ، جاءه الجواب التالي من وزير دفـاع اسرائيل :

« ان صلات الشعب اليهودي بوطنه التاريخـي لا يمكـن ان تقاس بالكيلومترات ... ومن الصعب استبعاد السامرة واليهودية (جبل الخليل) وغزه عـن رقعة الوطن اليهودي » ! (١٤) .

فالغلو الصهيوني الذي تغذيه نزعة التفوق وينعكس بدوره علـى ظاهرة التمسك الشديد بالطابع اليهودي المحض (Jewishness) ، لم يعد من السهل قياسه او كبح جماحه بعد عدوان حزيران (يونيو) ، وفي ظل ذلك السيل من التصريحات والتهديدات التي يطلقهـا القادة العسكريـون في اسرائيل ورجال السياسة والاحزاب على حد سواء . ومما لا شك فيـه

---

١٤ ـ وفي احدث تصريحاته عاد الجنرال موشيه دايان فكرر ما ورد في خطابه اثناء اجتماع حزب رافي في مطلع آب (اغسطس) الماضي . فقد سئل وزير الدفاع الاسرائيلي « عما اذا كانت مطالب اسرائيل المتعلقة بالاماكن التاريخيـة او الدينية في اجزاء من الاراضي المحتلة يجب ان تمثل دورا في السياسة الاسرائيلية » ، واجاب قائلا :

« هذا هو اساس الوجود الاسرائيلي . انه واحد من العناصر الثلاثة التي تشكل اسرائيل ، وهي : الشعب اليهودي ، والكتاب المقدس ، وارض اليهود » .

(انظر « النهار » ، عدد ٩٩٨٩ ، الثلاثاء في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٦٨) .

ان الاوهام والمشاعر الشوفينية تجعل من الديانة اليهودية مطية لبعث الحماس في النفوس وتسخير المعتقدات في سبيل تحقيق الاحلام التوسعية . كما تحاول الصهيونية الدينية ايجاد شتى المبررات لتوسيع رقعة اسرائيل ، وذلك عن طريق اللجوء الى نصوص الكتب المقدسة واستحضار النبوءات والتكهنات : بغية اقناع العالم المسيحي بنوع خاص ان الاحداث جاءت خير مصداق لما ورد في الكتب الدينية ، وبمثابة تحقيق لنبوءات معينة يكثر ذكرها في العهد القديم من الكتاب المقدس .

ويكفي ان نشير الى براعة الدعاية الصهيونية في اختيار العناوين التي تتصدر الكتب والمقالات المنشورة بعد عدوان الخامس من حزيران(يونيو). ففي المانيه الغربية ، مثلا ، جرى اختيار عناوين من الطراز التالي : « ... وانتصروا في اليوم السابع » او « حرب اسرائيل المقدسة » ، او « عملية السيف البتار » ، أو « داوود وجوليات » . وتحول عنوان الكتاب الذي صدر في الولايات المتحدة الاميركية من « اضربي يا صهيون » (Strike Zion) الى « ... وارموهم في البحر »(Werft Sie ins Meer»!) كما يجدر بنا تذكر الحماس الديني اللاهب عندما استحوذ على قوات الاحتلال الاسرائيلي في القدس العربية ، فهب حاخام الجيش لينفخ البوق اليهودي القديم ويبعث المزيد من العاطفة الدينية المشوهة في نفوس المحتلين .

وليس المنشور (١٥) الذي جرى توزيعه في اميركه منذ شهور قليلة بعنوان « مستقبل اسرائيل والعالم » سوى صدى للاراء التي نادى بها الحاخام صموئيل هيلل ايزاكس في كتابه الآنف الذكر عن « الحدود الحقيقية للارض المقدسة » (١٩١٧) . اما الكرّاس الذي يوزّع مجانا بعنوان « الخطط المقدسة للتاريخ » ، فلا يعدو كونه نسخة طبق الاصل عن سائر المحاولات التضليلية الرامية الى اظهار التوسع الإسرائيلي وكأنه ينبثق عن الارادة والمشيئة الالهية اذ تبر بوعدها لشعب الله المختار وتقوم باستباق الاحداث لتجعلها مطابقة لما جاء في النصوص الدينية ونبوءات العهد القديم من الكتاب المقدس . وربما كانت للصهيونية الامية اليد

---

١٥ ـ «The Future of Israel and the World» وقد نقلت صحيفة « الانوار » اللبنانية صورة للمنشور في صفحتها الاولى . انظر : العدد ٢٦٧٧ ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٦٨ .

الطولى في تأليف المنشور والكرّاس التابع له. فهي لا تتردد لحظة واحدة في تصوير الاحداث بمثابة تحقيـق لما هـو مكتوب في النبوءات والنصوص المقدسة . والخرائط المرسومة الى جانب المنشور : عن اسرائيل الامس (قبل الخامس مـن حزيران ، يونيو ، ١٩٦٧) واسرائيل اليوم (مـن السويس الى القنيطرة) ، واسرائيل الغد (على صورة المستطيل الشكل الذي حدده الحاخام ايزاكس (من العريش الى جبال طوروس) — هي خير شاهد على محاولة تبرير التوسع من زاوية اعتباره مصداقا لما جـاء في اسفار العهد القديم ، وتحقيقا اكيدا للنصوص الدينية المكتوبة . ومما يسترعي الإنتباه ان المنشور يتحدث عن التوسع الاسرائيلي ، سابقـا ولاحقا ، على صعيـد النظر اليه بمثابة النتيجة الحتمية لالتقاء « عبقرية العسكريين الاسرائيليين » بالارادة الالهية . كمـا يعمـد الى التذكير بان النصر لن يأتي الا عن طريق « الروح » ! فيسارع الى الاستشهاد بآيات مـن الكتاب المقدس واستحضار بعض النبوءات الواردة في نصوصـه واسفاره ، مما يساهم في بلبلة الرأي العام والتلاعب بعواطفه الدينية عن طريـق دغدغتها وتشويشها ، وكسبها لصالح النوايا الاسرائيلية من حيث تدري أو لا تـدري .

والنص الحرفي للمنشور هو كما يلي :

« في الايام القصيرة من حزيران الفائت ضاعفت اسرائيل مساحتها الارضيـة اربع مرات . ومصير « المناطق المحتلة » هو احـدى القضايا الكبرى التي تواجهها الامم المتحدة اليوم . هل يتوجب على اسرائيل ارجاع الاراضي التي استولت عليها ؟ أم يجب السماح لها ان تحتفظ بمكاسبها ؟ هذه الاسئلة الشائكة وغيرها ما زالت تحول دون الوصول الى سلام دائم في الشرق الاوسط .

والعهد القديم مـن الكتاب المقدس لم يتنبأ بالازمة التي نشهدها في الشرق الاوسط المضطرب فحسب ، .. بل تنبأ بـالانتصارات الاسرائيلية ... واحتلال القدس ... وحتى بتوقيت هذه الاحداث في حد ذاته .

ولقد تنبأت نصوص الكتاب المقدس بمساحة اكبر من المساحة الواقعة بأيدي اسرائيل في شباط (فبراير) ١٩٦٨ . فالنص الوارد في سفر التكوين (١٨:١٥) يوضح المسألة باختصار على اساس وعد اله اسرائيل بالارض الممتدة من « نهر مصر الى النهر الكبير ، نهـر

الفرات » . غير ان الكثيرين يتساءلون عن صحة هذه التنبؤات .
ويزعم البعض الآخر ان الإساس التوراتي لمزاعم اسرائيل الارضية لا علاقة له بالموضوع ، ... وان الواقع المعاصر هو الذي يقوم بتعيين حدود امم الشرق الاوسط .

ومع ذلك ، فان النصوص المقدسة برهنت على صحتها فيما يتعلق بالاحداث حتى الآن ، مما يقوي الحجة لصحتها فيما يتعلق بالاحداث المستقبلة ايضا .

... ...

ان وضع اسرائيل الحاضر قد تحقق بفضل الاستراتيجية العسكرية الرائعة لجنرالاتها العباقرة . هل يشير الكتاب المقدس الى ان نمو اسرائيل لتبلغ حجمها التنبؤي سوف يأتي نتيجة « لاستمرار البراعة العسكرية الفائقة » ؟

العكس هو الصحيح . فالنبوءات تشير الى خطر المنجزات العسكرية واثرها المعاكس في اثارة الغطرسة لدى اسرائيل ... والى حدوث هزيمة شنعاء تتهدد وجود الامة وكيانها بالذات ... اذاك فقط سوف يحارب الرب لاجل اسرائيل بطريقة عجائبية حقة ليصل بالامة الى المكانة التي اختارها الرب لها .

... هذه المكانة ، كما يشير اليها العهد الجديد للكتاب المقدس ، هي دخول اسرائيل في عصر جديد لإجل العالم بأسره . وقد تنبأت بذلك على وجه الخصوص رسالة بولس الرسول الى اهل روميه (١١ : ١٥) : « لانه ان كان رفضهم هو مصالحة العالم ، فماذا يكون اقتبالهم الا حياة من الاموات » .

ولا شك ان الفقرات الاخيرة من المنشور تدل دلالة صريحة واضحة على افكار الصهيونية الاممية او الشعوبية التي تمثلت في دعوات كثيرة منذ منتصف القرن السابع عشر ، وتجسدت في شخص القس وليام هيشلر من خلال تحالفه مع ثيودور هرتزل في اواخر القرن الماضي . وليس بمستغرب ان يهدف المنشور الى الجمع بين صهيونية ايزاكس التوسعية من جهة ، وصهيونية « الشعوبيين » الرامية الى استرجاع امجاد اليهود الغابرة ومملكتهم البائدة بغية ارجاعهم الى حظيرة الدين المسيحي ! غير ان الاتجاه المبطن للعبارات التي صيغ بها هذا المنشور لا يسعه اخفاء النوايا التوسعية الاسرائيلية أو انكارها . بل هو يهدف الى التوكيد على « شرعية

التوسع » ، وربطه في الماضي والحاضر والمستقبل بالمشيئة الالهية المتحالفة مع « عبقرية القادة العسكريين الاسرائيليين » .

وقد سبق للصهيوني البريطاني ، هربرت سايدبوثام ، ان كتب منذ ثلاثين عاما ، في معرض التصدي لمشروع التقسيم وتحت عنوان « الحدود الجديدة » ، يقول :

« ولو امكننا تشبيه ارض فلسطين بارضية الكنيسة : فالاردن هو صحن الكنيسة (سرتها) ومرج بن عامر هو جناحها » (Jordan is the nave and Esdraelon the transept). (١٦)

غير ان الصهيونية الامية (Gentile Zionism) لا تنفرد وحدها بتقديم الاجتهادات الدينية الرامية الى تبرير التوسع الصهيوني . وربما انحصرت اهميتها في القيمة الدعائية التي تستفيد منها اسرائيل عبر الاجهزة والمؤسسات والمشاعر السائدة في العالم الغربي بنوع خاص . وفي اسرائيل بالذات نتبين فورة الشعور الديني الجامح بعد ان تجسد في اجلى مظاهره منذ الخامس من حزيران (يونيو) وانعكس على صفحة التصريحات المتتالية او في الاجراءات التي اتخذتها سلطات الاحتلال الصهيوني .

فقد اعلن حاخام اسرائيل الاكبر ، اسحق نسيم ، غداة الخامس من حزيران (يونيو) (١٩٦٧) ، بان :

« ارض اسرائيل (Erez-Israel) هي ميراث مقدس لدى كل يهودي ، ولا تملك اية سلطة دنيوية او دينية القدرة على انقاص هذا الادعاء او التقليل من شأنه » (١٧) .

---

١٦ ــ انظر Herbert Sidebotham — **Great Britain and Palestine,** (London, 1937), Chapt. V : «The New Boundaries», see P. 276

والمعروف ان « صحن الكنيسة » (nave) هو بمثابة الجزء الرئيسي الذي يجلس فيه المصلون ، بمعنى الوسط أو النقطة الوسطى . ويستفاد مما كتبه سايدبوثام في الفصل المذكور ان الحدود الحالية (١٩٣٧) ــ او المرجوة ــ لفلسطين تشمل بانياس وتلال الجولان ، وفقا لشعار « من دان الى بئر السبع » . (انظر ــ المصدر نفسه ص ٢٧٩) .

١٧ ــ انظر المقابلة التي اجرتها مجلة « ديرشبيغل » الالمانية مع سفير اسرائيل في بون ، آشر بن ناتان ، «Es War Krieg mit allem Drum und Dran» **Der Spiegel. 25 Dezember 1967. Nr. 53, S. 78.**

واستيقظت الغيرة الدينية على التوسع بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . فعكفت سلطات اسرائيل الرسمية على متابعة النشاطات التي بدأها « صندوق اكتشاف فلسطين » منذ مائة عـام تقريبا . وراحت تنبش الارض التي احتلتها تحت ستار « الحفريات » وتعيين المواقع التاريخية القديمة ، أو القيام بعمليـات مسح للآثار في الضفة الغربية مـن الاردن (جبال اليهودية والسامرة) وفي مرتفعات الجولان . ثم سارع رئيـس مجلس الآثار الاسرائيلي ، بنيامين مازار ، الى الاعلان مؤخرا بان :

« خريطة مملكة اسرائيل الوارد ذكرها في التوراة يجري رسمها من جديد على اساس النتائج الحاصلة من عملية مسح الآثار في مناطق جبال اليهودية والسامرة .. ومرتفعات الجولان ... » (١٨) .

وقد استغرقت عملية المسح الإسرائيلية للمناطق العربية المحتلة حوالي اربعة شهور ، وقاربت نهايتها في منتصف نيسان (ابريل ١٩٦٨ ، فطلعت سلطات الاحتلال بالنبأ التالي :

« قام فريق من علماء الآثار بفحص وتسجيل وتأكيد مواقع ٢،٥٠٠ مكانا تعود الى فترة ما قبل التاريخ والفترات اللاحقة وتضم اكثر من الف موقعا لم تكن مسجلة او معروفة من قبل » (١٩) .

فالتسجيل يعني ضم المواقع المنشودة الى خريطة مملكة اسرائيل ، وتبرير الضم بالاستناد الى بعض النصوص الواردة في التوراة . واكتشاف المواقع المجهولة مـن « ارض اسرائيل » لا يعدو كونه خطوة اخـرى في طريق تنفيذ السيـاسة التوسعية على اساس الادعاء القائل بان المواقع والاماكن المذكورة كانت فيما مضى على خريطة مملكة اسرائيل ـ التي لم تدم اكثر مـن سبعين عاما في عمر التاريخ القديم لمنطقة الشرق الادنى ! كما ان الحفريات التي تقوم بها سلطات اسرائيل عند حائط المبكى ، تهدف الى « الكشف عن الطبقات السفلى لهيكل سليمان » ـ على حد زعـم بنيامـين مازار . وهو الكشف الذي حاول القيام به « صندوق اكتشاف فلسطين » في النصف الثاني مـن القرن الماضي لغايات واطماع دينية لا تختلف كثيرا في جوهرها عن الحوافز الدينية اليهودية لسيـاسة التوسع الاسرائيلي .

---

١٨ ـ راجع صحيفة « الحياة » ، ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٦٨ .
١٩ ـ نقلا عن صحيفة « الحياة » و « الانوار » ، ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٦٨ .

واذا كان ليفي اشكول ، رئيس وزراء اسرائيل ، قد صرح في حديثه الى منظمة النساء الصهيونيات في اميركه (الهداسه) بان « نهر الاردن هو الحدود الطبيعية لدولة اسرائيل » (٢٠) ، فان مناحيم بيغين لم يشأ ترك « دعاة الاعتدال » في اسرائيل يزايدون على كتلته في التطرف وتنفيذ السياسة التوسعية . وراح يردد مؤخرا نغمة المزاعم الاسرائيلية الرسمية القائلة : ان ارجاع المناطق المحتلة يشكل تهديدا لسلامتنا وامننا القومي ». واعلن في احدث تصريح له بان « سلامة اسرائيل تفرض عليها التمسك بالمناطق التي كان اعداؤنا يتخذون منها قواعد للعدوان » . ثم انتقل الى حث اليهود على التوطن في المناطق التي تحتلها اسرائيل منذ عدوان الخامس من حزيران (يونيو) . وتحدث ـ على غرار بن غوريون ودايان وآلون والحاخام الاكبر ـ عما وصفه بـ

« حق الشعب اليهودي في ارض اسرائيل التي نفي عنها بالقوة منذ ١٨٩٨ عاما »(٢١) .

مؤكدا ان اليهود لم ينسوا وطنهم طيلة الفي سنة من التشرد والاضطهاد ـ أي منذ خراب الهيكل الثاني عام ٧٠ ب.م. وبداية الشتات

---

٢٠ ـ انظر «لسان الحال»، عدد ٢٠٩١٠، الجمعة في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٦٨ . وجدير بالقارىء ان يتذكر في هذا السياق عبارة وردت في «الدليل» الذي جرى اعداده تحت اشراف القسم التاريخي التابع لوزارة الخارجية البريطانية ونشره مكتب صاحب الجلالةللمطبوعات عام ١٩٢٠ تحت رقم « ١٦٢ » ، فقد تضمنت النص التالي :

«ان صهيونية الكتاب المقدس اسبق بكثير من نفياسرائيل وحتى من السبي البابلي الاول . لا بل يرجع تاريخها الى ايام اسرائيل ما قبل التاريخ في مصر ، وموسى هو اول صهيوني » انظر : S. Levenberg — The Jews and Palestine. A Study in Labour Zionism (London, 1945). P. 35). وقد قامت جماعة عمال صهيون ـ حزب العمال الاشتراكي اليهودي ـ بنشر هذا الكتاب ، وقدم له ج.س. ميدلتون ، السكرتير الاسبق لحزب العمال البريطاني .

٢١ ـ انظر صحيفة « النهار » البيروتية ، العدد ٩٩٨٨ ، ٢٧ ايار (مايو) ١٩٦٧ .

اليهودي في سائر انحاء العالم (الدياسبورا) . لكنه نسي او تناسى الاحداث العظمى التي شهدها التاريخ خلال الإلفي سنة التي يريد القفز عنها وابطالها ، كأنهـا لم تكن مـن صلب تاريخ البشرية المتطور . واكتفى بالحديث عن « اخلاص اليهود لارض اسرائيل » قائلا :

« ان اخلاص مثل هذا الشعب لوطنه برغم مرور القرون والعزلة التي فرضت عليه ، شيء لم يشهده تاريخ البشرية » (٢٢) .

وفي مطلع العام الحالي (١٩٦٨) عقد اول مؤتمر عالمي لليهودية الارثوذكسية (Orthodox Jewery) بمدينة القدس المحتلة وفي قاعة سليمان (Hechal Schlomo) ، وحضره ما يزيد على ١٦٠٠ مندوب من الحاخامين والعلمانيين . وهو اول مؤتمر يضم ممثلين عن طائفتي الاشكنازيين والسفارديين في العالم . ومن المعروف ان اليهود الارثوذكس يؤلفون ربع يهود اميركه البالغ عددهم ٥ ملايين و ٦٠٠ الف . ولا يوجد بين الستة آلاف كنيسا القائمة في اسرائيل سوى ٩ لا تخص اليهودية الارثوذكسية . كما ان هذه الطائفة القوية ــ الى جانب المحافظين والاصلاحيين ــ تتمسك بحرفية الشريعة الالهية في حياتها وتقبل كل كلمة في التوراة العبرانية على انها بمثابة الوحي الالهي ، وتصر على مراعاة الطقوس والشعائر الدينية المتوارثة والتشدد في اتباع القوانين الدينية التي تتضمنها قواعد السلوك البالغ عددها ٦١٣ قاعدة في كتاب «الحلقة» (Halaka) (٢٣) .

ولقد تناول المؤتمر المذكور موضوعات من طراز « التجديد الروحي لليهود » و « المحافظة على التقاليد الدينية » وكيفية اجتذاب اليهودي المبتعد عن دينه او المتنكّر له . وبرزت من خلال مناقشاته تناقضات غريبة ادت الى نشوب خلافات قوية بين « الغلاة » و « دعاة التجديد » . مما حمل السلطات الاسرائيلية الى وضع الجلسات تحت حراسة البوليس . واذا كان المندوبون في المؤتمر قد توصلوا الى اتفاق يقضي بانشاء لجنة دائمة لتنسيق الجهود الارثوذكسية اليهودية الرامية الى ملاءمة التقاليد للحياة العصرية ، فان النداء الذي انطلق منه لدى افتتاحه ــ وعلى لسان وزير خارجية اسرائيل ، ابا ايبان بالذات ــ كان بمثابة

---

٢٢ ــ المصدر نفسه .

٢٣ ــ نقلا عن مجلة « تايم » الاميركية TIME, Jan. 19, 1968, P. 41

دعوة الى اليهود في العالم للقدوم الى « ارض اسرائيل » والاستيطان فيها . ومما قاله ابا ايبان في خطابه الترحيبي :

« ان اسرائيل في حاجة الى اكثر من العطف والتأييد ، وهي في حاجة الى يهود يعزّزون الصفوف حول دولة اسرائيل ، كما انها في حاجة الى السكان » (٢٤) .

فلا حاجة بنا الى مزيد من التصريحات والاقوال والافعال التي تؤكد بصورة قاطعة على دور العامل الديني في تبرير الاطماع التوسعية الاسرائيلية وطبعها بطابع «الشرعية» و«القداسة» و«الحق التاريخي» . وليست دعوة «اسرائيل الكبرى» وقفا على المتدينين والتحريفيين والمتطرفين وحدهم ، بل هي تنبع من « الوجدان الجماعي » في اسرائيل بعد تلقينه شتى المضامين الدينية المزيفة وبغية تعويده على الربط بين الحوافز الدينية والاطماع التوسعية لدولة اسرائيل .

---

٢٤ ـ انظر صحيفة « النهار » ـ ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ .

هـ ـ اسطورة الكنعانية

« نحـن كنعانيـون ، نقيـم في ارض اجدادنا . التوراة هي كتاب تاريخنا. نحن كنعانيون ، او اسرائيليـون او عبرانيون ـ تسميات متعددة للشيء الواحد ـ لكننا لسنا يهودا » .

(احد المنتمين الى جماعة الكنعانيين)

لا بد للباحث في العوامل الكامنة وراء عقدة التوسع الصهيوني من التوقف عند احدى النواحي العقائدية الهامة التي لجأت اليها الصهيونية منذ اواخر العشرينات بغية تبرير التوسع واقامته على اسس «تاريخية» و«اثنية» (Ethnic) تسترعي الانتباه . ونعني بذلك حركة الكنعانيـة (Canaanism) التي رفع لواءها جماعة من الشباب الصهيوني المتحمس ، ما لبثوا ان اطلقوا على انفسهم تسمية « الكنعانيين » .

فالكنعانية الصهيونية نشأت وترعرعت في تربة التحريفية ومناخها القومي المتعصب . ومن زعمائها الروحيين خلال الثلاثينات شاعر صهيوني بولوني المولد اتخذ لنفسه الاسم المستعار التالي : جوناثان راتوش (١) .

---

١ ـ اعتمدنا المصدر التالي لاستقاء المعلومات عـن راتوش ودوره في تلقين التعاليم الكنعانية للشبان الصهيونيين في المنظمات التحريفية والعصابات الارهابية التابعة لها : Gerold Frank — The Deed (Simon and Schuster, New York, 1963) يقول مؤلف هذا الكتاب ان الشاعر المذكور اختار لفظة راتوش (Ratosh) العبريـة ـ بمعنى «to rend» الانجليزية ـ للدلالة على ما كان يختمر في رأسه مـن الافكار والاماني . والمعنى القاموسي لكلمة «to rend» هو :

١ ـ ينزع بقوة او عنف .

٢ ا ـ يمزّق .

وقد سافر هذا الشاعر في التاسعة عشرة من عمره الى باريس (١٩٢٨) لمتابعة دراسته هناك . والتقى بالمستشرق الفرنسي أدولف غوريفتش (Gourevetich) الذي كان يعتبر قصة التوراة عن «الخروج» (Exodus) من مصر الى ارض كنعان ضحية المبالغة المفرطة . ويؤكد ان النزر اليسير من العبرانيين فقط عاش في الاسر الفرعوني ثم خرج يبحث عن طريق عودته الى ارض كنعان القديمة . لكن هؤلاء لم يؤلفوا في نظر المستشرق « نواة الامة العبرانية » اطلاقا . وحين عادوا الى فلسطين (ارض كنعان) ، وجدوا

« انسباءهم وأقاربهم هناك ـ ناطقين باللغة العبرانية ، ويشبهونهم في الملامح والخصائص البدنية ـ ومن صميم شعبهم » (٢) .

لذلك طلع غوريفتش بنظرتيه الكنعانية التي تتلخص بما يلي :

« العبرانيون والكنعانيون شعب واحد ، واكثرية الكنعانيين لم تبارح ارض كنعان مطلقا ، فالديانة العبرانية نشأت بين ظهرانيهم ، واللغة العبرانية ليست في الواقع سوى لهجة كنعانية » (٣) .

واقتبس عنه راتوش هذه الآراء ، فحملها معه الى فلسطين وأخذ يكثر من الحديث عن ارتباط الشعب بالارض ودور الارض في الكفاح لنيل الاستقلال اليهودي . فراح اتباعه يرددون ، بوحي من تعاليمه وتحت تأثيره ، ما كتبه الارهابي الياهو بيت زوري (الذي اشترك مع الياهو حكيم في اغتيال اللورد موين عام ١٩٤٤ بالقاهرة) الى احد اصدقائه :

« نحن لسنا صهيونيين . نحن الابناء الطبيعيين لتربة اسرائيل . ان حربنا ضد البريطانيين هي الحرب الطبيعية التي يشنها كل وطني ضد من يقف في سبيل حريته . نحن نتألم مع يهود اوروبه كأخوة في الانسانية ـ لكننا امة حرة ، تكونت وخلقت على هذا التراب خلال اجيال من الزمن » (٤) .

ب ـ يشق او يفلع .
ج ـ يشق الجيب (حزنا او غضبا) .
٣ ـ يتمزّق .
(انظر معجم « المورد » ، ص ٧٧٦) .

٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٨ .
٣ ـ المصدر نفسه .
٤ ـ المصدر نفسه .

فالمتتبّع لآراء جماعة الكنعانيين يطالعه نمط جديد وخطير ، في آن واحد معا ، من التفكير الصهيوني الذي يستنبط مفهوم التوسع من تصورات معينة للأمة الاسرائيلية في أرض كنعان وللروابط التي تشد الاسرائيليين وتنبثق من التراب الكنعاني . فالكنعانية الصهيونية تسعى الى كبت المشاعر الدينية اليهودية وتزعم ان التحدّر من الكنعانيين القدامى لا علاقة له بالاصل البيولوجي . والقومية التي ينتمي اليها الكنعانيون هي القومية الاسرائيلية ، وليست اليهودية . كما ان الوحدة التي تجمع بينهم هي وحدة الارض ، ورابطة العيش المشترك في التراب الكنعاني :

« نحن كنعانيون على هذه الارض الكنعانية — لسنا يهودا » .

والكنعانية على لسان احد الذين تتلمذوا على آراء راتوش ونظرياته :

« هنا في فلسطين ، نحن أمة ناهضة لها كل دلائل الامة ومظاهرها : اللغة المشتركة والحضارة المشتركة ، والاصول السلالية المشتركة والنابعة من تراب مشترك . ان انماطنا الحضارية وتراثنا هي انماط اسرائيل القديمة وتراثها . لا علاقة لنا البتة باليهود في بولونيه وانجلتره واميركه . ان لغتهم وانماطهم الثقافية وجنسيتهم (أو مواطنيتهم) تنتمي كلها الى البلدان التي يعيشون فيها . فهم من البولونيين والانجليز او الاميركيين . ونحن كنعانيون ... » (٥) .

واذا كان الشاعر البولوني الاصل والمنشأ ، راتوش ، بمثابة الأب الروحي لجماعة الكنعانيين هذه ، فان فلاديمير جابوتنسكي ، الروسي المولد والروماني الثقافة والميول ، قد وقع تحت تأثير الكاتبين الروسيين اليهوديين : ميخا جوزيف برديتشفسكي (Berditchevsky ١٨٦٥ — ١٩٢١) وشاوول تشيرنيخوفسكي (Saul Tschernikhovski) (١٨٧٥ — ١٩٤٣) . واخذ عنهما بعض الآراء والمواقف بعد نزع الهالة الفلسفية عنها وتطعيمها بنزعة تمجيد الروح العسكرية وحب القتال وقعقعة السلاح (٦) .

لذلك يحسن بنا التعرّف على ابرز تعاليم هذين الكاتبين ، والنظر

---

٥ — المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

٦ — راجع مقالة هانزكوهن « صهيون والفكرة القومية اليهودية » ، Palestine. Collected Papers (Beirut, 1963). المصدر السابق ، ص ٣٤ .

الى « الحركة الكنعانية في الصهيونية » (٧) من زاوية التعاليم والآراء التي صدرت عنهما .

برديتشفسكي

كان اسمه المستعار : ميخا جوزيف بن غوريون . تأثر بحركة التنوير اليهودية في روسيه (الهاسكالا) وخرج على تقاليد أسرته بعد فشله في التوفيق بين تعاليم التلمود وافكار عصر التنوير . انتقل الى جامعة برسلو الالمانية لمتابعة دراسته والتردّد على اكاديمية الرسم هناك ، (١٨٩٠) ، وأعد رسالة لنيل الدكتوراه حول العلاقة بين الاخلاق وعلم الجمال . خضع لتأثير افكار نيتشه التي استحوذت على عقول الشباب آنذاك ، فأخذ عنه مفهوم « الانسان الاعلى » (السوبرمان) ، ثم اقدم على تبني فكرة رئيسية لدى الفيلسوف الالماني ، وهي التي تدور حول « اعادة تقييم جميع القيم » السائدة ، وجعل منها شعاره في الهجوم الشديد على التقاليد والحياة اليهودية ، وعلى تلك العناصر التلمودية في الديانة اليهودية . فظهرت مقالاته حول « الهدم والبناء » و « قضية الثقافة » و « مسألة ماضينا » في مطلع هذا القرن بين ١٩٠٠ — ١٩٠٣ . أما كتابه الرئيسي — وقد ظهر قسم منه بعد وفاته — فهو « سيناء وجريسيم » (Sinai and Gerisim) . وقد حاول ان يبين فيه بان الديانة الحقيقية لاسرائيل القديمة لم تكن الوحدانية التي يعبّر عنها الكتاب المقدّس ، بل كانت في جوهرها عبادة الطبيعة والاصنام . ثم انطلق من هذه النظرية الى التشديد على ضرورة

---

٧ — كتب احد المقربين من اوساط « المابام » تحت عنوان « ايديولوجيات النزاع الاسرائيلي — العربي » ، وفي معرض تعليقه على مسألة الحدود التاريخية ، يقول :

« ان مسائل الحدود التاريخية في هذا الجزء من العالم تقرّرها الخرافات القومية اكثر مما تقرّرها الضرورات الاثنية او الجغرافية » .

والكنعانية الصهيونية تبغي تعيين حدود الدولة العبرانية وفقا للخرافة التي نسجها خيال الداعين لها . (انظر — Yosef Shatil «Ideologies in the Israeli-Arab Conflict) — New Outlook, Vol. 10, No. 8, November, 1967, P. 9.

تجديد شباب الشعب اليهودي بالاعتماد على « ثقافة قومية حرّة » . ولم ير من حاجة الى اقامة هذه الثقافة على المبادىء الدينية والاخلاقية الثابتة . كما أعرب عن استحسانه لاقتباس النزعات الانسانية العامة . وهكذا راح في كتبه التي تناولت التاريخ الثقافي اليهودي يشدّد على « التجارب الفردية والاحداث التي لها اهمية قومية في تطور الشعب اليهودي » ، بدلا من التركيز على تطور الفكر الديني والاخلاقي . فتوصّل الى اعتبار هيرودس بمثابة بطل قومي يهودي . ومارس ابعد الاثر في نفوس الشباب اليهودي من خلال القصص الخرافية والاساطير التي الفها . وكان بمثابة الندّ للدعوة التي حمل لواءها احد هاعام في كثير من الاحيان . وبوحي من تعاليم برديتشفسكي شاعت عملية القيام بتفسير التاريخ اليهودي من جديد ، وفي ضوء المفاهيم والتصوّرات المستمدّة من فلسفة نيتشه . حتى ان هانز كوهين كتب يقول في معرض تلخيصه لآراء برديتشفسكي :

« وهكذا بدا الانبياء العبرانيون وذلك الخط الطويل من الحاخامين والعلماء الممتد عبر الالفي سنة الماضية بمثابة حفّاري القبور ، والمفسدين والمشوهيّن للحياة اليهودية الصحيحة كما مثلها الملوك « الخطاة » ، ورجال الارض والتراب ، والزيلوتيون القوميون (المتعصّبون) في مملكتي اسرائيل ويهوذا القديمتين ، حيث كانت حكمتهم السياسية وافعالهم البطولية في مصاف حكمة الشعوب الاخرى وافعالها » (٨) .

لذلك جاءت نظرة « نيتشه اليهودية » من هذه الزاوية الجديدة لتبحث عن بقايا تعددّية الآلهة وعبادة الاصنام ، وعن الاساطير الجميلة والقوة البربرية لدى قبائل العبرانيين القدامى ، ولكي تخلص تلك البقايا من براثن الانبياء والكهنة الجادين في القضاء عليها . واصبح المثال الأعلى لدى برديتشفسكي مجسدا في تلك الحياة الوثنية لدى العبرانيين القدماء ، بينما فقد اليهود كل « حيويتهم الطبيعية » في رضوخهم لنير الشرائع الالهية . ومن الواضح انه يسعى لتطعيم اليهودية بالقيم الاغريقية التي تمجدها كتابات نيتشه . حتى انه يذهب الى حدّ اعتبار النظرة الجامعة في الديانة اليهودية سببا من اسباب نفي اليهود وشتاتهم . ولا يأتي

---

٨ ــ المصدر السابق ، ص ٣٣ .

الخلاص من النفي الا عن طريق التنكر لليهودية وسلبها . اما الأدب العبراني فعليه ان يلتفت الى الحياة والطبيعة لكي يستوحيهما ويشبع عطش الجيل الصاعد الى التوفيق بين النزعتين اليهودية والانسانية .

تشير نيخوفسكي

شاعر وطبيب . من مواليد شبه جزيرة القرم . ظهرت قصائده في العقد الاخير من القرن الماضي . وانتقل الى فلسطين بعد اقامة في المانيه بين ١٩٢٢ ــ ١٩٣١ . برع كمترجم للشعر الكلاسيكي والحديث . فقام بترجمة « الياذة هوميروس » والاوديسة الى العبرية وغيرها من الملاحم والقصائد القومية .

تأثر بالايديولوجية القومية في نزعتها العلمانية وتعلقها بالارض ، وكما نادى بها يهوذا لايب غوردون وبرديتشفسكي . واعلن رفضه التام للمسلك الروحي التاريخي في اليهودية ، زاعما انه ادّى الى الانحلال والانحطاط ، والى اضعاف الارادة القومية . ثم راح يدعو الى « بعث أرضي وسياسي » يتضمن :

« العودة الى الزمن النقي الاصلي ، والفترة الماقبل روحيّة على عهد غزاة أرض كنعان » .

لذلك نجد شعره يمجد تلك « العبرانية البدائية » (Primitive Hebraism) لدى القبائل التي خرجت من الصحراء بقيادة يشوع لكي تجتاح ارض كنعان وتستولي عليها (٩) . ويقارن الرجولية والجمال لدى العبرانيين الاوائل بالقيم المماثلة لدى الاغريق الذين يعتبرهم مثاله الاعلى ، مديرا ظهره لاله اسرائيل وملتفتا صوب عبادة الاصنام القبليّة في الصحراء . فيرى في طقوس عبادة البعل وعشتروت بقايا لتلك الشعائر الوثنية القديمة . وتتحول وثنيته الاغريقية الى ثورة على اليهودية وقيمها الاخلاقية والدينية . وفي قصيدته « أمام تمثال أبولّو » تطالعنا صورة للقيم التي عكف على تمجيدها ، وأحدثت ابعد الاثر في نفوس الشباب اليهودي الذي استهوته دعوة « الكنعانية » واسكرته ثورة

---

٩ ــ هناك قصيدة للشاعر الصهيوني حاييم بياليك عنوانها « يشوع على عتبة الارض الموعودة » (١٨٩٦) تنقل المعاني نفسها .

تشيرنيخوفسكي على جميع البواعث الاخلاقية والتعليمية التي تميّز بها الشعر العبراني . وقد آثرنا نقلها عن مقالة هانز كوهين الآنفة الذكر للتمثيل على الكنعانية المتشربة بالروح والقيم الاغريقية ، ولكي نرى كيف ادار الشاعر ظهره للديانة اليهودية وقيمها الروحية :

خلفت السبل القديمة ،
وورائي في الظلمة السحيقة يتجول ابناء الموت .
أنظر الي هنا ، أوّل من يلتفت نحوك .
روحي الارضية الحية
تكره القسوة الازلية للموت
سوف تحطم الآن اغلال الروح .
الشعور الحيّ ، بعد انحطاطه عبر سير الزمن ،
يفرّ من السجن الذي بناه مائة جيل .
صورتك رمز للضوء في الحياة .
امامك أنحني ، يا قوة الحياة وجمالها
انحني أمام الشباب الذي كالعاصفة
تخيف اولئك الناس الذابلين الجافّين وتطردهم ،
والذين حاولوا القبض على حياة الهي
ويقيّدون بحزامات صلواتهم واشرطتها
الشداي * ، اله الصحارى ،
الذي قاد غزاة أرض كنعان البواسل .

فلا حاجة بنا الى التذكير بالتعديلات والاضافات التي تجري على يدي جابوتنسكي واتباعه من خلال الاحياء المتعمد لاسماء « بيطار » و « مساده » واستحضار المواقف المتعصبة للزيلوتيين القدامى بغية ايقاظ الروح العسكرية والقتالية في نفوس الشباب اليهودي ، وتحت ستار اعادة الامجاد السالفة والمفاخرة بالبطولات الماضية . بل نكتفي بايراد الحكم الذي اصدره المؤرخ هانز كوهين ، اذ نجد فيه محاولة لالقاء الضوء على المرامي التوسعية التي انبثقت عن التحريفية والكنعانية على السواء :

« لقد أرادوا ان تمتد حدود فلسطين اليهودية الى أبعد ما وصلت اليه حدودها على الاطلاق في اي حقبة من حقب التاريخ» (١٠) .

---

* El Shaddai

١٠ ــ راجع مقالة كوهن ، المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

واذا كان « الكنعانيون » في الحركة الصهيونية قد عكفوا في مطلع عهدهم على اصدار صحيفة شهرية اطلقوا عليها اسم « ألف » (Aleph) اي الحرف الاول من الابجدية العبرانية ــ وذلك للدلالة على البدء من الاول أو البدايــة ، فليس بمستغرب ان تتستر وراء هــذه الصحيفة تنظيمات عسكرية تضم الشبان اليهود الذين ولدوا في فلسطين من أبوين اوروبيين ووقعوا تحت تأثير الدعوة الكنعانية المزيفة . وهناك رأي ــ لا نعرف مداه من الصحة ــ يقول بان موشيه دايان من المتعاطفين مع هذه الجماعة ومن الذين يهيمنون عليها وعلى تنظيماتها العسكرية .

ففي مقالة نشرها أحد الكتاب الاسرائيليين في عــدد تشرين الثاني (نوفمبر) من مجلة «نيو أوت لوك» المقربة من اوساط المابام الفكرية بعنوان « معنى الوطن » ، نجده يستشـهد ، في معرض انتقاده للمفاهيم الصهيونية من طراز « افتداء الارض » و « تحرير الارض » ، بقول تشير نيخوفسكي مخاطبا « احفاد الكنعانيين » :

« هبّوا ورثوا .. رثوا الارض وافتتحوها بقوة زنودكم » (١١) .

ويؤكد لنــا عاموس عوز بــان « لجنــة ارض اسرائيل الـكاملة » (Committee for the integrity of the Land of Israel) تضم في عدادها اعضاء ينتمون الى الكنعانيين امثال اوري زفي غرنبيرغ واهارون آمير . ثم يشير الى اللقاء بين دعاة القومية اليهودية من جهة ودعاة الكنعانية من جهة ثانية حول النظرة المشتركة الى العرب . اذ يعتبر هؤلاء الشعوب العربية المحيطة بهم والشعب العربي الفلسطيني الذي يسعون الى القضاء عليه والاستيلاء على أرضه بمثابة « تجسيد جديد ومباشر للاموريين والعمونيين والآراميين ... » . ومن هنا راح التحريفيون (والكنعانيون) يتخيلون حلمهم المفضل « بشن حرب مقدّسة ضد قبائل كنعان . لتأتي هذه الحرب بمثابة استمرار مباشر لعهود يشوع وداوود وينتاي ... » وبغية الاخذ بثأرهم و « الانتقام للدم المراق مــن خدّامك » . بينما اتجهت أحــلام الكنعانيين صوب العودة الى احضان الحضارة السامية ــ الكنعانية .

ويمضي الكاتب عاموس عوز في عرضه النقدي لافكار « الكنعانيين » ومزاعمهم التي يسهل دحضها بقوله :

« لكن الشعب الذي عاد الى صهيون المعاصرة لم يجد قبائل الكنعانيين

---

١١ ــ انظر Amos Oz — «Meaning of a Homeland» — New Outlook, Vol. 10, No. 9, P. 14.

القدامى فيها ... » (١٢) .

بل وجد الشعب العربي الفلسطيني ، برغم الاضاليل الصهيونية التي رفعت شعار « الشعب الذي لا أرض له الى الارض التي دون شعب » (زانفويل) . و « فلسطين هي وطن الفلسطينيين » ـ على حد قول الكاتب الناقد . بينما يقوم بتعليل السحر والافتتان الذي مارسته دعوة « تجديد الايام الخوالي » على الصهيونية اذ منحتها « تلك النزعة المتأصلة فيها لرؤية بلد بلا سكان أو أهل أمام ناظريها » . ثم يقول :

« ان كل مطمع للاحياء والاسترجاع يتضمن النية في التنسيق المنسجم بين الماضي والحاضر » (١٣) .

وجدير بالذكر ان الكاتب الاسرائيلي سارع في مطلع مقاله الى التبرؤ من شتى النزعات والميول المتأصلة في الصهيونية . فأعلن رفضه للمفاهيم السائدة والاهداف الصهيونية الرامية الى « افتداء الارض » و « تحرير فلسطين من شعبها وأهلها » من خلال القول التالي :

« لا استطيع استعمال كلمات من طراز « الارض الموعودة » او « الحدود الموعودة » ، لانني لا اعتقد بالذي قطع الوعد ... لقد جئنا الى هنا كي نعيش رجالا احرارا ، وليس لتحرير الاراضي التي ترزح تحت نير اجنبي وطغيانه المدتس ، سواء كانت هذه الاراضي القدس أو الجليل او السامرة او جلعاد أو آرام حتى تصل الى الفرات » (١٤) .

---

١٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤ .

١٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢ . ومما قاله الكاتب المذكور في « معنى الوطن » : « ان العرب لم يعارضوا الصهيونية لانهم اخفقوا في فهم الصهيونية (على حقيقتها) ، بل لانهم فهموها على أفضل وجه وأتمه » . كما قال في معرض الاعتراف بان فلسطين هي وطن الفلسطينيين ما يلي :

« الفلسطيني لا يكن اي احترام لوعد الله الى ابراهيم ، أو الى حنين يهوذا اللاوي وبياليك واشواقهما ، أو الى التصريح (الوعد) الذي اصدره ذلك النبيل البريطاني اللورد بلفور » . (انظر : المصدر نفسه : ص ١٥) .

١٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١١ .

لـكن صوت الكاتب عاموس عوز يأتي بمثابة صرخة ناشزة وسط جوقة التوسع الإسرائيلية التي تتعالى اصواتها وأفعالها من يوم الى آخر . فالشعور الديني أقوى بكثير مما قد يتصوّر المرء ، وأفعال الصهيونية تخطّت اقوالها حتى بات النداء الذي يناشد دعاتها التريّث والاعتدال صرخة في واد . فكيف بالدعوة الرامية لحمل الصهيونية على « التغلب على ذاتها » وابطال المفاهيم والمرتكزات التي تقوم عليها وتتغذّى بمنطقها المزيف ؟ غير اننا نرى في التحذير الذي يجري على لسان الكاتب المذكور اكثر من اعتراف ضمني وعلني في آن واحد بالاخطار والمطامع التوسعية التي تنطوي عليها الصهيونية المعاصرة ، كمـا كانت طيلة تاريخها ومنذ ظهورها الى الوجود . فقد انتهى كاتبنا الى القول :

« لو سادت في اسرائيل بعـد حرب الايـام الستة تلك الاتجاهات الصهيونية التي تأتي مسألة « افتداء الارض » في طليعتها من حيث الاهمية ، والتي تنطوي عـلى اطماع قوميـة وكنعانية كـي تصبح اسرائيل دولة يهودية كبرى أو أمة عظمى ــ لو سادت تلك الاتجاهات، فان هناك ما يبرّر شعور القومية العربية بقدرها المحتوم لشن معركة حياة أو موت ضد الخطر الصهيوني حتى يزول هذا الخطر من الوجـود » (١٥) .

ولا شك ان اسطورة الكنعانية الـتي تتوسلها الصهيونية تتضمن مجموعة من المطامع التوسعية البعيدة المرامي . وقد آثرنا عدم الخوض في مسألة صحة الادعاء الكنعاني وبطلانه ، مع العلم بوجود حركة قومية مماثلة في هذه البلاد العربية (دعوة القومية السورية) حاولت ربط تصوراتها ومفاهيمها بما اسمته « الاثم الكنعاني » ، وتحدثت بأصوات لا تختلف كثيرا عن مقومات الدعوة الكنعانية الا من حيث اعتبارها لما تدعوه « بالنفسية اليهودية » بانها تقف والحضارة الكنعانية على طرفي نقيض . وليس هنا

---

١٥ ــ المصدر نفســه ، ص ١٩ . وقـد عبّر يوري آفينيري ، نـائب الكنيست وداعية الكتلة الثالثة ، عن موقف مشابه لموقف الكاتب عاموس عوز ، حين قال :

« ان حركة اليهودية الشاملة في الصهيونية تغـذي العداء للصهيونية لدى العروبة الشاملة » . «The Pan-Judaism of Zionism feeds the Anti-Zionism of Pan-Arabism».

(انظر مجلة Issues — Winter 1967 — Spring 1968, P. 12.

مجال المقارنات وابراز نقاط التلاقي بين جماعة الكنعانيين ودعـاة الاثم الكنعاني . بل نكتفي بالاشارة الى مسألة تسترعي الانتباه ، وربما تستحق قسطها من الدرس والتحليل . هذا مع العلم بان المعلومات المتوافرة عن جماعة الكنعانيين قد تحتاج عند ذلك الى الزيادة والتوسيع ، لكي يتم نوع من التكافؤ بين الادعائين موضوع المقارنة .

حدود العام ١٩٦٧

« نحن لا نملك منظمة للغزو والفتح .
وهدفنا هو احباط محاولة الجيوش
العربية لاجتياح بلادنا ، وكسر الطوق
الحصاري والعدواني الذي أقيم
حولنا وسحقه » .

(موشيه دايان، صبيحة الخامس
من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ،
من محطة اذاعة اسرائيل)

حين يسارع ليفي اشكول عشية الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الى وضع الجنرال موشيه دايان على رأس وزارة « الدفاع » الاسرائيلية ، يتبادر الى الذهن في الحال تصريح بن غوريون الذي مرّ ذكره ، اذ تمنّى فيه (١٩٦٤) لو أن دايان كان رئيسا للاركان العامة وقائدا أعلى للقوات الصهيونية عام ١٩٤٨ ، واعرب عن ثقته بان حدود الدولة اليهودية كانت تكون أبعد وأوسع مما هي عليه الآن . وهكذا تم لبن غوريون ما اراده ، بعد مضي ثلاث سنوات ونيف على حديثه مع صحيفة « هابوكر » . وبرز موشيه دايان على رأس حملة الفتوحات العسكرية الاسرائيلية التي حققت انتصاراتها في معركة الايام الستة وشنت عدوانها تحت ستار « الحرب الوقائية » أو الحيلولة دون نشوب حرب تهدف للقضاء على اسرائيل و « القاء يهودها في البحر » .

وقد سبق لدايان بالذات ان صرح في خطاب له اثناء مأدبة عشاء اقامها أصدقاء « معهد حيفا التقني » (تكنيون) بقوله : « آمل ان تبادر الدول التي يمكنها السماح لنا بشراء معدات حديثة الى الاقدام على ذلك ، ليس من قبيل مساعدة اسرائيل على كسب حرب ، بل للحؤول دون نشوبها » (١) .

---

١ ـ انظر صحيفة الجويش كرونيكل ، ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ .

ولم يصدر الصوت التنبوءي الا عن وزير خارجية اسرائيل، ابا ايبان، من خلال المقالة التي نشرت له في صيف ١٩٦٥ بمجلة الشؤون الخارجية تحت عنوان : « الواقع والرؤيا في الشرق الاوسط » : نظرة اسرائيلية . فقد أعرب ايبان ، دون ان يتنبه الكثيرون لمغزى ذلك ، عن الرأي التالي :

« وليس من السخف ان نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحاح ، بالعودة الى حدود عام ١٩٦٦ أو عام ١٩٦٧ ، تماما كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود ١٩٤٧ ، تلك الحدود التي رفضوها في الماضي عن طريق اللجوء الى القوة » (٢) .

واعتبر ان المستقبل لا يزال رهنا بارادة التوسع الاسرائيلي ، كما انه لم يستبعد تكرار القصة التي تلاحقت أحداثها منذ عام ١٩٤٧ . ومما يسترعي انتباه القارىء لمقالة ايبان عن « الواقع والرؤيا » تلك الاشارة الى مـا يدعوه بـ « الرجوع باستمرار الـى خريطة الشرق الاوسط » (المصدر نفسه ، ص ٦٢٧) . فهو لا يعتبر الحروب وسيلة فعالة لتحقيق الاهداف المرجوة وتغيير معالم خريطة المنطقة السياسية ، بل نجده ينصرف الى مناشدة العقل العربي المفكر ان يمحّص بمزيد من النقد والتحليل تلك الفكرة القائلة بان اية حرب متصوّرة الحدوث في الشرق الاوسط سوف تؤدي الى تغيير التركيب السياسي أو الاقليمي بشكل ملموس . ثم ينتقل الى تعداد العوامل التالية باعتبارها تقف حائلا في سبيل تحقيق المكاسب عن طريق القيام بشن حرب جديدة :

أولا ــ الرادع العسكري المحلي .
ثانيا ــ الإحترام الدولي للوضع الاقليمي القائم والراهن .
ثالثا ــ الراي العام العـالمي ووقوفه بوجـه الصرخة الداعية الـى القضاء على اسرائيل وتصفيتها (٣) .

لكن ارادة التوسع الاسرائيلي هي التي أخذت زمام المبادرة في تحويل رؤيا وزير خارجيتها الـى واقع راهن . فحين قامت اسرائيل بعدوانها صبيحة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ــ وذلك بعد مرور عامين

---

٢ ــ انظر : Abba Eban — «Reality and Vision in the Middle East : An Israeli View», **Foreign Affairs**, (July, 1965, Vol. 43, No. 4, PP. 626-638), P. 630.

٣ ــ المصدر نفسه ، ص ٦٣١ .

تقريبا على اعلان ابا ايبـان لتمسكه بالوضع الراهن في الشرق الاوسط ودعوته للمحافظة عليه ــ كان وزير الخارجية اياه يطلق التصريح التالي الذي نقلته وكالات الانباء والصحف في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ :

« حتى ولو صوتت الامم المتحدة بـ ١٢١ صوتا ضد صوت واحد ، فلن ننسحب من الاراضي التي نحتلها » .

وسرعان ما وقف الجنرال موشيه دايان ليعرب صراحة عن نوايا التوسع الاسرائيلية ويطلق العنان لموقف حكومته الرسمي بصدد ما تجوز تسميته بـ « استراتيجية التوســع العلنية » . وفي مطلـع شهر آب (اغسطس) دعـي الكنيست الى الانعقاد للتصويت عـلى اقتراح بشأن المناطق المحتلة وسياسة الحكومة الاسرائيلية . فحظي الاقتراح بأغلبية ساحقة في صفوف أحزاب الائتلاف وحزب اغودات اسرائيل الديني ، بينما صوّت الجناحان الشيوعيان ضد الإقتراح وامتنع كل من يوري أفينيري ونواب كتلـة الوسط الحر (٤) عـن الاشتراك في التصويت . وخلاصة الاقتراح تقول ان اسرائيل سوف تبقي الوضع على حاله وكما هو بعد وقف اطلاق النار حتى يتم الصلح مـع العرب . أما الشق العملي مـن الاقتراح فهو كما يلي نصه :

« يصادق الكنيست عـلى موقف الحكومـة في تحبيذها للخطوات المؤدية الى محادثات مباشرة بين اسرائيل والدول العربية حول توقيع اتفاقيات الصلح ، ويؤكد من جديد انــه مــا لم يتم الوصول الى السلام ، فان اسرائيل سوف تستمر في ابقاء الوضع على حاله وكما

---

٤ ــ لم يكد يمضي الاسبوع الثالث على امتناع نواب كتلة الوسط الحرّ عن التصويت حتى كان وفد منهم قوامه شموئيل تامير ، افراهام تاير ، وشبلاي شيشمان ، يسعى لمقابلة ليفي اشكول بغية التبادل واياه لوجهات النظر بصدد النداء الذي تقدمت به الكتلة ووقعه حوالي ١٦٣ الفا من الاسرائيليين . بقي ان نعرف مضمون النداء : الالحاح على الحكومة كي لا تخضع للضغوط الخارجية والا تتزحزح من المناطق التي حرّرتها («Liberated Areas») . وقد اغتنم عضو الوفد ، شموئيل تامير ، فرصة المقابلـة لابلاغ رئيس الوزارة بان العرب في اسرائيل كانوا في عداد الموقعين على النداء المذكور .

(انظر : الجيروسالم بوست ، Tuesday, August 22, 1967, Page Six, 3rd Column).

أوجدته اتفاقيات وقف اطلاق النار التي اعقبت قيام قوات جيش الدفاع الاسرائيلي بدحر الهجوم العدواني بنجاح » (٥) .

وقد جاءت الفقرة التالية من القرار المذكور لتتحدث عن مسألة اخرى تتعلق بتشجيع الهجرة الى اسرائيل ، اذ اعرب الكنيست عن آماله التي يعلقها على الشعب اليهودي ، « في هذه الساعة التاريخية الحاسمة »، من حيث قيام هذا الشعب باداء الواجب القومي الاعلى : تحقيق المزيد من موجات الهجرة اليهودية « الصاعدة » الى ارض اسرائيل (Aliyah) (٦) .

ومنذ مطلع شهر آب (اغسطس) ١٩٦٧ اخذ العسكريون والساسة الاسرائيليون يطلقون التصريح تلو التصريح للافصاح عما ينوون فعله بصدد المناطق التي يحتلها جيش « دفاعهم » . ففي مؤتمر عقدته منظمة هابونيم للشباب بقصد البحث في المشاكل التي تعترض سبيل اغراء الشباب اليهودي في العالم على الهجرة الى اسرائيل ، وقف ليفي اشكول ليعلن ان « المناطق المحتلة » يجب

« ان تساعدنا لكي نضمن في المستقبل ان حدودنا لن تكون مرّة ثانية من النوع الذي يدعو جيراننا للقيام بمهاجمتنا » (٧) .

وتعالت الاصوات في الاوساط الاسرائيلية ، من عسكرية ورسمية حكومية الى معظم فئات السكان ، والمنظمات والاحزاب والجماعات الدينية ، لتردّد في جوقة توسعية متناغمة ان « لا عودة الى حدود عام ١٩٤٨ » . وتزعم موشيه دايان ويغال آلون في البداية قيادة تلك الجوقة وسط حماس التحريفيين والمتدينين وحيرة « اليسار الاسرائيلي » الذي اوشك على الاستدارة نحو اليمين ، فراح يطلق تصريحاته المتغطرسة وسط تأييد شعبي كاسح ، ليقول فيها اشياء من هذا القبيل — بعد تجريد نفسه من الصفة الرسمية كوزير للدفاع وعضو في حكومة الائتلاف :

« علينا النظر الى واقع عام ١٩٦٧ والى خريطة عام ١٩٦٧ ، نحن لا نحتاج الى حدود دائمة فقط ، بل الى حدود تضمن السلام » .

. . . .

« فالسلام لا يعتمد على الامنيات العربية وحدها ، بل على نوع الحدود التي تكون لاسرائيل » .

---

٥ — انظر Jerusalem Post, Thursday, August 3rd, 1967

٦ — المصدر نفسه .

٧ — المصدر نفسه . Sunday, August 6, 1967

« ان حل مشكلة النازحين العرب ليس بيد اسرائيل وحدها ، بل تجب معالجته على صعيد اقليمي » .

ثم أعلن معارضته لما دعاه بـ

« النظريات السهلة التي تفترض وجود الحل الكامل ضمن نطاق امكانياتنا . اذ ليس هناك مـن متسع لمليون من النازحين العرب داخل حدود اسرائيل . والحل لا يقع ضمن رقعتنا المحدودة أو بيدنا ، بل في المنطقة بأسرها » .

« نحن في القدس والضفة الغربية لان أمننا وسلامتنا يتطلبان ذلك » نحن لسنا مستعمرين ، وهذه ليست عـدن . لدينا ما يكفي من سائقي الاوتوبيس وأصحاب المتاجر والسكان لتسيير الامور على خير مـا يرام . « ويجب ان يعلم العرب بان معارضتهم لن تقرر شيئا ، فلو رغبوا في التعاون ، كان به ، والا فسوف نتدبر ادارة الامور بدونهم » (٨) .

غير ان ما يسترعي انتباهنا في تصريحات دايان ــ التي سرعان ما تنقلب الى تهديدات وتوعدات ــ هو ذلك التشديد والاصرار المتعمد على قضية الحدود التي تحتاجها الدولة الصهيونية بعد عشرين عاما من اقرار مشروع التقسيم وما يقارب العشرين عاما من قيام دولة اسرائيل على ارض فلسطين . فما هي الحدود التي يطمع الاسرائيليـون في الحصول عليها من خلال عدوانهم الرامي الى تكريس الواقع الاحتلالي لعام ١٩٦٧ ؟ وكيف يطيب للصهيونية ان ترسم خريطتها التوسعية بعد عشرين عامـا لقيام دولتها ؟(٩) .

---

٨ ــ راجع صحيفة Jerusalem Post, Vol. XXXVII, Nr. 12033, Thursday, August 10, 1967.

٩ ــ كتب احد المعلقين « اليساريين » في مجلة « نيو أوت لوك » تحت عنوان « الحرب وما بعدها » معبرا عن وجهات النظر التالية :
« حتى ولو القينا نظرة عابرة على خريطة اسرائيل ، لتبين لنا كـم هو مـن السهل تدمير تل ابيب انطلاقا من الحدود المحيطة بها ، وكم هو من السهل شطر البلاد الى نصفين او اكثر اثر القيام بتحركات عسكرية سريعة ... انها خريطة تتهدد بالخطر في كل لحظة وتجعل من المستحيل ترك الحرب تدور رحاها داخل الارض التي تحتلها اسرائيـل » .

ان موشيه دايان يلجأ الى التمييز بين ما يدعوه بالحاجة الى «حدود دائمة» وبين «الحدود التي تضمن السلام». ويؤكد لنا ان السلام في المنطقة يعتمد ايضا على «نوع الحدود وطبيعتها». ولم يكن وحده في ميدان التشديد الاسرائيلي طيلة السنوات الماضية على الفروقات المتضمنة في التمييز الصهيوني بين «خطوط الهدنة ووقف اطلاق النار» من جهة، والحدود «الطبيعية» و «الآمنة» و «التاريخية» من جهة ثانية. بل يكفي ان نتذكر نظرة اسرائيل الى المناطق العربية التي تطمع في الاستيلاء عليها عن طريق الفتح العسكري، باعتبارها «الاجزاء المحتلة من الوطن القومي اليهودي» او «الاقسام المتممة لارض اسرائيل التاريخية»، ثم المسارعة الى القول بانها في عداد المناطق التي لم يتم تحريرها بعد. وما ان يستتب الامر للعدوان وتتوطد اقدام الاحتلال، حتى يروج الحديث عن «المناطق المحررة» وتتعالى الاصوات مطالبة بتأمين حدود طبيعية تضمن السلام وتسد الحاجات الاقتصادية، وتأتي مطابقة للصورة التي تستخلصها الصهيونية لها من تحريف الوقائع التاريخية وتحت ستار «الوعد الالهي» و «التخوم المقدسة».

والمراقب لطبيعة الاستراتيجية الاسرائيلية ومنطقها الخاص فيما يتعلق بقضية الحدود المنشودة، تطالعه اوجه الشبه بين مطالب الصهيونية منذ قيامها وبين اطماع اسرائيل منذ انشائها. فقد درجت الصهيونية

ثم انتقل الى الحديث عن اسرائيل «القلعة المحاصرة»، فقال:
«لقد زادت اسرائيل عدد سكانها منذ قيامها ثلاثة اضعاف، ولا تزال تعتمد على تأييد اليهودية العالمية ... وهي تعيش وسط شعورها بأنها قلعة محاصرة». New Outlook. Middle East Monthly. Vol. 10, No. 6, July-August, 1967, P. 4. ومن الجدير بالقارىء ان يعود الى التحليل الموضوعي للعوامل الكامنة وراء الاستراتيجية الاسرائيلية والاسس التي تقوم عليها هذه الاستراتيجية: في الدراسة التي كتبها هيثم الكيلاني، عن «الموقع الاستراتيجي العربي» (انظر ص ٢١٢–٢١٦). فقد اشار المؤلف الى عاملين رئيسيين:

ا ـ ايمان اسرائيل بحتمية الحرب

ب ـ هشاشة الكيان الاسرائيلي (ص ٢١٢).

الرسميـة على رفع شعار « الحدود الشرعية » او حدود « الوطن الـذي يضمنه القانون العام » ــ كما نص على ذلك برنامج بازل الصهيوني قبل سبعين عاما على وجه التقريب . وجاء صدور وعد بلفور (١٩١٧) بمثابة تكريس لضمان « الحدود الشرعية » ــ حسب المزاعم الصهيونية ، وعلى الرغم من خلافات الراي بين « السياسيين » و « العمليين » ، والتحريفيين فيما بعـد : حول مساحة الرقعة التي يجب ان تشملها تلك الحـدود الشرعية . وحين صدر قرار التقسيـم قبلت به الصهيونية « مكرهة » ، لكنها لم تشأ التوقف عنـد الحدود التي اقرها لها المشروع ، بل اقدمـت على احتـلال المزيد مـن المناطق العربية ، متذرعة برفض العرب لقـرار التقسيـم تارة ، وطورا بزعمها ان الدول العربية خرقت القرار وشنـت هجومها العدواني على الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ . وحين تم التوصل الى وقف اطلاق النار وجرى التوقيع على اتفاقيات الهدنة ، اخذ المسؤولون الاسرائيليون يتحدثون عن « حدود الدولة » التي قامت على جزء من أرض اسرائيل الموعودة ، « وحدود الامة » التي يجب ان تأتي مطابقة للحدود التاريخيـة المقدسة .

وهكذا عكفت استراتيجية اسرائيل على التأرجح المتعمـد بـين شعاري « الحدود الشرعية » (وهذه تختلف عـن خطوط وقف اطلاق النار وحدود الهدنة ، على ما يبدو) و « الحدود الآمنة » التي تضمن لها السلامة والاستقرار وتحمي عملية البناء الصهيوني القائم على احتمالات التوسع وتحقيق المدى الحيوي للاستعمار اليهودي النامي . ثم جاء عدوان الخامس من حزيران(يونيو) ــبعد فشل العدوان الثلاثي عام١٩٥٦ــ ليتيح امام العسكرية الاسرائيلية فرصة تحقيق مخططاتها التوسعية ، وكانـت خطوتها الاولى تقضي بأخذ زمام المبادرة و « نقل المعركة الـى اراضي العدو » (اشكول ١٩٦٥) ، فأعقبها الحديث عن مصير المناطق المحتلة . وارتفعت الاصوات مطالبة بحدود « آمنة ودائمـة » ، بينمـا راحت السلطات الاسرائيلية تقيم المستوطنات العسكرية في مناطق استراتيجية من الضفة الغربية (بين الخليل وبيت لحم وعلى شاطىء البحر الميت) وفي مرتفعات الجولان ومنطقة بانيـاس السورية ، او في منطقة العريش المصرية وقطاع غزة (١٠) . حتى بلغ عدد المستوطنات العسكرية التي انشئت منذ

---

١٠ ــ انظر صحيفة **Süddeutsche Zeitung**, Dienstag, 26 Sept. 1967 «Israel baut drei Wehrdörfer».

الخامس من حزيران (يونيو) حوالي ٣٧ مستوطنا . وقد قامت جميعها وفقا لاستراتيجية التوسع العلنية التي تسير عليها اسرائيل .

غير ان الشعار الجديد الذي رفعته اسرائيل عاليا خلال الفترة التي اعقبت عدوانها الاخير تحول فجأة الى شعار المطالبة بـ « الحدود المقدسة » . والواقع ان الاطماع التوسعية الصهيونية تستخدم الشعارات الثلاثة المذكورة اعلاه بالمداورة احيانا، ومندمجة في احيان اخرى، فالملاحظ ان الجوقة التوسعية الاسرائيلية تضم اصوات التحريفيين والمتدينين والعمال المتحدين الى جانب احزاب الوسط . والتصريح الذي اطلقه الحاخام الاكبر جاء بمثابة « فتوى » دينية لا يمكن فصلها عن مدلولها السياسي ، على الصعيدين الداخلي والخارجي . والفتوى المذكورة عملية تكفير كل يهودي يقبل باخلاء شبر واحد من الاراضي المحتلة . لماذا ؟ لان شعار « الحدود المقدسة » الذي يلتقي الان مع الشعارين السياسيين الآخرين يعتبر جميع الاراضي المحتلة واقعة ضمن ارض الميعاد (١١) .

---

١١ ـ يقال ان الجنرال موشيه دايان قام في الاسابيع التي سبقت حرب حزيران (يونيو) بنشر مقالة في احدى الصحف الاسرائيلية تضمنت « تحليلا عسكريا جديدا لمعركة داوود وجوليات » ، حتى ان التحليل المذكور كان «وراء انتصار اسرائيل في حزيران(يونيو)» . (انظر ملحق «النهار» ، العدد ٩٩٨٧ ، الاحد ٢٦ ايار (مايو) ١٩٦٨ ، ص ٨) . وقد تبنّى العديد من الدراسات التي صدرت في الغرب عقب الخامس من حزيران (يونيو) التشبيه المقصود : اسرائيل ـ داوود ، والعرب ـ جوليات . وربما كانت خطة التعبئة العامة (النفير الاسرائيلي) مقتبسة عن تلك الخطة التي يقال ان الملك سليمان قد وضعها منذ ثلاثة الاف عام . لكننا نكتفي في هذا المجال بالنظر اليها من زاوية المدلول الديني للتوسع والقصد الرامي لاحياء امبراطورية داوود وسليمان التي لم تدم اكثر من ثلاثة ارباع القرن على ابعد تقدير .

وتجدر الاشارة هنا الى عنوان الكتاب الذي وضعه الصحفي النمساوي ارنست تروست (مراسل صحيفة **Kronen Zeitung** في فيينه) بعنوان « داوود وجوليات » **(David und Goliath)** **Die Schlacht um Israel 1967.** فبدأه بنقل الفقرات من اسفار العهد

وهكذا تصبح فتوى الحاخام الاكبر : «لا يملك اي يهودي حق تسليم ذرة واحدة من هذه الاراضي الا اذا كان كافرا » .. بينما يتعالى صوت بن فوريون مطالبا العالم اجمع ان يعترف لاسرائيل بحق الفتح العسكري الذي يخولها بالتالي سلطات توطين اليهود في المناطق المحتلة (أو «المحررة» ، حسب زعمه) .

ووسط سيل المزايدات والتصريحات التوسعية ارتفع صوت ليفي اشكول اخيرا ليدلي بدلوه ويركب الموجة الشعبية الصاعدة . فقد تحدث رئيس وزراء اسرائيل للمرة الاولى في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ عما اسماه بـ « اسرائيل الكبرى » لتضم المناطق المحتلة من اراضي الجمهورية العربية المتحدة والاردن وسوريه . وذلك في خطابه الافتتاحي امام « بعثة ابناء العهد الى اسرائيل » (B'nai B'rith Israel Commission)

القديم التي تروي قصة داوود وجوليات على النحو المألوف في سفر صموئيل الاول ١٧ و ١٨ و ١٩ .

ولا غرو فان التحليل الجديد بقلم دايان لضربة المقلاع التي سددها داوود الى جبهة الفلسطيني (جوليات) قد يكون بمثابة استباق متعمد للخطة الاستراتيجية الاسرائيلية القائلة بتوجيه الضربة القاضية الى الطيران العربي في قواعده الجوية وعلى الارض . لذلك تأتي تنبؤات دايان العسكرية في مقام « الخواطر » التي عرضها ابا ايبان حول « الواقع والرؤيا في الشرق الاوسط ».

هذا بالاضافة الى القيمة الدعائية و « الهالة التاريخية » التي تحيط بالزعم القائل ان تحليلات دايان تكمن وراء انتصار اسرائيل . فالتشبيه المقصود : الهجوم الصاعق للطيران الاسرائيلي على المطارات العربية ، مقابل ضربة المقلاع التي سددها داوود الى جوليات « الجبار » ـ ليس الا من قبيل السعي لكسب العطف والتأييد بوحي من قصة الكتاب المقدس . واذا كان التاريخ يعيد نفسه حقا ، فلا بد من ان تكون الاعادة افادة لجميع الاطراف المعنية !

على ان العودة الى ما يصح اعتباره ابرز دراسة عربية وموضوعية للاستراتيجية الاسرائيلية ـ (هيثم الكيلاني : **الموقع الستراتيجي العربي**) ـ تلقي لنا مزيدا من الضوء على المذهب العسكري الاسرائيلي « بتبنيه لتعاليم الدين اليهودي فيما يتعلق بشؤون

وفي معرض توجيـه نـداء جديـد يناشد يهود العالم ارسال المهاجرين والمستوطنين . اما التحول المفاجيء في تصريحات اشكول فقد نقله مراسل صحيفة « الهيرالد تريبيون » على الشكل الآتي :

« على الرغم مـن اقتراحات المستر اشكول وغيره مـن الزعمـاء الاسرائيليين في السابق ، بتوطين اليهـود في اقسام من المناطـق المحتلة : بغية التأثير في محادثات الحدود المحتملة فان اشارتـه الى « اسرائيل الكبرى » بدت وكأنها اشد الاقتراحات صراحة حتى الآن » (١٢) .

ثم انتقل ليفي اشكول الى الحديث عن « المجالات الجديدة التـي تواجه الامة عقب انتصارها » ليطرح على نفسه السؤال التالي ويجيب عليه بكل بساطة :

« لو سألتمـوني عـن المطلوب لتحقيق هذه المجالات الجـديدة ، لكان جوابي في كلمة واحدة بسيطة : نحن نحتاج الى مزيد مـن اليهود » .

« ففي اسرائيل الكبرى اليوم يبلغ عدد سكاننا ٣،٨ ملايين نسمة . بينهم ٢،٤ مليون من اليهود ، و ١،٤ مليون مـن غير اليهود (لـم

القتال والامور المعنوية » . فقد اكد لنا مؤلف الكتاب البالغ الاهمية بـان :

« الجيش (في اسرائيل) يلقن رجاله دروس التاريخ العسكري لليهود جنبا الى جنب مع الدروس الحربية المستقاة من التاريـخ العسكري العالمي القديم والحديث . وتنظر اسرائيل الى تاريخها في القرن العشرين ، على انه استمرار لتاريـخ داوود وموسـى وشاؤول ، وان استراتيجية المقاومات والغزوات التي جرت فوق ارض فلسطين قبل الميلاد بمئات السنين ، لا تقل اهمية وقيمة عن وقائع ونظريات التاريخ العسكري الحديث » . (انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٢٣) .

وفي هذا ما يفسر لنا طبيعة المقال التحليلي المنسوب الى قلم الجنرال موشي دايان والصادر قبل ان تشن اسرائيل عـدوان الخامس من حزيران (يونيو) بعدة اسابيع .

١٢ ـ انظر International Herald Tribune, Paris, Monday, October 30th 1967.

يقل من العرب) وتبلغ نسبة اليهود ٦٤ بالمئة من مجموع السكان ، ونسبة غير اليهود ٣٦ بالمئة من مجموعهم » .

« ومهما تكن القرارات السياسية التي سوف يجري اتخاذها فيما بعد ، فلا يجب ان يفرضها الوضع الذي يضع حدا للهجرة الى اسرائيل او يقضي على مجالاتها » (١٣) .

وقد اشار مراسل الصحيفة الى قلق الزعماء الاسرائيليين ، منذ زمن طويل ، لانخفاض نسبة الولادة بين اليهود في اسرائيل والهبوط الشديد في معدل الهجرة . ونقلت مجلة « تايم » الاميركية في مطلع ايار (مايو) ١٩٦٨ ، وبمناسبة احتفال اسرائيل بمرور عشرين عاما على تأسيسها ، الإنباء التالي مفادها : ان ما يقض مضاجع الزعماء في الدولة الصهيونية هو ذلك الهبوط في معدل الهجرة الى اسرائيل وارتفاعها من اسرائيل الى البلدان الغربية . فعلى الرغم من قرار عدة مئات من الآلاف التي تطوعت للمساعدة خلال حرب حزيران (يونيو) بالبقاء في اسرائيل ، وجدت المجلة ان هذه تخسر الان العديد من اليهود المدربين الذين يهاجرون الى الغرب (١٤) . والمعروف ان اسرائيل كانت تعاني قبل الخامس من حزيران (يونيو) وطيلة العام الفائت ازمة بطالة شديدة، تخللتها الاضطرابات المتكررة في شتى المرافق والحقول الاقتصادية وفي العديد من القطاعات الصناعية . وقد تكون هناك علاقة وثيقة بين القلق الاسرائيلي لانخفاض معدل الهجرة اليهودية الى اسرائيل وبين ارتفاع معدل الهجرة بين العرب في اسرائيل الى كنده بنوع خاص (١٥) . اذ ليس بمستبعد ان تلجأ السلطات الى تشجيع العرب على المهاجرة واغرائهم بالخروج نهائيا من بلادهم ، خوفا من اختلال متوقع « للتوازن » الذي تنشده الصهيونية في دولتها اليهودية الخالصة .

وفي حديث مجلة « تايم » عن مواطن الضعف الخطيرة في الاقتصاد الاسرائيلي وردت الاشارة الى الواقعتين التاليتين :

اولا — الاعتماد على سخاء اليهود في الخارج .

ثانيا — العجز الكبير في الميزان التجاري .

مما يضع نداء اشكول والكلام الذي خاطب به مستمعيه الاميركيين

---

١٣ — المصدر نفسه .

١٤ — انظر **TIME magazine, May 3rd, 1968**

١٥ — راجع **New Outlook, July - August, 1967**

في اسرائيل على مستوى الاحداث والخطط المعدة لتوسيـــع رقعة اسرائيل وخلق مــا اسماه بــ « اسرائيل الكبرى » . فالدعوة الى تهجير المزيد من اليهود تعني في المخطط الاسرائيلي توفير المزيد من المحتاجين الى الاراضي ، واللجوء الى توطين هؤلاء المهاجرين في المناطق العربية المحتلة . اما الذريعة التي يتوسلها ليفي اشكول لكسب عطف مستمعيه الاميركيين وتأييدهم فهي زعمه بان توطين اليهود في تلك المناطق يقوّي مركز اسرائيل ويحسّن من قدرتها على المساومة . ولا شك ان اشارة رئيس الوزراء الصريحة الى « اسرائيل الكبرى » وحديثه عن السكان « اليهود » و « غير اليـــهود » (دون ان يذكــر العرب !) ، ثم الاعراب عــن قلقه بشأن انخفاض الهجرة ،

«تتناول موضوعا مقربا الى اسماع رجال التخطيط في اسرائيل» (١٦) (وعزيزا على امانيهم) .

وفي اليوم التالي لخطابه الذي اعلن فيه مشروع « اسرائيل الكبرى »، ادلى ليفي اشكول بتصريح آخر مفاده ان اسرائيل تسعى لترسيخ اقدامها (digging in) على « حدودهــا الجديدة » ، وانها تنوي الاحتفاظ بمعظم المناطق العربية التي تحتلها الآن . وقد جاء التصريح المذكور بمثابة بيــان رسمي لشرح سياسة الحكومة امام الجلسة الافتتاحية لدورة الكنيسـت . ومما قاله اشكول في خطابه الرسمي :

« ان المنطقة التي كانت تحت الاحتلال الاردني (الضفــة الغربية) ومنطقة غزة التي كان يحكمها المصريون لم تكونا خاضعتين لهما عن حق بل بالقوة ، ونتيجة العدوان والاحتلال العسكري » .

« ومن الصحيح ان اتفاقيات الهدنة اعترفت بهذا الاحتلال ، لكـــن التحريض والعدوان العسكري من جانبهم (اي العرب) ابطل مفعول هذه الاتفاقيات » (١٧) .

غير انه نسي او تناسى الاشارة الى كيفية احتـلال الصهيونيـــين للاقسام التي ضمتها دولة اسرائيل خارج نطاق حدود تقسيم فلسطين ، كــي لا نقل ارض فلسطين كلها . ومن الواضــح ان الاطماع التوسعيــة الصهيونية جادة في البحث عن مبررات ومزاعم تتوسلها لتحقيق نواياها

---

١٦ ــ انظر صحيفة « الهيرالد تريبيون » ــ المصدر السابق .

١٧ ــ المصدر نفسه Herald Tribune, No 26375, Tuesday, Oct. 31st, 1967.

ومخططاتها . فسرعان ما ينتقل اشكول الى مسألة الحدود التي تشغله بقـــوله :

« جرى الاتفاق ... عام ١٩٤٩ بان خطوط الهدنة تمليها الاعتبارات العسكرية فقط ، وليست لها طبيعة الحدود » (١٨) .

لذلك تمكن من الوصول الى غايته المنشودة باعلان رفض اسرائيـل السماح باعادة الوضع الى ما كان عليه قبل الخامس من حزيران (يونيو). واكتشف الاسباب والمبررات الكافية لموقف اسرائيل من وجهات النظـر التالية : الشرعية والسياسية والامـن والسلامة ، لـكي يصرح بان هدف حكومته يقوم على « تعيين حدود قومية آمنة ومتفق عليه في اطار معاهدات الصلح » . ومن الملاحظ انه استبدل تسمية « خليج العقبة » بقولـــه « خليج ايلات » . بينما نقلت صحيفة المانية (Süddeutsche Zeitung) في عددها الصادر اول آذار (مارس) بان راديو اسرائيل قد غير الاســم الى « خليج سليمان » . وتابع قولــه :

« سوف تستمــر اسرائيل في الابقاء على الوضع كما عينته اتفاقيات وقف اطلاق النار ، وسوف تقوم بتعزيز مركزها وفقا لحاجـــات امنها وتطورها الحيوية ، بسبب رفض العرب اجــراء مفاوضات صلح . وسوف نواصل تعزيز قوتنا وتحصين امننا ، طالما ان الخطر باق علينا وطالما نحن عرضة لخطر التدمير » (١٩) .

ثم انتهى الى عرض مشروعه الصهيوني لتحقيق السلام فجعلـــه يتوقف على النقاط الرئيسية التالية :

اولا ــ مقدرة اسرائيل على الردع والدفاع عن نفسـها .

ثانيا ــ عدم تدخل دول المنطقة الى جانب الذين اعلنوا عزمهم علـى تدمير اسرائيل وابادتها .

ثالثا ــ احجام الامم المتحدة عن اصدار البيانات الغامضة التـي لا معنى لها كصيغ السلام التي تدعو الى انهاء حالة الحرب دون تسوية سلمية حقيقية » (٢٠) .

---

١٨ ــ المصدر نفسه .

١٩ ــ المصـــدر نفسه .

٢٠ ــ راجع صحيفة « النهار » البيروتية ، العدد ٩٧٩١ ، الثلاثاء في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ . وقد كرر اشكول هذه النقاط في معرض حديثه عن الشروط الثلاثة لسلامة اسرائيل اثناء زيارتــه

وهكذا انتقلت دعوة « اسرائيل الكبرى » الى الصعيد الرسمي الصهيوني بعد ان نقلتها استراتيجية التوسع العلنية الى حيّز العمل والتنفيذ . وراح ليفي اشكول ، في معرض ترديده لمعزوفة استعداده للتفاوض مع الدول العربية بشأن الصلح ، يعلن عشية الذكرى الخمسين لوعد بلفور (في الثاني من تشرين الثاني ، نوفمبر ، ١٩٦٧) بان عدد اليهود في اسرائيل قد يتضاعف بين عامي ١٩٦٧ ـ ٢٠٠٠ ليفوق حدود الخمسة ملايين نسمة عند نهاية هذا القرن . بينما كان اللورد فكتور روتشيلد (وهو ابن اخ روتشيلد الذي تسلّم الرسالة المتضمنة وعد بلفور) يدعو الدول الكبرى الى استصدار وعد بلفور جديد « تسانده القوة ووسائل لضمان أمن ورفاه اليهود والعرب على السواء » .

وانضم الرئيس السابق لاركان حرب الجيش الإسرائيلي ، اسحق رابين ، الى جوقة المطامع التوسعية ليؤكد امام المؤتمر الوطني للجباية اليهودية في نيويورك :

« ان اسرائيل سوف ترتكب غلطة تاريخية ، فيما لو هي تخلت عن المكاسب الاقليمية التي حققتها في حرب حزيران (يونيو) الماضي ضد الدول العربية » .

« اننا وصلنا في حرب حزيران (يونيو) الى خطوط عسكرية مثالية تعتبر في الوقت الحاضر اهم ما حققناه » (٢١) .

لكنده في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ . وابلغ مستمعيه من اليهود الكنديين ان « مواجهة التحديات التي تجابه أمن اسرائيل وسلامتها » سوف تشغل المؤتمر الذي ينوي عقده اثناء الاحتفالات بالذكرى العشرين لقيام اسرائيل . ثم ناشد الشبيبة اليهودية الكندية الهجرة الى اسرائيل على نطاق واسع بقصد الاقامة الدائمة والاستيطان . فقال :
« اننا في حاجة ماسة الى تدفق عشرات الالوف من يهود العالم الغربي لينضموا الينا في بناء الدولة الاسرائيلية وضمان بقائها » .
و « لا تدعوا الناس يقولون في المستقبل ان الشعب اليهودي في عصرنا خلق دولة وخسر شعبا » .
(انظر « النهار » ، عدد ٩٨٦١ ، ٦٨/١/١٥) .

٢١ ـ المصدر نفسه ، عدد ٩٨٢٨ ، ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٧ .

ثم اشترط « احداث تغيير في العلاقات الاساسية » بين اسرائيل والدول العربية ، والوصول الى « تفاهم متبادل » في « اتفاق سلام » ، مؤكدا بقوله :

« وعندها سوف ننسحب الى خطوط اكثر تقلصا من الحدود الحالية » (٢٢) .

والشرط الاساسي الذي يضعه رابين لتخلّي اسرائيل عن بعض مكاسبها او « انسحابها الى خطوط اكثر تقلصا من الحدود الحالية » (من الواضح ان الانسحاب الكامل مسألة غير واردة في مخططات التوسع الاسرائيلية . وربما كان في نظر رابين بمثابة ارتكاب الغلطة التاريخية) ليس الا اعتراف العرب بوجود اسرائيل . وهكذا تطالعنا ناحية بارزة في الخطة الاسرائيلية التي تسعى لاخفاء النوايا التوسعية والعدوانية خلف قناع « الرغبة في السلام » . والسلام الذي تتحدث عنه اسرائيل لا يختلف كثيرا عن التسليم بالامر الواقع والاستسلام لشروطها ومطالبها التوسعية تحت ستار « الحدود الآمنة » واغراء تقليص « الحدود الحالية » بعض الشيء .

بينما نجد رئيس الحكومة الاسرائيلية يقف امام ٦ آلاف طالب جامعي في نيويورك ليكرر دعوته الى الشبان اليهود بالمجيء الى اسرائيل « ومساعدتها على تنمية نفسها وتعزيز امنها » ولأنه يريد ان يرى اسرائيل « مليئة من الحدود الى الحدود » . ويعلن في الوقت نفسه ضرورة الحفاظ على القوة العسكرية الاسرائيلية « كشرط حاسم لتعزيز فرص السلام في الشرق الاوسط » (٢٣) . اما المبادىء الخمسة التي عدّدها في معرض تحديده للسياسة الاسرائيلية ، زاعما ان هذه السياسة تقوم عليها ، فهي التالية :

اولاً ــ سعي اسرائيل لاحلال سلام دائم بينها وبين البلدان المجاورة لها .

ثانيا ــ ان السلام يتحقق عن طريق مفاوضات مباشرة تؤدي الى معاهدات صلح رسمية بين اسرائيل والدول المجاورة .

---

٢٢ ــ المصدر نفسه .
٢٣ ــ انظر المصدر نفسه ، ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ .

ثالثا ــ حرية المرور للسفن الاسرائيلية عبر قناة السويس ومضائق تيران هي جزء لا يتجزأ من اي اتفاق .

رابعا ــ ان ترتكز معاهدات السلام على الحدود الآمنة التي يتفق عليها بين اسرائيل والدول العربية المجاورة لها .

خامسا ــ ان اقامة السلام في الشرق الاوسط والتعاون الاقليمي الذي يعقبه ، سوف يفتحان امكانات لحل قضية اللاجئين ضمن اتفاق اقليمي ودولي » (٢٤) .

ولا حاجة بنا لاطالة الوقوف عند عروض السلام الاسرائيلي القائم على التوسع وتحقيق المكاسب بحجة الوصول الى « حدود آمنة » . كما لا يخفى ان الرغبة في السلام تبقى نابعة من اطماع معيّنة ، يتوفر تحقيقها النهائي متى تسنى لاسرائيل جر العرب الى مائدة المفاوضات المباشرة بغية ابرام معاهدات الصلح الرسمية والاتفاق على الحدود المغتصبة . ومن البادي ان الرغبة الاسرائيلية في السلام لا تعدو كونها محاولة لتكريس التوسع وترسيخ الخطوة العدوانية الاخيرة على طريق « اسرائيل الكبرى » .

وقد اورد احد المعلقين حول الشؤون الخارجية الكلام التالي غداة اعلان اشكول عن مشروع اسرائيل الكبرى ، فكتب يقول :

« لعل ليفي اشكول نسي وهو يتحدث عن «اسرائيل الكبرى» من السويس الى القنيطرة الى نهر الاردن ، انه من حق العرب ان يتحدثوا عن « فلسطين الكبرى » من السويس الى القنيطرة الى نهر الاردن ايضا .

فكلما كبرت اسرائيل لتضم بالقوة اراضي غير فلسطينية ، كلما كبرت قضية فلسطين لتصبح قضية الوطن المصري وقضية الوطن السوري وقضية الوطن الاردني ، وبالتالي قضية الوطن العربي » (٢٥) .

حقا ، ان دعوة « اسرائيل الكبرى » هي التحدّي الكبير امام الشعب

---

٢٤ ــ المصدر نفسه .

٢٥ــ انظر تعليق « من حقيبة النهار » تحت عنوان « اسرائيل الكبرى وفلسطين الكبرى » . عدد ٩٧٩٣ ، الاربعاء في ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ .

العربي كله . ولا شك ان « التحدي الكبير لا يجابه الا بالتصدي الكبير » .
ولنتــذكر قــول اللورد كيرزون في كتابــه « الحــدود » (Boundaries)
ــ وهو الذي اشرف على عدة عمليات بريطانية لتعيين الحدود وتخطيطها
وتقسيم المناطق المتنازع عليها حول العالم ــ حيث يعرب عن اقتناعه بان
« الحدود كنصل الموسى ، يتوقف عليها نشوب الحرب او استقرار
السلم ، وحياة الشعوب او فناؤها » .

ولنا في هذا القول خير عبرة .

المناطق المحتلة والمناطق « المحررة »

« اخذت صحافة اسرائيل في فورة النصر الاولى تسمي المكاسب الاقليمية بـ«المناطق التي تم الاستيلاء عليها». وسرعان ما تبدلت تلك العبارة لتصبح « المناطق المحتلة » . ثم افسحت هذه التسمية الاخيرة بدورها المجال امام عبارة اخرى : « المناطق المحررة » . وجاءت نهاية المطاف على لسان ليفي اشكول حين اطلق نداء « اسرائيل الكبرى » ، وراح يتحدث صراحة عن « الحدود الجديدة » للدولة اليهودية » .

(عن مجلة «نيوزويك» الاميركية ٢٥ كانون الاول ، ديسمبر ، ١٩٦٧)

لم ينتظر الاسرائيليون دعوة رئيس الوزراء الى « اسرائيل الكبرى » حتى يلبون النداء ويستجيبون للدعوة . فبعد يومين من معركة الايام الستة في حزيران (يونيو) كان الطلاب يتجمهرون امام مبنى الكنيست مرددين الشعار التالي : « اياكم وارجاع المناطق المحتلة » . وحين قررت الحكومة اعادة مبنى هيئة الرقابة الدولية في القدس الى مسؤولي الامم المتحدة ، تظاهر بضع مئات من الاسرائيليين معربين عن سخطهم واستنكارهم للخطوة التي اقدمت عليها حكومتهم ، وتناقلت الانباء عنهم انهم ينتمون الى « لجنة العمل في سبيل الاحتفاظ بالمناطق التي تحتلها اسرائيل » (١) . وقد زعمت مجلة «نيوزويك» الاميركية (٢٥ كانون

---

١ ـ انظر صحيفة **Süddeutsche Zeitung, Samstag - Sonntag, 15/16 Juli 1967 «Aktionskomitee für das Festhalten an den von Israel besetzten Gebieten».**

الاول ، ديسمبر ، ١٩٦٧) بان الاسرائيليين لم تكن لديهم اية مطامع توسعية حين شنوا عدوانهم في حزيران (يونيو) ، بل برزت تلك المطامع عقب الرفض العربي للجلوس على مائدة المفاوضات والاتفاق بشأن السلام. وأخذ الجشع الاسرائيلي يتصاعد يوما عن يوم ، كلما امعن العرب في اصرارهم على الرفض وعنادهم . غير ان تاريخ الصهيونية وسجل اسرائيل لا يطابقان رأي المجلة المذكورة على الاطلاق . فالاصوات التي تعالت تنادي بضم المناطق المحتلة وابتلاعها في جوف « اسرائيل الكبرى » لم تكن تنتظر الرفض العربي حتى تعرب عن نواياها . وربما جاءها الرفض المتوقع بمثابة ذريعة لاحقة لتبرير اطماعها . كما لا يفوتنا ان نتذكر الحوافز الدينية التي زادت حدّتها بعد اقدام اسرائيل على ضم القدس العربية وتجاهل قرارات الامم المتحدة ، ووجود كتلة «غاهال» في مقاعد الحكم ممثّلة بالزعيم الارهابي مناحيم بيغين والوزير بنحاس سابير .

وهكذا جاء خطاب اشكول في أواخر تشرين الاول ، اكتوبر ، (١٩٦٧) وحديثه عن مشروع « اسرائيل الكبرى » بمثابة العامل المشجع لإخراج الاطماع التوسعية الى الصعيد العلني والشعبي المنظم . ففي اول تشرين الثاني (نوفمبر) تنادى فريق من الكتّاب والزعماء السياسيين والقادة العسكريين الى عقد اجتماع تأسيسي للحركة التي اطلقوا عليها الاسم التالي : « حركة العمل في سبيل تماميّة ارض اسرائيل » . ومن بين الذين خطبوا في الاجتماع المذكور : الشاعر ناثان آلترمان والجنرال ابراهام جاتي وتسير (ايسر) هاريل ، الرئيس السابق للمخابرات . وقد اكدت صحيفة«لوموند» الفرنسية آنذاك بان الخطباء تقدموا بحجج دينية واخرى متعلقة بالامن والسلامة (٢) (de arguments religieux et de sécurité)

والواقع ان « حركة اسرائيل الكبرى » كانت قد برزت الى المسرح العلني قبل خطاب اشكول وتصريحاته . فالبيان الذي وقّعه ٥٤ من الكتّاب والشعراء والعلماء البارزين (٣) ظهر على صورة اعلان في صحيفة

---

٢ ــ انظر : **Le (Mouvement pour l'Intégrité de la Terre d'Israël)** **Monde, 2 Nov. 1967.**وراجع البيان الذي اصدرته « حركة ارض اسرائيل » ، ملحق رقم (١) .

٣ ــ انظر النص الكامل للبيان ــ الاعلان في الملحق رقم «٢» . ومن بين الذين وقّعوه : البروفسور ي. اهاروني ، الشاعر ناثان آلترمان ، الروائيان بورلا وشامير ، وحامل جائزة نوبل للآداب صموئيل عجنون (آنيون) ، وارملة الرئيس المتوفي اسحق بن زفي .

« هاآرتس » بتاريخ ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ ـ اي قبل حديث اشكول عن «اسرائيل الكبرى» بشهر واحد ، وقد جاء بمثابـــة « البشير » او « النذير » لولادة حركة جديدة قيل عنها انها رفعت شعار «كل شيء» ، بمعنى المطالبة بـ «كل شيء لنا» .

وسرعان ما تحولت « حركة اسرائيل الكبرى » (٤) هذه الى قوة هائلة ومنظمة على المسرح السياسي الإسرائيلي . فبعثت المزيد من الحماس في نفوس الطامعين بضم الاراضي المحتلة ، والتقت مع مزايـــدات الزعماء التوسعية على صعيد واحد . ثم كانت «فتوى» الحاخام الاكبر بتكفير كل من يتخلى عن شبر واحد او ذرّة واحدة من «ارضنا الموعودة» ، وتصريح وزير الشؤون الدينية في اسرائيل زراخ فارهافتيغ (Zerach Wahrhaftig) بقوله :

« ها قد عدنا الى ارضنا ، ومن الآن الى الابد » (٥) .

وبين الصيف والخريف تحوّلت اسرائيل الى جوقة توسّعية مرتفعة الاصوات . وانصرف رجال السياسة وزعماء الاحزاب الى كسب تأييد الناخبين

« مستشهدين باصحاحات التوراة وآياتها لكي « يبرهنوا » علـى مزاعم اسرائيل وادعاءاتها التاريخية في شبه جزيرة سيناء ، وقطاع غزة ومرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية للاردن » (٦) .

ثم تنادت الاحزاب العمالية الى توحيد صفوفها والإندماج في حزب واحد مما ادى الى عزل بن غوريون ، لمعارضته قرار الدمج ، والى الجمع بين اشكول (ماباي) ودايان (رافي) و آلون (احدوت هاعفودا) في حزب عمالي «جديد» . بينما اخذ عدد المؤيدين لمشروع « اسرائيل الكبرى » في الارتفاع يوما عن يوم ، واستطاع استقطاب الانصار والاصوات « من جميـــع

وقد اخذنا الاعلانين بنصهما الكامـــل عن نشرة يصدرها بعـض الاسرائيليين المعارضين لسياسة حكومتهم ودولتهـم التوسّعية ، ويقيم هؤلاء في لندن. Israel Imperial News, March 1968, No. 1.

٤ ـ « The Greater Land of Israel Movement »

٥ ـ انظر DER SPIEGEL : « Gelobtes Land, Erobertes Land », Nr. 48, 20 November 1967, S. 127.

٦ ـ انظر مجلة « نيوزويك » الاميركية ، المصدر نفسه .

الطبقات » . فهو يضم ممثلين عن جميع الاحزاب السياسية في اسرائيل ، بالاضافة الى شخصيات تنتمي الى هيئات غير دينية او مؤسسات اقتصادية . وقد بلغ نفوذ « حركة اسرائيل الكبرى » حداً جعل المشرفين عليها يتقدمون في اواخر شباط (فبراير) ١٩٦٨ بطلب الى الحكومة الاسرائيلية يدعونها فيه الى الامتناع عن الدخول في مفاوضات مع الحكومات العربية ، والاسراع بتوطين اعداد كبيرة من اليهود والاسرائيليين في الاراضي العربية المحتلة (٧) . ومن الزعماء البارزين في حركة «اسرائيل الكبرى » ، اليعازر لوين ، احد كبار رجال الاعلان في اسرائيل . وليس ادلّ على قوة المطالبين بالضم الفوري ــ مع العلم بان الاجراءات والخطوات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية في اقامة مستعمرات جديدة بالقرب من « الحدود الجديدة » ، وفي السعي المتعمد لتهجير عدد كبير من السكان العرب الى خارج الاراضي المحتلة ، قد تم اتخاذها بمعزل عن نفوذ دعاة « اسرائيل الكبرى » ــ من تراجع وزير الخارجية ، ابا ايبان ، عن موقفه الذي انتقد فيه انصار فكرة « اسرائيل الكبرى » :

« الذين يرفضون فكرة التخلي عن الاراضي المحتلة في حزيران ، حتى بعد توقيع معاهدة سلام مع الدول العربية » (٨) .

والمعروف ان ابا ايبان كان قد اعلن آنذاك بان « سياسة ضم المناطق العربية المحتلة لا تحظى بالتأييد » ، وذلك في معرض الاعراب عن « الاهتمام بوجودنا كدولة يهودية » . كما ان وزارة اشكول الحالية لا تضم شخصا واحدا يريد ارجاع المناطق العربية المحتلة كلها ، بل ينقسم اعضاؤها ــ نقلا عن مجلة « تايم » الاميركية ــ الى فريقين : فريق لا يريد ارجاع شيء على الاطلاق (وفي طليعة هؤلاء مناحيم بيغين وبنحاس سابير وغيرهما) ، وفريق يرغب في ارجاع قسم من المناطق المحتلة .

هذا وقد قامت وكالة داشاف (Dachaf) الاسرائيلية عشية الذكرى العشرين لتأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين باجراء استفتاء هدفه الاطلاع على اتجاهات الرأي داخل اسرائيل واعطاء العالم صورة احصائية عن النوايا والاطماع التوسعية تحت ستار « النسبة المئوية » و « الاكثرية

٧ ــ انظر « النهار » ، ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٦٨ .
٨ ــ راجع « النهار » ، العدد ٩٨٩١ ، الخميس في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٨ .

الساحقة » وغيرها من وسائل الدعاية الشائعة في اقسام معيّنة من العالم الغربي .

ونحن ننقل النتائج كما وردت في مجلة «تايم» الاميركية على الشكل الآتي ، دون اي تعليق :

هناك اكثرية ساحقة من ٨٧ ٪ توافق على سياسة الحكومة برفض ارجاع اي قسم من المناطق المحتلة ، ما لم يقبل العرب بعقد مفاوضات سلام مباشرة مع اسرائيل .

٧٨ ٪ ابدوا رغبتهم في ارجاع منطقة او منطقتين متى بدات المفاوضات .

٢١ ٪ يريدون الاحتفاظ بالمناطق الرملية في شبه جزيرة سيناء .

٩٥ ٪ يحبذون الاحتفاظ بالقدس .

٨٨ ٪ يؤيدون الاحتفاظ بمرتفعات الجولان السورية .

٦١ ٪ يريدون الاحتفاظ بموقع شرم الشيخ .

٤٧ ٪ يريدون الاحتفاظ بالضفة الغربية للاردن (٩) .

فبالاضافة الى التأييد الذي تتمتع به سياسة الحكومة الاسرائيلية في الاوساط الشعبية ، تأتي القرارات التي اتخذتها الاحزاب الاسرائيلية في مؤتمر « سرّي » عقدته شتاء هذا العام (شباط ، فبراير ، ١٩٦٨) لتكون بمثابة تكريس لموقف الحكومة والسياسة التي تسير عليها ، وهي قرارات تكشف النقاب عن النوايا التوسعية التي تبيتها اسرائيل وتسعى لتحقيقها حتى عن طريق المفاوضات . وقد نقلت مجلة « الحرية » (العدد ٤٠٢ ، ٤ آذار ، مارس ، ١٩٦٨) نص تلك القرارات التي تدعو للاحتفاظ بقسم من المناطق المحتلة وبسط النفوذ الاسرائيلي على القسم المتبقي . والجدير بالذكر بان تلك القرارات تضمّنت « الخطوط التي يجب ان تقود المفاوضات » وعدّدتها في ١٣ نقطة (راجع الملحق رقم «٣») .

وحين يكثر الحديث عن انشاء « المجتمع الفلسطيني » وتعيين « الدولة الحارسة » عشية الذكرى الاولى لعدوان الخامس من حزيران (يونيو) ، لا بد ان تساورنا المخاوف من خطة اسرائيلية ثانية ترمي الى تحقيق المكاسب الاقليمية والاطماع التوسعية عن طريق العمل على ترسيخ

---

٩ ــ انظر **TIME Magazine, May 3, 1968**

دعائم صيغة جديدة للتقسيم (عام ١٩٦٨) ـ بعد مرور ما ينيف على العشرين عاما من صدور قرار التقسيم الاول عن الجمعية العامة للامم المتحدة (١٩٤٧) . ولا شيء يحملنا على الاعتقاد بان اسرائيل تنوي التخلي عن اطماعها التوسعية التي تتذرع بها من وراء ستار المطالبة «بحدود آمنة ودائمة » . كما ان الواقع يؤكد لنا صدق النوايا الصهيونية لتحقيق مشروع « اسرائيل الكبرى » بشتى الوسائل ومهما تعددت الصيغ والحلول .

فالفكرة قائمة في صلب الصهيونية ، وحديث المناطق « المحررة » يذكرنا بحرب « التحرير والاستقلال » التي تزعمها اسرائيل وتدعيها ابان احتلالها لفلسطين عام ١٩٤٨ . ان « اسرائيل الكبرى » هي التحدي الكبير ، بعد مرور عشرين عاما على قيام « اسرائيل الصغرى » . ولا شك ان مصيرنا قد اصبح منوطا بالقدرة والتصميم على جعل تصدينا الكبير يقف بوجه تحدي الصهيونية الخطير . فهل نتحرك لنرتفع بانفسنا واعمالنا الى مستوى المسؤولية الكبرى ؟

ملحق رقم (١)

انشاء مستوطنات يهودية
في المناطق المحررة
ياتي في المقام الاول

استقبل الجمهور الاسرائيلي بشعور الارتياح العميق انباء المستوطنات الرائدة الاولى والتي تم انشاؤها في المناطق الجديدة من وطننا المحرر . ونعني بذلك المستوطنات التي انشأتها حركة « الكيبوتز الموحّد » Kibbutz Homeuhad في مرتفعات الجولان وفي شمالي سيناء ، وعودة المستوطنين المتدينين الى كيبوتزهم السابق « غوش عصيون » (في جبال الخليل) . غير ان هذه البدايات الصغيرة ليست الا من قبيل التشديد على الطريق الطويل الذي يتوجب علينا السير فيه . والمطلوب الان بذل مقدار اكبر من الجهود ومن القوة الدافعة ، خصوصا فيما يتعلق باعادة توطين المنطقة الواقعة الى الغرب من نهر الاردن (الضفة الغربية) والتي تبقى ، كما كانت على الدوام ، في صميم القلب من وطننا والمفتاح لضمان مستقبل اكيد وسلمي لنا ولأولادنا . ان تلال اليهودية والسامرة التي اعيدت لنا الان لم تبطل ابدا محط آمالنا واحلامنا ، حتى يوم كانت تحت الحكم الاجنبي (يعني العربي) . وما لا يمكن تصوّره هو الا تتضافر جهودنا لجعلها مزدهرة الان ، اذ اصبحت اخيرا في حوزتنا . وهناك مساحات شاسعة من الاراضي غربي الاردن تمتد جرداء وبلا حراثة ، وهي تنتظر المجهود اليهودي.

نطالب حكومة اسرائيل والمؤسسات المعنية بتطوير الاراضي ان تنشىء دون تأخير شبكة من المستوطنات الزراعية والصناعية في طول وعرض المساحات التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا ، اي في القطاعات الخالية تماما وبمحاذاة المدن والقرى القائمة حاليا .

ان اريحا العليا لا تقل عن الناصرة العليا من حيث المصلحة القومية الحيوية ! ويجب ان تقوم ضواحي سكنية في القدس الجديدة عند المنحدرات الجرداء شرقي المدينة .

وموديعيم ، مدينة الاشمونيين القديمة ، تومىء الينا لنقوم بتجديدها . كما اننا نلفت الانظار بالحاح خاص وتشديد الى الخليل، مدينة الآباء المقدسة ، حيث عاش اليهود على مر الاجيال حياة الدرس والتقوى . وما عودة مؤسسات درس التوراة الى الخليل والتي ازدهرت هناك فيما مضى الا بمثابة الواجب القومي الاسمى في هذا الظرف بالذات ، وكل ما هو مطلوب لتنفيذ ذلك يتعلق بموافقة السلطات المختصة .

ان كل تأخير وتردد في اعادة توطين ارض اسرائيل سوف يكلفنا غاليا في الإمتحانات السياسية والعسكرية التي قد تنتظرنا في المستقبل . فلا نتأخر حتى يفوت الأوان كثيرا .

ان « حركة ارض اسرائيل » التي تضم رجالا ونساء من مختلف مرافق الحياة وعلى تعدّد انتمائهم السياسي تطلب الى الحكومة اتخاذ خطوات عاجلة لانشاء مستوطنات ومشروعات في المناطق المحررة ، بان ترصد المبالغ المالية اللازمة في الميزانية القومية لهذا العام والاعوام القادمة لتحقيق هذا الغرض . ولا يوجد هناك نقص في الايدي والمؤسسات الراغبة والمستعدة للقيام بالمهمات المترتبة على ذلك .

والنداء التي وجه الى الدياسبورا (يهود العالم) كي تبعث الينا بسيل عظيم من المهاجرين يجب ان يربط بمرحلة ديناميــة من اعادة التوطين والانماء في المناطق الجديدة من بلادنا . اذ لا يمكننا بغير هذا السبيل ان نخلق التحدي امام الروح الرائدة للشباب اليهودي في كل مكان .

اننا نناشد الكنيسست ان يقر مشروعا بتمديد فترة الخدمة الوطنية ، لكي تتوفر الطاقة البشرية الضرورية للاستيطان ونناشد حركات الكيبوتز والموشاف المختلفة ، والنقابات العمالية واتحادات الصناعة والتجارة ، واصحاب المصانع وموظفي الاموال ، في اسرائيل وخارجها ، والمؤسسات العلمية والثقافية ، ان ينكبّوا فورا على هذا العمل العظيم في الانماء القومي .

الارض لنا حين نحتلها ونقوم ببنائها !

حركة ارض اسرائيل

The Land of Israel Movement

ملحق رقم (٢)

في سبيل اسرائيل كاملة

ان انتصار الجيش الاسرائيلي في حرب الايام الستة وضع الامة والدولة وسط عصر جديد حاسم :

وفلسطين كلها الان بأيدي الشعب اليهودي .

وكما انه لا يحق لنا التخلي عن الدولة ذاتها ، فلا يحق لنا التخلي عما سلمتنا اياه (دولتنا) : فلسطين . ونحن ندين بالولاء لبلادنا بكاملها ، لماضي امتنا ومستقبلها على السواء .

لا يحق لاية حكومة اسرائيلية ان تتخلى عن هذه التمامية . ان حدود دولتنا اليوم تشكل ضمانة للأمن والسلام . وكذلك هي آفاق جديدة ، غير معروفة من قبل ، تعزّز من قوة امتنا ــ المادية والروحية .

ضمن هذه الحدود سوف ينعم جميع السكان ، دون تمييز او تفرقة ، بالحرية والمساواة ــ وهما من مقوّمات اسرائيل . الهجرة والاستيطان اليهودي يؤلفان الدعامة الاقوى لمستقبلنا . والهجرة الجماعية من الدياسبورا هي شرط اساسي للاحتفاظ بفلسطين كلها والمحافظة على طابعها اليهودي . فلنجعل من واجبات هذه المرحلة ومجالاتها الجديدة وسيلة لايقاظ الشعب اليهودي وانهاض فلسطين ، واحياء كليهما من جديد .

يسعى الموقّعون ادناه في سبيل تحقيق هذه الاهداف ويأخذون بعين الاعتبار الطرق والوسائل الكفيلة بالحصول على التأييد العام لبرنامجهم الذي يرون فيه الواجب المحوري للحركة .

ملحق رقم «٣»

المقررات « السرية » للاحزاب الاسرائيلية

١ ــ الاردن . يجب ان يقوم اتفاق خاص ومنفصل للسلام بين الاردن واسرائيل . لان البلدين معنيان بارض القسم الاكبر من فلسطين . مثل هذا الاتفاق يجب ان يبنى ايضا على التعاون الاقتصادي والثقافي وعلى معاهدة عدم اعتداء . ومثل هذا الاتفاق يجب ان يتيح لنا ان نعيد للاردن « الضفة الغربية » مع التعديل الضروري للحدود بشكل يؤمن لاسرائيل سلاما وامنا دائمين .

٢ ــ اللاجئون . ان الاتفاق مع الاردن وتعديل الحدود سيسهل حل مشكلة اللاجئين فمعظمهم يجب ان يستقر في الاردن . ثم تقوم بعد ذلك جهود مشتركة بين الاردن واسرائيل للافادة من الموارد الدولية لتطوير مشاريع الري والمشاريع الصناعية ، ومن اجل الاستثمار المشترك للبحر الميت . وفي الوقت نفسه سيمنح الاردن مرفأ حرا على البحر المتوسط . ان تطورا كهذا مع الخفض من حد موازنة التسلح الاردنية سيقوي استقلال الاردن السياسي والاقتصادي عن القوى الاجنبية ، ويقوي العلاقات بينه وبين دولة اسرائيل .

٣ ــ القدس . لن يعاد اي قسم من اقسام القدس الى الاردن باي حال من الاحوال . فمدينة القدس الموحدة ستكون عاصمة اسرائيل ، مع امكانية منح الاستقلال الذاتي الديني في حفظ واستعمال الاماكن المقدسة .

٤ ــ صحراء سيناء . يجب ان يزال الى الابد التهديد المصري لحدود اسرائيل الجنوبية وذلك باعلان صحراء سيناء منطقة منزوعة السلاح .

٥ ــ قطاع غزة . ان قطاع غزة الذي لم يكن في يوم من الايام ملكا لمصر يجب ان يخضع بكافة سكانه لاسرائيل . ويجب ان تنتزع ارض خاصة لاسكان اللاجئين الذين يضمهم القطاع .

٦ ــ السويس وتيران . يجب ان تمنح اسرائيل ضمانات من كل الفرقاء المعنيين ــ بما في ذلك الامم المتحدة ــ بحرية الملاحة في قناة السويس ومضايق تيران .

٧ ــ مرتفعات الجولان . لقد شكلت مرتفعات الجولان باستمرار تهديدا لسلام وامن المنشآت الاسرائيلية في الجليل ووادي الاردن . يجب اعلان هذه المرتفعات منطقة منزوعة السلاح لضمان آمن وسلام دائمين لهذه المنشآت . ويجب ان تقام مواقع الدفاع الإسرائيلي على ذرى هذه المرتفعات .

٨ ــ الاتحادات المقبلة . ترى اسرائيل ان اتفاق السلام سيصبح دائما وسيقود اسرائيل وجيرانها قدما نحو نزع السلاح ، وتحييد المنطقة المضطربة حاليا ، وتطوير وتنمية التعاون السياسي والاقتصادي ، مع النظر الى ان تنشأ في المستقبل علاقات اتحادية بين الدول المستقلة في المنطقة .

٩ ــ فترة الانتقال . من الان وحتى يتم الوصول الى اتفاق السلام الدائم ، فستتصرف اسرائيل مع المناطق المحتلة بطريقة تؤمن الامن والقانون والنظام . وسنواصل تقوية الاقتصاد بالزراعة والصناعة والتعمير في المناطق المحتلة . وسنعمل على ان تؤمن لهذه المناطق خدمات التوظيف والخدمات الصحية والثقافية والاجتماعية، والنشاطات المحايدة للبلديات . وستعمل اسرائيل في الوقت نفسه على حل مشكلة اللاجئين وتدبير امر اسكانهم . وهكذا فان الحل الكامل لن يكون ممكنا الا بعد تحقيق السلام وبمساعدة الاموال الدولية . وتوجد الان امكانيات لاستيعاب بعض اللاجئين في المناطق المحتلة .

١٠ ــ التعاون مع سكان المناطق المحتلة . يجب على اسرائيل ان تعد برنامجا بناء لتحسين شروط المعيشة في المناطق المحتلة ، وهذا سيساعد على خلق تفاهم ودي وتعاون مع سكان المناطق المحتلة عندما يتم تبني برنامج كهذا . يجب على اسرائيل ان تعمل على محو الظلم والبغض اللذين شوها صورة اسرائيل في عيون العرب ، وعلى تقريب السلام العربي ــ الاسرائيلي .

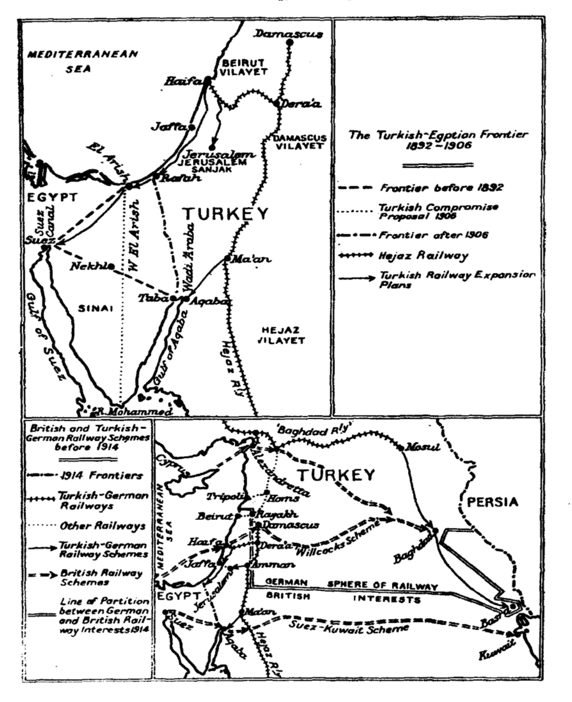
١١ ـ الحكم العسكري . يجب ان تزال كل بقـايا الحكـم العسكري ازالة كاملة ، وان تقام في اسرائيل مساواة مدنية كاملة ، في نفس الوقت الذي تعمل فيه اسرائيل لاتفاق السلام .

٢٢ ـ جمع شمل العائلات . ان عملية جمع شمل عائلات العرب « الاسرائيليين » يجب ان يسمح باستمرارها وان تشجع .

١٣ ـ الجاليات اليهودية في البلاد العربية . يجب ان تتخـذ تدابير عناية خاصة وفورية لتأمين سلام وامن افراد الجاليـات اليهودية التي ما زالت تعيش في البلاد العربية ، اما تدابير تهجيرهم السريع للانضمام الى عائلاتهم واهلهم في اسرائيل ، فيجب ان تمنح العناية ، وان تنفذ فورا .

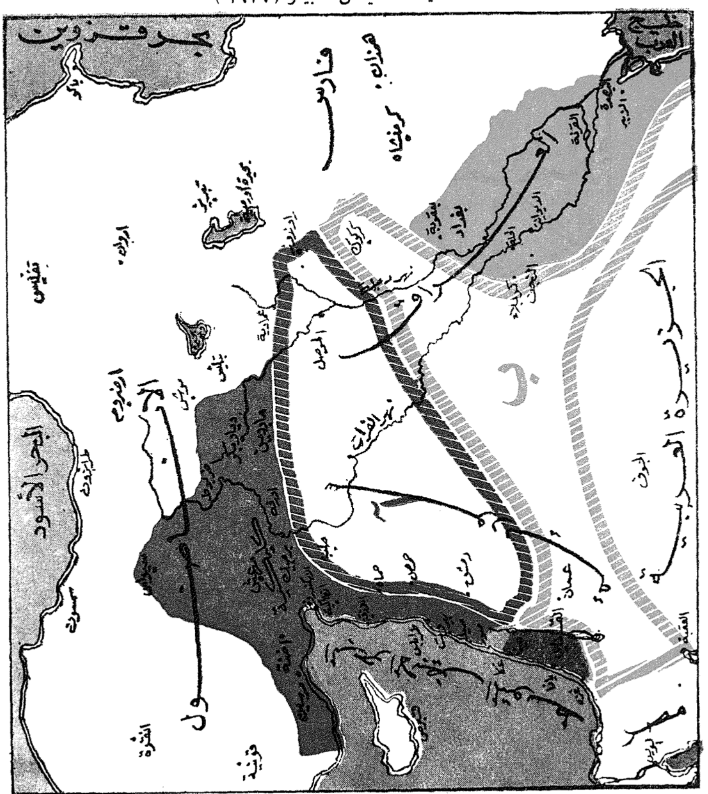
خريطة رقم (١)

الحدود التركية المصرية ـ ١٨٩٢ ـ ١٩٠٦



خريطة رقم (٢)

اتفاقية ـ سايكس ـ بيكو (١٩١٦)

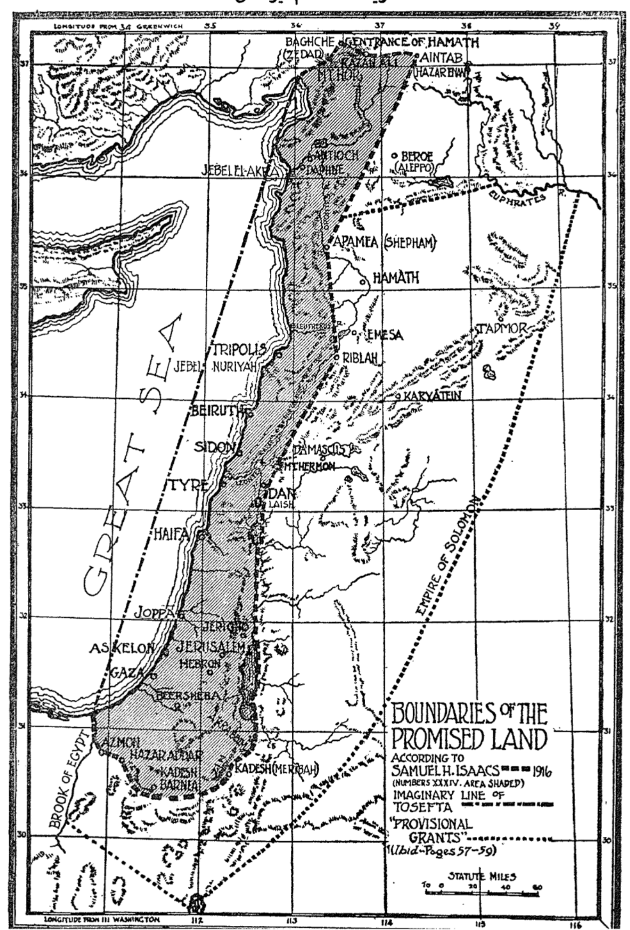


خريطة رقم (٣)

حدود فلسطين من زاوية الصهيونية الرسمية عام ١٩١٦

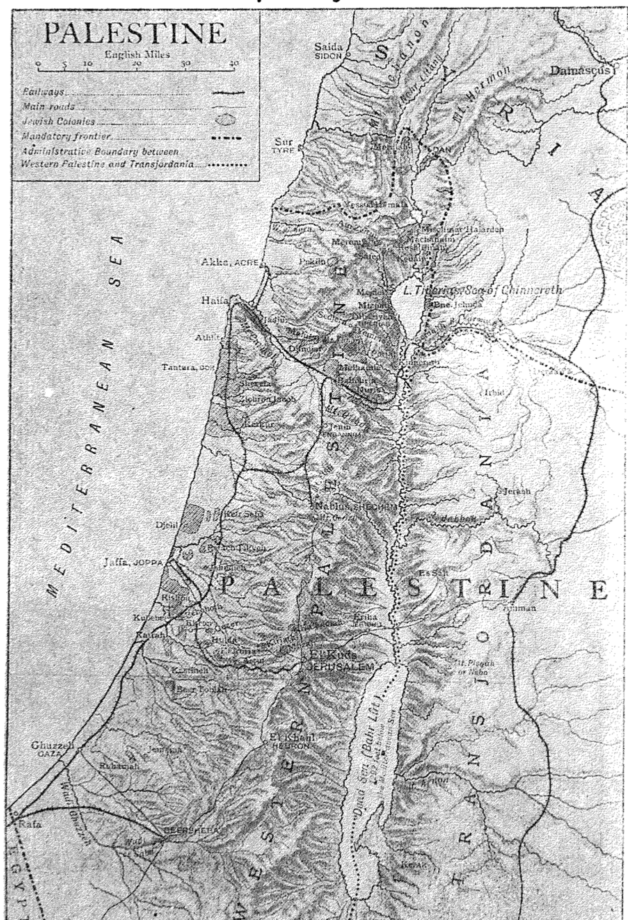
خريطة رقم (٤)

خريطة الحاخام ايزاكس



خريطة رقم (٥)

حـدود الانتـداب



خريطة رقم (٦)

فلسطين ١٩٠٥ ــ ١٩٢٣

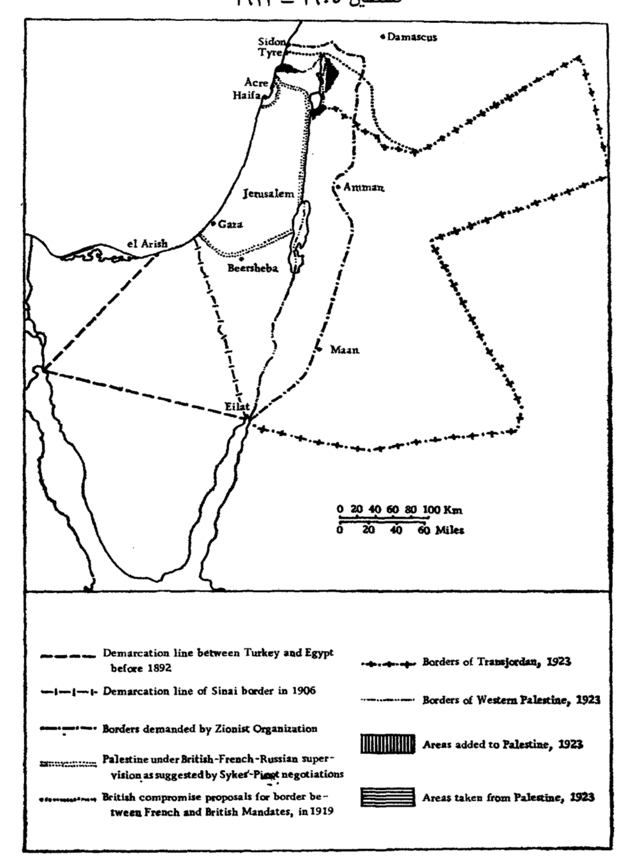


FIGURE 84. Suggested borders and actual frontiers of Palestine, 1905 - 1923.

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث

٦٠٦ شارع السادات - بيروت

اسس في شباط (فبراير) ١٩٦٥

منشورات مركز الابحاث

(١)

سلسلة « دراسات فلسطينية »

		السعر ل.ل.
١	ــ « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » ، للدكتور فايز صايغ (بالعربية والإنجليزية والفرنسية)	١
٢	ــ « الهدنة في القانون الدولي » ، للدكتور عابدين جبارة (بالانجليزية)	٢
٣	ــ « المطامع الصهيونية التوسعية » ، للاستاذ عبد الوهاب كيالي (بالعربية)	٢
٤	ــ « الكيبوتز : المزارع الجماعية في اسرائيل » ، للاستاذ عبد الوهاب كيالي (بالعربية)	٢
٥	ــ « الجذور الارهابية لحزب حيروت الاسرائيلي » ، للاستاذ بسام ابو غزالة (بالعربية)	٢
٦	ــ « المقاطعة العربية لاسرائيل » ، للاستاذ مروان اسكندر (بالانجليزية)	٢
٧	ــ « الماباي : الحزب الحاكم في اسرائيل » ، للاستاذ ابراهيم العابد (بالعربية)	٢
٨	ــ « نظرة في احزاب اسرائيل » ، للدكتور اسعد رزوق (بالعربية)	٢
٩	ــ « الهستدروت » ، للآنسة ليلى سليم القاضي (بالعربية)	٢
١٠	ــ « العنف والسلام » ، للاستاذ ابراهيم العابد (بالعربية)	٢
١١	ــ « التسلل الاسرائيلي في آسيه » ، للاستاذ اسعد عبد الرحمن (بالعربية)	٢
١٢	ــ « ميزان القوى العسكرية » ، للدكتور انيس صايغ (بالعربية)	٢

	السعر ل.ل.
١٣ ــ « الدبلوماسية الصهيونية » ، للدكتور فايز صايغ (بالعربية ويترجم حاليا الى الإنجليزية)	٢
١٤ ــ « العرب في اسرائيل ــ ج ١ » ، للاستاذ صبري جريس (بالعربية)	٢
١٥ ــ « المنظمة الصهيونية العالمية » ، للاستاذ اسعد عبد الرحمن (بالعربية)	٢
١٦ ــ « عوامل تكوين اسرائيل » ، للآنسة انجلينا الحلو (بالعربية)	٢
١٧ ــ « اخطار التقدم العلمي في اسرائيل » ، للاستاذ يوسف مروّه (بالعربية)	٢
١٨ ــ « التخطيط في اسرائيل » ، للاستاذ بسام ابو غزالة (بالعربية)	٢
١٩ ــ « اسرائيل قبيل العدوان » ، للاستاذ رفيق مطلق (بالعربية)	٢
٢٠ ــ « البترول العربي سلاح في المعركة » ، للشيخ عبد الله الطريقي (بالعربية)	٢
٢١ ــ « العرب في اسرائيل ــ ج ٢ » ، للاستاذ صبري جريس (بالعربية)	٢
٢٢ ــ « في الادب الصهيوني » للاستاذ غسان كنفاني (بالعربية وتجري ترجمته الى الفرنسية)	٢
٢٣ ــ « اسرائيل في اوروبه الغربية » ، للاستاذين عقيل هاشم وسعيد العظم (بالعربية)	٢
٢٤ ــ « المياه الاقليمية في القانون الدولي » ، للاستاذ احمد الشقيري (بالانجليزية)	٢
٢٥ ــ « التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للامم المتحدة » ، للاستاذ مصطفى عبد العزيز (بالعربية)	٢
٢٦ ــ « الموشاف : القرى التعاونية في اسرائيل » ، للاستاذ ابراهيم العابد (بالعربية)	٢
٢٧ ــ « سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات » ، للاستاذ احمد حجّاج (بالعربية)	٢
٢٨ ــ «المقاطعة العربية في القانون الدولي» ، للاستاذ جوزف مغيزل (بالعربية)	٢
٢٩ ــ « المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة » ، للاستاذ اديب قعوار (بالعربية)	٣
٣٠ ــ «الإتحاد السوفييتي وقضية فلسطين» ، للدكتور صلاح دباغ (بالعربية)	٢
٣١ ــ « اضواء على الاعلام الاسرائيلي » ، للدكتور منذر عنبتاوي (بالعربية)	٢
٣٢ ــ « اسرائيل والسياحة » ، للاستاذ الياس سعد (بالعربية)	٢
٣٣ ــ « سياسة اسرائيل الخارجية » ، للاستاذ ابراهيم العابد (بالعربية)	٢
٣٤ ــ « العدوان الاسرائيلي في الامم المتحدة » ، للدكتور جورج ديب (بالعربية)	٢
٣٥ ــ « الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية » ، للاستاذ مصطفى عبد العزيز (بالعربية)	٢

(٢)

سلسلة « كتب فلسطينية »

	السعر ل.ل.
١ ـ « الاقتصاد الاسرائيلي » ، للدكتور يوسف صايغ (بالعربية)	٥
٢ ـ « نحن والفاتيكان واسرائيل » ، للاستاذ انيس القاسم (بالعربية)	٤
٣ ـ « تحرير ـ لا مفاوضة » ، للاستاذ احمد الشقيري (بالانجليزية)	٥
٤ ـ « مؤتمرات القمة العربية والقضية الفلسطينية » ، للآنسة ليلى سليم القاضي (بالانجليزية)	٦
٥ ـ « الاعداد الثوري لمعركة التحرير » ، للاستاذ انيس القاسم (بالعربية)	٦
٦ ـ « المقاومة العربية في فلسطين » ، للاستاذ ناجي علوش (بالعربية)	٤
٧ ـ « الحرب الفدائية في فلسطين » ، للمقدم محمد الشاعر (بالعربية)	٦
٨ ـ « دراسات فلسطينية » ترجمة ١٣ دراسة وبحثا صدر معظمها عن المركز بالعربية والانجليزية (بالالمانية)	٦
٩ ـ « بلدانية فلسطين المحتلة » ، للدكتور انيس صايغ (بالعربية)	٦
١٠ ـ « يوميات هرتزل » ، اعداد الدكتور انيس صايغ وترجمة السيدة هلدا شعبان صايغ (بالعربية)	٨
١١ ـ « من الفكر الصهيوني المعاصر » ، ترجمة ٢٢ مقالا صهيونيا عن العبرية والفرنسية (بالعربية)	٨
١٢ ـ « فلسطينيات » ، لمجموعة من الباحثين باشراف الدكتور انيس صايغ (بالعربية)	٦
١٣ ـ « اسرائيل الكبرى » ، للدكتور اسعد رزوق (بالعربية)	١٠

(٣)

سلسلة « ابحاث فلسطينية »

١ ـ « حفنة من ضباب » ، للدكتور فايز صايغ (بالعربية)	٠،٥٠
٢ ـ « الصهيونية والعنصرية » للدكتور حسن صعب (بالانجليزية)	٠،٥٠
٣ ـ « فلسطين والقومية العربية » للدكتور انيس صايغ (بالعربية)	١،٠٠

السعر
ل.ل.

		السعر
٤	ـ « هل لليهود حق ديني بفلسطين ! » ، للدكتور فايز صايغ (بالانجليزية)	.،٥٠
٥	ـ « مشروع الدولة العربية المتحدة » ، للاستاذ احمد الشقيري (بالعربية)	.،٥٠
٦	ـ « نزعات متأصلة في الحركة الصهيونية » ، للدكتور منذر عنبتاوي (بالعربية)	.،٥٠
٧	ـ « ملف القضية الفلسطينية » ، اعداد الاستاذ سامي هداوي وتحرير الدكتور يوسف صايغ (بالانجليزية والعربية)	١،٠٠

(٤)

سلسلة « اليوميات الفلسطينية »

١	ـ « المجلد الاول » من ١/١ـ١٩٦٥/٦/٣٠	١٠
٢	ـ « المجلد الثاني » من ٧/١ـ١٩٦٥/١٢/٣١	١٠
٣	ـ « المجلد الثالث » من ١/١ـ١٩٦٦/٦/٣٠	١٠
٤	ـ « المجلد الرابع » من ٧/١ـ١٩٦٦/١٢/٣١	١٠
٥	ـ « المجلد الخامس » من ١/١ـ١٩٦٧/٦/٣٠	١٠
٦	ـ « المجلد السادس » من ٧/١ـ١٩٦٧/١٢/٣١	١٠

(٥)

سلسلة « حقائق وارقام »

١	ـ « هل تعلم ؟ عشرون حقيقة اساسية عن القضية الفلسطينية » ، للدكتور فايز صايغ (بالعربية والانجليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية والروسية والاسبرانتو)	.،٥٠
٢	ـ « الامم المتحدة والقضية الفلسطينية من ١٩٤٧ حتى ١٩٦٥ » ، للدكتور فايز صايغ (بالانجليزية والفرنسية والاسبانية)	.،٥٠

	السعر
	ل.ل.
٣ ــ « التمييز ضد العرب في اسرائيل في حقل التعليم » ، للدكتور فايز صايغ (بالانجليزية)	.،٥٠
٤ ــ « اسرائيل في الميدان الدولي » ، للآنسة ليلى سليم القاضي (بالعربية)	.،٥٠
٥ ــ « القضية الفلسطينية في ٣٣ مؤتمرا دوليا » ، للآنسة ليلى سليم القاضي (بالعربية)	.،٥٠
٦ ــ « المساعدات الاميركية والالمانية الغربية لاسرائيل » ، للاستاذ اسعد عبد الرحمن (بالانجليزية والعربية)	.،٥٠
٧ ــ « عرض موجز للقضية الفلسطينية » ، للاستاذ الحكم دروزه (بالعربية والانجليزية والفرنسية)	.،٥٠
٨ ــ « الصحف الاسرائيلية » ، للآنسة سلوى حبيبي (بالعربية)	.،٥٠
٩ ــ « الحياة السياسية في اسرائيل » ، للاستاذ رفيق مطلق (بالعربية)	.،٥٠
١٠ ــ «المعهد الإفرو ــ آسيوي في تل ابيب» ، للدكتور فايز صايغ (بالعربية)	.،٥٠
١١ ــ «التمثيل الدبلوماسي العربي» ، للاستاذ هاني احمد فارس (بالعربية)	.،٥٠
١٢ ــ « المؤسسات العلمية والثقافية والفنية في اسرائيل » ، للاستاذ يوسف مروّه والآنسة نورما دندن والدكتور م.ص. (بالعربية)	.،٥٠
١٣ ــ « علماء الطبيعة في اسرائيل » ، للاستاذ يوسف مروّه (بالعربية)	.،٥٠
١٤ ــ « مواجهة النشاط الصهيوني على الصعيد الطلابي » ، للاستاذ شريف الحسيني (بالعربية)	١،٠٠

(٦)

سلسلة « خرائط فلسطينية »

خارطة فلسطين الجدارية ١٤٠×١٠٠ سم ، وضع الاستاذ سعيد الصباغ	٦

مطبعة الغريّب
بيروت ـ تلفون : ٢٤٦١٨٥

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث
٦٠٦ شارع السادات - بيروت

اسس في شباط (فبراير) ١٩٦٥

تصدر عنه

(١) سلسلة ((**اليوميات الفلسطينية**))

(٢) سلسلة ((**حقائق وارقام**))

(٣) سلسلة ((**ابحاث فلسطينية**))

(٤) سلسلة ((**دراسات فلسطينية**))

(٥) سلسلة ((**كتب فلسطينية**))

(٦) **خرائط فلسطينية**

(٧) سلسلة ((**نشرات خاصة**))

الثمن ١٠ ليرات لبنانية او ما يعادلها